June — December 1945

يونيو — دسمبر سنة ١٩٤٥

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد السابع بعد المائة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

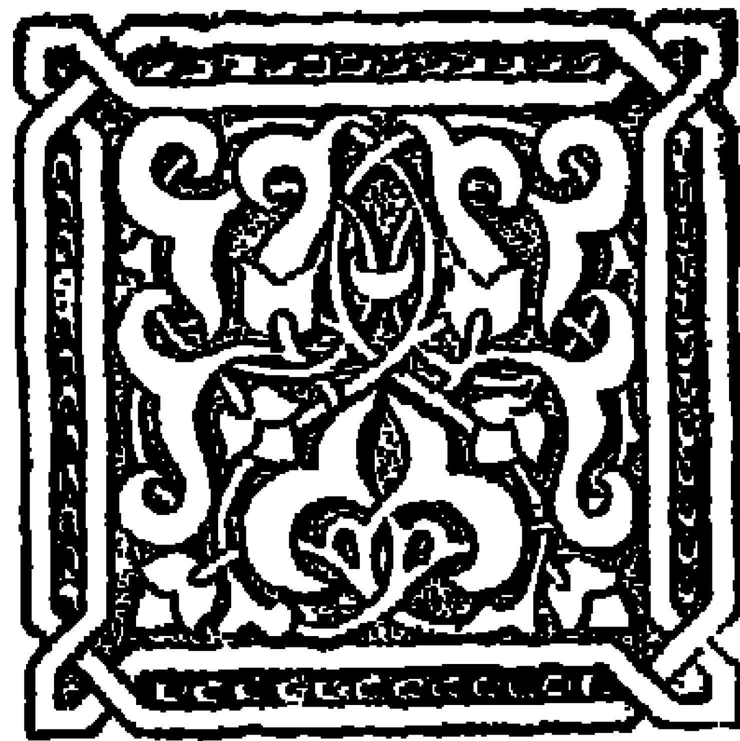
Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 107

Founded 1876 By Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد السابع بعد المئة

من المقتطف



المقتطف

الجزء الاول من المجلد السابع بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٥ — ٢٠ جماد ثاني سنة ١٣٦٤

مجلس الاقتصاد والاجتماع

في الهيئة العالمية الجديدة

بين السلام والرخاء صلة وثيقة . ولكنها ليست صلة مطّردة . فإنْ لم يضمن الأمن ، وتطمئنّ الشعوب إلى سلامتها ، ظلّ الانتعاش الاقتصادي وهماً من الأوهام ، أو ظلّ على الأقل قائماً على أساس مضطرب . وإنْ لم يتمّ الانتعاش الاقتصادي ، تأصلت في أحضان الفاقة ، تلك القوى الاجتماعية الهدّامة التي تنخر في جذور الحياة الدولية وتمهّد للحرب . فالضائقة الاقتصادية ، وعدم الاطمئنان إلى أسباب العيش ، هي خير تربةٍ تنبت فيها الأحوال التي تهدُّ من أركان الحياة الدولية الطيبة ، وتذهب بقوتها ، فيرتفع الطغاة إلى الذروة ، ويقيمون طبقة على طبقة ، وأمة على أمة . ولكنّ الرخاء لا يلازم بطبيعة الحال إقرار السلام وضمان الأمن ، فكلّ مشروع غرضهُ تنظيم السلام ، يجب أن ينطوي على مشروعات تتيح للرخاء أن يزدهر ، لكي تظفر كلّ أمّة ، بما يضمن لرجالها ونسائها ، عيشاً فوقَ مستوى الكفاف ، وعملاً مستمراً ، وفرصاً وافية للراحة والمتعة ، وتربية الأولاد . وقد يضيق نظر أمة من الأمم ، فتعتقد أنها قادرة على تحقيق هذه الأغراض ، وحدها ، وبغير تعاون وتبادل . ولكنّ جميع عبر التاريخ الحديث تقوم حجة ناهضة ، على أن هذا مستحيل . فليس بين الأمم أمة ما — حتى ولا الاميركية أو الروسية — تملك في أراضيها جميع الموارد اللازمة لتبلغ في إنتاجها أقصاهُ ، فلا بدّ لها من أن تستورد ، وإذا استوردت فلا بدّ لها من أن تصدر ، وإذن فلا بدّ لها من أسواق . وحين تقوم صلة أمةٍ ما بالأمم الأخرى على أساس الاستيراد والإصدار ، صار رخاء كلّ أمةٍ جزءاً من الرخاء العام أي إن الرخاء

لا يتجزأ . وقد جرّبت طائفة من الدول ، طريقة « الاكتفاء » — على تفاوت بينها ، وهي طريقة الاستغناء عن العالم بقدر المستطاع ، فلا تستورد الدولة إلاّ ما تعجز عن الفوز به في أرضها ، سواء من موارد طبيعية كان ذلك ، أم من موارد صناعية وضع العلم أركانها . والغرض البادي هو رفع مستوى عيش الشعب ، بإغنائه عن العالم . ولكن النتيجة هي خفض مستوى المعيشة لأن جميع هذه الأعواض تقتضي من النفقة أكثر مما تقتضيه مثيلاتها المستخرجة من مواردها الطبيعية ولو نقلت من أقاصي الأرض . وسياسة الاكتفاء تقتضي قيوداً كثيرة ، من رخص الاستيراد والإصدار وتحديد مبالغ المال التي تنفق هنا أو هناك وهذه لا يمكن أن تفرض فرضاً دقيقاً ، إلاّ إذا كان الحكم دكتاتوريّا . والحكم الدكتاتوري يقتضي الاستبداد والتحكم وكم الأفواه وقدع العقول واستثارة الغرائز والأهواء ، والتأهب للحرب فانحطاط مستوى المعيشة يجاريه انحطاط مستوى الحياة المعنوية كذلك .

ومن هنا ما نُصّ عليه في مشروع الهيئة العالمية الجديدة من إنشاء مجلس الاقتصاد والاجتماع ، على أن يضمّ تحت جناحيه هيئات اقتصادية واجتماعية شتى بعضها أنشىء وبعض في دور الانشاء مثل هيئة العمل الدولية ، وصندوق النقد الدولي ، وبنك التعمير والتحسين ، ومكتب الأمم المتحدة للطعام والزراعة ، وهيئة النقل الجوي وغيرها .

***

أما هيئة العمل الدولية ، فتكاد تكون الهيئة الوحيدة بين الهيئات الدولية الكثيرة التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، التي استطاعت أن تقاوي تقلّب الدهر بين يسر وعسر ، وسلام مستقرّ أو مضطرب ، وحرب مستعرة ، وحققت بعض ما عقد عليها من رجاء . وقد كان همّها الأول أن تضمن لكل رجل قادر على العمل ، حقّ العمل ، وأحوالاً صحية يعمل فيها ، وجزاء عادلاً عن عمله ، وضماناً له ولأسرته إن تعطّل عن العمل أو عجز عنه لتقدم السن به أو إصابته بعاهة أو مرض . ثم كان همّها الثاني أن تنشىء الصلات الاقتصادية والصناعية بين الأمم وأن توثقها ، حتى تكون ركناً من الأركان التي يقوم عليها صرح السلام . فالصلة بين السلام والعدل الاجتماعي ، كالصلة بين السلام والرخاء صلة وثيقة .

وقد أنشئت هيئة العمل الدولية في سنة ١٩١٩ على انها جزء من التسوية العامة التي تمت في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية . والنصوص الخاصة بها تقع في القسم الثالث عشر من معاهدة فرساي فمطلع هذا القسم من المعاهدة ينص على ان الدول المتعاقدة قد أسست هذه الهيئة مدفوعة بشعور العدل والانسانية والرغبة في الحصول على سلام العالم الدائم

ثم يقول إن أحوال العمل والعمال القائمة تنطوي على جور وحرمان لطوائف كبيرة من الناس من شأنها أن تجعل السلام والانساق العالميين محفوفين بالخطر وتحتم العمل على تحسين هذه الأحوال.

ولذلك انشئت هيئة العمل الدولية على انها علاج لهذه الحالة.

وقد ورد في المادة ٤٣٧ من معاهدة فرساي بعض القواعد التي يجب ان تجري عليها هذه الهيئة في تحقيق القصد منها. وأولاها أن العمل يجب ألاّ يحسب سلعة أو مادة من سلع التجارة وموادها». ثم هناك قواعد أخرى وضعت للمحافظة على حسن العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال منها دفع الأجور الوافية وتحديد ساعات العمل والغاء عمل الأطفال وجعل الأجور للنساء والرجال واحدة اذا كان العمل واحداً وحماية حقوق العمال الأجانب وغيرها.

تتألف هيئة العمل الدولية بوجه عام من الدول المنتظمة في عصبة الأمم أي ان الانتظام في العصبة يعني الانتظام فيها. ولكن العكس لا يصح. أي ان الانتظام في هيئة العمل الدولي لا يعني ولا يقتضي الانتظام في العصبة. فألمانيا كانت عضواً في هيئة العمل الدولي قبل أن تنتظم في العصبة سنة ١٩٢٥، والبرازيل كانت لا تزال عضواً فيها قبل الحرب مع انها انسحبت من العصبة. وقد انتظمت الولايات المتحدة عضواً فيها سنة ١٩٣٤، مع أنها لم تنتظم في العصبة.

الاّ أن بين العصبة وهيئة العمل فرقاً. فالعصبة مجلس تشترك فيه الحكومات فقط. وأما الهيئة فتشترك فيها الحكومات وجماعات العمال وأصحاب الأعمال. وكل دولة مشتركة فيها يحق لها ان تبعث اليها بأربعة مندوبين منهم مندوبان يمثلان الحكومة والمندوبان الآخران تعينهما الحكومة بالاتفاق مع الجماعات الصناعية إذا كانت قائمة فيمثل أحدهما العمال والآخر أصحاب العمل.

وهي ثلاثة أقسام: القسم (الاول) يعرف باسم المؤتمر العام وهو مؤلف من جميع ممثلي الدول المنتظمة فيه على أساس أربعة ممثلين لكل دولة. والقسم (الثاني) مجلس الادارة وقد كان عدد أعضائه أربعة وعشرين عضواً ١٢ عضواً منهم يمثلون الحكومات، وستة أعضاء يمثلون جماعات العمال، والستة الآخرون يمثلون جماعات أصحاب العمل. والقسم (الثالث) مكتب العمل الدولي.

وقد وصفت هيئة العمل الدولية خطأ بأنها انشئت لسن قوانين دولية للعمال والعمل. ولكنها في الواقع لا تملك سلطة تشريعية لأن الدول تحتفظ بسيادتها الخاصة في شؤون

العمل احتفاظها بها في الشؤون السياسية ، ولم تتخلَّ عنها لأي مجلس دولي ، وليس لمؤتمر العمل الدولي الآن أن يقترح فله أن يتخذ قرارات وأن يدعو الى الأخذ بها ، وله أن يضع مشروعات قوانين وعلى الحكومات المنتظمة في المكتب ان تعرض هذه المشروعات على مجالسها التشريعية في حدود معينة من الزمن . ولكن الواجب على الحكومات المختلفة لا يتعدى هذا الفرض . وللسلطات التشريعية في أي دولة أن ترفض المشروع أو أن تقره أو أن لا تتخذ أي قرار حياله . بل لأي حكومة أن تشير على المجالس التشريعية برفض أي مشروع ولو كان مندوبها قد وافق عليه في مكتب العمل نفسه . وقد حدث ما هو من هذا القبيل مراراً .

وقد أقرت هيئة العمل الدولية عشرات من مشروعات القوانين بلغت سبعة وستين عند نشوب الحرب عدا المقترحات والتوصيات التي اقترحتها أو أوصت بها . وقد عرضت هذه جميعاً على المجالس النيابية في الدول المنتظمة في الهيئة وفقاً لقانونها ولكن يصح القول بأن الدول تلكأت أولاً في ابرامها بوجه عام . ومع ذلك فلم تكد تهل سنة ١٩٤١ حتى كان عدد ما صدق عليه من مشروعات القوانين في شتى دول الأعضاء ٨٧٩ تصديقاً ، وبعض الموضوعات التي شملتها هذه المشروعات — تنظيم وتحديد ساعات العمل ، تحديد أدنى أجور للعمل ، وساعات الراحة كل أسبوع ، الاجازات السنوية ، العمل ليلاً للنساء والاطفال ، عمر الاطفال في الصناعة ، والتأمين الاجتماعي ، وغيرها .

وقد كانت الدول الفاشستية ناقمة على هيئة العمل الدولية ، فانسحبت منها المانيا النازية فايطاليا الفاشستية فاليابان . وحين ضاق خناق المانيا وايطاليا على سويسرا — مقرّ العصبة والهيئة — نقلت هيئة العمل مقرّها من قارة أوربا الى كندا . ولم تلبث في مقرها الجديد ، حتى أخذت تحذر طوائف العمال في القارتين الامريكيتين ، خطر الدعاية النازية ، وحين عقدت دول الجامعة الامريكية مؤتمرها في هافانا في جزيرة كوبا ، في مستهلّ الحرب ، نبهت هيئة العمل الدولية ، ممثلي الجمهوريات الامريكية ، إلى أن « حماة الدمقراطية يجب أن يتسلحوا ويستيقظوا » واعترف أعضاء المؤتمر بقيمة هذا التنبيه فقطعوا عهداً « بتأييد الحكومات والشعوب في القارة الاميركية تأييداً لا يضعف ، لكي تواصل هيئة العمل الدولية مساعيها دون أن يلمّ بها وَهَن »

***

وقد حرصت هذه الهيئة خلال الحرب ، على أن تسهر على صون ما أدركه العمال من التقدم الاجتماعي وتوسيع نطاقه . وليس ثمة دولة مهما تكن صغيرة لا تظفر من الهيئة باهتمامها ، ولا دولة مهما تكن كبيرة وقوية ، تستطيع أن تهمل طويلاً المسائل التي تدنى بها

الهيئة. فالحياة التي ستنبثق من أتون الحرب ، مرتبطة أوثق ارتباط بالمنشآت العالمية التي ينتظر قيامها ، وبشدة ما توليها إياه جماهير الناس من ثقة وتأييد وولاء .

ورجال هذه الهيئة يشعرون شعوراً صادقاً بعظم التبعة الواقعة على كواهلهم ، وتعقيد المشكلات التي ما فتئت الهيئة تعالجها منذ ربع قرن أو يزيد ، وقد أضيفت اليها مشكلات أخرى ، تتصل بأحوال العمل والعمال في البلاد التي اكتوت بنار الحرب في أوربا ، وملايين العمال الذين رُحلوا من بلادهم إلى المانيا ، إما بالقوة وإما بالاغراء ، وإحياء الجماعات التي كان للعمال وأصحاب العمل ممثلون فيها ، وانشاء المكاتب التي توجه العامل الى العمل الذي يطلبهُ أو يطيقهُ ، والحثّ على بسط نظام الضمان الاجتماعي للعمال وما أشبه .

وقد عقدت هيئة العمل الدولية في ابريل ومايو من سنة ١٩٤٤ مؤتمرها السادس والعشرين في فلادلفيا ، فأسفر هذا المؤتمر عن وثيقة اجتماعية خطيرة أطلق عليها اسم « دستور فلادلفيا » وهي تقرر ان العمل حق وليس سلعةً ، وان الفاقة في أي مكان خطر يهدّد الرخاء في كلّ مكان ، وأن الحرب على الفاقة يجب أن تشنّ في كل أمة ، وأن توحد المساعي الدولية لتعزيز الخير العام ، وأن جميع الناس بصرف النظر عن السلالة والعقيدة والجنس ، يحق لهم أن يطلبوا العيش الرضيّ والنموّ الروحي في أحوال توفر لهم الحرية والكرامة والامن والمساواة ، وأن تحقيق هذا الغرض يجب أن يكون الهدف الاول لكل سياسة قومية ودولية ، وأن جميع السياسات القومية والدولية ، وجميع الاجراءات ولا سيما الاقتصادي والمالي منها ، يجب أن تقاس قيمتهُ بمقياس ما يسديهِ من خدمة إلى تحقيق هذا الهدف ، وأن على هيئة العمل الدولية ، أن تستوفي بحث هذه السياسات ، على ضوء ما يرجى منها لتحقيق هذه الأغراض وأن تنشر قراراتها وتوصياتها وتضمّ اليها ما تراهُ موافقاً .

والقسم الأخير من دستور فلادلفيا ينطوي على قرارات خاصة بأحوال العمل والتدريب والمساومة المشتركة والضمان الاجتماعي والتأمين على الحياة والصحة ورعاية الحوامل والأمهات والأطفال ، وتوفير الغذاء والأوى وأسباب التسلية والتثقف والتربية .

وحين استقبل الرئيس روزفلت في وشنطن أعضاء المؤتمر بعد ارفضاضه خاطبهم فقال : لقد أيّدتم ولاءكم لمبادئ هي أركان في صرح السلام ... ولخصتم في تصريحكم آمال عصرٍ اكتوى بنار حربين عالميتين . وإنني لأعتقد أن الأجيال المقبلة ستعدّ « دستور فلادلفيا » علماً بارزاً في تفكير البشر ، ويسرني أن اغتنم هذه الفرصة ، لأوافق على مواده المفصلة باسم الولايات المتحدة . وأرجو أن لايطول الزمن قبل أن توافق على مبادئه المفصّلة جميع الأمم المتحدة » .

وستكون هيئة العمل الدولية ، إحدى الهيئات التي تضمّها الهيئة العالميـة الجديدة ، تحت جناحيها ، وتتولى رعايتها العامة الجمعية العمومية . وتاريخ هيئة العمل الدولية وما لها من مآثر في خدمة قضايا العمال يعزّز الرجاء بأنها ستساهم منذ اليوم في توفير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي تؤاتي السلام . وخدمة التعمير الاقتصادي والاجتماعي بعد الحرب .

***

وفي شهر يوليو من سنة ١٩٤٤ اجتمع في بلدة بريتون ودز في ولاية نيوهامشير بالولايات المتحدة مؤتمر مالي حضره ممثلو أربع وأربعين دولة . وقد وضع هذا المؤتمر مقترحات لمعالجة الناحية المالية من مشكلات العالم الاقتصادية بعد الحرب ، وكان في طليعة هذه المقترحات «صندوق دولي للنقد» مهمته إقرار ضروب النقد بعد الحرب ، وصلتها بعضها ببعض لتيسير التبادل بين الأمم على أساس من نقدٍ غير مضطرب ، ويليه « البنك الدولي للتعمير والتحسين » وإحدى مهامه ضمان القروض الخاصة التي تعقد بالأساليب المألوفة . فأوربا — مثلاً — قد خرجت من محنة الحرب العالمية الثانية وقد تصدعت أركان حياتها الاقتصادية فليس في التاريخ ذكر حرب خلفت وراءها من الدمار ما خلفته هذه الحرب . فأسباب المواصلات ممزقة ، ولقد تجد الفحم فلا تستطيع أن تنقله إلى المصانع . وقد ترى منتجات المصانع ومقادير الطعام مكدسة فلا تستطيع ان توصل مقادير وافية منهـا إلى المستهلكين . والمصانع نفسها أنقاض ، وكذلك محطات توليد الطاقة المحركة والمضيئة ، والجسور ومنشآت المرافىء . وقد تركت الحرب جزءاً كبيراً من الأراضي الزراعية كالقفر اليباب ، والناس أنهكتهم الحرب وأجاعتهم وأمرضتهم ، فتعمير أوربا أمر لا مفر منه منعاً للفوضى أن تعصف بشعوبها ، وإقامة لركن أصيل من أركان الاقتصاد الدولي إنتاجاً واستهلاكاً .

وليس هذا التعمير بالأمر السهل ، إذ يجب أن يخضع لقاعدتين متلازمتين ، على مجلس الاقتصاد والاجتماع ومجلس الدول الظافرة ، أن يوفقا بينهما . ففي الناحية الواحدة ، يجب أن يكون التعمير ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي والحربي الذي غرضه أن يحول دون قيام قوة ألمانيا الحربية مرة أخرى ، وفي الناحية الأخرى يجب أن يكون أساساً لانتعـاش الحياة الاقتصادية انتعاشاً يتيح لشعوب اوربا أن ترفع مستوى معيشتها رفعاً مطرداً ويضمن لها رخاء العيش ورضى النفس .

وعلى « البنك الدولي للتعمير والتحسين » في هذا العمل من ناحيته المالية تبعة عظيمة . ولنفرض أن هيئة أهلية في إحدى الدول المتوسطة — يوجسلافيا — أرادت أن تنشىء مشروعاً كبيراً لتوليد الطاقة الكهربائية من مياه أحد أنهارها . وهي لا تملك المال اللازم

لذلك ولا المعدات الضخمة. فلو لم يكن ثمة بنك دولي مهمته أن يعاون على هذا التعمير، لذهب ممثلو يوجوسلافيا إلى سوق المال في لندن ونيويورك ليحاولوا عقد قرض مع بنك كبير أو مع كتلة من البنوك في إحداهما أو فيهما كلتيهما. ولكن هذا البنك أو هذه الكتلة من البنوك، لا سيطرة لها على شؤون يوجسلافيا الداخلية. إن هي إلاّ منشآت مالية خاصة، ومهمة مديريها أن يضمنوا لمساهميها ما لهم وأقصى ربح ممكن، فتفرض على يوجوسلافيا شروطاً مرهقة أو مستحيل التسليم بها، فيما يتعلق بالفائدة واستهلاك القرض وضمانه. وقد يعقد القرض وقد لا يعقد. فان لم يعقد حرمت يوجسلافيا انشاء مشروع عمراني مفيد يزيد قدرتها على الانتاج ويرفع على الزمن مستوى معيشة أهلها. وإنّ عُقد فربّما عجزت يوجسلافيا عن النهوض بالتزاماتها، فيخسر أصحاب المال، كلّ مالهم أو بعضهُ.

ثم لنفرض أن السعي لعقد هذا القرض تمّ وهذا البنك الدولي حقيقة قائمة. فماذا يحدث. يذهب ممثلو الدولة التي تريد عقد القرض، إلى لجنة القروض في البنك، وتطلب المال من البنك، فتسألهم اللجنة ثلاثة أسئلة. أولاً — هل المال لمنشآت منتجة، ثانياً — أيقصد به لاغراض حربية أو هل يمكن أن يستعمل لاغراضٍ حربية، وثالثاً — هل تضمن الحكومة اليوجسلافية هذا القرض، فاذا كان الجواب عن السؤالين الأول والثالث بالايجاب، وعن الثاني بالنفي، قرّر البنك أن يعقد القرض، أو على الأرجح أن يضمنه للبنوك التي تعقدهُ، فتكون شروطهُ أقلّ إرهاقاً، ويأخذ البنك لقاء عمله هذا أجراً قيمتهُ واحد في المئة في السنة.

فإذا طبّقت عمل البنك الدولي على عشرات من هذه المشروعات العمرانية في أوربا، علمت مبلغ نصيبه في عمل التعمير الاقتصادي والاجتماعي.

وقد قال مورجنتاو وزير مالية الولايات المتحدة، في وصف النتائج التي أسفرعنها مؤتمر بريتون ودز: لقد وضعنا نظاماً يتيح للناس في كل مكان ان يتبادلوا السلع تبادلاً حرّاً. على أساس من الانصاف والاستمرار... وخطونا الخطوة الأولى التي تمكّن أمم العالم من أن يساعد بعضها بعضاً في التقدم الاقتصادي تقدماً ينفعها ويزيد ثروتها جميعاً» ولم تكن الوفود التي حضرت المؤتمر مفوّضة فالمشروع مطروح لإقرارهِ، وبرغم ما وجه إليه من نقد، يلوح أن إقرارهُ مضمون

فؤاد صروف

قواعد النظام المالي

— ١ —

الخراج

الخراج لغة ، حصيلة الضريبة المفروضة على قطعة أرض أو عبد . واصطلاحاً هو الضريبة المفروضة على الأرض ، على المشهور . ويمتد هذا التعريف حتى يشمل الجزية كذلك بحسب رأي البعض . وهو من أموال الفيء ، ويفرض ابتداءً على الذميين . مثله كمثل الجزية ، ولكنه لا يسقط بالاسلام في حين انها تسقط به ، وهذا ما يميزه عن الجزية

وأكثر مؤرخي العرب يستعملون كلمة « خراج » وهم يعنون الايرادات ، على ان هذه الكلمة بالمعنى الحقيقي لها ، تدل على ما يجبى من الأرض المزروعة . وهذا يعزى الى ما للخراج من خطر وشأن في المالية العامة الاسلامية ، اذ يكوّن الجزء الأعظم من ايرادات الدولة ، بل كانت جميع الايرادات الأخرى لا تعد بجانبه شيئاً مذكوراً ، فلا بدع ان يسمي هؤلاء الكتّاب مجموع الجباية خراجاً ، باطلاق مدلول الجزء على الكل .

١ — منشأ الخراج

الأرض التي يستولي عليها المسلمون تنقسم من وجهة طريقة الاستيلاء عليها قسمين ، أرض الصلح ، وأرض العنوة . فأما أرض الصلح فهي التي طلب أصحابها الأمان والدخول في ذمة المسلمين مقابل مقدار من الأموال يتفق عليه الطرفان ، وعلى هذا تضم بلادهم الى دار الاسلام ويعدون رعايا الدولة الاسلامية ، ويجب احترام ما صولحوا عليه ولا يجوز للامام قطعاً الخروج على شروط الصلح ، اذ يعد هذا نكثاً بالعهد الاسلامي .

وأما أرض العنوة فهي البلاد التي استولى عليها المسلمون غلبةً وقهراً ، وقد صار في شأن هذه الأرض جدل عنيف ونقاش طويل ، وانقسم المسلمون فيها فريقين .

الفريق الأول — يقول بتطبيق قاعدة الغنائم عليها ، أي تُخمّس ، فيعطى الخمس

للدولة لينفق في مصارفه،وتفرق أربعة الأخماس الباقية على من حضروا القتال ، اذ لا معنى البتة للتفرقة بين ما يستولى عليه المسلمون من المنقول في السلاح والنقود ، وبين العقار كالأرض . ويرى الفريق الآخر ان الأرض يجب أن تظل في أيدي أصحابها يستثمرونها ويفرض عليها الامام ، مقابل هذا ، مقداراً يؤدونه على حسب ما يراه،وبذلك تكون فيئاً للمسلمين جميعاً على كرّ السنين وتعاقب الدهور .

وسنبسط رأي كل فريق متخذين مثلين بارزين : العراق ومصر .

ا — فتح العراق : لما فتح المسلمون العراق (السواد) استشار عمر بن الخطاب الصحابة فيما يجب عمله بشأنه فرأوا أن يقسموه ، وكان بلال بن رباح أشدهم في ذلك ، ومن قوله لعمر « اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر » ، وقال آخرون بان هذا حق من حقوقهم تجب قسمته بينهم، فكان عمر يجيب : « فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ما هذا برأي » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض الا مما أفاء الله عليهم . فقال عمر : « ما هو الا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، إذا قسمت الأرض العراق والشام فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ، فأكثروا على عمر وقالوا « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا » . فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي ، قالوا فاستشر . فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا وانقسموا فريقين ، فريقاً يرى رأيه وآخر يخالفه . فأرسل الى عشرة من الأنصار من كرامهم وأشرافهم فلما اجتمعوا قال : « انني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم فقسمت ما غنم من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه . قد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بدّ لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام الشام والجزيرة والكوفة والبصرة لا بدّ لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون فقالوا « الرأي رأيك » فنعم ما قلت.وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم . « فقال » قد بان لي الأمر فمن لي برجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون . فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف،فولاه عمر بساحة أرض العراق فأدت جباية سواد الكوفة

قبل أن يموت عمر بعام مائة الف الف درهم،والدرهم يومئذٍ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم وزن المثقال (١)

***

هذا مجمل ما ذكره ابو يوسف عن هذا الحادث الخطير في الاسلام آثرت ايراده على علاته لأضع صورة واضحة للقارئ الكريم من التيارين اللذين كانا يتجاذبان هذا الموضوع والنقاش الذي دار بشأنه والذي انتهى بفوز رأي عمر، أي بوقف الارض على الصالح العام. والواقع ان عمر كان يكره تملك المسلمين للارض ويخشى إذا تملك العرب الاراضي واشتغلوا بالزراعة استكانوا للدعة واستطابوا رغد المدنية فيهملون فرض الجهاد . فحرّم عليهم اقتناء الضياع والزراعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد وأموال ، كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال .

ومهما يكن من أمر فقد كان رأي عمر هذا خيراً للعرب عامة وأهالي البلاد المفتوحة بصفة خاصة ولا سيما إذا لوحظ أنه إذا قسمت الارض بين الفاتحين لم يستطع هؤلاء استغلالها بمثل المقدرة التي كان أصحابها الاولون يبذلونها ، لجهل العرب بأصول زراعتها وعمارتها . وفي هذا يقول أبو يوسف « وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقوَ الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم إذا خلت من المقاتلة . . . الخ »

ب — فتح مصر : لما تمّ فتح العرب لمصر اختلف في شأنها ، عنوةً كان فتحها ، أم صلحاً ذا عهد وشرط . وقد ثار الجدل الذي قام عقب فتح العراق بشأن تقسيم البلاد بين الفاتحين كما مرّ بنا ، إذ طلب فريق الفاتحين وعلى رأسهم الزبير بن العوام قسمة البلاد فأبى عمرو بن العاص ذلك وكتب الى عمر في هذا الشأن فردّ عليه بقوله « حتى يغزو منها حَبَل الحبلة »(٢) على ان مصر عوملت كما عوملت العراق فتركت الارض في أيدي أصحابها يستغلونها ويدفعون عنها مقداراً معلوماً كان في أول أمره دينارين . وبذلك أصبح الأمر قاعدة عامة اتخذها العرب في كل بلد فتحوه . وتتبين أهمية اعتبار البلد فتحت عنوةً أو صلحاً عند البحث في تقدير الخراج .

---

(١) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضي « الخراج » صفحة ١٤ — ١٦

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر صفحة ٨٤ — ٨٨

٣ — تقدير الخراج

الارض التي صولح عليها أهلها ، يؤدون عنهـا ما تعهدوا بأدائه ولا يجوز للامام أن يستأدى أكثر منه في جميع الاحوال ، سواء زادت غلاتهم أو قلت ، ساد الرخاء أو امحلت البلاد . أما الارض التي فتحت عنوةً فاتبع العرب نحوها احدى طريقتين . خراج الوظيفة أو خراج المقاسمة .

وخراج المقاسمة عبارة عن جباية مقـدار نسبي من محصول الأرض كالنصف أو الثلث أو الربع أو الخمس . أما خراج الوظيفة فمقداره ثابت يفرض على الأرض ، وهذا المقدار كمية من المحصول أو النقد ، أو محصول مساحات معينة من أرض أو عدد معلوم من الأشجار . ويفرض الخراج على الأرض بصرف النظر عن كون المالك قاصراً أو بالغاً ، حرًّا أو عبـداً ، رجلاً أو امرأة ، مسلماً أو ذميّـا. ويتفرّع على ذلك إنه إذا أسلم مالك ذمي أو باع أرضـه لمسلم فلا يتغير وضع الأرض ، أي يجبي منها الخراج [1] — وسنفرق في كلامنا على سـعر الضريبة بين القواعد الشرعية وبين ما أتبع فعلاً .

١— القواعد الشرعية : نسب الأداء تجبي من جميع الأراضي الصالحة للزراعة والسهلة الري على الوجه الآتي : ـ (المذهب الحنفي) صاع من الشعير أو التمر ودرهم عن كل جريب من الشعير أو القمح (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربعة) . ويرى الشافعي أربعة من القمح وعن جريب الشعير درهمان . وتؤدى النسبة عن جريب الرطبة خمسة دراهم ، ولـكن الشافعي يراها ستة وعن كل جريب من الأشجار الملتفة المتشابكة وكروم العنب والنخيل عشرة. ولكن الشافعي يراها ثمانية ويرى الماوردي (المذهب المالكي) عن الأشجار عشرة وعن النخيل ثمانية دراهم وعن قصب السكر ستة دراهم .

ويشترط في فرض الضريبة على الأشجار أن تكون كثيفة الانبات متشابكة إلى درجة يتعذر معها زرع المسافات التي تتخللهـا . أما إذا كانت متباعدة وقائمة في حقول فتعفى من الضريبة ، إذ تؤدي في هذه الحالة ضريبة الأرض المزروعة [2] .

وقد حدّد فقهاء المذهب الحنفي النسبة القصوى لضريبـة الخراج بما يسمونه « غاية الطاقة » بالنصف من المحصول كله ، ويتفرّع على هذا ألا يجوز فرض ضريبة تتعدى هـذه النسبة المقررة ، وينتج عن هـذا المبدأ أيضاً إمكان انقاص الخراج إلى الحد الذي تطبقه

(١) يرى الامام مالك وجوب رفع الخراج في هذه الحالة أسوة بالجزية

(٢) الفتح جزء ٥ صفحة ٢٨٢

الأرض . ولا يجيز فقهاء هـذا المذهب زيادة النسب التي قررها عمر حتى لو كانت الأرض تحتمل نسبة أعلى . وقد ورد في الدر (ص ٣٦٥) انه لا يجوز بحال من الأحوال أن يتعدى الخراج الخمس حدًّا أدنى والنصف حدًّا أعلى.

وإذاً فرضت الضريبـة للمرة الأولى تحت الحـكم الاسلامي . فأبو حنيفة وأبو يوسف يريان أنه لا يزال من غير الجائز شرعاً وضع حـدود تجاوز ما استنه عمر. ويدللان على ذلك بأنه خاطب عامليه على السواد (العراق) عثمان وحذيفة بقوله « إنه يخشى أن يكون قد حمل الأرض ما لا تطيق فأجاباه بانهما حملاها ما تطيق وانهما لو شاءا لحملاها اكثر وتطيقه . فهذه العبارة تبين أنه يجوز انقاص النسبة اذا كانت الأرض لا تحتملها ، ولـكن من جهة أخرى لا تجوز زيادتها حتى لو استطاعت تحمل النسبة الجديدة . إذ أن عمر على الرغم من علمه بأن الأرض يمكنها تحمل نسبة أعلى ، رفض زيادة النسبة القائمة .

ويطالعنا رأي يباين الآراء السالفة وهو رأي احمد بن الحسن الذي يقول بجواز فرض النسبة العالية ما دامت قد وضعت على أساس طاقة الأرض واحتمالها [١]

واذا كان المحصول لم يرد فيـه نص شرعي فان المـاوردي يرى جواز تأدية النسـبة المفروضة على المحصول الأقرب إليه في المظهر وأوجه الانتفاع

ب — ما أتبع فعلاً في فرض الخراج

أمر عمر بمسح أرض السواد فبلغت ستة وثلاثين الف جريب فوضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً [٢] وعلى الـكرم عشرة دراهم وعلى الرطبة خمسة دراهم وعلى النخل ثمانية دراهم وعلى قصب السكر ستة دراهم وعلى الشعير درهمين .

وقد تحسنت الأحوال الاقتصادية في العراق في عهد العباسيين إذ جعلوه مركز دولتهم فلما تولى المنصور رأى ان استبقاء الخراج عليه بالمساحة لا يلائم حالة السكان فجعل خراج الحنطة والشعير (وهما أكثر غلات العراق مقاسمة) وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر على قاعدة المساحة ، فاذا زادت الغلة زاد الخراج واذا نقصت نقص .

٢ — خراج المقاسمة : سنأخذ مثلين بارزين هما العراق ومصر .

فأما العراق فقد مرَّ بنا ما فعله المنصور . وقد استمر الحال على هذا الى أيام المهدي (١٥٦ـ١٦٩هـ) الذي جعل المقاسمة بالنصف في الأرض التي تسقى بالأمطار وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب وبالثلث في الأرض التي تسقى بالدوالي ، وبقي خراج النخل والـكرم

---

(١) الهداية صفحة ٢٨

(٢) الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربعة والقفيز عشر الجريب اي ٣٦٠ ذراعاً مربعة . ويعبرون عن القفيز وزناً بثمانية أرطال ويقدرون قيمته بثلاثة دراهم (انظر الماوردي في الاحكام السلطانية صفحة ١٣٧)

والشجر على المساحة كما كانت أيام المنصور، وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الأسواق والعرض [١] وقد زاد المهدي هذا الخراج فيما بعد الى أن أصبح ٦٠ ٪ من غلة الأرض . وفي عهد الرشيد أرجع الخراج الى ما كان عليه أيام المهدي . ولما تولى المأمون جعل الخراج ٤٠ ٪ من المحصول وخفض كذلك خراج بعض البلاد الأخرى .

أما في مصر فقد ذكر ابن عبد الحكم [٢] انه كان يجتمع عرفاء كل قرية (أهل الرأي فيها) اذا ما دعت الدواعي لانقاص الخراج أو لزيادته فيتناظرون في العمار والخراب . فاذا انتهى نقاشهم وجدلهم بوجوب الزيادة مثلاً اجتمعوا هم ورؤساء القرى الأخرى ووزعوا الزيادة على جميع القرى كل على حسب طاقتها واحتمالها وتبعاً لسعة مزارعها ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد أيام الضيافة للمسلمين ونزول السلطان . فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم — فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها ، ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم كلٌ على قدر طاقته، فان عجز أحد وشكا ضعفاً عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم . ويستنتج مما رواه ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص فرض على كل فدان مزروع حبًّا نصف أردب قمح وويبتين من الشعير ومجموع ذلك خمس ويبات من الحبوب عن كل فدان مساحته ٥٩٢٩ متراً مربعاً أي سبع كيلات عن كل فدان مساحته ٤٢٠٠ متر مربع . أما الأرض المزروعة برسيماً فلم يفرض عليها خراج .

٣ — العوامل التي تحدد الضريبة [٣]

إن على واضع الخراج على مساحة ما من الأرض أن يأخذ في اعتباره طاقة الأرض على تحمل الضريبة . وهذه الطاقة تتغير بتغير عوامل ثلاث : فأول هذه العوامل يتعلق بالأرض نفسها أي نوعها . فهو يؤثر في نوع المحصول وكميته . والعامل الثاني نوع المحصول الذي يؤثر في ثمنه ودرجة الاقبال عليه . والثالث يتعلق بطريقة الري . فالمحصول الذي يرويه ماء يحمل على ظهور الحيوان أو بواسطة آلة رافعة لا يستوي من حيث الجهد المبذول في ريه مع

(١) البلاذري « فتوح البلدان » صفحة ٢٩١ ووارد أيضاً في الماوردي « الاحكام السلطانية »
(٢) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » صفحة ١٥٢ — ١٥٣
(٣) الاحكام السلطانية للماوردي صفحة ١٣٣ — ١٣٥ ، وانظر كذلك الاحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي الفراء الحنبلي صفحة ١٥١—١٥٢

المحصول الذي يروى بماء الانهار الجارية أو الأمطار . ويقوم الري على أربع طرائق :

١ — الري بدون الاستعانة بأداة ما ويكون ذلك بواسطة الماء الجاري الصادر من الينابيع أو الأنهار بتحويله عن مجراه الى الحقل . وهذه الوسيلة هي أكثر الوسائل ربحاً وأجزلها عائدة ، كما انها أقلها كلفة ، لأن الماء يحول الى الارض اذا احتيج اليه ويحول عنها اذا ما بطلت الحاجة اليه .

٢ — الري باستخدام واسطة كأن يحمل على ظهور الحيوان أو يحصل عليه بواسطة رافعة . وتلك الوسيلة هي أشق الوسائل وأكثرها كلفة .

٣ — الري الطبيعي بواسطة الامطار أو البرد أو الطل .

٤ — الري بواسطة رطوبة التربة أو الماء الكامن في جوف التربة ، في هذه الحالة تروى المحاصيل بواسطة جذورها .

ويعتبر الري بواسطة القنوات من القسم الاول اذا كان الماء المستخدم جارياً ، ومن القسم الثاني اذا لم يكن كذلك . والري بواسطة الماء المستخرج من الآبار يقع في القسم الثاني اذا كان يجلب على ظهور الحيوان وفي القسم الأول اذا وصل الارض بواسطة القنوات

نخلص من ذلك الى القول بأن على واضع الخراج مراعاة العوامل الثلاثة سالفة الذكر أي طبيعة الارض ونوع المحصول وطريقة الري . وبذلك تتحقق وتصان مصلحة فريقي المكلفين بالاداء والمنتفعين منه . وقد ذكر بعضهم عاملاً رابعاً يتعلق ببعد الارض عن المدن والاسواق . ودللوا على ذلك بأن ثمن الارض يطرد ارتفاعاً وهبوطاً مع قربها أو بعدها عن مراكز التعويض بيد أن آخرين يردون على هذا الرأي بأن هذه الحالة تنطبق فقط اذا ما كان الخراج يؤدى نقداً ، ولا يكون كذلك اذا ما كان يؤدى عيناً في حين أن العوامل الثلاثة سالفة الذكر لها أثرها في كلتا الحالتين .

واذا ما فرض الخراج على أساس المبادىء سالفة الذكر فانه يقرر تبعاً لاجزل الطرائق عائدة ـ يفرض على مساحة الارض اجمالاً . وأما على الجزء المزروع من الارض فحسب واما أخيراً على المحصول . وتتخذ السنة القمرية لحساب الخراج اذا فرض على الارض برمتها . واذا فرض على الجزء المزروع اتخذت السنة الشمسية في الحساب ، أما اذا فرض على المحصول فلا يستحق إلاّ منذ نضجه وتهيئته للاستهلاك . وإذا ما اتبعت طريقة من طرائق فرض الخراج سالفة الذكر فلا يجوز تغييرها والأخذ بطريقة أخرى ولكن تستمر دواماً بلا تبديل طالما لم يتغير وضع الأرض . أما اذا تغير وضع الأرض فيفرق بين حالتين .

الأولى — حالة ما اذا كان التغير الحادث راجعاً الى فعل صادر عن صاحب الأرض ترتبت

عليه زيادة الطاقة الانتاجية للأرض . كماء يحول اليها من نهر أو حفر بئر . والعكس إذا ما ترتب على هذا الفعل هبوط طاقتها الانتاجية كإهمال زرعها أو استخدام وسائل قاصرة في ذلك . وفي الحالة الاولى لا يزاد الخراج بزيادة الطاقة الانتاجية ، وفي الحالة الثانية يلزم صاحب الأرض بالعناية بزراعتها لئلا تصبح بوراً .

الثانية — إذا حدث التغير نتيجة لعمل خارج عن ارادة صاحب الأرض بسبب حادث طبيعي طارئ سواء نجمت عنه فائدة للأرض أو ضرر لها فيفرق بين حالتين : —

١ — اذا أحدث التغير ضرراً كانخساف الأرض أو جفاف ماء النهر فان كان الاصلاح ممكناً فعلى الامام القيام به بالاستعانة بالدخل المخصص للأعمال ذات النفع العام ويرفع الخراج عن صاحب الأرض طوال الوقت الذي تظل خلاله عطلاً من الزرع . أما إذا لم يكن الاصلاح ممكناً بأن تصبح الأرض غير صالحة للزرع فيرفع الخراج عنها نهائيًّا ، اللهمَّ إلاَّ إذا أمكن الانتفاع بها في أغراض أخرى كالصيد أو الرعي وفي هذه الحالة يؤدى الخراج عليها كما يؤدى على الأرض المماثلة لها .

٢ — وإذا حدث من الجهة الأخرى أن أفاد التغير الأرض بأن تبع النهر مجرى جديداً فأصبحت الأرض تروى بالماء الجاري بعد ان كانت تروى ريًّا صناعيًّا ، فللامام الخيار في زيادة مقدار الضريبة أو ابقائها على ما هي عليه حسبما يتفق والصالح العام . ويشترط في ذلك أن يتحقق للتغير صفة الدوام والثبات أما إذا كان التغير وقتيًّا فالضريبة تبقى على ما كانت عليه.

وإذا ما تعذر زرع الأرض سنويًّا بأن لزم تركها بدون زراعة لاراحتها السنة التالية لزراعتها ، فيجب تطبيق أكثر الطرائق الآتية اتفاقاً مع الصالح العام . إما يفرض على الأرض نصف السعر الشائع وإما تعتبر وحدتا المساحة (جريبان) وحدة واحدة (جريباً واحداً) وبذلك يتفادى تقاضي شيء على الجزء غير المزروع . أو أخيراً يفرض السعر على الجزء المزروع فحسب. وإذا أقدم أحد المكلفين بدون اذن من الامام على استبدال نوع ما من المحصول يؤدى عليه سعر عال بآخر يؤدى عليه سعر أقل فانه يجبر على الاستمرار في أداء السعر الأعلى لانه مسؤول عن هبوط السعر .

وإذا ما زرع شخص في حقله كروماً أو أشجاراً مشابهة لها ، فانه يستمر على أداء خراج المحاصيل إلى أن تحمل الأشجار ثماراً وعندئذ يؤدى على الجريب منها عشر دراهم ، وإذا ما بلغت قيمة المحصول عشرين درهماً أو أكثر أو أقل من ذلك ، يؤدى نصف هذه القيمة بشرط أن لا تقل عما يعادل قفيزاً من الحنطة ودرهماً ، إذ أن هذا هو الحد الأدنى الذي يؤدى عليه جريب من الأرض القابلة للزراعة . « يتبع » فؤاد محمد شبل

أفتونا ....

نشرنا في العدد السابق من المقتطف كلمة عن كتاب « الزمان الوجودي » تأليف الاستاذ عبد الرحمن بدوي ، ووعدنا القراء بنقل عبارات من هذا الكتاب نتقدم بها لحضرات الاساتذة المبجلين أعضاء هيئة الامتحان الذي انتهى باعطاء صاحب هذه الرسالة درجة في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول ، لعلهم يستطيعون أن يفسروا لنا بعض مغمضاتها ، فنستنير بها في نقد هذا الكتاب .

وقبل أن نمضي في نقل هذه العبارات أود أن أشير الى أن حضرة المؤلف الفاضل لم يذكر المصطلحات الاعجمية المقابلة للمصطلحات العربية التي استعملها في الكتاب ، حتى يكون الناقد على بينة بما بين يديه من مصطلحات بلغ ببعضها الغموض مبلغاً عظيماً . ولقد شذ المؤلف عن هذه القاعدة في كلمتي intuition و instinct فدل بهذا الشذوذ غير المقصود على انه لم يدرك شيئاً من سر الاصطلاح الفلسفي ، فاذا قسنا بقية مصطلحات الكتاب على ما شذ فيه فذكر أصله الاعجمي ، وضح لنا ان نقد الكتاب من المستحيلات وان فهمه أعقد من ذنب الضب .

ففي ص ٩٢ : « عيان يناظر : intuition » . وفي ص ١٨١ : « هي ما يسميه باسم intuition أو الغريزة — من شأن الـ intuition أو الغريزة . . . فكأن ترجمة كلمة intuition مرة بلفظة « عيان » ومرة بلفظة « غريزة » ، . . . والغريزة instinct لا شك فيها ولا ريب ، وكلمة « عيان » بعيدة عن intuition بعد الثريا عن سهيل .

فاذا كان المؤلف قد جرى في كتابه على هذا التخليط في استعمال المصطلحات فعلى الزمان وعلى الوجود السلام . اما اذا تفضل فزودنا بالاصول الاعجمية التي تقابل مصطلحاته ننظر فيهما من وجوه ما تحتمل من المعنى الفلسفي والمعنى اللغوي ، فانه بذلك يخدم الادب ويخدم نفسه أكبر خدمة .

والى الاساتذة أعضاء هيئة الامتحان نتقدم بالعبارات الآتية وقد غمضت علينا كما غمض كثير غيرها ، لعلهم يزودوننا بما يفتح مغاليقها ، ولا شك في أن لهم فيها رأياً ، وقد منحوا كاتبها درجة في الفلسفة .

ص ١٣٥ : لاوجود إلا بالزمان . والزمان سر التناهي . فكل وجود لفناء . ولكن الفناء تحقق الامكان . وكل تحقق بالفعل . والفعل هو الخلق . فالتناهي اذن خلاق .

ص ١٣٦ : ان الشعور بالوجود لايكون قوياً عن طريق الفكر المجرد . لان الفكر المجرد انتزاع النفس من تيار الوجود الحي ، وانعزال في مملكة أخرى تذهب منها الحياة المتوترة الحادة ، ولا يسودها عمل وحركة ، بل صيغ خارجية عن الوجود لا تمس بدمه . انما يبلغ الشعور بالوجود أعلى درجة في حالة العقل الباطن الذي أنشب أظفاره في الحياة المضطربة ، أي في حالة النزوع المشبوب العاطفة ، فهي حالة تنسب اذن الى الارادة والعاطفة ، أولى من انتسابها الى العقل والفكر . ولذا يجب أن ننشدها في مقولات العاطفة والارادة ، نضعها مكان مقولات العقل التي لم يعن الفلاسفة بغيرها حتى الآن .

ص ١٨٢ : أفكار لتكوين ظاهريات خالصة وفلسفة ظاهرياتية ؟؟؟ .

ص ١٨٤ : ومنطق الوجدان منطق التوتر . ولذا نرفض مبدأ عدم التناقض الذي يقوم عليه المنطق العقلي ، بالنسبة الى الوجود الذاتي ، لأن هذا المنطق العقلي لا ينطبق إلا على الوجود الفزيائي . ذلك أن العقل في بحثه الفزيائي يميل دائماً الى نشدان الهوية في كل ما يتناوله .

ص ١٨٥ : أما المنطق الذي نقول به فلا يقول برفعه مطلقاً ، بل بالعكس : يحتفظ للتقابل بكل حدته وتوتره ، ولذا فضلنا تسميته « منطق التوتر » . وتبعاً لهذا فان المقولة الثالثة من كل ثالوث مقولات ، الى وحدة التوتر ، هي المعيار الاصلي والمبدأ الرئيسي الذي يقوم عليه هذا المنطق الجديد .

افتونا يأولي الألباب !!! ..

وعلّم آدم الأسماء !

قرأت بمزيد الاهتمام ما كتبه الدكتور أحمد زكي بك في عددي يناير وفبراير الماضيين[1] عن اللغات التي تصلح والتي لا تصلح لتكون لغة التفاهم بين الشعوب . ولقد انتهى في بحثه الى الأخذ بأن اللغة الانكليزية هي اللغة الصالحة لذلك . ولكنه اعترض في نفس الوقت على أن هجاء هذه اللغة — أي الانكليزية — عسير . وأنا أقول إن هجاءها عسير جدًّا ويكاد يكون عقبة كأداء في سبيل قبولها لغة عالمية للتفاهم . وأزيد على ما قاله الدكتور زكي بك ان النطق بها من أصعب الأمور ، فان لم تعاشر الانكليز ، صعب عليك اكتساب لهجتهم الصحيحة . وقد يختلف في بعض الأحيان أبناء هذه اللغة أنفسهم على نطق كلمات منها ، بل يكاد يكون من المستحيل اصلاح هجائها ، فقد عجز الأميركان عن ذلك ، ولم يغيروا إلاّ في هجاء بعض كلمات لا أهمية لها ، فأبدلوا centre بـ center و through بـ thru ولكن ما السبيل الى اقناع أي مبتدىء في تعلم اللغة الانكليزية ان thought تنطق « ثـُوطْ » وان enough تنطق « إنَـفْ » ؟؟؟

أذكر اني وُجدت مع بعض الانكليز بمسرح في لندن حيث كان يمثل أحد الانكليز بلهجة أجنبية لقيامه بدور أجنبي . فما أشد ما دهشت عندما طلب مني أحد أصدقائي الانكليز أن أفسر له كلمات هذا الممثل الذي كان ينطق لغته بلهجة أجنبية ! فلغة صعبة النطق كهذه لا تصلح قطعاً ان تكون لغة تفاهم وإن حكم أبناؤها البحار !

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فاني أوافق الدكتور زكي بك في اعتراضه على معظم اللغات التي ذكرها . فاللغة الفرنسية مثلاً ، التي تعد منذ قرنين تقريباً اللغة الرسمية بين الحكومات والملوك ، لن تكون لغة تفاهم إلاّ بين بعض الطبقات الخاصة من الأمم ، فهي بلا شك أصعب اللغات نحواً ، وأقل تبديل في موضع حرف يغير معنى الكلمة ، بل الجملة بأكملها ، هذا رغماً عما نعرفه في هذه اللغة من الدقة التناهية في التعبير عن المعاني ، مما جعلها اللغة الوحيدة الصالحة للمعاهدات التي تكتب بحيث لا تقبل الالتباس . أما اللغات الأخرى

(١) من مجلة الهلال الشهرية.

كالروسية والألمانية ومجموعة اللغات الهندية والصينيـة ، فقد أظهر الدكتور زكي بك الأسباب التي تحول دون قبول احداها لغة عالمية

المطلوب اذاً لغة تستوفي الشروط الآتية :

(١) سهولة النحو (٢) النطق (٣) الهجاء (٤) الكتابة (٥) قابلية التطور

إني أرى ان اللغة التي تستوفي هذه الشروط هي اللغة التركية .

فأولاً : من جهـة النحو : تجد أن اللغة التركية قواعد من أسـهل ما يكون ، فلا استثناءات قطعيًّا ولا مذكر ولا مؤنث ولا جماد . فبعد أن تقرأ عشرة الأبواب أو الأثني عشر باباً من قواعد هذه اللغة ، لا يمكن أن تخطىء أو تنسى ما قرأت ، فلا تغيير ولا تبديل في الكلمة ان كانت فاعلاً أو مفعولاً . أما الفعل فكوّن من مادة أصلية يزاد اليها أحرف اذا أردت ماضياً أو مضارعاً : مفرداً كان أو جمعاً . ففعل أخَـذ يتكون من المادة الأصلية : آل بمعنى خُـذْ فني الماضي المفرد المخاطب يزاد عليها «دم» فتقول :« آلـدِمْ» اي أخذتُ وللمضارع آليرمْ:«آخـذ» وإذا قلت :« آلْـدِيرْدمْ » وأضفْـت الأحرف« دير » للكلمة كان المعنى : أخَـذْتُ أي جعلته يأخذ . فتجد أمامك دائماً المادة الأصلية باقية في ابتداء الكلمة يزاد اليها أحرف لتصريف الأفعال .

ثانياً : الآن واللغة التركية تكـتب بالحروف اللاتينية لا يمكن بأي حال من الأحوال ارتكاب اخطاء في النطق . خذ مثلاً كلمة « كورك » فان كتابتها بالأحرف العربية على هذا النمط ونطقها المتعدد كان موضع التباس مستديم، فحسب قراءتها في الجملة ، تكون بمعنى فرو أو مجداف أو مِمْسَوَل . أما الآن فقد تكونت منها ثلاث كلمات مختلفة النطق تماماً . فاذا نطقت Kürk فالمعنى فرو و Körek مِمْسَوَل و gevrek مجداف وامتنع بذلك الخلط في المعنى واللفظ والنطق

زد إلى ذلك أن كتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية قد قرَّبها لأكثر اللغات الأوربية ، فضلاً عما كان بها من تقارب بينها وبين اللغات الشرقية . ففيها الآن ال ö الموجودة في كلمة hören الألمانيـة وال ü كما تنطق في كلمة dur الفرنسية وال ç كما في كلمة much الانكليزية أو Nichevo الروسية كما لم تزل العين والقاف والخاء العربية لها أحرف لاتينية تقابلها، أليست هذه من المؤهلات الجوهرية لجعل هذه اللغة متداولة بين الأمم ؟

ثالثاً : الهجاء في اللغة التركية بعد كتابتها بالأحرف اللاتينية أسـهل هجاء من أية لغة على وجه البسيطة ، فكل حرف يُنطق، ولا وجود لحروف ساكنة كما في اللغة الفرنسية أو الانكليزية حتى انها فاقت اللغات الألمانية والايطالية في سهولة هجائها فبينما كلمة Station

تُنطق «ستاسيون» في الفرنسية و«ستيشن» في الانكليزية ، وجب علينا أن نعرف ان هذه الكلمة مشتقة من كلمة Statio اللاتينية ، وعليه نكتبها بهذه الطريقة ، لعلمنا أن التاء موجودة في الأصل . اما في التركية فانك تكتب الآن كما تنطق وتنطق كما هو مكتوب أمامك ، فكتبت هذه الكلمة هكذا Stasion وإذا أردت بعد ذلك التبحُّر في أصول اللغة ، فلك التعمق ما شئت للوصول إلى أصلها وفصلها .

رابعاً : ظهر من التجارب أن الحروف اللاتينية هي أسهل حروف للكتابة . فان الألفاظ المصوَّرة في اللغة الصينية تحتاج إلى وقتٍ ومهارة في الرسم . والأحرف العربية زخرفية ومختزلة وغير واضحة ، واليونانية متعبة للنظر ، والألمانية يتعذر قراءتها الاَّ بمجهود ، حتى أن الألمان والروس واليابان واليونان قرروا منذ أمد غير بعيد الأخذ بالأحرف اللاتينية توفيراً للجهد والوقت .

خامساً : اللغة التركية الحديثة ، غير اللغة التركية القديمة ، فانها مجموعة متناسقة من الكلمات التركية القديمة زيد إليها بعض كلمات فارسية ، ثم أدخلت عليها كلمات عربية مع الدين الاسلامي . ونظراً لما للشعب التركي من علاقة الجوار بأوربا ، فقد اقتبس كلمات يونانية قديمة وحديثة ، وأخذ ألفاظاً عن الصقالبة والجرمان والفرنجة أي ان هذه اللغة جمعت بين الأصل المغولي واللغات السامية والآرية والسلافية . فبعد كتابتها بالأحرف اللاتينية ، وثبت إلى الأمام وثبة هائلة . فعند ما كان الأتراك يكتبون بالحروف العربية ، كانوا يترجمون الاصطلاحات العلمية الحديثة إلى العربية الفصحى ، ثم يدمجونها في لغتهم . اما الآن فقد أدخلت الاصطلاحات العلمية والطبية والهندسية والكيميائية ، كما هي في جميع لغات العالم المتمدين . واذا وقع نظرك على كتاب في الكيمياء باللغة الاسبانية مثلاً ، ثم على كتاب في الكيمياء باللغة الانكليزية ، ثم على ثالث في نفس المادة باللغة التركية ، وجدت درجة التشابه الشديد بين هذه الكتب . لقد صارت اذاً هذه اللغة قابلة للتطور ولا شيء يمنع العلماء في تركيا الآن من أخذ أي اصطلاح حديث على علاته أو إدخاله في اللغة كما يفعل الفرنسيون اذا ما اكتشف عالم روسي ميكروباً جديداً وأعطاه اسماً مشتقاً من اليونانية القديمة ، أو كما يفعل كيميائي من البرتغال اذا ما سمى كيميائي دانماركي مادة مكتشفة حديثاً باسم روعيت فيه الصفة العالمية .

هنا يحتمل ان يعترض أنصار الاسبرانتو أو اللغات التي تشابهها قائلين : لماذا نختار لغة دون أخرى من اللغات الموجودة في العالم ولا نخلق لغة عالمية ؟ وجوابي على هذا أنه ما الداعي للبحث عن لغة جديدة لن يتم صقلها إلاَّ بعد مئات السنين ، وأمامنا لغة قد برهنت على سهولتها من جميع الوجوه ؟ !

حمى الحمام

نشرت صحيفة جمعية الاطباء الاميركية مقالا عن حمى الحمام Ornithosis وأيدت ان المشاهدة قد دلت على ان مرض حمى الحمام في الانسان ، وهو مشابه لمرض الببغاء Psittacosis ، يصيب الانسان بنسبة أكبر مما يقدر الاطباء ، وأن أكثر الحالات التي تشخص بأنها التهاب رئوي فيروسي هي في الحقيقة حمى الحمام ، وان البنسيلين ناجع في علاج هذه الحمى .

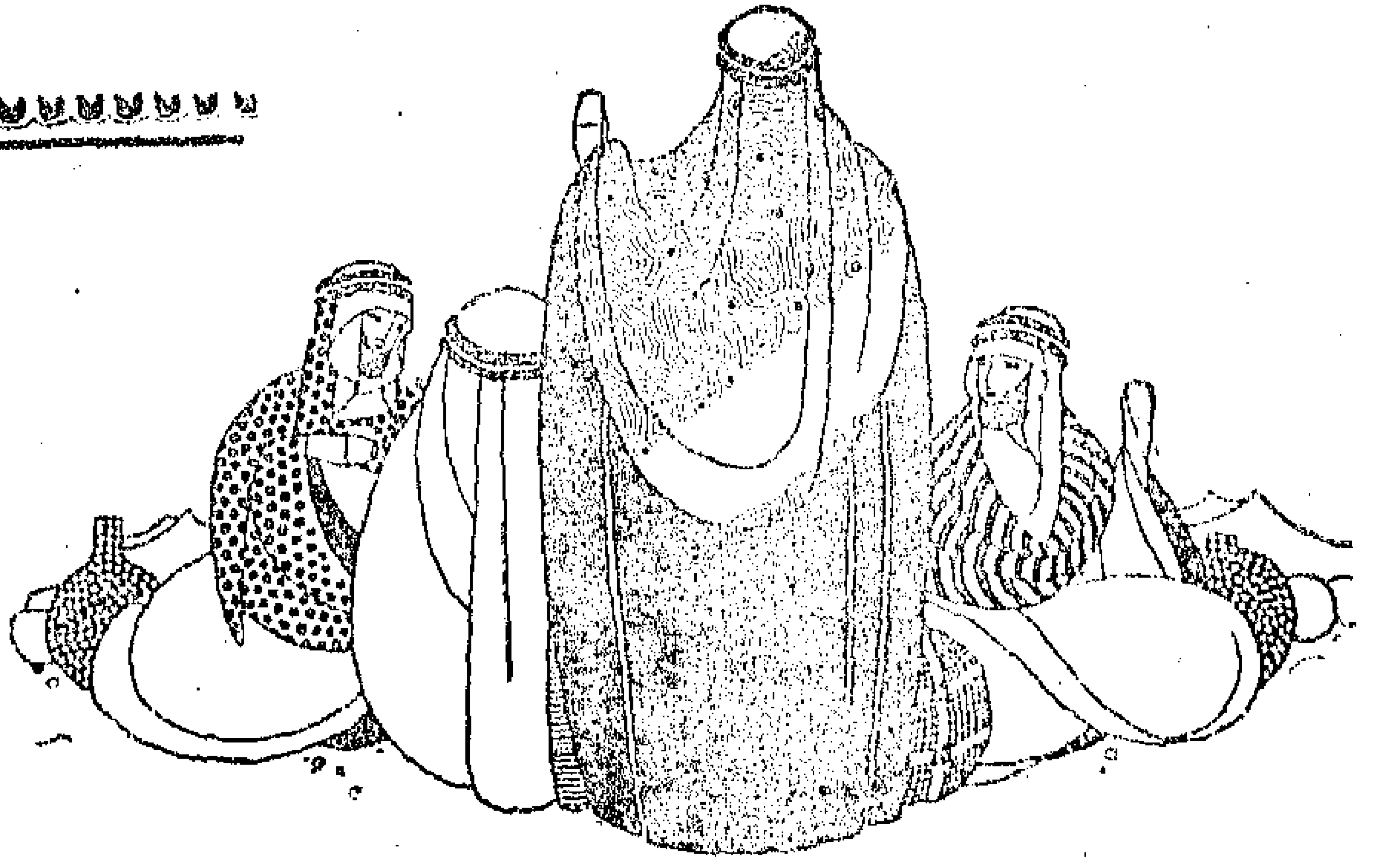
ويقول دكتور « تورجاسن » ان التجاريب قد دلت على ان عقار البنسيلين قد دل على انه شاف شفاءاً أكيداً من مرض الحمام بتجارب أجراها على الفئران. ويقول بأن مرض الحمام ومرض الببغاء متشابهان في أعراضهما كل التشابه ، وربما كان اختلافهما ينحصر في نوع الفيروس ومصدر العدوى .

وقد تكلم دكتور « تورجاسن » عن حالة رجل عمره ٤٣ سنة يربي الحمام في حظيرة اتخذها خلف منزله ، فأصابه المرض وشفاه البنسيلين.

قبل نشوب هذه الحرب ببضع سنوات ، هاجر مئات من الأساتذة الألمان وحطوا رحالهم في الاستانة ، فما كان من أتاتورك بثاقب ذهنه ، إلاّ أن رأى ما يمكن جنيه من الفائدة ، إذا اكتسب ثقافة هؤلاء العلماء لشعبه . فاختار منهم الأفذاذ ، أي ما يربو على الاربعين عالماً . وطلب منهم الالتحاق بالجامعات التركية وأغراهم بالمال على أن يدرّسوا باللغة التركية ، وترك لهم الوقت الكافي لدراسة اللغة ، دون تحديد المدة اللازمة لتعلمها وبأجر كامل ، ابتداءً من قبولهم الالتحاق بالجامعات المذكورة . وهنا نرى العجب العجاب : فانه نظراً لسهولة هذه اللغة نحواً وصرفاً ونطقاً وكتابةً وهجاءً ، تسنى للأغلبية الساحقة من هؤلاء العلماء القاء محاضرات على تلاميذهم باللغة التركية بعد انقضاء ثلاثة شهور .

أظن أن الدكتور زكي بك يوافقني تمام الموافقة ، اذا استنتجنا مما ذكرناه ، أن هذه اللغة هي اللغة الوحيدة الصالحة لان تكون لغة عالمية للتفاهم ، وبعبارة أوضح اللغة الثانية لجميع الشعوب .

دكتور : توفيق صادق سليط



الاتحاد القومي

داؤه وأدواؤه (١)

— ٣ —

ينبغي في هذه الناحية أن أعرض لشبهة اجتماعية خدّاعة قد تحوم في أذهان بعض الناس فتنشب مخالبها في أذهان آخرين . تلك الشبهة هي الخلط بين حق الجماعة في كيانها المعنوي ، وحق كل فرد من أفرادها في حياته الخصوصية . ان حق الجماعة المعنوي لا يجوز سريانه الى كل فرد من أفرادها. فاذا قلنا إن لهذه الطائفة الكبيرة حق التفوق على أختها، تلك الطائفة الصغيرة في مظاهر وأمور رسمية وشبه رسمية ، فلا يستنتج من ذلك أن أي فرد كان من الاولى، يجب أن يتفوّق على أي فرد كان من الثانية . وبعبارة أبسط وأوضح، نقول ان للطائفة الاسلامية الكبيرة حق التفوق والامتياز. ولكن ليس معنى ذلك أن كل فرد من أفرادها يجب أن يدعي لنفسه أو يدعي له غيره حق التقدم على كل فرد آخر من كل طائفة أخرى . وصواب هذه النظرية قريب من البديهيات ، إذا تأملنا منه قليلاً . فمن منا نحن اللاذقيين مثلاً ترضى نفسه ويقتنع وجدانه بوجوب تقديم أي دمشقي كان أو أي حلبي أو أي بيروتي على أي لاذقي كان بحجة أن دمشق أو حلب أو بيروت هي أعظم وأهم وأعمر من مدينتنا اللاذقية . هيهات هيهات ! فان ابن هذه المدينة لم تندغم في شخصه مدينته . كما أن ابن تلك الطائفة لم تندغم في شخصه طائفته .

ومما يعوز أبناء الوطن في أثناء تعاملهم وتعاشرهم ، أن يتحمل بعضهم بعضاً في كثير من الهفوات والزّلات غير الصادرة عن روية وسبق إصرار، فان في أدبنا العربي ما يحثنا على النهج القويم حتى قال عنترة العبسي :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

وقال شاعر آخر جاهلي عرف بالفضل والحمية مع جمال الوجه واسمه المقنع الكندي :

وإن الذي بيني وبين بني ابي وبين بني عمي لمختلف جدًّا
إذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم وإن هم هوَوا غيّي هويت لهم رشدا

(١) نشر البحثان السالفان بمقتطف شهري مارس ومايو ١٩٤٥

وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرّ بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
لهم جل مالي ان تتابع لي غنى فإن قلّ مالي لم أكلفهم رفدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وقال غيره وأظنه الوزير المهلبي :

تناس ذنوب قومك إن ذكر الذنوب اذا تَقدُمْنَ من الذنوب

وارتقى الى درجة أعلى في مكارم الأخلاق من قال :

إذا بدرت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

ومن ذلك النهج الشريف ، التجاهل والتغافل في كل مقام يقتضيهما . وأول من أشار إلى ذلك في ما طالعناه ورويناه مؤسس الدولة الأموية معاوية بن ابي سفيان حيث قال : «حتام نتخادع للناس وهم يظنون انهم يخدعوننا ؟ »

أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ليس الغبيّ بسيدٍ في قومهِ لكنّ سيد قومه المتغابي

وقد فصل مجمله وجلا رونقه الشاعر أبو شراعة بقوله :

وإذا الكريم أتيته بخديعةٍ ورأيته في ما تروم يسارعُ
فاعلم بانك لست تخدع عاقلاً لكنه من فضله يتخادع

ونظر فيه الأمير أبو فرّاس الحمداني، وكان في ساعة غضب واشمئزاز لما ناله من إجحاف وسوء معاملة فقال : مبرهناً على انه وهو في معظم طور الشبيبة ممن يتأنون ويصبرون ويكظمون الغيظ :

تغابيتُ عن قومي فظنوا غباوتي بمفرق أغبانا حصى وترابُ
ولو عرفوني مثل معرفتي بهم إذن علموا اني شهدت وغابوا

وبناءً على ما تقدم معنا ذكره، يحتاج الوطن الى تأسيس جمعية وطنية في كل مدينة من مدنه، لكي تعمل بهذه المبادىء، فيقتدي بها أهل المدينة وملحقاتها ، وعلى وجه خاص لكي تسعى بالوسائل الفعالة الى مكافحة العوائق الأربعة . التي أشرنا إليها :مكافحة النعرات الطائفية، ومكافحة عادات التجنب والنفور في عاداتنا المعاشية ، ومكافحة مساعي من لا يروقهم هذا الاخاء العام وهذا الاتفاق التام ، ومكافحة من يظهرون، بغير ضرورة ولا مسوّغ واضح ضعف ثقة بالسلطة الوطنية ومروءة الخواص من أبناء الوطن . وينبغي أن يكون بين جمعياتنا الوطنية التي تؤسس لأجل هذه الأغراض ترابط وتفاهم وتعاون وثيق العرى بتبادل الرسائل

وزيارات الوفود لأجل توحيد الكلمة وتوحيد المسعى . ولا بد أن يكون لهذه الجمعيات مركز رئيسي في دمشق أو مركزان رئيسيان متحالفان في دمشق وبيروت، حسبما يستقر رأي أبناء بلادنا بهذا الشأن .

وقبل الخروج من البحث الحاضر يطيب لي أن أعزز الموضوع بشيء من الشعر وهو جزء من قصيدة لي وطنية اقتضاها المقام يوم القائها . والخطاب فيها مصوب على وجهٍ خاص الى أعيان الوطنيين وعقلائهم :

عليكم سادتي بنيَ الرجاء ... فلمْ لا يستقيم لنا البناء ؟
إذا عقلاؤنا خذلوا حماهم ... فدنيانا وما كنها هباء
وما تجدي الرجال ولا عقول ... وما تجدي العقول ولا وفاء
أتعجبك الحقول وليس روض ... أتعجبك الرياض وليس ماء
فياعقلاؤنا عطفاً علينا ... إذا ما خان مسعانا النماء
ومزروع الوداد لكم ومنكم ... وفيكم وهو يعوزه اعتناء
ألا فتعاهدوه بكل عون ... تحالفه المعزة والسناء
ولا تدعو المجال به ليأس ... فداء اليأس ليس له دواء
إذا مشروعنا قصدَ اتحاد ... تعزز فالفخار لكم جزاء
وما أنتم إذا أبدى قصوراً ... من العار المحتم أبرياء
أرأسُ منى الديار ومشتهاها ... نجافيه فينكرنا الآباء ؟
ونطمع أن نعد رجال حزم ... فكيف إذن يكون الأغبياء ؟
معاذ الله ، ذلك لن نراه ... وفيكم نخوة ولكم مضاء

هذه حقائق راهنة تحثنا بصوت عالٍ مهيب ملؤه الصواب والحكمة والاخلاص أن نجتمع كلنا كتلةً قومية واحدة على اختلاف أدياننا ومذاهبنا، فنتقي مواضع الأذية والخطر والعار . كذلكم أمنيتنا الذهبية التي نتلمسها ، وكذلكم مثلنا الأعلى الذي نسعى إليه ولنا أمل وطيد بالحصول عليه ولو بالتدريج ، ولكنه تدريج مطرد سريع الخطى بفضل وجود عقلاء محنكين بين أظهرنا وبفضل ما انطوت عليه الشريعة الاسلامية من جرثومة الخير والمرونة وروح التسامح مماشاةً للاحوال الطارئة، ومراعاةً لكل مكان وكل زمان . ومن ثمَّ لقبت بحق الشريعة السمحاء حتى قالوا : « ان المؤمن لا يكون الاَّ هيّناً ليّناً » وحتى ورد في الأحاديث النبوية الشريفة : « ان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » والمراد بالمنبتّ المنقطع عن رفاقه في السفر . والمراد بالظهر ظهر دابته . فالحديث يشير بهذا التشبيه الجميل

نسمع الفيلسوف النظري يقول لابنه : يا ابني : ساعد نفسك على شوقها الى الكمال . ولا كمال في المادة . انما الكمال في تصفية النفس الناطقة ، والبعد بها عن الانغماس في شهوات هذا العالم السفلي ، الذي مصيره للفساد . صل لربك ، يمنك على تطهير نفسك من أرجاس الشهوات . واعلم اننا ما عشنا لنأكل ، بل نحن لا نأكل إلا لنعيش . فاقصد في طلب الرزق ، وحسبك منه الكفاف ، واسرف في تهذيب نفسك ، ان صح ان في الخير سرفا . رض نفسك على الخير بحسابها على كل ما تعمل حساباً عسيراً . وساعد عاطفة حب الجمال والكمال في قلبك على تعطيل الشهوات السبعية . ان لنفسك عليك حقاً في مساعدتها على أن لا تنزل كثيراً عن المستوى العالي الذي نزلت منه الى جسدك الفاني ، وللناس عليك حق ارشادهم الى الغاية التي خلقوا لها ، وهي الوصول الى الكمال اللائق بهـذا الانسان الذي كرمه الله وشرفه على جميع مخلوقاته . ولا تجزع لطارقة تنزل بك ، بل اني لاعجب لامرىء ينتظر من عالم الفساد غير المحن التي يمتحن الله بها عباده الصابرين . ولا تترك فرصة الموت تأتيك في الدفاع عن مظلوم أو القيام بحماية وطنك الا انتهزتها وحسوت فيها كأس الموت سائغاً . فان الموت خمر الصالح يشربها فتنقله من عالم الشرور والمحنة الى نعيم مقيم . ذلك هو الكمال الذي نبغيه من عالم النقص . وما كنا الا لنموت . ولاشك عندنا في أن النتيجة اللازمة ، تابعة في الصحة والفساد لمقدماتها الضرورية . فالنفس التي أحسنت عملا ترجع الى عالمها القدسي ، قريرة العين بما تلقى من النعيم . أما من أساءت استعمال قدرتها ونسيت الرجعى الى خالقها ـ أعيذك بالعقل الاول ـ لا تصيب بهذا الانتقال الا عذاباً أليماً .

احمد لطفي السيد باشا

نقلا عن الجزء الثاني من « المنتخبات » هدية المقتطف المقبلة

في قالب الاستعارة التمثيلية ، اشارة بليغة الى سوء المصير الذي ينتظر كل امرىء متصلب يبتعد في سلوكه عن خطة العدل والاعتدال .

هذا جل ما استصوبت الادلاء به أمامكم مدفوعاً بعامل الاخاء الوطني والغيرة القومية ، وقد اخترت صراحة اللهجة مع المحافظة على شرط اللياقة والتأدب مخترقاً الموضوع في صلبه وزواياه غير مكتنف بالطواف حواليه كما يفعل الاكثرون . ولعلَّ ما أدليت به كافٍ لتذكير الناسي وتنبيه الغافل . والله في عون العبد ، ما دام العبد في عون أخيه .

اللاذقية

ادوار مرقص

عضو المجمع العلمي في سورية

المساء

للدجى في صفحة الأفق لواء | وعلى الأرض من الليل رداء
يستمرُ الكون في ثوب الدجى | كدفين الشوق يخفيه الاباء
أو كداجي الحقد في صدر الفتى | جاثماً يطويه خبٌ ورياء
والدجى في الافق مغض ساكتٌ | كعليف الداء أضناه العياء
كم معانٍ للدجى في صمته | ومن الصمت بيان وأداء
ليت شعري كيف يأتي صامت | بالذي قصر عنه الشعراء

***

تحسب الجوزاء روضاً ممرعاً | شوشت أيكته ريحٌ رُخاء
ينثني الأيك من برح الجوى | كشوقٍ هاجه وهناً حداء
فاضطنى من لوعة الوجد على | كبد قرّح جنبيها البكاء
أو كما العذراء ماست خفَراً | وبعينيها ادكارٌ ورجاء
ولضاحي النجم من رَيّقه | جدة المصباح يذكيه الضياء
وكأنّ النهر في زرقته | ساطع الفجر إذا شامت ذكاء
لست تدري أسماء أطلعت | لجة الماء ام الجوزاء ماء
وحواشي الليل أفواف ، لها | في مسَد الأفق نشرٌ وانطواء
فهيَ حيناً علمٌ منتشرٌ | وعلى الغبراء درع وغطاء
وهي حيناً لمعنًى بُرقع | هاضه الدهر وللعاري كساء

***

نام من في الكون الاّ موجعاً | شفه السهد وأصماه البلاء
كلما عاوده من أمسه | لاعج الوجد نزا في الصدر داء
يطبق الجفن على أحلامه | مستعيداً ذكر من غال القضاء
فيخال النار توري صدره | ومن الذكرى شجون وعناء
والدجى في الأفق مغضٍ ساكتٌ | كعليف الداء أضناه العياء

دمشق — عمر نازم مردم بك



نشأة سيادة مصر

على البحار

في بلد كمصر ، يخترقه نهر عظيم ، صالح للملاحة طول أيام السنة ، لا ينفك يجري من أقصى الوادي الى أقصاه ، ولا يتسع عرض ضفافه الأهولة في مواضع كثيرة إلاّ إلى مسافات قريبة ، كان حتماً مقضيـاً أن تكون الملاحة النهرية فيه قائمة منذ فجر التاريخ وان تبقى عماد المواصلات عند الأهلين على مرّ السنين .

وكان حين نظر المصريون الأقدمون الى ما تنتجه أرض مصر ، لم يجدوا خيراً من قصب الغاب والبردي ، يصلحان لأن يتخذ منهما بعد جفافهما مواد أولية ، لبناء ما نتجاوز في تسميته بالمراكب النهرية أو المعابر ، فكانوا إذا شدوا هذه المواد بعضها الى بعض ، استوت شيئاً أشبه ما يكون بمعبرة غفل ، يقطعون بها النهر طولاً وعرضاً على نحو ما يفعل اليوم بعض سكان أعالي النيل . وإذ كانت هذه المعابر عرضة للعطب السريع لضعف مادة بنائها ، فقد ساعد ذلك على ازدياد في نمو صناعتها ، كما ساعد على اضطراد التجديد والتحسين فيها . وهكذا تطوّرت هذه الصناعة من « شد » معابر غفل ، الى بناء سفن نهرية . وكان قدماء المصريين قد اكتسبوا خبرة ثمينة في فن الملاحة النهرية قبل أن تتاح لهم فرصة ليستبدلوا أعواد قصب الغاب والبردي ، بأنواع من الخشب في بناء السفن . وهدتهم تجاريبهم الى الاحتفاظ بطابع خاص لسفنهم التي كانوا يبتنونها ، ووفقوا آخر الأمر الى إيجاد نموذج يردون اليه كل سفينة أية كانت ، فتفي بكل غرض وتتسع لكل حجم وتلائم كل مطلب . وقد أجادوا بناء كل أنواع السفن ، حتى يخوت الملوك التي تحوي من أسباب الرفاهية والترف أدقها وأبلغها . صنعوها وأجادوا صنعها . جرى ذلك في مصر قبل اليوم بأربعة آلاف سنة أو يزيد .

وكانت قد قضت ظروف الحال على أهل مصر بأن ينموا ، بادىء ذي بدء ، الملاحة النهرية فولوها عنايتهم حتى ازدهرت وأينعت . إلاّ أن شدة العناية بها وبنموها وازدهارها أعاق تقدم الملاحة البحرية . ويرجع سبب مبالغتهم في العناية بأمر الملاحة النهرية الى عوامل شتى ، من بينها السياسة الخارجية التي اتبعها ملوك الفراعنة الأول . غير ان طبيعة البلاد ما كانت

لتجيز تقييد الملاحة البحرية بحال . فالبحر يحتضن مصر من الشمال كما يحتضنها من الشرق وقد أدرك خطورة ذلك الموقف أهل مصر ، فارتسموا لأنفسهم سياسة جديدة في الملاحة ، وكان ذلك عام ٣٠٠٠ قبل ميلاد المسيح ، حين وجدوا أن النيل يكاد يكتظ بكثرة السفائن التي تسير فيه ، وانه صار لمصر عمـارة نهرية غاية في القوة والبأس . وليس أدل على مبلغ تكاثر السفـائن في مصر من كلمـة وردت ضمن خطـاب رفعه ثري شعر بدنو الأجل ، إلى القضاة الاثنين والأربعين الذين يتولون محاكمته في الآخرة ، هذا بعض نصه :

« . . . . وقد أعطيت خبزاً للجائع وماء للعطشان وثياباً للعاري وزوروقاً لمن ليس له مركب . . . » . وإذ كان تكاثر السفائن قد بلغ حد التَّصـدُّق بها ، فلا عجب أن يضيق بها النيل ، وان يعمل المصريون ليجوبوا بحار الأمم المجاورة . وكأن كل شيء في مصر قد مهد لأهلها العمل على جوب البحار . فكانت الحياة في هذا البلد كما هي اليوم قائمـة كلها الا فيما ندر ، على ضفاف النيل وما يتفرع منه ، وكان كل عمل في مصر ، له بالنيل صلة . وكان المركب النهري يأتي في المرتبة الأولى من بين وسائل المواصـلات، وقَعَ ذلك لأن كل مصري كان منذ الصغر أليف النيل ، أليف الملاحة . ومع هذا فما كان النيل بالنهر الوديع الهادئ على مدار أيام السنة . فله في بعض الأحايين ثورات حادة وغضبات مخيفة ، وبه أماكن شديدة الخطورة . وهكذا كانت الملاحة في النيل بمثابة مدرسة تعلَّم فيها المصريون كيف يكافحون الرياح والأمواج ، وكيف يتّقون مواضع الخطر . فلم يلقوا حين خرجوا إلى عرض البحر أية صعوبة . والراجح عنـدي أن فينيقية كانت أول بلاد وقعت عليها عيون الملاحين المصريين .

وإذ خفي علينـا الزمن الذي بدا فيه المصريون يرسلون عمارتهم البحرية إلى فينيقية، كما خفي علينا موعد وصول أول سفينة مصرية الى تلك الشواطيء السورية ، فمن الثابت أن مصر كانت تستورد في العصور الخوالي قدوراً فينيقية ملأى بزيت الأرز اللبناني . وقد وجد بعض هذه القدور في « عبيده » Abydos ضمن ما حوته مقـابر ملوك الأسرة المصرية الأولى ، التي حكمت في القرن الثلاثين قبل ميلاد المسيح . وهذه القدور هي بعض ما جلبته الحملة المصرية التي بعث بها الملك « ساهور » Sahure إلى فينيقية . وما من شك في أن استيراد البضائع من بلاد الفينيقيين كان يجري قبل ذلك التاريخ . ذلك لأن زيت الأرز رغم استحالة الحصول عليه إلا من خارج البلاد المصرية، فقد كان مُـدْرَجاً ضمن أقدم قائمة عرفت ، حوت أنواع القربان التي كان يتقرّب بهـا المصريون إلى أربابهم . وإذاً فقد كانت السفن البحرية تجري بين أرض النيل وبلاد الفينيقيين ، حاملة البضائع والركاب بين القطرين.

منذ أقدم العصور . وما من ريب في أن هذه السفن كانت من صنع مصر ، يديرها ملاحون مصريون ، وتحمل الجنسية المصرية . ذلك لأن الفينيقيين لم يكن لهم ذكر في التاريخ حتى القرن العاشر قبل ميلاد المسيح . ويرى أشد المؤرخين تحيزاً لفينيقية بأن الفينيقيين كانوا حتى القرن الحادي والعشرين قبل ميلاد المسيح على حظٍ من الثقافة والرقي أقل من القليل ، ولم تكن الظروف قد تهيأت لهم بعد لأن يخطو الخطوة الأبجدية نحو مدنيتهم ، التي جاءت بعد ذلك بعدة قرون . وكأن مصر جابت البحار قبل أن تصحو فينيقية بنحو عشرة آلاف سنة على الأقل . وفي ذكر هذه الحقائق وحدها ، ما يكفي لانهيار دعوى بعض المغرضين القائلين بأن مصر ، منذ أقدم عصورها ، كانت تعتمد على الفينيقيين في الملاحة . واذاً فلا شك في أن مصر كانت تصدّر إلى فينيقية على سفن مصرية ، يديرها ملاحون مصريون ، بضائع مما جلبته أيدي صناعها المهرة ، كما كانت تستورد منها كل ما يمكن الحصول عليه من مواد خام وأخصها الأخشاب . فقد كانت بلادهم غنية بالغابات غنى لا يماثلها فيه إلاَّ البلاد الشمالية من القارة الأوربية في عصرنا الحاضر .

ولعلّ أقدم وثيقة وصلت الينا تحدثنا عن سير السفن المصرية إلى بلاد فينيقية ما أظهرته النقوش المصرية التي ترجع إلى القرن التاسع والعشرين قبل ميلاد المسيح ، والتي جاء فيها انه قامت لعهد الملك « سنفرو Snofru » أو ما بين عام ٢٨٤٠ و ٢٨١٦ قبل ميلاد المسيح حملة بحرية فاقت كل ما قبلها ، مكوّنة من أربعين سفينة مصرية ، حُمّلت في مياه فينيقية بأخشاب الأرز ، فوصلت سالمة إلى المياه المصرية .

وما إن انقضت مائة وخمسون سنة على ذلك التاريخ حتى أخذ المصريون في رسم سفنهم نقشاً على قبور ملوكهم . وذلك لأول مرة في تاريخهم ، بل ولعلها كذلك في تاريخ العالم ، وفي هذا دليل قوي واضح على ما كان للملاحة من منزلة في نفوس المصريين . والناظر إلى مقبرة « ساهور » الذي حكم بين عام ٢٦٧٣ وعام ٢٦٦١ قبل ميلاد المسيح يبهره حتماً جمال السفينة المنقوشة على تلك المقبرة . تلك السفينة التي يقول عنها رجال البحر في عصرنا هذا : « أنها سفينة بحرية لاشك في ذلك . وان المصريين اكتسبوا البتة قبل بنائها بعدة سنوات ، خبرة فائقة في فن الملاحة البحرية ، وعرفوا ما تتطلبه هـذه الملاحة من مستلزمات في السفينة فأقاموها » .

وهكذا ما كاد القرن العشرين قبل ميلاد المسيح يستهل ، حتى كانت سفائن مصر تمخر عباب البحر المتوسط وتجوب أرجاءه وتتبادل مع بلاده البضائع على نحو ما كانت تفعل مع بلاد الفينيقيين . إلاَّ ان سير السفائن المصرية بين مصر وجزيرة قبرص جرى قبل

ذلك التاريخ بأمد طويل، وذلك حين وجد المصريون معدن النحاس موفوراً في هذه الجزيرة وكانت صناعة النحاس في مصر قائمة منذ أقدم العصور . وكان كل اعتماد مصر في هذه الصناعة على مناجم النحاس في شبه جزيرة سينا ، التي استغلها المصريون منذ نحو ٣٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح . فلما عثروا على النحاس في قبرص رحبت به الصناعة المصرية . وليس أدل على ذلك من تعدد خطابات ملك « الاسيا قبرص » إلى الملك « أمينوفيس الرابع » Amenophis تلك الخطابات التي وجدت في خزائن دار المحفوظات بمدينة العمارنة التي تشير الى مقادير النحاس التي استوردتها مصر من الجزيرة . أما البضائع المصرية فكان التجار ينقلونها الى قبرص ، فيتهافت أهلها على اقتنائها . كذلك كان يفد على مصر من حين لآخر تجار وسوّاح من الاسيا .

واذا كان هذا مبلغ رواج الملاحة بين مصر وقبرص ، فقد كانت الملاحة بين مصر وجزيرة كريت أنشط وأقوى . وما كانت المصنوعات المصرية لتعم هذه الجزيرة فحسب ، بل كانت منتشرة عن طريقها في بقية جزر بحر ايجة . وقديماً استورد المصريون من كريت وعن طريقها ما وجدوه من مواد أولية في الجزر اليونانية ، ومن بينها الأحجار الثمينة التي اشتهرت بها جزائر أوْلي . ويكفي دليلاً على قدم نشاط الملاحة المصرية في منطقة الجزر اليونانية ، القول بأن الأحجار الثمينة التي وجدت في مقابر الأسرة المصرية الأولى، مصدرها الأوحد جزائر أوْلي هذه . غير ان العلاقات التجارية ، وبالتالي الملاحة البحرية بين مصر وكريت، لم تزدهر إلاّ في عصر الأسرة الثامنة عشرة او حوالي سنة ١٥٠٠ قبل ميلاد المسيح.

هذا وكان قد طرأ على بناء السفن في بدء عهد الأسرة السادسة المصرية بعض التعديل . ثم أخذ بهذا التعديل شيئاً فشيئاً الى ان عمّ كافة السفن النهرية ، كما عمّ السفن البحرية . ولعلّ أوثق مصدر يمكن الرجوع اليه في شأن نماذج السفن البحرية وكيفية استخدامها خلال القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح ، ما نجده من رسوم في الدير البحري تصوّر لنا العمارة البحرية التي بعثت بهوا الملكة « حتشبسوت » Hatschapsut الى بلاط « بنط» Punt على الساحل الصومالي . وقد لا يهمنا تفاصيل ما أجري على السفن في مصر من تعديل في بنائها . فالملاحون والاختصاصيون به أولى . ولكن قد يلفت نظرنا شيء واحد ، وهو ان السفينة المصرية في ذلك العهد كانت تحوي عدة أشرعة بأحجام مختلفة ، يستخدم كل منها حسب قوة الريح واتجاه سير السفينة. وما كانت السفن الشراعية التي استخدمت في البحر الأبيض المتوسط بعد ذلك خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد ميلاد المسيح ، إلاّ شبيهة بالسفن المصرية شبهاً وثيقاً . بل ولا زالت هذه النماذج من السفن هي المفضلة على غيرها عند الملاحين اليونانيين في البحر المتوسط وعند العرب في البحر الأحمر .

وكان من الطبيعي أن تجرب سفائن مصر البحر المتوسط قبل ان ترتاد مياه البحر الأحمر . وذلك لأسباب أهمها أن سكان مصر يعيشون في كنف النيل وعلى ضفافه ، والنيل ينتهي الى البحر المتوسط . وان المناطق الآهلة بالسكان بعيدة عن البحر الأحمر الذي يفصله عن وادي النيل صحراء محرقة . ورغم هذا كله فقد ارتاد الملاحون المصريون البحر الأحمر منذ أقدم الأزمنة . والثابت أنهم خرجوا من ضفاف النيل قرب مدينة قفط Koptos الى البحر الأحمر، ليبتنوا على شواطئه سفناً . وكان يحتم هذا عليهم أن ينقلوا من قفط ، كل ما يحتاجون اليه من مواد لبناء السفن، وكذلك الماء والغذاء لكل الذين يعملون في هذه الصناعة . ولكي نقدّر عملهم هذا حق قدره ، يجب ألاّ نغفل ذكر أن أقرب مسافة بين النيل والبحر الأحمر ، أو ما بين قفط والقصير هي مسير أربعة أيام ، وان السبيل إليها غير مطروق . وقد أحرقته الشمس وأوحشته الصحراء التي لا ماء فيها البتة . وعند ما يصل الانسان إلى البحر يجد شاطىء البحر قحلاً كالصحراء . وهكذا كان يرسل من النيل إلى البحر على ظهور الحمير وغيرها من الانعام وعلى أكتاف الآدميين ، كل المواد والأدوات اللازمة لبناء المراكب ، وكذلك الماء والغذاء واللباس وحاجة المساكن التي أعدت لآلاف ممن يعملون في بناء السفن، ثم ما يكفي من ذلك كله للرحلة البحرية ، فضلاً عن السلع التي كانت تحملها هذه السفن الى البلاد الخارجية . وقد يبدو لنا ونحن نعيش في عصر السرعة ان ذلك لا يتم إلاّ في شهور ولكن « أوني » Uni يذكر لنا أن المصريين ابتنوا مركباً بحرياً كبيراً في سبعة عشر يوماً فقط .

وإذا كانت الملاحة في البحر الأحمر اليوم ، رغم استخدامنا كل الوسائل العلمية الحديثة ، من كتب موسوعة في فن الملاحة البحرية ومن خرائط مفصلة وارشادات جمة ، لا زالت محفوفة بالمخاطر والصعوبات، فأحرى بها ان تكون كذلك في قديم العصور . ذلك بأن جوّ البحر الأحمر حارٌ شديد الحرارة الى الحد الذي لا يطاق ، ثم هو مشبع بالرطوبة ليل نهار . وزيادة على ذلك فالشعاب الكثيفة تمتد على جانبيه مسافات طويلة وتنتشر في نحو ثلث مساحته، وكذلك المرجان الجاثم في قاعه يرتفع الى نحو متر ونصف قبيل مستوى سطح الماء . ورغم ذلك فقد كانت الملاحة بين مصر وبلاد « بُنط » منتظمة السير مما يدل على أن الملاحة البحرية عند المصريين الاقدمين بلغت أوجها . وتدل الحملة الكبيرة التي قامت بها المهارة البحرية في عهد الملك « ساهور » والتي جلبت كميات وفيرة من المنتجات الاستوائية ، على صدق ذلك . وأقوى دليل على هذا تلك النقوش التي نراها على مقبرة « كنيمحوتب » Knemhotep والتي تشير إلى أن سير الملاحة الى بُنط كان قائماً ومنظماً

وان عدد السفن الذاهبة إليها والراجعة منها كان كبيراً . ولم يكن « كْنِيمْحُوتَب » هذا إلا رفيقاً لسيده ، أحد أمراء البحر الذي قاد سفنه الى بنط إحدى عشرة مرة . ولم تكن قيادة السفن بالأمر الهين إذ ذاك ، فقد كان المصريون يعنون كل العناية بدراسة الملاحة علمياً وعملياً ليخرجوا ملاحين تفقهوا في دراسة اليابس والماء ، على حدّ تعبيرهم.

وكانت أن بقيت صلة مصر ببلاد بنط لا تنقطع حتى نهاية الأسرة الثانية عشر . ثم تراخت تلك الصلة لمدة غير قصيرة . فلما ان جاءت الملكة «حتشبسوت» أمرت بإرسال حملة بحرية إلى بُنط قوامها خمس مراكب . ومن رسوم على معبد الدير البحري نرى كيف كان أهل مصر يقدمون القربان لهاتور Hator لكي ترسل الرياح لها مؤاتية . وفي صورة أخرى نرى هذه السفن ثانية قريبة من شاطىء تلك البلاد النائية وهي تشحن من بُنط ما حصلت عليه من بضائع . وفي صورة ثالثة نرى هذه السفن نفسها وقد أتمت رحلة موفقة تسير بأقصى سرعتها نحو طيبة وهي نهاية الرحلة . ومن الغريب أن المصريين الأقدمين لم يذكروا لنا شيئاً عن مشاق هذه الرحلة أو أخطارها ، رغم أن المبالغة تشيع في كثير من آدابهم . ولعلّ أخطار ومشاق السفن في البحر لكثرتها، صارت من عاديات الأمور عندهم ، فأغفلوا ذكرها . كذلك لم نعرف أية طريق سلكته هذه الحملة البحرية : هل انتهت الى مينا على البحر الأحمر كما كان متبعاً من قبل ثم نقلت السفن وما حملت بطريق البر الى قفط، ثم سارت في النيل الى طيبة ؟ أم قد كان لدلتا النيل قناة تصل بين الفرع الأيمن للنيل وخليج السويس ، كي يتيسر للسفن مواصلة السير الى طيبة ؟ من الثابت أن « سيزوستريس » Sesostris حفر قناة كهذه،ولكنا لا نعرف أ كانت قائمة في عهد «حتشبسوت» أم أن الرمال التي لا تنفك الرياح تحملها في مواسم معينة من السنة ، عطلت السير فيها فردمت بفعل الزمن . هذا ما لم يقطع فيه برأي الى اليوم . أما في عهد « رمسيس الثالث » فقد كان الملاحون حين يرجعون من « بنط » ينتهون الى القصير على البحر الأحمر ، ثم يسيرون براً إلى قفط .

وفي عهد الملكة «حتشبسوت» وعصر الملك «توت موزيس» الثالث Thutmosis أي منذ عام ١٥٠١ حتى عام ١٤٤٧ قبل ميلاد المسيح، بلغت الملاحة البحرية في مصر أوجها مرة أخرى ، واتسعت وتعددت رحلاتها . ولكن منذ بدء انحطاط الصناعة وما تلاها من كساد التجارة، أخذت الملاحة البحرية تتقلص شيئاً فشيئاً، ثم بدأ سقوط الدولة المصرية. وكان أن تسربت الصناعة والتجارة والملاحة البحرية من أيدي المصريين الى غيرهم من الأجانب . ثم ما كان القرن العاشر قبل ميلاد المسيح ليبتدىء ، حتى اختفى الأسطول التجاري

قطع العصب تذهب الالم .... ان قطع بعض الاعصاب السمبتاوية التي تحتكم في بعض الاحساسات المتصلة بأطراف تؤثر فيها هذه الاعصاب، علاج من أنجع العلاجات التي تقف بعض الآلام العصبية المحرقة : Causalgia وهي من أشد الآلام التي يشعر معها المصاب ان بأعصابه احتراقاً مؤلماً شديداً . وقد نشر ذلك في صحيفة الجمعية الطبية الاميركية : طبيبان من جراحي الجيش . فقد ذكر الكابتن موشوا سبيجل والكابتن جاك ميلوفسكي ، ان هذا الألم العصبي قد يحدث عقيب جراح تصيب بعض الجنود . فأجروا لستة جنود عملية قطع العصب السمبتاوي المتصل بالجزء المتألم ، فزال الالم . اما السبب الذي يحدث هذا الالم، فليس معروفاً معرفة تحقيق .

المصري من البحار . وفي أسطورة مصرية قديمة وصف لهذه المأساة مريع . ومن ثمّ انتقل زمام البحر الى الفينيقيين . ولكن لم ينم أهل مصر على ذلك ، بل حاولوا السيطرة على البحار مرة أخرى ، وقطعوا في ذلك خطوات موفقة قبيل ميلاد المسيح . إلاّ أن عوامل مختلفة أحبطت أعمالهم . وليس هذا مقام الاسترسال في بحث ذلك ، ولا من أجله كتب هذا المقال ، وانما أردت أن أبين ما طبع عليه اهل مصر من حبهم البحار ، وما كان لهم من شأن في الملاحة البحرية ، وكيف تمت لهم سيادة البحار ، وإذا ذكرت هذا كله ، فلكي نؤمن بأن بدايتنا الجديدة في الملاحة البحرية قد تقودنا الى سيادة البحار مرة أخرى ، لو اننا اتعظنا بماضي تاريخنا ، وسرنا بنفس الحزم وفي نفس الطريق الذي جعل من المصريين سادة للبحار .

ابراهيم ابراهيم يوسف

﴿ المراجع ﴾

I — A. Kocster ; Seefahrten deratten Aegypter

II — Ermann; Geschichte der Alterhum, Aegypter

III — Brestead; History of old Egypt.

IV— Eduard Meyer; Egyptische Geschich

V — عبد القادر حمزة : على هامش التاريخ المصري



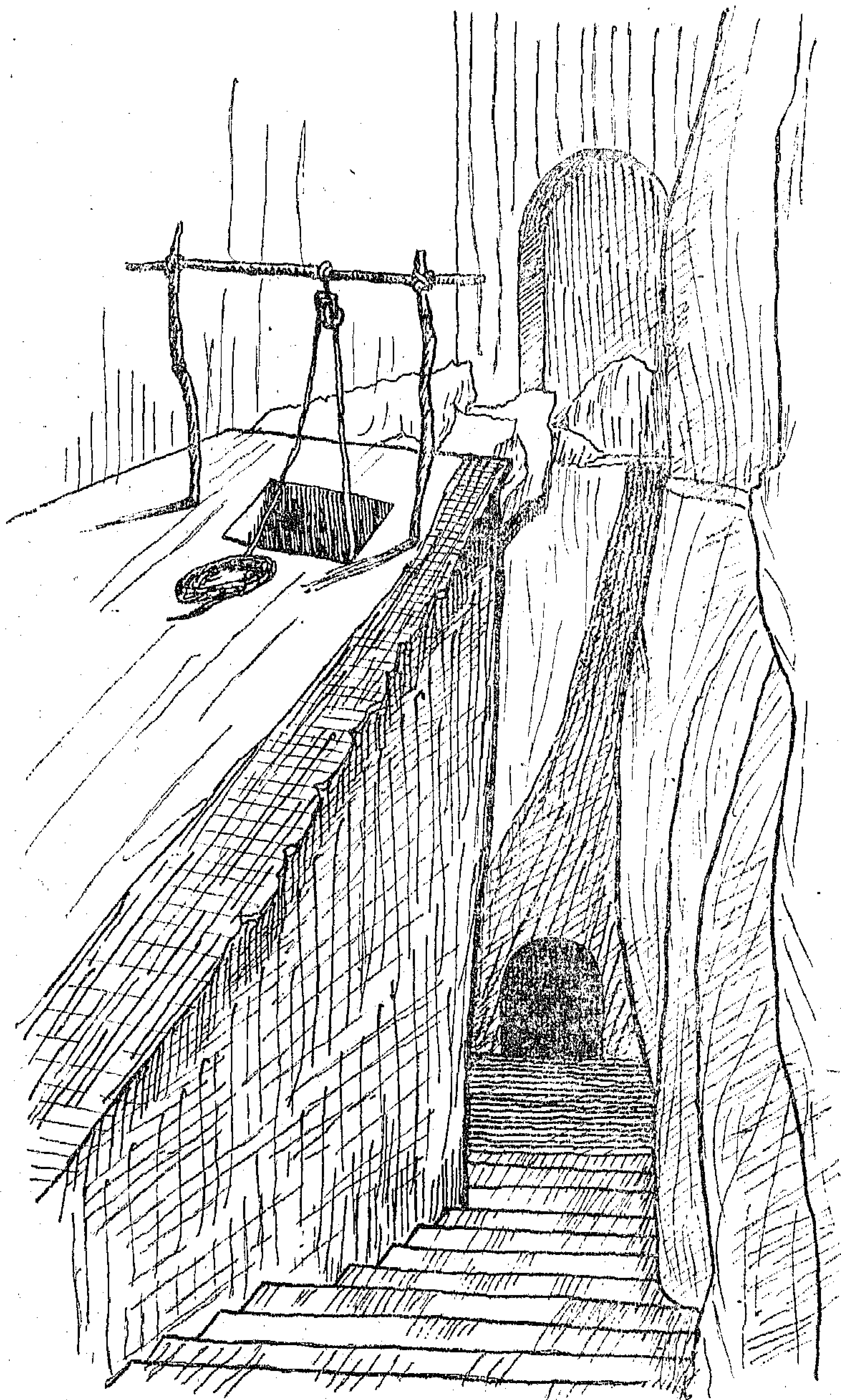
عين زبيدة
في مكة

١ – لمحة تاريخية

إن مجرى عين زبيدة عمل هندسي جليل جمع بين العظمة والبساطة ، تُجمع بواسطة مياه الأمطار التي تهطل في وادي النعمان أو على قمم الجبال المحيطة به في قناة مبنية . ومبدأ القناة في بطن وادي النعمان ، ثم بعد مرورها بوادي عرفات والمزدلفة واقترابها من مِنىً تتجه نحو مكة وتتفرّع فيها ، فيستقي منها الحجاج في أيام الحج . وأما أهل مكة فهي بين أيديهم طوال السنة .

ويرجع الفضل في انشائهـا إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد. وقصة ذلك أن السقاية — وهي السهر على تمتع الحجـاج بكفايتهم من الماء — كانت من مفاخر العرب ، إذ كانوا يتسابقون الى تولي أمرها . وقد تناقلتها بيوتات قريش إلى أن أبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني العباس . فلما جاءت السيدة زبيدة إلى الحج ورأت ما يعانيه الحجاج وأهل مكة من المتاعب في الحصول على المياه التي كانت تجلب على ظهور الدواب من الآبار العميقة، أمرت بالبحث عن موردٍ الماء غزير وعذب . فأرشدت إلى عيونٍ عدة في وادي حنين كانت ترويه . فأمرت أن تُشترى تلك العيون فيُحول ماؤها إلى قناة واحـدة تجري حتى قلب مكة . ولكن القناة لم تكن تمر بمشـاعر الحج (عرفات والمزدلفة ومنى) فرأت السـيدة زبيدة أن تأمر ببناء مجرى آخر لإمداد المشـاعر بالمياه ، فأنشئت سنة ١٨٠ هـ عين النعمان من طرف جبل كَرَى من جبال الطائف حتى مكان قريب من جنوب منى . ولم يمكن إيصالها إلى مكة لوجود صخر صلب في طريقها يتعذر نقره .

وقد تعهد هذا المجرى الحكامُ من خلفاء الأمم الإسلامية وسلاطينها بالترميم والتعمير واستمرّ الماء يجري فيها حتى الدولة العثمانية (سنة ٩٢٣ هـ) فأُهملت العيون فتهدمت وجفّ ماؤها (سنة ٩٣٠ هـ) وعاد النـاس الى أخذ الماء من الآبار . ثم لجأوا إلى السلطان سليمان القانوني (سنة ٩٦٩ هـ) فأمر بتعمير عين النعمان ، وإنشاء قناة جديدة (سنة ٩٧٦ هـ)



شكل يبين سحب الماء من الدبل « المجرى » في حالة سحق العمق

لإيصال الميـاه إلى مكة تمر في جوف الصخر الذي أمكن حفره بإيقاد نيرانٍ على سطحه لكي يتشقق .

وأهملت عين حنين بعد ذلك ، وأصبحت عين النعمان تروي المشاعر الثلاثة ومكة ومساحات قليلة من الأراضي الزراعية ، وهي تسمى الآن عين زبيدة .

وقد تراوح الخراب والتعمير هذا المجرى بسبب السيول والزلازل أو الاهمال، ثم بفضل العناية تبعاً لتغير الحكام واختلاف نزعاتهم، حتى تألفت لجنة للإشراف على العين وموالاتها بالإصلاح والتوسيع (سنة ١٢٩٥ هـ) .

ولما دخلت البـلاد في حكم الملك ابن السعود (١٣٤٣ هـ) أيّـد الملك اللجنة التي كانت موجودة وحملها على صيانة مآخذ الماء ومباني المجرى .

٢ — طريقة إسالة الماء في المجرى

ليست هذه العين نبعاً طبيعيًّـا فتتدفق من أعالي الجبـال لتجري في الشعاب والأودية وتكوّن الأنهار ، بل هي من تدبير الانسان بتسخيره للموارد الطبيعية وتذليلها لارادته . فوادي النعمان تحيط به جبال شامخة أحجارها صوانية تهطل عليها الأمطارفتسيل إلى الوادي وتغور في رماله الـكثيفة إلى أن تصل إلى طبقة صخرية لا تستطيع المياه أن تنفذ منها ، فتمتصها الرمال في الطبقات السفلية ثم تنحدر بطبيعتها بحسب الميـل الذي في سطح الطبقة الصخرية .

فان حفر في الرمال حتى تبلغ الطبقات الرملية المتصة للمياه وأنشىء مجرى (« الدبل » في لغة الحجاز) قاعه منحدر وجوانبه مفرغة الحامات ، فان الماء يتسرب من الرمال الى داخل « الدبل » ويجري فيه جهة الانحدار . وإن ألحقت بالمجرى فروع متشعبة في جهات الوادي (وهذه الفروع في لغة الحجاز يقال لها شحاحيت) زاد مقدار الماء المتسرب الى « الدبل » . ثم ان جعل قدر الانحدار في المجرى أقل من قدر انحدار سطح الماء الجوفي بلغ « الدبل » نقطة يلتقي فيها بأعلى منسوب لسطح الماء ، فيدخل في الرملي الجاف . وان أنشىء « الدبل » من بناء أصم بعد ذلك أمكن تسيير الماء وتوجيهه الى حيث يراد . وهذه هي الطريقة المستعملة في أنحاء الحجاز لجمع المياه من بطون الأودية وجلبها للبلاد (وتسمى «العيون») . وهي نفس الطريقة التي تجمع بها مياه وادي النعمان فتجري في « الدبل » مارة بالأودية وفي سفح الجبال، الى ان تصل مكة ، وعين الزرقاء بالمدينة المنورة يجمع ماؤها بهذه الطريقة أيضاً .

عبر الطبيعة

وقعت حادثة لم يسمع بمثلها في تاريخ الطب في أميركا ، هي حادثة ميلاد طفل سوي حي تكون أثناء تخلقه خارج أعضاء أمه التناسلية .

ولقد روى هذه الحادثة طبيب من لوس انجيليس ونشرتها صحيفة شيكاغو صن . حدث ذلك في مستشفى انفيلوس . والأم هي مدام بيسي ووكر ، عمرها ٢٣ سنة ، وابنتها المولودة أريس جان وزنت سبعة أرطال ونصف عند ولادتها .

ووصف دكتور ر . ب جنكنس حالة هذه الوضع بأنها « حمل بطني خارج الرحم » فقال ان الجنين لم يتخلق في الرحم أو القنوات الفلوبية ، بل في تجويف البطن ، حيث أفسحت له الطبيعة مكاناً الى جانب جهاز الأم الهضمي . والظاهرة الشاذة استكشفها دكتور جنكنس عند ما استعد لاجراء العملية القيصرية لينقذ الطفل ، وكان قد مر عليه ٢٣ يوماً أزيد من الزمن الحملي .

ولكن الاطباء المساعدين أخذوا بالعجب مما رأوا . فان الرحم كان في حالة سوية وليس بها أي أثر من آثار التأثر بالحمل . وزاد عجبهم عند ما برز اليهم الطفل صارخاً بقوة غير معهودة . ولكن مشكلتهم الكبرى انحصرت في كيف وجدت البيضة الملقحة طريقها من القناة الفلوبية مخترقة جدار البطن الضيق الى جزء من الجسم لا يمكن الوصول اليه إلا بعملية جراحية . ثم مشكلة أخرى ، كيف اغتذى الجنين أثناء الحمل

قال دكتور جنكنس : « من أجل ان ذلك الكيس الذي يحوي كل جنين قبل الولادة كان مملوءاً بجالون كامل من الدم ، بدلا من الماء ، أعتقد أن الطبيعة قد أعدت للجنين دورة دموية خاصة جرت بين ذلك الكيس والام ، وان الجنين غذي بطريقة النضح أو الامتصاص من البيئة الدموية التي أسعفت بها الطبيعة ذلك الكائن في عزلته تلك .

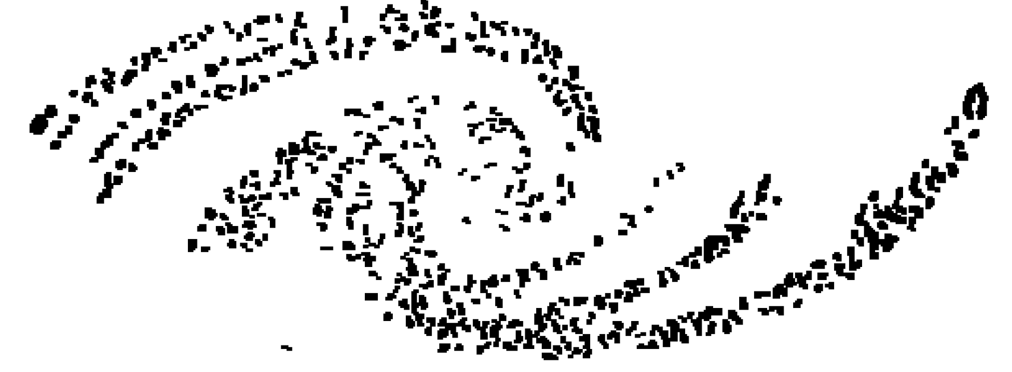
لا بد من أن الطبيعة تكون قد احتاطت فبذلت جهدها في الاحتفاظ بحياة الام وحياة الجنين معاً . فان الكيس الذي حوى ذلك الدم كان أكثر صفاقة وتماسكاً من المعتاد . ولو انه انفجر في جوف الام ، اذن لقتلها بسرعة . ولقد أدلى دكتور جنكنس بهذا الامر الى زملائه الاطباء في جمعية كاليفورنيا الطبية ، فقرروا بالاجماع ان هذه الحالة فريدة في بابها وانهم لم يعهدوا لها نظيراً .

وقد يجري الدبل في جوف الأرض في أعماق سحيقة أو دانية ، فتشق في أعلاه فتحات على مسافات مختلفة تتصل بسطح الأرض ببناء أسطواني كبناء الآبار (يسمى « خرزات ») . وهي لازمة للتهوية أو للوصول الى « الدبل » لأجل التنظيف او الترميم .

وقد يجري الدبل على سطح الأرض فيجعل له سقف به فتحات يؤخذ منها الماء ، ويعمل له فروع تصب في خزانات أو صهاريج يستقي منها الناس .

عثمان رفقي رستم

كبير مهندسي مصلحة الآثار المصرية



حق غريق
في بحر من الباطل

لأمر ما يطيب لبعض الناس أن ينتحل أقوالاً يعزوها لغيره ، أو يبدع من نسج خياله صوراً لا تمت إلى واقع الأمر بصلة، ثم لا تلبث هذه الأقوال او هذه الصور ان تأخذ على توالي الأيام عند بعض النـاس صفة الحقيقة، فينقلها مفترضاً صحتها من غير ان يتعرض لها بتحقيق او على الأقل يقدمها في ثوب من الحيطة والحذر كما تقضي الأمانة العلمية .

ومن ذلك ما وقع فيه ابن ابي اصيبعة في كتاب طبقات الأطبـاء نقلاً عن اسحاق بن حنين خاصّـا بنَطافورس بن الملك روفسطانس وارسطوطاليس اليتيم مما سيأتي ذكره. وأثبت أستاذنا الجليل حضرة صاحب المعالي احمد لطفي السيد باشا في تصديره لـكتاب الأخلاق لأرسطو انه منتحل بقوله :

« والواقع ان أرسطو لم ينتقل مدة الطلب من أثينا ، وكانت أثينـا طوال ذلك الحين جمهورية ليس فيها ملك، فيأمر أفلاطون بتعليم ابنه، ولا ابن ملك ليعلمه أفلاطون فيتلقف أرسطو، الذي جعلته هذه القصة خادماً ما كان يلقيه الاستاذ على ابن الملك، كل ذلك لم يكن، بل لم يكن منه إلاّ شيء واحد هو ان الشاب أرسطو ذكي مجتهد . وهذا حق غريق في بحر من الباطل»

وبعد : فأقدم القصة نفسها نقلاً عن كتاب طبقات الأطباء نفسه مردفة بمقالة ارسطو» او المنسوبة إلى أرسطو في ذلك اليوم . وإني إذ أنشر بعد القصة هذا المقال الممتع حقّـا ، والذي هو من عيون الأدب الرفيـع بلا نزاع، لا اقصد من نشره التعرض له من جهة الباعث الذي حمل اسحاق اوغير اسحاق على إسناد هذا القيل الى ذلك الاسم الضخم، اسم ارسطوطاليس، وانما مقصودي من هـذا النشر هو أن أسهل الاطلاع على هـذا المقـال الممتع لمن يحب أن يروّض نفسه في سلوكه على ضوء ما فيه من حكم وآداب . ولمن يحب أن يلقح فهمه بهذه النتائج البـاهرة ، أضع بين يديه هذه المادة الغزيرة ضانـا بها على من سوف يقرؤها لمجرد التسلية، من غير ان يأخذ نفسه بالرياضة عليها، فقد كان أرسطو يرى والحق ما يراه انه لا فائدة من العلم بما هي الفضيلة علماً نظريّـا دون رياضة النفس على حيازتهـا واستعمالها.

واليكم الآن القصة وما سطّـر حنين من إجابة لأرسطوطاليس في ذلك اليوم .

اتخذ روفسطانس الملك بيتاً للحكمة وفرشه لابنه نطافورس وأمر أفلاطون بملازمته

وتعليمه، وكان نطافورس غلاماً متخلفاً قليل الفهم بطيء الحفظ ، وكان أرسطوطاليس غلاماً يتيماً قد سمت به همته الى خدمة أفلاطون الحكيم،وكان ذكيًا فهماً جادًّا مجداً. وكان افلاطون يعلم نطافورس الحكمة والآداب فكان ما يتعلمه اليوم ينساه غداً ولا يعبر حرفاً واحداً . وكان أرسطوطاليس يتلقف ما يلقى الى نطافورس فيحفظه ويرسخ في صدره ويعي ذلك سرًّا من أفلاطون ويحفظه،وأفلاطون لا يعلم بذلك من سر أرسطوطاليس وضميره،حتى اذا كان يوم العيد زين بيت الذهب (١)

وألبس نطافورس الحلي والحلل وحضر الملك روفسطانس وأهل المملكة وأفلاطون وتلاميذه. فلما انقضت الصلاة صعد أفلاطون الحكيم ونطافورس الى مرتبة الشرف ودراسة الحكم على الاشهاد والملوك ، فلم يؤد الغلام نطافورس شيئاً من الحكمة ولا نطق بحرف من الآداب فأسقط في يد افلاطون ، واعتذر الى الناس بأنه لم يمتحن علمه، ولا عرف مقدار فهمه ، وانه كان واثقاً بحكمته وفطنته، ثم دعا من ينوب عن نطافورس من تلاميذه فقام ارسطوطاليس وصعد الدرج بغير زينة ولا استعداد في اثوابه المبتذلة ، فهدر كما يهدر الطير وأتى بأنواع الحكمة والأدب الذي ألقاه أفلاطون الى نطافورس لم يترك منه حرفاً فقال افلاطون للملك : هذه هي الحكمة التي لقنتها نطافورس قد وعاها أرسطوطاليس سرًّا فما حيلتي في الرزق والحرمان . وكان الملك في ذلك اليوم يرشح ابنه للملك فأمر باصطناع أرسطوطاليس ولم يرشح ابنه للملك وانصرف الجمع في ذلك عن استحسان ما أتى به أرسطوطاليس والتعجب من الرزق والحرمان .

مقالة أرسطوطاليس وما نُسبَ اليه في ذلك اليوم

لبارئنا التقديس والاعظام والاجلال والاكرام .

أيها الاشهاد : العلم موهبة الباري ، والحكمة عطية من يعطي ويمنع ، ويحط ويرفع ، والتفاضل في الدنيا والتفاخر هما بالحكمة التي هي روح الحياة ومادة العقل الرباني العلوي .

أنا اروسطوطاليس ابن فيلوبيس اليتيم خادم نطافورس ابن الملك العظيم . حفظت ووعيت والتسبيح والتقديس لمعلم الصواب ومسبب الاسباب .

أيها الاشهاد : بالعقول تتفاضل النـاس لا بالأصول ، وعيت عن افلاطون الحكيم: الحكمة رأس العلوم ، والآداب تلقيح الافهام ونتائج الاذهان ، وبالفكر الثـاقب يدرك الرأي العازب ، وبالتأني تسهل المطالب ، وبلين الكلم تدوم المودة في الصدور ، ويخفض

---

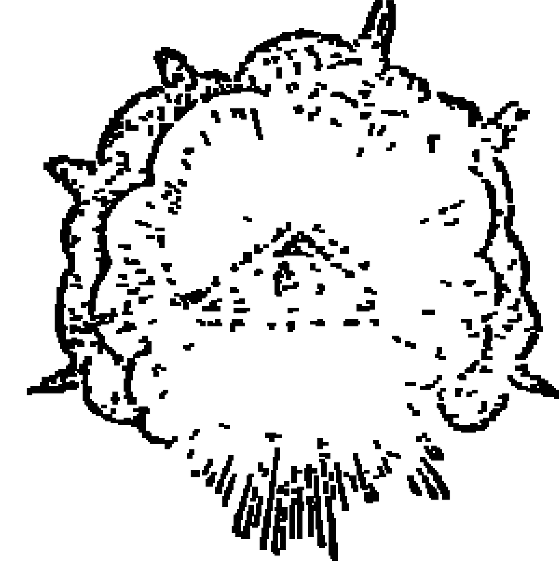
(١) يقال ان الملوك من اليونانية وغيرها كانت تعلم أولادها الحكمة والفلسفة في بيوت الذهب. هذه وكانت هذه البيوت تزين بالصور لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها فاذا حفظ المتعلم من أولاد الملوك علماً أو حكمة أو أدباً صعد على منبر في يوم العيد أمام أهل المملكة بعد انقضاء الصلاة فيتكلم بالحكمة التي حفظها على رءوس الاشهاد وعليه التاج وحلل الجوهر وبعد ذلك يعد حكيما على قدر ذكائه وفهمه

الجناح تتم الأمور ، وبسعة الأخلاق يطيب العيش ويكمل السرور ، وبحسن الصمت جلال الهيبة ، وباصابة المنطق يعظم القدر ويرتقي الشرف ، وبالانصاف يجب التواصل ، وبالتواضع تكثر المحبة ، وبالعفاف تزكو الاعمال ، وبالافضال يكون السؤدد ، وبالعدل يقهر العدو ، وبالحلم تكثر الانصار ، وبالرفق تستخدم القلوب ، وبالايثار يستوجب اسم الجود ، وبالانعام يستحق اسم الكرم ، وبالوفاء يدوم الاخاء ، وبالصدق يتم الفضل ، وبحسن الاعتبار تضرب الأمثال ، والايام تفيد الحكم . يستوجب الزيادة من عرف نقص الدنيا ، ومن الساعات تتولد الآفات ، وبالعافية يوجد طيب الطعام والشراب ، وبحلول المكاره ينتقص العيش وتتكدر النعم ، وبالمنّ يكفر الاحسان ، وبالجحد للانعام يجب الحرمان ، صديق الملول زائل عنه ، السيء الخلق مخاطر صاحبه ، الضيق الباع حسير النظر ، البخيل ذليل وإن كان غنيًّا والجوّاد عزيز وان كان مقلاًّ ، الطمع الفقر الحاضر ، اليأس الغنى الظاهر ، لا أدري نصف العلم ، السرعة في الجواب توجب العثار ، التروّي في الأمور يبعث على البصائر ، الرياضة تشحذ القريحة ، الأدب يغني عن الحسب ، التقوى شعار العالم ، الرياء لبوس الجاهل ، مقاساة الأحمق عذاب الروح ، الاستهتار بالنساء فعل النوكي ، الاشتغال بالغائب تضييع الأوقات ، التعرض للبلاء مخاطر بنفسه ، التمني سبب الحسرة ، الصبر تأييد العزم وثمرة الفرج وتمحيق المحنة ، صديق الجاهل مغرور ، المخاطر خائب ، من عرف نفسه لم يضع بين الناس ، من زاد علمه على عقله كان علمه وبالاً عليه ، المجرب أحكم من الطبيب ، إذا فاتك الأدب فالزم الصمت . من لم ينفعه العلم لم يأمن ضرر الجهل ، من تأنى لم يندم ، من افتخر ارتطم ، من عجل تورّط ، من تفكر سلم ، من روى غنم ، من سأل علم ، من حمل ما لا يطيق ارتبك . التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة ، للعادة على كل أحد سلطان ، وكل شيء يستطاع نقله الاّ الطباع ، وكل شيء تتهيأ فيه حيلة الاّ القضاء ، من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار . قد يكتفى من حظ البلاغة بالايجاز ، يؤتى الناطق من سوء فهم السامع ، من وجد برد اليقين أغناه عن المنازعة في السؤال ، ومن عدم درك ذلك كان مغموراً بالجهل ومفتوناً بعجب الرأي . ومعدولاً بالهوى عند باب التثبت ، ومصروفاً بسوء العادة عن تفضيل التعليم ، الجزع عند مصائب الاخوان أحمد من الصبر وصبر المرء على مصيبته أحمد من جزعه ، ليس شيء أقرب الى تغيير النعم من الاقامة على الظلم ، من طلب خدمة السلطان بغير أدب خرج من السلامة الى العطب . الارتقاء الى السؤدد صعب ، والانحطاط الى الدناءة سهل »

تلك هي القصة وهذه هي المقالة ولعلي بنشرها أصادف مَنْ نفسه مستعدة لهذه الكلمة ملائمة لها فتهتدي بهديها ، وهذا آخر غرضنا من نشرها والسلام .

منصور رجب

المدرس بكلية أصول الدين



الرأي العام الاجتماعي
وكيف نكوّنه في مصر

تكوين الرأي العام سواء أكان سياسيًّا أم اجتماعيًّا أم اقتصاديًّا، يجب أن يجري على أسلوب واحد وبأسباب سيكلوجية واحدة ولغاية واحدة، هي خير الأمة ورقيها بإيجاد وجدان يقظ لتطورها وسعادتها.

والرأي العام بالطبع هو الرأي الناطق، أي رأي المتعلمين الذين يستطيعون درس الحوادث ويستطيعون أيضاً التكلم فيها. وهذان الشرطان ضروريان لايجاد رأي عام مهما كان نوعه.

١ — القدرة على الدرس بتوافر الوسائل للتعليم والاستنارة.

٢ — والقدرة على الافصاح بتوافر الوسائل للتعبير عن الرأي.

وإذا فقدنا أحد هذين الشرطين فقدنا الرأي العام. فني الأمم الدكتاتورية مثلاً وسائل لاتحصى للتعلم كالمدارس وغيرها. ولكن أفراد هذه الأمم يحال بينهم وبين التعبير عن آرائهم، ولذلك لا يمكن أن يكون لهم رأي عام. وكذلك تجد في الأمم الجاهلة التي لم تنتشر فيها وسائل التعلم، حرية في التعبير عن الرأي، ولكن هذه الحرية لا قيمة لها ولا انتفاع بها للجهل المخيم على العقول. ولذلك ليس لها رأي عام وكثير من الأمم الأسيوية على هذه الحال، لأن الأمية تتفشى فيها.

ولا عبرة بالقول بأن الأمة حرة في التعبير عن آرائها اذا كانت جاهلة لأن الرأي لا يتكوّن الاّ بالمعرفة بوسائل النشر في جرائد ومجلات ومحطات اذاعية وكتب ومجالس الخ.

ولهذا السبب يمكن أن نقول إن الرأي العام في مصر ليس رأياً عامًّا، وانما هو رأي خاص، لأن الرأي الناطق، الرأي المتعلم الذي وصل الى المعرفة لا يزيد اصحابه على نحو ١٠ أو ١٥ في المئة من مجموع الأمة، بل ربما كانوا أقل من هذا، وهم أولئك الذين تعلموا في مؤسسات التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية كلها أو بعضها. أما خريجو التعليم الالزامي فلا أستطيع أن أقول إنهم متعلمون وإنهم وصلوا من المعرفة حدًّا يسمح لهم بتأليف رأي عام في شؤوننا الاجتماعية أو الاقتصادية. فهم والأميون سواء من هذه الناحية.

الرأي العام في مصر هو رأي ١٠ أو ١٥ في المئة من الامة. ورأي أقلية صغيرة منزلة

رأي خاص . فاذا شئنا إيجاد رأي عام ، فلا مفر من أن نعلم الأمة كلها تعليماً عصريًا بحيث يستطيع خريجو هـذا التعليم أن يدرسوا مشكلات مصر بالروح العصري في ضوء القيم والاعتبارات العالمية . وهذا أمل لا يزال بعيداً . ولكن ليس معنى هذا أن ننفض أيدينا ونقول : ليس عندنا رأي عام فلا يجدينا بحث هذا الموضوع . لأن الواقع أن هذه الأقلية تقوم بتكوين الرأي العام لأن جمهور الأميين، يسير خلفها ويرضى — من حيث يدري أو لا يدري بحكمها .

والمفهوم من الموضوع الذي نتحدث عنه أننا نرغب في رأي اجتماعي حسن ونبحث الوسائل التي تؤدي الى تحقيقه . فما هو الرأي الاجتماعي الحسن ؟

الرأي الاجتماعي الحسن في سنة ١٩٤٤ هو غير الرأي الاجتماعي الحسن في سنة ١٨٤٤، وهو غير الرأي الاجتماعي الحسن في سـنة ٢٠٤٤ لأننا لا نستطيع أن نتخيل « الحسن » مطلقاً غير مقيد بزمانٍ أو مكان . وقصارى ما نقول فيـه إنه شعور اجتماعي حسن أو انه عواطف اجتماعية بارة ، أو إنه اتجاه إلى الخير في جمهور الأمة المستنير ، ثم فوق ذلك رغبة في تحقيق هذا الخير .

ولسنا في حاجة الى أن نشرح ما هو خير الأمة لأننا إذا تقيدنا بالزمان والمكان عرفنا هذا الخير . اما إذا تطوّحنا في الغيبيات عن الخير المطلق فاننا لن نعرفه، او لن نتفق على ماهيته . ومع ذلك نستطيع أن نقول إن صحة الأجسام واستنارة العقول ووفرة المساكن والملابس الصحية كلها خير لا نختلف فيه ، ولكننا نختلف مثلاً في ماهية العائلة الحسنة أو التعليم الحسن ، بل أحياناً نختلف في منفعة الحروب وضررها ، بل منا من يعتقد أن الفقر مفيد لبعض الناس، وإن العلاج الناجع للجريمة، ليس سوى السجن والمشنقة.

و الرأي العام الاجتماعي « الحسن » يجب أن تكون له رؤيا وأن يستنير ببصيرة مثقفة في كل هذه الشئون. والرؤيا والبصيرة كلتاهما تتكوّنان بالمعرفة العصرية المقيدة بالزمان والمكان.

والمعارف هي المواد الخام التي يتألف منها الرأي العام . وقسم كبير من هذه المعارف، بل أحياناً أصولها نتناولها من المدارس والجامعات . فإذا اختلفت هذه المدارس والجامعات في المعارف التي تعلمها لتلاميذها وطلبتها، فان الرأي العـام يجب أن يختلف . وإذا كان الاختلاف بين أكثرية وأقلية فان هذا الاختلاف ينفع لأنه يعود بمثابة السم القليـل الذي ينبه ولا يقتل . ولكل أقلية لهذا السبب مهمة اجتماعية حسنة إذ لا ضرر على الجسم الاجتماعي من قليل من الترنيخ بل هو يتقوى به . ولكن إذا كان الاختلاف بين طائفتين متساويتين أو تقاربان للمساواة، فانه، أي الاختلاف يضر، لأنه يشق الأمة فيكون كذلك الاختلاف الذي

ينشأ من فريقين متساويين في البرلمان يمنع كل منهما الآخر من العمل . وهذا هو ما نرى آثاره أحياناً في شئوننا الاجتماعية بين فريق المتعلمين مثلاً في الجامعة الأزهرية وبين فريق المتعلمين في جامعة فؤاد الأول، دون انتقاص لاحدى الجامعتين. وحسبنا مسألة خلافية واحدة تدلنا على هذا الانشقاق وهي أيضاً رمز لغيرها من الخلافات . فمن وقت لآخر وخاصة أيام الصيف نسمع رأيين :

أحدهما ينضوي الى مجموعة من المعارف تؤلف ثقافة معينة وتنتهي إلى ايجاد رأي اجتماعي خلاصته أن النساء سيدات وآنسات يتبذلن على الشواطىء ويكشفن من اجسامهن جزءاً كبيراً ، وإن هذا السلوك يخالف تقاليدنا ونحتاج لهذا السبب إلى تقييد الاستحمام بقيود وشروط .

والرأي الآخر يقول إن الاستحمام على الشواطىء يحتاج إلى التشجيع، لأن تعرض المرأة للشمس يمكنها من إدخال فيتامين (د) وهو ضروري للصحة الحسنة، فيجب عليها أن تبقى على الشواطىء أطول ما يمكن من الوقت وأن تكشف من جسمها أكثر ما يمكن . فهنا نظران مختلفان يتساويان في القوة ويحدثان خلافاً يقلقل ويزعزع .

ولكي نكوّن « رأياً عامًّا اجتماعيًّا » حسناً في هذا الموضوع أو في غيره يجب أن نعتبر الزمان والمكان، وإن نعتمد على المعارف العلمية العصرية، ولكن إذا كان جمهور كبير في الأمة يعارض المعارف العلمية العصرية ، ويرفض اعتبار الزمان والمكان ، فإن تكوين رأي عام اجتماعي يعود من المشكلات والمشقات الكبرى .

ولنذكر مثالاً آخر وهو التناقض بين رأي اجتماعي قديم ونظام اقتصادي حديث، فنحن في الوقت الحاضر نتألم من الاخبار المحزنة عن تفشّي الملاريا القاتلة في المديريات العليا من الصعيد . وكان أبرز ما في هذه المأساة أن السكان في هذه الأصقاع الموبوءة على غاية من الفاقة حتى قيل ان بعضهم يأخذ الكينين من أطباء الصحة فيبيعه لكي يشتري الخبز ، وحتى ان الحكومة باعتهم الدقيق بنصف ثمنه .

وظروف مصر الحاضرة تنادي بالحاجة الى العمال والأجور عالية ، فكيف يفتقر جمهور كبير من أبناء وطننا الى الطعام .

الجواب سهل وهو ان بعض أبناء الصعيد يلتزمون ثقافة قديمة وآراء بل عقائد اجتماعية لا تتفق وكسب العيش في عصرنا . ففي الوجه البحري تعمل المرأة الى جانب الرجل بلا عيب ولا عار وكلاهما يتكسب، فلا فقر قاتل يؤدي الى الجوع . ولكن في المديريات العليا من الصعيد يأنف الرجل من إن تعمل زوجته أو ابنته أو أخته وتتكسب لان هذا يعيبه ويشينهُ .

ولذلك يجب عليه ان يفتمم أجرته معهن وهي لا تكفي ، فلا يكون سوى الجوع للجميع ، هو وهن ثم المرض ثم الموت ، وهذا هو الآن مأساة الصعيد .

آراء بل عقائد اجتماعية قديمة ، تحول دون الأخذ بالروح العصري . فلكي نكوّن رأياً اجتماعيًّا حسناً في مصر، يجب ان نكافح هذه العقائد الاجتماعية .

ويجب ان نقول عقائد اجتماعية وليس آراء اجتماعية ، لأن سكان أسوان وقنا وسوهاج لا يرتأون الرأي عن العرض او عمل المرأة او الثأر ، بل يعتقدون العقيدة . ولكنهم ليسوا مع ذلك شاذين لأن ما نسميه «رأياً عامًّا» في أية أمة مهما بلغت حضارتها ، انما هو مجموعة العقائد العامة أو هو رأي قائم على أسس من هذه العقائد العامة .

وأنا أؤثر عبارة « العقل العام » على عبارة « الرأي العام » لأن العبارة الأولى تنطوي على العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التي يتكوّن منها جميعاً «عقل عام» للامة نكاد نتكهن بالرأي الذي تنتهي اليه في حادث معين إذا عرفناها ، أي إذا عرفنا هذه العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التي لا يمكن فرداً ان يتحرر منها مهما ظن انه حر وانه لا يبالي المجتمع الذي يعيش فيه .

وتعجبني هنا كلمة جون دوي عن التفاعل بين الفرد والمجتمع . فهو يقول : ان الفرد الى المجتمع كالطفل الى العائلة . فهو يعطي المجتمع من الآراء ويأخذ منه من الآراء أيضاً بمقدار ما يعطي الطفل لعائلته من كلمات الطفولة الجديدة وما يأخذ منها من مئات الكلمات التي يتحدث بها .

فحين نتكلم عن ايجاد « رأي عام اجتماعي » يجب ان نذكر هذا . يجب أن نذكر أننا في أسر عادات ذهنية وعقائد تبدأ من أتفه أعمالنا إلى أجلها . من الأسلوب الذي نتبع في تناول طعامنا الى طريقة التحدث الى من هم أكبر منا مقاماً الى ارتياء الرأي من حرية المرأة او ديمقراطية الحكم . وهذه العادات الذهنية مع ما يرافقها من كلمات تحمل كل منها شحنة عاطفية تقرر لنا السلوك الاجتماعي فنغضب أو نسر ونخاطر أو نفر من حيث نعتقد أن عواطف الغضب والسرور والمخاطرة والفرار انما هي جميعها من منبع نفوسنا وليست منعكسة من المجتمع علينا . وليس شك في أن الصعيدي في قنا أو جرجا حين يقتل أخته أو أمه للعرض، يعتقد أنه حر في هذا الاجراء ولا يمر بخاطره أنه ربي على عادات ذهنية وتعلم ألفاظاً معينة جعلته يرتكب جريمته . ولو أنه كان قد عاش في مجتمع آخر في إحدى مدن الوجه البحري أو قراه، لما وجد في لفظة العرض هذه الشحنة العاطفية الملتهبة التي يرتكب بسببها نحو ثلاثمائة جريمة قتل في مديريات الصعيد كل عام .

وكلمات اللغة الموروثة والعقائد والعادات الذهنية لا نحسها جميعها، لأنها منا بمثابة العدسة التي ننظر من خلالها الى الأشياء والناس فلا نراها هي . أي لا نرى العدسة التي تكبر أو تشوه لنا الأشياء والناس . أو بكلمة أخرى نقول أن الشحنات العاطفية التي تحملها ألفاظ اللغة والعقائد والعادات الذهنية قد انحدرت الى العقل الباطن فلا نحس المجتمع الذي أورثناها

فحين نفكر في تكوين رأي عام اجتماعي يجب أن نذكر كل هذا، ويجب ألا نضحك حين نقرأ أن أحد الزنوج من الكهنة في أفريقيا السوداء يقدم نفسه راضياً بالقتل لأنه أحس أن بقاءه حيّاً يؤخر المطر وأن موته سينعش الزرع بالغيث . كلانا قد آمن بعقائد مجتمعه وتلبس بها من حيث لا يدري .

ولكن مع كل هذه الصعوبات يجب أن نفكر وندبر الوسائل لايجاد رأي عام اجتماعي حسن . رأي عام مستنير .

والرأي العام المستنير الحسن يجب أن يكون في عصرنا رأياً عالميّاً لأننا لا نعيش منفصلين عن العالم . فاذا كان قد وسع مصر قبل ٨٠٠ أو ٧٠٠ سنة أن تكون لها عادات قومية وثقافة مصرية ، فلا يسعنا نحن الآن ان نستقل باجتماع خاص يخالف الاجتماع البشري العالمي .

كان العالم قبل ٨٠٠ سنة منفصلة أممه ، قد شطحت المسافات بين كل قطر وآخر . وقد احتاجت جيوش ريتشارد قلب الأسد الى عام كامل لكي تسافر من انكلترا الى فلسطين فكان الانفصال تقرره عوامل جغرافية . أما الآن فيمكن السفر بين هذين القطرين في نصف يوم بالطائرة . فالاتصال بين قطر وآخر والوحدة الاجتماعية لها ما يبررها . والنظام الاقتصادي الذي يعم الدنيا سوف يعمم عن قريب نظاماً اجتماعيّاً عامّاً .

وقد اضطررنا في السياسة الى الأخذ بالاتجاه العالمي كما يثبت ذلك انضمامنا الى ميثاق الاطلنطي فأثبتنا بذلك أننا متمدنون عصريون ، قد نقلنا السياسة المصرية من النظر القروي الى النظر العالمي . واجتماعنا — مثل سياستنا — يجب أن يتجه هذا الاتجاه .

ولكن يجب ألا ننسى أن الرأي السياسي قد يتغير بسهولة لا نجد مثلها في تغيير الرأي الاجتماعي، عقيدة راسخة تحمل شحنة عاطفية تتصل بالسلوك الجنسي أو القام الاجتماعي أو الاحساس الديني . ويزاد على ذلك ان ذوي الرأي السياسي — حتى حين يكاد هذا الرأي أن يكون عقيدة — هم أقلية صغيرة مثقفة قد اتسعت آفاقها الذهنية الى حدٍّ ما . فهي تقبل التغيير . ولكن العقائد الاجتماعية تفشو بين الأكثرية الساحقة من الأمة . وهي أكثرية غير متعلمة لم تتدرب أذهانها على الجدل ولم تعرف قيمة الشك فسكان الصعيد الذين

أشرنا اليهم يعيشون بعقائد اجتماعية لها قوة اليقين، ولكن ليس لهم آراء سياسية عن الحرب أو السلم أو التغيرات المنتظرة منهما .

ومهمة الأقلية المثقفة في مصر أن تغير العقائد الاجتماعية عند هذه الأكثرية . ومع أن هذا مجهود شاق فانه واجب، بل هو رسالة يحملها كل مصري مثقف . واذا كان اسماعيل باشا قد استطاع أن ينير الأمة وينقلها من الشرق الى الغرب وان كان قد أدّى الثمن باهظاً . فاننا نستطيع أن نسلك سبيله وخاصة أننا نعرف أن مسافة غير قصيرة قد قطعت . فقد استطاع اسماعيل ان يؤسس المدارس للبنات وان يدخل قانون نابليون وأن يوجد نظاماً عصريّاً للحكومة، بل انه غير الزي الشرقي فأحاله الى زي غربي . ويجب ألاّ ننتقص هذا الاصلاح الأخير، لأن الزي الذهني كثيراً ما يتبع الزي الجسمي .

لقد وجد اسماعيل الأمة وهي على مستوى الظلام الذي كانت تعيش فيه أيام القرون الوسطى فأيقظها وأنعشها وبعثها أمة عصرية اوكالعصرية . فمهمتنا دون مهمته وواجبنا أخف من واجبه . ولكن يجب ان نذكر انه اول من حاول تغيير العقائد الاجتماعيـة وقد غيرها وأعظم محاولة قام بها مصري بعد اسماعيل في تغيير العقائد الاجتماعية هو بالطبع قاسم امين .

ولـكن « العقائد الاجتماعية » هي كما قلنا عقائد وليست آراء فهي تحتاج لـكي نغيرها الى كثير من التكرار والايحاء والقدوة . ذلك لأننا لن نستطيع ان نغير عقائد الجمهور ونحمله على الاصلاح في العائلة والزواج والطلاق والتعليم والعمال والنظـام الديمقراطي للحكومة وللمجتمع الاّ بعد مجهودات متكررة في الدعاية بالـكتاب والصحيفة والراديوفون والسينماتوغراف والمسرح . ولهذين الأخيرين قوتهما الايحائية العظيمة وقدرتهما على تغيير العقائد . ولـكن يجب أن يكون الى جنب هذا حكومـة يقظة نيرة تنتهز الفرص لحمل البرلمان على سن القوانين التي تنقح وتغير في العادات الاجتماعية اي تفعل ما فعله اسماعيل بدون برلمان، بل بدون دعاية سابقة من أي نوع .

في أيام اسماعيل سبقت الحكومة الرأي العام وأصلحت اصلاح المستبد، ولـكن ليست هذه حالنا الآن، ولسنا نحب ان نعود . على ان هناك اشياء في وقتنا سبق فيها المجتمع الحكومة كما نرى مثلاً في اصلاح الوقف وفي غيره فان الحـكومة هي المتخلفة والمجتمع هو المتقدم . وقد نضج للاصلاح، ولـكنها لا تلبي ولا تعجل .

وكما استطاعت الأقلية المستنيرة ان تقنع المجتمع بضرورة اصلاح الوقف وان تحمل الحـكومة على ان تتهيأ — في بطء — لهذا الاصلاح كذلك تستطيع هذه الأقلية التي تتولى توجيه الرأي العام أن توحي العقائد الاجتماعية الجديدة او « تكوّن رأياً عامّاً اجتماعيّاً »

وهذا الذي نقول هو ما فكرت فيه بالفعل هذه الأقلية المستنيرة حين أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية ثم ألحقتها بمجلة الشئون الاجتماعية . ففي أواخر سنة ١٩٣٩ دعيت الى التحرير بهذه المجلة فلبيت الدعوة في رغبة حارة لأن اجعل منها دعاية اجتماعية عصرية ورأيت أن خير ما يجب ان اقوم به إن أنقل القارىء من النظر القروي للاصلاح الى النظر العالمي . وذلك بأن اعرض طرق الاصلاح التي اتبعت في امم اوربا وأميركا المتمدنة اي ان المجلة تعود سجلاً دائماً او معرضاً وافياً للاصلاحات الاجتماعية في سويسرا وأسوج ودنمرك وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها في كل ما يتعلق بالتعليم والأسرة والزواج والطلاق ورعاية الأطفال والرقي الصحي والكفالات الاجتماعية للعامل وبناء المساكن ومعالجة الجريمة ونظم الضرائب التدريجية والاتجاهات الصناعية الى غير ذلك .

ورأيت ان في عرض هذه الاصلاحات مجردة بلا دعوة الى التقليد إيحاء حسناً يبعث الاقلية المستنيرة على التفكير في إصلاح وطننا بتوجيهات اجتماعية جديدة . والواقع اننا لا نحتاج الى الابتكار في التطور الاجتماعي كما لا نحتاج الى الابتكار في التطور الصناعي او المالي . لأن تخلفنا او وقف رقينا منذ ايام اسماعيل يجب ان يحملنا على الاسراع في درس الاصلاحات الاجتماعية في الامم التمدنة التي لم يسء حظها كما ساء حظنا ، ولم يقف تطورها كما وقف تطورنا ، فما علينا لا يزيد على النقل مع التنقيح او بلا تنقيح . وغايتنا واضحة وهي الغاية التي رسمها اسماعيل حين قال « لم تعد بلادي من افريقيا انما هي الآن من اوربا » .

***

فلكي نكون رأياً اجتماعياً عاماً في مصر يجب قبل كل شيء ان نجعل الاقلية المستنيرة تتجه نحو الغرب ، وان نجعل من شرح الاصلاحات الاجتماعية هناك مادة أولية نصنع منها ونصوغ اصلاحاتنا . وهذا الاتجاه يحملنا على مكافحة أشأم لفظة في مصر في وقتنا وهي القول بأننا أمة شرقية . فان هذه اللفظة قد أحدثت في بعضنا عقدة نفسية تجعلنا نقف معارضين مناوئين ، ليس للاصلاحات الأوربية فقط بل للمعيشة العصرية ، كأننا لسنا من البشر التمدنين . وهذه العقدة تتخلل مجتمعنا كما لو كانت سرطاناً يمتد وينفرع فيجب مثلاً ألاّ تستحم السيدات والآنسات لأنهن شرقيات . ويجب ألاّ تتعلم المرأة التعليم الجامعي لأنها شرقية . ويجب ألاّ نؤمن بهذا الاصلاح ولا نصطنع هذه العادات لأننا شرقيون لنا تقاليدنا الخاصة الخ .

ولو أن اسماعيل باشا كان قد اتجه هذه الوجهة وقال مثل هذا القول لبقينا الى الآن في

أسر الظلام . ظلام القرون الوسطى . فالرأي العام الاجتماعي الذي نحتاج إليه هو الرأي العام المصري،الرأي العـام العالمي الذي يعم عالم المتمدنين في هذا الـكوكب . وقد انضممنا الى ميثاق الاطلنطي في الحقوق الأساسية. وبودي لو يخترع ميثاق اطلنطي آخر في الحقوق الاجتماعية ننضم إليه ونشارك به المتمدنين في رفاهيتهم . ومع ذلك فاننا يجب ألاّ نهمل القيم الاجتماعية في الميثاق القائم . وأكبر ما في هذا الميثاق شأناً من حيث القيمة الاجتماعية هو الحريات الاربع ، إذ أن إحدى هذه الحريات هي التحرر من العوز ، وهي تنطوي على كثير من الحقوق الاجتماعية .

وكلاهما، أي ميثاق الاطلنطي والحريات الاربع، يرمزان إلى المستقبل. فنحن نتجه وجهة عالمية وسوف نتكلم بلغة واحدة في الاصلاح الاجتماعي . بل منا الآن طبقة صغيرة العدد ولـكنها تنمو وتتكاثر وتنظر هذا النظر في الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأفراد هذه الطبقة يؤلفون في مصر الرأي العـام المستنير المتطور . ومعرفتهم بالمجتمعات الراقية في أوربا وأميركا يجعـل وجدانهم بمساوىء مجتمعنا عميقاً موجعاً . وهم لذلك صوت صارخ وسخط لا ينقطع على أحوالنا . ومن هنا الكراهة التي يكتسبون من بعض الفئات الراكدة الجاهلة المستقرة، أولئك الذين لا يدرون أن الرجل المهذب في عصرنا هو الرجل العالمي، والمجتمع المهذّب هو المجتمع العالمي

ولـكي نكوّن رأياً اجتماعيّاً في مصر يجب ان تجد هـذه الطبقة المستنيرة في الأمة الحرية في الدعاية الاجتماعية ، كما يجب على افرادها ان يحسوا مسؤوليتهم الشـاقة السامية وينشطوا إلى انجاز التزاماتهم، ويجب ان يكون لهم اثر في الجريدة والمجلة والـكتاب والراديوفون والسينماتوغراف والمسرح .

وللتلخيص أقول :

١ — ان الرأي العام هو على الدوام رأي خاص ، لانه رأي فئة صغيرة قد حصلت على المعرفة المستنيرة مع القدرة على التعبير . وهـذه الفئة الصغيرة تقود جمهور الأمة . وحال التعليم في مصر يجعل هذه الفئة صغيرة جداً .

٢ — الرأي العام الناضج يحتاج الى شيئين : هما المعرفة والحرية . فيجب ألاّ نضع أية عقبة في سبيلهما .

٣ — الرأي العـام يختلف باختلاف المعرفة . لانها هي المادة الأولية التي يتألف منها الرأي . فالرأي الذي يرتئيه خريج الأزهر لا شك مختلف عن الرأي الذي يرتئيه خريج جامعة فؤاد ، لأن المعرفة مختلفة .

٤ — إذا كان الاختلاف بين أقلية وأكثرية فهو مفيد، لأنه لا يشل الأكثرية عن العمل ولكنه ينبهها ويحفزها . فان الاختلاف بين طبقتين متساويتين في العدد والمكانة مضر لأنه يشل الأمة كلها عن الاصلاح . وبخاصة إذا كانت المعرفة التي اوجدت هاتين الطبقتين تختلف في الأصول إحداهما شرقية تقليدية، والأخرى عصرية علمية . لأن التصادم هنا مرجح والتسوية شاقة .

٥ — كثير من متاعبنا في مصر يعود إلى أننا نقول شرق وغرب . وذلك الصعيدي الذي يستنكر استخدام بنته أو أخته أو زوجته ويكلف نفسه اطعامهن مع عجزه ، انما يلتزم ثقافة شرقية لم تعد تليق بالعصر الحديث . ومهمة الطبقة التي حصلت على المعرفة والتي تنشد في مصر مجتمعاً علمياً ، هي مكافحة هذه الثقافة .

٦ — تكوين الرأي العام السياسي أسهل من تكوين الرأي العام الاجتماعي، لأن الأمة تلتزم عادات اجتماعية كأنها شعائر دينية يصعب عليها تركها . ولذلك نحتاج في إيجاد رأي عام حسن، أن نغرس عقائد جديدة .

٧ — المجتمع العلمي الذي ننشده هو المجتمع العالمي الذي يسير مع الأمم المتمدنة في الرقي الاجتماعي ، وهو في عصرنا مجتمع أوروبا وأميركا ولذلك يجب أن تكون هذه وجهتنا كما كانت وجهة اسماعيل باشا وقاسم أمين .

٨ — لقد انضممنا الى ميثاق الاطلنطي . وهو ميثاق أكثره سياسي وأقله اجتماعي . فيجب أن ننضم أيضاً الى الحريات الأربع، لأن بعضها يحمل كفالات اجتماعية كبيرة القيمة . واتجاهنا هذا هو اتجاه علمي وعالمي معاً .

وكان يمكنني بدلاً من هذا التلخيص، بل بدلاً من هذه المقالة كلها ، أن أوجز فأقول إن الغاية الأولى والأخيرة من تكوين رأي عام اجتماعي أن يؤدي هذا الرأي في النهاية الى ما نسميه « المجتمع العلمي » الذي تستغل فيه المواهب البشرية والطبيعية بشكل يمنع التبذير والضياع : تبذير الصحة والذهن وضياع الثروة .

ونحن نصف المعارف الدقيقة التي ينتفي منها الخطأ بأنها « علمية » فالمجتمع العلمي هو المجتمع الذي يقوم على المعارف الدقيقة . ولا يمكن أن نحصل على هذه المعارف إلا مع الحرية التامة .

فلكي نكون رأياً عاماً اجتماعياً، نحتاج إلى جمع المعارف، ثم الى حرية الاستنتاج كما هو الشأن في العلوم الجيولوجية او البيولوجية او الكيميائية .

سلامه موسى



جنة الشوك (*)

نوّهنا بهذا الكتاب في عدد المقتطف السابق ووعدنا بنقده وتقديره التقدير اللائق به وبمؤلفه . والحقيقة ان الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير . أما من حيث الأسلوب فهو أسلوب الدكتور طه حسين حيث ينطلق بعض الأحيان انطلاق السهم إذا صدر عن عقيدة ، فان صدر عن تمحل تعثر ومضى يترنح ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة ، فيشعرك بأنه يتمحل وأنه يريد أن يصل الى غرض يحاول أن يخفيه محاذراً أن يُبين ، يقظاً لئلاَّ تنم عن غرضه كلمة أو عبارة ، فاذا اجتاز هذه المرحلة الشاقة العسيرة التي قد تشعرك أن أنفاسه كادت تنقطع فيها ، انطلق مرة أخرى انطلاق السهم ، فهو يفرض على نفسه هذه العبودية بعض الزمن، حتى إذا ضاق بها ذرعاً خانته الارادة وضاق صدره بما فرض على نفسه من تلك القيود ، فانفجر كأنما هو حبيس انفرجت عن نفسه أعواد حديدية كانت تكبت مشاعرها وأهواءها ، فراح يمرح في رحاب الحرية ، فلا يلبث أن يظهرك على ما حاول أن يخفي في نفسه، والطبع مبديه .

وليس هذا الكتاب نسيجاً وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير ، بل هو نسيج وحده بين كتب الدكتور طه حسين . فهو من حيث أنه أدب شيء جديد ، ومن حيث أنه سياسة أسلوب رمزي يغشى عليه الغموض وتضارب المعاني بعض الأحيان، ويفلت منه زمام الرمزية أحياناً أخر، فيظهر مكشوفاً مفضوح الأغراض . ومن حيث أنه تهكم سبيل قد يقود بعض الشباب أو الكثير منهم ، وهم الذين يتملقهم المؤلف في المقدمة ، الى مزالق وعرة وإلى اتجاهات خلقية أراد المؤلف أن يحاربها فلم تمكنه الرمزية التي ساق فيها عباراته من اظهار غرضه ، فساق القول بحيث يظهر أنه يؤيد الناحية التي حاول أن ينفيها ، والقادرون من شباب هذا الجيل على استخلاص المعاني المستترة قلائل ، بعد أن غمرتهم موجات الأدب الأصفر المعروف . ومن حيث انه اجتماع فيه دعوة قوية الى الاشتراكية وتوقع الثورات

(*) من مطبوعات دار المعارف للطباعة والنشر تأليف الدكتور طه حسين ٢١٦ صفحة من القطع الصغير

المحطمة . ومن حيث أنه خطة فيه بشارة سافرة بحرب الطبقات . ومن حيث انه هجاء، وجرجة في بعض المواضع كأنه الزئبق ، وصارم صافي الحديدة كأنه الشعاع في مواضع أخرى . رجرجة اذا حاول ان يساوم ، وصارم إذا أراد أن يبيع بيع السماح .

***

أما ناحية الأدب في هذا الكتاب فلا تخرج عن أنها تجديد في الصورة والوضع . أما الأسلوب فشائع عند العامة في أمثالهم وأقوالهم واشاراتهم الخفيـة ، إذا أرادوا أن يغمضوا ولا يبينوا . ويكفي أن يوفق الأديب الى الابتكار في الصورة وفي الوضع . فان هذا في الواقع لهو الابتكار بعينه . أما القول بأن الابتكار خلق من العدم فإفراط هو في الحقيقة بُـعد عن كل انصاف .

أنظر كيف يقول في السياسة : ان فلاناً يطلب الجلاء السريع بعد الحرب ، وانه يطلب هذا حتى يلي الحكم أو يشارك فيه (ص ٦٣) الساسة عندنا يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع (ص ٦٥) للضرورات أحكامها ، والرجوع الى الباطل أنفع وأجدى من التمادي في الحق ص (٨٩) لِمَ تسند عظائم الأمور الى قوم لا يعقلونها ، ولا يقدرون على النهوض بها ، ولا بأيسر منها ؟ لأن السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعد (ص ١٠٣) أيّ وعود الرجال أشبه بوعود النساء ؟ وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن الشعب ، أو النهوض بأعباء الحـكم (ص ١٢٨) . قال لبيد (ص ١٥٣) .

ذهب الذين يُـعاش في أكنافهم   وبقيت في خَـلْـفٍ كجلد الأجرب

فالى من يرمز المؤلف ؟ من الذين ذهبوا وكان يعاش في أكنافهم ، ومن الذين بقوا وهم كجلد الأجرب ؟ لا ندري ! فقد تقلب المؤلف بين جميع الأحزاب السياسية عملاً بحكمته (الضرورات تبيح المحظورات : ص ٣٤) .

تخيل المؤلف رئيس عصابة فرّق أصحابه للسـطو فعاد كل منهم بحصة تختلف عن حصة صاحبه من المسروقات ، وأراد أصحـاب القلـة أن يساووا أصحاب الـكثرة في القسمة ، وهمّ اللصوص أن يجادلوا الرئيس ، فاضطرهم الى الصمت والاذعان، لانه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره الى الشرطة (ص ١٦٥) .... ندرك هنا أن الشرطة مرموز بها إلى الشعب المسروق ، أما من هم اللصوص ؟ فالمؤلف ولا شك أعرف الناس بهم . أهم القلة والـكثرة جميعاً ؟

فلان يتملق حزب الـكثرة وحزب القلة جميعاً ! لماذا ؟ لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتـاجان اليه (ص ١٨٨) فمن هوذا ؟ نتخيل ، ولنا الحق أن نتخيّـل، أنه كاتب

يتصل بالعوام . أما الاسم فعند رمزية الأستاذ المؤلف ، وهو بالطبع أعرف الناس به أيضاً .

اترك السياسة وانظره كيف يقول في التهكّم : أدّبتنا الحياة بأن الضرورات تبيح المحظورات (ص ٣٤) ونحن لا ندري أي ضرب من ضروب الحياة أدبنا هذا الأدب الا حياة الوصولية والانتهازية . وهو ضرب من الأخلاق أجاد المؤلف وصفه في الكتاب كأنه به خبير .

وثب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشّمال . لماذا ؟ لأنه يئس من رضا الحكام فابتغى رضا الشعب ! ذلك بالرغم من أنه يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس ! فان مُدَّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى اليمين ، فوثبة أخرى تردّه من رضا الحكام إلى ما يريد . وما دام الانسان قادراً على أن يذهب ويجيء ، فلا جناح عليه في أن يذهب ويجيء . أما المبدأ فوسيلة لا غاية (ص ٦٤) ..... وفي هذا عبارة تدل على أنه يعني شخصاً أو أشخاصاً من الحزب الوطني ، وأكبر الظن أن طه حسين آخر من ينبغي له أن يحملق في هؤلاء .

الحياة قد علمتنا أن الضرروات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان . فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنّى (ص ٧٤) ويقول إن طريق الرقي في مناصب الدولة إسداء الثناء إلى غير الأكفاء ، وإهداء الهجاء إلى ذوي الغَنَاء ، وقذف المحصنات والخوض في الأعراض بغير الحق (ولست أدري متى كان الخوض في الأعراض حقّاً) وجفوة الصديق وخيانة الخليل (ص ١٠٧) ... قرأت فيما قرأت من شعر كاتول (شاعر روماني رسم اسمه الحقيقي قاطُلُس) مقطوعة يهيّئ فيها نفسه للموت ، بل يحث فيها نفسه على الموت ، لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رَقِيَا إلى منصب القنصل . فأعجبتني سخريته اللاذعة ، كما أعجبني قول الشاعر العربي .

تأهّبوا للحَدَثِ النازِلِ قد قُرِئ الشعر على كامِلِ (ص ١٤٢)

وكامِلٌ هذا ، على ما يظهر ، إنسان أنعم عليه برتبة ومنصب علمي خطير ، فعد المؤلف هذا حدَثاً نازلاً ينبغي أن يتأهب الناس لدفعه ، لأن « كامِلا » إذا أصبح منصوراً ، ففي ذلك ضياع لفهمي وفهم المؤلف وفهم الناس . ولا شك أن ذلك يكون من « الحدَث الكبار » كما يقول بشّار .

إذا صُرِف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر في الناس جميعاً . فاذا رُدَّ اليه أطلق

لسانه بالثناء على الناس جميعاً . لأنه يسخط فلا يقول الا شراً ، ويرضى فلا يقول الا خيراً ، وقد حيل بينه وبين خير الأمور ، وخير الأمور أوسطها (ص ١٧٥) ..... وهذا الضرب من التهكم غث ولا شبهة . فان محصله إنك إذا توسطت في القدح والثناء ، بحق وبغير حق بالضرورة ، كنت في خير الأمور . وليس في هذا خير على اطلاق القول . ومن هذا وأمثاله مما نقلنا عن الكتاب ، ترى ان ناحية التهكم فيه مضت في صورة نصائح خطيرة النتائج شديدة الأثر في الأخلاق .

وفي الكتاب نزعة اشتراكية وتوقع لخطوب اجتماعية جسام وفورات محطمة تحرق الأخضر واليابس وتأتي على النائم والقائم . يقول : أعرف أوعية لا تمتلىء وآنية لا تفيض ، هي خزائن الأغنياء وعقول العلماء وجوفهم ! ولكنَّ أناءً واحداً قد يفيض فيصبح مضرباً للامثال ، ومصدراً للعبر وبعيد الأثر في حياة الأجيال . ألا تذكر سيل العَرِم (ص٣٠/٣١) أما السيل فهو الشعب الثائر ، وأما العرم فقوة الثورة الاجتماعية المحطمة .

قال المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمنَ وما تفنى العناقيد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البَشَم فلا يزيدها الا نهماً ، كأن بطونها تلك الآنية التي أشارت إليها الأساطير اليونانية والتي ليس إلى ملئها سبيل . أما النواطير فسل المتنبي عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب. وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً بل قل أن الشعب يقظان نائم . يقظان لأنه يعمل وينتج ، ونائم لأنه لا يحمي ثمار عمله من هذه الثعالب (ص ١٣٦) .... وفي هذا تصوير رائع لتفاضل الطبقات ، كأنما هو يقول أيها النواطير (التي هي الشعب) تنبهي للثعالب التي تنهبك فذوديها عن ثمراتك . وإذا أردت المزيد من هذا فانظر ص ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . ولكن إذا أردت أن تلمس الدعوة إلى أشياء وأشياء فاقرأ ما كُتب تحت عنوان « رعيَّة » (ص ٩٣) ان الشعب سيد نفسه وانه مصدر السلطات (حسن) وانه بذلك هو الراعي وهو الرعيَّة (أحسن) بذلك يحدثهُ الدستور ، وهو إن لم يصدق الدستور اليوم ، فقد يصدق غداً . واقرأ في (ص ١٩٤) : ما دام في الأرض سادة يملكون مئات الألوف ، وخَدم لا يملكون شيئاً وفرص للهو ينفق فيها المال ، فكل العصور واحدة وان طال الزمن.

وفي الكتاب هجاء يعتقد المؤلف أنه أشد فنون الأدب ملاءمة لعصر الانتقال الذي نحن فيه (وعسى أن لا يضيق بالهجاء ذرعاً إذا كان صادق العقيدة في ذلك) .

ومن أمثلة الهجاء أن فلاناً يرى نفسه حاكماً بالطبع(ص ٧٩)، الصفوة الممتازة من المثقفين

تكرم كاتباً يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب (ص ٨٥) فلان قاطع الناس غير واحد منهم ، فلعله ينتظر منه نفعاً فهو يستبقيه حتى يبلغ آخر ما عنده ، ثم يلحق بالآخرين (ص ١١٦) ، عصر الانتقال : أشد فنون الأدب له ملاءمة فن الهجاء (ص ١٢٥) ، من الوزراء من يتخذون زينة (ص ١٢٧) ويقصد المؤلف أنهم كالأشياء الأليفة وإصص الزهور والخزف القديم مثلاً . فلان يخلّط في كتابه عن حياة النبي (صلعم) تخليطاً شديداً ، لأنه عرض لما لا يحسن من الأمر ، وقال فيه بغير علم (١٣٠) ولعله يرمز الى صديق قديم قارضه الثناء ، أو بالحري أنهما تقارضا الثناء على صفحات الجرائد زمناً ، فلما وصلا تدابرا ، ولم يبق أحدهما على صاحبه عندما فرغت الجعبة ، وقول المؤلف في عبارة « نعم » ص ١١٦ خير ما يقرأ ختاماً لصداقتهما ، وانظر قوله : شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ، هو شعب ناهض يسعى الى المجد بخطو سريع !! (ص ١٥٦) أما المؤلف فليس من الشبان وليس من الشيوخ ، فهو الذي يقول «أنا» إذا سأل سائل : « أليس منكم رجل رشيد » . ومزكّي نفسه يقرئك السّلام .

وقد يتفق للمؤلف ان يحاول رسم صورة لشخص فيزل ، وإذا به يصور نفسه . . وإذا شئت من ذلك شيئاً فاقرأ «وصول» (ص ٣٧) ، واقرأ «غيره» ص (٩٥) ، فان المؤلف في هذه المقطوعة «خاصّة» قد نمّ عن نفسه بجلاء . فانها تدل على انفعال ذاتي ، لا انفعال موضوعي . والانفعال الموضوعي انفعال يقوم برواية أو خبر تتلقاه ، أما الذاتي فهو ذلك الذي يصوره المؤلف . ودليلنا على ذلك كما أسلفنا مقطوعة «وصول» ص ٣٧ واليك هي :

« لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى صار شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرة ملتوية ، يغمرها ضوء الشمس من وراء نقاب من السّحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلام قاتم فاحم في كثير من أجزائها . فلمّا ارتقى الى القمة واطمأنّ في مكانه منها ، نسي ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ، وعاش ليومه الذي هو فيه» .

« نسي الماضي فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل فلم يتحفّظ ، ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس ، فلم يأمن إلى أحد ، وإذا هو مضطر الى أن يظهر الحب لقوم يبغضهم أشد البغض ، وإذا النـاس من حوله مضطرون إلى أن يظهروا له حبّا متهالكاً وليضمروا له بُغضاً مهلكاً ، واذا الأسباب بينه وبين الناس ترثّ ، حتى ان أيسر الأمر لينتهي بها الى الانقطاع » .

«قال الفتى لاستاذه : لقد سمعت منك ، ولكنني لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثني بالألغاز منذ حين ، فماذا تعني وإلامَ تريد ؟

« قال الشيخ : إن حب الاستطلاع إن نفع في بعض الوقت فقد يضر في بعضه الآخر . وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هي مَرَايا تُنْصَب للناس ، فلينظر فيها من يشاء ، وليُعْرِض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها . فقد ينظر فيها من يحب الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى ، لأنه يرى نفسه » . انتهى «وصول»

قال دمنة : كان صاحب هـذه الصورة حرًّا دستوريًّا ، فشنّ غارة شعواء على سعد وصحبه من الوفديين في جريدة اسمها « مصر » ، وأخذ الدستوريون يؤيدونه ، حتى إن رئيس وزارة منهم أحدث أزمة سياسية أمام مجلس النواب ، فارتقى بذلك بعض الدّرج وصَعَّدَ في طريق وعرة ملتوية ، فلما علم أنه تسنم أعلى ما يمكن أن يصعدوه من الدرجات، انكفأ إلى أصحاب سعد من الوفديين ، وشنّ غارته الشعواء على الدستوريين عند ما شعر بأنه ليس لديهم درجات يصعدها، وأمعن في ذلك حتى لقد همّ بان يطعن أحدهم، وهو له أستاذ وكفيل وناصح ، عند ما استقال من الجامعة احتجاجاً على وزارة أرادت أن تسلب استقلال الجامعة ، فارتقى بذلك بعض الدّرج وصعّد في طريق وعرة ملتوية . استغفر الله ، انه لم يهم فقط بطعن أستاذه وكفيله ، بل لقد طعنه بالفعل . ثم ارتد الى الأحرار الدستوريين بعض الزمن لما وجد عندهم درجات يصعّد فيها ، ثم رجع إلى أنصار سعد ، لما فرغت درجات أصحابه الأوّلين .

ما هذه المرآة ؟ هي إحدى المَرَايا التي يطل فيها المؤلف ، فيرى صورة نفسه . وما هو الحافز المستتر وراء هذا التغاضي المتبادل بين الناحيتين ، ناحية حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ، وفلان هذا ؟ الحافز أنه يحتاج الى الحزبين ، وأن الحزبين يحتاجان إليه (ص ١٨٨) ها هوذا مفتاح نفسه . أستغفر الله ثانيةً ، بل وقُفْل نفسه أيضاً .

وفي الكتاب مواضع للنقد من حيث الاسلوب ومن حيث التفكير . أما في مجموعه فعمل أدبي يحفز الى تحريك الفكر . وجدير بجهد أدبي يحرك الفكرَ ، ان يكون له أثره الثابت في الحياة .

جملة القول أن طه حسين قد أعطى بذلك الكتاب مفتاح نفسه ، فاقرأه فيه رمزاً وحقيقة ، وأبين ما تقرأه فيه إذا ضاق صدره بالرموز ، فانه حينذاك يُسْفِر ، فتتضح ملامحه. ولله الحمد فقد عرفنا انه اشتراكي ولم نكن نعرف ذلك ، وعرفنا انه يعتقد ان الهجو أدب عصور الانتقال .

المـــاء

الماء هو العنصر الثاني الضروري للحياة بعد الهواء . فالانسان يستطيع أن يعيش بغير طعام عدة أيام . ولكنه لا يمكنه أن يبقى فى الحياة بغير الماء إلا ساعات معدودات .

وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه المنزل الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » لأن حوالي ٨٠ ./. من تركيب الكائنات الحية على اختلاف أنواعها يتكون منه . والانسان أول هذه الكائنات ، فالماء يكون الجزء الأكبر من تركيب أنسجته ودمه وافرازات غدده المختلفة

وماء الجسم يستعمل دائما في اتمام وظائفه الفسيولوجيـــة . فهو يخرج من الجلد عرقاً ، ومن الكليتين بولا ، ومن الرئتين بخار ماء ، ومن الغدد افرازات مختلفة . كما انه يستعمل في عمليات الهضم من بدء افراز اللعاب على الطعام ، الى انصباب العصارات المعدية على الكتلة الغذائية ، الى التمثيل الغذائي ، ثم نقل الدم والغذاء لأنسجة الجسم المختلفة ، وأيضاً في عملية اخراج فضلات الطعام .

وينبغي أن يعوض هذا الماء المستعمل في وظائف الجسم ، وإلا نقصت نسبة الماء فيه ، فتتعطل وظائفه الحيوية ، أو تتم على وجه ناقص مبتور ، يترتب عليه ضعف الجسم في أجهزته المختلفة . وما الجسم الذي لا يمد بحاجته من الماء ، إلا كتربة جافة ينقصها الرواء .

وفئة كثيرة من الناس لا تمد أجسامها بالماء الضروري لها . فيصابون بفقر الدم . لأن قلة الماء معناه قلة الدم ، كما يصابون بالامساك لأن الامساك سببه الاحتياج الى الماء ، وتمتقع ألوانهم وتضعف أعصابهم ، وتنبعث من أفواههم رائحة كريهة . وتنقص افرازات غددهم الحيوية كاللعاب والمرارة والبنكرياس والعصارة المعدية وغيرها . ويحتاج الانسان الى اثنى عشر كوباً من الماء كل يوم على الأقل لتعويض ما يفقده الجسم في اتمام وظائفه المختلفة . والماء أعظم منق للدم . وهو يمنع تراكم المواد الضـارة بالقولون ، ويحفظ الجهاز الهضمي وكذا الأجهزة الأخرى من الجسم صحيحة نظيفة ، مما يكسبها مناعة ضد فتك الجراثيم وعبثها .

« فاشرب الماء بشره ولا تأكل بشره » وهذا نصح كريم فاه به الرسول صلوات الله عليه في حديث شريف له . وخير نظام لشرب الماء أن تتبع فيه الطريقة الآتية : —

١ — بعد الاستيقاظ من النوم صباحاً اشرب بقدر ما تستطيع بعد أن تغسل أسنانك .

٢ — لا تشرب على الأكل ، حتى لا تغسل طعامك ، ولكن بعده بثلاث ساعات اشرب ما شئت من الماء القراح .

٣ — انقطع عن شرب الماء قبل الأكل بنصف سـاعة ، حتى تعد الجهاز الهضمي للاحساس الطبيعي بالجوع .

٤ — اشرب كمية قليلة جداً من الماء في نهاية الأكل ، حتى تلين الكتلة الغذائية .

٥ — اذا شربت الماء مصه كما يشرب الطفل لبن أمه . واحفظ الماء قليلا في فمك وأنت تشربه .

٦ — اشرب بكثرة ، ولكن كميات قليلة في كل مرة ، وضع في محل عملك ، أو على مكتبك ابريق ماء واشرب كوباً منه بين الفينة والاخرى ، وعود نفسك أن تشرب دون أن تحس العطش

٧ — اشرب قدحاً من الماء قبل أن تنام .

اتبع هذا النظام شتاء وصيفاً ، فلا يصيبك على الاطلاق تصلب في الشرايين ، ولا ضغط في الدم ، ولا املاح ، ولا حصوات في الكلى ، أو في غيرها ، ولا امساك ، وما يترتب عليه من أمراض مختلفة عديدة . ولقد سئلت مرة من رجال الصحافة ببلاد الانكليز يوم كنت بها أحاول عبور المانش عن سر صحتي ، فأجبت « انه فن شرب الماء » . فكيف تشرب الماء ، ومتى تشربه ، فن من فنون الصحة ، فتعلمه مما بينته لك . واذا ذكرت لك الماء كشراب ، فأنا لا أنسى ذكره لك ، كأداة لتنظيف جسمك . فعليك بالوضوء والاستحمام كل يوم ، تعش صحيحا قوياً ، لا تمرض غير مرضة الموت .

فهمي عطا الله



القلب وأمراضه

القلب عضو عضلي موضعه منتصف الصدر ، بين الرئتين ، مائلاً الى اليسار على هيئة مخروط ذروته الى أسفل ومرتكز على الحجاب الحاجز . وهو يعمل عمل مضخة ماصة — كابسة، فيجذب الدم من الأوردة ويدفعه الى الشرايين وينشأ من ذلك صوت يدرك بالسمع يسمى بضربات القلب التي تكون منتظمة في الحالة الصحية ، وبالعكس في الحالة المرضية .

وعلل القلب او آفاته كثيرة ، عسرة التمييز لما تقتضيه معرفتها كما لا يخفى من العلم الواسع والخبرة الطويلة نظراً الى التغيرات التشريحية التي تطرأ سواء على غشائه الباطن (كالتهاب الشغاف مثلاً) ، أو على غشائه الخارج (التهاب التامور) ، او على عضلة القلب نفسه عند ما يصاب بالالتهاب ايضاً . زد على ذلك أنهُ قد تعتري القلب اضطرابات وظيفية في جهازه العصبي والدوراني دون غيرها فتسبب للمريض الخفقان وذبحة الصدر (ألم الفؤاد) ، ويغلب حدوث هذه الأعراض عادةً في المتقدمين في السن وتتميز بألم حاد ناخس مع عسر شديد في التنفس وضيق لا يوصف ، ويشعر المصاب كأن الموت قد جاءه ، ويدل ذلك غالباً على علة أصلية في القلب .

ولما كانت علل هذا العضو كثيرة كما قلنا وكان المجال قصيراً لسردها هنا بالتفصيل رأينا أن نكتفي بذكر أسبابها الرئيسية مما تهم القراء معرفته مع قطع النظر عن تقسيمها العلمي على اصطلاح الاطباء .

١ — أمراض القلب الخَلْقِية : يشاهد أحياناً في بعض الحالات الموروثة أن العوامل المرضية التي تؤثر في القلب والأوعية الدموية وتظهر في الجنين وهو في بطن أمه تستمر بادية فيه حتى بعد الولادة فيقال لها اذ ذاك خَلْقِية ، ونذكر من هذه الأمراض الخلقية مثلاً الاتصال غير الطبيعي الذي يوجد بين الأذينين . والواقع انه توجد فتحة بين الأذين الأيسر والأذين الأيمن في حياة الجنين تدعى « فتحة بوطال » ، بيد أنها تلتحم في الحالة الطبيعية وتنسد قبيل الولادة ولا يبقى قط أي اشتراك بين الأذينين . وهكذا قل عن البطينين : فقد يحدث أحياناً اشتراك بينهما مع عدم نمو الصمامات الموجودة بين كل من الأذين والبطين

المجاور له . أو انه يوجد ايضاً ضيق في فتحة الأوعية الدموية الغليظة عند محل اتصالها بالقلب الخ . غير ان هذه التشويهات الخلقية تعد لحسن الحظ نادرة .

٢ — الوراثة : وهي ان بعض الاشخاص يأتون للعالم ولا يشكون او لا يبدو عليهم ظاهرياً أي مرض من ناحية القلب ، ومع ذلك فقلبهم هذا ليست له تلك المقاومة الموجودة عند الأشخاص الاصحاء السليمين . ولا يقتصر ذلك على القلب فحسب ، بل يتعداه الى الاعضاء الاخرى من الجسم . هذا وتوجد أسر يكون جميع أفرادها مصابين بضعف من ناحية القلب ، واذا تتبعنا الذريات المتعاقبة من هذه الأسر يتضح لنا انه بالرغم من المظاهر الصحية الخارجية التي يتمتع بها أفرادها ، فالجدة والأم والولد، يشكون غالباً اضطرابات قلبية لا يوجد لها سبب او لا يمكن تعليل حدوثها الاّ للانتقال الوراثي للمرض .

فكما أنه توجد أمراض شتى تنتقل بالاستعداد الوراثي من الوالدين الى الأولاد كالتدرن مثلاً ، والسرطان والداء الخنزيري والداء الزهري والتهاب المفاصل وعلل الجهاز العصبي (كالصرع والخوريا والفالج والجنون والسكتة) والتشويه الخَلْقِي والعمى والصمم والربو والامفيزيما وداء السكر والشيب والصلع وسقوط الاسنان الخ) ، كذلك تكون الحالة ايضاً في أمراض القلب، فيولد الطفل وعنده استعداد لهذه الأمراض ، وقد تشتد وتنمو أعراضها بعوامل وأسباب كثيرة متنوعة وتلعب منذ الطفولة الأولى دوراً سيئاً في سير أمراض القلب وتجعل قلب السليم عليلاً . ونذكر في الدرجة الأولى بين تلك العوامل والأسباب الأمراض المعدية .

٣ — الأمراض المعدية : أخص هذه الأمراض ما له علاقة بموضوع بحثنا اليوم هو الرثية المفصلية الحادة والحمى القرمزية والحمرة وذات الرئة وتسمم الدم . أما البرداء (الملاريا) فانفعال القلب بها على ما يظهر يكون أخف وطأة — بعكس النزلة الوافدة (الانفلونزا) التي تلعب دوراً خطيراً في نمو أمراض القلب واشتدادها ، وعدد كبير جداً من الأشخاص شوهدوا فعلاً مستهدفين لاضطرابات وعلل قلبية خطيرة نتيجة اصابتهم بهذا الداء الوافدي في عام ١٨٩٢ و ١٩١٨ — ١٩١٩ ، ثم في لندن عام ١٩٢٩ حيث تفشي في بقاع كثيرة من الارض وأودى بحياة الملايين من السكان . ولا يفوتنا كذلك ذكر الذباح Angina الذي وان كانت تبدو لنا أعراضه سليمة العاقبة، لكنه كثيراً ما يؤدي الى الاضطرابات القلبية نفسها . والعوامل المرضية التي تحدث أعراض الامراض ، وأعني بها المكروبات المعدية ، تعمل على تسبيب الحمى والالتهاب، وهي إما أن تدخل مباشرةً في الدم وتنتشر فيه وتحدث ظواهر المرض ، أو ان تولد فيه مادة تسمى بالتوكسين ، أي السم ، فينتشر في الدورة

الدموية ويحدث أعراض المرض أيضاً . ولما كان القلب كما هو معلوم المركز الرئيس لدوران الدم في الجسم وفيه يجب أن تمر كل الكتلة الدموية ، فيكون بطبيعة الأمر متأثراً بسموم تلك الجراثيم والمكروبات ومفاعيلها الضارة تأثراً بليغاً — وهذا ما يؤول الى احداث التهابات وتقلصات والتصاقات وعلى الخصوص في الصمامات، حيث يكون مفعول تلك المكروبات شديداً لدرجة ان هذه الصمامات تغدو غير كافية أو عاجزة عن القيام بعملها كما ينبغي بالدقة المطلوبة، مثلما يجب في الحالة الطبيعية :أي سدّ فتحات القلب وتأمين سير الدم وانسيابه ومنعه من الرجوع الى الوراء . فضلاً عن ذلك فعضل القلب نفسه قد يستهدف بدوره للمرض عند ما تحدث تلك الأمراض المعدية في الصغر : ففي هذه الحالة يبقى المصاب مريضاً الى النهاية . ولحسن الحظ ليس لمعظم العلل المذكورة تلك النتائج السيئة على القلب ، حتى الرثية المفصلية (الروماتزم) نفسها تترك القلب غالباً صحيحاً سالماً، بفضل العناية والمداراة والحمية اللازمة .

٤ — اضطرابات القلب من أصل عصبي : يجب أن نذكر هنا ما للسن (من السن السادسة إلى سن العشرين) عند الطلاب خلال مدة الدراسة من التأثير السيء أيضاً على وظائف القلب والذي يعود منشؤهُ الى الجهاز العصبي ، ويمكن القول هنا ان أسبابَ هذه الاضطرابات القلبية هي نفس الاسباب التي تؤدي الى حدوث العصبية والتهيج والنوراستنيا في تلك السن . وقد يكون للتربية السيئة تأثير يذكر على حياة الطفل العصبية حتى في دور الرضاعة . وهكذا قل عن الاجهاد العقلي السابق لأوانه ، وعدم كفاية النوم ، والافراط في الأكل ولاسيما الاكل الدسم الذي يلقي على القلب والمعدة أعباءً تؤدي الى اختلال الجهاز الهضمي والدورة الدموية . أما عند الشبان والكهول فان الحياة الجلوسية ، واهمال الرياضة البدنية ، ومشقة الاعمال المنهكة ، والطعام غير الكافي والمكوث ساعات طويلة في الكتابة والعزف على البيانو ، والتدخين واحتساء الخمر والسهرات الطويلة المتكررة والاسراف في الشهوات وعلى الخصوص اضطراب البال ، تكون سبباً في احداث كثير من الامراض العصبية والصدرية والقلبية . وبكلمة واحدة كل ما يُتعب أو يسبب تهيجاً للجهاز العصبي له أبلغ التأثير على القلب وجميع الذين يشكون اضطراباتٍ من هذه الناحية في سن الكبر، يجب ان يُعزى منشؤها الى سن الصغر في غالب الأحيان . ومن النادر أن الامراض المعدية العوية في هذه السن، يكون لها تأثير يذكر على القلب.

٥ — الرمع (الخلوروس) Chlorose : هو نوع من الأنيميا لهُ بدوره أهمية كبرى في احداث كثير من الاضطرابات القلبية وسببهُ تبديل في تركيب الدم وأعني بذلك نقص

مقدار الهموغلوبين (اليحمور : وهي المادة الملونة للدم) التي تحتويه كريات الدم الحمر، ويتسبب نقص اليحمور نفسه عن نقص الحديد في الدم

وهذا المرض غالباً ما يصيب النساء وعلى الأخص الفتيات أو الشابات، إما من سوء المعيشة أو من أسباب عامة أو شخصية مضادة للصحة أو من كثرة الحمل وزيادة الإرضاع. وهذه الحالة كثيراً ما تكون مصحوبة باضطراب الطمث . والناظر للمصاب يراه شاحب اللون إلى الاخضرار، مصفرّ الشفتين وملتحم العين الجفني، ويشعر غالباً بالضعف والتعب وفقد الشهية للطعام وخفقان القلب ودوار الرأس أحياناً . وأغلب ما تشاهد هذه الحالة المرضية عند المعدمات الفقيرات الحال : كالخادمات والعاملات في المصانع والبائعات في المخازن والطاهيات والكوّايات repasseuses الخ . ويحدث أحياناً لحسن الحظ أن تزول هذه الأعراض شيئاً فشيئاً بعد مدة من الزمن باتباع القواعد الصحية وحسن التغذية وتبديل الهواء واستعمال بعض المستحضرات الطبية كالحديد أو الكينا مع الحديد والزرنيخ وزيت السمك الخ فينال المصاب الشفاء التام

٦ — الاجهاد : ولا يبرح عن الذهن أيضاً ما لبعض الرياضات البدنية في أيامنا هذه من التأثير الفعال على وظائف القلب عندما تكون هذه الرياضات عنيفة شاقة وبقدر ما تكون الرياضات البدنية مفيدة لذيذة جذابة (كالركض والمشي بسرعة والسباحة وتسلق الجبال الخ) عندما يمارسها الانسان باعتدال، تكون بالعكس مضرّة ومسبّبة لتضخم القلب وضعفه عند ما يساء استعمالها . ويكفي أن يعتري المرء الاجهاد مرة كي يبقى أثر ذلك فيه مدة طويلة من الزمن .

ولا يفوتنا كذلك ما للافراط في التدخين في وقتنا هذا من التأثير السيء في إحداث مثل هذه الاضطرابات، ولا سيما اذا قورن بضروب الملذات الأخرى في الشبيبة والانهماك في الرغبات الجنسية .

فقد أحصى العلماء ١٩ نوعاً من السم في الدخان وكل نوع منها له مفعول قتّال، ولا سيما النيكوتين وأوكسيد الكربون وحامض البروسيك والبيريدين . فهي سموم مفسدة للقلب وهادمة للصحة، مضعفة للارادة مخدرة للاعصاب، مسبّبة لأمراض الحلق والصدر ومساعدة على الاصابة بالسل . وبالاجمال نقول إنها تقتل حيوية الانسان وتقلل من مقاومته للامراض .

وتأتي أيضاً في دوري الشبيبة والكهولة عواملُ أخرى تؤثر بدورها في إحداث أمراض القلب أو اضطراباته، ومصدرُها المشقة التي يعانيها الانسان في مكافحة صعوبات الحياة ،

والمسؤوليات الكثيرة ، والاضطرابات ، والهموم اليومية ، وارتفاع تكاليف الحياة ، وازدياد المنافسة مع تناقص الدخل الذي يضطر الرجال أن يُقبلوا على العمل المضني بكلياتهم خوفاً ممّا يخبؤه المستقبل . علاوة على ذلك : كثرة التفكير في الامور المالية للحصول على الذهب خصوصاً عند الذين تهمهم أسعار البورصة ، ثم المجازفات التجارية الجامحة التي تؤدي الى الاجهاد العقلي وانشغال الفكر . فهذه كلها لها تأثير فعال أيضاً على حالة القلب العصبية . وفي غالب الأحيان تكون هذه العوامل مجتمعة . فبعض الأشخاص مثلاً يضاف الى أتعابهم الجسمية المنهكة ، الافراط في تناول المشروبات الكحولية . والبعض الآخر ، وهم الذين تكون حالتهم العقلية متوترة بالمسؤوليات الكبرى والاضطرابات المستمرة ، يضاف إليها الاسراف في الملذات والشهوات الجنسية .

وأخيراً قد تتسبب أمراض القلب من إجهاد الجسم ولو مرة واحدة عندما يقوم بعض الاشخاص فجأة بتمارين رياضية دون أن يكونوا معتادين عليها أو ممارسين لها : كتسلق الجبال والجولات الطويلة وما شابه ذلك من الرياضات التي تتطلب مجهودات عضلية عنيفة فوق الطاقة .

٧ — المشروبات الكحولية : لا يخفى ما لتأثير هذه المشروبات في الجسم واضرارها بصحة الانسان . فقد أجمع رأي المدققين من جماهير الأطباء والحكماء وعلماء الاجتماع من ذوي العقول السليمة والآراء الصائبة على مضار المسكرات جسماً وعقلاً ، بتركها مدمني هذه المشروبات فريسة لجيوش العلل والأسقام كأمراض القلب والدماغ والمعدة والكبد والصدر وحالات سوء الهضم والهزال والجنون والخمول والبله والبلادة والشلل وغير ذلك من الآفات والاضطرابات . و « القوة » التي يعتقد بعضهم انها تأتي من تعاطي المشروبات الروحية ليست إلاّ وهماً خدّاعاً . وقد اتضح بالتجارب العديدة ان شارب الخمر أقل من غيره اقتداراً وكفاءة على الاستمرار على العمل لما يعتريه من الخمول والانحطاط في القوى والميل الى التشرد ومخالفة الأوامر وفقدان قوة المقاومة وجعل الجسم أشد قبولاً للامراض الوبائية . عدا ذلك فقلب شارب الخمر يكون أسرع في دقاته ويزيد مقدار الدم المقذوف في وقت معلوم ، وهذا يسبب تعب القلب .

وقد أيدت التقارير الموثوق بها ان الجعة (البيرة) بصورة خاصة ، إذا أكثر الانسان من تعاطيها ، أسوأ التأثير على القلب وتحدث فيه اضطرابات أشد مفعولاً من مفعول الخمر والكحول .

٨ — السن : لتقدم السن ، ولاسيما الشيخوخة ، تأثير مهم أيضاً في احداث الاضطرابات

القلبية المشار اليها حتى عند الأشخاص الذين عاشوا عيشة منتظمة ولم يجهدوا قلبهم بشغل فوق طاقته . أما منشأ هذه الاضطرابات فهو تصلب الشرايين الذي يصيب القلب ولاسيما الشرايين ، فتضعف هذه الأوعية الدموية شيئاً فشيئاً وتفقد نعومتها ومرونتها ثم تخترقها بعدئذٍ الأملاح الكلسية فتصير صلبة . وفي الدور المتقدم من المرض يمتد ترسيب الجير ليس إلى جدران الأوعية فحسب بل وأيضاً الى الأغشية المبطنة للقلب . والأضرار التي تحدثها هذه الحالة تجعل الشرايين أخيراً سريعة العطب والانكسار وقابلة للانفجار . أو أن تصاب جدرانها بالسماكة والتصلب لدرجة يتعذر مرور الدم فيها — الأمر الذي يترتب عليه أضرار بليغة واضطرابات خطيرة، غالباً ما تؤدي الى الوفاة.

ومجمل القول ان القسم الأعظم من أمراض القلب واضطرابات الدورة الدموية التي تحدث في النصف الثاني من حياة الانسان، يكون مرتبطاً بتصلب الشرايين .

***

أنواع أمراض القلب وتشخيصها

بعد ان بينا في ما سبق من الأسباب الرئيسة لاضطرابات القلب او أمراضه بقي علينا ان نذكر هنا أنواع هذه الأمراض وتشخيصها . وهذه الانواع كثيرة متعددة لا يتسع المجال هنا لشرحها بالتفصيل ولذا نكتفي بذكر أهمها وهي : تضخم القلب . التهاب الشغاف (باطن القلب) وعلى الخصوص التهاب الصمامات . تمدد القلب. حؤول (أو تنكّس) القلب الشحمي Dégénérescene graisseuse . التهابات عضلة القلب الحادة والزمنة. التهاب التامور (غشاء القلب الظاهر) ثم أمراض القلب الناشئة من أصل عصبي .

والنظر الآن في ما يختص بتشخيص أمراض القلب وتمييز محل علله وماهيتها وأصلها وتمييزها الخ . فهذا كله لا يتأتى الاّ بعد البحث الوافي والاعتناء والتروي . ولما كانت معرفة ذلك تابعة بالكلية لتمييز المرض أولاً، كان التشخيص في المقام الأول من واجبات الطبيب ومداراً لمداواة المريض، والتصرف مع أهله الذين يريدون استعلام العلة ومدتها وعواقبها . وللاطباء كما هو معلوم طرق خاصة لمعرفة أمراض القلب نذكر منها اولاً :« الطرْق » أو « القرْع » percussion الذي ابتكره الطبيب النمسوي Avenbrugger في عام ١٧٦١ فرأى أهميته وفوائده وعمل على تعميمه فانتشر استعماله في المانيا بواسطة Skoda وتلامذته،

ثم انتشر بعدها في فرنسا بواسطة Laennec و Barth و Roger و Peter و Lasègue و Grancher وغيرهم . وبفضل هذه الطريقة في فحص المريض يمكننا ان نرسم دائرة القلب على الصدر ونعرف تغييرات حجمه مع حالة الأذينين والبطينين . وقد ساعد على تأييد التشخيص بالنظر استعمال أشعة إكس المجهولة في الطب ويكفي لذلك فحص ظل القلب المنعكس على الحاجز écran . أما ما يختص بفحص ضربات القلب بالمسماع Stethoscope فهو معروف ولا يحتاج شرحه أيضاً الى تبيان . فقد كان اكتشافه للمرة الأولى في عام ١٨١٩ بواسطة Laennec و Stokes و Skoda و Barth و Bouilland و Troussean و Potain الذين عمموا استعماله ووصفوه وصفاً مسهباً . فبفضل المسماع يمكننا ان نتأكد مما إذا كانت ضربات القلب طبيعية أو غير طبيعية ، أو اننا نسمع بالعكس نفخات أو احتكاكات كما هي الحالة في أمراض الصمامات أو التهاب التامور . فاذا حدثت مثلاً نفخات Souffles بدلاً من « تيك تاك » الطبيعية كان ذلك دليلاً على اصابة الصمامات بالمرض أو على نقص في عملها كما هي الحالة في الاصابة بالتهاب الشغاف (باطن القلب) . فتجاويف القلب التي يجب أن تغلق اغلاقاً محكماً ، يغدو هذا الاغلاق في حالة التهاب الصمامات ، ناقصاً ، فيتبع الدم حينئذٍ مجرىً غير طبيعي . وقد تصاب الصمامات أيضاً بالضيق والانكماش على أثر بعض العوامل الالتهابية مما تؤول نتيجته إلى حدوث موجات أو دفعات دموية ، عند كل انقباض في القلب ، ويكون حجم هذه الموجات والدفعات ناقصاً .

***

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الأعراض عند المصابين بالاضطرابات القلبية مثل الخفقان والتشنج والثقل أو الضغط في منطقة القلب مع الشعور بالألم عند قمته في موازاة حلمة الثدي وهي اضطرابات وظيفية محضة منشؤها جهاز القلب العصبي والدوراني . ومن النادر أن يهتم المريض بمعرفة سبب أو أسباب هذه الاضطرابات ، بل كل ما يهتم به هو أن يعرف كيف ينظم حياته وفقاً لحالته الصحية الراهنة . وربما تطرقنا في مقالنا المقبل الى ذكر التدابير الواقية لاجتناب مثل هذه الاضطرابات القلبية للاسترشاد والعمل بها اتماماً للفائدة .

الدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو : العراق



الاحلام والروح

تحت هذا العنوان قرأت في مقتطف ابريل ١٩٤٥ مقالاً لحضرة الأديب الأستاذ احمد فهمي ابي الخير واستغربت ما فيه من اقوال لا تقف لدى محك العلم الحديث الذي لا يثبت أمامه شيء مما يخرج عن دائرة الطبيعة . والعقل لا يقتنع بأن وراء الطبيعة شيئاً غيرها إذ ليس ثمت ظاهرات تدل على وجود شيء وراءها

يقول الأستاذ ابو الخير : « الانسان في الواقع جسد ونفس وروح »

اما انه جسد فهو (كما قال) ما نرى ونلمس . واما انه نفس وروح، فليس في ظاهراته ما يدل على شيء يسمى نفساً او روحاً . والنفس والروح في لغتنا، لفظان مترادفان لشيء لا نعرف ما هو ، ولا تعريف علمي له ، ولا أدلة حسية على وجوده

على ان الذي نعرفه جيداً ، ويعرفه كل بشر عاقل هو ان الانسان مؤلف من ثلاث مقوّمات : جسد، وحياة، وعقل . اما الجسد فمادة محسوسة بالحواس الخمس لا شك في وجودها . واما الحياة فعمل كيماوي من اعمال المادة . وهذا العمل يظهر لنا في توالد الاحياء ونموها وموتها وفي تحركها ايضاً . هذه هي ظاهرات الحياة في الانسان والحيوان والنبات . واما العقل فهو ايضاً عمل فسيولوجي من اعمال خليات الدماغ ، وظاهراته التصور والتخيل والتذكر والاستدلال الى غير ذلك مما يسميه علماء العقل « القوى العقلية »[1]

الجسد يرتد بعد الموت الى عناصره الكيميائية التي تؤلف منها . وحركة الحياة تبطل بعد الموت بانحلال الآلة التي كانت تتحرك بها . كما ان سير السيارة يبطل بتلف المحرك وسائر ادوات السيارة . وكذلك العمل العقلي يبطل بطلاناً كلياً بعد الموت بتوقف حركة الحياة في الدماغ . ويمكن ان يتوقف العمل العقلي برهة بتوقف حركة الخليات الدماغية الوقتي : إما بفعل المخدر او السكر او النوم العميق الذي يرتاح فيه الجهاز العصبي كله من العمل . وليس النوم بالسر

---

(١) راجع مقال « عالم المجهول » بمقتطف مايو ١٩٤٥

العويص الذي يحتاج الى تفسير . فما هو إلاّ هذه الراحة . وأما كيف يحدث ففي كتب الفسيولوجيا تعليل واضح له

غير هذه المقوّمات الثلاث لا نرى في الانسان مقوّماً رابعاً يسمى روحاً او نفساً أو أي اسم آخر . وما طرأت فكرة الروح على الانسان الاول الاّ لما صار يرى الاحلام ويتذكرها . فكان اذا رأى في المنام طيف ابيه الميت ثم تفقده في الصّحو في رمسه ولم يجد الاّ جيفة متهدمة ، يحار في فهم هذا الطيف وفي تفسير سره . فكان يظنه شيئاً موجوداً حقيقة . ولكنه لا يفهم سره . فسماه روحاً او نفساً . وأخيراً لما نبغ الانسان في العلم ، صار يفهم ان هذا الطيف الذي يراه في الاحلام او في الرؤى التخيلية ، ما هو الاّ خيال من اختراع المخيلة لا يخرج عن كونه عملاً من اعمال خليات الدماغ . فعالم الأحلام والأرواح هو في كرة الدماغ وليس في خارجها البتة .

***

نحن نعترف بوجود مادة الجسد لاننا نشعر بها . ونعترف بوجود الحياة لأننا نحس بظاهراتها كالتوالد والنمو والموت، وان كنا لا نزال نجهل سر الحياة . ونعترف بوجود العقل لاننا نحس او ندرك أفعاله كالتصور والتذكر والاستدلال الخ . ولكننا لا نحس بوجود ظاهرات تدلنا على وجود شيء رابع فينا يسمونه روحاً .

ولذلك نسأل الذين يدّعون انهم يستحضرون الأرواح او يحاولون اثبات وجودها — نسألهم ان يخبرونا «ما هي الروح»

لا تستطيع ان تثبت لي وجود شيء قبل أن تخبرني ما هو هذا الشيء الذي تريد أن تقنعني بوجوده .

يقول حضرة الأستاذ ان النفس (او الروح) جسم اثيري مطابق تمام المطابقة للجسد المادي خليةً خليةً . يعني ان للانسان بدنين متداخلين بدن مادي مؤلف من عناصر كيميائية وبدن أثيري مؤلف من الأثير . وبحسب هذا الزعم يمكن أن ينفصل البدنان الواحد عن الآخر : إما بالموت وإمّا في الحياة بظروف خاصة . فمع أي البدنين تذهب الحياة ؟ ومع أيهما يذهب العقل ؟ أم ان كلاً من الحياة والعقل ينشطر ان شطرين بين البدنين .

وما لنا ولهذا التفنيد في الزعم . نسأل الزاعمين ما هي الظاهرات المحسوسة الدالة على وجود بدن اثيري متغلغل في البدن المادي ؟ — لا ظاهرات البتة .

بل قبل التماس الدليل على البدن الأثيري نطلب اثبات وجود الاثير نفسه . الأثير نفسه لا ظاهرات له البتة، تدل على وجوده . وقد حاول احد العلماء الكبار هو ميكلسن اكتشاف

سرعة الأجرام في الأثير بعملية حاذقة . فأخفق . لان العملية اسفرت عن عدم وجود اثير. وكانت عمليته هذه سبباً في اكتشاف اينشطين ناموس النسبية.

وقد افترض علماء القرن الثامن عشر وجود مادة خفيفة لا وزن لها تملأ الفضاء قابلة للتموّج سموها اثيراً ، لكي يعللوا بها بعض ظاهرات الطبيعة . فكون فرض الاثير يسهل تعليل بعض الظاهرات الطبيعية، لا يثبت وجود الاثير. لانه متى امكن تعليلها بدونه يسقط . ولذلك لما امكن اينشطين وغيره من العلماء ان يفسروا اكثر تلك الظاهرات من غير الاستعانة بالأثير، قالوا استغنينا عن فرض الأثير.

الأثير مفروض فرضاً ولا برهان حسي عندنا على وجوده . وما دام لا برهان حسي عندنا على وجوده ، فلا قيمة للزعم ان للانسان بدناً اثيريًّا وهو النفس او الروح .

وبناءً على ما تقدم لا قيمة لدعوى بعض الروحانيين انهم استطاعوا تصوير هذه الارواح الأثيرية أو هذه الابدان الاثيرية . ولا قيمة لكل ما يقوله بعض الناس المحسوبين علماء مهما ذكروا له من أدلة وبراهين وما ادعوه من مشاهدات وشواهد وزعموه من رؤى وأحلام ذات شأن . لأن الأساس الذي يبنون مزاعمهم عليه وهو الأثير لا وجود له او على الأقل لا اثبات لوجوده . وما تلك المزاعم والرؤى والأحلام الاّ اوهام في الأدمغة فقط . واما إذا راموا ان يفرضوا فروضاً ويؤيدوها بدعاوى مشاهدات ورؤى واحلام، فيمكن اعتبار جميع خرافات العوام السذّج ايضاً مشاهدات تؤيد تلك الفروض وتؤيد ما تشاء من الوف الفروض التي لا نهاية لها .

الانسان يستطيع ان يعلم كل ما يدخل الى دماغه عن طرق مشاعره الخمسة ، وجميع حواسه الباطنة ، ومدركاته العقلية مستمدة من معلومات تلك المشاعر ومستندة اليها . ومشاعره لا تحس الاّ فيما هو من طبائع المادة فقط . لا تحس شيئاً خارجاً عن المادة . وبذلك لا يمكن ان يعرف العقل شيئاً خارجاً عن المادة . فان كان الأثير ضرباً من الهيولى (اصل المادة) مهما كان لطيفاً، فلا بد من ان تحس به حواسنا ولو بطريقة غير مباشرة كالكهربا والمغنطيسية والجاذبية . وحينئذٍ يقع تحت حكم العقل وتصرف قواه . واذن فالبدن الأثيري بهذا الاعتبار ليس إلاّ مادة قابلة التغير والانحلال والتفكك ، ولا يمكن هذا ان يتصرف تصرفاً مخالفاً لنواميس المادة . فلا يمكن ان يوجد في مكانين في وقت واحد، ولا يمكن ان يتمرد على الزمان والمكان . فلا يمكن أن يكون في الماضي والمستقبل معاً . ولا يمكن أنْ يعمل عملاً خارقاً مما ينسب الى الارواح من الخوارق .

نقولا الحداد

مهداة الى محمود تيمور

... الى الوراء

كنت أحسب أني فرغت من تقرير مسألة رواية « أهل الكهف » لمصنفها صديقنا الاستاذ توفيق الحكيم حين قلت ، بعيد ظهورها ، انها مأخوذة عن كتاب اسمه « الالتفات الى الوراء » لمؤلفه ادوارد بيلامي طبعة « توخنتز »

Looking Backward, (1) by Edward Bellamy. Collection of British Authors Tauschnitz Edition, vol. 2690, 1887—1890.

وما كان يخطر لي ببال انك ستقف مني ، بعد سنوات عدة ، لتقول لي انك غير مقتنع بعد ، من صحة ما ذهبت اليه في أمر هذه القصة ، وحجتك في عدم الاقتناع ، انك لم تجد الكتاب الانجليزي في مكاتب القاهرة ! !

أما ان الكتاب موجود او غير موجود في مكاتبنا فهذا امر لا يعنيني ، لأن الناقد ليس مكلفاً باقتناء عشرات من نسخ كل كتاب ينقده أو يستند اليه في نقده يقدمها لكل أديب يطيب له الاطلاع عليها ليتأكد من صدق دعواه ، بل هو مكلف باقامة الدليل . والذي يهمني قبل كل شيء هو معرفة انتشار روح الجد في العمل عند الأدباء ، وميزان الصدق عندهم في التحري والتنقيب توصلاً الى الحقيقة .

تعلم يا صديقي أن السرقات الادبية ، وان تنوعت أوصافها ، تختلف باختلاف أمزجة السارقين ، ولعلّ أفضح السرقات الأدبية تلك التي ينتزعها الأديب من أماكن يتوهم انها مجهولة ومظان منسية ، فيقدمها على اعتبار أنها من طهي دماغه وعصارة تفكيره ، واليك الآن أدلة مقتطفة من الكتابين للمقارنة بين ما هو وارد في كتاب « الالتفات الى الوراء » وبين رواية « اهل الكهف » .

أفعل ذلك وأنا افرض بحسن نية ، انك قرأت رواية « اهل الكهف » وهكذا بحسن اطلاعك على ملخص وجيز لرواية « الالتفات الى الوراء » لتقبض على طرف الحبل ، كما يقال ، ولا اقول لسماع كلام الخصمين لأن صديقنا الاستاذ توفيق الحكيم سكت سكوتاً طويلاً على التهمة التي ألصقتها به ولم يدفعها عنه ، ولكنه قال لي مرة انه لم يقرأ كتاب « الالتفات الى الوراء » ؟ .

(1) طبع في امريكا حديثاً بطبعة Modern Library No 22

شاب من الأثرياء مصاب بالأرق ينوّم كل ليلة تنويماً مغنطيسيًّا على طريقة اليسماريزم، أحبَّ فتاة واتفق معها على البناء بها، وقبيل حفلة الزواج اشتعلت النار في المنزل الذي كان يسكنه، فأكلت كل شيء فيه ولكنها لم تصل « الى البدروم » الذي اتخذه هذا الشاب مأوًى له لبعده عن الجلبة والضوضاء، وقد ظنّ ان الرجل مات احتراقاً.

تُرك البيت المحترق المتهدّم مدة مئة عام أو أزيد، ثم صحت عزيمة جيل من الورثة على اعادة بناء هذا البيت، وعند ما فتح « البدروم » وُجد فيه جثمان ذلك الشاب مسجى في سريره والى جانبه اوراق تدل تواريخها على انصرام مئة عام وأزيد، وان الشاب انما هو نائم نوماً مغنطيسيًّا. هنا تبتدىء حوادث الرواية وتنجلي مواقفها بالمقارنة.

(١) بطل قصة الالتفات الى الوراء ينام مئة عام وأزيد نوماً مغنطيسيًّا ويستيقظ استيقاظاً علميًّا.

وأبطال « اهل الكهف » ينامون ثلاثمائة عام ويستيقظون بفعل ربهم.

(٢) بطلة الالتفات الى الوراء فتاة غنية أحبها فتىً غنيّ كان على أهبة الاقتران بها إلاّ ان كارثة الحريق التي نزلت ببيته جعلتها تعتقد انه مات فحزنت عليه وارتدت ثياب الحدادً مدة أربع عشرة سنة وبعدها تزوجت.

وبطلة اهل الكهف أميرة اعتنقت النصرانية حبًّا بشاب نصراني يعمل في ديوان أبيها الملك الوثني، فلما لجأ الشاب الى الكهف هرباً من فتنة اشترك فيها تلقاء والدها وانقطعت أخباره عن الأميرة، ارتدت المسوح حزناً عليه.

(٣) في رواية أهل الكهف يذهب « يمليخا » بعد يقظته الى أسواق طرسوس ثم يعود فيقص على صاحبيه ما رأى « قلت لكما لا تسألاني اليوم شيئاً » لقد صرتما أنتما أيضاً غريبين عني. أنتما البقية الباقية بعد ان مضى كل شيء كالحلم، آه لو رأيتماني وقد أحاط بي الناس في ثياب غريبة مختلفة على وجوههم ملامح غريبة » وقال أيضاً « وان كنتما لا تحسّان بعد بالهرم، فاني بدأت أحس بوقر ثلاثمائة عام ترزح تحتها نفسي »

ينسل بطل الالتفات إلى الوراء من البيت. فيذهب الى المدينة، يتنقل من شارع إلى شارع، فيجد انقلاباً عظيماً في الأشخاص والأشياء وفي طبائعها أيضاً فيعود إلى البيت وهو على حال من الاضطراب والغمّ، يقلّبه الواقع بين كفيّ التعقل والخبل، القناعة والشدة، اليقظة والحلم، وتعاوده آلام السنين المئة والأربع عشرة التي نامها فباعدت بينه وبين الجيل الحاضر: يحسّ انه مخلوق كباقي الناس غير انه يختلف عنهم بازدواج الشخصية ازدواجاً متناقضاً، ويشعر انه يحمل ثقل قرن كامل

(٤) في رواية أهل الكهف يصرخ « هرموش » في وجه صاحبه قائلاً « كفى هراء ، ولدي قد مات ولا شيء يربطني بهذا العالم ، هذه الحياة الجديدة لا مكان لي فيها » فيجيبه صديقه قائلاً بعد حوار « لا تفكر في هذا ، عد كما كنت أمس ، واسخر مما تسمع ، هاته الأعوام الثلاثمائة إن هي إلاّ كلمات وأعداد وأرقام ، ماذا تستطيع الأرقام أن تغيّر من احساسك بالحياة » .

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يعود بطل القصة الى « البدروم » يجيل الطرف في نواحيه فيناجي نفسه قائلاً :هاهو ذا مكاني الوحيد، هاهو ذا المكان الذي احتواني قبل مئة عام فلا بق فيه إلى الأبد ، لقد مات الماضي ، ولم يعد لي مكان ولا معنى في الوجود ، لا أنا ميت مع الأموات ولا حي مع الأحياء

(٥) في رواية أهل الكهف يودع « مشلينا » الأميرة « بريسكا» الوداع الأخير قائلاً : « الآن أرى مصيبتي وأحس بعظم ما نالني ، لا يرموش ولا يمليخا » . رزئنا بمثل هذا ، إن بيني وبينك خطوة ، بيني وبينك شبه ليلة ، والليلة أجيال (كذا) أمدّ يدي إليك وأنا أراكِ حية أمامي فيحول بيننا كائن جبار عجيب هو التاريخ».

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يدور حوار بين بطل الرواية وبطلتها يقول الأول فيه « إني لأشعر بالوحشة الجاثمة على صدري . أليس موقفي من الحياة أشد وأعجب من موقف أي إنسان على الأرض ؟ موقف تُشل الألفاظ وتُفلج الكلمات في وصفه ، فلمَ لا أكون مستوحشاً ومستهجناً كل شيء حتى وجودي ونفسي أيضاً » ويقول لها « إن لطفك ودعتك وحنانك تكاد تنسيني حقيقة الأمر الواقع . وتكاد توهمني ان في طوقي الاندماج في جيلكم ونسيان الكائن التاريخي العجيب فأكون مثلكم أشعر بمثل ما تشعرون ، ولكني سمعت خطبة في المذياع[1] دار مذيعها البارع حول قصتي أقنعتني أن من العبث إنزال الوهم منزلة الحقيقة . إذن ما أبعد الشقة بيننا ، بل ما أبعدها بيني وبينك».

(٦) يجد «مشلينا» أحد أبطال أهل الكهف في عنق الاميرة « بريسكا » الحفيدة ذات الصليب والسلسلة الذهبيين اللذين أهداهما إلى « بريسكا » الجدة

وبطلة قصة الالتفات الى الوراء تجد في عنق بطل الرواية سلسلة ذهبية فيها ايقونة بداخلها صورة جدتها خطيبته

(٧) في رواية اهل الكهف يقول المربي « غالياس » للاميرة « بريسكا » تنبأ عرّاف ساعة مولدك بأنك ستشبهين ابنة الملك دقيانوس الأميرة القديسة خلقاً وايماناً، فتسأله بلهفة:

(١) تنبأ مؤلف قصة الالتفات الى الوراء بالمذياع منذ عام ١٨٨٧

«ترى هذا العرّاف قد صدق ، أو تراني أشبهها حقيقة ؟ ما أقساك يا غالياس ، انك لا تحس مبلغ رغبتي في معرفة تلك التي يزعمون اني أشبهها . أصحيح يا غالياس ان هــذا الصليب الذهبي الذي أحمله في جيدي منذ الطفولة كان صليبها » ؟.

وفي قصة الالتفات الى الوراء تقول والدة بطلة الرواية لبطل الرواية « تدعوك ظروف الحال وسرعة تقلبه الى معرفة من هي ابنتي وما هو سرها ، فأنا أقول لك انها بنت حفيدة خطيبتك واننا أسميناها باسم جدتها البعيدة تيمناً بذكراها ، فلما كبرت ابنتي أخذت تبحث عن كل شيء له علاقة بجدتها ، وكان في جملة ما وجدته في متروكاتها خطابات منك لجدتها وصورة لك احتفظت بها ، كما وجدنا في عنقك سلسلة ذهبية فيها أيقونة عليهــا صورة خطيبتك الجدة ».

(٨) في رواية أهل الـكهف تخاطب الاميرة بريسكا قائلةً ان ابنة دقيانوس الاميرة القديسة كانت تقول كلما أرغموها على الزواج انها مرتبطة بعهد مقدس لن تخونه .

وفي قصة الالتفات الى الوراء قالت والدة بطلة الرواية عن ابنتها « لقد أقامت خطاباتك لجدتها صورة لك في ذهنها ولذلك كانت تقول انها عاهدت النفس ألاّ تتزوج إلاّ اذا عثرت على رجل يضارعك في النبل وسموّ الأخلاق .

(٩) تستيقظ عوامل سعادة الحياة ، ويشع الفرح في نفس بطلة قصــة الالتفات الى الوراء ساعة اكتشاف شخصية الرجل الذي أحبّ جدتها بأمانة واخلاص فترتمي بين ذراعيه تهبه قلبها وتقول له « كنت أعتقد أحياناً ان روح جدتي يستقر فيّ . وكثيراً ما كنت أتوهم أني هي ، وهي أنا، وان لا أحداً منا يعرف من هو الآخر .

وفي رواية أهل الـكهف تقول بطلة الرواية لبطلها « انك تمزج شخصيتي بشخصية جدتي ، انك لا تراني أنا ، بل تراها هي فيّ ، نعم وجدت ورأيت وأحببت كل ما هو لها »

(١٠) ثم تلحق به الى الـكهف تبحث عنه بين الجثث فاذا به يردد صوتها بصوت خافت فتأخذ رأسه بيديها وتدعوه بلهفة جنونية الى الحياة قائلةً « عش » عش لي لا تمت ، اني أحبك » فيجيبها « لا نفع الآن بعــد أن فعل الزمن فعلته ، فتقول « ان القلب أقوى من الزمن ، وان ليس يهمها أن يكون حبه مصوباً الى الأميرة جدتها التي تشبهها وتقول من يدري لعلي هي ان هــذا الشبه ليس مصادفة ، ومقابلتنا ليست مصادفة كذلك ، انك بعثت لي وبعثت أنا لك بعثاً من نوع آخر »

وفي قصة الالتفات الى الوراء تخاطب بطلة القصة بطلها قائلة « ألست تعتقد أن الروح يعود أحياناً الى هذا العالم ليتم العمل الذي كان قريباً من غاية الوجود ؟ أقول لك اني كنت

البنسيلين واحتقان الزور

أثبت طبيبان انجليزيان هما دكتور الكسندر . ب . مكجريجور ودكتور دافيد .ا. لونج في مقال نشرته الصحيفة الطبية البريطانية ان اعطاء المرضى الذين يشكون احتقان الزور والتهاب اللوزتين وغيرهما من الاصابات الميكروبيـة التي تصيب الحلق وما يجاوره ، أقراصاً مصنوعة من مادة البنسيلين تمتص في الفم أشبه بالاقراص التي تمتص و حالات السعال ، علاج ناجح لهذه الحالات

فان الالم والحمى وجراثيم المرض قد زالت في أربعة وعشرين ساعة في بعض الحالات. وأجريت تجاريب في ٢٥ مريضاً عولجوا بالبنسيلين فزالت عنهم أعراض المرض في ٢٤ ساعة والتأمت بثور الحلق في خمسة أيام وكانوا يشكون تشقق اللسان والحلق .كذلك كل المظاهر الدالة على وجود جراثيم مرضية . ولم يظهر على الذين عولجوا أي عرض يدل على احتمال عودة المرض، والمعروف أن جيوب اللثة ، حتى بعد شفائها بالعلاج العادي، قد تعود بعد زمن الى الظهور، وان اللثة بعد الشفاء تكون عرضة للاصابة بسهولة.

وفي حالات أخرى حصل المعالجون على نتائج مرضية جداً بعد ٢٤ ساعة في حالات الاحتقان اللوزي المسبب عن الميكروب السبحي Streptococcus ، خفت الاصابة وزالت الحمى . وشخص بالغ استطاع أن يأكل غذاء جافاً بعد ٢٤ ساعة من علاجه بالبنسيلين ، وكان مصاباً اصابة حادة بالحمى القرمزية

أعتقد أحياناً ان روح جدتي يستقر فيَّ . وهل تستغرب أن يكون لي هذا الشعور ، وأن تكون حياتي قد تأثرت بها وبك أنت دون أن أراها وقبل أن أراك » .

ألا يكفيك يا صديقي العزيز ان أنقل اليك هذه المواقف التي نقلها صديقنا العزيز توفيق الى روايته عن تلك القصة الرائعة ؟

في النصرانية حكاية عن أحد حواريي المسيح يدعى توما ، وهذا قال لزملائه « اذا كنت لا أرى أثر الحربة في جنب المسيح وأضع أصبعي في أمكنة المسامير في يديه ورجليه، فلن أؤمن بقيامته من الأموات » ويقال ان المسيح ظهر لتوما وقال له « طوبى لمن لم يرني وآمن بي » .

حبيب الزحلاوي



من أنواع النبات
الطبي

﴿حَبُّ الفَهْم﴾ هو البَلادِر والبَلاذِر ثمر شجر من الفصيلة الأَنَقَارديَّة ينبت في جزائر الهند الشرقية اسمه النباتي Semecarpus Anacardium وبالانكليزية Marking Nut Tree وبالفرنسية Anacarde Oriental عصارة ثمره المرّ تستعمل صبغاً أسود لعمل إشارات على الأثواب وغيرها وله منافع عرفها الاطباء القدماء

﴿حَبُّ القَلْت﴾ هو الماش الهندي بزر نبات من الفصيلة القَرْنيَّة اسمه النباتيّ Dolichos biflorus وبالانكليزية Horse Gram وبالفرنسية Dolic biflore ينبت في قُلَّة الجبل بمَدْرَاس في الهند حيث تقلّ المياه . وهذه البزور حارّة لاذعة يتداوى بها الهنود .

﴿حَبُّ الكُلَى﴾ بزور جَنْبَة أي شجيرة من الفصيلة القرنية اسمها النباتي Anagyris fœtida وبالانكليزية Bean Trefoil وبالفرنسية Bois Puant وهذه البزور تشتمل على شبه قلويّ يسمَّى « اناجيرين » من مركباته هيدروبروميد الاناجيرين وهو منبّه للقلب . وقد تستعمل البزور ضد أوجاع الكليتين والأوراق مسهلة للبطن .

﴿حَبّ هان﴾ هو الحَبَّهان ويقال له الهال ثمر نبات من الفصيلة الزنجبيلية أو السكيتامنية ينبت في النطقة الحارّة من أفريقية اسمه النباتي Amomum Melegueta وبالانكليزية Melegueta Pepper . Grains of Paradise وبالفرنسية Graine de Paradis ;Minguette

ويطلق الحَبَّهان أحياناً على ثمر نبات آخر ينبت في جزائر الهند الشرقية من الفصيلة نفسها اسمه النباتي Elettaria Cardamomum وبالانكليزية Lesser Cardamom وبالفرنسية Petit Cardamome وهو المعروف باسم القَرْدَيْون والقَرْدَمانا على ما سيأتي في مقال آخر . وكلا النوعين من العطر والأفاويه مقوّيان للمعدة والكبد .

﴿ الحَرْشا ﴾ معروفة في مصر بالجِرْجير ويقال الجِرْجير والجَرْجَر ويُعرف عند العامة بالفُجَيلة نبات يزرع من الفصيلة الصليبية اسمه النباتي Eruca sativa وبالانكليزية Rocket وبالفرنسية Roquette قيل إن أكله مضاد لداء الخفر (الاسقربوط)

﴿ الحَزَنْبل ﴾ نبات عطري مرّ الطعم من فصيلة القيْصوم والبعيْثران (المركبة) اسمه النباتي Achillea Millefolium وبالانكليزية Milfoil; Nosebleed وبالفرنسية Herbe aux Charpentiers; Millefeuille وهو منبه قليلاً ونافع للجروح وفي تفتيح السدد وتحليل الرياح وذكر له ابن قائد أربعاً وثمانين منفعة . يشتمل على شبه قلوي يسمى « اشيلين » يتداوى به أحياناً مضاداً للحمى .

﴿ الحسك ﴾ ويقال له حمّص الأمير وضرْسُ العجوز نبات له أشواك قوية من الفصيلة الزيجوفيلية ينبت بطبيعته في مصر اسمه النباتي Tribulus terrestris وبالانكليزية Turkey—blossom وبالفرنسية Trubule terrestre وهو مفتح ومدرّ للبول

﴿ حصا لُبانٌ ذكرٌ ﴾ هو الكندُر وباليونانية خنذروس ضرب من العلك أي صمغ شجر منه نوع يكون بجبال اليمن والصومال من الفصيلة البخورية اسم جنسه النباتي Boswellia وبالانكليزية Incense Tree وهذا الصمغ يستعمل في الروائح العطرية وبخوراً ويتداوى به مدرّاً للطمث .

﴿ الحضُض ﴾ هو النبات المعروف في مصر بالعوْسج من الفصيلة الباذنجانية اسم جنسه النباتي Lycium وبالانكليزية Box Thorn وبالفرنسية Liciet; Lyciet تشتمل أوراق

نوع منه على شبه قلويّ يسمى « ليسين » يتداوى به. ويطلق الحضض على نبات آخر من الفصيلة النبقية اسمه النباتي Rhamnus infectoria وبالانكليزية Dwarf Buckthorn وبالفرنسية Nerprun des Teinturiers يشتمل على عصارة تصنع منها أقراص قابضة .

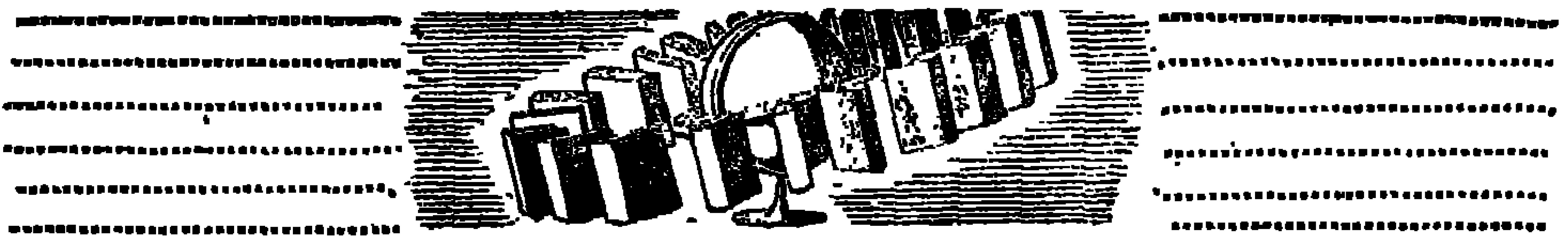
﴿ الخامِشَةُ ﴾ الشيطَرَج معرَّب چيتَرك بالفارسية شجيرة صغيرة من الفصيلة الرصاصيَّة ذات أزهار بيض وجذور طوال رطيبة مرَّة. ومُسمَّة يستعملها أهالي الهند أحياناً في أغراض غير مشروعة . اسمها النباتي Plumbago zeylanica وبالفرنسية Dentelaire de Ceylan

﴿ خُبْزُ الغُرَابِ ﴾ البَهَارُ والعَرَارُ ويقال له عَيْنُ البَقَر (گاوْچَشْم الفارسيَّة) وبَهَارُ البرّ . نبت من الفصيلة المركّبة طيب الريح جعد ينبت أيام الربيع وردُه أصفر الورق أحمر الوسط أسمن من ورق البابونج . اسمه النباتي Anacyclus radiata وبالفرنسية Camomille de Valence استعمله الأطباء قديماً في أمراض العيون .

﴿ الخُرْقُ والخَرْقَةُ ﴾ عشب قصير زحّاف من الفصيلة الرجليَّة معروف في مصر بالرجلة ويقال له العرفج والبقلة الحمقاء . قيل لها ذلك لأنها لا تنبت إلاَّ في مسيل الماء فيقتلعها الماء ويذهب بها . ومنه المثل هو أحمق من رجلة . اسمها النباتي Portulaca oleracea وبالانكليزية Purslane وبالفرنسية Pourpier والرجلة تستعمل خضراً بسبب خاصَّتها المبرّدة والمضادَّة لفساد الدم (الاسكوربوط)

﴿ الخِلال ﴾ حشيشة تسمى بالخلال المأموني لأن المأمون كان يتخلّل بها ويقال لها الإِذْخِر والإِذخِر وحَلْفَة مَكَّة وطيب العَرب من الفصيلة النجيلية اسمها النباتي Andropogon Schoenanthus وبالانكليزية Lemon Grass وبالفرنسية Citronnelle; Roseau de la Mecque; Jonc Odorant اعتبره الأقدمون محللاً ومفتحاً ومقطعاً ومنضجاً للاخلاط اللزجة ونافعاً للفالج واللقوة والنسيان .

محمود مصطفى الزمياطي



مكتبة المقتطف

تناقى كثيراً من الكتب المؤلفة والمترجمة حتى لقد يضيق الفراغ الذي نخصصه لباب المكتبة عن استيعاب النقود التي نعقدها عن هذه الكتب . فآثرنا أن نجعل مكتبة المقتطف بابين الاول للنقد والثاني للتنويه ، فننوه بجميع الكتب التي تصلنا في الباب الثاني ، وننقد ما ننقد منها في الباب الاول . هذا فضلا عما ننشر في باب المقالات من النقود المطولة .

فلسفة الاخلاق في الاسلام
وصلاتها بالفلسفة الإغريقية

تأليف الاستاذ محمد يوسف موسى — مطبعة الرسالة — ٣٠٤ صفحة من القطع الوسط
الطبعة الثانية — نشر دار الكتب الاهلية

بحث طريف يستهويك حقاً إذ تقبل على قراءته ، فأنت تمضي فيه مضياً ، لأنه عجب ، وأنه يجري في سهولة ويسر امتاز بهما المؤلف في كتابته وما يطالع به جمهور قارئيه . وقد وجدت الطبعة الأولى من اقبال القراء ما دفعه أن يصدر هذه الثانية متضمنة زيادات وتعديلات وتحقيقات قيمة .

وقد بدأ الاستاذ كتابه بفصل إضافي يؤرخ فيه الأخلاق في الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة ، واستطاع أن يجد توافقاً بين نظرية سقراط في أن «الفضيلة المعرفة» وبين قول زهير :

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه   إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ثم هو يعرض أخلاق العرب مستشهداً بشعرهم وحكمهم ووصاياهم ، وذلك في إيجاز يود القارئ لو طال ، ولكن طبيعة الكتاب لا تحتمل الإسهاب في هذا الوجه ، فعسى أن يوفق المؤلف إليه في كتاب خاص يقرن فيه بين فلسفة البداوة العربية وبين الفلسفات الخلقية الأخرى .

وقد استشهد المؤلف في الكلام على معرفة الخير والشر بقول زهير :

الستر دون الفاحشات ولا   يلقاك دون الخير من ستر

وفهم منه أنه «يريد أن يجعل استحياء المرء من أمر ، ورغبته في ستره ، أمارة أنه شر»

والحق أن زهيراً لم يرد ذلك ، وإنما عنى أن بين الممدوح وبين الفاحشات ستراً من الحياء ، ولا ستر بينه وبين الخير [1] ، ولم يقصد به تقرير مبدأ ، أو تنويهاً بمذهب خلقي .

وقد اختار الاستاذ ثلاثة من فلاسفة الإسلام يمثلون ثلاث مذاهب مختلفة في المبادىء الأخلاقية ، فمسكويه يمثل للأخلاق الفلسفية الصريحة ، والغزالي يمثل للأخلاق الفلسفية الدينية ، وابن عربي يمثل للأخلاق المبنية على التصوف . ورسم صورة عاجلة للحالة العامة في عصور هؤلاء الفلاسفة .

بيد أن جعل « مسكويه » ممثلاً للأخلاق الفلسفية الصريحة قد يتضاءل بعض الشيء حينما يتكلم المؤلف على « نزعته التوفيقية » بين ما يختار من آراء وبين ما يناسبها من حكم الدين والشريعة ، لأنها كما يقول مسكويه ص ١٠٩ « هي التي تقوّم الأحداث ، وتعوّدهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ للسعادة » فمسكويه لا يمثل الأخلاق الفلسفية الصريحة بكل ما يدل عليه هذا التعبير ، بل هو ينظر دائماً إلى الدين في الوقت الذي ينظر فيه إلى الفلسفة .

وقد وفق الأستاذ أيما توفيق في الرد على من زعم « أن الضمير لا وجود له في ذاته » وأن الغزالي أغفله فيما أغفل وساق لذلك أدلة قوية في ص ١٣٨ — ١٤٢ . ولكنه لم يوفق في التعبير عن الغزالي في ص ١٩٤ بأنه يعمل على « انتهاب آراء غيره » فإن للإمام الغزالي احترامه بين المفكرين والباحثين ، فليس يصلح أن يقال فيه حين يرتضي رأي غيره أن يقال إنه إنتهبه واغتصبه ، أو سرقه كما يفهم من التلميح في ص ١٩٩ . وذلك لأن الرأي مشاع مشترك بين الناس ، ولأن استعمال الغزالي ألفاظ غيره كلها أو بعضها لا يعد سرقة وانتهاباً ، فان ذلك انما يصح أن ينسب الى صغار المفكرين المتسولين ، لا إلى من لهم دنيا عريضة من الآراء والمبادىء . وكثيراً ما يشتد الوعي والحفظ عند المفكر حتى يكتب الصفحات العديدة من آراء غيره وكلامه ، ناسياً انه كلام هذا المفكر أو ذاك ، وذلك لشدة التباس هذه الآراء بنفسه وتمكنها من قلبه .

وفي كلامه على التفسير المنسوب لابن عربي يقول في ص ٢٢٣ : « على أن في نفس هذا التفسير دليلاً ماديًّا يجعله لغير ابن عربي (قطعاً) ، ذلك انه في تفسير قول الله تعالى في سورة القصص : « واضْمُمْ إليكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ » يذكر المؤلف نقلاً عمن سمعه عن شيخه المولى نور الدين عبد الصمد . ولا يعنينا هنا ذكر هذا النقل ، انما الذي يعنينا ان نور الدين عبد الصمد هذا توفي في حدود عام ٦٩٠ هـ فلا يمكن ان يكون شيخاً لابن

(١) أنظر ديوان زهير بشرح الشنتمري ص ٦٤ .

عربي الذي توفي عام ٦٣٨ . والأمر بعد هذا لا يحتاج الى دليل آخر .

وليس هذا دليلاً قطعيًّا كما ذكر الأستاذ ، فإن المتتبع للمخطوطات العربية يلفى كثيراً من الحواشي التي أدخلت في اصلاب الكتب الأصيلة وخفيت على بعض القارئين . ولست أذهب بذلك الى أن التفسير لابن عربي ، بل أقول : إن هذا النوع من الاستدلال استئناسي ظني ، لا قطعي يقيني .

كما ان الأستاذ في رده على مسكويه ص ٩٢ في قوله ان التفضل لم يخرج عن شرط العدالة التي هي وسط بين طرفيها المعلومين ، وانما هو « احتياط حازم من صاحبه ليأمن التقصير ويصيب الوسط » قال ناقداً ذلك : « . . . واعتقد انه لم يصب المحز . قد يكون التفضل احتياطاً فيما يشتبه فيه العدل . أما في الأمور التي هي كمسائل الحساب في وقتها وضبطها ، أو التي هي من قبيل الحساب ، كشريكين ربحا مائة من الجنيهات — يريد الدنانير — فرضي أحدهما أن يأخذ لنفسه أربعين فقط ، فلا أدري كيف ولماذا يكون الاحتياط ؟ ! » .

وهذا المثل الذي ساقه ليس من الدقة بمكان ، فان الشركة أيضاً مظنة الاحتياط حين القسمة ، فقد يظن أحد الشريكين أن زميله أولى بالزيادة لما بذل من جهد ذاتي أو معنوي فيما عاد على الشركة من أرباح .

وذكر الاستاذ في ص ٨٢ تعليقاً على قول مسكويه « فيعف ويشجع ويحكم » بقوله « لعلها من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً » ولا ريب في هذا التفسير الذي ذكره ، حتى يستدعي « لعل » وأشباهها .

وفي ص ١٠٨ ذكر من كلام مسكويه : « والشره والخمود » صوابها « الشِّرَّة » بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة ، وهي النشاط . وفي الحديث : « إن لهذا القرآن شِرَّة ، ثم إن للناس عنه فترة » وهي التي تقابل الخمود ، لا الشره .

وذكر الاستاذ في ص ١٠٧ المثل العامي : « صديقك يمضغ لك الزلط » وليس أولى بهذا المقام من المثل الفصيح : « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » .

وذكر أيضاً في ختام كتابه فهرس المراجع الهامة ، مرتبة حسب ورودها في البحث ، ومما يسترعي النظر أنه جرى على هذه الطريقة أيضاً في كتابه القيم : « ابن رشد الفيلسوف » . وترتيب هذه المراجع حسب ورودها في البحث ليس له قيمة فهرسية خاصة ، وكان أولى به أن يرتبها على حروف المعجم ، وهو فاعل إن شاء الله .

وقد ذكر في ص ٨٧ من مراجعه « الإمتاع » نشر الأستاذ السندوبي ولا ريب أنه يريد « المقابسات » لا الإمتاع .

ثم نعود أدراجنا إلى عنوان الكتاب فنجد فيه كلمة « الفلسفة الإغريقية » وليس كذلك يقولها العرب . والأجدر أن تجعل « الفلسفة اليونانية » .

وبعد فالأستاذ الجليل محمد يوسف موسى حقيق بأن يهنأ بهذه (الطبعة الثانية) من كتابه ، حري بكل تقدير وتكريم .

عبد السلام محمد هارون

الشرع واللغة

للأستاذ الشيخ أحمد شاكر

الأستاذ احمد شاكر من العلماء الذين أوتوا حظًّا كبيراً من الشجاعة في القول ، والبصر في الدفاع عن الحق ، والالتزام لما يوجبه أدب البحث والمناظرة ، ورسالته هذه مع لطف حجمها ، تمثل هذه الخصائص فيه .

فقد نشر سعادة عبد العزيز فهمي باشا اقتراحه كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وتناوله من الناحية الفنية كثير بالرد ما بين غال ومعتدل ، أما الاستاذ شاكر فقد ترك هذه الناحية ، وتناول مسائل ثلاث — أقحمها الباشا في كلامه إقحاماً — هي في الصميم من القرآن والدين والتشريع والاجتماع ، وهي من الخطورة بحيث لا ينبغي لمسلم يعتز بدينه ويغار على شريعته ويريد الخير لأمته أن يغفلها أو يتهاون فيها .

١ — أولى هذه المسائل ما ذهب سعادة الباشا من موافقة المستشرقين في ان الجانب الأكبر من القراءات التي نزل القرآن بها فيما نعتقد يرجع الى خصائص الخط العربي التي تجعل رسم الكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة ، وبخاصة حين يضاف الى هذا فقدان النقط والشكل والاعراب . وقد كان رد الأستاذ على هذه الفرية ردًّا محكماً مؤيداً بالدليل .

٢ — والمسألة الثانية هي ماذكره عن الباشا بحروفه من ان الدين عقيدة وعبادة فحسب ، وأما الشريعة فليست في شيء منه ، وإذاً فلنا ان نختار ما نرى من قوانين اوربا ص٤٢–٦٠) .

ولا أريد ان ألخص ما جاء به الأستاذ في هذا القسم القوي جدًّا من الرسالة ، فذلك يذهب بالكثير من جماله وجلاله ، وخير للقارىء ان يقرأه كله بنفسه . ولكني أذكر انه من العجيب المؤلم ، او السخرية اللاذعة ، أن يذهب الباشا هذا المذهب في فهم الدين الاسلامي فيذهب بشطره ، ويسوّي بينه وبين ما سبقه من أديان !

٣ — والمسألة الثالثة هي وجوب أن يكون الكتاب والسنة مصدر القوانين في مصر وقد جاء في ذلك بمحاضرة كان أعدّها منذ سنين وحيل بينه وبين القائها . وقد تكلم فيها عن أثر القوانين الاجنبية إذا حكمت بها الامة زمناً طويلاً ، هذه القوانين التي عملت على

صبغ الأمة صبغة إلحادية ، والتي كان منها ان زادت الجرائم ما دام المجرم لا يشعر بإثم أو خوف من الله أن إتيح له أن يتفلت له من القانون .

والأستاذ الفاضل لا يدعو في هذه الناحية الى التقاليد بل لا يدعو الاّ الى اختيار الخير من آراء المشرعين المسلمين ومن آراء رجال القانون مما يدخل تحت قواعد الكتاب والسنة

وبعد ، فهذه رسالة قيمة يشع منها نور الاخلاص للدين والحق ، وتشيع فيها الرغبة في العمل لما فيه خير للامة في حاضرها ومستقبلها . والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

محمد يوسف موسى

---

١ — مشكلة البطالة : تأليف حسين حمدي عضو مكتب البحوث الفنية بوزارة الشؤون الاجتماعية ، بحث علمي ودراسة مقارنة ، نشرته جماعة الكتاب، ويطلب من مكتبة النهضة المصرية ٤٣٢ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٤

٢ — أسرار المراهقة في الفتاة : تأليف الدكتور أندراوس شخاشيري ، حوار دار بين والدة وابنتها حيناً وبين والد وابنته حيناً آخر على دور المراهقة في الفتاة وما يجب أن تكون عليه من صحة جيدة ونظام حسن في معيشتها وما يجب عليها أن تعلمه عنه وتعمل به وهي في هذا الدور الخطير الذي لاشك انه ركن كبير الشأن يقوم عليه نظام صحتها وسعادتها ، الطبعة الثانية ، ٨٨ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥

٣ — الانجليز كما عرفتهم : تأليف أمين المميّز ، مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني ، الجزء الاول ، طبع بمطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية ، بغداد ، ٣١٢ صفحة من القطع الكبير . ستة فصول في العدل والقضاء والرأي العام والتربية والرياضة والدين الخ . لم يذكر به سنة الطبع

٤ — القومية والعروبة : تأليف نقولا زيادة خريج جامعة لندن والأستاذ بالكلية العربية والمدرسة الرشيدية ببيت المقدس . نشرته مكتبة الطاهر بيافا وطبع بمطبعة اللواء بالقدس ، ١٠٦ صفحة من القطع الاصغر . ١٩٤٥

٥ — ساعات الصمت : تأليف الاستاذ محمد أمين حسونة ، شعاره : الصمت عدة الأرواح الكبيرة وغذاء المفكرين . مقالات في النقد والتأمل ، ١٧٢ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٥ القاهرة

٦ — الأسرة والمجتمع : تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي . أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . التزمت طبعه ونشره دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه . والكتاب من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، ١٤٢ صفحة من القطع الأوسط ، ١٩٤٥ القاهرة .

٧ — نساء عاشقات : بقلم صلاح الدين المنجد ، من منشورات أصدقاء الكتاب ، مطبعة الترقي بدمشق ، الطبعة الأولى ، ٩٦ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٥

٨ — البلاغة العصرية واللغة العربية : تأليف الأستاذ الكبير سلامه موسى ، نشرته المطبعة العصريَّة ، ١٤٨ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥ ، القاهرة . وهذا الكتاب من الكتب الفذة الجديرة بالدرس والنقد ، وسنفرد لدرسه مقالاً خاصًّا في عدد مقبل من المقتطف .

٩ — الشوق العائد : مجموعة شعر للاستاذ الشاعر علي محمود طه المهندس . نشرته دار احياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

وهذه المجموعة من عيون الشعر الحديث وكفى ان مؤلفها شاعرنا الكبير علي محمود طه ، والطبع غاية في الاتقان ، والغلاف قطعة فنية رائعة جديرة بان تصدر عن ريشة الفنان عبد العزيز خالد درويش . أخرجته شركة فن الطباعة في ثوب رائع من الفن الصحيح ، ١٣٠ صفحة من القطع الأوسط .

١٠ — الحريَّة : مجموعة شعر من تأليف يوسف الخال ، من منشورات دار الكتاب ، ١٠٠ صفحة من القطع الصغير ، طرابلس الشام ، ١٩٤٤

١١ — الصهيونية : تأليف أنور كامل . وهو مهدى إلى المجاهدين الاحرار الذين بذلوا دماءهم في فلسطين دفاعاً عن قضية العرب . مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ٦٤ صفحة من القطع الأوسط ، ١٩٤٥

١٢ — روح التربية والتعليم : تأليف محمد عطية الابراشي خريج جامعتي اكستر ولندن وأستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم . نشرته دار احياء الكتب العربية بالقاهرة . الطبعة الثانية : ١٩٤٤ ، ٢٧٦ صفحة من القطع الأوسط

١٣ — الرحالة المسلمون في العصور الوسطى : للدكتور زكي محمد حسن ، نشرته دار المعارف بمصر . والكتاب مطبوع أفخر طبع وقد نقل رسومه الاستاذ فريد شافعي المهندس

بالقصور الملكية والمدرس المنتدب بمعهد الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول، ١٩٢ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥

١٤ — التعليم في رأي القابسي : تأليف الدكتور احمد فؤاد الاهواني وملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي : نشرته مكتبة الخانجي بمصر . وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٣٢٨ صفحة من القطع الكبير ، ١٩٤٥

١٥ — ذكرى الأفغاني في العراق : بقلم عبد المحسن القصاب المحامي(١٣٦٤هـ-١٩٤٥م) أصدرته ببغداد مطبعة الرشيد ، ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٦ — مرايا الناس : تأليف السيدة الفاضلة وداد سكاكيني ، من منشورات لجنة النشر للجامعيين ، وتوزعه مكتبة مصر بالقاهرة ، ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، (١٩٤٥) . وسنعود الى نقده بما يستحق من العناية .

١٧ — البيادر : للاستاذ ميخائيل نعيمه ، التزمت طبعه ونشره دار المعارف بمصر ، ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط ، ولنا نظرة أخرى فيه .

١٨ — توفيق الحكيم : تأليف المرحوم الدكتور اسماعيل ادهم والدكتور ابراهيم ناجي التزمت طبعه ونشره دار سعد مصر للطباعة والنشر ، (١٩٤٥) ، وهو نقد وتحليل وعرض ، ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط .

١٩ — في تلك الأيام عاش المعري : تأليف عبد الرحمن جبير ، نشرته المطبعة الوطنية بحلب ، ٨٨ صفحة من القطع الأوسط ، (١٩٤٥) .

٢٠ — مشكلة الفلاح : من مطبوعات لجنة نشر الثقافة الحديثة ، صدر عن دار القرن العشرين للنشر — القاهرة (١٩٤٥) ٨٠ صفحة من القطع الصغير ، ولنا عودة الى هذا الكتاب .

٢١ — الروائع لشعراء الجبل : الجزء الاول من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة الحديثة تأليف الشاعر النابه الاستاذ محمد فهمي أهداه الى أرواح الثلاثة الخالدين من شعراء الجبل م . ع الهمشري وأبو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير . وسنعقد فصلاً في نقد هذا الكتاب ننشره في عدد مقبل من المقتطف .

باب الأخبار العلمية

البنسلين

تتبعت المقتطف تجارب البنسلين، ووافت قراءها تباعاً بأنباء تأثيره في مختلف الأمراض وقد أفضى حضرة صاحب السعادة الدكتور علي توفيق شوشه باشا وكيل وزارة الصحة، بحديث إلى مندوب «الاهرام» ذكر فيه نتائج البحوث التي اجريت في معمل الرمد التذكاري بالجيزة لعلاج الرمد بمادة البنسلين، فقال:

«يعد الرمد الصديدي من أهم العوامل التي تؤدي إلى فقدان البصر، وخاصة إذا كان ناشئاً من عدوى «الجونوكوك» وميكروب السيلان، فلما كشف البنسلين، وعرف تأثيره العجيب في علاج السيلان، كان من الطبيعي أن يتجه التفكير إلى استخدامه في هذا النوع من الأرماد الصديدية، ما دام الميكروب المسبب لهما واحداً. وقد جرب البنسلين في شكل قطرة ومرهم، توضع مراراً في العين، فوجد تأثيره ضعيفاً وفائدته محدودة. لذلك رؤي تجربته بطريق الحقن. فاستعمل حقناً في العضل كل أربع ساعات لمدة ٢٤ ساعة واقتصرت التجارب على الرمد الصديدي الناشيء من ميكروب الجونوكوك وحده.

وقد اختيرت لهذا الغرض، ثلاث حالات لأشخاص تتفاوت أعمارهم ودرجة إصابتهم. إحداها لغلام في التاسعة من عمره، والثانية لطفلة عمرها أربع سنوات. والثالثة لرجل عمره ٤٥ سنة. وكانت إصابة الغلام برمد صديدي خفيف، غير مصحوب بمضاعفات، وقد أظهر الجونوكوك عند هذا الغلام قوة مقاومة شديدة للبنسلين، فلم يختف الميكروب من عينه إلا بعد عشر ساعات، أي بعد ثالث حقنة. ومع أن الحالة تحسنت من الوجهة الاكلينيكية — إذ قلّت الإفرازات واختفى ورم الجفون واحتقان الملتحمة، واستطاع المريض فتح عينيه، فقد ظهر الميكروب ثانيةً بعد ٢٥ ساعة من آخر حقنة.

وكان الرمد الصديدي عند الطفلة مصحوباً بقرحة خفيفة في العين اليسرى وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات من أول حقنة، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة من الوجهة الاكلينيكية ولكن بقيت القرحة كما هي، ثم عاد الميكروب إلى الظهور بعد ٢٤ ساعة من آخر حقنة.

أما إصابة الرجل فكانت أشد. وذلك إن الرمد الصديدي عنده كان مصحوباً بقرحة مع فتق (قرحة منبثقة) في العين اليسرى. وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث

ساعات أيضاً ، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة وخاصة في العين اليمنى ، إلاّ أن القرحة والفتق القرحي واحتقان العين وما بها من الآلام ، كل هذه لم تتحسّن ، ولذلك ظهر الميكروب بعد ٤٨ ساعة من آخر حقنة .

وقد وضعت الحالات الثلاث التي تقدّم ذكرها موضع الملاحظة والفحص ثلاثة أيام أخرى . بدون أي علاج . فلما لم يختف الميكروب ولم تلتئم القروح ، أجريت بعض العلاجات النوعية ثلاثة أيام فاختفى الميكروب من أول يوم ، والتأمت القروح .

وقد تبين أن الوقت الذي أعطيت فيه الحقن (وهو ٢٤ ساعة) لم يكن كافياً . ولهذا أجريت التجربة في حالتين ، وأعطيت الحقن لهما مدة ٤٨ ساعة ليلاً ونهاراً . فشوهد التحسن من الناحية الاكلينيكية إلاّ أن هذه الطريقة كانت متعبة وغير عملية لأنها تستدعي تخصيص طبيب لاعطاء الحقن ليلاً كل ثلاث ساعات. وهذا يتعذر تنفيذه إذا كان عدد المرضى كثيراً ، كما هي الحال في الأرماد الصديدية . وهنا قال الدكتور شوشة باشا :

والخلاصة أننا وجدنا أن هناك تأثيراً لمادة البنسلين في الأرماد الصديدية البسيطة ، والتي لا تكون مصحوبة بالمضاعفات التي يسببها ميكروب الجونوكوك ، غير أن طريقة العلاج به تحتاج إلى تخصيص أداة طبية تتفرّغ لحقن المريض ليل نهار مما يجعل تنفيذها من الوجهة العملية غير مستطاع ، وخاصةً اذا لاحظنا أن حالات الأرماد الصديدية كثيرة الانتشار في المدن والريف .

ثم اختتم الدكتور شوشة باشا حديثه قائلاً : « وأرى أن أذكر لهذه المناسبة ، أن كثرة انتشار الرمد في مصر ، حملتني على التفكير في استخدام بعض المركبات النوعية التي أثبتت التجارب والمشاهدات شدة تأثيرها ، على ألاّ يكون استخدامها مقصوراً على المستشفيات الرمدية ، بل يشمل ذلك جميع الوحدات التابعة للوزارة في الأقاليم

عودة الى دولاب الخزاف

وردت الأنباء من بلاد الدنيا الجديدة بأن المصانع الأميركية أصبحت تعتمد اليوم على آلات صناعية قديمة العهد في انتاج أحدث الأسلحة الحربية . فدولاب الخزّاف مثلاً ، الذي يسوي به الخزاف آنيته يرجع تاريخ اختراعه الى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد ورغم ذلك فان العمال الأميركيين يستخدمون في صناعة القنابل أجهزة مماثلة لدولاب الخزاف ليستطيعوا بواسطتها تشكيل القنابل حسبما تقتضي الحاجة . وقد برهن هذا الإسلوب الانتاجي على زيادة كبيرة في انتاج القذائف، كما انه خفض نسبة « المخردة » لأنّ عملية تسخين المعادن لدرجة المرونة جعلت من المتيسر انتاج قذائف متقنة الصنع مضبوطة الأبعاد .

وديع فلسطين

دراسة الفيرس

ميكروسكوب يكبر ٥٠ الف ضعف

قد تؤدي الاكتشافات الحديثة عن الأحياء المتناهية الدقة من الميكروبات والفيرس الى القضاء على عدد من الأمراض الخبيثة . فان فحص هذه الاحياء بالميكروسكوب الكهربائي أتاح للطب فهماً عميقاً لحياتها الغامضة ، وألقى ضوءً وضح كيف تعيش وكيف تعمل .

فقد قال الدكتوران ستيوارت مود وتوماس اندرسن في النشرة الأخيرة للجمعية الطبية الاميركية ان الانسان لم يستطع مشاهدة هذه الأحياء العادية ذات الخلية الواحدة لعدة قرون خلت . ولهذا لم يستطع مقاومتها. أما الآن وبفضل هذا الميكروسكوب المضيء فتيسر له دراسة هذه الاحياء التي كانت تنفذ لدقتها من المرشحات .

فان الميكروسكوب الكهربائي يكبر حجمها الى ٥٠٠٠٠ ضعف فأتاح للطب بما أعطاه من معلومات عنها أن يقاتلها ويوقف ضررها . فقد تيسر بواسطته رؤية جدران الخلايا وميز بين رؤوس الاحياء وأذنابها مثل ميكروبات حمى التيفوس .

***

ومن هذه الدراسات تبين ان بعض هذه الاحياء تتطفل على خلايا الجسم بينما يعيش غيرها دون طائل مستغلاً ضوء الشمس والكبريت أو الامونيا كمصدر لنشاطه . وتتناول الابحاث الميكروسكوبية الكهربائية الآن البحث عن مصدر الاجسام الضارة التي يفرزها الفيرس الذي ربما أدى وجوده في الخلية الى فقد توازنها الكيماوي .

صور للمجموعات الشمسية

التقط مرصد ولسن في السنوات الأخيرة عدة صور لبعض المجموعات الشمسية تعتبر من أدق الصور التي سجلت حتى الآن . ولأن بعض هذه المجموعات تبعد عن الارض ٣٠٠ بليون بليون ميل فان التقاط صورها احتاج إلى فتح عدسة آلة التصوير مدة ٧٥ ليلة . لوحظ أثناءها ان حركة الآلة تتمشى بالدقة مع الأشعة المقبلة من المجموعات الشمسية

وكان الغرض من تسجيل هذه الصور اكتشاف التغيير الذي يحدث في الألوان المنعكسة من المخروطات الزجاجية . ولهذا كان من الضروري جداً ملاحظة دقة التصوير ووضوح الصور ففتحت العدسة ١ إلى ٣٠ من البوصة أي أصغر من رأس الدبوس

التنبؤ بالمرض قبل حدوثه

سجلت معامل ديبونت بأميركا جهازاً لتسجيل أصوات القلب سهل الحمل يتاح بواسطته الكشف عن الأمراض التي قد تصيب الانسان قبل حدوثها بمدة طويلة وذلك عن طريق التغييرات التي تنتاب الدورة الدموية . وهذه الآلة الكهربائية ترسل علامات الاضطراب في الدورة الدموية . فقبل أن يشعر الانسان بأي تعب يستطيع هذا الجهاز ان يبين المرض الذي سيصاب به

وهذه الاصوات دقيقة جداً لا تستطيع أجهزة ضغط الدم المعروفة تسجيلها . ويتكوّن هذا الجهاز من ميكروفون يثبت الى صدر الانسان وقرص قياس مدرّج أو شريط حسّاس يسجل الجهاز على أحدها حركات القلب

الشيكولاتة أحسن وسط للفيتامينات

تهتم مصانع الشيكولاتة باعداد قوالب خاصة منها لعلاج الأطفال في اوربا المحررة من أمراض سوء التغذية ، فبعد عدة أبحاث طبية وكيماوية وجد العلماء ان زبدة الكاكاو هي أحسن وسط تعيش فيه الفيتامينات محتفظة بموادها الضرورية لاعادة الصحة والنشاط لمن فقدوها نتيجة لسوء التغذية المستمر . وقالب زنته أوقية واحدة من هذه الشيكولاته مزوّد بفيتامينات (ا) و (ب ا) و (حـ) و (ى) يكفي لتزويد الطفل يوماً كاملاً بكل حاجته من الغذاء .

وجربت هذه الشكولاتة في اطفال جزيرة مالطة ممن تتراوح أعمارهم بين ٧ سنوات و ١٤ سنة ممن قاسوا سوء التغذية فترةً طويلة اثناء حصارها فكانت النتائج باهرة . وعلى هذا الأساس توزّع القوات المتحالفة كميات كبيرة من الشيكولاتة على البلدان التي تحررها من اوربا

غلام يخترع طائرة

اخترع شاب اميركي في التاسعة عشرة من عمره طرازاً جديداً من الطائرات التي تهبط وترتفع عمودياً وليس لها ذيل . ولها محركان فوقها ، ويدوران في اتجاهين متضادين ، وطول الطائرة ١٢ قدماً ، وطول كل من المحركين ٢٥ قدماً . وقد بدأ هذا الشاب في وضع تصميمها عندما كان غلاماً عمره ١٦ سنة فقط .

ويقول بعض اخصائيي الطيران أنها قد تصبح طائرة المستقبل

لكشف عيوب المعادن

سجل أحد المخترعين آلة للكشف عن عيوب المعادن بالموجات الصوتية ، فعند ما تختبر هذه الآلة قطعة من الصلب مثلاً فانها تطلق موجتها التي ان صادفت عيباً ارتدت وسجلت الآلة وقت رجوعها . وبه يحدد موضع العيب .

وتختبر هذه الآلة قطعة من المعدن طولها ١٠ أقدام في ثانية واحدة

القراءة في الظلام

يستطيع البحارة وقادة الجيوش قراءة خرطهم في الظلام الدامس ، فقد اكتشف الكيماويون مادة مضيئة ان أضيفت إلى حبر الطباعة أرسلت الكلمات المطبوعة شعاعاً في الظلام ، وان أضيفت هذه المادة إلى مواد صناعة الورق أضيئت صفحاته . وفي كلتي الحالتين تسهل القراءة وهو ما يتبع في ميادين القتال وأثناء سير السفن في الظلام

سيارات ما بعد الحرب

صنعت إحدى شركات السيارات سيارة تسع لركوب ثلاثة أشخاص وهي تزن ٤٥٠ كيلو ، ومصنوعة من الألومينيوم والمنجنيز والدوراليوم ، ويكفيها جالون واحد من البنزين لقطع مسافة ٤٠ ميلاً ومحركاتها مجهزة بآلتي تبريد هوائي .

ثلاث عمليات دفعة واحدة

يستعمل بعض المزارعين الاميركيين آلة تحرث وتعزق وتمهد الأرض في عملية واحدة ويغوص سلاحها في الأرض ست بوصات

مكواة آلية

افتنت مصانع المكاوي في تصميم نوع جديد من المكاوي الكهربائية ، فصنعت مكواة ملابس انسيابية الشكل ، لا تحتاج لتشغيلها الى رفعها من مكانها فانها دائماً ترتكز على أحد طرفيها، وما عليك إلاّ دفعها الى الاتجاه الذي تريده .

فناجين الشاي من العجائن

صنعت فناجين الشاي وأطباقه من العجائن (الباغة) فأثبتت انها أصلح من مثيلتها من الصيني لأنها ليست سهلة الكسر كما انها تحتفظ بشكلها الظريف مدة طويلة

قارب لا يغرق

ظلَّ رجال البحرية البريطانية سنتين يحاولون اغراق أحد قوارب النجاة التي اخترعها أحد المهندسين ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . فان ملأه بماء البحر وحده لا يكفي لاغراقه. فجرَّبوا تحميله بأثقال كثيرة هبطت به إلى قاع البحيرة، فلما أزيلت الأثقال طفى القارب إلى سطح الماء مرة أخرى. أما مادة هذا القارب فمن الاسرار العسكرية

أنابيب ماء من الغاب

استعيض في الصين عن أنابيب الماء المعدنية بأنابيب من غاب البامبو فاستطاعت القوات الأميركية مد أنابيب ماء طولها ٦٠٠ قدم في مقاطعة يونان في الصين . فقد لاحظ الأميركيون ان هذا النوع من الغاب ينمو بكثرة في تلك الجهات وانه صالح لهذه العملية فأعدوه لهذا الغرض ، وأنشأوا منه أول خط مائي لمد القوات العسكرية بالماء اللازم لها من الينابيع . وبذلك وفروا ما زنته ٦٧٨ رطل من الأنابيب المعدنية فضلاً عن نفقات صنعها ونقلها

ماء عذب من البحر الملح

اذا غرقت سفينة ولجأ بحارتها ومسافروها الى قوارب الانقاذ فانهم يستطيعون الحصول على ماء عذب من ماء البحر الملح . وذلك بأن يغمروا قطعة من القماش في مائه ثم يضعونها تحت غطاء لا ينفذ منه البخار ومرتفع عنها قليلاً . فان الماء العالق بقطعة القماش سيتبخر بفعل حرارة الشمس ثم يتكثف على شكل نقط ماء تسيل إلى حافة الغطاء المصنوعة على شكل أنابيب تجمعها في أي أناء ليشربه الناس الى أن يأتيهم الفرج

التليفزيون في المستقبل

صممت احدى شركات الاذاعة اللاسلكية جهازاً صغيراً لنشره بعد الحرب وهو عبارة عن راديو مصوَّر (تليفيزيون). وليس من الضروري أن تجلس بجوار الجهاز اثناء الاذاعة فانه يسجلها بطريقة آلية على سلك دقيق من الصلب تستطيع استعادة سماعها في أي وقت تشاء

الاذاعة وأوجه القمر

أعلن أخيراً ان نقاء الأصوات ووضوحها في أجهزة الاذاعة له صلة باختلاف أوجه القمر فتتحسن من التربيع الأول الى ما قبل البدر الكامل بقليل ، ومن التربيع الأخير إلى ما قبل ظهور الهلال بأيام .

فوزي الشتوي

فهرس الجزء الأول

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٥ — ٢١ رجب سنة ١٣٦٤

الفيلسوف الباكي

هيرقليطس الايوني[١]

« هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب . أما السماوات ، التي خيل للناس أنها ثابتة لا تتغير ، فانها لا تعرف من معنى الأبدية ، إلا أبدية أنها مسوقة في مجرى الأشياء » .

أناتول فرانس : في حديقة أبيقور

لا طفرة في الطبيعة . لا تعرف الطبيعة الطفرة ، لا في عالم الانتاج الفكري ، ولا في عالم التوليد العضوي . كذلك نجد في عالم الفلسفة ان « البدايات المطلقة » هي في حكم المستحيلات . وإنك مهما عيّنت مبتدأ هذه الفكرة أو ذلك المذهب ، أو حدّدت منتهى أحدها ، كمذهب « التذكّر » — Reminiscence أو مذهب « الدّلف المستمر » — Perpetual flux أو نظرية « الاستقراء » ، أو النظرة الفلسفية بوجهٍ عام ، فإن الأخصائي في مستطاعه دائماً أن يقع على اشارة أو مبتدأ لذاك المذهب أو تلك النزعة الفلسفية . فان أكثر أعمال التحليل العقلي غزارة ، تحتاج إلى زمان حتى تتكوّن وتبدأ في الظهور . والمعرفة التأملية في أبسط مظاهرها ، والتجريدات التي تبلغ من التفاهة بحيث يتعذر علينا أن نعتقد أن عقلاً بشريًّا قد يخلو منها ، ينبغي لها أن تنشأ ثم تنمو ، ولكن بصعوبة وجهد جاهد . والفلسفة نفسها ، عقلية أو أدبية ، لها ممهداتها ومذلّلات سبلها وسوابقها ، مُصوَّرة في الشِّعر الذي يسبق ظهورها في العادة . فعبارة من العبارات التعميمية القوية مثل التي لحظها

---

(١) صورة فلسفية سوف نعقب عليها بصور أخرى حتى نجلو هذا الفيلسوف العظيم في لوحة ظاهرة الاجزاء .

«هيرقليطس» عندما نظر في تدفق الوجود وعدم استقراره فقال — « الأشياء تدلف بعضها في إثر بعض » Panta rei — [1] قد يحدث شيئاً من التيقظ يجدّها في بعض العصور ، ولكنها تثبت في العقول . لأنه يختفي من وراء أرومتها الفكرية ، غريزة طبيعية من غرائز العقل ، لم تستكمل قوامها ولم تحز كل قوتها .

اعتقد الكثيرون أن « أفلاطون » هو خالق الفلسفة . ولا مرية في أنه قد اصطنع في عالم الفلسفة تقدماً عظيماً : نقلها من خشونة البدايات التي نلحظها في البحوث العلمية التي ذاعت عند اليونيين أو الأليابيين ، إلى تلك الآفاق العليا التي ظهرت فيها الفلسفة كاسية حلة الأدب الرفيع ، فكأنه بلغ بالفلسفة غاية من غاياتها العليا . وإنّ نظرةً في عالم المعرفة ذلك النظر الموسوعي الشامل ، لأكثر من خطوة ارتقائية . فلم يمر بالعقل البشري من قبلها نظرة بزّتها قوة أو جمالاً أو تغلغلاً في صميم الأشياء ، بحيث يمكن أن تقرن بها . وما عمل أفلاطون قد يلوح ، مع التأمل ، كأنه ابتكار صرف من المبتكرات التي يفخر بها العقل البشري في فجر حياته . ولكن الحقيقة ان الدنيا التي ولجها أفلاطون ، كانت تعج بالمذاهب والخلافات الفلسفية ، وتضج بالمنابذات الطائفية ، ومبادئ المدارس المتباينة . وكذلك اللغة ومذاهب التفكير ، كانت قد نالت منها السفسطة ، والجو الذي استنشق أفلاطون عبيره لم يكن جوّا خالصاً من ذرات تأمل مريض .

في كتاب « طيماوس » Timaeus الذي عالج فيه أصل الكون ، ظهر أفلاطون بمظهر الناقد الانتقائي ، أكثر منه مؤلفاً لنظرية حديثة في الفلسفة ، كما يدل على ذلك تلك الحيرة التي لابسته عند ما مضى ينتقل من نظرية الى أخرى تنقضها ، وكما أننا قد نرى أن ذلك الكتاب قد أصبح كمختزن حشدت فيه كل النظريات الفوسيقية ، كذلك يخيل الينا ، إذا ما قرأنا كتابه فرمنيدس — Parmenides — ان كل المشكلات الميتافيزيقية (الغيبية) قد مرّت بعقل أفلاطون وهو مكبّ على تسطير ذلك الكتاب . ندرك من ذلك أن بعض النتائج التي وصل اليها غيره من المفكرين السابقين عليه ، ولو انها كانت قد ماتت وذهب ريحها ، قد دخلت في فلسفته فكوّنت أجزاء من هيكلها . ترى ذلك أينما وليت وجهك في أنحاء ما كتب ، لا على الصورة التي ترى بها الأجزاء المنتحلة القديمة تزين واجهة بناء جديد متفرقة بين نواحيه ، ولكن تجدها منتثرة هنا ثم هنالك أشبه بالبقايا الدقيقة المستمدة منه حياة عضوية قديمة ، امتصت ثم مُثّلت ، فكانت في حياة جديدة ، جزءاً مقوماً منها .

(١) اضطررنا إلى رسم بعض الالفاظ اليونانية بحروف لاتينية للضرورة

إن مبادئه الأساسية وفكراته الجوهرية التي قام عليها مذهبه ، تدفع بنا الى الرجوع سعياً ، لا الى أسلافه الأقربين ، ولا الى معلمه العميق الغور سقراط ، الذي عاش في صفحات ما كتب أفلاطون ، ولكن إلى مدارس متفرقة سبقته فأكبت على التأمل الفكري في اغريقية وأيونيا وايطاليا . ومن قبل هؤلاء قد نرجع الى عصر الشعر ، ذلك العصر الذي نرى فيه بدايات الفلسفة تكاد تبدو من ضباب الزمن ، وهي لاتكاد تعرف ، حتى من قيمة ذاتها شيئاً.

ثم مد نظرك لأبعد من هذه الفلسفة غير الواعية لحقيقة ما هي ، وانعم في ضمير الزمان ، الى تلك البدايات التي تمثلت في الميول العقلية والخلجات النفسية وترامى قوى الفكر الى حجب العالم، تجد أن هذه الأشياء قد شهدت ميلاد فكرات تمت الى فكرات أفلاطون بنسب ، منحدرة اليه من مدنيات عتيقة موغلة في القدم ، من الهند ومصر ، وتجد فوق ذلك أن هذه الفكرات لا تزال حتى اليوم تؤثر أثرها المحتوم في عالم التأمل .

مَثَل فكرات أفلاطون، كاللغة التي استعملها ، كلاهما اصطبغ بصبغة الجهد، ونمّتا عن أثر العناية والدقة ، بالرغم من أن لهذه الفكرات وتلك اللغة ، أصحاب قدماء ، ترجع اليهم نشأتهما. وقلما نُتّهم بالمغالاة إذا قلنا إن أفلاطون بالرغم من الجدة التي نلحظها في لغته الفلسفية، فان كل موضوعات الحكمة التي تكلم فيها ليس فيها من جديد صرف . أو نقول إن آثار أفلاطون الفلسفية ، ككل نواتج العبقرية البشرية الاثينية ، ما يلوح فيها انه جديد ، انما هو قديم بمعنى مّا، هو تعليق أو تحشية، مثلها كالثوب الجديد الذي ينسج من خيوط قديمة استعملت من قبل في ثوب آخر ، او كمثل كائن حي ، عاشت جزئياته التي منها يتألف وماتت، مرات عديدة على كرّ الزمان .

ليس من جديد إلا ذلك المبدأ الخالد الذي يهب الحياة ويؤلف بين عناصرها . الجديد هو الصورة المرئية ، واللون الذي تجلى فيه تلك الصورة ، والقوة التعبيرية التي تلابس الفكرات الدائمة ، بما يدخل عليها من المجانسة والتوفيق والألفة . وبعبارة أخرى نقول ان الصورة هي الجديدة .

وبعد فان الأمر في خلق أدب فلسفي جديد ، كالأمر في خلق أي أثر فني ، يوحي إلينا أن الصورة بأوسع معانيها ، هي كل شيء ، وإن المادة التي يتألف منها من حيث الجدة ، لاشيء.

هنالك ثلاثة أساليب بها تنقد الآراء الفلسفية ، بل وكل الآراء التي تنزع الى التأمل . فكل المذاهب والآراء التي بثت في جمهورية افلاطون مثلاً ، يمكن أن يخضعها الناقد جميعاً الى هذه الأساليب ليكشف عما فيها من الخطأ أو الصواب . وهذه الأساليب النقدية هي :

الأسلوب المذهبي : وهو طريقة للحكم في مستفادات العقل الانساني ، وإن بعدت عن

فكر الناقد وعصره ، مقتضى تلاؤمها أو تناقضها مع المبادىء التي قال بها باكون أو اسبينوزا أو مل أو هيجل أو غيرهم ، مقيسة على أفضل ما يتعلق به الناقد من التجهات العقلية .

ثم الأسلوب الانتقائي أو التوفيقي : وهو أسلوب يرمي الى أن يلتقط الناقد من المذاهب المتنابذة أو المتعارضة ، ذُرَيْرات الحق المتناثرة في ثناياها بحسب ما يراه منها حقا. وهو أسلوب يشيع في العصور التي تقوى فيها نزعة القراءة وتتسع فيها المعلومات ، ويكثر شحن الاذهان بالآراء والمفكرات ، ولكن بغير أن يكون للمعلومات المتجمعة على هذه الصورة قوة أولية خاصة بها ، ومثلها مذهب الافلاطونية الجديدة كما شاع في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، أو كما عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر . وأهم نقائص هذا الأسلوب الرئيسة فيه ، هي نزعته الى تشويه المذهب الأصلي الذي يحاول تبيانه وجلاء غوامضه ، لكي يلفق أو يؤلف بين أحسن ما فيه ، وبين العناصر الاولية في نظام فلسفي آخر مسلَّم وموثق به من ناحية الناقد .

هذان الأسلوبان النقديان نحَّيا الطريق في القرن العشرين ، بتأثير نظرية هيجل الثابتة التي كوَّنها فيما دعاه « روح العصر » ، وهي روح دائمة التغير مستمرة الفيض والتدفق ، لأسلوب ثالث في النقد ، هو الأسلوب التاريخي . وهو أسلوب يحملنا على أن نردّ المذهب الذي نكب على نقده أو الأثر الفلسفي الذي انحدر الينا من مخلفات الماضي ، كجمهورية أفلاطون مثلاً ، بقدر المستطاع وجهد ما يصل الجهد ، إلى مجموعة الحالات العقلية والاجتماعية والمادية التي أحاطت به حال نشوئه . هذا إذا ما أردنا صادقين ان نتفهمه ونتفقه فيه . فان هنالك بضعة مبادىء اقناعية بقوتها، نستطيع أن نحكم من طريقها في أشياء العقل : أسويَّة هي أم لا سويَّة ، لدى أول تأمل نحصره فيها ، كما انها تمدنا بمعنى يقبله العقل من ناحية أصلها وكيفية نشوئها .

أول هذه المبادىء انه ينبغي لنا أن نعتقد أن لكل عصر عبقرية خاصة ، أشبه بعبقرية الأفراد ، وان لكل عصر « صورة عامة » أو « طابع عام » يستمد من الحالات التي تدمغ كل ما ينتج في ذلك العصر من عمل أو فن أو تجديد أو تأمل أو دين أو أخلاق ، بل ويدمغ وجوه الناس أنفسهم ، وانه ما من شيء استخلصه الانسان من طبيعة نفسه ، يمكن أن يفهم حق الفهم ويدرك حق الادراك ، إلاّ في عصره الذي نشأ فيه ، ومن ينبوعه الأصيل الذي خرَّجه من تضاعيف تلك الحركة الدائمة التي يختص بها هـذا النظام الدنيوي ، وان أسمى ما ينبغي أن ينصرف اليه من يتصدى لدرس المذاهب الفلسفية ، انما هو تنمية « الملكة التاريخية » في نفسه .

ان كل شيء في الوجود هو مقولة منطقية قائمة بذاتها من مقولات الضرورة القاهرة. لذلك ترى أن العقائد مهما ضربت في الخيال، ومشت مع التصور، « كشيوعية » أفلاطون مثلاً، انما تقع على أصولها الطبيعية إذا ما رددتها الى تلك المقولات، وما نقصد بالمقولات هنا إلا الحالات التي أحاطت بها، والتي لم تخرج تلك العقائد عن أن تكون جزءاً منها، ونبذة من مجموعها.

* * *

في الحياة الفكرية، كما هي الحال في الحياة العضوية، ترى ان كل كائن بما فيه من خصائص، سويّة ولا سويّة، انما هو خاضع في حتمية وجوده وهيئته، لحكم « البيئة ». واذن يكون خير ما يعكف عليه دارس أفلاطون، لا أن يؤيده في نقاش فلسفي، ولا أن يعتنق آراءه أو يرفضها، أو يكيفها، أو أن يتلمس الأعذار عمّا يظهر في أفلاطون انه ضلال عن الحق، أو ان يزوّد عقله ببراهين وأدلة تؤيد نظرية أو معتقداً يكوّنه هو في مخيلته، كلاّ، انما ينحصر واجبه في أن يتتبع، بفهم وبغير تحيز، التساوق الذهني فيما يقرأ، كما يتتبع حركات اللاعبين في ملعب عام. وخير من ذلك لكل من يقرأ أثراً من آثار العقل البارزة، مثل رواية هملت أو منظومة دانتي أو جمهورية أفلاطون، أن يلحظ أنه انما يرقب من خلال السطور عقلاً جباراً قويّاً فياضاً، يحاول أن يترجم عن نفسه، وهو محوط بمجموعة معقدة من الحالات، لا يمكن أن تتكرر في الواقع مرة أخرى. مجموعة اختصت، ذات عصر، بصفات متعارضة، فكانت لينة خشنة، دمثة هوجاء في وقت معاً، وان تلك الترجمة قد صبت في قالب عمل أدبي عظيم، هو تلك السطور التي تجول في أثنائها ناظراه.

إن الأسلوب الطبيعي في نقد أفلاطون، هو أن تضعه في موضعه الطبيعي، فيكون بمثابة نتيجة لمقدمات هي حركات الفكر التي ذاعت في عصره ونزعات التأمل الاغريقي والحياة الاغريقية عامة. تلك هي طريقة الأسلوب التاريخي، وهو الأسلوب السليم في نقد أفلاطون، وعليه ينبغي أن نقيس. وما أفلاطون هنا غير مثل اخترناه

***

أول ما يبهرك إذا ما مضيت تنظر في جمهورية أفلاطون، بملكة تاريخية، حقيقة أن بعضاً من فكراتها الأساسية قد استمدت من مفكرين تقدموه، قد يتفق أن يصلنا عن بعضهم معلومات مستقلة عن ما نستقيه من الجمهورية.

في مدى الحياة الاغريقية الغاصة بصور النشاط الفكري، تقع هنا أو هناك على مفكر يعكس عن فكره عملاً من أعمال الوعي الفلسفي، عمل يقوم به المفكر ببساطة، لأنه نتاج

التأثير المستمد من العالم المنظور الدائم الفعل في ما يحيط به من الأشياء . ومن أسلاف أفلاطون الذين تقدموه في عالم الفكر ، وهم كثيرون ، فئة أضفى عليها الفكر في العصور الحديثة شيئاً من القيمة وخصها بقسط من الأثر ، تلقاء ما كتب الفيلسوف هيجل وغيره من المقبلين على مذاهب الفلسفة ، فنجد فكراتهم ، وربما نجد ألفاظهم بذاتها ، مبثوثة في متن أفلاطون . وقد تبرز جلية واضحة في صفحات الجمهورية . منهم فيثاغورس ، الذي قد يلوح للبعض كأنه انساناً نصف خرافي ، صاحب المذهب المعروف في العدد والموسيقى ، وفرمِنيدَس ، الذي يقول فيه أفلاطون تبجيلاً « أبي فرمِنيدَس » — رأس المدرسة الالياوية ، ثم ثالثهم هيرقليطس القائل بنظرية « الدَّلف المستمر » . ثلاثة من كبار المعلمين ، ينبغي ان نسلم بأن كل ما وصل الينا عنهم من التعاليم إنما هي أشتات فيها غموض . ولكن طريقة واحدة ، تجعلنا نُقَيِّم مخلفاتهم ونستخلص ما علموا به استخلاصاً فيه بعض الدقة والتحديد ، هو استقراؤهم من خلال ما كتب افلاطون .

هيرقليطس فيلسوف كتب فلسفته نثراً ، ولكن في تضاعيف ما نثر روحاً من الشعر تشيع فيه ، فنصف فلسفته مصوغ في قالب شعري منثور ، وتأمل صبٌ في قالب نثري فيه روح الشعر ، ونصفها معلومات تعميمية ، أداها في أسلوب فيه عبوس وابهام ، ولكنها منعشة للفكر ، محركة للتأمل نافذة إلى أعماق النفس . ولا ننسى مع هذا أن بعض النقاد قد رأوا ان نثره ، في بعض المواضع ، كان مثالاً احتذاه أفلاطون ، فهو بذلك أحد الذين يعتبرهم أفلاطون آباءه في الفكر والحكمة . لذلك نقول إن أثره في أفلاطون — وأفلاطون في أول أمره من الهراقلة[1] — قد عمل في عقل أفلاطون وأثر فيه بقوة التضاد والركس العقلي (أي رد الفعل) . فانّ وقوف أفلاطون موقف الضد والخصم من كل مذهب فلسفي قال بمبدأ « الحركة » ، قد كان بمثابة « الفكرة الثابتة » التي لا يمكن أن يتولاها الوهن أو يؤثر فيها الدليل والبرهان .

هيرقليطس ، فيلسوف من أهل « أفسوس » ويكفي أن نعرف من أفسوس أنها احدى المدن الاثني عشرة التي ألَّفت الحلف الإيوني . مات قبل أن يولد أفلاطون بحوالي أربعين سنة . وكانت أفسوس في ذلك العصر مقرّ الحركة الدينية ومهبط أهل الدين في إيونيا ، وكانت قد تخلصت منذ قريب من مستبدين استبدوا بها وقضوا على حريتها زمناً . أما هيرقليطس ، فمن أسرة قديمة كريمة الأرومة ، فهو نبيل بمولده ، سيد بمركزه الاجتماعي ، كريم الخلق بطبعه . فكان في جوّ تلك الديمقراطية الاغريقية الحديثة الرتجة غير المستقرة ،

(١) أتباع هيرقليطس

والتي لم تثبت أصولها بعد في نفوس الاغارقة ، كمرآة انعكست عليها الصور القائمة من حولها من غير أن تؤثر تلك الصور في صفائها بشيء ، رغم انها كانت عنيفة هوجاء ، وكذلك ظل هذا الرجل ، بالرغم من اضطراب حالات عصره ، محتفظاً بهدوء نفسه ، وسلام روحه . وربما يكون قد حدث في تلك البيئة ، على قدم عهدها وقربها من أوليات الحركة الفكرية ، مثل ما نراه قد حدث في غيرها من البيئات قريبة العهد بزماننا ، من تناسخ مذاهب الفكر وتغيرها على وجه الدوام ، هذا يجيء ، وذلك يذهب ، دوراً بعد دور ، بمقتضى المسالك التي يتجه فيها الفكر ، وهي مسالك ، شد ما تغمض علينا أسبابها .

تقوم الامبراطوريات فتزهو وتزهر ، ثم تضمحل وتموت . وبالقياس على ذلك ، وان كان مع الفارق ، اضمحلت في مدينة أفسوس طائفة النبلاء ، وبالحري طائفة ذوي المصالح الحقيقية ، كما نعرفهم في عصرنا هذا . وفي غمرة تلك الأحداث ، وفي وسط ذلك القلق البادي في حياة الاغريق لدى أول عهدهم بفتوة الفكر ، ولفتوة الفكر انطلاقاتها العنيفة كفتوة الحياة تماماً ، تقع على رجل من أشد تلك الطبقة النبيلة كبراً وعزة ، ضم الى ارستوقراطية المولد والنشأة ، أرستوقراطية المواهب العقلية : تقع على هيرقليطس ، يعمل ويبشر ، بالرغم من موضعه هذا ، بحرية الفكر المطلقة ويؤيدها ، ويطلبها غير مقيدة بقيد ولا معلقة بشرط . ولكنه برغم هذا كله ، على ما نتصور من أمره ، يشعر بالخيبة والحزن ، إذ يرى أن تأملاته الفلسفية لا تلقي على ما حوله من العقول والأشياء ، إلا بأشعة ضعيفة حائلة اللون . وفي فصول تلك المسرحية التي يمثل أدوارها أشخاص بعدوا عن الفكر الفلسفي، وحرموا نعمة التأمل في حقيقة الاشياء ، حتى لقد عدموا الشعور بما كان قائماً من حالات الدنيا الحافة بهم فمضوا لها منكرين ، كان هيرقليطس وحده الانسان المفكر الواعي بذاته .

يتأمل . وفي تأملاته خصائص ذلك الحزن الذي يملك زمام الشباب اذا اضطر الى التأمل وأفعمتهُ دنيا الانسان ودنيا الطبيعة ، بغذاء للتأمل . وفي لحظة يشعر بأنهُ قد عمر وانهُ أصبح شيخاً ، وأن حرارة الدنيا التي سلبتهُ صفة الشباب ، قد أخذت تتناقص ، وأن قرها قد أصبح في حناياه .

ومع هذا فان هيرقليطس ، قد مضى مترفعاً عن العامة ، مبتعداً عن السوقة ، ليفكر ويتأمل . كان ذلك في عصر نقول انهُ ربيع التاريخ الاغريقي ، والدنيا من حوله تمر مر السحاب ، والحياة تتدفق في تيارها المنسجم الدائم ، فانعكس من هذه الاشياء على فكره صور كونت لباب تأمله وعناصر فلسفته التي لم تتخذ صورة البحوث المطولة ولا صبت في

قالب مذهب ، بل كانت أقوالاً تدور حول فكرة أساسية من الدألف المستمر ، وأن كل الأشياء تزول ولا شيء يبقى .

(Panta chowrei kai ouden munei)

مرَّ من قبل هيرقليطس بحّاث وفلاسفة من طابع آخر . فلاسفة طبيعيّون ، تطوّحوا مع ظنون جرّيئة متناقضة في حقيقة ما تتألف منه العناصر الأولية ، ودنيا الأشياء المرئية ، والشمس والنجوم والحيوان ، وتسللوا من ذلك الى البحث في ما تتألف منه أرواحهم وابدانهم . كان هؤلاء جزءًا من عالم التجديد الاغريقي في ذلك العصر ، عصر الانطلاق العقلي . كانوا بمثابة مجموعة من المغامرات العقليـة ، وقعت في أرض مجهولة أو بحر غير مطروق .

إن المُحَصّلة العقلية التي أدى اليها تفلسف هؤلاء كانت فوضى غامرة عبّرت عن روح الشباب المتوثبة الموهوبة المتمردة. ولا ننسى ان كلمة «شباب» في اليونانية (Neotys) قد عبرت عن الغرور والنزق . وقد مضت تلك الروح متسائلة قابلة رافضة قاطعة مترجرجة متعلقة ببينات لجّـة غامضة ، متمردة على النظام ، بعيدة عن اتباع أسلوب معين ، مطلقة من القيود ، إباحية غير مسئولة . هذه الآراء ، بحكم حلولها ثم ذهابها ، وتلك التخيلات التي صيغت في حقيقة الدنيا وما يختفي وراء ظواهر الدنيا المحسوسة ، كانت بطبعها عناصر مائعة تتموج على صفحة الوجود .

نعم . نقول « صفحة » الوجود . ولكن أمن شيء يختفى وراء هـذه « الصفحة » المرئية ؟ ذلك ماينكر وجوده هيرقليطس . بشّر بذلك لسامعيه وقارئيه . ليس من شيء الا « الحركة الدائمة » ، في الأشياء وفي الآراء التي تتعلق بتلك الأشياء . تلك الفلسفة الحزينة الواعية بذاتها، فلسفة هيرقليطس الشاب الذي تقدمت به المعرفة فوق سنيه، وفي ذلك الوسط الذي مثـل شباب العقل في شباب دنيا الفكر ، لم يستطع ذلك الفيلسوف أن يستقوى على ثبات تلك الفكرة في نفسه ، فكرة « الحركة الدائمة » أو « الدألف المستمر » .

أليست هذه الفكرة بذاتها دليلاً على الحركة المستمرة ؟ أليست حركة انتقال من الماضي الميت ، الذي عاش لُحَيْظَة أسلمت به الى « الحاضر » ، هذا الذي سوف يموت أيضاً ، قبل ان نتمكن من أن نشير إليه بقولنا « ماهوذا » ؟

عقل تحليلي من أقوى ما أبدعت الطبيعة من العقول تناول المعلومات وتناول العقل ، وأحاط بكل المعارف التي ذاعت في زمانه ، وحدّد الفكر تحديداً منطقيًا تاماً . ذلك ما وُهِبَه هيرقليطس من هبات الطبيعة، فمضى يجري وراءها الأشخاص والأشياء من عالم الحركة

الشرعي . وثمة رأي لأبي يوسف القاضي يتلخص في انه عند ما يكون صاحب الأرض عاجزاً عن زراعتها فعلى بيت المال أن يقرضه المبالغ التي يحتاج اليها لذلك . واذا ما افتقر صاحب الأرض الى وسائل الزراعة الصالحة فيجب الاشارة عليه بتأجيرها لآخر او يكف يده عنها كي تتحول إلى آخر يمكنه زراعتها وعمارتها ، ويبرر الماوردي ذلك بقوله إنه لا يجوز أن تصبح الأرض بوراً حتى ولو كان خراجها يدفع ، فقد تستحيل الى أرض موات . ويوافق صاحب كتاب الدر على الرأي السابق بتحفظ مؤداه ، إنه لا يطبق إلا على الخراج المعين (خراج الوظيفة) فحسب بشرط أن لا يحال بين صاحب الأرض وبين زراعة أرضه ولا يستحق خراج على الأرض إذا منع من ذلك، وكان الخراج من النوع النسبي والمقاسمة.

وإذا كان أحد أجزاء الأرض غابة حافلة بالصيد ولا يمكن زراعتها فيعفى هذا الجزء من الخراج ، وكذلك الحال في الأجزاء التي تنمو فيهما نباتات البوص أو أشجار الصنوبر والصفصاف وماشابهها،أي الأشجار التي لا تحمل فاكهة . اللهمَّ إلاَّ إذا أمكن إزالتها وزراعة الأرض المتخلفة عن ذلك ، ففي هذه الحالة يجبر صاحب الأرض على تأدية الخراج . ويسري نفس المبدأ إذا كانت هنالك رواسب ملحية في الأرض تحول دون زراعتها .

وإذا امتلك شخص قرية واقعة في أرض خراجية فلا يؤدي الخراج على منازلها سواء أكان يؤجرها أم لا . كذلك الحال إذا ما حول جزءًا من مسكنه (إذا كان موجوداً في بلد أهله مسلمون) إلى مزرعة فلا يؤدي خراجاً ، إذ ما زال هذا الجزء يعتبر جزءًا من الدار والدور لا يؤدى عليها خراج . على إنه إذا ما حول مسكنه كله إلى حقل وجبت عليه الضريبة . والمرجع في حالتي الفرض والاعفاء ، الى الحالة التي كانت عليها الارض وقت الفتح ، إذ تظل كما هي على مرّ الأزمان . وتطبيقاً لهذه القاعدة أيضاً إذا حول فرد أرضه الخراجية إلى مسكن فانه يؤدى عليه الخراج مثله مثل الأرض سواء بسواء .

ويستحق الخراج مرة كل عام حتى ولو كانت الأرض تنتج أكثر من محصول في السنة . ومنشأ هذه القاعدة سنّة عمر ، إذ كان يجبي الخراج مرة في العام من جهة ، وإلى أن الأرض تنتج بوجه عام محصولاً واحداً في السنة ، والقاعدة تستخلص من الحالات العامة لا الخاصة

ومن الجدير بالذكر ان هذه القاعدة يجوز تطبيقها في حالة الخراج الثابت (الوظيفة) أما الخراج النسبي فهو كالعشر، تجبى الضريبة كلما نضج المحصول.[1]

(١) ترى الحنفية أن الارض الخاضعة للخراج لا يجوز أن يؤدى عليها العشر بأي حال من الاحوال في حين تجيز المالكية والشافعية اجتماع الضريبتين.

ا — اسقاط الخراج : يسقط الخراج إذا ما هلك جميع المحصول نتيجة لنوازل طبيعية لا يمكن تلافيها كانخساف الارض والبرد القارص والحر اللافح .. الخ . ويبقى الخراج قائماً إذا هلك المحصول نتيجة لأحداث يمكن تلافيها كالطيور الجارحة أو اذا هلك بعد حصاده . ويرى بعض الكتّاب جواز رفع الضريبة إذا هلك جميع المحصول ولم يكن ثمة متسع لزرع محصول آخر قبل انقضاء السنة .

وإذا هلك جزء من المحصول فحسب ، فالضريبة بتمامها واجبة الأداء فاذا كان الباقي يعادل نصف الخراج فيؤخذ نصف المقدار الموجود من المحصول ولا اعتبار للمقدار إذا كان الجزء الباقي أقل من الخراج . وكثير من كتّاب الفقه الحنفي يرون أن أقوم ما يتبع في هذا السبيل أن يطرح من المحصول قبل أي شيء آخر نفقات الزارع ثم يتبع ما سبق بيانه .

ويعللون اسقاط الضريبة في حالة هلاك المحصول بقولهم إن المزارع جدير بالعون والمساعدة وأنه إذا لم تعاونه الدولة فقد يؤدي هذا الى هلاكه وفي هذا ما فيه من الخسارة التي تعود بالنقص في حصيلة الجباية آخر الأمر ، يضاف الى ذلك أنه مما يؤثر عن ملوك الفرس انهم كانوا في حالة هلاك المحصول يمنحون أصحاب الأراضي المنكوبة النفقات التي بذلوها في زرع المحصول فتجب مساعدة الزراع — من باب أولى — في الاسلام . فان لم يكن يمنحهم ما أنفقوه فلا أقل من اسقاط الضريبة المفروضة على الأرض . هذا ومن قواعد الخراج انه لا يستحق إلاّ اذا توفر جني فائدة من الارض والفائدة في حالتنا هذه معدومة .

ب — انتقال الملكية وأثره في اداء الضريبة : إذا ما باع صاحب الأرض أرضه خلال السنة فان الخراج يستحق على المشتري اذا كان في العام فسحة لزرع الارض وإلاّ استحق الخراج على البائع . بيد أن هذه القاعدة تجوز اذا بيعت الارض وهي خالية من الزرع وإذا بيعت الارض مزروعة وعليها محصولها قبل نضجه فالخراج يستحق على المشتري بداهة ، وبالعكس اذا نضج الزرع وحصد فتعامل الارض كما لو كانت خالية من الزرع . وان انتقلت ملكية الارض مراراً ولو لم تبق في حوزة مالك أكثر من ثلاثة شهور فلا يستحق الخراج على أي من البائعين . ويحدد بعض الفقهاء المدة الكافية للزراعة بثلاثة أشهر وهي المدة الكافية لزراعة القمح والشعير ويتخذون هذه المدة أساساً لتقدير مدد المحاصيل الأخرى .

والخراج النسبي كالخراج الثابت فيما يتعلق بالاستملاك ، ولكنه كالعشر في جميع الوجوه الأخرى . وينتج عن ذلك أن كل محصول يدخل في نطاق نظام العشر يجوز اخضاعه كذلك لنظام الخراج النسبي ، وهو كالعشر كذلك لا يستحق كلما أنضجت الارض محصولاً . كما أن الضريبة تسقط إذا ما هلك المحصول ولو كان بعد الحصاد الى غير ذلك من القواعد الخاصة بالعشر

والقاعدة أن وجود الدين لا يبرر اعفاء الارض من الخراج. ومن ثم فان ديناً خراجياً من أي نوع لا ينقضي بموت صاحب الارض ولكنه يجبى من ورثته[1].

ويرى الماوردي (انظر الأحكام السلطانية) ويجاريه في ذلك الشافعي (في كتاب الأم) انه إذا أجرت الأرض الخراجية بمقابل أو بغير مقابل فان الضريبة تجبى من صاحب الارض لا من صاحب الاجارة. ولا يوافق أبو حنيفة على هذا الرأي إذ يرى أن الضريبة تجبى من صاحب الاجارة اذا أعطيت له الارض بدون مقابل وتجبى من صاحب الارض في الحالة الأخرى.

ج — تقسيط الضريبة والاعفاء منها في حالة العجز: يرى أبو حنيفة جباية الخراج مقسطاً بأن يجبى من كل محصول حصته النسبية من خراج العام، مثال ذلك: اذا كانت هناك أرض تنتج في السنة محصولين متماثلين في الاعتبار وأوقات حصادهما متباينة، فانه إذا جبيت الضريبة على المحصول الأول فيجب عليه نصفها فحسب، ويجبى النصف الآخر عند نضج المحصول الثاني.. وهكذا.

واذا عجز أحد الناس عن أداء ما في ذمته من الخراج، فيمهل حتى تستقيم حاله. ويربط أبو حنيفة استحقاق الخراج بالقدرة على أدائه، وبالتالي يسقط إذا ما تعذر الأداء. واذا ما تأخر المكلف عن اداء ما في ذمته من الخراج على الرغم من قدرته على الاداء فيحبس حتى يؤديه، اللهمَّ إلاَّ اذا وجد لديه مال يقوم باداء ما عليه. وهنا يباع بعض ماله أو كله ويسوى الدين الذي عليه بالمتحصل من ثمن البيع كما يحدث بالنسبة لتسوية المطالب العادية. فاذا لم يكن لدى المدين سوى أرض الخراج فللامام أن يبيع ما يكفي لاداء الدين أو يؤجر الارض ويسوي الدين بالمتحصل من الاجارة ويرد الباقي لصاحب الارض. وللسلطان الاستيلاء على محصول الارض حتى يجبي الخراج.

ويجوز أداء الخراج معجلاً لعام أو عامين. فان حدث بعدئذ أن تلف الزرع لسبب من الاسباب، ردّ الخراج لصاحب الارض. ويجوز أن يبقى محسوباً كخراج للسنة التالية.

واذا جبى العصاة أو الخوارج الخراج فليس للامام جبايته ثانية اذا ما استعاد سلطانه على المكلفين، إذ أن مبدأ الضريبة يقوم على الحماية.

د — لا تقبل في الاداء سوى العملة الفضية أو الذهبية التي لم يدخلها غش أي التي لم

(١) ورد في المبسوط ان الخراج يسقط عند موت صاحب الارض قبل حلول موعد جبايته ولا يجبى من ورثته، مطبقاً في ذلك قاعدة خراج الرؤوس (الجزية) ويفسر ذلك بأن خراج الارض فيه معنى الاخضاع، هذا ولا تجوز جبايته من الورثة فرغماً عن تملكهم الارض لا يمكنهم زراعتها.

يدخل في تركيبها معدن أقل في القيمة . وينتج عن هذه القاعدة انه لا تقبل سوى العملة الموسومة بخاتم السلطان . ويتفرّع عن ذلك عدم جواز الأداء بالسبائك إذ لا يمكن القطع بصحتها إلاّ بالصهر . ولا يجوز التشبث بطلب الاداء بعملة معينة وإلاّ عدّ هذا تعسفاً . ولا يقبل الأداء بالدراهم والدنانير المكسورة (أي التي أصابها النحات الشديد) .

واذا كان الخراج نسبيًّا فكل عيار يصلح لهذا الغرض . واذا كان ثابتاً فقد اختلف الفقهاء في تعيين الخراج . فورد في العلمكيرية مثلاً أن المكيال الواجب هو الصاع .

أما الماوردي فيرى انه إذا جبي الخراج من ناحية لأول مرة فيستخدم مكيال هذه الناحية أساساً للجباية .

أما عن مسح الارض فالمقياس الشائع هو الجريب ويساوي ٣٦٠٠ ذراع والذراع ويساوي سبع قبضات . ويستحسن بعض الكتّاب استخدام المقياس الشائع في الناحية المجبي منها الخراج .

وعند الاختلاف في نوع الارض « عشرية أو خراجية » فيرجع الى مسجلي الديوان الذين يجب أن يكونوا من أهل التقوى والورع وأهلاً للثقة . وجباة الخراج كجباة الزكاة يتناولون مرتباتهم من متحصلات الخراج . وهذا يصدق أيضاً على المسّاح

***

٥ — ارتفاع الخراج

يراد بهذا الاصطلاح في المالية العامة الاسلامية مقدار المتحصل من ضريبة الخراج سنويًّا ، وهذا أمر صعب تقديره ، فقد خلط أكثر المؤرخين العرب بين الخراج وبين ضرائب أخرى ، فكثيراً ما كانوا يجمعون الجزية والخراج أو الخراج والعشور . . الخ تحت اسم الخراج .

واستكمالاً للبحث أذكر أمثلة من جباية الأعمال في الدولة الاسلامية :

فالسواد (أي العراق) بلغ ارتفاع خراجه في أيام عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٠ درهم ، وفي أيام عبيد الله بن زياد سنة ٦٢ هـ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٣٥ درهم ، وفي أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٥ هـ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٨ درهم ، وجباه عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠٠ درهم .

أما عن مصر فقد جباها عمرو بن العاص ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٢ ديناراً أي ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٠

الظاهرية الجزئية الى عالم آخر من الحركة الكلية ، حتى ليخيل إليك انه حاول أيضاً أن يجر الأرض من تحت قدميك : فيقذف بها في تيار تلك الحركة الجارفة .

***

إليك مبدأ الفساد ، وإليك مبدأ الزوال : المبثوثان في كل ظواهر الطبيعة . أليسا هما المبدآن المنبثان في تضاعيف العناصر الأولية التي تتكون منها المادة والتي تتكون منها النفس ؟

في كتاب إقراطيلوس : يقول سقراط . « ما من أحد عبر مرتين فوق مجرى واحد » هذا التغير السريع ، اذا لم يجعل المعرفة مستحيلة استحالة مطلقة ، فانه يجعلها على الأقل نسبية في مجموعها ، أي أنها تصبح غير ذات قيمة كما يقول أفلاطون . وبذلك يصبح الانسان وسط هذا العالم المتدفق ، وعند نقطة الزوال ، تلك التي تحتكم في المكان والزمان ، مقياس كل الأشياء .

من عبارات أخرى في كتاب « إقراطيلوس » يمكن إن نفهم وجهاً آخر من مذهب هيرقليطس . وجه ينحصر في محاولة حاولها عساه يرد ذلك الوجود الذي تغمره فوضى « الدلف المستمر » ، وجوداً نظيماً ذا قوانين وسنناً تحكمه ، فلعل هنالك « ألفة دورية » Antiphonal rythm أو منطقاً كونياً يضبط الوجود فيتجانس فيه التنقل من حركة إلى حركة ، كما لو كان ذلك المنطق تأليفاً موسيقياً معقداً ، يربط معاً وفي جملة واحدة ، جميع تلك القواسر المتنابذة المتباينة صورها ، والتي يمضي فيها التباين إلى غير نهاية أو غاية .

كان هذا بمثابة اعتراف ، حتى من ناحية ذوي الفلسفة التي تنكر التساوق وتجحد الاتساق ، بضرورة ان تعود الى الوجود رتابته ، بعد ان غمرته الفوضى المائعة غير المستقرة ، فوضى الطيرة الى الدلف أي الحركة

ولكن اذا كان الفيلسوف الباكي ، وهو رأس المتشائمين ، قد يجد في خضوع الوجود كله لمبدأ التغير وعدم الثبات ، مستمداً يستمد منه بواعث حزنه وألمه ، فأجدر به ، ولا ريب ، ان يكون أشد حزناً عندما يرى ان أذن الانسان قد سدت ؛ وان عقله قد استغلق ، فلا هو يسمع ، ولا هو يفقه ، من ذلك اللحن الحزين المنساب في ارجاء الكون ، شيئاً .

اسماعيل مظهر

من حديقة أبيقور

لا شك يعتورنا شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصوّر عُقل الانسان في العصر القديم ، حيث أُعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك ، ان الأرض في مركز النظام الدنيوي ، وان كل الكواكب يدرنَ من حولها . لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما خيل اليه انه رأى بعيني رأسه وشمّ بذات أنفه ، أدخنة الكبْريت تنبعث من جهنم ، مُفْلتة من خلال صدع في الصخور . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثني عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك عطارد والزهرة التي زارها دانتي في يوم « الجمعة » الحزينة من سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التي تُعَلَّق فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن وراء هذه ، رأى بعيني عقله ، السماء التاسعة او الفلك التاسع ، مقر القديسين ، ثم المحرك الأول أو الفلك البلوري ، ثم في النهاية المَطْهَر ، مقام المنعمين واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، أن يتلقفها مَلَكان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه في طهر الطفل الوليد ، فتغسل بالتعميد وتعطر بزيت السر المقدس .

في ذلك العصر لم يكن لله من اولاد غير الانسان . أما بقية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولية وفي صورة شعرية ، فكأنما هي كاتدرائية عظيمة . فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد تتخيله في مجموعه ، وبمختلف صوره وحركاته ، كأنه آلة مركبة من آلات عدّة .

أما الآن فقد قوّضنا الافلاك الاثني عشر، وكذلك الكواكب التي كان الانسان يولد في ظلها سعيداً أو شقيًّا، مُشتري الحياة او زُحَلِيها. أما القبة الصُّلبة التي هي السماء، فقد تهشمت وتطايرت شظايا في اعتبارنا. وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية. فلا نجد اليوم ذلك المطهر مستقر الصالحين والملائكة، قائماً من خلف السيارات بل مئات الملايين من الشموس، تحوطها من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة. وفي وسط تلك العوالم اللانهائية يقع عالمنا، كأنه ذرَّة من غاز، وأرضنا كأنها ذرَّة من طين.

العوالم تموت، لانها تولد. انها تولد وتموت إلى غير نهاية. والخلق بحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال، لا بدَّ من أن يعتوره التغير بغير انقطاع. إن الشموس تنطفيء، فلا نقدر ان نقول اذا كانت بنات الضوء هذه، تبدأ بموتها على هذه الصورة، حياةً اخرى في صورة سيارات، فتكون حياتها الجديدة حياة مفعمة بالخير. كما لا نقدر ان نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارةً أخرى. كل ما نعرف أن السكون غير كائن، لا في السماء ولا في الارض، وان سنة العمل والجهد تحكم العوالم، وتقدّر مصايرها الى ما لا نهاية.

هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب. أما السماوات التي خُيِّل للناس انها ثابتة لا تتغير، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية، اللهمَّ الاَّ أبدية انها مسوقة في مجرى الاشياء.

من حديقة أبيقور: أناتول فرانس

قواعد النظام المالي الاسلامي

الخراج

— ٢ —

٤ — استحقاق الخراج

يستحق الخراج بصرف النظر عما اذا كان المالك يزرع أرضه او لا يزرعها ، بشرط ان تكون لديه القدرة على ذلك . إذ ان الداعي لفرض الخراج هو قدرة الأرض الانتاجية ، وصاحب الأرض بقعوده عن زرعها رغماً عن قابليتها للانتاج قد جرد المنتفعين من الخراج من الريع المستحق لهم . على ان الامام مالك يرى انه ليس على حائز الأرض خراج اذا لم تزرع الارض سواء أكان لديه العذر في القعود عن زراعتها أم لم يكن لديه ذلك .

وإذا لم يكن في قدرة المالك زراعة ارضه لافتقاره الى الوسائل التي تمكنه من ذلك فللامام الحق في ان يقطع الأرض لزارع آخر بطريق المزارعة[1] ويرى أبو حنيفة انه عندما يهجر أهل الخراج أراضيهم فللامام زرعها لحساب الخزانة العامة (بيت المال) او اقطاعها ، وبذلك يكون الدخل الناتج منها كله للامة . واذا لم يتيسر ذلك فللامام ان يبيع الأرض ويجبي الخراج من الثمن المتحصل ويرد الباقي لصاحبها . ويجوز لصاحب الأرض استعادة أرضه اذا أمكنه ذلك اللهمّ الاّ اذا كانت قد بيعت .

ويرى الماوردي انه اذا باين الخراج المفروض على الأرض المحصول الناتج بسبب صاحب الأرض، فتجبى أقل الفئات الممكن جبايتها ، وذلك لأنه عوضاً عن اهمال الزراعة اهمالاً كليًّا قد زرع المحصول الخاضع لأقل الفئات . وهذا العمل يدخل في نطاق حقه

---

(١) المزارعة اتفاق بين صاحب الارض وأحد المزارعين مقتضاه أن يقوم الأخير بزرع الارض لقاء أداء جزء من المحصول لصاحبها ، وتسمى أيضاً مخابرة وهذا اللفظ ينصب فقط على زرع الحبوب ويقابله المعاملة والمساقاة في حالة الشجر كما ان المضاربة تقابل معنى المزارعة في حالة التجارة إذ تعني شركة بين رب المال وبين التاجر « المضارع » الذي يشترك بعمله لقاء جزء من الارباح

درهم . ولكن يظهر من عبارة المقريزي أنها مبلغ الجزية وحدها باعتبار دينارين عن كل رجل . واختلفت مقدار جباية مصر بعد ذلك وضعف أمر ماليتها

أما بلاد الشام فقد بلغ خراجها أيام عبد الملك بن مروان ٧٢٠ر١ ٠٠٠ر دينار .

وقد أورد المغفور له سمو الأمير عمر طوسون في مؤلفه مالية مصر صفحة ٣٣٠ جدولاً لخص ما ذكره كتّاب العرب عن مقادير الخراج في العصر العربي ، أضع صورة منه أمام القارىء الكريم تتمة للموضوع .

المصادر	الحكام	الخراج بالجنيه المصري
ابن عبد الحكم (فتوح مصر)	عمر بن الخطاب	٨١٦ر٦٦٦
اليعقوبي (البلدان)	« «	٤٢٠ر٠٠٠
البلاذري (فتوح البلدان)	« «	٣ر٣٠٠ر٠٠٠
الكندي (فضائل مصر)	هشام بن عبد الملك	٣ر٤٠٠ر٠٠٠
المقريزي (خططه)	المأمون	٢ر٥٥٤ر٠٠٠
ابن وصيف شاه (نشق الأزهار)	احمد بن طولون	٢ر٥٨٠ر٠٠٠
« « «	المعتز بالله	٤٨٠ر٠٠٠
المقريزي	الأخشيد محمد	١ر٢٠٠ر٠٠٠
ابن حوقل (المسالك والممالك)	المعز لدين الله	١ر٩٢٠ر٠٠٠
ابو صالح الارمني (الكنائس)	المستنصر بالله	١ر٨٧٢ر٠٠٠
المقريزي	صلاح الدين الأيوبي	٢ر٧٩١ر٠٠٠
ابن الجيعان	حسام الدين لوجين	٦ر٤٨٦ر٩٥٠
	الناصر محمد	٥ر٦٥٦ر٩٧٣

اما خراج الدولة الاسلامية فقد أورد العلامة ابن خلدون قائمة يمكن تقسيمها الى قسمين : قسم يشمل جباية أقاليم المشرق وعملتها الأساسية الفضة ووحدتها الدرهم الفضي . والقسم الآخر يشمل جباية أقاليم المغرب وعملتها الأساسية الذهب ووحدتها الدينار الذهبي (١)

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٥٤ الفصل الثامن عشر « في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها وأصلها »

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
السواد	٢٧٫٨٠٠٫٠٠٠	٢٠٠ حلة نجرانية
		٢٤٠ رطلاً من طين الختم
كسكر	١١٫٦٠٠٫٠٠٠	
كولار دجلة	٢٠٫٨٠٠٫٠٠٠	
حلوان	٤٫٨٠٠٫٠٠٠	
الأهواز	٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠	٣٠٠٠٠ رطل سكر
		٣٠٠٠٠ قارورة ماء ورد
فارس	٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل زيت أسود
كرمان	٤٫٢٠٠٫٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يماني
		٢٠٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠٫٠٠٠	
السند وما يليه	١١٫٥٠٠٫٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
سجستان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠	٣٠٠ ثقب معين
		٢٠ رطل من الفانيد
		٢٠٠٠ نقرة فضة
		٤٠٠٠ برزون
خراسان	٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق
		٢٠٠٠٠ ثوب متاع
		٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
جرجان	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٫٥٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
		٦٠٠ قطعة فرش طبري
طبرستان والريان	٦٫٣٠٠٫٠٠٠	٢٠٠ كساء و ٥٠ ثوباً
		٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جام
الري	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١٫٣٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ رب الرمانين
ماها البصرة والكوفة	١٠٫٧٠٠٫٠٠٠	

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	من الدراهم	
ماسبذان والريان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	
شهرزور	٦ر٧٠٠ر٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
اذربيجان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠ بزاة ٢٠ كساء ٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المسايح السرماهي
أرمنية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠٠ رطل صونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهراً
برقة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	
افريقية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٠ بساط
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ر٠٠٠	
الأردن	٩٧ر٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ر٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢ر١٢٠ر٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ر٠٠٠	سوى المتاع الذي لم يذكر
الحجاز	٣٠٠ر٠٠٠	
	٤ر٨١٧ر٠٠٠	ديناراً وتساوي ٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠ درهم. باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠	
يضاف اليه جباية الاقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨ر٦٠٠ر٠٠٠	
الجملة	٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠	درهم

فمجموع الجباية الواردة في هذه القائمة ٤٠٠ مليون درهم تقريباً عدا الأموال والغلات مما لا أعلم حقيقة قيمته . وهذا الرقم يكاد يماثل الرقم الذي أورده قدامه بن جعفر في كتابه « الخراج وصنعة الكتابة » عن الخراج في عصر المعتصم إذ بلغت الجباية في سنة من سني هذا العصر ٣٥٠ و٢٩١ و ٣٨٨ درهماً مع وجوب ملاحظة الفارق بين عصر المأمون الزاهر وعصر المعتصم الذي ابتدأت الدولة فيه في التقهقر والاضمحلال . والواقع ليس هذا الرقم غريباً على دولة كانت تشمل معظم العالم المتمدين في ذلك الوقت

٦ — ديوان الخراج

لما فتح المسلمون الشام ومصر والعراق وغيرها لم يغيروا شيئاً في دواوين هذه البلاد بل أبقوها على ما كانت عليه . فكان الديوان في مصر يكتب بالقبطية وفي الشام بالرومية وفي العراق بالفارسية ، كما ظلّ كتّاب الديوان من أهل البلاد ، وكان العرب يراقبون أعمال الدواوين ويستولون على جبايتها فحسب . ولما آل الحكم لبني أمية وظهر في المسلمين مهرة في الكتابة ونابغون في الحساب فابتدأ نقل الديوان الى العربية وحدث هذا لأول مرة في أيام الحجاج إذ أمر صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأما ديوان الشام فنقل في عهد هشام بن عبد الملك نقله ابو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك[1] وتمّ نقل ديوان مصر على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ .

وأما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب

وكان الخلفاء يتولون النظر في أمر الخراج ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الأمر إلى الدولة العباسية وضعوا ديواناً مركزيّاً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الأعمال وضعه السفاح وعهد بأمره الى خالد بن برمك . وكان في جملة تصرفه فيها أنهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لأولادهم وأهلهم (أي يعطونه التزاماً) . وأصبح ديوان الخراج في أيدي الوزراء مثل غيره من الدواوين حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت أمورها إلى الأمراء أبطلت الدواوين في أيام الراضي بالله [2] .

فؤاد محمد شبل
الملحق الصحافي للمفوضية المصرية بموسكو

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٢١٢
(٢) تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الاول صفحة ٢١٢ ومقدمة ابن خلدون صفحة ٢١٢

عالم المجهول أيضا

الوجود الذي نعرفه أو نعرف شيئاً عنه أو أشياء، هو الوجود المادي نعرفه مباشرةً بواسطة ظاهراته التي تؤثر في مشاعرنا كما هو معلوم. ونعرفه أيضاً بواسطة فعله في حواسنا الباطنة. نعرف ان الحياة موجودة لأنها من أفعال المادة الكيمياوية ونرى من ظاهراتها الولادة والنمو والموت. ونعرف ان العقل موجود لأنه من فعل الخليات الدماغية وهي مادية وظاهراته القوى العقلية. ونعرف ان الحب والشجاعة والفضيلة الخ موجودة لأنها من أفعال العقل الذي هو من آثار الخليات الدماغية التي هي من مركبات المادة الكيمياوية. فكل ما نعرفه إنما هو ظاهرات المادة المختلفة التي تدلنا على ان هناك أسراراً عرفناها بعد ان كنا نجهلها وأسراراً لا نزال نجهلها ونؤمل أننا سنعرفها. أعني أن هناك أسراراً في الطبيعة نجهلها ولكن لها ظاهرات تدل عليها ونؤمل اننا سنكتشفها كما كشفنا غيرها. ولولا الظاهرات لما عرفنا أن هناك أسراراً.

مثال ذلك: كنا نجهل سرّاً سميناه الألفة الكيمية وهو سر اتحاد عنصر دون آخر أو اتحاد عنصر بعنصر أقوى من اتحاده بعنصر آخر. فعبارة الألفة الكيمياوية مبهمة لم تفسر السر. ما هي إلاّ تسمية للسرّ الغامض. فلما اكتشفت النظرية الكهربية، (الالكترونية) انكشف ذلك السرّ واتضح ذلك الغامض.

الجاذبية سر لا يزال غامضاً. وما اكتشف نيوتن الاّ قانونها ومستلزماته. ولكن الظاهرات التي تدل على وجودها عديدة

فاذا كان المراد بعالم المجهول عالم الأسرار الغامضة التي تدل على وجودها ظاهرات المادة أو ظاهرات مفاعيلها، فلا بأس أن تسمى هذه الأسرار الغامضة عالم المجهول. ولكن أليس الأفضل أن نسميها العالم الغامض أو عالم الغوامض

ولكن اذا كان ثمت عالم وهمي لا ظاهرات له إلاّ أخيلة في أدمغة فريق من الناس السذّج الذين تراءت لهم رؤى لمرض في أدمغتهم أو لهوس في عقولهم كعالم الجن مثلاً، فهذا عالم

موهوم غير موجود في الطبيعة بتاتاً ولا وراء الطبيعة . ومهما ادعى المأخوذون به من الظاهرات التي يستدلون بهـا عليه فلا يثبت التحقيق والبحث والتحري ، الا أنه عالم وهمي موجود في عقولهم فقط .

ومثله عالم الأرواح . فما الاعتقاد به الاّ تقليـد موروث منذ قدم الانسان . ومنشؤه اختراعات المخيلة في أحلام المنام أو أحلام اليقظة . ومهما ادعى الطوافون في هذا العالم من رؤية الأرواح واستحضارها وظهورها واتصالها بعالمنا وانتقالها من جوّ الى جوّ ومن زمان إلى زمان فعند التحقيق نجد ان هـذه الدعاوى ليست الا أوهاماً نشأت في عقول ذويها لسقم في ناحيتي التصور والاستنتاج فيها . وقد تكون أحياناً شعوذة ممن يدّعيها تجوز على عقول المؤمنين بها

فهذا عالم مجهول لا ظاهرات له تدل على وجوده الاّ تلك الأوهام الخدّاعة ولا وجود له في الطبيعة ولا وراء الطبيعة

فالمجهول في عالم المـادة الذي تدل على وجوده ظاهرات صـادرة منه يحسن أن تسميه «عالم الغامض» لأنه يحتمل ان يكتشف سرّه يوماً ما فينتقل من عالم الغموض الى عالم المعرفة. من ذلك ان أسلافنا القدماء كانوا يرون من ظاهرات الطبيعة ان قبة السماء كلهـا تدور من الشرق الى الغرب حول الأرض . وما زالوا يأخذون بهذه الظاهرة على علاتها الى أن اكتشفوا أن الأرض لا السماء تدور على محورها وثبتت لهم هذه الحقيقة بالبراهين التي لا تقبل الشك.

وقس على هذا مئات والوفاً من ظاهرات الغوامض التي اكتشف الانسـان أسرارها فأصبحت في عوالم المعلومات

هذه العوالم الغامضة لا توجد الاّ في صميم الطبيعة المـادية . ولا ريب انها كثيرة . واذا كشفنا سرّاً منها بدت لنا اسرار أخرى . ولـكن ما يُزعَم من عوالم المجهول في ما وراء الطبيعة، لا وجود له اذ لا ظاهرات تدل عليه

فنرجو ممن يزعمون وجود الجن والأرواح وغيرها ان يرشدونا الى الظاهرات التي تدل عليها لـكي نبحث عن أسرارها ، فان لم تـكن لها ظاهرات فليست موجودة ، لأن مشاعرنا وحواسنا هي مصنوعات الظاهرات . وبغير تأثير الظاهرات يستحيل أن نعرف شيئاً . ولا نستطيع أن نزعم وجوداً لا ظاهرات له فعالم المجهول هذا لا وجود له

نقولا الحداد

المباراة والتعاون

الصراع بينهما وأيهما يسود

مشكلة العصر الحاضر تتشكل في صور مختلفة . فهي أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية . ولكنها في الأساس اقتصادية

فالنظام الاقتصادي هو الذي يحيل الأمم الزراعية أمماً صناعية ، فيحدث الغنى الفاحش والفقر الفاحش . ويحدث التعطل . وتحدث الحرب . ويحدث الانقلاب الأخلاقي بل الروحي في الشباب، حين ينتقلون من الجو الزراعي ، جو القدر ، جو الاستسلام ، جو الجمود إلى الجو الصناعي ، جو الاستقلال الروحي ، جو الاختراع ، جو التغير

ولكن إذا كانت الأمم الصناعية هي أمم التجدد والاختراع ، فهي أيضاً أمم الحرب . فقد ورثت هذه الأمم نظام المباراة أو الامتلاك الفردي من العصر الزراعي واستبقته . فنقلت أخلاقاً زراعية الى مجتمع صناعي . مع إن كل ما في هذا المجتمع، يصرخ بالتعاون

والمباراة ممكنة أو لا يشق تحملها في مجتمع زراعي بدائي . ولكنها قاتلة في مجتمع صناعي يعيش بآلات القوة ، إذ هي تثمر الفاقة والاستعمار والمبادئ الامبراطورية والحرب

ولا يمكن لأمة تعيش على مبدأ المباراة الاقتصادية أن تجحد الحرب . لأن المباراة من حيث هي أسلوب لكسب العيش وجمع الثروة ، تنتهي إلى قمتها وتتبلور في أقصى منطقها ونهاية تطورها الى الحرب

والعالم العصري يعيش في مجتمع يدعو الأفراد إلى المباراة ويدعو الأمم إلى المباراة . فالمباراة منطقه وأخلاقه بل فضيلته . والفاشية والنازية هما المعقل الأخير لنظام المباراة وكراهة التعاون . هما الدعوة إلى لم الشعث لانقاذ واستبقاء نظام المباراة والسعي الحر للكسب بين الأفراد والأمم . وكلتاهما تتغنى بفضائل الحرب

ولكن الأمم الديمقراطية أيضاً تتغنى بفضائل الحرب . لأن الحرب جزء من منطق اقتصادها . فقد ألقى المستر آرثر كيث خطبة في جامعة أبردين سنة ١٩٣١ قال فيها أشياء كثيرة . منها قوله : « تصون الطبيعة البستان البشري بالتقليم . والحرب هي أداة هذا التقليم، ولا يسعنا أن نستغني عن خدمتها »

وأقرب الحروب الينا هي الحرب الكبرى التي شبت عام ١٩١٤ والتي كانت ترجع إلى مباراة اقتصادية بين المانيا من ناحية وبريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى . والحرب القائمة الآن هي إضماراً أو تصريحاً ترجع أيضاً الى مباراة اقتصادية بين الامم التي تسمي نفسها « محرومة » وهي اليابان والمانيا وايطاليا، وبين الامم الاخرى التي تملك المستعمرات والمواد الخامة والأسواق وهي فرنسا وهولندا وبريطانيا والولايات المتحدة . وقد انتهت الأمم التي تسمي نفسها « محرومة » الى الفاشية التي تحمي مبدأ المباراة لكي تحمي الحرب التي هي منطق المباراة وتبلورها ، ثم تستخدم الحرب لنيل أغراضها.

ويجب ألاَّ نفكر في قيمة هذه الادعاءات التي ادعتها الأمم « المحرومة » لأن الزعم هنا كالوهم وكالحقيقة . فالثري الذي يملك مليون جنيه قد ينتحر لأنه خسر نصف هذا المليون . مع ان ما تبقى له يكفي الف نفس . ولن تستطيع اقناعه بسهولة بشأن هذا الجنون الذي يدفعه الى الانتحار .

ما هو السبب الاقتصادي للحرب القائمة ؟

هو أزمة ١٩٢٩ هو الاختناق الاقتصادي الذي شعرت به الأمم عقب هذه الأزمة أو توهمته . ويجب أن أكرر هنا انه يجب ألاَّ نفصل بين الشعور الحقيقي وبين التوهم الكاذب . والواقع أن أزمة ١٩٢٩ كانت برهان الرخاء واليسر اللذين لم تبلغهما البشرية قط . لأن الانتاج الزراعي والصناعي زاد وفاض حتى احتاج الأمر الى احراق أو اتلاف بعض المنتجات . ولو ان العالم كان في نظام اشتراكي لصفق وهلل لهذا الخير العميم . ولكن نظام المباراة يمنع الآن من زيادة الاستهلاك مع انه قد زاد الانتاج الى حد الحاجة الى احراق بعض المنتجات أو اتلافها .

في عام ١٩٢٩ ابتدأت الأزمة في أعظم الأمم في الرقي الصناعي وهي الولايات المتحدة حيث مبدأ المباراة ديانة محترمة . ديانة تقول بتنازع البقاء التطبيقي . ثم امتدت الأزمة حتى أصابت سائر العالم . وعندئذٍ رأينا اليابان تستولي على منشوريا عام ١٩٣١، وايطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥ ، واليابان على الصين عام ١٩٣٧ ، والمانيا على النمسا عام ١٩٣٨ ، ثم المانيا على السوديت عام ١٩٣٨

وفي عام ١٩٣٩ نشبت الحرب الحاضرة نشوباً رسمياً . أما النشوب الحقيقي فكان في عام ١٩٣١ عند ما أغارت اليابان على منشوريا .

وقد كانت هناك « عصبة الامم » لمنع هذه الحروب أو هذه الاعتداءات . ولكن منطق المباراة في العالم كان أقوى من منطق عصبة الأمم . المباراة معيشة وتصرف في المعاملة وأسلوب في الحياة، تناقض جميعها عظات عصبة الامم . والاخلاق أي أخلاق السلم التي كانت

عصبة الأمم تريد منها العالم كانت تتكرها المعيشة أي معيشة الحرب الاقتصادية التي يمارسها العالم أفراداً وأمماً

ومن هنا سكوت العالم على اعتداء اليابانيين والايطاليين والألمان على الأقطار التي استولوا عليها . بل من هنا سكوت الدول الديمقراطية على اعتداء المانيا وايطاليا على اسبانيا الجمهورية

ففي اسبانيا كدنا نرى حكومة قائمة أوشكت أن تقول « لا » لمبدأ المباراة العام في العالم . وأن تستبدل به تعاوناً أو مساواة اقتصادية . ثم رأينا ثائراً على هذه الحكومة في شخص فرانكو . فهبت الفاشية والنازية تساعدان هذا الثائر لاستبقاء مبدأ المباراة ومكافحة مبدأ التعاون . وسكتت الدول الديمقراطية .

فلماذا سكتت الدول الديمقراطية التي تؤمن بالوطنية على اعتداء الفاشية والنازية على أسبانيا ؟

سكتت لأنها وجدت نفسها بين عاملين :

عامل الدفاع عن الوطنية واحترام الحدود الجغرافية .

وعامل الدفاع عن مبدأ المباراة أي نظام رأس المال .

وتغلب العامل الثاني على العامل الأول . فقد كانت الحروب تثار من أمة على أمة . حروباً وطنية . ولكن منذ أكثر من عشرين سنة بدأت كل أمة تشعر بحرب أهلية صامتة أو صاخبة هي حرب الطبقات . وأصبح كل فرد ينقسمه ولاءان ولاء للوطن . وولاء للطبقة التي ينتسب اليها .

وهنا قليل من التفسير . فان الحضارة القائمة في عصرنا ثمرة ثورتين هما :

١ — الثورة الفرنسية التي تقول بالاخاء والمساواة والحرية .

٢ — والثورة الصناعية التي تقول بالتفاوت الاقتصادي .

الثورتان متناقضتان . واحدة للاخاء . وأخرى للصراع . واحدة للحرية السياسية . وأخرى للاستعباد الاقتصادي .

والنازية والفاشية بل أحياناً الديمقراطية حين ترى هذا التناقض بين الثورتين تصرح بكراهتها لمبادىء الثورة الفرنسية . وذلك حين ترى ان نية الشعوب قد انعقدت على تنفيذ المبادىء الفرنسية وعلى أن يعيشوا في أخاء ومساواة وحرية .

ولكن كيف يمكن أخاء ومساواة وحرية إذا كانت الامم تعيش بالمباراة ؟ برأس المال الذي يحارب رأس مال آخر في سوق قريبة أم نائية ؟ أو برأس مال يستثمر في صناعة تحتاج الى المواد الخامة الرخيصة والى رق الاستعمار والى استغلال الشعوب المتأخرة ؟

كانت عصبة الامم قة ضئيلة من التعاون فوق هرم ضخم من المباراة .

انظر مثلاً الى هذه الكلمة التي أنقلها عن الدكتور ماكس سالفادوري من صفحة ٢٤٦ —

من عدد فبراير ١٩٤٠ من مجلة هاربر حيث يقول في فضائل الاستعمار :

« ان الرقي الاجتماعي بين الوطنيين سيكون له أثر سيئ في استعمار البيض لهم . إذ كلما ارتفعت حضارة الوطنيين زادت قدرتهم على مزاحمة الاوربيين في ألوان من النشاط يعيش بها هؤلاء الاوربيون » اه .

فيجب لهذا السبب أن يمنع الوطنيون من الصناعات الكاسبة وأن يقتصروا على الزراعة. فنحن نرى هنا مبدأ بل ديانة التفاوت البشري، ديانة السادة والعبيد، ديانة الأغنياء والفقراء، ديانة المباراة للكسب ثم للحرب، ديانة تنازع البقاء بأسلحة الحضارة وليس بأسلحة الطبيعة .

قبل أشهر قرأت في إحدى المجلات الدينية المسيحية مقالاً ينعي فيه كاتبه على أبناء العصر الحاضر ايمانهم بنظرية داروين . وهو يرى أن هذا الايمان هو الذي انتهى منطقه الى الحرب . وليس شك في أن الحرب هي المسرح الأكبر لتنازع البقاء . ولكن المتأمل لهذه النظرية — نظرية تنازع البقاء — وكيف وصل اليها داروين والعصر الذي عاش فيه وهو العصر الذهبي للمباراة الاقتصادية (ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩) لا يتمالك من الشعور بأن داروين قد تأثر بالمجتمع التجاري الصناعي فنقل قواعده ومبادئه الى الطبيعة ونظر الى وحشية الغابة من خلال حضارة مانشستر . وقد نظر هوكسلي بعين داروين حين قال : « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب » . ولكن هوكسلي كان شهماً وكافراً معاً . فقال أيضاً في شهامة رائعة وان تكن عقيمة « يجب ان نتحدى سيرة الكون » أي على فرض أن الكون يسير على مبدأ الناب والمخلب والطبيعة الحمراء بالدم ، فاننا نستطيع ان نتحدى هذه الوحشية ونسير على مبدأ الحب والتعاون والاخاء .

ولكن الواقع اننا لا نحتاج الى هذا التحدى . فان في الطبيعة من التعاون والحب أكثر جداً مما فيها من التنازع والقتال . كما أثبت ذلك كروبتكين وجديس وكثيرون غيرهما .

***

وضعت عشرات بل مئات الكتب هذه السنوات الأخيرة بل هذه الأشهر الأخيرة عن الوسائل التي يمكن ان تلغى بها الحروب ويعمم بها السلام . والمقترحات كثيرة ولكنها تتلخص فيما يلي :

(١) احياء عصبة الامم (٢) ايجاد ضمانات جديدة للحرية الانسانية (٣) ايجاد اتحاد اوربي أو عالمي (٤) الاشتراكية .

***

فاما عصبة الأمم فقد أثبتت انها أداة عرجاء لمنع الحروب . لأنها قصدت الى تحقيق السلام على الورق . ولم تبال الأسس الاقتصادية التي يبنى عليها المجتمع . فكانت الدعوة الى الاخاء في جنيف تصطدم بمذهب المباراة في الصين واسبانيا وأفريقيا وأوربا . تعاون

بالكلام على القمة الصغيرة التي تطير بأضعف ريح وتنازع راسخ بالعمل في الاساس . والآن وقد أوصدت أبوابها نشعر انها ذكرى أسيفة وحلم شريف . ومنا من يقول انها كانت هيئة اخلاقية تقول هذا خطأ . ولكنها تعجز عن تصحيحه ، لأنها كانت محرومة من أداة التنفيذ إذ لم يكن لها جيش أو طائرات او أسطول . ولكن لنفرض انه كانت لها هذه القوات ثم كانت الأمم والأفراد تسير على مذهب المباراة الذي كان لا بد أن يبعث التحاسد بين الأمم كما يبعث التحاسد بين الأفراد . ألا يكون التسلح السري كما حدث في ألمانيا — ثم الانشقاق ثم الحرب ؟

ولا ينكر أنه إذا ألفت عصبة جديدة على مبادىء نزيهة بحيث لا يجوز لاحدى الدول أن تستغلها وبحيث تصير لها قوة حربية كبيرة — لا ينكر انها تستطيع ان تمنع الحروب او تحد منها . ولكن من منا يحب استقراراً للعالم على حاله الحاضرة من المظالم الاستعمارية والمالية ؟ لو أن هذه العصبة التي ماتت كانت مسلحة لاستخدم سلاحها لضغط بعض الأمم المتأخرة وابقائها في التأخر ومنعها عن الاستقلال .

أما ايجاد ضمانات جديدة كأنها دستور انساني جديد فهذا ما يقول به الكاتب الانجليزي ولز وأنا ألخص هنا هذا الدستور الذي سماه «حقوق الانسان» في جميع أنحاء العالم :

١ — حق العمل الذي يختاره الانسان ويعيش به .

٢ — حق الفراغ بتحديد ساعات العمل مع تزويد العامل بأجر الفراغ الذي يمكنه من الاستمتاع به .

٣ — حق العاملين في الانتفاع بكامل انتاجهم .

٤ — حق الصحة الذهنية والجسمية باستعمال جميع الوسائل العلاجية .

٥ — حق المرأة في أن تقوم بأمومتها على أحسن الوجوه .

٦ — حق التعليم الحر للجنسين لجميع الشعوب بالمجان .

٧ — حق تزويد العائلة فوراً عند موت عائلها بما يقيتها .

٨ — حق المعاش قبل الشيخوخة .

٩ — حق الحرية في الخطاب والاجتماع والصحافة وحرية المظاهرات

١٠ — حق الانتقاد لجميع فروع الحكومة والدعاية للاصلاح .

١١ — حق الانتخاب عند بلوغ الثامنة عشرة بدون التمييز بين الجنسين .

١٢ — حرية الشخص ومراسلاته .

وهذه « لوحة » جديدة من حقوق الانسان تتفق وحال العالم في القرن العشرين . وقد سبقتها لوحات أخرى لحقوق أخرى . وولز بالطبع لا ينسى انه يجب ايجاد هيئة لتنفيذها .

وهو أعظم كاتب في عصرنا ينظر النظرة العالمية . وهو بريطاني يدعو الى الغاء الامبراطورية البريطانية . وجمهوري يطلب الغاء العرش البريطاني . وهو حين ينص في المادة الثالثة من هذه الحقوق على «حق العاملين في الانتفاع بكامل انتاجهم» انما ينص في الواقع على الاشتراكية.

وكان يكفي هذا النص لايجاد عالم جديد يحتوي عفواً ، وبلا تعيين ، جميع الحقوق الأخرى . ولذلك ليس لي اعتراض على هذه المقترحات . وكل ما أستطيع أن أقوله أنهُ كان يجب تأكيد هذه المادة الثالثة وإبرازها أكثر من سائر المواد .

***

وأما إيجاد اتحاد أوربي أو اتحاد ديمقراطيات العالم في القارات الخمس فمن الحلول التي كثر الكلام أو اللغط فيها حديثاً. ودعاة الاتحاد يذكرون على الدوام « الاتحاد السويسري» باعتباره النظام الأمثل حيث نجد أربع لغات ومذهبين بل أكثر من المذاهب الدينية . ومع اختلاف اللغة والمذهب يعيش السكان راضين بل مغتبطين باتحادهم .

ولا ينسى دعاة الاتحاد ان الوطنية حديثة في أوربا وانها أي أوربا ، كانت أيام القرون الوسطى في « اتحاد مسيحي » وان الراية الوطنية أو الطوطم الوطني لم يكن له الولاء الذي يؤدي الى الحرب في عصرنا . وهناك من يحس الاختلاف في الأنظمة الحكومية والفكريات الاقتصادية كاختلاف الاشتراكية السوفيتية من النازية الألمانية واختلافهما معاً ، من الديمقراطية ، فيقول بالاتحاد بين الديمقراطيات فقط . ولكن اذا صحَّ هذا الاتحاد فانه عندئذٍ يقسم أوربا معسكرين أو ثلاثة معسكرات . فلا يكون سلام .

وحتى عند ما نتغاضى عن هذه الاختلافات ونعتقد امكان الاتحاد بين جميع الدول الاوربية يبقى أمامنا هذه الدول الأخرى في القارات الأخرى . بل يبقى أمامنا هذا الشك في بقاء الاستعمار وفي المبادىء الاستعمارية التي يحمل عبئها ويكتوي بنارها الافريقيون والآسيويون . وعندئذٍ يكون تعميم السلام قسراً للاستغلال الاوربي . بل عندئذٍ تصبح الحرب الواجب الاول على كل افريقي أو اسيوي يطلب الحرية .

أما اتحاد العالم كله فمن الاغراض البعيدة التي يمكن تقريبها بايجاد نظام اقتصادي تدريجي يجعل أمم العالم تعتنق فكريات اجتماعية متشابهة لتشابه نظامي الانتاج والتوزيع . وهذا يجرنا الى الحل الوحيد المعقول .

هذا الحل هو التعاون ، أي ان وسائل الانتاج الزراعي والصناعي تصبح ملكاً للشعب بدلاً من أن تكون ملكاً للافراد أو الشركات . وينشأ هذا النظام كاملاً في الامم الصناعية المتقدمة مثل المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الاميركية . وينشأ متدرجاً في الامم التي لم يدركها العصر الصناعي بآلاته وفكرياته . وعندئذٍ يأخذ التعاون في المعاش

مكان المباراة . فنزول الاخلاق التي تولدت من المباراة : أخلاق التفاوت الاقتصادي بين فرد وفرد . بحيث يكسب الواحد في اليوم مقدار ما يكسبه آخر في خمس سنوات . فيكون الحسد والمرض والجهل والجريمة . وتزول أخلاق التفاوت بين أمة وأمة . فلا تكون أمة صناعية سائدة وأمة زراعية خادمة . ويزول التوسع الامبراطوري وخصص الاسواق والمواد الخامة وانشاء الشركات التي يعيش مساهموها في باريس أو بروكسيل لاستغلال العامل الكادح الجائع في جاوة أو سنغال .

لقد نشأنا على أن نقول : « الاقتصاد السياسي » . وهو كذلك سياسي بل حربي . لأن الحرب هي السياسة العنيفة . والساسة في عصرنا يفهمون هذا الاقتصاد من حيث انه حركات مالية تجري في عواصم اوربا لخطف الكاوتشوك او البترول أو القطن أو القصدير او النحاس من قطر افريقي أو أسيوي ضعيف يمكن استغلال عماله بعشرين أو ثلاثين مليماً في اليوم . وهذا الاستغلال تقوم به شركات أو حتى أفراد يؤيدهم الاسطول والجيش والطائرات . فهو اقتصاد سياسي لاغش فيه ، وليس فيه شيء من مبادىء الاقتصاد الانساني . وقد عرفت أمم آسيا وأفريقيا ثمرات هذا الاقتصاد المرة . وكلنا يذكر أننا حفرنا قناة السويس بأيدينا بل بأظافرنا ودفنت أجسام آبائنا في طينها ثم لم ننتفع منها بعشر بل بجزء من مئة مما ينتفع به المساهم في رومة أو باريس أو غيرهما .

هذا الاقتصاد السياسي هو اقتصاد الخطف والنهب ، اقتصاد الغنى والفقر ، اقتصاد العامل الجائع والثري المتعطل ، اقتصاد المباراة بين فرد وفرد ، وبين أمة وأمة ، اقتصاد المباراة التي تؤدي في النهاية الى الحرب للاستيلاء على المواد الخامة والأسواق وللاستعمار ، اقتصاد رأس المال الحر ، اقتصاد تنازع البقاء الذي يجب أن تستبدل به الاقتصاد « الانساني » الاقتصاد الذي ينشأ على التعاون ويؤدي في النهاية الى السلم . لأن الآراء والفكريات والعقائد والفلسفات والآداب والمذاهب انما هي ثمرات المعيشة التي نعيشها . فاذا كنا نعيش بالمباراة نتبارى في المدرسة بالامتحانات ، ثم في المجتمع بالآراء والمناصب والقامات ، وننشأ على أن يضمر كل منا ان يكون أفضل من غيره ثروة ومقاماً ، فان منطق هذه المعيشة ينتهي الى الحرب التي هي قمة المباراة . بل ان هذه المعيشة قد أوجدت في نفوسنا عواطف تلتذ المباراة وتطلبها كما نرى في سباق الخيل وغيره .

ولكن اذا كنا نعيش بالتعاون فان روح المباراة يموت وتموت معه شركات الاستغلال العالمية التي تبعث على الاستعمار وتموت الحرب ويموت هذا التفاوت الذي يجعل بعض الناس يمرضون بكثرة الطعام وبعضاً آخر يموتون بقلته . ويزول التعطل : تعطل الفقراء الذين لا يجدون عملاً ، وتعطل الاغنياء الذين لا يحتاجون الى عمل .

إن أوربا تتشنج بحركات هتلر . وكلنا يتساءل : كيف يهزم هذا الطاغية بعد أن دجج المانيا بل أوربا بالسلاح وبعد أن علم الألمان الفن الدموي للجزارة البشرية حتى ضُروا عليها [1]

يُهزم بالقوة الروحية، بريح التعاون التي تهب على أوربا فتدخل المصانع وتهمس في أذن العمال : هنا عصر جديد : مساواة وتعاون وحب ، ومقاطعة أبدية للحرب . هنا شيء يستحق القاء السلاح . هنا اقتصاد انساني، وليس اقتصاداً سياسيًّا يدبره الساسة عن الاستعمار والمواد الخامة والامتيازات

إننا نعيش في أيام تاريخية وضوضاء التاريخ تصخب فوقنا والحوادث تسير على إيقاع سريع حتى ليرتبك الذهن وتختلط الأشباح . ولذلك نحتاج إلى دقة البصيرة لكي نقرأ المستقبل ونرى الرؤيا الصافية . فالحرب في نشاط . ولكن السياسة في جمود . كأن الساسة يخشون رؤيا المستقبل . وفي إحشاء الذهن الأوربي قوات بركانية تختفي تحت السطح وتنتظر الاشتعال والانفجار . وليس هناك قوة روحية تستطيع بعث هذا الاشتعال والانفجار للخير غير قوة التعاون . وعندئذٍ لا تكون هذه الحرب حشرجة الموت للحضارة بل مخاض الميلاد لانبجاس اجتماعي جديد . واذا وثق العمال في أوربا بأنهم سيجدون التعاون إذا تركوا هتلر وموسوليني ، فانهم لن يبقوا معهما لحظة بل سرعان ما ينفضونهما . ثم يعقد الصلح وسيكون صلح السلام الدائم لأن الفكريات الجديدة ستكون فكريات التعاون والحب والرضى بالمساواة . وقد يقال ان الانتصار الحربي ممكن ، وليس شك في هذا ولكن يجب أن نتساءل : هل الصلح عندئذٍ يكون وعداً أم وعيداً ؟ وهل من البعيد أن تكسب الديمقراطية الحرب ثم تكسب الفاشية الصلح ؟

إن الانتصار الحقيقي هو الانتصار الروحي ، الانتصار الذي ينبع من القلوب ، هو الانتصار الذي ينشأ من الرغبة في الخير وعقد النية على الرضى بالمساواة، والاقلاع عن زهو التاريخ بالاقلاع عن الاستعمار والتوسع وانشاء الشركات التي تنبسط شباكها على الأقطار بل القارات . وهذا الانتصار يحتاج الى تضحيات كبيرة في المال . ولكن مهما كبرت التضحية بالمال ، هي دون التضحية بالدم

لقد وصلنا الى طور الانهيار في النظام الاقتصادي الحاضر، الى نقطة تطورية في التاريخ وقيام الفاشية والنازية هو البرهان على هذا الانهيار الذي كان يتوقاه هتلر وموسوليني بقوة السلاح والديكتاتورية الغاشمة . والعالم قد نضج للعصر الجديد وهو ظامىء اليه . والعصر الجديد هو نظام التعاون في الانتاج والاستهلاك فيمحى الفقر . ومتى محي الفقر زال التحاسد . وزالت الرغبة في الحرب .

سلامه موسى

(١) كتب هذا المقال قبل ان تلقي المانيا السلاح —



انسان الفِطَحْل

Pithecanthropus erectus.

بحث لغوي علمي

Etym., Pithecanthropus (Gr. pithekos = an ape) and (Gr. anthropos = man). erectus, L. = upright. erect. Cass. Lat. Dict. p. 196

الاسم العلمي الأعجمي مكوَّن من كلمتين : الأولى Pithecanthropus وهي مركبة من كلمتين يونانيتين (pithecos) أي سعدان أو قرد و (anthropos) أي انسان ، والثانية لاطينية (erectus) أي معتدل او منتصب . فالاسم الجنسي « انسان الفطحل » ، والمعتدل : الصفة المميزة للنوع .

والفِطَحْل : دهر لم يخلق فيه الناس بعد (القاموس ٣١ : ٤) . وجاء في لسان العرب (٤٢ : ١٤) الفِطَحْل على وزن الهِزَبْر : دهر لم يخلق الناس فيه بعد . وزمن الفِطَحْل زمن نوح . وسئل رؤبة عن قوله زمن الفِطَحْل . فقال : أيام كانت الحجارة رطاباً . روي أن رؤبة بن العجاج نزل ماءً من المياه ، فأراد أن يتزوج امرأة ، فقالت له المرأة ما سنُّك ؟ ما مالك ؟ فأنشأ يقول :

لما ازدَرَت نَقْدي وقلّت إبلي تألّقت واتّصلت بعُكْلِ
تسألني عن السنين كَمْ لي فقلت لو عُمِّرْتُ عُمرَ الحِسْلِ
أو عمر نوح زمن الفِطَحْلِ والصخر مبتلٌّ كطين الوَحْلِ
أو انني أوتيت عِلْمَ الحُكْلِ عِلْمَ سليمان كلام النَّملِ
كنت رهين هَرَمٍ أو قَتْلِ

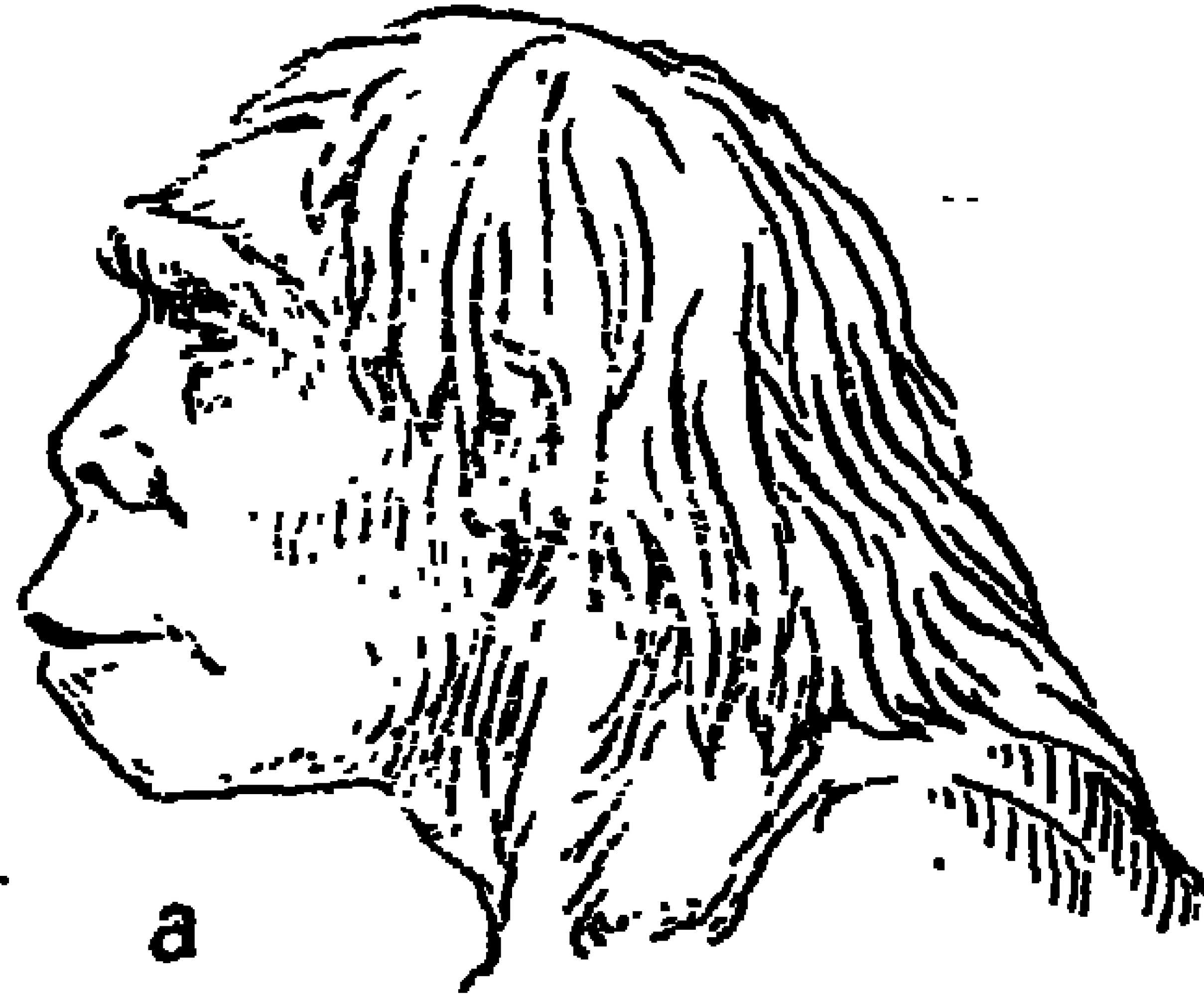
جاء في معجم شرف ص ٦٤٩ :

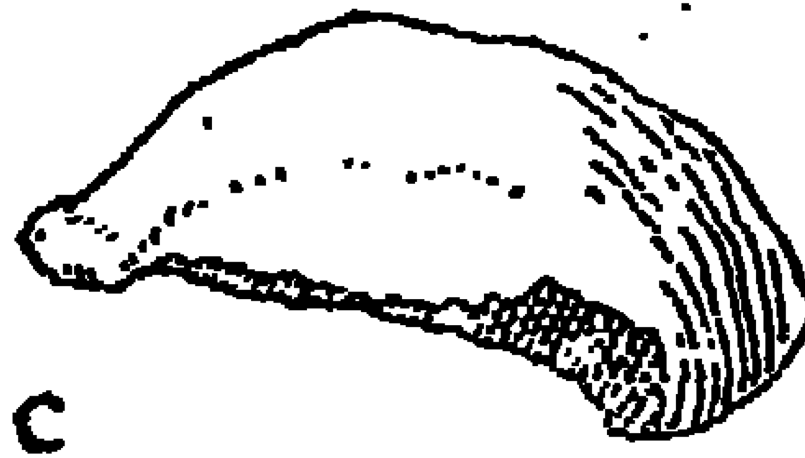
Pithecanthropi (pl. of pithecanthropus) = Ape-men.

« القرود الشبيهة بالانسان . البشر قبل التاريخ » : اهـ . ولنا على هذا التعريف مأخذان : الاول : ان « القرود الشبيهة بالانسان » هي التي سماها المواليديون : Simiidae

ووضعنا لها في العربيــة اصطلاح « الأشباه » ، ليشعر المطّلع انهـا أشباه الانسان ، ولا إنسانية .

-الثاني : ان « البشر قبل التاريخ » يطلق عليهم اصطلاح : Pre - historic men وهم بشر فعلاً ، ولا « قردية » فيهم ، وعصرهم قريب نسبيًّا ، على الضـد من « انسان الفطحل » فان تاريخه بعيد جدًّا . ويدلك على هذا ان الاستاذ « هكل » الالماني يعتقد أو هو يظن أنه الحلقة الحادية بعد العشرين من حلقات التطور التي تصل «البشريات» Anthropoidea بالانسان : Homo





الرسم الأعلى : صورة متخيلة لانسان الفطحل
الرسم الثاني : الصاقورة التي عثر عليها الاستاذ ديبوا في جاوه

وجاء في معجم الحيوان للمعلوف ص ١٩٠

الانسان القردي : اسم وضعه هكل من باب الحدس ، ثم كشف عظام الحيوان الآتي ذكره ، فسموه بهذا الاسم : P. erectus الانسان القردي المنتصب ، « قرد الزاجّ » اهـ .

ويعتقد بعض العلماء ان إنسان الفطحل وجد في نهاية الدور الثالث[١] من الأدوار الارضية[٢] وانه تأصل من البشريات[٣] بأن بدأ يعتدل في مشيته ويكتسب قوة غير عادية في ساقيه ، بالاستعمال . ومضى في التطور حتى تحول الطرفان الاماميان ذراعين ينتهيان بيدين معدّتين لغير ما أعدّتا له في أسلافه، وتحول الطرفان الخلفيان ساقين ينتهيان بقدمين أعدّتا للمشي

(١) Tertiary period (٢) Geological Ages (٣) Anthropoidea

اعتدالاً . على ان انسان الفطحل لم يحرز القدرة الانسانية على استعمال لغة مفصَّلة القاطع ، مع ما يقتضيه ذلك من نشوء قوي الوعي وتكوين الفكرات .(١)

وذكر سير « أرثر كيث » في الفصل الذي عقده في كتاب «التاريخ العام » ص ١٥٥ ج ١ وعنوانه «نشوء الانسان من صور الحياة الدنيا» : فقال ان اصطلاح : Pithecanthropus يساوي قولك Ape-man اي الانسان القردي ، غير أن معجم أكسفورد الكبير (ص٩١٩ : ٧) قد أشار عند ذكر هذا الاصطلاح ، بعد ان فسّر اشتقاقه ، الى أن الاصطلاح يحتمل معنيين : إما الانسان القردي وإما القرد الانساني، فقد جاء به ما نصه :

An ape-man, or man-like ape ; name given by Haeckel (1868) to a hypothetical link between the apes and man.

ولهذا جريت زمناً على تسميته « القرد البشري المعتدل » ، بالرغم من أن عبارة « الانسان القردي المعتدل » أصح ترجمة للاصطلاح الأعجمي . وكنت راعيت في ذلك ضرورة تعيين الاضافة . فان عبارة « القرد البشري المعتدل » تُشعر بالتدرج من القردية الى الانسانية ، وفاق ما وقع في الطبيعة أخذاً بسنة التطور . ولا أشك في أن هذا المعنى هو الذي قصد إليه هكل عند ما وضع الاصطلاح

غير اني عدلت عن هذه العبارة ، وسميته « إنسان الفطَحل » ، نسبةً إلى زمن الفطَحل والمقصود به في اللغة « دهر لم يخلق فيه الناس بعد » . وفي النسبة إليه دلالة عريقة على المقصود . ويدلنا على ذلك شاهد ننقله عن العلامة هكل واليك هو :

Qout., These Ape-like men, or Pithecanthropi, very probably existed toward the end of the Tertiary period. (٢) They originated out of the Man-like Apes, or Anthropoides, by becoming completely habituated to an upright walk, and by the corresponding stronger differentiation of both pairs of legs.

Haeckel (trans.) History of Creation, 11, 293.

وقال الأستاذ بدَرْدْ : Beddard في كتابه « الثدييّات » ص ٥٨٤ ما يلي :

« انسان الفطَحْل حيوان قارب الطابع البشري ، أكثر مما قاربه أيٌّ من القردة

---

(١) Encyclopedic Dictionary 5341-5

(٢) الدور الثاني : يجوز لنا أن نسمي الازمان الجيولوجية : Geological Ages (الادوار الارضية) ، لانها العصور التي تعين مدارج أو أدواراً خاصة في تاريخ تكوين طبقات الارض فتكون كالآتي :

الدور الاول : Primary period	الدور الثانوي Secondary period
الدور الثاني : Tertiary period	الدور الرباعي Quarternary period

في القاموس المحيط (٣ : ١٦٣) وسق ثلث الثلث اي بعد الثنيا ؛ وثث الثاني ولدها الثالث .

البشرية . وقد حدّد الوالديون (١) هذا الجنس اعتماداً على ضرسين ، وصاقورة (٢) ناقصة ، وعظم فخذي (٣) ، وجدت في أواسط جاوة ، مطمورة في قاع من الرماد البركاني ، قيل ان تاريخه يرجع الى العصر الأجدّ أو الأجدَد (٤) ، وتبلغ سعة الصاقورة ثلاثة أرباع متوسط سعة مثيلتها في الانسان . ومن مميزات هذا الحيوان انسفاح الجبهة وانخفاضها ، وبروز الحيود (٥) التي تكون فوق الحجاج (٦) ويبلغ طول الفخذ ٤٥٥ مليمتراً ، وهو معتدل ، فيدل بصورته هذه ، على ان الحيوان كان يمشي معتدلاً » . اهـ .

ومنذ أن وقع الاستاذ « دُبْوا » Dubois على هذا الكنز العلمي العظيم أضيف الاسم النوعي اي المميز للنوع erectus الى الاسم الجنسي الذي أطلقه هكل على حلقته الوهمية Pithecanthropus فأصبح المصطلح ما هو.. ويكون تعيين الدلالة العلمية كما قلنا في أول البحث، هو أن انسان المطحل اسم للجنس ويقابله Pithecanthropus وتمييز النوع الذي اكتشف الأستاذ « دبوا » آثاره هذه انه معتدل : erectus .

وقال العلامة « له كونت » Le Conte في جريدة « العلم » العام الشهرية عدد فبراير سنة ١٩٠٠ ما يلي :

« لقد اعتقد أن الانسان هو الانسان منذ أبعد عصور التاريخ . ذلك بأنه لم يكن قد عُثر على حلقات تربطه بشيء من البشريات. غير ان دكتور « دُبْوا » قد كشف في جاوة عن صاقورة وسنّين وعظم فخذ ، ظهر من بحثها إنها لحيوان هو حلقة وسطى ، أطلق عليها الكاشف اسم P. erectus أمّا المشكلة الباقية أمام العلم أزاء هذا الاستكشاف الآن، فتنحصر في الحكم على صفات هذا الحيوان: أقردٌ هو أشبه بالانسان من أي قرد معروف ، أم انسان أشبه بالقرد من أي كائن بشري عرف ؟ أما العصر الذي عاش فيه هذا الحيوان ، فأواخر العصر الأجَدّ (وهو آخر عصر في الدور الثلثي من الأدوار الأرضية) أو أوائل الدور الرُّباعي » .

أعظم ما يدل عليه هذا الكشف العلمي،أن الانسان متطور عن صورة حيوانية أدنأ من صورته التي عرف بها في أواسط الدور الرباعي ، وهو الدَّور الذي سادت فيه الرئيسات أي القردة والسعادين على غيرها من صور الحياة، بما بث فيها من قوة الذكاء وسعة الحيلة وبدايات الاحساس الأدبي .

(١) Naturalists (٢) Calvarium : صاقورة الجمجمة باطن القحف المشرف فوق الدماغ كأنه قعر قصعة (شرف ص ١٧١) (٣) Femur (٤) Pliocene : انظر معجم سلشوري : Century ج ٤ ص ٤٥٦ ؛ فان الكلمة مكونة من حرفين يونانيين (Plion) أي زائد أو فائق و (Kainos) أي جديد ، ومدلوله فائق الجدة (٥) Ridges (٦) Orbit : العظم المشرف فوق العينين

ووصفه بعض الواليديين تحت عنوان « انسان جاوه » : Java Man فقال :

« إن أول انسان وصل اليه علمنا حتى الآن هو « إنسان جاوه » الذي عرف في الأوساط العلمية باسم « إنسان القـطـحـل » Pithecanthropus ، لأن به شبهاً كبيراً من القرود العليا. ولقد عاش هذا الانسان منذ مليون سنة . وفي سنة ١٨٩١ أخذت العالم هزة عنيفة باستكشاف جزء من جمجمته وعظم فخذه . وفي ذلك الزمن ظن قليلون أن هذه الجمجمة ذات المخايل القردية ، لا يمكن أن تكون لانسان . فهي من حيث الحجم لا تتجاوز نصف جمجمة الانسان الحديث . وعلى الرغم من أن حجم الجمجمة لا يتخذ قياساً للكفايات العقلية ، فان النزول عن مستوى حجم خاص للدماغ يدل على ان الانسان أقرب إلى البدائية منه الى الرقي العقلي . كذلك تدل تلافيف الدماغ وعمق الحزوز المخية على الذكاء والقدرة العقلية . وهنا نجد ان إنسان القطحل أقل في هذه الصفات من كل طراز حصلنا عليه من السلالات البشرية » .

« وهذه الجمجمة متطامنة ومسطوحة الى حدٍّ غير مألوف ، والجبهة متراجعة ، والجزء التالي للجبهة من الدماغ قليل النماء أوّلي التكوين . وكل منطقة من المناطق ذوات العلاقة بالذكاء والفراهة ، تلك التي تنمو في الأطفال آخر شيء ، كانت ضئيلة قميئة . وإنسان القطحل بالرغم من أنه كان بطيء الحركة غليظ النظر ، فانه كان حائزاً لصفة من الصفات الرئيسة التي تمتاز بها السلالات البشرية ، صفة أنه كان حائزاً قدرة بدائية على الكلام . ولقد عرف الواليديون ذلك من الآثار التي خلفها الدماغ مطبوعة على الجمجمة ، حيث رأوا أن منطقة الكلام ، وتكون فوق موضع الأذن ، منتفخة بعض الشيء »

« يغلب أن أحدنا لو قدر له أن يرى « انسان جاوه » دائماً يمشي مشي الرسيف في جنب غابة ملتفة الشجر ، إذن لأُخِذَ بمنظره ، ولملكه الرعب والفزع . فان هذا الحيوان كان ولا بد بمثابة شبح مخيف . ذلك بأن بدنه لم يتابع مخه في النماء . فان وجهه ، بحيوده الجبهية البارزة ، وعينيه الغائرتين ، وأنفه العريض الأفطس ، وفكيه البارزين ، وذقنه المرتدة وجبهته المتراجعة ، كل ذا يرسم لك صورة مفزعة مريبة . وكانت رأسه تنغض دائماً الى الأمام ومن ورائها رقبة قصيرة غليظة ، فتلوح كأنها ارتكزت على كتفيه . وكان يستعصي عليه ان يرفع رأسه ويقف معتدلاً . فان فقاره لم يكن قد تطور الى حدٍّ يمكنه من الاعتدال . أما هيئته وقسماته وانحناء ركبتيه ، فربما أنستنا انه احد عجائب الدنيا . ولكنه في الحقيقة بزرة الانسانية الأولى ، وأول جذر امتد منحرفاً عن دوحة القرود ، ليكون اصلاً للبشرية الحديثة »

لا تدخن

التدخين متعة بدء، وملل يحرق ؛ والذين يشعرون انه يساعد على الهضم أو يبعث على التعادل الخفي ، كذبة آثمون . لأن التدخين معول فتاك يهدم بسمومه الصحة ، وليست سمومه قليلا عددها ؛ فهي تسعة عشر سماً ، ومن بينها « الفورفورال » الذي لم يكتشف له العلم الحديث الى الآن ترياقاً .

وبسبب الاصابات المستمرة الناتجة عن امتصاص هذه السموم ، تحدث تغييرات مرضية واستحالات متنوعة في أنسجة الجسم ، وفي الغدد الافرازية ، ثم تصلب في نسيج الشرايين . ويتبع ذلك مضاعفة القلب لجهوده حتى يستطيع أن يدفع الدم الى هذه الشرايين المتصلبة ، مما يتسبب عنه سرعة النبض والخفقان الذي يصاب به عادة المدخنون .

وليس القلب وحده هدفاً لسهام التدخين القاتلة الطائشة ، وانما الكبد ، والكلى ، والمعدة ، والرئة ، والأعصاب والبصر ، والاسنان ، كلها من ضحاياه أيضاً .

والتدخين كثيراً ما يسبب ذبحة صدرية ، تظهر عند المدخنين ما بين سن الخامسة والاربعين والخامسة والخمسين ، كما يسبب أيضاً الامساك ، والصداع ، والحموضة والدوخة ، وفقدان الشهية ، والهبوط الجنسي ، والهستريا ، والنورستانيا ، والتهابات الفم ، والحنجرة ، واللثة ، ويزيد من سرعة الانفعالات النفسية الغاضبة ، ويساعد على الاصابة السريعة بأمراض البرد ، لأنه يحدث التهاباً باللوز ، ويزيد النزلات الشعبية ، ويسبب التهابات في القصبة الهوائية والشعب ، وقد ينجم عنه نزيف دموي عند المصابين بأمراض في الرئة ، كما أن المدخن سريع الشعور بالتعب .

ومعظم قرح المعدة ، وكذلك قرح الرئة ، ترجع أسبابها الى التدخين ، ثم ان الدكتور « جراي » قد وجد ان ٩٦ ٪ من حالات سرطان الشفة ، واللسان ، والحلق ، التي مرت به كانت في المدخنين .

وقد اكتشف الدكتوران « مول » و « فلينت » ان التدخين ينقص من افراز الببسين والرينين مما يسبب عدم هضم المواد الزلالية ، وهذا هو السبب في أن النحيف اذا أقلع عن التدخين تزيد الى وزنه بضعة كيلو جرامات .

وقد قام الدكتور « ماك نللي » يبحث في هولندا حيث ينتشر التدخين أكثر من أي مملكة أوروبية أخرى فوجد ان نسبة الموتى من سرطان المعدة ، ضعفها في بلاد الانجليز وهي الامة التالية لهولندا في غرامها بالتدخين .

وللاقلاع عن التدخين سبع طرق : —

١ — الارادة

٢ — احلال عادة أخرى مكان التدخين كوضع قطع الحلوى في علبة السجاير نفسها وأخذ واحدة منها كلما أحست الرغبة الى التدخين .

٣ — صيام الفاكهة لمدة يومين : لا يؤكل خلالهما غير فاكهة الموسم ، في الوجبات الثلاث كما يشرب كميات كبيرة من الماء .

٤ — ترك الطعام قبل الشبع ، لأن ملء البطون يدعو الى التدخين .

٥ — غسل الاسنان وتنظيفه جيداً بالفرشاة .

٦ — لكي لا يستطعم الانسان الدخان ويكرهه ، يتمضمض بمحلول نترات الفضة $\frac{1}{1000}$ بضعة مرات يومياً .

٧ — التنفس العميق بالبطن وليس بالصدر ، ثلاثين مرة كل صباح أمام النافذة مفتوحة .

فهمي عطا الله



الاسرة والمجتمع (١)

من المعتقدات الخاطئة ولا شك ، معتقد ان الأسرة نظام طبيعي فطري يرجع الى الغريزة أو بالأحرى الى غريزة بعينها ، ينبغي إذا ما أنعمنا النظر قليلاً في تحليلها ، أن ندعوها غريزة الأسرة . وليس من ذلك شيء في عالم الحياة على اطلاق القول . أما الحقيقة فالقول بأن الأسرة نظام تعاوني اقتصادي ، كان في منشئه الاول تعاونياً صرفاً كما نرى في الجماعات البدائية حيث انصرف النساء الى القيام بكل حاجات الجماعة : ما عدا الصيد والدفاع عن النفس ، فكانت هذه من اختصاص الرجل . ومع نشوء المدنيات وتطورها نشأ العامل الاقتصادي بالإضافة الى العامل التعاوني . فالأسرة في نظامنا الحاضر نظام تعاوني اقتصادي أخذت رابطته تنحل شيئاً بعد شيء ، وقد يأتي زمن تنحل فيه هذه العقدة التعاونية الاقتصادية انحلالاً تاماً .

دليلنا على ذلك ملموس فالآصرة التي تربط الأسرة في هذا العصر أساسها الرفاهية الاقتصادية . ولهذه الرفاهية الاقتصادية قانون ثابت . فكلما تهيأت للاسرة مسببات الرفاهية الاقتصادية ، ضعفت الناحية التعاونية ، وأصبحت الرابطة الأسريّة مسألة موازنة بين مصالح مادية صرفة . واذا ضؤلت مسببات الرفاهية الاقتصادية قويت الناحية التعاونية بضرورة الحال ، وأصبحت الرابطة الأسرية مسألة حاجة تقتضيها نزعة الاحتفاظ بالذات ، ومواجهة مطلوبات الحياة بقوة تستمد من ذلك التعاون .

إذا حللنا هذا القانون بشيء من العمق اتضحت لنا حقيقته اتضاحاً أقوى وأظهر . فاذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة الرجل واستأثر بها ، ضعفت رابطة الأسرة ، لأن المرأة لا تجد لها مصلحة في الابقاء على هذه الرابطة التي تعود منفعتها على الرجل وحده .

(١) من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية الفلسفية . التزمت طبعه ونشره دار أحياء الكتب العربية بمصر ، ١٤٤ صفحة من القطع الأوسط : ١٩٤٥

وعكس ذلك مطرد أيضاً ، أي اذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة المرأة واستأثرت بها دونه . فاذا ضعف المؤثر الاقتصادي وأخذ المؤثر التعاوني سبيله الى العمل في النظام الأسري ، تعذر على هذه العقدة التي نسميها الأسرة البقاء ما لم يقم كل من طرفيها بنصيبه من وجوه هذا التعاون . فأسرة ما ضعف في تكوينها العامل الاقتصادي لن تقوم بغير التعاون ، فاذا لم يتزن طرفاها في الاضطلاع بمقتضياته ، ضعفت رابطة الأسرة وربما انحلت تماماً .

عاملان اذن لا غيرهما كانا السبب في نشوء ما نسميه الأسرة : التعاون ابتداءً ، ثم الاقتصاد تعقيباً . وهما عاملان يتزايلان ، بمعنى ان أحدهما اذا قوي ضعف الآخر ، وهكذا دواليك الى حيث لا انتهاء .

***

لا نستطيع أن ننكر أن هنالك أثراً غريزيًّا يتقدّم ذلك النظام الذي نسميه « الأسرة » ذلك هو أثر غريزة حفظ الذات وما يترتب عليها من غريزة حفظ النوع . غير ان العلاقة بين الأسرة وبين الأثر الغريزي لظاهرتي حفظ الذات وحفظ النوع هي أشبه بالعلاقة بين فن الطهي وغريزة الاغتذاء . فالاغتذاء وطلب القوت غريزة ، ولكن الصورة التي يُسهيّأ بها الغذاء ، ليست أكثر من فعل ثانوي تطلبته ظروف تطورية معروفة . أضف الى ذلك أن غريزة حفظ الذات والنوع هي فعل فزيولوجي (وظائفي) في حين أن الأسرة ظاهرة بعيدة كل البعد عن تلك الغريزة الوظائفية ، وما هي غير مظهر اجتماعي اقتضته ظروف طارئة ، يتغير ولا شك بتغيرها ويتكيف بمقتضياتها . فليس فيه اذن من صفة الثبات الغريزي شيء اطلاقاً .

***

إن نظام الأسرة الذي قام كما أسلفنا على ضرورة تعاونية ابتداءً ومنفعة اقتصادية تعقيباً ، بمقتضى تطور الحالات المدنية التي مرّ بها الانسان ، قد يتكيف بحسب النظام الاقتصادي القائم في كل جماعة من الجماعات . فالأسرة من حيث الرابطة والاتصال وقوة التماسك في نظام رأسمالي : غيرها تماماً في نظام شيوعي . وهي في مجتمع يعترف للمرأة بحق الملك والعمل والانتاج ، غيرها من مجتمع ينكر على المرأة هذه الحقوق . وما القوانين والشرائع التي نظمت الأسرة برابطة الزواج وأواصر القرابة الا نتيجة التشريع من جانب واحد من جانبي الجمعية ، جانب الرجل الذي استعمل دائماً حق الأقوى ، ومن شرائع الأسرة على أساس

الاحتفاظ بسلطته على المرأة ، ومرت بشرائعه تلك أطوار متعاقبة اتجهت في جميع مظاهرها جهة واحدة ، هي جهة السيطرة على الشطر الأضعف من شطري المجتمع ، فتناوبت ذلك الشطر ألوان من السياسات أشبه بتلك التي تناوبت سياسة الاسترقاق في كثير من أمم الارض

***

قلنا من قبل انه لا يوجد من شيء يقال له « غريزة الأسرة » حتى يقال بأن النظام الأسري غريزي ، أي فيه ثبات الغريزة وخصائصها . وليس في علم النفس ولا في علم الاجتماع ولا في علوم الأحياء قاطبة شيء يدعى « غريزة الأسرة » . وإذن يكون هذا النظام انساني وضعي صرف ، فيه كل صفات الأشياء الانسانية الوضعية القائمة اول شيء على عدم الاستقرار ، المتغيرة بمقتضى الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، الخاضعة لضروب السياسات المدنية في مختلف العصور . وما أبعد شيء هذه صفته عن أن يكون غريزة . زد الى ذلك ان ليس في نظام الأسرة من ناحية واحدة ينطبق عليها تعريف الغريزة كما هي معروفة في علم الاحياء أو النفس

أعتقد فوق ذلك أن الأسرة كما نظمتها القوانين والشرائع وكما هي قائمة اليوم ، بل وكما عاشت في بعض العصور البدائية ، كانت مانعاً صد الطبيعة عن ان تجري على هذا الحيوان الناطق حكم سننها الطبيعية التي أدت إلى نشوء الأنواع ، فعاقت بذلك ، وبخاصة في عصور التمدن التي سيطرت فيها القوانين والشرائع ، نماء الصفات العليا في الانسان ، صفات العقلية الممتازة والفن الرفيع والخلق الفاضل وما الى ذلك .

فان من الثابت ان الصفات الأدبية تورث كما تورث الصفات البدنية تماماً . وقد ثبت ذلك ببحوث العلامة « فرنسيس فالتون »[١] و « داروين »[٢] و « شترتون هل »[٣] وغيرهم . والصفات الممتازة في الأفراد قد تظهر فجأة كما ثبت ذلك ببحوث كثيرين من المشتغلين بعلم الوراثة ، فاذا لم تحفظ هذه الصفات بالانتخاب الصناعي ، فقدت قوتها وخصائصها ، وظلت تظهر في فترات متقطعة متباعدة ثم تختفي في ذلك البحر اللجي من الصفات التي هي أدنى منها ، ولا يخرج منها سلالة برأسها إلا بتأثير عوامل طبيعية لا تتيسر للانسان الآن في بقعة من بقاع الأرض ، وان يسرت في ما سلف من الأحقاب .

ولقد استطاع الانسان ان يخرج سلالات من الحيوان وضروباً من النبات ذوات صفات

---

(١) Hereditary Genius (٢) Descent of Man

(٣) Heredity and Selection in Sociology

جديدة ممتازة بالانتخاب الصناعي[1] والانتخاب اللاشعوري[2]. وذلك مبحث مستفيض في نشوء السلالات ليس هذا موضع شرحه . ولكن الذي يعنينا هنا هو القول بأن شرائع الزواج والأسرة قد تتطور بحكم العلم الى ما يشبه ذلك في المستقبل . بل إني أقول ان هذا ينبغي أن يكون مذهباً اجتماعياً يقصد به توليد سلالات ممتازة بالانتخاب الصناعي من أفراد النوع البشري . وسوف آخذ في تأليف كتاب في هذا المذهب عما قريب .

لقد اثبت سير فرنسيس غالتون ان وراثة الصفات الادبية والفنية أمر ثابت علمياً وعملياً ، ودلل على مذهبه باحصائيات مستفيضة جمعها عن أسر انجليزية توارثت القضاء والسياسة والقيادة والأدب والشعر والموسيقى والتصوير واللاهوت وغير ذلك . فأي مانع يحول دون الاحتكام في هذه الظاهرة لتصبح يوماً ما العامل الأول في تكوين فئات ممتازة من النوع البشري تتوارث النبوغ جيلاً بعد جيل ؟

ذلك دليل آخر على أن الأسرة ليست نظاماً أبدياً غريزياً كما يقول البعض ، وإنما هي نظام مدني صرف شرّع له شطر واحد من شطري الجمعية ، فانحدر إلينا على الصورة التي نراها اليوم ، ونرى معها كيف تؤثر فيها عوامل المجتمع تأثيراً يثبت لدينا انها أبعد شيء عن ان تكون غريزة أو نتاج غريزة ، وأنها متغيّرة متقلبة بحسب النوازع الاجتماعية

***

والكتاب حسن الأسلوب واضح العبارة . غير ان لنا على بعض المصطلحات التي استعملت فيه ملاحظات منها استعماله كلمة « وحدانية (ص ٦٨) كقوله — « وحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج » ، ومن الممكن أن يكتفي بعبارة « تعدد الأزواج » ، وكقوله « وحدانية الزوج مع تعدد الزوجات » ، ويكتفي في ذلك بعبارة « تعدد الزوجات » ، الى غير ذلك . ثم ان لفظة « وحدانية » أصبحت من المصطلحات المخصصة تخصصاً دقيقاً جداً في الفلسفة القديمة فاذا ذكرت دلت على « وحدانية الله » ، بحيث اذا ذكرت غير مضافة ، دلت على هذا المعنى بغير حاجة الى بيان الإضافة . ويحسن ان لا تستعمل في غير ما تخصصت له .

(١) Artificial Selection

(٢) Unconscious Selection.



الاحلام والروح

قرأت في مقتطف يونيو سنة ١٩٤٥ تحت هذا العنوان ما كتبه حضرة الفاضل الاستاذ نقولا الحداد تعليقاً على ما نشره المقتطف لي تحت نفس العنوان في عدد ابريل . وكل ما كتبه معروف لا جديد فيه لأنه ترديد للآراء المادية التي سادت عقول العلماء في القرن التاسع عشر والتي اندثرت اليوم إزاء الفتوح الحديثة في العلم . والظاهر أن حضرة الكاتب الفاضل لم يصل إلى علمه بعد أن الكون المادي قد تبخر حتى في ضوء علم الفيزيقا الحديثة . وإخاله لم يقرأ لأينيشتاين كتابه « تطور الفيزيقا » الذي ألفه بالاشتراك مع العالم إنفلد ، ولا كتاب « الفيزيقا والفلسفة » لمؤلفه العلامة جينز ، ولا كتابي « طبيعة العالم الفيزيقي » و « المسالك الجديدة في العلم » لمؤلفهما العلامة أدنجتون . فلقد نادى هؤلاء العلماء الأعلام في كتبهم تلك بانهيار المذهب الآلي القائل بآلية الكون خطموا الكون المادي تحطيماً . وإخاله كذلك لم يقرأ رأي اينشتاين الأخير في الأثير، ففي محاضرة له عن «الأثير والنسبية» وضح موقفه فقال: —

« أعود فأقول .إنه تبعاً لنظرية النسبية العامة يكون الفضاء قد وهب صفات فيزيقية ، وفي هذا المعنى يوجد أثير . وتبعاً لهذه النظرية العامة لا يمكن تخيل الفضاء بغير أثير ، لأنه في هذا الفضاء لا يتعذر انتشار الضوء فحسب، بل يستحيل وجود معايير الفضاء والزمن (قضبان قياس وساعات) ، ولا توجد من ثمت أية فترات فضا زمنية بالمعنى الفيزيقي . ولكن هذا الأثير لا يصح أن يُظن أنه قد وهب الصفة المميزة للاوساط التي يمكن أن توزن باعتباره متألفاً من أجزاء يمكن سحبها خلال الزمن ..أما فكرة الحركة فلا يمكن تطبيقها عليه » .

ومحاضرة اينشتاين هذه مطبوعة.

وإخال الأستاذ نقولا الحداد لم يسمع أيضاً بذلك « العلم الروحي الحديث في الجامعات » ويكفي أن ألفت نظره الى كراسي أنشئت له في جامعة بون بألمانيا ، وفي جامعة كمبردج بانجلترا ، وفي عشرين جامعة في أميركا . وقد يسره أن يعلم أن هذه الدراسة الروحية قد

أنشئت في كمبردج سنة ١٩٤٠ ، ويشرف عليها العلامة الدكتور بروض أستاذ الفلسفة فيها ، وأن منهج الدراسة هو : —

« فحص الظواهر العقلية أو الجسمانية التي تبدو لأول وهلة كأنها تشير أولاً الى وجود قوى معرفة أو فعل خارقة للعادة في بني الانسان خلال حياتهم الراهنة ، وثانياً الى بقاء عقل الانسان بعد الموت الجسماني » . أي أن أساس البحث هو من جهة القوى الوساطية ومن جهة أخرى بقاء الشخصية والوعي بعد الموت .

ولو شخص حضرة الاستاذ نقولا الحداد إلى جامعة لندن لراقه أو راعه أن يرى فيها حجرة لتحضير الأرواح هي الأولى من نوعها في الجامعات ، وقد جهزت بأحدث الأجهزة العلمية الدقيقة . ولكنه قد يرى صورة لهذه الحجرة في كتاب « خمسون من سني البحث الروحي » الصادر سنة ١٩٣٩ لمؤلفه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية .

فليس في الأمر إذن دعاوى خرافية ساذجة وما إلى ذلك من بديع الحجج المادية ، وإنما هناك علم تعجز عن إدراكه العقول المتشبثة بالمادة حتى بعد أن حطم العلم الحديث الكون المادي .

ومع كل هذا لنفرض جدلاً صدق ما ينادي به حضرة الأستاذ نقولا الحداد ، ونرجوه أن يعلل لذلك الحادث الذي أثار هذا النقاش وهو الحادث الخاص برفعة حسنين باشا ، ونؤكد له انه حادث حقيقي ، وقد رددته أخيراً مجلة « الدنيا الجديدة » في عدد مايو الماضي . نعم فليعلل له في ضوء معلوماته آن استطاع . وهو لن يستطيع . وليبتعد عن ذكر الوهم والخرافة لأن ذلك لا يتضمن برهاناً ، وليجتنب التكرار فان « معاداة المعادات » أمر معروف .

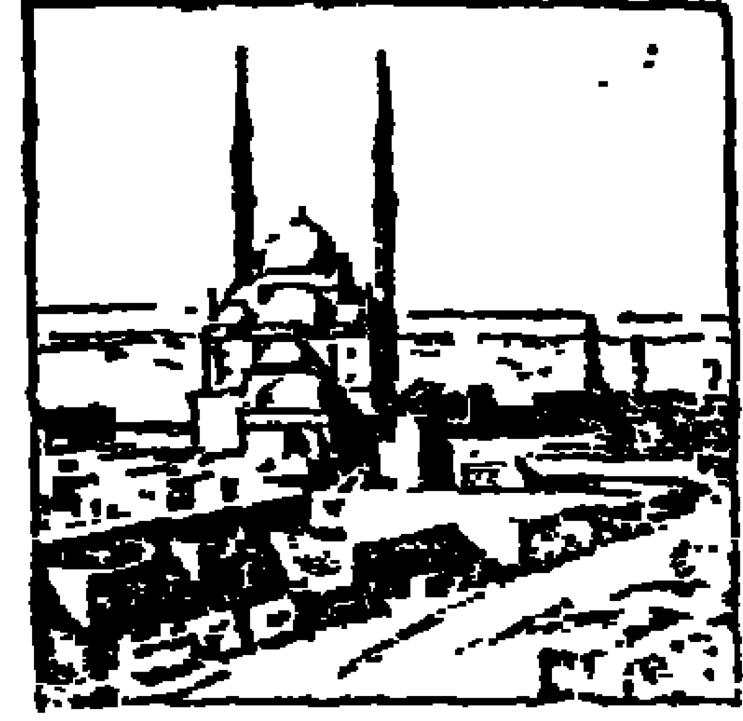
وبقي أن أقول انني لم أضمن مقالي الأول شيئاً قلت عنه إنه « وراء الطبيعة » لأنه لا يوجد شيء وراء الطبيعة ، وإنما هناك قوانين الله الأزلية الطبيعية ، وهذه تنكشف القينة بعد القينة للعقل العلمي الفاحص وعلى قدر نضجه . والروح مادة لا تستجيب لها المشاعر ، وقد وصل العلم الى تصويرها بالفوتوغرافيا والأشعة تحت الحمراء ، والي وزنها كما وصل الى تصوير سيول الكهارب المختلفة والى وزنها ، ولا يخفى أن تلك الكهارب مادة لا تستجيب لها المشاعر مع أنها أساس المادة المحسوسة ، وهي اللبنات التي منها يتألف الكون المادي المنظور .

احمد فهمي أبو الخير

مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف

مسجد المدرسة العزية

بالجسر الابيض



مقدمة

نشر المعهد الفرنسي بدمشق كتاب « ثمار المقاصد » ليوسف بن عبد الهادي عن مساجد دمشق « تحقيق وتعليق . » الاستاذ أسعد طلس . وفي هـذا المقال والمقالات التالية له تصحيح لبعض ما وقع فيه الاستاذ أسعد من أخطاء مع التعريف بهـذه المساجد وتحقيق تاريخها ومواقعها .

يقول يوسف بن عبد الهادي في ص ١٥٤ ، ١٥٥ من كتاب « ثمار القـاصد » المحلة الحادية والعشرون (بالصالحية) : حارة الجسر وبها عدة مساجد ... الرابع : مسجد بالمدرسة العزية » اهـ

ويعلق على ذلك الأستاذ أسعد طلس بالهامش رقم ٣ ص ١٥٥ بقوله :

« هي التربة العزية البدرانية الحزية ولعل المؤلف (أي ابن عبد الهادى) أطلق عليهـا اسم مدرسة لأن واقفها وقف فيها درساً ومكـتبة » اهـ

ثم ينقل الأستاذ بعد ذلك عن النعيمي [1] عبارة هذا نصها : « هي بالصالحية عند جامع الأفرم أنشأها حمزه بن موسى بن احمد بن الحسين بن بدران ... المعروف بابن شيخ السّلامية مدرس الحنبلية . قال ابن قاضي شهبه وقف درساً بتربته بالصالحية وكتباً وعين لذلك الشيخ زين الدين بن رجب توفى سنة ٧٦٧ هـ ودفن عند جده ووالده بتربته » اهـ

(١) هو محي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن نعيم النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هجرية = ١٥٢١ ميلادية وهو مؤلف كتاب « تنبيه الطالب وارشاد الدارس لاحوال مواضع الفائدة بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس » ويشمل هذا الكتاب علاوة على ذلك كما ورد في صحيفة ١٥ بالجزء الاول منه ما يلتحق بذلك من الربط (جمع رباط) والخوانق (جمع خانقاه) والترب والزوايا من بيان أماكنها وأوقات انشائها وتراجم واقفيها وذكر أوقافهم وشروطهم الخ . والنسخة التي اعتمدنا عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في مجلدين ضخمين ونحن نشكر للمجمع السماح لنا بالانتفاع بهذا المؤلف القيم في دراستنا لمساجد دمشق ومعاهدها الاثرية .

﴿ التصحيح ﴾ — ونحن نقول للأستاذ أسعد ان ابن عبد الهادي حين أراد أن يتكلم عن مساجد ومحلات الصالحية قال انها تبلغ اكثر من ثلاثين محلة (أنظر ص ١٤٥) كانت محلة الجسر هي الحادية والعشرين وحارة الفواخير وجامع الأفرم الخامسة والثلاثين وحارة الحواكير والرداين السادسة والثلاثين منها . ولا بد ان الاستاذ اطلع على كلام ابن عبدالهادي ووعاه جيداً حين نشر كتابه « المساجد » .

فلا ندري اذن كيف تكون المدرسة العزية بالجسر الأبيض هي نفسها المدرسة العزية بحارة جامع الأفرم ؟ واذا كان الأستاذ وجد بالنعيمي فصلاً عن مدرسة تسمى العزية أفلم يكن الأجدر به ان يبحث عن عزية يكون موقعها بالجسر لا بمحلة أخرى بعيدة عنها ؟

لذلك فالعزية التي يعنيها ابن عبد الهادي هي غير التربة العزية البدرانية الحزية التي يشير إليها الأستاذ أسعد بهامشه وينقل عن النعيمي التعريف بها .

***

إننا اذا حصرنا الآثار والمعاهد التي وصل إلينا علمها وكانت تقع في محلة الجسر الأبيض لوجدنا من أعظمها الخانقاه [1] العزية :

يقول النعيمي بالجزء الثاني من الدارس ص ٣٧٠ في باب الخوانق (جمع خانقاه)

فصل الخانقا العزية بالجسر الأبيض [2] : هي قبلي دار عبد الباسط وغربي (المدرسة) الماردانية ومدرسة الخواجا ابراهيم الأسعردي بغرب . قال ابن شداد : خانقاه على نهر ثورا انشاء الأمير عز الدين ايدمر الظاهري نائب السلطنة بدمشق » اهـ

وقد اطلع النعيمي على وثيقة وقفها وذكر أعيان هذا الوقف وقال « انها تربة ومسجد ورباط بالجسر الأبيض »

ولذلك عقد عنها فصلاً خاصاً بباب الترب تحت عنوان التربة الايدمرية الثانية (جـ ٢ ص ٤٣١) . وقال « هي بالخانقاه العزية عند الجسر الأبيض أنشأها عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ » اهـ

(١) الخانقاه ـ جمعها خوانق أو خانقاهات : هي معهد ينزل فيه الصوفية والفقراء يشبه في هندسته بناء المدارس وبه حجرات لاقامة النزلاء فيه وله شيخ يتولى شئونه الدينية والتعليمية والادارية .

(٢) عن الخانقاه العزية . انظر (مخطوط) الدارس للنعيمي جـ ٢ ص ٣٧٠ و (مخطوط) منادمة الاطلال للشيخ عبد القادر بدران جـ ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ . (ومنه نسخة بالتصوير الشمسي بدائرة أوقاف دمشق ، و (مخطوط) مختصر المنادمة لبدران . نسخة دائرة أوقاف دمشق . و (مخطوط) المروج السندسية لابن كنان ص ١٩ و ص ٢٤ و ص ٧٩ (ومنه نسخة بالتصوير الشمسي بالمجمع العلمي العربي بدمشق) ودامسكس . لوزنجر وونزنجر جـ ٢ ص ١١٥ . وسوفير (المجلة الاسيوية) مجلد ١٨٩٥ ص ٢٨٤ وهامش ٧٩ ص ٣٠٦ - ٣٠٧

ونقول أن بقايا هذه المدرسة والخانقاه والرباط والتربة كانت موجودة حتى أواخر القرن الماضي وأوائل هـذا القرن ، فقد زارها ماكس فان برشم العالم الأثري الشهير ونقل النقش التاريخي الذي كان منقوشاً عليهـا باسم ايدمر الظاهري [١] وكان بابها على يسار الصعد من دمشق الى الصالحية بجوار الجسر الأبيض على نهر ثورا

كما ان الشيخ عبد القادر بدران [٢] وصفها في مختصر كتابه المنادمة بقوله :

« وهي الآن خربة ولم يبق منها سوى القبة وهي بجانب الجسر من الغرب » اه

ونقول نحن ان ذلك جميعه قد زال الآن وأصبح موضعها أبنية مستحدثة .

***

من هو الامير عز الدين ايدمر الظاهري

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٧٠ ج ١٣ ص ٢٦١ :

« وفي أواخر المحرم (سنة ٦٧٠) ركب السلطان الظاهر بيبرس في نفر يسير من الخاصكية والأمراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك واستصحب نائبها معه إلى دمشق فدخلها في ثاني عشر صفر ومعه الامير عز الدين ايدمر نائب الكرك فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين اقوش النجيبي في رابع عشر صفر .. الخ »

ويقول العلموي [٣] في مختصر الدارس ص ٩٩ / ١٠٠

« ولم يزل بدمشق نائباً الى ان مات الظاهر وولي ابنه السعيد فاستمر ايدمر في نيـابة دمشق . ولما جاءها السعيد وتغيرت خواطر الأمراء عليه وطلبوا منه ابعاد الخاصكية فلم

---

(١) انظر هامش رقم ٧٩ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ بالمجلة الاسيوية مجلد ١٨٩٥ وفيه ترجمة هذا النقش

(٢) هو الشيخ عبد القادر بدران الدوماني الدمشقي أصله من قرية دوما بجوار دمشق وكان ينزل بدار الحديث الاشرفية شرقي القلعة بالعصرونية وفيها ألف كتابه الشهير « منادمة الاطلال ومسامرة الخيال » في آثار دمشق والموجود منه في العالم نسخة وحيدة بمصر بالمكتبة التيمورية . وقد أهدى منها المرحوم العلامة احمد تيمور باشا نسخة بالتصوير الشمسي لدائرة أوقاف دمشق هي التي اعتمدت عليها في أبحاثي أثناء وجودي بدمشق . وقد توفي ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م . وقد كنت علمت وأنا بدمشق أن تركة الفقيد كانت تحتوي على نسخة بخط الفقيد عند الشيخ يس الرواف فاتصلت بحضرته فنفى لي ذلك . والنسخة الموجودة على ما بها من أخطاء كثيرة — أساسها في الغالب جهل الناسخ — تعد مرجعاً ذا قيمة لدراسة معاهد دمشق من الوجهتين التاريخية والاثرية . وللشيخ بدران عدا ذلك مختصر لكتابه المنادمة كانت توجد منه نسخة وحيدة بدائرة أوقاف دمشق اشترتها — أخيراً كما علمت — المكتبة الظاهرية بدمشق . وللشيخ كتاب آخر مطبوع هو تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر .

(٣) هو الشيخ عبد الباسط العلموي المتوفى ٩٨١ هـ وقد اختصر كتاب الدارس للنعيمي والنسخة التي اعتمدت عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق وبالمكتبة التيمورية بالقاهرة نسخة أخرى من هذا الكتاب . وقد ترجمه الى الفرنسية مسيو سوفير ونشره تباعاً بالمجلة الاسيوية من ١٨٩٤ الى ١٨٩٦

يجيبهم خوفاً من سوء العاقبة ساروا الى برج الصفر وترددت الرسل بينهم ... »

وانتهى الأمر بأن خلع الملك السعيد نفسه في ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٨ (١) ... ومسك الأمير ايدمر الظاهري نائب الشام واعتقل بالقلعة عند نائبها وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدواداري وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في أبهة عظيمة .. الخ

وقال في الشذرات (٢) : وقد حبس مرة ثم أطلق فلبس عمامة مدوّرة وسكن بمدرسته عند الجسر الأبيض وتوفى في ربيع الأول سنة ٧٠٠ هـ ودفن بتربته . ا هـ

المدارس العزية بالصالحية

اذا كان الاستاذ أسعد يبحث عن أية تربة تسمى العزية ليضعها بمحلة الجسر ويقول هذه هي التي عناها ابن عبد الهادي فقدكانت أمامه ترب عزية أخرى بالصالحية ربما كانت إحداها أحق بأن يختارها لأنها في منتصف الطريق بين محلة الجسر التي يتكلم عنها ابن عبد الهادي ، ومحلة الأفرم التي تقع فيها التربة العزية البدرانية الحزية التي اختارها حضرته

وهذه التربة العزية التي نعنيها هي التربة العزية الايدمرية الأولى بمحلة السكة لصاحبها الأمير عز الدين ايدمر بن عبد الله اللسكي الصالحي . توفى بالقلعة سنة ٦٦٧ هـ ودفن بتربته بالقرب من المدرسة اليغمورية .

وهناك تربة عزية أخرى بالصالحية (بالسفح) انشأها عبد العزيز بن منصور بن وداعة الصاحب عز الدين الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ . وله تربة ومسجد بقاسيون بالصالحيـة ويسمى مسجده مسجد الحلبي او الحلبيين .

وثمة تربة عزية ثالثة بالصالحية أيضاً كانت تقع بمنطقة الحواكير بالمهاجرين — صالحية هي التربة العزية الايبكية الحموية للامير عز الدين ايبك الحموي المتوفى سنة ٧٠٣ هـ

***

فهذه الترب العزية جميعاً بما فيها التي بالجسر والتي بالأفرم عدتها خمس ترب تخير منها الأستاذ أسعد تلك التي بالأفرم ضارباً صفحاً عن تحديد المؤلف موضعها بمحلة الجسر ظنّاً منه انها هي وحدها التي يمكن أن يطلق عليها اسم مدرسة لإن واقفها «وقف فيها درساً ومكتبة » .

والحقيقة ان المدارس والربط والخوانق ودور الحديث ودور القرآن والزوايا كانت

(١) انظر تفصيل ذلك في تاريخ ابن كثير « البداية والنهاية مجلد ١٣ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ حوادث ٦٧٨

(٢) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ج ٥ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧

جميعها معاهد دين ودرس وعبادة علاوة على ان بها مدافن خاصة لأصحابها وكذلك يمكن أن يعد من هذا القبيل الترب التي كان يبنيها أصحابها ليدفنوا فيها، فقد كانوا يقفون عليها الكتب والأوقاف الدارة للتعليم وتلاوة القرآن الكريم وعبادة الله . فلم تكن المدرسة العزية البدرانية الحزية التي اختارها الأستاذ أسعد هي وحدها التي أوقف عليها درس ومكتبة

وفيما يلي بعض الأمثلة على ما نقول :

اولاً : تربة العيني : الملاصقة لتربة عصمة الدين خاتون والجامع الجديد بالصالحية قبلي المدرسة الجهاركسية بزقاق المقدم والدلامية انشأها الخواجة ابو بكر بن العيني ثم أوقف عليها ولده عبدالرحمن بن العيني اوقافاً ورتب في الايوان مدرساً . وعشرة من الفقراء ووقتاً في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا احنافاً ووقف كتبه عليها ... الخ

ثانياً : التربة البزورية : بسفح قاسيون . فوق سوق القطن أنشأها محفوظ بن معتوق البغدادي المعروف بابن البزوري وأوقف عليها كتبه . وكان تاجراً سرياً ومحدثاً جمع تاريخاً جعله ذيلاً على المنتظم في تاريخ الامم للحافظ بن الجوزي وتوفى سنة ٦٩٤ ودفن بها .

ثالثاً : التربة البهنسية : بسفح قاسيون . بناها المجد البهنسي وزير الملك الاشرف توفى سنة ٦٢٨ . . . ودفن بتربته وكان قد أجرى عليها أوقافاً جيدة دارة وجعل كتبه وقفاً عليها .

وكل من يطلع على كتاب ابن عبد الهادي يعرف ان أكثر المساجد الموجودة به يمكن أن تسمى ترباً أو مدارس ويندر أن ينشىء أحد الناس في ذلك العصر مؤسسة خيرية للتعليم والعبادة إلا ويبني له فيها مدفناً خاصاً حتى تحل عليه بركة العلم والقرآن الذي يتلى فيها ودعاء من ينتفع بخيرها .

***

وخلاصة القول أن المدرسة العزية بالجسر التي يعنيها ابن عبد الهادي هي مدرسة (ورباط وخانقاه وتربة) عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ . وليست العزية البدرانية الحزية التي يذكرها الأستاذ أسعد بهامش رقم ٣ بصحيفة رقم ١٥٥ إذ أن هذه الأخيرة تقع بمحلة الافرم وهي محلة أخرى غير محلة الجسر الأبيض .

القاهرة — السمير محمد رجب

الحمامة المفقودة

أخلاصةَ اللطف التي لا تلمسُ   إن كنتِ من نسم فذا نتنفّسُ
أو كنتِ موجاً كهرطيسيًّا فما   بال النخامُ لديك لا يتكهرسُ (١)
اوكان عنصركِ الأثير فغيم لا   تتكسر الأنوار فيه فيؤنسُ (٢)
أو كنت من غير الهيولى ما اهتدى   يوماً اليك الخاطر المتحسسُ
أو لا فدارك عالم الوهم الذي   نشأت به منذ القديم الأنفسُ

نظروك في الأحلام أول مرةٍ   شبحاً لميت زارهم يتكلّم
واستيقظوا لم يبصروكِ ولم يروا   في الرمس الاّ جيفةً تتهدّمُ
سألوا عن الرؤيا فقال عريفهم (٣)   ذي روحه ظهرت لكم تتجسم
وتساءلوا ما الروح قال مفسراً   طيفٌ يطوف وصورة تتوهم
صدقوا وما ضلُّوا فليس الرو   حُ الاّ الطيف في سنة الكرى تتوسم

بنت الخيال سليلة الوهم التي   صاغتك من عدمٍ مخيلة الورى
ولدتك ألياف الدماغ . ولم تني   طفلاً يلازم مهده متسترا
إن كنت ذاتاً في الطبيعة فاظهري   أو أظهري أثراً لذاتك مضمرا

---

(١) الكهرسة هي امواج كهربائية مغنطيسية كأمواج الراديو والنور وما وراء البنفسجي وما تحت الاحمر الخ .

(٢) اذا كانت الروح جسما اثيرياً متكتلا متغلغلا في الجسم المادي فلا بد ان تتكسر الانوار في هذا الجسم الاثيري كما تتكسر في مرورها من وسط لطيف الى وسط كثيف وبالعكس كما تتكسر في مرورها من الهواء الى الماء بدليل ان الملعقة ترى مكسورة في كوبة الماء . وتؤنس أي ترى كقولكم آنست في الحي ناراً

(٣) عرافهم

حار الأنام بما ادعوا لك من سنىً بحثوا وسرك فيهم لن يظهرا
قد ضيعوك وأنت فيهم لمعة عجباً أغشهم خفاؤك أدهرا

ناء الأنام بعبء ما حملتهم تعبوا وما نبذوك في الشدات
مستمسكين بحبل وصلك غرةً مهما وَهى في ساعة الأزمات
وإذا بلت وصالهم ألقيتهم عن عاتقيك نُفَاضَة الذرات
تشقين وحدك في الخلود وحظهم منه بلا ألم فناء الذات
الجسم يجرم في مدى شهواته وتُحَمَّلِين عقوبة الشهوات

لا تفخري بسموّ قدرك فالذي تتفاخرين به اختراع خيالِ
ما أنتِ بين الترّهات حقيقةً إلاّ تعلة واسع الآمالِ
أغراك الجسد الذي اورثته قلق الضمير وسورة البلبالِ
فلطالما كبح الهوى متكلفاً يخشى عليك الخلد في الأهوالِ
يفديك للاخرى بدنياه وفي الدارين لم تلقي اليه ببالِ

أخسرته دنياه كيما تربحي الاخرى وأنتِ وهذه عدمانِ
لولاك لا يحيا حياة تقشف تنجيك من دينونة الديانِ
فعل الفضائل إنما هو عدّة للعالم الحاليّ لا للثاني
هو للسلام وللهناءة يُبْتَغَى لا مطمعاً في رحمة الرحمن
فهنا الحساب هنا العقاب هنا الثواب هنا الجحيم هنا نعيم جنانِ

نقولا الحداد

التهيج الانفعالي

بعض النظريات الحديثة فيه[1]

« التهيج الانفعالي من الظاهرات السيكولوجية التي لاقت عناية متزايدة ممن تقدم من علماء النفس وممن تأخر منهم . وقد وضعت عدة نظريات حولها واضعوها تحليل هذه الظاهرة تحليلا علميا . وفي هذا البحث يستعرض الاستاذ موكسلي أهم تلك النظريات التي وضعت لتعليل العوامل المسببة للانفعالات النفسية . وهذه النظريات وان لم تفسر أسباب تلك العوامل إلا انها تلقي ضوءا عليها فتمهد السبيل لمن يروم التوسع بالبحث عنها »

نظرية الانفعالات النفسية

سبق أن قلنا ان لكل ظاهرة شعورية عوامل ثلاثة : الادراك والنزوع والوجدان . وما الانفعال النفسي إلا حالة نفسية يتغلب فيها عامل الوجدان على العوامل الأخرى، على ان هذا العامل مهما بلغت شدته لن يبطل تأثيرات العوامل الأخرى وإن كان أبرزها عملاً وأكثرها تأثيراً ، فانا لا نخاف لشعورنا بالخوف فقط ، بل لشعورنا بالخطر المحدق بنا ، وخوفنا هذا يستفزنا للهرب أو للمكوث في الوضع الذي نحن فيه تبعاً لنوعية الخطر المهدد لنا

ولا تظهر الانفعالات الشديدة على الانسان إلا عند ما تقاوم دوافعه الوجدانية مقاومة وقتية فيتعذر عليه من أثر ذلك اتيان أي سلوك مغاير لتلك الانفعالات . فمثلاً اذا ما لحق ثور هائج براكض أثناء ما يكون في حلبة السباق فان هذا الراكض سيولي الأدبار محاولاً الافلات مما أحدق به من خطر ، ولكن الخوف لن يستولى عليه ما لم يتأكد من أن الثور على مقربة منه واذ هناك ثمة عوائق تحول دون نجاته منه وتدل هذه الظاهرة على مرونة سلوك الانسان وعلى سرعة تغيره تلك المرونة التي تميز سلوك الانسان عن سلوك الحيوانات العليا.

ويعزى سلوك الحيوانات الدنيا الى « سلسلة الأعمال » المنعكسة »[2] : وذلك لأن الاستجابة المماثلة للأعمال المنعكسة التي يتابع بعضها بعضاً لا تعطي مجالاً كافياً لتغير سلوك

(١) للاستاذ موكسلي الحاضر في علم النفس والفلسفة بكلية مورلي بلندن (٢) Chain Reflexes

الحيوانات الدنيا عند ما يتغير المحيط الموجود فيه . الا ان الحيوانات بارتقائها سلم التطور استعاضت بكيفية تدريجية بطيئة عن سلسلة الاعمال المنعكسة بالتلمس [(١)] حتى صارت الانفعالات أساساً للتعلم . فمثلاً إذا ما تولدت في نفس القارىء دوافع تدفعه للبروز على أقرانه في المبادىء الرياضية فان تلك الدوافع والانفعالات تجعله يكثر من التمرينات البدنية لتقوية عضلاته فيتسنى له القيام بما لا يستطيع غيره القيام به .

والواضع لنظرية الانفعالات هذه هو الدكتور دريفر [(٢)] أحد أقطاب المذهب الهورمي أو مذهب الدوافع في علم النفس . ويتذكر القارىء أن الاستاذ ماكدوجل الواضع لأصول هذا المذهب يعتقد بأن الانفعالات المعقدة يمكن تحليلها الى انفعالات أولية تؤلف نواة كل منها غريزة من الغرائز أي ان تلك النواة تثير في نفس الشخص ميلاً فطرياً للقيام بأنواع خاصة في الاعمال عند ما يتكرر حدوث ظروف معينة .

أهم أنواع الغرائز

ويرى ماكدوجل ان أهم الميول الفطرية للانسان والانفعالات اللازمة لها هي : الهرب (الخوف) والبحث عن الطعام (شهوة الطعام) والنفور (التقزز) والاستطلاع (التعجب) والكفاح (الغضب) والأثرة النفسية (الشعور بالرفعة) والخضوع (الشعور بالضعة أو الخيبة) والحنو (التعاطف) والتكاثر (التهيج الجنسي) والاجتماع (الشعور بالعزلة) .

وكل من هذه الميول والانفعالات اللازمة لها يثير ظروفاً معينة تختلف عما سبقها في الانفعال ، فالميل للكفاح والغضب مثلاً يمكن أن يثارا عند جميع الأحداث والناشئين اذا ما ضغط على أي عضو من أعضائهم . وبعد ان تتسع دائرة فهم الانسان فيحيط بمعاني الأشياء ويدرك الظروف التي تتكرر عليه ، يسهل عليه اثارة الميل الواحد في عدد من الظروف المختلفة . وقد يثير الظرف الواحد عدداً من تلك الميول مرة واحدة . وفي مثل هذا الحال تكون الانفعالات اللازمة لها كثيرة التعقيد . فالاستحسان الذي يبديه الانسان لشيء من الأشياء أو لحال من الأحوال مزيج من التعجب والشعور بالضعة وهذا الانفعال المعقد ناجم عن اثارة ميلي الاستطلاع والخضوع معاً .

ويجمع الباحثون النفسيون على ان أهم عامل يؤثر في الأفعال الانفعالية هو « النغمة الوجدانية » [(٣)] ويقصد بهذا التعبير شدة الحالة الوجدانية للانسان فقد تكون الانفعالات ملذة وقد تكون مؤلمة فاذا ما اجتاز التهيج الانفعالي مستوى خاصاً لشدته شعر الانسان

(١) Trial & Error — (٢) Dr. Drever — (٣) Affective Ion

بالتألم . وما دمنا آخذين بالرأي القائل بأن الانفعالات ترتبط بالميول النزوعية الأولية ، وان التهيج الانفعالي يبلغ شدته عند ما يقوم العمل النزوعي أو يحبط فعله فليس من العسير علينا أن نقرر بأن الألم الناجم عن الانفعالات الشديدة ليس إلاّ تعديل للنغمة الوجدانية بالنسبة لاستطاعة الفرد لتحقيق نزوعه أو لعجزه عن ذلك ، فاذا ما حقق نزوعه شعر باللذة وإذا ما خاف شعر بالألم . ومن منا لا يتألم عندما يمنع عن مشاهدة أمر واقع أو معرفة خبر حادث . وقديماً قيل المرء حريص على ما منع

ولذكاء الانسان ولبعد نظره أثر كبير بتحقيق ناحية النزوع عن أعماله الشعورية وهذا ما دعى البعض من الباحثين للاعتقاد بأن ليست جميع الحالات العقلية المعروفة انفعالات مثل الخوف أو الغضب وانما بعضها مظاهر مختلفة للذة والألم — نوعي النغمة الوجدانية الأساسيين . وذلك لأن الأفعال الانفعالية كالخوف أو التعجب أو الغضب لا تقترن باللذة ذاتها أو الألم نفسه وانما تقترن بتغيرات دقيقة لهذين العاملين بحسب ما يتوقعه الفرد المنفعل من النتائج . فمثلاً عندما يتأخر طفل عن موعد رجوعه من المدرسة فان والدته لا تخشى حدوث أمر خطر له فقط ، بل تتصوره في وسط الخطر، وبهذا تشعر بنوع من الألم ملازم لشعورها بالخوف على طفلها . والحقيقة ان ما يشعر به الانسان من ثقة في النفس أو رجاء أو قلق أو قنوط أو يأس فشعور بمظاهر النغمة الوجدانية مرافقة لميوله النزوعية المستهدفة أموراً ستقع في مستقبل حياته . أما ما يشعر به من ندم أو أسف أو حزن فظاهر للنغمة الوجدانية يشعر بها عندما تتجه دوافعه النفسانية نحو ما حدث أو ما مضى من أعماله .

دارون والانفعالات

تترابط الانفعالات بأنواع مختلفة من السلوك كالركض عند الخوف والضرب عند الغضب، كذلك تكون مصحوبة بتغيرات في ملامح الوجه ، كالضحك عند الفرح ، والتقطيب عند الاستياء، وقلب الشفة السفلى عند الاستهزاء، وغير ذلك من تغيرات الملامح وبحسب ما يذهب اليه داروين صاحب نظرية التطور ان أغلب حركات الوجه عند الانفعال آثار لحركات كانت في الأصل ذات فوائد للافراد والجماعات . فقلب الشفة عند الاستهزاء مثلاً أثر لحركة بدائية تشبه التكشير عن الأسنان عند ما كان يحاول الانسان البدائي نهش فريسته . وان أصل حركة الأنف عند التقزز حركة كان يأتيها الانسان الاول عندما يشم رائحة مهيجة نفاذة . ويعتقد داروين ان حركات الانسان تتكيف بمبلغ تأثير الوسط الاجتماعي المحيط به وان هذا الوسط وحده يدعو للسلوك سلوكاً خاصاً في ظروف خاصة . وهذا السبب

ذاته هو الذي يدعونا في كثير من المناسبات لتغير ملامحنا عند الانفعال وهو ذاته الذي يجعلنا نسيطر على سحنتنا عندما نكون في وسط لا نرغب أن يرانا منفعلين ، فنخفي تغيرات ملامحنا الظاهرية لكي لا نتم عن انفعالاتنا النفسانية . وهذا ما يجعل الحكم على انفعالات الانسان من تدقيق ملامح وجهه حكماً خاطئاً .

على ان هناك هيئات دقيقة في ملامحنا لا نستطيع أن نخفيها عندما ننفعل . ففي حالات انفعالية كثيرة تتضاعف فعالية الغدد العرقية فتتغير من جراء ذلك الحالات الكهربائية الخاصة بالجلد وتقاس هذه التغيرات الجلدية بجهاز خاص لا يختلف كثيراً عن الجلفانومتر . ويسمي البعض من الباحثين هذه التغيرات « بالانفعالات المنعكسة الجلفانية النفسية »[1] .

وبالاستعانة بالجهاز المذكور سهل على الباحثين درس التغيرات الانفعالية من تبدل نسبة ($\frac{ش}{ز}$) الناتجة عن قسمة زمن الشهيق في التنفس (ش) على زمن الزفير فيه (ز) . وهذه النسبة ثابتة في الحالات الطبيعية فهي لا تزيد على (٠ر٧٠) فأي اختلال في الحالات الانفعالية يؤدي الى تغير هذه النسبة . وقد دلت التجارب الدقيقة على ان الحالات العقلية المعقدة الناتجة عن كذب الانسان تنقص من تلك النسبة . وكذلك يحدث مثل هذا التأثير عند ما يضحك الانسان ضحكاً عالياً أو عند ما يستغرق في حل مسألة حسابية حلاً ذهنياً .

التعاون بين العقل والجسم

وتدل الأبحاث النفسية التجريبية على ان التهييج الانفعالي يكون مصحوباً دائماً بتغيرات جسمية معقدة بعضها ظاهر أتم ظهور وبعضها خفي . فقد فحصت قطة بالأشعة السينية بعد ما امتلأت معدتها بالطعام فشوهدت معدتها تختض خضاً متزناً ، ثم فحصت بعد ما فوجئت بكلب يحاول الهجوم عليها فبدت عليها علامات الغضب الظاهرية ووجدت ان حركة معدتها توقفت توقفاً فجائياً دام أكثر من خمسة عشر دقيقة بعد أن أبعد الكلب عن القطة . وان حركة قلبها تضاعفت فارتفع ضغط دمها وأخذت كبدها توزع فيه كميات غير قليلة من السكر المخزون بها لتعوض عما استهلك في تحريك عضلات جسمها .

وجميع هذه التغيرات الجسمية تبعث في نفس الحيوان القدرة على العراك وتظهر عليه معالم الغضب . وتعزى حقيقة هذه التغيرات الى فعاليتين : فعالية العصب السمبثاوي من

---

(١) Psycho - Galvanic Reflexes

الجهاز العصبي وفعالية الكظرين [١] — الغدتين الصغيرتين الواقعتين فوق الكلية — والكظران غدتان من الغدد الصم (الغدد التي لا أقنية لها وتفرز مواد كيميائية معقدة التركيب تدعى الهرمونات) تفرزان مادتي الكورتين [٢] والادرينالين [٣] . والمادة الأخيرة هي التي اشتركت مع الأعصاب السمپاثوية لاحداث التغيرات الداخلية في جسم القطة المسببة لانفعالاتها النفسية .

ويسعى الباحثون المعاصرون لاكتشاف كل واحد من التغيرات الجسمية المختلفة المسببة لمختلف الانفعالات النفسانية ولكن ابحاثهم هذه لم تؤد بهم الى نتائج حاسمة . ويعزى السبب في ذلك الى أن التغيرات الجسمية التي تحدث عند الغضب تحدث أيضاً عند الخوف أو عند أي فعالية عقلية شديدة كما انها تحدث في أجسام لاعبي كرة القدم قبيل دخولهم ميادين اللعب وفي أجسام الطلاب الذين سيدخلون امتحاناً من الامتحانات . وكما لا يخفى ان الانفعال النفسي الذي يشعر به لاعب الكرة أو داخل الامتحان لا يمكن أن ندعوه خوفاً أو غضباً . ومما يزيد في صعوبة البحث عن الانفعالات ان هنالك طائفة منها كالسرور أو حب الاستطلاع لا تكون مصحوبة بأية تغيرات جسمية .

نظرية جيمس — لانغ

ومن أشهر النظريات الخاصة بالانفعالات النفسية نظرية جيمس — لانغ [٤] . وقد سميت بهذا الاسم لأنها في نتائج تفكير كل من الفسيولوجي الدنماركي الأستاذ لانغ والسيكولوجي الأميركي المعروف الأستاذ وليم جيمس . فقد توصل هذان العالمان لوضع اسس هذه النظرية بزمن واحد دون أن يكونا على اتصال ببعضهما . وتتلخص نظريتهما بان الانفعالات تتألف من كتلة من التأثيرات الحسية تحدثها مختلف أقسام الجسم الخارجية منها والباطنية وتعزى الاختلافات بين نوعية الانفعالات لتباين نوعية التأثيرات الحسية الحاصلة من التغيرات الجسمية المختلفة .

والواقع ان جيمس غيَّر من وجهة نظره بشكل يعاكس منطوق هذه النظرية فما ذهب اليه إننا لا نبكي لشعورنا بالحزن ولا نحاول ضرب الآخرين لشعورنا بالغضب ولكننا نحزن عندما نبكي ونغضب عندما نحاول ضرب الآخرين . ومما يقرره اننا ان جردنا الانفعالات من جميع التغيرات الجسمية لا يبقى أثر للانفعالات . ولقد جاء في الجزء الثاني من كتابه

James-Lang Theory (٤) Adrenaline (٣) Cortin (٢) Adrenals (١)

« أصول علم النفس » [١] « انني لا استطيع تصور انفعالات مجردة عن التغيرات الجسمية وكلما ازددت في التمعن بحالاتي النفسية كلما ازددت ايماناً بأن ما أظهر به من مزاج أو ما أظهره من حب للاشياء او كلف بها فانما ظواهر لتغيرات جسمية خاصة وما أن تفارقني تلك التغيرات حتى تنعدم حياتي الوجدانية فأصبح كائناً ذا تفكير ونزوع فقط » .

وقد أجريت تجارب عدة لمعرفة مقدار صحة نظرية جيمس . لانغ أهمها تلك التي أجراها السر شارلس شيرنجتون [٢] فما قام به هذا الباحث الكبير ان قطع بعض الاعصاب الخاصة المتصلة بالفعاليات الداخلية لجسم كلب لحرم الكلب بذلك من الشعور بالاحساسات الداخلية ومع ذلك لم يظهر على الحيوان أي تغيير في سلوكه الانفعالي عند ما أحيط بظروف معينة وأجرى كانون [٣] مثل هذه التجارب على القطط ومن تجاربه انه قطع الأعصاب الخاصة بالتغيرات العضوية الداخلية وبذلك حال دون حدوث تلك التغيرات عند ما تهيج القطط فتبدو عليها جميع معالم الانفعالات النفسية . وجميع هذه التجارب لا تمكننا من ادراك ما يتولى الحيوان من شعور أثناء التجارب ، ذلك لأن الحيوانات عاجزة عن الافصاح عن شعورها الخاص، وهذا ما جعل الباحثين يركنون الى الانسان لاثبات مقدار ما في نظرية جيمس — لانغ من حقيقة .

وأظهر التجارب التي أجريت على الانسان تلك التي حقن بها عدد من الشبان بكميات متفاوتة من مادة الادرينالين ، المركب الكيميائي الذي يحدث تغيرات داخلية ترافق التهيجات الانفعالية الظاهرة على الانسان . فما صرّح به بعض اولئك الشبان انه كان يشعر بعدما حقن بتلك المادة « كأنه » بين جماعة من الناس تشاهد لعباً مهيجاً أو سباقاً حماسياً وادّعى بعضهم انه كان يشعر « كأنه في وجل من أمره وباضطراب لحادث موهوم او « كأنه » يتوقع حدوث أمر مسر أو « كأنه » يريد البكاء دون أن يعرف السبب الداعي لذلك . ويظهر من هذا ان الأشخاص الذين يحقنون بالادرينالين لا ينفعلون انفعالاً حقيقياً وانما يشعرون « كأنهم منفعلين » .

ونظرة واحدة الى نتائج هذه التجارب تكفي لادراك عدم ملائمتها ونظرية جيمس — لانغ القائلة بأن التغيرات الداخلية تثير في النفس انفعالات مختلفة متعددة . ويستدل من تلك النتائج على أن عوامل الادراك والنزوع في التهيج الانفعالي ليست الاّ أجزاء كاملة للانفعال ، وان اختلاف نوعية تلك الانفعالات تعزى الى اختلاف تلك العوامل . ان التجارب التي أجريت على الانسان تكشف الستار عن ناحية من نواحي طبيعة العلاقة بين

Cannon (٣) Sir Charles Sherrington (٢) Principles of Psychology (١)

الانفعالات والامزجة . فالادرينالين وان لم يكن كافياً لاثارة تهيج انفعالي أصلي في الانسان الاّ ان من حقن به يكون أكثر قابلية للتهيج الانفعالي من اولئك الذين لم يحقنوا به. ويستنتج من هذه بأن أمزجتنا في الحقيقة ليست الاّ آثار من تهيجاتنا الانفعالية تظل ظاهرة على وجوهنا أو فيما نأتيه من الأعمال طالما تبقى في أجسامنا العوامل المسببة لتلك الانفعالات وتتجلى الصلة الوثقى بين الأمزجة والانفعالات من النعوت التي تنعت بها أمزجة الناس في أحاديثنا العامة ، تلك النعوت التي نشتقها من أسماء الانفعالات المماثلة لها فكثيراً ما نسمعنا نقول ان فلاناً غضوب أو انه مرح وهلم جرّاً.

الامزجة وعلاقة الغدد الصم بها

ان الأمزجة كما تبدو لنا خارج المختبرات ليست الاّ مظهر ناجم عن اثارة انفعال غير كامل التكوين . فالرجل الذي يحدث له في محل شغله ما يغضبه او يزعجه ، ثم يرى ضرورة اخفاء غضبه وانزعاجه لوجود من يستاء لذلك يرجع اواره ونفسه تكاد تتفزز من ذلك الغضب المكبوت ، فما ان يواجه امراً لا يستحسنه حتى يظهر عليه الغضب تارةً أخرى . ويعزى هذا الحال الى استمرار الحالات الجسمية اللازمة للانفعالات على ما هي عليه حتى بعد انتقال الشخص المنفعل من الوسط الذي سبب له ذلك الاضطراب النفسي . أما ظهور الانفعال تارة أخرى فيعزى إلى زوال العوامل المقيدة للانفعالات . والحقيقة ان الأمزجة تحافظ على الانفعالات وتكون السبب في ظهورها مرة أخرى . فالشخص الذي يركل قطة تعترض سبيله لا بد وان يكون قد سبق وتأثر من حادث أو من فعل سبب له الحنق والانزعاج . وعمله هذا صورة ناطقة للامزجة التي تحدثها الانفعالات المقيدة ولكيفية احتفاظ الأمزجة بالانفعالات ريثما تسنح الفرصة المناسبة لظهورها ثانية . وكان المتقدمون من العلماء يعتقدون بأن المظاهر النزوعية الوجدانية للحياة العقلية تعبر بعض التعبير عما يحدث في داخل جسم الانسان من تغيرات . واعتقادهم هذا جعلهم يصنفون الافراد بحسب تلك التغيرات . فما كان يعلمه هيبوكريتس الطبيب اليوناني المعروف ان الجسم يحتوي أربعة اخلاط [١] او سوائل هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وان صحة الجسم تعتمد على مبلغ انسجام ما يمتزج من هذه السوائل الأربعة فيه . وادعى جالينوس أشهر اطباء اليونان ان للانسان أربعة أمزجة كما له أربعة أخلاط كل مزاج ناجم عن خلط من تلك الأخلاط ، فمن الناس من يكون دموي المزاج ، ومنهم من يكون سوداويه أو بلغميه أو صفراويه .

(١) Humours

ولكن الاكتشافات الفسيولوجيــة الحديثة المتصلة بوظائف الغدد الصم دلت على ان أمزجة الانسان ليست الا مظاهر لمجموع شخصية ناجمة عن تغيرات داخليــة متأتية عن افرازات الغدد الصم ، لــكن العلمــاء لم يجمعوا بعد على ان افرازات الغدد الصم وحدها المسببة لاختــلاف الأمزجة ، مع انهم مجمعون على ان التغيرات الطارئة على فعالية هذه الغدد تؤثر على سلوكنــا وتصرفاتنا وعلى شخصياتنا بصورة عامة . ولا يسعنا ها هنا التبسط في البحث عن هذه الغدد مكتفين بالاشارة اليها اشارة مجملة [1] . وقد أشرنا سابقاً الى الدور المهم الذي يلعبــه الكظران في التهيج الانفعالي وللانسان غير الكظرين من الغدد الصم : الغدد الدرقية [2] والغدد قرب الدرقية [3]، وهذه المجموعتان في الغدد تستقران في الرقبــة قرب الحنجرة . والغدة النخامية [4] في الجمجمة قرب قاعدة الدماغ والغدة التيموسية [5] أو الصعترية في الصدر، والغدد التناسلية [6] — الخصيتان في الذكر والمبيضان في الأنثى . فاذا ما اعتور الغدة الدرقية تلف أو مرض أصاب الشخص بله وفقدان الذاكرة وقلة في كفاءته التفكيرية . وفقدان هذه الغدة عند الاحداث يسبب لهم البله الدائم أو ما يسمى بالكريتنسم [7] . اما الغدد التناسلية فانها تسيطر على فعالياتنا التناسلية . وفقدان هذه الغدد أو ضعفها يؤدي الى انعدام الصفــات التناسلية الثانوية كنمو الشعر على الذقن وخشونة الصوت في الذكور . والرقة وارتفاع ترديد الصوت في الأناث . وللغدة النخامية تأثير كبير على نمو الجسم فأقل تغير في كيات افراز الفص الأمامي من الغدة يسبب تغييراً ظاهراً في السلوك وزيادة هذا الافراز تجعل الشخص كثير الحركة شديد الحدة وقلتها تجعله بطيء الحركة خامل الفعالية كثير الخوف والحذر . هذه الحقائق وغيرها مما لا يتسع لذكرها المجال أدَّت بالبعض من العلماء للاعتقاد بأن الغدد الصم مفتاح سلوك الانسان وسر شخصيته .

نظرية كريشمر

ويعتقد الدكتور كريشمر [8] بان أمزجتنــا ليست من منتجات غددنا الصم فحسب بل نتيجة لجميع الفعاليات الــكيميائية للجسم . ويذهب هذا الباحث الــكبير الى ان الناس من حيث بناءهم الجسمي ، يصنفون ثلاثة أصناف : أصحاب البنية الضعيفة [9] وأصحاب البنية الرياضية [10] وأصحاب البنية المترهلة [11] . أما أفراد الصنف الأول فهزيلة أجسامهم ، معتدلة قاماتهم ضيقة أكتافهم واسعة صدورهم ضعيفة عضلاتهم ، ويمتاز أفراد الصنف الثاني بحسن

(١) ومن أراد الاطلاع على الموضوع بصورة شافية فليراجع كتاب « الغدد الصم وتأثيرها في شخصياتنا » تأليف المعرب
(٢) Thyroids (٣) Parathyroids (٤) Pituitry (٥) Thymus (٦) Gonads
(٧) Cretinism (٨) Dr. E. Kretschmer (٩) Asthenic (١٠) Athletic
(١١) Pyknic

تكوين بنيتهم وباعتدال قاماتهم أو بطولها وبقوة بدنية تفوق المعدل . أما أفراد الصنف الثالث فيتصفون بقصر القامة أو باعتدالها وبضخامة الاعضاء وببروز الجوف البطني وبظهور السمنة على أجسامهم .

ويصنف كريشمر الجنون الى صنفين أيضاً الجنون السوداوي الحاد [١] والشيزوفرينيا أو الجنون الخفيف [٢] ففي الصنف الاول تكون حالات المريض سريعة التبدل تتنقل بين الابتهاج الكلي والكآبة الكلية تنقلاً فجائياً فعندما يكون في حالة الابتهاج الكلي تظهر عليه معالم الفرح الشديد والحركة الكثيرة وعدم تمركز انتباهه ، وعندما يكون في حالة الكآبة الكلية يبدو كثير التأمل تلوح على وجهه آثار الكآبة والبؤس . أما المصابون بالجنون الخفيف فانهم ينتقلون بأفكارهم انتقالاً كلياً عن المحيط الذي يعيشون فيه فكأنهم يعيشون في خيال أو كأنهم في عالم وهمي لا صلة له بهذا العالم الذي نحن فيه .

وبحسب ما يذهب اليه كريشمر ان الذين يصابون بالجنون الخفيف هم الذين كانوا يعيشون عيشة انفرادية لا يستطيبون حركة أو فعالية، مستسلمين للخمول والكسل ، ومن شأن هؤلاء شديدي الكتمان يسود الشذوذ طباعهم . والمصابون بالجنون السوداوي هم الذين كانوا في حياتهم السوية كثيري المرح منغمرين في لجة المجتمعات والمنتديات ومن شأنهم أن يكونوا سريعي التأثير شديدي الحساسية. وقد استنتج كريشمر من دراسة حياة المصابين بالأمراض العصبية أن ثمة ارتباط بين أولئك الذين يصابون بالجنون السوداوي وبين أصحاب البنية المترهلة ، وان هناك علاقة وثقى بين المصابين بالشيزوفرينا أو الجنون الخفيف وبين أصحاب البنية الضعيفة الهزيلة أو أصحاب البنية الرياضية .

ويرى الدكتور كريشمر أيضاً ان للناس مزاجين السيكلوثيمي [٣] والشيزوثيمي [٤] . فالسيكلوثيمي من الناس من كان كثير الاختلاط أنيس المعشر سريع التفرد والتبدل تارةً يكون كثير الانشراح والابتهاج ، وأخرى يكون شديد الكآبة وجسمه أميل الى الترهل في الاعتدال . أما الشيزوثيمي منهم فمن كان هزيل الجسم أو ذا بنية رياضية قليل الاختلاط كثير الكتمان قليل الانفعال يخفي بين حنايا نفسه ما ينتابه من هموم ومن محن وآلام . أما المزاج الغالب على الناس فمؤلف من مزيج غير متناسب من صفات تينك المزاجين .

والخلاصة ان المصابين بالجنون السوداوي وبالجنون الخفيف يعتبرون ممثلين لطرفي مقياس يشير لجميع الاختلافات المزاجية والدرجة الوسطى بهذا القياس فتشير للاشخاص المتزنين الذين لهم عقلية سوية . وكذلك يمكن اتخاذ مقياس بهذا القياس للاختلافات الجسمية

(١) Manic-Depressive Insanity (٢) Schizophrenia or Dementia Praecox
(٣) Cyclothymes (٤) Schizothymes

وهـذا القياس يتراوح بين أقصى أنواع شذوذ الجسم الترهل وبين أقصى أنواع شذوذ الجسم المزبل . ويرى كريشمر ان هذه الاختلافات في الأمزجة وفي البناء الجسمي تتوقف على مجموعتين من المواد الـكيميائية التي تفرزها الغدد الصم الى الدم ، تمثل الواحدة منهـا الصنف السيكلوثيمي وتمثل الأخرى الصنف الشيزوثيمي على ان الدكتور كريشمر يسلم مع الباحثين الآخرين في هذا الميدان بأن أبحاثنا السيكولوجية والفسيولوجية بهذه الناحية في البحث العلمي ما زالت غير كاملة لصعوبة البحث ولتعقيده . ومما يزيد في هذه الصعوبة ان التجارب التي تجري على الأشخاص لقيـاس مبلغ اختلافاتهم المزاجيـة تؤثر في سلوكهم فتكيفها تـكيفاً مؤقتاً وهذا ما يجعل الباحثين يشكون في نتائج تلك التجارب .

حسن السلمان

معجزات جديدة في الجراحة

طبيب يتحسس بأصابعه اللطيفة جزءاً كشف عنه من دماغ مريض بعد فتح الجمجمة ، فاذا اهتدى الى حيث يريد ثبت هنالك رقاً خفيفاً من مادة أشبه بالمطاط ليقوم مقام جزء من الغشاء الذي يحجب الدماغ . ان هذا الرق لشيء أثمن قيمة مما هو في الحقيقة . ذلك بأنه قد يأتي يوم يمكن أن يستخدم فيه لاعادة بناء أجزاء من الجسم أصابها التهتك والفساد .

من خصائص هذا الرق انه مرن فيتمدد الى ثلاثة أضعاف بعديه طولا وعرضاً ، ثم يعود الى حجمه الاصلي . وهو لا يحتوي على مطاط . انه مصنوع من مادة يقال لها « فبروجن » Fibrogen وهي مادة في الدم تساعده على التخثر وتكوين كتلة جامدة تمنع تدفق الدم . سمي هذا الرق : الرق الفبريني Fibrin Film ويصنع في شرائح رقيقة لينة أو في قوام ورق البرشمان أو تكون طيات أسطوانية . وخصائصه الآلية يمكن التحكم فيها وضبطها بحيث يحدد مقدار الزمن الذي يمتصه فيه الجسم الحي . وهـذه الرقوق المرنة أشبه شيء من حيث الخصائص الآلية ، بالربطات العضوية المرنة التي تكون في الرقبة ، فاذا غلظت شابهت الشعر أو الصوف في خاصياتهما . وبزيادة التخلخل في ذراتها يمكن الحصول على ضروب مختلفة من الفبرين Fibrin تشابه تراكيب مختلفة من تراكيب الجسم .

هذه واحدة من المعجزات التي اكتشفت في دم الانسان في الإشهر القليلة المنصرمة ، وهي بلا شك احدى الامجاد الطبية في عصرنا هذا ، وسوف يكون لها آثار فذة في الصحة العامة . والعمل في سبيل معرفة ما سوف يؤدي اليه هذا الاكتشاف من الممكنات الطبية يجري الآن بواسطة نخبة من الكيميائيين بتوجيه الاستاذ إدوين كوهن في كلية هارفرد الطبية .

ومن هذه الممكنات ما اكتشف حديثاً وسمي « زبد الفبرين » Fibrin Foam وهي مادة أشبه شيء بالقطن المنفوش استعملت بنجاح في وقف تدفق الدم من الجروح ، حتى ان انبثاق الدم من أوعية دموية تهتكت وقطعت تقطيعاً ، يقف بمجرد استعمال هذه المادة وقفاً تاماً سريعاً . ضف الى ذلك ان هذه المادة يمكن تركها في الجروح لأنها مستخلصة من بروتينات الدم فيمتصها الجسم من غير حدوث أي ركس (رد فعل) في الجسم .



من أنواع النبات
الطبي

﴿ الداذي ﴾ الهيوفاريقون عشب من الفصيلة الهيوفاريقونية اسمه النباتي Hyperieum perforatum وبالانكليزية St. John's Wort وبالفرنسية Millepertuis; Herbe de Saint Jean بزوره مرّة وهو عطر محرك كان كثير الاعتبار عند الأقدمين في تخفيف الوجع .

﴿ ذَنَبُ الثَّعْلَبِ ﴾ نبات يشبه ذنبه معروف بلسان الحمل في مصر عريض الورق أصفر الزهر حبّه كالحماض من الفصيلة البلانتجنيّة اسمه النباتي Plantago major وبالانكليزية Waybread وبالفرنسية Grand Plantain تستعمل سنيبلاته غذاء للطيور وهو قابض وقيل طارد للحمى وتستعمل أوراقه اليابسة كخلاصتها السائلة مدرّة للبول .

﴿ ذَنَبُ الخَيْلِ ﴾ عشب من الفصيلة الاكويسيتية اسمه النباتي Equisetum arvense وبالانكليزية Field Horse-tail وبالفرنسية Prêle des champs وهو قابض قليلاً وقاطع لنزف الدم ومتوفر فيه السليكا (اوكسيد السليكون) .

﴿ ذو خَمْسِ أصابعَ ﴾ البَنْجَنْكُشْت معرّب پَنْج انْكُشْت بالفارسية أي خمس أصابع . ويقال الفَنْجَنْكُشْت والبَنْجَنْجَشْت والبَنْجَكُشْت وباليونانية اغْنسس معناه الطاهر أو العفيف ، ويسمى في مصر كَفّ مَرْيَم وفي مفردات ابن البيطار الأرْثَد وحبّ الفَقْد شجيرة من الفصيلة الفربينيّة تزرع في الحدائق المصرية وتنبت في الواحة الصغيرة أوراقها مفصصة تشبه الاصابع وأزهارها في سنابل طوال بيض تضرب الى اللون البنفسجي اسمها النباتي Vitex Agnus-castus وبالانكليزية Chaste-tree وبالفرنسية Gattilier ; Arbre au poivre وهذه الشجيرة كانت رمزاً الى الطهارة أو العفة عند الأقدمين فقد عدوها مضادة التحريض للشهوة ولكن الأجدر اعتبارها محركة لها على رأي الأطباء عدا فوائد أخر ذكرتها كتب الطب القديمة .

﴿ الرسينون ﴾ السليخة شجرة متوسطة من الفصيلة الغاربة اسمها النباتي Cinnamomum Cassia وبالانكليزية Cassia tree, Cassia وبالفرنسية Laurier casse, Casse يبلغ ارتفاعها ٤٠ — ٥٠ قدماً . أوراقها مثل الحربة طوال قابلة التكسير . قريبة الشبه بالقرفة ووطنها الهند الصينية وما والاها حيث تغرس . عرفت منذ أقدم العصور كتابل ، وورد ذكرها في التوراة ، وفي كتابات الاغريق الأقدمين وضمن أنبتة الصين قديماً منذ ٢٧٠٠ ق . م . وهذه الشجرة بأ كلها عطرة تنشرح لها النفس. يستعمل قلفها عوضاً عن القرفة الحقيقية إلاّ انه يعتبر أحط درجة . وهي تزرع في وطنها عادة من أجل قلفها وثمارها الفجة (براعمها) وأوراقها التي يحصل منها على دهن بالتقطير فيتداوى بالبراعم ويدخل القلف ضمن التوابل .

﴿ زبيبُ الجَبَل ﴾ هو حبّ الرأس نبات من الفصيلة الشقيقية وطنه أوربا وآسيا الصغرى اسمه النباتي Delphinium Staphisagria وبالانكليزية Stavesacre وبالفرنسية Dauphinelle Staphysaigre, Staphisaigre بزوره الناضجة تشتمل على عدد من شبه القلويات وتستعمل من الظاهر لابادة الحشرات . وهي تنتج بالأخص شبه القلوي المسمى « ديلفينين » وهو بلورات عادمة اللون تذوب في الكحول والايثير والكوروفورم ويستعمل في الطب مضاداً للتشنج والتقلص والألم العصبي .

﴿ الزَرُنبة ﴾ هو الزرنبد والزَرُنباد وعرق الكافور عشب معمر من الفصيلة الزنجبيلية يشبه السُعد اسمه النباتي Curcuma Zedoaria وبالانجليزية Zedoary وبالفرنسية Zérumbet ou Zédoaire وطنه جزائر الهند الشرقية وأصوله الجافة عطرة تشتمل على دهن متصعّد وراتينج ومادة غروية وهي كالزنجبيل يتداوى بها ممدية ومخرجة للارياح .

﴿ السنانير ﴾ اسم يطلق في مصر على الأملج معرب آمله بالفارسية ويقال الاهليلج الاملج . والأطباء يسمونه الأملج الهندي . وهو ثمر شجيرة من الفصيلة الآفوربية اسمه النباتي Phyllanthus Emblica وبالانكليزية Emblic Myrabolan وبالفرنسية Myrobalan Emblic تنبت في جزيرة سرنديب (سيلان) والهند والملايو والصين وغيرها. أوراقها ريشية ظريفة ولذا قد تزرع الشجيرة في الحدائق للتزيين ثمارها خضر كروية حامضة الواحدة منها في حجم « البلية » ونواتها كبيرة نسبياً مرغوب فيها لعمل الربيات . وهي مليّنة مبرّدة . وفي الهند تستعمل الثمار والأوراق وقشر الساق في الدباغة .

محمود مصطفى الدمياطي

باب المراسلة والمناظرة

مجلة علم النفس

والزمان الوجودي

حركة مباركة تلك التي حفزت جماعة من أهل هذا الجيل إلى تكوين الجمعية الفلسفية المصرية وتأليف جماعة علم النفس التكاملي وإنشاء مجلتها التي نحن بصددها الآن ، ولقد تفضلت جماعة علم النفس فأهدتنا العدد الأول من هذه المجلة التي نرجو لها طول العمر ، لتكون أداة فعّالة في نشر المعرفة والعلم ، ومجالاً لذوي الاختصاص يقررون على صفحاتها المبادىء ويتساجلون في الآراء وينهلون من موارد الثقافة ، فينشرونها في الناس ضياءً منيراً وأشعة لمّاعة فيّاضة بالخير والبركة .

أبْرَكُ من هذا كله ان يكون لهذه الجماعة ومجلتها ظهيراً خطير الشأن ممثلاً في شخص أميرة جليلة القدر هي الأميرة شيوه‌كار ، فاليها نوجه وافر الشكر على نهضتها وأخذها بيد العلم في زمان قلّ فيه نصراء العلم وغاض معين الوفاء للمعرفة وشاع فيه الدجل والدجاجلة ، فكان عملها هذا نبراساً يستضاء به ونهجاً يُتَأَسَّى به ، فإلى سموها أوفر الشكران على ما أسدت للعلم وما تسدي لغيره من نواحي الحياة في هذه البلاد . ومن قبل انتعش العلم وزهى الفن وأثمر الأدب في ظل ظهراء كان منهم أمراء وأميرات وأناسٌ من عامة الشعب أذلوا المال للعلم فزال المال وماتت الجاه وبقيت ذكراهم بالعلم وحده .

وفد على عمر بن الخطاب أحد أبناء هرم بن سنان ، فسأله عمر أن يسمعه شيئاً من مدائح زهير بن أبي سلمى في أبيه ، فلما فعل قال عمر : والله لقد كان يجزل فيكم القول ، فردَّ عليه ابن هرم قائلاً : ووالله لقد كنا نجزل له العطاء : فأسكته عمر بقوله :

« ذهب ما أعطيتموه ، وبقي ما أعطاكم »

بقي بعد ذلك خصومة لم نكن من جناتها علم الله ، ولكن « مجلة علم النفس » بادرتنا بها ، إذ نشرت في صفحة ٨٠ من عددها الأول عبارات عن كتاب « الزمان الوجودي » تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي عرّضت فيها بالمقتطف ومحرّر المقتطف ، ومهرت هذه العبارات بإمضاء ى . م ، فأرادت أن تخفي اسم الكاتب وهو ولا شك دكتور يوسف

مراد أحد رئيسي تحريرها ومدرس علم النفس بجامعة فؤاد الأول .

وقبل ان نعرض الى ما جاء في هذه العبارات خاصًا بالمقتطف ، يحملنا الواجب الصحفي والأمانة العلمية أن نتناول المجلة نفسها بالكلام والنقد ، فان بعض أوضاعها وما نشرته من البحوث فيه من المآخذ ما لا ينبغي أن يفلت من النقد ، فان تصدير هذا العدد بكلمات من أربعة باشاوات أمر لا يخلو من اتجاه ، ما كان لرجال يعملون للتكامل النفسي أن يلجئوا اليه ، فان فيه دلالة على شعور بالنقص في رجال يتمثلون الكمال ، وفي عصر لم يصبح فيه للالقاب ذلك الرنين الذي خيل لمحرري هذه المجلة ان يكون له أثر في عقول الناقدين . فنحن في عصر لا قيمة فيه لشيء غير الحق والحرية . أما استخدام الألقاب والأسماء واستجداء النفع بها ، فأمر مضى زمنه وانقضى عهده . وأثر الاستجداء في عبارات هؤلاء بين ظاهر ، وأكبر الأدلة عليه تصدير المجلة بكلمات هؤلاء ، كأنما يقال للناس : انظروا ، هؤلاء الأبطال يناصروننا . عفواً . لقد مضى زمن عبادة الأشخاص . ورُدَّ الى القيمة الذاتية اعتبارها في عصر حرية الفكر .

كذلك وقع في مواضع من المجلة هنات لغوية وأساليب كثيرة كقول بعضهم « كريات حمراء » وهي قطعاً « كريات حُمْر » ولا شيء غير ذلك في لغة العرب . كذلك استعمل لفظ « عُصَاب » للدلالة على معنى لفظ Neurosis الأعجمي اشتقاقاً من « عَصَب » وهو اسم جامد فلا مانع من الاشتقاق منه . ولكن المصيبة أن يُنسَبَ اليه فيقول الكاتب « عُصابيُّون » أي المرضى بالعُصاب . وجاء من صيغة « فُعال » في اللغة أسماء أمراض كثيرة مثل زكام وصداع وزحار ، فهل يقال للمزكومين زكاميون وللمصدوعين صداعيون وللمزحورين زحاريون ؟ إنما هذا عبث باللغة بل إجرام يستحق العقاب لو ان في القانون مادة تعاقب من يمعن في العبث باللغة ، كالمادة التي تعاقب من يمعن في العبث بالأمن العام .

قال دكتور يوسف مراد بالذات : (ص ٨١) — « ... وقد برع حقًّا (أي مؤلف كتاب الزمان الوجودي) في محاولته تهيئة ذات القارىء لاختبار هذه الآنات من الديمومة التي تكون نسيج الوجود ولتَوَجُّدِها ، أقصد ادراكها بالوجدان » ا هـ . وإذن يكون لفظ « التوجُّد » عنده مساوياً لقولك « الادراك بالوجدان » أو « الادراك الوجداني » ولاشك في أن هذا اللفظ كأنما استمدَّ من معاجم كتَّاب الأقباط في عصر محمد علي .

وجاء في ص ٦١ عبارة : « ملخصة عن كتاب Self Analysis K. Horney حلل نفسك » .

ولست أعلم كيف يكون عارفاً بالانجليزية من يترجم Self Analysis بعبارة « حلل نفسك » . ألم يقرأ صبري جرجس صاحب ذلك المقال عبارة « اعرف نفسك » : know thyself ؟ فانها وزان « حلل نفسك » في العربية ، ولكنها في الانجليزية مختلفة عن Self Analysis كل الاختلاف ، وهذه ترجمتها « تحليل الذات » لا « حلل نفسك » . أما « حلل نفسك » فانجليزيتها Analyse thyself . فاذا كان هذا كله في عنوان مقال ، فما بالك بما في المقال نفسه ؟

وفي ص ٢٥ : العضلات الملساء : وهي المُلس، والغدد الصماء : وهي الصمّ . وقال الغدد الادرينالينية ، وهذه الغدد مصيبة عظمى . فهما غدّتان لا غدد ، وهذا خطأ علمي ، ثم انهما في العربية الكُظرين . انظر لسان العرب ص ٤٥٨ ج ٦ : والكُظر والكُظرَة شحم الكليتين المحيط بهما والكظرَة أيضاً الشحمة التي قدام الكلية فاذا انتزعت الكلية كان موضعها كظراً وهما الكظران » .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية ص ١٧٩ ج ١ طبعة ١٤

Adrenal Glands, two flattened yellowish brown bodies, about 2 in long which lie on the upper anterior surface of the kidneys, called also suprarenal glands.

ثم هي اذا عرّبتها قلت « أدرينال » فاذا نسبت اليها فهي « أدرينالية » فلماذا نقول « أدرينالينية » أي ننسب الى المنسوب اليه في اللغة الأعجمية adrenalin اذا لم نكن على جهل باللغتين ؟

يا قوم : إذا كانت بيوتكم من زجاج ، فلماذا ترجمون الناس بالحجارة ؟ ياقوم قلتم في ص ٢٥ : التوازن الهرموني ، وهي في العربية التوازن التسّوري ، ولا أذكر لكم المصدر فابحثوا بأنفسكم واطلعوا ، قبل أن تؤلفوا ، على آداب عصركم ان كنتم مؤمنين برسالتكم .

ولا شك كذلك في انه من حقنا أن نناقش دكتور يوسف مراد الحساب على كل كلمة وردت في نقده هذا . فقد دلّ به أولاً انه غير متصل بثقافة عصره . في مصر على الأقل ، فقد كان من الواجب عليه أن يعرف أن محرر هذه الصحيفة لم يخضع يوماً من الأيام لوحي غير وحي ضميره وعقله، ثلاثة عقود ونيفاً من الزمان اشتغل فيها بالصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، فتعريض يوسف مراد في نقده بأن جماعة أوحت اليه بنقد الكتاب مهاترة، لا تجديه نفعاً ولا تفيد صاحب « الزمان الوجودي » شيئاً ، لأن صاحب هذا الكتاب حتى لو فرض جدلاً بأن في صفحات كتابه هذا جوهرة من جواهر الفكر النادرة ، فليس محرر هذه

المجلة ولا أصدقاؤه ، ملزمين بأن يبحثوا عن هذه الجوهرة في صندوق من صناديق القمامة وضعها فيه المؤلف وأمعن في اخفائها بين محتوياته .

يقول الاستاذ يوسف مراد (ص ٨١) ما نصه : « فصاحبها (أي صاحب المقتطف وفي الحق انه محررها) لم يشأ أو لم يستطع أن ينقد الكتاب وما فيه من مذهب وأفكار ، فراح يلفق أخباراً عن آراء أناس فيه لست أدري كيف سوّلت له نفسه أن ينسب اليهم هذه الزاعم » اهـ . وفي الحق ان نفسي ما سوّلت لي شيئاً ، وانما ذكرت أقوالاً قيلت في « الزمان الوجودي » أمام فئة من أهل الرأي والمكانة السامية في هذا العصر ، فنقلتها وكنت أميناً في النقل . ذلك بعد أن اطلعت على ذلك الكتاب وأبديت فيه رأياً ، فكان ما نقلت عنهم تعزيزاً لرأيي فيه .

ثم يقول الاستاذ مراد (ص ٨٢) مانصه : «ثم حاول (أي محرّر المقتطف) أن يدّعي شيئاً من العلم بالفلسفة فذهب يناقش تصدير الكتاب بعبارات هي أبلغ دليل على أن صاحبها بينه وبين الفلسفة وفهمها مراحل طويلة » اهـ .

ولقد تجنى دكتور مراد على محرّر هذه المجلة أعظم التجني في عبارته هذه . فاني لم ادّع العلم بالفلسفة ولا بغير الفلسفة ، إذ ليس في ما تقدمت به ذلك الكتاب شيئاً يدل على هذه الدعوى . فاستاذ علم النفس دكتور يوسف مراد تخيل اني ادعيت شيئاً ، ثم راح يتجنى به عليّ كأنه أمر واقع . وأظن أن هذا مرض نفسي ، يعرف الدكتور طبعاً اسمه الأعجمي . ولعمرك كيف يكون موقف النقد والنقّاد في هذا العصر ، اذا كان مآل كل نقد ان يخرج للناقد من يقول له أنت « جاهل » ، من غير أن يفند نقده بحقائق علمية واقعة أو نظريات مقبولة في العقل . واني لأرجو أن يعتقد دكتور يوسف مراد ان ألقابه العلمية لا تغني عنه أمام الحق شيئاً . فإما الحجة وإما الاعتراف بالعجز او بالحق ، والاعتراف بالحق أولى بمحبي الحكمة . ولعلّ يوسف مراد لم يكتب في هذا النقد الأخرفي ى م . وإليك الدليل :

دكتور مراد لديه لقب في الآداب ، وهو مدرّس علم النفس بجامعة فؤاد الأول . وليس من بين ألقابه ما يدل على ان له صلة بالفلسفة وبخاصة الميتافيزيقا التي يترجم عن مذهب فيها كتاب الزمان الوجودي . واذن فالمنطق يساوي بيني وبينه في الجهل بالفلسفة ، فكيف به يحكم على نقدي بأنه بعيد عن الفلسفة واني بيني وبين فهم الفلسفة مراحل طويلة ، وهو لا يفضلني علماً بالفلسفة ، ولا أفضله جهلاً بها ؟

ولكني لا أستطيع ان أنكر ان دكتور مراد عالم بعلم النفس ومدرس لهذا العلم بجامعة فؤاد الأول ، وليس له في هذا العلم من المؤلفات غير كتيّب نشر في مجموعة إقرأ عنوانه

«شفاء النفس» . وفي «شفاء النفس» ما يؤذي النفس جاء في ص ٩٥ من ذلك الكتاب:
« تمتاز فلسفة فرويد (وليس لفرويد فلسفة وإنما له مذهب في التحليل النفسي) بكونها ميكانيكية (ولعمرك ما هي الفلسفة الميكانيكية ؟) فانها تنظر الى الانسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها الاّ بالحيلة » . اهـ .

وجاء في ص ٩٧ : « أما فلسفة ادلر فهي على نقيض فلسفة فرويد ، تمتاز بكونها غائية اختيارية تفاؤلية . ونعلم ان المذهب الغائي أو مذهب العلة الغائية على نقيض المذهب الميكانيكي » . اهـ

وإذن فدكتور مراد مصمم مرتين على نعت مذهب فرويد بأنه ميكانيكي . والحق يا أستاذ علم النفس، استغفر الله ، بل مدرّس علم النفس، غير ذلك . واليك الدليل :

جاء في كتاب : المدخل الى التحليل النفسي ما يلي ·
Introduction à la Psychoanalyse, traduction française, P. 67.
« لا نريد أن نصف ونبوّب الظاهرات لا غير ، بل نريد أيضاً أن ننظر فيها على انها دلالات على أثر القوى التي تعمل في النفس ، وعلى انها مظهر للنزعات التي ترمي الى هدف محدود ، والتي تعمل سواء أفي اتجاه واحد أم في اتجاهات متقابلة ، اننا نسعى ان نكون فكرة ديناميكية Conception dynamique للظاهرات النفسية » .

وقال العالمان هسنار وريجس A. Hesnard, E. Regis : ضمن فصل عنوانه : Le Psychodynamisme في كتابهما La Psychoanalyse ما يأتي :

et l'on pourrai appliquer le terme Psychodynamisme à cette conception dynamique de l'esprit

ذلك بعد أن عرضا المذاهب التي تقدمت مذهب فرويد ونقداها ، ثم قررا مذهب فرويد على هذا النحو .

واليك مزيداً . فقد جاء في كتاب الأستاذ روبرت وودورث Robert S. Woodworth وهو أستاذ علم النفس بجامعة كولمبيا ص ١٧٠ ف ٥ طبع Methuen, London, 1931 ما يأتي بالنص :

Freud's mental mechanisms of defence mechanisms — better called (١) dynamisms, as there is nothing mechanistic about them—are useful concepts in the psychology of personality.

---

(١) See W. Healy, A. F. Bronner, A. M. Bowers, The Structure and Meaning of Psycho-analysis (Judge Baker Foundation, 1930, p. 192)

ومحور هذه العبارة قول المؤلف (نقلاً عن ثلاثة أساتذة هم « هيلي » و « برونر » و « بوورز ») ان الأولى أن يقال dynamics بدلاً من mechanics لأنّ ما يتكلم فيه فرويد لا يمت الى الفكرة الآلية بسبب . والفرق بين بحوث الظواهر النفسيا لية ، وبحوث الظواهر النفسيحركية ، معروفٌ مذكور في مظانّ هذا العلم .

واني لأرجو أن لايتبادر الى ذهن الدكتور أن هذين الاصطلاحين يجريان على قاعدة الكتّاب الأقباط في دواوين محمد علي الكبير ، بل هما يجريان على قاعدة عربية سليمة هي قاعدة « التركيب المزجي » كقولك بُخْتَنَصَّر ومَعْديكرب وحَضْرَمَوْت وبَعْلَبَك . فالأول : نَفْسِيالِي Psychomechanic والثاني نَفْسِيحَرَكِي Psychodynamic . كذلك لا ينبغي أن يتبادر الى ذهن الدكتور الفاضل اني أجهل ان علم الميكانيكا قسمان : علم الأجسام الساكنة Statics وعلم الأجسام المتحركة dynamics ، ومن هذين المعنيين أخذ الذين انتحلوا المصطلحين في علوم النفس والاجتماع وغيرهما، وطبقوهما فيهما بمعنى مجازيّ صرف . ومقولة الميكانيكا تنصرف الى القسمين معاً : السكون والحركة .

وبعد : فاذا كان الدكتور لا يفضلني علماً بالفلسفة ، ولا أفضله جهلاً بها ، فكيف به في نفس علمه ؟ أيحق لي أن أقول انه يجهل مثل هذه الفروق المفصلة بين مرامي المصطلحات التي يستعملها في علمه نفسه ؟ معاذ الله . فيوسف مراد دكتور في الآداب ومدرس علم النفس بجامعة فؤاد الأوّل . ومع هذا فمن الجائز أن يكون قد نقل كتابه « شفاء النفس » عمن لم يحسن الوقوف على مثل هذه الفروق الدقيقة في معاني المصطلحات وما تؤدّي اليه من الفروق العلمية فزلّ وضلّ . وناقل الكفر ليس بكافر على كل حال .

بقي بعد ذلك ان دكتور يوسف مراد ترجم الجزء الثالث من كتاب الطب التجريبي تأليف « كلود برنار » الذي أخرجته وزارة المعارف مطبوعاً باشرافه فضلاً عن اشتراكه في الترجمة . وبعدُ الاشراف والمراجعة ظهر في الجزء الذي ترجمه الدكتور مذهب جديد لم يقل به « كلود برنار » إذ جاء فيه ان للانسان قلبين قلباً أيمن وقلباً أيسر ، نقضاً للمذهب القديم القائل « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . فلما نبهنا على هذا الخطإ الفاحش في عدد فبراير الماضي من المقتطف ، خرج دكتور مراد « بالصمت عن لا ونعم » ، وجاء اليوم يهز قلمه المنعوت بالدكتوراه وبفن تدريس علم النفس ، يدافع عن عبد الرحمن بدوي ، فيكان مثله كمالك الحزين في قصة كليلة ودمنة اذ قال له الثعلب بعد أن فاز به :
يا عدوّ نفسك : ترى الرأي للحمامة وتعجز عنه لنفسك ؟

وليته تريث واطمأن فلم يتورط . لقد سمى هذا الدكتور ان نعتنا أسلوب « الزمان الوجودي » انه كالرصاص : صلب بارد ثقيل ، من مفاخر الكتاب . من مفاخر الكتاب ان لا يفهم وان يكون كالرصاص . وان لا يعي ما فيه عقل ولا قلب ، وان المؤلف ألغز الكتاب ترفعاً به عن العامة ، لأنه « عمل فلسفي رائع يحتاج فهمه وتقديره إلى جهد وملكة » . ولماذا لا يقول دكتور مراد هذا القول للعلامة الكسيس كارل ؟ فقد شرح في كتابه « الانسان ذلك المجهول » نفس الفكرة التي أنزلها عبد الرحمن بدوي منزلة الطلسمات والاحاجي ، وفصلها في وريقات قليلة ، فكأنك تتلقى عنه الوحي إذ يوحى . واذا كان دكتور مراد لم يصله خبر ذلك فليقرأ الفصل الخامس من ذلك الكتاب فانه ولا شك سيستفيد فائدة جلى ويعرف ان علاقة الزمان بالنفس البشرية لا تحتاج الى « منطق التوتر » (أعيذك منه بالعقل الأول) ولا الى « الدياليتكية التوترية » ، ولا الى غير ذلك من معالم « الفلسفة الظاهرياتية » على حد ما يقول دكتورك بدوي . واليك اسم الكتاب ان كنت جاهله ، وناشره ان كنت لا تعرفه ، وعنوان الفصل وموقعه ، وسنة الطبع أيضاً ؟

Man : The Unknown : by Alexis Carrel, pub. Hamish Hamilton Ltd. 90 Great Russell Str., London, 1935 ; chap. 5, "Inward Time . pp 159—190.

اقرأ هنالك سحر الكلام وسحر المنطق وسحر العلم ، واستوعب صلة الزمان بالوجود النفسي كأنك تنهل من مورد عذب في يوم قائظ .

لماذا لم يلغز « كارل » ما كتب في « الزمن الباطن » ؟ لأنه عالم يفقه ما يقول : ولماذا ألغز بدوي ما كتب في الزمان الوجودي ؟ لأنه دكتور بأمر الجامعة المصرية ، وفيلسوف بأمر طه حسين ، الذي لا يعرف من الفلسفة الا بقدر ما يعرف دكتور مراد وبقدر ما أعرف أنا ، فهو يستوي معنا في الجهل بها ، ومع هذا فهو يوزع ألقاب الفلسفة على الفلاسفة حتى لقد قال دكتور مراد في (ص ٨١) من مجلة علم النفس .

« وقد استحق الدكتور عبد الرحمن بدوي عن جدارة ما لقبه به الدكتور طه حسين بك حينما قال ، في أثناء مناقشة هذه الرسالة في كلية الآداب لدرجة الماجستير : إنه أول فيلسوف مصري ، ويحق لمصر فعلاً أن تفخر بفيلسوفها الشاب » . اهـ

ومَثَلُ يوسف مراد وطه حسين هنا ، كالطفيلي الذي يتشفع به طفيلي مثله ، انتصاراً لثالث دلّ الواقع على عجزه عن ستر تغفله ، فاتخذها دريئة يحتمي بها على صندوق القمامة الذي يدعي ان به جوهرة لم يرها أحد من الناس . وإنما هي أثر الوهم إذا جسدته الدعاية .

ترجم «هنري كوربن» عن هيدجر مختارات نشرها بعنوان « ما الميتافيزيقا » ونشرها في سنة ١٩٣٧ ، صدرت بالآتي :

Qu'est—ce Que La Metaphysique ? Par Martin Heidegger. Suivi d'extrait sur l'être et le temps et d'une conférence sur Hölderlin. Tradu' de l'allemand avec un avant propos et des notes par Henry Corbin.

والفصل الثالث من هذه المجموعة بعنوان .

Extraits du livre sur L'Etre et le Temps

من صحيفة ١١٥ الى صحيفة ٢٠٨ . والظاهر من عناوين الفصول التي ترجمها « كوربن » ان الدكتور بدوي قد سطا على هيدجر هذا، فأخذ من كتابه جزءاً ضمنه رسالته « الموت » التي نال بها الماجستير ، وجزءاً ضمنه رسالته التي نال بها الدكتوراه . واليك عناوين بعض الفصول عن ترجمة «كوربن» دلالة على ذلك :

(1) L'Etre - pour - la mort et la possibilité pour la réalité — humaine de former un tout.

(2) L'impossibilité apparente de saisir et de déterminer ontologiquement ce qu'est la totalité achevée d'une realité - humaine.

(3) L'expérience possible de la mort des autres et la possibilité de saisir une realité - humaine totale

(4) L'Etre - pour - la — mort et la banalité quotidienne de la réalité — humaine.

وقد نقل « كوربن » في منتخبه هذا ١٣ قطعة متفرقة من كتاب هيدجر في « الوجود والزمان » وعناوين هـذه القطع برهان حي ناطق على اصالة دكتور بدوي في النقل من جهة وفي تخليط ما يمكن فهمه في الأصل ويستعصى في النقل من جهة أخرى . أما اننا لا نعرف الألمانية كما يقول يوسف مراد محاولاً أن ينتقصنا ، فهذا لا ينفي أن عبد الرحمن بدوي قد أقام وليمة غثة للناس على حساب هيدجر وغيره من الألمانيين ، ولا نريد بذكر هذه الترجمة الا ان أحد الأساتذة أعضاء لجنة الامتحان جابهه بأنه ترجم حرفياً عن هيدجر وأثبت في كتابه صفحات عديدة وردت في المنتخب المترجم الى الفرنسية بدون اشارة الى مصدرها. أما ان النقل كان عن الأصل الألماني او غيره ، فانه نقل وكفى .

يضيف الى يوسف مراد فوق ذلك ان مؤلف «الزمان الوجودي» يرجع في ص ١٥١ من كتابه هذا الى الترجمة الفرنسية عمل كوربن ، ويعتذر بانه لم يحصل على الأصل الألماني . فما

قولك أيها الصّـوال الجوّال ؟ وقد اتضح لنـا في هذا النقد ان ما نقل إلى الفرنسية أزيد من ١٠٠ صفحة لا ثلاثين كما تدعي أيها الدكتور الفاضل !

...وهل يريد يوسف مراد ان ندله على مراجع فرنسية أخرى أخذ عنها بدوي ولم يذكرها. ندله على بحث في الزمان نشرته مجلة فرنسية اسمها Recherches Philosophique ؟ كذلك نجد بدوي يتكلم في زمانه الوجودي في ص ٢١٢ عن « التاريخية الكيفية » وهو نقل صريح من هيجل، ثم من كلام هيدجر في كتـابه « الوجود والزمان » . اما « الـكيفية » فسبقه بها مئات من الألمـان اصحاب مذهب « الفينومنلوجية » مثل مكس شيلر وهوسرل وهيدجر نفسه .

ولقد عجبت لماذا يتولى يوسف مراد الدفاع عن عبد الرحمن بدوي ويذهب به الحس في الدفاع عنه هذا المذهب العجيب ، ويحتر في الذود عن زمانه الوجودي ذلك الاحترار ، حتى قرأت مقدمة المجلة التي أودعها الأستاذ مراد ذلك السر . والسر راجع الى تبادل الاستخفاء وراء المؤلفين الاوربيين . أما وقد سطا بدوي على هيدجر الالماني ، فقـد هيئت الفرصة لمراد أن يسطو على صاحب مذهب علم النفس التكاملي ، كما يدعوه ، فيقفا ليقول الأول إنه صاحب مذهب في الفلسفة، ويقف الثاني ليقول انه صاحب مذهب مبتكر في علم النفس، وذلك بمرأى ومسمع من أساتذة الجامعة ومدرسيها في نهاية عام دراسيّ ، كما حدثني أحد الثقاة .

وأنت إذا قرأت صحيفتي ١١ و ١٢ من الجزء الأول من مجلة علم النفس شـعرت بأن دكتور مراد يحاول أن يوهمك بأنه صاحب مذهب حقيقة في علم النفس وأن هـذا المذهب يدعى علم النفس التـكاملي، ويتسرب بأسلوب استخفائي ، متسلّـلاً الى فهمك تسلل من يتشح بالظلام ليسلب خفية ، حتى يلقي في روعك انه مبتكر ذلك المذهب ، ناسياً انه بذلك إنمـا يسطو بجرأة على مذهب الاستاذ « وليم م . مارستون » وينتحله من غير أن يعرف للخجل حمرة ولا صفرة ، عاقداً مع عبد الرحمن بدوي معاهدة على الاستخفاء ثم السّـلب .

أما كتاب الأستاذ « مارستون » فاليك وصفه وعنوانه :

Integrative Psychology : A Study of Unit Response, By William M. Marston, in collaboration with C. D. King and E. H. Marston. Pub. London Kegan Paul, Trench, & Trubner Co. Ltd. 1931.

يا قوم : إذا كانت بيوتكم من خزف ، فان بيد الناس حجارة من صوّان ، بل حجارة من سجيل .

اسماعيل مظهر

مكتبة المقتطف

التعليم في رأي القابسي

من علماء القرن الرابع

لأحمد فؤاد الاهواني — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٣١٨ صفحة

هذا الكتاب هو رسالة قدمها الأستاذ احمد فؤاد الأهواني لينال درجة الدكتوراة من جامعة فؤاد الأول . وقد ظفر بالدرجة العلمية ، ولم يبق إلاّ أن يظفر كتابه بما يستحق من النقد بعد أن أصبح من حق القراء أن يقرءوه وأن يقولوا فيه كلاماً هو — على كل حال — دليل الحفاوة به وحسن القبول له .

وهذا الكتاب ينقسم قسمين : نص الكتاب القابسي - من علماء القرن الرابع - في تفصيل أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين ويقع في ٧٧ صفحة من الكتاب . والقسم الآخر مناقشة لآراء القابسي وعرض لها وموازنة بينها وبين الحديث من آراء التربية والتعليم . ويقع هذا القسم في ٢٤٠ صفحة من الكتاب .

وقد أحسن الدكتور الأهواني في نشر كتاب القابسي نفسه . فقد كان مخطوطاً في المكتبة الأهلية بباريس . ويظهر أنه ليس منه نسخة أخرى في مكتبات العالم المعروفة . فجهد أن تكون في دار الكتب المصرية نسخة شمسية . وأفلح جهده . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل أخذ القابسي وقرأه وصحبه طويلاً وتابعه في كل رأي يعرضه أو حكم يسوقه ورأى أن يقدم القابسي الى قراء العربية في حدود نصوصه ونص عبارته ، وأن يقدمه إليهم في الوقت نفسه مشروحاً ومعروضاً عرضاً علميًّا ومناقشاً فيما تعرّض له من الآراء والأحكام .

فخرج بذلك العمل كتاب ضخم يحمل كتابين ، ومجهود يتوزع مجهودين .

والحق أن نشر النصّ لم يحوج الدكتور إلى كبير من التعب أو العسر . فإن النموذج

الخطي الذي نشره من هذا المخطوط يبدو جميل الخط واضح القراءة . فلم تكن هناك إلا صعوبات التحريف في النسخ . وهي صعوبات ذلّل الدكتور بعضها وترك بعضها راضياً من ذلك الشرك بأن يكتب في الهامش هذه العبارة « كذا في الأصل »

وهذا الرضى من الناشر لا يعفيه من أن يتعرّض قليلاً للوم اللائمين ، فالدكتور محقق قبل أن يكون طابعاً أو ناشراً . ولو أنه أتعب نفسه قليلاً في الوقوف عند بعض الكلام المحرف لاستطاع أن يصل إلى شيء قريب من الأصل وليس الأصل كله . وقد فعل ذلك في بعض الكلمات فكان موفقاً في تصحيحه .

أما البحث الذي وقفه الدكتور على كتاب القابسي فذلك عمل اقتضاه تعباً وعمراً . وإن القارىء ليرى آثار الجهد في كل صفحة من صفحات البحث . وما من المبالغة أن نقول في كل عبارة .

والحق أن في صديقنا الاهواني صبراً على البحث ودأباً على التنقير حتى لأعرف أنه ينفق الساعات في البحث عن كلمة .

وربّ قائل يقول ان رسالة القابسي الصغيرة الحجم ما كانت تستحق هذا العناء الضخم من الدكتور الاهواني ، وما كانت تستحق هذه المئات من الصفحات . . ! وقد يكون في ذلك بعض الحق ! فان في هذا البحث الطويل مواطن معادة مكرورة ولم تكن هناك حاجة ملحة الى التكرار الذي يشعر به قارىء الكتاب حتى ليبين ذلك في الصفحة الواحدة وبين بضعة من السطور .

ففي ص ٦٣ « وهم — الجرمان — أيضاً فقراء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة لذلك قبلوا مع السرور هذا المذهب الجديد — المسيحية — الذي يمجد الفقر والبساطة » . وبعد سطرين اثنين في الصفحة نفسها « كيف وجدت المسيحية أرضاً خصبة بين الشعوب الجرمانية » السر في هذا يرجع أن مبادىء المسيحية حققت آمالهم ووجدوا فيها الراحه الخلقية التي لم يعثروا عليها في مكان آخر »

وفي ص٦٥ « ذلك أن الطالب في الأزمنة القديمة كان يتلقى العلم على مدرسين مختلفين لا رابطة بينهم ، فهو يذهب إلى معلم اللغة ... وإلى عازف القيثارة ... والى معلم الخطابة » . وبعد بضعة أسطر — وبالضبط بعد خمسة أسطر — يقول : —

« وكان التلميذ في اليونان والرومان يتلقى علومه على مدرسين متباينين لا تجمعهم صلة .. فواحد يعلمه القراءة وآخر يقوّم لسانه وثالث يلقنه الموسيقى »

أليس في هذا تكرار واطالة الكلام . ثم ما الفرق بين الأزمنة القديمة » « ولأزمنة

اليونان والرومان ؟ » أليست كلها من القديم . أم أن القدم هنا درجات بعضها خلف بعض ؟ ؟

ومن أمثلة الاطالة في الكتاب التعرض لنظام التعليم عند اليونان والرومان بكلام طويل، مع أن خلاصته في صفحتي ٦٦ ، ٦٧ كانت تغني الغناء كله .

والتعميم في الأحكام في مقام يقتضي الدقة العلمية التاريخية غير جائز إلاّ من العابرين في علومهم غير الراسخين ، وما أظن الدكتور الأهواني من هؤلاء ، فهو دقيق وهو أمين على الحقائق العلميــة .

فكيف يجوز له أن يقول في تعميم غريب « وبقيت جزيرة العرب يعبد أهلها الأوثان ويسجدون للاصنــام » — ص ٦٩ — مع أن المسيحية واليهودية كانتا في نجران واليمن ويثرب ، كما كانت المسيحية وحدها في مملكتي الحيرة والغساسنة ؟

وفي الكتاب فصل عن « الكتاتيب في الاسلام » . وهو فصل يبدو فيه أثر تحصيل كبير إلاّ أنه كان ينقصه ما نشر في ص ٥١ حول انتشار الكتاتيب بعد الصدر الأول من الاسلام . فان هذا الكلام كان موضعه في ص ٥٧ أوجب من موضعه في ص ٥١ . حتى يخرج الفصل كله مستوياً قائماً بذاته بدلاً من هذا التفكك .

والمؤلف يطيل في بعض المواطن من غير حاجة الى تطويل . ويوجز في مواطن أخرى حيث تدعو الحاجة الى البسط والاسهاب لا الى الشح والايجاز .. ففي ص ٣٨ أراد أن يثبت — في كلام طويل — أن القابسي من علماء القرن الرابع لا الخامس لأنه توفي سنة ٤٠٣ !! وتلك بديهية ما كانت تحتاج الى مثل هذا الاسراف في الكلام . وما كانت تحتاج الى مثل هذه العبارة الخطابية « ثم أن عالماً يولد في سنة ٣٢٤ ويتوفى في سنة ٤٠٣ لجدير أن يعد من علماء القرن الرابع لا الخامس لأن معظم حياته وفتوّة شبابه وبأس رجولته واكتمال علمه وعقله وعمله وقع في ذلك القرن » !!! طبعاً أيها الصديق !

ومن أمثلة الايجاز العجيب ما وقع في ص ٧٦ . فقد أراد أن يرد السر في انتهاء تعليم الصبيان الى أهل السنة « الى أسباب كثيرة » . ثم اكتفى من هذه الأسباب الكثيرة بسببين اثنين . ا. فما هذا الاسراف في الوعد يا أخي والبخل بالموعود ؟؟

وفي بعض أحكامك يا أخي تناقض لا أدري بمَ أعلله : فقد ذكرت في ص ٧٦ « أن كثيراً من المفكرين في الاسلام ترفعوا عن تعليم الصبيــان ... وقد صرّح بذلك أصحاب رسائل اخوان الصفا » . وفي ص ٢٠٥ عدت تقول « ولعلهم — اخوان الصفا — تركوا

الصبيان وشأنهم يتعلمون في الكتاتيب لأن تعليمهم يتم بالتحفيظ لا بالتفهيم » . فلم يكن ذلك ترفعاً كما قلت في ص ٧٦ ؟؟ !

بقيت بعد ذلك أخطاء مطبعية لو صححتها لأنصفت الى كتابك . ولكنها ليست كثيرة منها

ص ١٤ : — الفهرسة . وهي الفهرس أو الفهرست بالتاء المفتوحة ، ص ٨٧ سطر ٢٠ : — يعلمنهن والصحيح يعلمونهن ، ص ١٦ : — عمّر والصحيح عُمّر بالبناء للمجهول ، ص٢٠٨ : ابن مسكوية بالتاء . وهي بالهاء ، ص ٣٢١ : — تاريخ التمدن الاسلامي أربعة أجزاء — والصحيح أنها خمسة .

وعلى الرغم مما بدا في كتابك أو بدا لي فيه فهو عمل طيب وجهد كثير . وما أكثر انصافك وأنت تناقش « كارا دي ڤو » وخليل طوطح والدكتور ابراهيم سلامه والقابسي نفسه فأرى الحق بجانبك في كثير من المواضع ، وأرى فيك من النصرة لقومك ما تشكرك عليه العروبة أطيب الشكر وما يثني عليك العلم به أحسن الثناء .

* * *

٢ — مرايا الناس

للسيدة وداد سكاكيني

مطبعة ومكتبة مصر — ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط

قرأت للسيدة وداد سكاكيني حفنةً من المقالات في تاريخ الأدب موزّعة بين صحف سوريا ومصر فلفتني منها شيئان : — قوة في التعبير ما كنت أتوقعها من امرأة كاتبة ، ومعرفة بالتاريخ الأدبي ترجحُ قوة أسلوبها وقوة تعبيرها ؛ فقلت في نفسي : سيُرجى من هذه السيدة للأدب العربي خير كثير .

وما أخطأني التوقع ولا كذبتني الفراسة ، فقد أخرجت المطبعة العربية مجموعة من القصص الصغيرة باسم هذه السيدة . وشاء فضلها أن تشرفني باهداء نسخة منها . وقد صنعت بي خيراً حينما فعلت ذلك . فما كنت أنتوي أن أحتجز لنفسي نسخة بالشراء ، لأنني مُعْرض عن قراءة كثير من القصص التي يكتبها الناس في هذه الأيام .

وأول ما زهدني في قراءة قصص كثير من قصاص اليوم استهتارهم باللغة والأسلوب استهتاراً يخشى منه الطغيان على النثر الرفيع . فلا تجد في كثير مما يكتبون إلاّ ارتطاماً في حمأة الجهل باللغة وأسرار الأساليب . وجل ذخيرتهم من الكتابة ألفاظ يديرونها ويقلبونها

كالببغاء ولا يعرفون مواضعها من الكلام لعجز في ثقافتهم اللغوية . فهي من حيث كونها ألفاظاً قائمة بذاتها — منتهبة من هنا ومن هناك . أما انزال هذه الألفاظ منازلها ووضعها مواضعها من الكلام فذلك ما لا يعنيهم ، لأنهم يحفظون ألفاظاً ولا يعرفون كيف يستعملونها : وذلك شر ما يمنى به الكاتب .

ويتبع الجهل باللغة جهل آخر بالنحو الصحيح . فاجراء الكلام عندهم على القواعد النحوية فيه تضييق عليهم ومضايقة لهم ، لأنهم لم يعدوا أنفسهم أو لم يعدهم تعليمهم للسلامة من أخطاء النحو .

وما رأينا اجتراء على الأصول كما يجترىء هؤلاء المتكاتبون ، وما سمعنا أن قاصاً في أي بلد من بلدان الله العاقلة يطلع على الناس بكتاب وأداته اللغوية ممطلة مفلوجة .

وشيء آخر زهدني في القصة العربية ، وهو خروجها على قواعد الفن القصصي الصحيح . فانك لتقرأ القصة الغربية فتعرف رأسها من ذيلها وترى فيها التحليل ومتابعة الحوادث والتشويق والعقدة والصدق في الاداء . ولا تنس الأسلوب فتجد في ذلك كله متاعاً ولذاذة.

وخير القصاص من جمع باعتدال بين صحة الأسلوب وقواعد الفن القصصي . فاذا طغى الأسلوب فهناك انشاء ولا فن ، وإذا طغى الفن فهناك قصة ولا أسلوب . . . ولقد كان في بداية توفيق الحكيم طغيان الفن على الأسلوب واللغة . إلاّ أنهُ أخذ يدلف في قصصه الأخيرة الى التقريب بين الاثنين . وهو سائر في ذلك الى غاية نحمدها له ويحمدها له الأداء العربي الصحيح .

وفي بداية السيدة وداد طغيان الأسلوب واللغة على الفن . وما في ذلك بأس أول الأمر. ففي ذكائها وحسن استعدادها ما يبشرنا بمقامها المحمود في عالم القصة .

ولا أحسبها من ذلك يائسة ولا خائفة . فقد عرفت من كلمة الأمير مصطفى الشهابي في تقديم كتابها أن نقده لكتابها الأول « الخطرات » كان أليماً على نفسها . إلاّ انه افادها وجعلها أكثر توفراً على اتقان فنها .

والحق أنها في هذه المجموعة الجديدة متقنة محسنة . وما أبرها وهي تصف بنات جنسها وتحنو على من لم تساعفهنّ الاقدار بالأمل المنشود عند كل فتاة . وفي قصة « هاجر » يبدو عطفها على هذه الفتاة التي راحت ضحية الأقدار . فظلّت على عنوستها بينما ظفرت أختاها بالزواج السعيد .

وقصة « الضرتان » تمثل المرأة الشرقية حينما تصبح ضرة فتتحالف مع عدوتها على زوج واحد يمثل العدو المشترك .

وجل قصص الكتاب يدور حول المرأة الشرقية في أدوار حياتها : فتاة كانت أم زوجة أم أرملة متعلمة كانت أم جاهلة . والمؤلفة في ذلك بارعة قادرة . وهل أقدر على وصف المرأة وتحليلها إلاّ امرأة مثلها ؟

والمرأة الشرقية هي المرأة في كل قطر شرقي ما دمنَ خاضعات لعقلية وتقاليد وبيئة تكاد تكون واحدة . وفي مصر والعراق وفلسطين كثيرات من أمثال هاجر والشيخة عطية وعطرشان وغيرهنَّ إلاَّ أن أسماء الأماكن ووصف بعض العادات يخلع على الكتاب ثوباً سوريًّا بحتاً ..

ولستُ مع من يرون في ذلك بأساً فالقصص العربي يجب أن يكون وحدة في أصوله . أما ما عدا ذلك من مميزات الاقليم وفروق اللباس وتباين العادات المحلية فلا بأس من اظهاره. فان القاصة الاسترالية المشهورة « مس هنري هاندل ريتشاردسون » تصبغ أدبها كله بصبغة استرالية موضعية ولم يمنعها ذلك أن تأخذ مكانتها في القصة الانجليزية .

على أن لتلك « المحلية » أثراً في الأدب العربي كله . فهي تصوير لبيئة هي جزء من الوطن العربي الأكبر ولقد أحسنت السيدة وَداد عرضها لمن لم تتح لهم الأقدار زيارة تلك الأقطار.

ومع حرص السيدة على التنوق في ألفاظها وأسلوبها ولغتها فان أخطاء قليلة وقعت في الكتاب لا بأس من الاشارة إليها . ولوَ أنها كانت ممن يستهين بالتوجيه أو يغضب للتصحيح ما حفلنا بتنبيهها إليها .

ففي ص ٢١ : العنوسة البغيضة . وفي كتب اللغة العنوس لا العنوسة

وفي ٣٩ : فرط بالشيء وهو يتعدى بفي . قال تعالى « ما فرّطنا في الكتاب من شيء »

وفي ص ٣٣ : كأنهن كلائكة . واجتماع أداتين للتشبيه في تشبيه واحد هو من عجيب الكلام . والصحيح : كأنهنَّ ملائكة .

وفي ص ٤٣ : عند أي عيلة تخدم . فهي تَستعمل العيلة بمعنى العائلة والأسرة .

والعيلة الفقر . قال تعالى « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله »

وفي كثير من صفحات الكتاب : يكاد أن . ووقوع أن في خبر يكاد أقل كثيراً من حذفها . وذلك في الشعر . أما في النثر فالأعلى حذفها . وقد جرى القرآن — وهو أفصح الكلام — على هذا . راجع سورة النور آية ٣٥ ، والنساء آية ٧٧ ، والأعراف آية ١٤٩ . وكثيراً غيرها . ولكنها في الحق هنوات لا تشوّه مراياك الصقيلة الجميلة التي فيها من صفاء ذهنك ونصوع فكرتك شيء كثير .

محمد عبد الغني حسن

تعقيب على نقد كتاب

فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية

تناول الاستاذ عبد السلام هارون الطبعة الثانية من كتابي هذا بالنقد فكان ذلك عناية طيبة مشكورة منه ، وقد أفدت من نقده الحق كثيراً ، إلاّ أني أستأذنه في كلمات :

١ — حين جعلت « مسكويه » مثلاً للأخلاق الفلسفية الصريحة اردت بذلك أنه كان صريحاً في اعلان أخذه عن الاغريق وتأثره بهم ، ولم أرد بالصراحة هنا ان مذهبه كان فلسفيًا صرفاً لا يشوبه شيء من الدين .

٢ — في الكلام عن العفة ، وهي فضيلة القوة الشهوية ، يذكر المؤلفون قديماً وحديثاً أنها وسط بين رذيلتين ، هما : الشَّرَهُ والخمود ، لا الشِّرَّةُ التي هي النشاط كما يقول الأستاذ . ذلك بأن الشَّرَه هو الرذيلة التي تكون من إفراط القوة الشهوية ، وهو رذيلة دائماً بينما الشِّرَّةُ أي النشاط ممدوح في أغلب الأحوال .

هذا ، وللأستاذ خالص الشكر والتقدير .

محمد يوسف موسى

البلاغة العصرية واللغة العربية

تأليف سلامه موسى — المطبعة العصرية — ١٤٨ صفحة مصقولة من القطع الصغير

الكاتب الكبير الأستاذ سلامه موسى رجل عوّدنا دائماً أن يفكر تفكيراً يستبق به عصره ، ويطفر طفرات واسعة الى الأمام تبدو غريبة للوهلة الأولى ، ولكن سرعان ما تثبت الأيام نجابة رأيه وعمق تفكيره . ومن تلك الطفرات التقدمية البارعة ، ذلك الكتاب الجديد الذي جاد به قلمه بعد أن آثر الانزواء زمناً ليس بالقصير ، وأعني به كتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » الذي فتح فيه الأستاذ سلامه فتوحات جديدة ونحا نحواً جديداً يحمل القارىء على أن يهزّ رأسه موافقاً مرة ، ويفغر فاه داهشاً مرة أخرى .

فقد دعا المؤلف الى « التميّع » في اللغة العربية بدل التجمد ، والى توقي الترادفات لأنها « ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت » والى التغلب على عقبة الاعراب في اللغة العربية لأن الاعراب « لعبة بهلوانية للذهن واللسان ولن نحسنها الاّ بعد ان نربي عضلات قوية تستجيب بسرعة » ودعا كذلك الى أن نجعل اللغة العربية لغة علم لا لغة وجدان ، أي أن تخاطب العقل لا القلب ، ودعا الى هجرة « أحافير اللغة » لأن اللغة التي تلابس المجتمع هي لغة السوق والمكتب والنادي والكتاب والجريدة لا لغة المعجمات التي تصان وتحفظ كما تصان لغة

الكهنة في المعابد عند المتوحشين . وقال ان اللغـة العربية ليست محددة ، فإن معظم كلماتها مسيبة في المعنى تحتمل هذا المعنى ونصفه ، فضـلاً عن معنيين مشابهين . ودعا الى التجديد الدائم المستمر في اللغة لأنها بمثابة النقود التي نتعامل بها ، وكثيراً ما يكون فيها النقد الزائف أو القديم الذي بلي وانمسح منه نقشه . واللغة الحيّة تتفاعل مع المجتمع فتنحط بانحطاطه وترتقي بارتقائه ؛ أي انها تتطور . وحين تتطوّر ينشأ بينها وبين المجتمع اتصال فسيولوجي ووظائف عضوية كما بين اليد والذهن ، كلاهما يخدم الآخر وينتفع به . ودعا الأستاذ سلامه إلى تعليم الطلاب أسلوباً اقتصاديّـاً مضغوطاً دون أن نحمّل التلميـذ عبء كلمات لا ينتفع بهـا في تفكيره العصري . وأنحى باللائمة على الذين يسعون إلى ترجمة التعبيرات والمصطلحات العلمية إلى اللغة العربية ، وقال ان في ذلك خروجاً على العرف المتواضع عليه في جميع أرجاء العالم ، ولا جدوى من إضاعة الوقت في محاولة تعريب المصطلحات العلمية ، لأن اللغة لا يمكن لها أن تعيش مستكفية لا تستمد التعبير الحسن من غيرها من اللغات . ثم قارن المؤلف بين اللغة العربية وزميلتها الانجليزية وأبان أن متعلم العربية يلاقي عقبات لا يلقى مثلها متعلّم الانجليزية . ومنها أن عدد حروف الكتابة تزيد عندنا على مئة حرف لأن لكل حرف شكلاً معيناً يتبع موقعه في الكلمة . وفي لغتنـا يجب أن نميّز الجنس . أما الانجليزية فلغة غير جنسيّـة . وثمة مشكلة أخرى في اللغة العربية ، وهي مشكلة تمييز الأرقام والتثنية ، ثم مشكلة الجمع والهمزة والتنوين والتصغير وغيرها من المصاعب التي تفوق الحصر .

وأعتقد أن الصديق الكبير محقّ في كثير مما دعا اليـه ، لأن التباين بين لغة الكتابة ولغة الحديث في مصر وفي البلدان الناطقة بالعربية كبير جداً يدعونا الى الاهتمام بالتقريب بينهما صيانةً للغة التي تهدف قبل كل شيء الى الفهم . ولتفسير ذلك يقول الأستاذ سلامة اننا ينبغي أن نصل يوماً ما في سائر الموضوعات الى لغةٍ تنقل الينا الفكرة الفنية أو العلمية أو الفلسفية بمثل الدقة والسهولة اللتين ننقل بهما الى أذهاننا عدد الألف أو الليون .

والحق أنني قرأت كتاب الاستاذ سلامة بشوق ولذة ، وأقبلت على درس ما جاء فيه من نظريات باهتمام أثارته في نفسي تلك الأفكار التي إذ أوحيت الى المؤلف عكف على تدوينها ونشرها . وكثيراً ما كنت أتوقف لحظات عند كل عبارة ، ولا أملك إلاّ أن أبدي اعجابي بحسن صياغتها مع دقة تعبيرها واصالة فكر كاتبها . وقد حدّد المؤلف في مستهل كتابه غايته من كتابته فقال ان مصنفه « بجميع فصوله هو بحث سيكولوجي في القيم اللغوية . وإذا كان هذا يجرّ الى أبحاثٍ أخرى اجتماعية أو طوبخية ، فان الغاية الأولى يجب أن تبقى ماثلة وهي اننا ننظر الى اللغة خلال العدسة السيكولوجية » . وأحسب أن هذا النهج جديد على اللغة العربية

غير أن الأستاذ سلامة لم يرد أن يختتم بحثه دون الاشارة الى مشروع معالي عبدالعزيز فهمي باشا الخاص بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية . فأثنى على المشروع وشايعه الى حد ما ووصفه بأنه قفزة واسعة الى الأمام . وإني وإن سلمت معه ان اللغة العربية ليس من السهل الوقوف على خباياها ولا من اليسير امتلاك ناصيتها ، إلاّ اني لا أميل الى ابتداع حروف جديدة للكتابة تزيد مشكلات اللغة تعقيداً . وإذا كان لا مناص لنا من استعمال الحروف اللاتينية ، فخيرٌ لنا أن نهجر العربية الى الانجليزية أو الفرنسية مثلاً ، من أن نحاول ترقيعها بحروف لا هي باللاتينية ولا هي بالعربية ، فنخسر العربية ونسيء الى اللاتينية .

وكتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » مكتظ بالآراء التي يحسن أن لا يمرّ عليها القارىء مرّ الكرام . فهو يتحدّى ويطلب النزال والصراع ، ويدعو جهاراً الى المصاولة والمبارزة . فلعلّ في هذه الاشارة ما يشحذ الأقلام لتفنيد آراء الأستاذ سلامه والانتفاع بها ، فهي ثمار لخبرة نصف قرن .

هذا وقد أهدى المؤلف كتابه إلى الأستاذ احمد أمين بك لأنه أوحى من حيث لا يدري بتأليف هذا الكتاب . فقد نشر الأستاذ احمد أمين مقالاً عن اللغة العربية في « الثقافة » واطلع عليه الأستاذ سلامه موسى ، فمنّ له أن يتوسع ويتبحر في شرح ما أوجزه الكاتب وخرج من هذا العناء بكتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » .

إنه كتاب جدير بالقراءة والدرس للمتعة والفائدة والاطلاع على ما فيه من توجيهات صائبة

وديع فلسطين

نفر - رس - إس

قصة بقلم سمو الاميرة شيوه كار — ترجمها عن الفرنسية الاستاذ اميل مراد

لصاحبة السمو الأميرة شيوه كار جهود موفقة في عالم الكتابة الى جانب الجهود العظيمة التي تبذلها في سبيل الخير ، ومنذ عام أو أكثر تناولنا في هذه المجلة كتابها النفيس عن جدّها العظيم محمد علي ، وها نحن نكتب عن قصة استوحتها من جلال التاريخ المصري القديم وهي تصور غرام الملك نى أوسر رع براقصة صغيرة .

وقد استطاع خيال سمو الأميرة أن يرسم في إطار جميل عهداً من عهود الفراعنة الزاهر أو على حد قول الأب دريتون « انطلق هذا الخيال حرًّا مصبوغاً بصبغة التاريخ القديم — هي قصة خيالية مؤثرة لأميرة سالفة تقصها أميرة حالية ، قصة خلابة كقصص ألف ليلة وليلة ولكن سياقها بسيط منسق كالرسوم الأثرية » . وقد ترجمها في أسلوب لطيف الأستاذ اميل مراد وأخرجتها دار المعارف في نسق مطبوعاتها الجميلة .

الروائع لشعراء الجيل

أصدر الشاعر الأستاذ محمد فهمي الجزء الأول من مجموعة الروائع لشعراء الجيل متضمناً نخبة من قصائد الشاعرين النابغين م. ع. الهمشري وأبو قاسم الشابي مع دراسة تحليلية لكل منهما وانه لما يشرف الجيل الجديد إن يضطلع شعراؤه بحمل رسالة الشعر العربي بعد شوقي وحافظ والزهاوي وأمثالهم من شيوخ الشعر وأعلامه. والمشاهد أن أغلب إنتاج المدرسة الحديثة في الشعر التي من أقطابها الشاعران م. الهمشري وأبو القاسم الشابي يتميز بطابع الشخصية والأصالة. فالشاعر الحديث قد تنحى شيئاً فشيئاً عن الوصف المباشر للبيئة والمجتمع الذي يعيش فيه كما كان المشاهد في أشعار أولئك الأعلام السابقين وجعل أكثر همه الانطواء على أحاسيسه النفسية والانصات إلى أعماق وجدانه حيث يتسمع صدى خطوات الزمن وأثر الهزات العاطفية، ثم يترجمها كما يحسها في هاتيك الأعماق لا كما تحدث في الحياة السافرة. وان قصائد النبي المجهول، وفي ظل وادي الموت، والصباح الجديد، وغيرها من شعر أبي القاسم لأبرز دليل. اسمعه يقول في النبي المجهول.

في صباح الحياة ضمّخت أكوا بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدّمتها اليك فأهرقت (م) رحيقي ودست يا شعب كأسي
فتألمت ... ثم أسكتّ آلامـي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضّدت من أزاهير قلبي باقة لم يمسها أي انسي
ثم قدّمتها اليك فمزّقت ورودي ودستها أي دوس!
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسي

وترى الهمشري يقول في قصيدته جنا الفاتنة: —

ها هو الليل قد أتى فتعالي نتهادى على ضفاف الرمال
فنسيم المساء يسرق عطراً من رياض سحيقة في الخيال
نضر المغرب الذكيّ رباها فهي تحكي مدينة الأحلام
نفحت في الخيال منها زهورٌ غير منظورة من الأوهام!

واستمع الى الشابي يقول في قصيدته صلوات في هيكل الحب: —

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصبـاح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد ...

وفي قصيدته في ظل وادي الموت:

نحن نمشي وحولنا هاته الأكـوان .. نمشي لـكن لأية غايه؟..
نحن نشدو مع العصافير للشمـس وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الـكون للمو ت ولـكن... ماذا ختام الروايه ؟

وفي قصائد الهمشري المُغرّد والعَـوْدة . واليَمامة . نشاهد إحساساً بالطبيعة وامتزاجاً بها هو في المدرسة الحـديثة نتيجة الفرار من دنيا الناس والعزوف عن ضجيج المجتمع والانصات الى الاصداء الهاتفة في قرار النفس . . والشاهد في مجموعة الروائع ان كلاً من الشاعرين الهمشري والشابي قد أطلق لخياله العنان يخلق ما شاء في أجواء متراميـة من الاحساس الطليق وفي شاطىء الاعراف للهمشري نرى قوة التخيل قد وصلت الى ابداع عالم ثان (عالم الموت) حيث يسترسل الشاعر في وصفه بمهـارة وقدرة حتى لتكاد تحسه وتستشفه بوجدانك فيقول في وصف شاطىء الأعراف (شاطىء الفناء) .

يستريح الزمان والموت فيـه بعد طول التطواف والجولان
وكأن الزمان خامره الخو ف فأضحى مع الردى في احتضان
وتلاشى به رويداً رويداً ثم أهوى عليـه كالوسنان
فاذا بالفنـاء يحـكم فرداً فوضويـاً على جلال المكان ...!

***

وتواتيـك أنـة وعويل من ظلام الـكهوف والغيران
أهي شكوى الأحلام يصرعها المو ت وشكوى مما تقاسي الأماني ؟
أم هي الروح تستغيث وتبكي من عدو في الموت ذي شنآن
أم هو الموت في الظلام يغني أم عزيف يدوي من الجنان ؟!

ان الرمزية الشائعة في الشعر الحديث المشوبة بالاحساس الرومانطيقي لتتجلى بأوضح بيان في أشعار أعلام المدرسة الحديثة واننا لو قارنا هذه الظاهرة الشعرية بما كان عليـه الشعر الانجليزي والفرنسي في القرن التاسع عشر لوجدنا تقارباً مدهشاً ولـكن لا عجب فهذه الفترات هي بلا شك فترات التحول العنيف في نفسية الأمم .

ان قصائد المديح والحفلات التي كانت شائعة في الشعر الى وقت قريب لتختفي في أشعار أعلام المدرسة الحديثة اختفاء يكاد يكون تاماً فلا تضم هذه الأشعار إلا كنوزاً من المشاعر والآلام والأشجان تتدفق في خلال السطور وتتفجر بها الألفاظ فتشيع في النفس فيضاً من الجمال والنشوة والتسامي .

مختار الوكيل

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

المخترعات العصرية مصدر ارتقاء المدنية

والراحة البيتية

ما من شك أن البيوت التي سوف تبنى حينما يستتب السلام ، في آفاق العالم ، ستبلغ مئات الملايين . ومن المحقق أنها ستحوي مرافق جمة ومعدات شتى من ثمار الحرب الحالية ، ولا غرو فقد أعاق استعار نيران القتال ، تشييد المنازل ، بيد انه لم يصدف ذوي العبقريات عن منتجاتهم الطريفة .

أشعة ما دون الاحمر (۱)

تجفف الدهانات وتدفىء القاعات والحمامات

وأول هاتيك المستحدثات ، مصابيح أشعة ما تحت الأحمر ، وهي المستعملة حالياً في المصانع الحربية لتجفيف الدهانات التي تدهن بها السيارات والدبابات الحربية ، وذلك في دقائق يسيرة ، بدلاً من وسائل التجفيف العتيقة ، التي كانت تقتضي ساعات كثيرة . وقد تساءل العلماء قائلين : « لماذا لا ننتفع بهذا النوع من المصابيح في بيوتنا وما المانع من كوننا نلحق كلاً منها بمرشح ضوئي ، ثم نركب مفاتيحها في بؤر الضوء الكهربي ، المثبتة في حيطان منازلنا ، وبخاصة في حجر نومنا وغرف حماماتنا ، لنقشع عنها قر الشتاء ، على الفور ! ؟ اننا لفاعلون ، إذن ، في القريب العاجل ، ولا عجب فقد تبين لنا بالتجارب التي قمنا بها ، أن في وسع كل امرئ ترك جميع نوافذ داره مفتوحة ، وان هبطت حرارة الجو الى درجة ٤٠ فرنهيت . ومع ذلك يظل جسمه دافئاً ما دام مغموراً بأشعة ما دون الاحمر التي تصدر من أجهزتها التي تركب في حيطان بيته وأرضية حجره

مواقد للطهي بأشعة ما دون الاحمر

ومن هذا القبيل مثال آخر هو كيفية قيام المصابيح التي استعملت في خلال الحرب الحاضرة ، بحل المشكلات التي تجبه الأنام في أزمنة السلام . وقد تكشف هذا الاختراع

---

(۱) هي الاشعة التي تصدر من الاجسام السخينة وهي خفية تحت الاحمر في الطيف الشمسي . وموجاتها أطول منها في الاشعة الحمر المرئية ، وذبذباتها أقل من ٤٠٠ بليون في الثانية . وأسهل وصف لها انها الاشعة غير المرئية التي تنبعث من المكاوي الساخنة التي تكوى بها الملابس .

حينما أسقط أحد العلماء ، بيضتين وبضع شرائح نيئة من لحم الخنزير ، على عدسة مقلوبة من عدسات الفانوس الأمامي ، ذي الشعاعة المحكمة الاغلاق لقاذفة من قاذفات القنابل للجيش الاميركي ، فنضجت البيضتان وشرائح اللحم في هنيهة . فاستخدام أشعة الضوء إذن في تعجيل الطبخ ، هو من المخترعات الحديثة التي سوف تعم مطابخ بيوت العظماء عقب انتهاء الحرب الراهنة الشعواء

إدخار حرارة الشمس نهاراً للتدفئة بها ليلاً

ولا يألو العلماء جهداً في إعداد المعدات العلمية التي تكفل تدفئة البيوت شتاء لسكانها ، وذلك بأساليب أخرى . إذ يقوم المهندسون المعماريون باستخدام حرارة الشمس لتلك الغاية حيث يستعينون على خزنها باستعمال نوافذ ذات ألواح كبيرة من الزجاج أو قوالب من الزجاج « على شكل قوالب الطوب » لبناء الحيطان المواجهة للجهة القبلية للبيت ، توخياً لاقتباسها جُلّ حرارة الشمس التي تنزل عليها ثم جعل سقوف تلك البيوت المرتقبة مملقة فوق المباني بهيئة جالون تخفيفاً للقيظ في فصل الصيف .

جهاز للتدفئة والترطيب الجويين

وقد نال أحد المخترعين امتيازاً باختراع جهاز للتسخين يستعمل للتبريد أيضاً وذلك أن حرارة الشمس تؤثر في ملفات الأنابيب الموضوعة في خزان في غرفة فوق سطح المنزل نهاراً . وللخزان مفاتيح اتوماتيكية تعكس العملية ليلاً . وينشأ هذا عن معادن ومواد كيميائية خاصة تخزن الحرارة أو الرطوبة في الخزانات بحسب الرغبة

تدفئة البيوت بالحرارة المشعة

ويتيسر انتفاع البيوت الجديدة بالحرارة المشعة ، التي تركب أنابيبها في باطن حيطانها أو تحت ألواح أرضية حجرها أو خلف وزراتها ، فيشعر المرء بالدفء الذي تولده ، دون حرارتها . وقد تكشف لخبراء صناعة الفخار أن أرضية البيت وحيطانه اذا كانت من الفخار المدهون ، سهل تنظيفها بقطعة نسيج مبللة بالماء ، وصارت أصلح شيء لتركيب أجهزة الحرارة المشعة .

التسخين بالصمامات الكهربية

أما التسخين بالصمامات الكهربية فقد سبق أن استعمل في الحرب الدائرة الرحى فهو إذن من الوسائل الميسورة ، غير أنه ما يزال فادح النفقات ، بحيث لا يمكن تعميم انتشاره . ومع ذلك فان جهاز ميجاثرم Megatherm الذي هو أقل استهلاكاً للتيار الكهربي ، من الموقد الكهربي ، يشوي شرائح اللحم في بضع ثوان ، وتقتضي هذه الطريقة تركيب مفتاح الجهاز في بؤرة التيار

الكهربي المألوفة . ثم وضع الطعام الزمع إنضاجه بين اللوحتين المعدنيتين المثبتتين في الجهاز نفسه .

جهاز يوقد بالبنزين فيدفىء ٢٠ حجرة

هذا وقد اخترعت للقوات المحاربة في حومات الوغى ، أجهزة صغيرة كثيرة قوية . وسوف تمد للبيوت حينما تنتهي الحرب الحالية . ومنها جهاز يقل ثقله عن ٢٥ رطلاً انكليزيًا ، يوقد بالبنزين فيستطيع تدفئة بيت مؤلف من ٢٠ حجرة

صناديق أوتوماتيكية للرسائل البرقية

ومن المخترعات العتيدة صناديق أوتوماتيكية للرسائل البرقية معدَّة لخدمة الشعب بحيث اذا اعتزم امرؤٌ زيارة قريبه أو صديقه ، أصبح في وسعه ابلاغه نبأ قدومه ببرقية . وما عليه عندئذٍ إلاّ الاتجاه صوب الصندوق الذي أشرنا اليه ، حيث يكتب رسالته المقصودة، ثم يضغط زرًّا مثبتاً في الصندوق، ويلقي في ثغرته القرطاس المدونة فيه الرسالة فتنقل صورتها مكتوبة طبق أصلها الى أقرب مكتب للتلغراف .

ثياب من النيلون Nylon

تمكن علماء الكيمياء في بضع السنين الماضية من انتاج ثمرة هي أينع ثمارهم وأعني بها النيلون ، وهو شعر من الشعور الصناعية الجديدة التي قوامها الفحم الحجري والهواء والماء — اذ أنتج الكيميائيون من هذه العناصر العامة الجزيلة ، شعراً لا يبعد أن يصير منافساً قويًّا للحرير الطبيعي . وقد نسجت من هذه المادة جوارب ، كادت تبلغ الهدف الذي كان ينشده مخترعو المنسوجات ، وهو صنع جورب شفاف مزدوج الخيوط ، ينافس الجورب المثلث الخيوط متانة ، والنيلون أول مادة صالحة للاستعمال في ميدان الشعر الصناعي ، الذي يستخرج من المواد غير العضوية . أما سائر الشعور فتتركب من المواد العضوية أي المواد المتخذة أصلاً من الأحياء ، نباتات كانت أو حيوانات . ويتسنى مدُّ النيلون خيوطاً أدق من خيوط الحرير الطبيعي . ومظهره وملمسه يشبهان حرير دود القز ، ولكنه أمتن منه وأشد مرونة . وأضحت الغانيات يكتسينَ من قمة الرأس ، الى أخمص القدم ، بمنسوجات النيلون ، ويتظللنَ بظللٍ منه ويتقبعنَ قبعاته ويتدثرنَ بمعاطفه وقايةً من المطر . ثم يحتذينَ أحذية منه، نعالها من المطاط الصناعي، وكعوبها من العجائن الكيميائية . وستغدو بنائق النيلون المطوية من أحدث الأزياء للنساء فلا يضطررنَ الى كيها من حين إلى آخر، بل يكتفينَ بضغطها بأيديهنّ لازالة ما يطرأ عليها من التغضن (الكرمشة) ، وستكون ملابسهنّ مقاومة للبلل والتجعد ، إذ تعالج بمواد تقيها الاحتراق وتكسبها متانة مثلها في بنائق قمصان الرجال

وأكمامهم التي تتخذ من نسيج النيلون أيضاً فتعيش زمناً يفوقه في سائر الثياب . وسيأتي يوم قريب جداً يلبس فيه الرجال كذلك قبعات لباد من نسيج اللبن . وستحدث تطورات في الأزياء تفضي الى جعل الغيد يتخذن من شعر النيلون حشوات لشعورهن بدلاً من فروعهن ، فيظهرن بمظهر أنيق جذاب يبذ شعرهن الطبيعي .

العجائن الكيميائية وغيرها في الدور العصرية

وأصبح في وسع صاحب السيارة حينما يقصد إلى بيته مسرعاً مخترقاً طريقه المعتاد أن يجعل المصابيح الأمامية لسيارته عند بلوغه داره ، توقظ العيون الكهربية المركبة فيها ، فتضيء له مستودع سيارته وتقرع جرس بابه فيفتح له . وكذلك تقوم العيون الكهربية بفتح الباب الأمامي للمسكن فاذا أتيح لك ولوج مثل ذلك البيت المجهز بهذه المخترعات المدهشة ، استرعت أبصارك رياشه العجيبة التي لا تؤثر فيه تقلبات الجو وهي من المصنوعات التي اخترعت في غضون الحرب . ومن مميزاتها انها لا تتجعد وان هطل عليها المطر مدراراً، بل تزداد بهاءً . ولا يؤثر فيها الحر ولا الحشرات . وهناك تشاهد أيضاً « سدف » من نسيج لا تؤثر فيه النيران وحجباً « برفانات » لا يؤثر فيها الصدأ لكونها مصنوعة من العجائن الكيميائية ومدهونة بدهانات ملائمة لألوان حيطان البيت ، وهذه الصبغات أيضاً من العجائن الكيميائية . وفي حجرة الاستراحة تجد مصباحاً تنبعث منه أشعة ما وراء البنفسجي لابادة ما عساه يكون قد علق بثيابك من جراثيم الطريق . ثم تشاهد منضدة فوقها مصباح آخر من الألومنيوم فيروقك منظره فتبادر الى فحصه . (ولا يخفى عليك أن هذا الفلز سيصير بعد انتهاء الحرب ، أكثر المعادن انتشاراً وأزهدها ثمناً) ومبعث الاضاءة في ذلك المصباح اداة على شكل نعل الفرس بدلاً من الفتيلة المألوفة . فيصدر منه ضوء متألق ، فتوقن حينئذ أن النقل اللاسلكي للتيار الكهربي ، قد غدا حقيقة ثابتة . وسوف تكون غرف الدار رحيبة ، وربما يخيل اليك أنها أرحب من حقيقتها . وذلك نتيجة المباحث التي اضطلع بها المخترعون في زمن الحرب لتنسيق أثاث البيوت ، إذ اخترعوا منسوجات توشى بها الحيطان للزينة تشع منها اضواء معتدلة التألق ، فاذا خطر لك التحقق منها ، ففحصتها عن كثب ، تبين لك أنها نسيج من شعر الزجاج ، وهو خيوط دقيقة لا تحترق ولا تتمدد ، سهلة التنظيف بخرقة مبللة بالماء ، لتزيل ما يلتصق بها من الغبار وآثار الأصابع .

ومن العجائن الكيميائية يصنع نوع من خشب البلاكاش ، تتخذ منه أفاريز وخدورات للحيطان تفوق الفولاذ متانة .

وكذلك تصلح العجائن الكيميائية لصنع ورق لتغطية الحيطان البيتية فتروق الناظر اليها . واذا أمعنت في استجلائها ظهر لك أنها مغشاة بغشاء رقيق شفاف من العجائن الكيميائية ، يسهل تنظيفه بالماء والصابون . وقد تبصر صندوقاً مزخرفاً مستنداً إلى إحدى زوايا الحجرة ، فتظنه جهاز الراديو المبصر الجديد ، ذا العدسة المصنوعة من العجائن الكيميائية التي تعرض منها المشاهد على ستار مربع مساحته ٦ × ٦ أقدام فاذا فتحته اتضح لك انه جهاز خشبي مقشوط مزخرف وضع في قاعة الاستقبال خصوصاً للمشروبات المرطبة

الزجاج اللين والاثاثات العجينية

واذا خطر لك بعدئذٍ أن تطل من نافذة فاتكأت عليها ، لتتأمل هطول المطر حينئذٍ ، رأيت النافذة تنحني تحت ساعديك ، فيستولى عليك الذعر ، حتى توقن أنه الزجاج السحري المتين الذي يتاح حنيه إلى درجة ٢٠ دون تحطيمه . واذا عمدت الى بحث كنه أثاث البيت ، تبين لك أنه مجموعة متناسقة من العجائن الكيميائية الشفافة وألواح زجاجية ومصنوعات من الاليومينيم . ولا تلبث ربة الدار أن تخف الى إفائك معتذرة عن غيابها فتصارحك القول انها كانت مشغولة بطهي العشاء وغسل الكساء وتغذية الطفل . وانها تؤدي هذه الأعمال جميعها في آن واحد . ولا يبعد أن تشك في صدق أقوالها ولكنك إذا أردت معرفة اليقين فرافقتها الى حجرة أطفالها ، شاهدت هناك خزانة فيها مصباح لأشعة ما فوق البنفسجي لتطهير زجاجات الرضاعة من الجراثيم التي تغشاها .

جهاز البريسيبيترون Precipitron وتكييف الهواء

ثم ترى جهاز البريسيبيترون لتنقية الحجر من الغبار ولتطهير حلقات المطاط اللينة التي يمصها الأطفال . وكذلك كرسي اللعب المنتفخ بالهواء . وهو من المخترعات التي اقتبست من أطواف المطاط الخاصة التي تستعملها قوات السلاح الجوي . ثم تنتقل بك ربة الدار الى غرفة نوم الضيوف حيث تجد آلة غريبة الشكل فتظنها أول وهلة جهاز صقل الأرضية مودعاً في زاويتها ، فتؤكد لك مضيفتك من فورها أن ما تراه إنما هو جهاز متنقل لتكييف الهواء .

حشايا البابلفيل Bubblfil

وإذا رقدت على السرير ، ألفيته ، ثابتاً كل الثبات ، وثيراً جداً ، فلا يسعك إلاّ ابداء إعجابك به ، فلا تلبث ربة الدار حتى تنبئك أنك جالس على حشية البابلفيل وهو نوع من السيلوفان Cellophane « الورق المتين الصقيل الشفاف الذي تلف به علب السجائر وغيرها » منفوخ بالهواء ، يشبه جاكتات الانقاذ المستعملة في الحرب الراهنة وهو يحل محل الاسفنج الطبيعي

مطابخ خالية من الخدم

أما المطابخ الخالية من الخدم فحدّث عنها ولا حرج حيث يوجد فيها خزائن مبنية في الحيطان لخزن مواد الطعام المختلفة . وثمة جهاز لتبريد الأطعمة ، تبلغ مساحته ١٢ قدماً مكعبة ، يتصل بالسقف الداخلي للمطبخ ويحتوي على أغذية مبردة محفوظة في علب ، وذلك على رف علوه ست أقدام . أما الخضراوات وقناني المحفوظات ففي قعر الجهاز.

ثم إن اطارات النوافذ التي تصنع من الأليومينيم ، وكذلك إطارات ألواح الزجاج التي تتخذ من المعدن نفسه ، وكذلك شيش النوافذ الاليومينيم ، تزيد رونق الحمامات العصرية كما يزداد رواؤها بنظافتها وبجمال رفوف اللوسيت Lucite الشفافة التي تجفف عليها المناشف ، وبأطباق الصابون التي تصنع أيضاً من هاتيك العجائن الكيميائية .

وفي المطبخ جهاز آخر لتكييف الزبدة ، ابتغاء الاحتفاظ بها غضة . وفي جهاز التبريد أيضاً مصباح صغير من طراز Sterilamp. استريلامب لأشعة ما وراء البنفسجي ، وذلك لتليين اللحوم النارزة .

ويجهز المطبخ أيضاً بجهاز لاراحة ربة الدار من العناء ، إذ يقوم بتقديم الطعام وغسل الأطباق حيث يوضع الطعام الساخن في قسم التسخين والطعام البارد في قسم التبريد وتوجد الأطباق التي غسلت بعد آخر وجبة الطعام في القسم الخاص بها . ولذلك يحوّل هذا

الجهاز المتحرك ، على عجلاته ، الى السفرة حيث يقدّم الطعام على الأطباق التي يحملها . وبعد انتهاء الأكل يعاد وضع الأطباق في تلك العربة ثم ترحّل الى المطبخ حيث يشرع الجهاز الغسّال في غسلها .

هذا وقد تمّ صنع مجموعة أدوات مطبخ بأسرها من الفولاذ الذي لا يصدأ . ويحتوي جهاز مزج السوائل الذي يركبُ في باطن حائط المطبخ ، على آلة لتقشير البطاطس . ثم إن لوحة كي الملابس الصغيرة المستترة في الحائط ، مغشاة بطبقة من الازبستوس Asbestos وهو نسيج معدني لا يحترق ويستعمل في أزمنة الحرب لتغشية ثياب مطفئي الحريق في السفن التي تحمل الطائرات. وصناديق الخبز والكعك تشبّع بمادة الميكوبان Mycoban لمنع تعفن محتوياتها . وتصنع الآن أباريق شفافة للشاي من العجائن الكيميائية ، فيستطيع الذي يحضر الشاي أو شاربه التيقن ، هل افرزت أوراقه إفرازاً تامّاً أو ناقصاً . وتركب على بالوعات المطابخ آلة كهربية تتصرف فيما يصل الى البالوعة من فضلات الطعام وقامات الدار .

وبعض هذه المخترعات التي سردناها ، هو من الأشياء المرتقبة بعد أن تضع الحرب الراهنة أوزارها . وهي باهظة الثمن حالياً ولكن أسعارها ستنخفض حينما يشتد الاقبال عليها ؟ ويتسع نطاق صناعتها .

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع بعد المائة

١ اغسطس سنة ١٩٤٥ — ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٤

العلم والفلسفة

في عالم واحد

أسلوب العلم

كان غرض رجال العلم الى مستهل هذا القرن ، أن يكشفوا نواميس الطبيعة العامة . وكان اسلوبهم أن يجرّبوا التجارب المحكمة المضبوطة وان يراقبوا نتائجها ، فاذا أعيدت التجارب في نفس الأحوال التي أحاطت بها حين أجريت اولاً ، وأفضت الى النتائج نفسها ، اتخذت تلك النتائج ، على انها حقيقة علمية .

وكان العالم ، يستند الى نتائج تجاربه ، أو الى علم من سبقه في وضع نظرية أو تعليل لتلك النتائج . وقد يكون التعليل في مبدإ الأمر ، « فرضاً » او «حزراً» ، ثم يمضي في امتحان فرضه او حزره بتجارب أخرى . فاذا خلص من ذلك الى نظرية ترضيه وتتفق معها جميع الحقائق المعروفة ، حكم بأنه وصل إلى حل المشكلة التي يبحثها-اي ادرك الغرض من بحثه الخاص

والنظرية الصالحة ، هي النظرية التي لا تقتصر على تعليل الحقائق المعروفة وحسب ، بل تنطوي أيضاً على تمكين العالم من استكشاف المجهول أو جانب يسير منه ، أو معرفة النتائج التي قد تسفر عنها تجارب جديدة لم تجرب بعدُ . والفائدة الأولى التي تجنى من نظرية صالحة هي هذا : تمكينها العالم ان يتكهن بنتائج تسفر عنها تجارب لم تزل في طيّ الغيب. وما علينا إلاّ أن نلقي نظرة على ما تم نيوتن العظيمة وكيف مكنت أقطاب الطبيعة الرياضية ، من تطبيق

نواميس الحركة التي كشفها نيوتن ، على الاجرام السماويه ، وكيف أتعمم هذا التطبيق بأن جميع الظواهر الطبيعية مربوطة بعضها ربطاً محكماً برباط العلة والمعلول . فاذا عرفت سرعة الاجرام السماوية ومواقعها وكتلها ، ففي وسع العالم أن يحكم حكماً دقيقاً أين يكون موقعها في أي زمن في المستقبل . ففكرة « السببية » أو «العلة والمعلول» ما فتئت مغروسة في أذهان الناس منذ عهد بعيد وليس ما يحمله المجرم من تبعة أعماله ، ولا الايمان بقيمة التعليم والتربية ولا الكثير من الألفاظ في شتى اللغات ، سوى نواحٍ من دليل راسخ على ايماننا بالعلة والمعلول . وكل العلم المأثور عن القرن التاسع عشر كان الى مستهل هذا القرن ، مؤيداً لفكرة « السببية » في فهم الظواهر الطبيعية .

وأما الفلاسفة الذين يتخذون لفكرهم ميادين شتى غير ميدان العلم ، فكانوا مختلفين رأياً ومنهم من ذهب إلى أبعد حد ، في قوله ان كل شيء قد أرسي على وضع لا يتبدَّل منذ كان الكون ، وان الاختيار وحرية الارادة أمرٌ مستحيل . وذهب بعضهم إلى أن صلة العلة والمعلول بين الظواهر والأشياء ليست إلاَّ وهماً من الأوهام .

وقد كان ميدان العلم في نظر علماء القرن التاسع عشر ، ميداناً غير محدود . وكان من العلماء من يرى أنه اذا بلغ علم الرجل بظواهر الطبيعة الكونية والبشرية مبلغ الكمال ، ففي وسعه أن يحكم حكماً دقيقاً ، حتى على مستقبل شؤون الناس . وقد قال امبير — مثلا — انه اذا علمنا مواقع جميع الذرات في الكون وسرعة كل منها ، كان في وسعنا — من الوجهة النظرية — ان نعلم مستقبل الكون قاطبة . ولكن تحقيق ذلك من الوجهة العملية مستحيل ، لأننا عاجزون عن ان نظفر بهذه المعرفة الكاملة الشاملة ، وليس في الزمن متسع للقيام بكل العمليات الرياضية التي يقتضيها مثل هذا التكهن .

المعادلة نموذج

ولم يلبث العلماء حتى أخرجوا للناس نظرية الحركة في الغازات وبمقتضاها تتحرك جزيئات الغاز حركة سريعة ، ويصدم بعضها بعضاً على الدوام وقد وجدوا أنهم يستطيعون أن يدركوا « تصرف » الغاز اذا بنوا تقديرهم على معدل حركة جزيئاته ، ولم يكن يهمهم الحركة الخاصة بجزيء مفرد بل كان يهمهم معدل حركة عدد وفير من الجزيئات ، أي أدركوا ما للاحصاء من قيمة في العلم الطبيعي ، لا تختلف عن قيمته في شركات التأمين .

والنظريات العلمية تفرغ عادةً في قالب نموذج نستطيع أن نتصوره . والعالم لا يعمد على الغالب الى التفكير في هذا الجهاز الضخم المعقد الذي هو الكون ، بل يختار من عناصره ما هو

أدنى إلى عنايته ، ويحصر ذهنه فيه . ومن هنا ما عمد اليه الكيميائي — مثلاً — من وضع النظرية الذرية ، فقال ان كل المادة في الكون مؤلفة من ذرات أنواعها متعددة كتعدد العناصر. وكان الرأي أنها كرات صغيرة ، ولكن لم يعن أحد بالقول في المادة التي تتألف منها هذه الكرات . فلما خرجت النظرية التالية ، القائمة على أن الذرات مؤلفة من كهربات سالبة الشحنة ، ونوى موجبة الشحنة ، لم يجد الكيميائي ، في هذا التطور شيئاً يلزمه أن يغير رأيه الأول ، لأنه في الدائرة الخاصة التي يعنى بها ، لم يكن تركيب الذرة نفسها شيئاً يحتاج الى معرفته.

وإننا لنرى المدرسين في كثير من المدارس يطلبون إلى الصغار من تلاميذهم أن يصنعوا نماذج للطائرات . ويجب أن تكون هذه النماذج ، مطابقة في شكلها العام ، لأصناف الطائرات المعروفة ، حتى يتسنى لمن يرى النموذج ، أن يتبيّن الطائرة التي يمثلها ، اذ كان يعرف تلك الطائرة . وليس يهم الصغير ولا الكبير ، أن يكون النموذج من خشب أو ورق مقوّى أو غير ذلك .

ومعظم النماذج التي يصنعها العلماء لأغراضهم العلمية ، هي نماذج ذهنية أو صور عقلية . فلما وضع مكسويل النظرية الكهربية المغنطيسية ليفسر بها خواص الضوء ، فكّر في وسط تعبره هذه الأمواج الكهربية المغنطيسية . فدعي الوسط « الأثير » . وكان الرأي أن خواصه كخواص الجسم الصلب المرن . والباعث على صنع هذا « النموذج » الذهني للأثير ، أو على تشبيه الأثير بالجسم الصلب المرن ، هو أن العلماء في عصر مكسويل ، كانوا معنيين عناية عظيمة بنظرية المرونة في الأجسام الصلبة . فالمجال الكهربي والمجال المغنطيسي يُفهمان أو يقرّبان من الأذهان ، باتخاذ نموذج مفهوم من الصور الشائعة . أما في هذا العصر فيندر بين طلاب العلم من يعرف شيئاً كثيراً ، أو من تعمق في دراسة مرونة الأجسام الصلبة . ولذلك انقلبت الآية . فصار العلماء يفسّرون خواص المرونة في الأجسام الصلبة ، بما يعرف عن القوى الكهربية بين الذرات التي تتألف منها تلك الأجسام .

وكل طالب من طلاب الهندسة المسطحة ، يصنع نموذجاً في ذهنه ، كلّما فكّر في مثلّث . ولكن ليس لأضلاع المثلث، عرض ولا ارتفاع . فحين نصنع هذا « النموذج » في الذهن ، أو على الورق ، نجرّده من كل صفة إلاّ الصفات التي يهمّنا أمرها .

وليس ثمة من يجهل أن معظم نواميس الطبيعة يفرغ في قوالب معادلات رياضية ولكن المعادلة الرياضية ، هي أيضاً نموذج من نوع خاص .

والصفة الأصلية التي يتصف بها النموذج . هي أن يشبه في بعض النواحي المطلوبة ، حالة جعلناها موضع نظر وبحث . وهذا يعني أن كل نظرية تقريباً ، تنطوي على شيء من التحكم،

وأنها مقيدة بطائفة من القيود ، نفرضها عليها رغبتنا في أن تكون الحال على حالة معينة دون حالات أخرى .

وقد شهد المشتغلون بالعلم ، انقلاباً خطيراً في الثلث الأول من القرن العشرين ، يستند إلى نظرية اينشتين في النسبية ونظرية بلانك في مقادير الطاقة (كونتم) . وعسى أن تكون أهم ناحية في هذا الانقلاب ، امتناع العلماء عن الايمان بأن للألفاظ والصور الذهنية ، معاني مطلقة . فالعالم لا يعنى بمسألة الوجود . وهو لا يسأل : « أثمة للذرة وجود حقيقي »؟ . وانك لتفتح معجماً فترى تعريفاً — أو على التدقيق بعض تعريف — للذرَّة . وأما مجموع ما يعرف عن الذرَّة ، فعند العلماء المتوفرين ولم يتقدم أحدهم بتعريف جامع مانع . ثم ماذا تعني لفظة « الوجود » ؟ . إنها من مسائل ما وراء الطبيعة ، والعالم الحديث لا يهتم — في نطاق علمه الخاص — بشؤون ما وراء الطبيعة . ثمَّ لا بدَّ في العلم من وصف دقيق محكم لما يحدث ، فاذا ذكرت « الطول » و « الزمن » لم يكن لهما من معنى على الإطلاق ، إلاَّ إذا اتفق العلماء على الأساليب التي يجب أن تتبع في قياس المسافة والوقت .

الاحصاء والاحتمال أساس

وقد انقضت سنون كثيرة ، منذ طلع بلانك واينشتين بنظريتيهما بدا خلالها أن التوفيق مستحيلٌ بين « نظرية المقدار » وعلم الطبيعة المأثور عن القرن التاسع عشر . ولكن حين تقدَّم هيزنبرج وبوهر ، بمبدإ عدم التثبت زال هذا التناقض . وجوهر هذا المبدإ ، أنك لا تستطيع أن تقيس قياساً دقيقاً موقع دقيقة أصيلة من دقائق المادة ، وسرعتها في آنٍ واحدٍ . في وسعك أن تقيس سرعتها ، أو تعين موقعها ، ولكن أن تحدّد الاثنين كليهما في آنٍ واحدٍ ، أمرٌ مستحيل . فانهار الأساس الذي بنى أمبير حكمهُ عليه ، من أن معرفة مستقبل الكون ممكنة ، إذا علمنا سرعات جميع الذرات ومواقعها وكتلها . فكتلتها تتغيَّر وفقاً لسرعتها ، ومعرفة سرعتها وموقعها في وقت ما شيءٌ مستحيل .

فاذا أخذنا بمبدإ « عدم التثبت » — وقد قبله علماء الرياضة والطبيعة — كان جلُّ ما نستطيع أن نقول عن حركة أية ذرية في المستقبل ، هو : ان هناك احتمالاً كبيراً أن تكون كذا وكذا . فالاحتمال الرياضي أصبح عنصراً أصيلاً في كل حساب . وبتغيير الأحوال التي تحيط بكل ذرة ، كتغيير الطاقة التي تؤثر فيها في لحظةٍ ما ، يتغير ذلك الاحتمال . وقد يبلغ الاحتمال مبلغاً عظيماً ، فكأنه والحتم سواء . ولكنه ليس دائماً كذلك .

فأسفر هذا التطوُّر الخطير في علم الطبيعة الحديث ، عن انه كاد يقضي على « السببية » أو « العلة والمعلول » .

من الطبيعي أن يسأل إذ لم يكن ثمة «علة ومعلول» فكيف تمكن ادراك الطبيعة في القرون الماضية منذ نيوتن ، من استكشاف نواميس الطبيعة وصياغتها هذه الصياغة الدقيقة المحكمة ، التي تصدق على أحوال الكون ، وتمكن العلماء من التنبؤ بالأحداث المقبلة ، كالكسوف والخسوف وما أشبه ؟ والجواب البسيط عن هذا السؤال هو أن الطبيعي القديم اختار لدراسته من شؤونه من ميادين البحث التي يرجى له فيها أعظم نجاح . فقد كان غرضه العام أن يكشف نواميس الطبيعة العامة . فدبر أمر تجاربه على وجه يمكنه من كشف النواميس التي تتحكم في الأشياء التي كان يبحث عنها . وقد تمكن من إدراك ما يريد ، باشتغاله بظواهر تتوقف على عدد عظيم من الذرات ، لا على ذرات مفردة وحسب . ففي تلك الحالة . تسوّى الفروق بين الذرات المفردة ، ويظفر الباحث بمعدل ينطبق على المجموعة الكبيرة من الذرات . أي انه يعالج الاحتمال لمجموعة كبيرة من الذرات ، كما يفعل رئيس قسم الاحصاء في شركة تأمين . فهذا الرئيس لا يستطيع أن يعلم مدى عمر فرد مؤمّن على حياته ، ولكنه يستطيع أن يعلم — إلى حدٍّ دقيق — مدى عمر جماعة من المؤمنين ، من طبقةٍ واحدةٍ من العمر ، وعلى أساس هذه المعرفة ، تبنى جداول التأمين وتقرر الأقساط لكل مؤمن ، وقلما تخطىء الشركة خطأً كبيراً ، ولو فعلت لأفلست .

عناق العلم والفلسفة

هذه الناحية من التطور الأصيل في أركان العلم وقواعد أسلوبه أوسعت التقارب بين العلم والفلسفة . ففي العصور القديمة ، كانت المعارف الانسانية قليلة التنوع . فكان حكماء الاغريق القدماء ، أو العرب منذ ألف سنة ، فلاسفة ومصلحين ورياضيين وطبيعيين وأطباء أحياناً ، وكان بعضهم علاوة على ذلك ساسة او جنوداً او تجاراً . فهذا دليل على وحدة المعرفة ، أو على وحدة المعرفة والعمل .

وقد كان طبيعياً ان تكون المعرفة وحدة غير مجزأة ، ما كانت العلوم في مهدها . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض ، وتتحيز مباحثها إلاّ في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها . وقد كان من أثر وحدة المعرفة ، والصلة الوثيقة بين العلم والفلسفة ، في عقول العباقرة ، أن طفرت الفلسفة إلى الأمام في عهد الاغريق وبعدهم .

فلما انشقت الهوّة بين العلم والفلسفة ، أصبح العلم متصلا أوثق اتصال بالعقل المجرد ، قائماً عليه ، وأما شؤون السلوك وأدب النفس ، فالعلماء قالوا إنهم لا يعنون بها في بحوثهم ولا يعدّونها جزءاً من غرض العلم ، ولا يمكن قياسها أو وزنها بأسلوب العلم . فلما تمت للعلم سلسلة

من الانتصارات باهرة ، تمهدت السبيل لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكياً مادياً وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة ، لأن الشيء لا يكون حقيقياً إلاّ اذا كان كالمادة مما تدركه الحواس ، ولو كان الادراك نظرياً كادراك الكهيربات . وظلت هذه النظرة سائدة — على تفاوت في سيادتها — الى أوائل القرن العشرين .

أما وقد أصبحت المادة — في نظر طبيعة القرن العشرين — خليطاً من الزمان والمكان والتموّج ، فالأساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب أن تنطبق على خواص الأشياء كما تدركها الحواس ، فليس ثمة حائل يحول دون حسبان ما يوحي بهِ الاختبار أو حسّ الجمال ، في عداد الحقائق . وكذلك مُهّد الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفياً جديداً .

وقد كانت النتيجة الأولى التي أسفر عنها هذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة يبحثون أحياناً عن حلول لمشكلاتهم الخاصة في المناطق التي وراء علم الطبيعة المأثور ، والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء ، استرعتهم أساليب العلوم ونتائجها وإننا لنرى فلكيين وطبيعيين ورياضيين من مقام ادنغتن وجينز وبلانك واينشتين ومليكن لا يحسبون عالم المادة ذا كيانٍ مستقلّ عن العقل ، وموقفهم هذا نقيض موقف أسلافهم في النصف الثاني من القرن الماضي ، إذ كانوا يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكلٌّ ما عداها شبحاً من الأشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو أبعث على العجب إذ نعلم أن المادة كانت في نظر السابقين خاضعة خضوعاً أعمى للنواميس الميكانيكية ؛ ولكنها كما بيّنا في هذا الفصل متصفة بنوع من حرية الإرادة وفقاً لمقتضيات مبدإ عدم التثبت . والفيلسوفان وايتهيد ورسل يعلّقان على هذه الناحية من خواص المادة شأناً خطيراً .

ومن نتائج هذا التحوّل ، وأثره في علوم الاحياء أن الحياة لا يمكن أن تكون نتيجة لأفعال المادة الجامدة وحسب ، سائرة سيراً أعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيءٌ أساسي مبدعٌ ولها قصدها الخاص ، ومن هنا نشأت فلسفة التطوّر المبدع أو الخالق ، وفلسفة البزوغ ، وأقطابهما برجسون ووايتهيد والكسندر وغيرهم .

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية من أعظم آيات الحياة الفكرية في هذا العصر ، فليس أحدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، بل هما عضوان حيّان في جسم حيّ واحد هو جسم المعرفة الانسانية .

فؤاد صروف

التاريخ عمل انساني

بحث في المدنية الغربية وقلبها التاريخي

شبه مجرى التاريخ بنهر عظيم ، ينبع من مصدر قديم ضارب في مطاوي الزمن ، متخذاً مجراه في سهول أسيا [1] ، ماضياً برفق وهوادة خلال القرون ، مستجمعاً مياهه من روافد جديدة اتصلت به على الطريق ، حتى إذا ما بلغ عصرنا الحاضر ، اتسع بعضه . وفاض بقوة فغمر الدنيا بأسرها .

من الناس من جسّد هذا الفيض ، وجعل له شخصية وذاتية ، وفرض له ارادة خالقة تتجه نحو النشوء والتطور ، متبعة سنتها الخاصة بها ، نازعة نحو بلوغ غاية مقصودة معينة.

تكلم هؤلاء فيما سموه منطق الآراء ، واعتبروا الانسان والمدنية بمثابة أدوات سلبية ، سخرها ذلك « الموجود العظيم » ، للوصول الى غاياته . غير أن الباحث الذي يأخذ بزمامه مثل هذا التفسير لسير التاريخ ، يصعب عليه استبانة شيء من ذلك السوق الهادىء المنظم في الحوادث التي اعتورت الانسانية ، ويشعر ، فوق كل شيء ، ان اعتبار الانسان أداة سلبية صنعت بها الاشياء ، وبلغ بها الى الغايات ، إنما هو في الواقع تزييف صرف لحقيقة ثابتة ، حقيقة ان الانسان هو الذي صنع التاريخ ، وأن التاريخ لم يصنع الانسان .

لقد شيد الانسان المدنية ، واستقصى بصبر بالغ وجهد وافر ، كل طريق يصطنع به المستحدثات والاشياء ، ونصب كل النصب عاملاً مجداً في استنباط كل رأي واستخلاص كل فكرة نعتبرها اليوم جزءاً من ميراثنا عن الأزمان السالفة . عمل الانسان عملاً متصلاً متأثراً بالبيئة التي حوته ، وبقدر ما وصل الى يده من الوسائل ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة وسلالة سلالة ، ولا أثر لموجود كلي يقال له « الانسانية [2] » فيما بنى وشيد ، وأثث ونجد.

إن المعتقدات والمثاليات التي تعيش عليها الدنيا الجديدة في العصر الحاضر ، وبمقتضاها

---

(١) اشارة الى ان الانسان نشأ في أسيا

(٢) « الانسانية » هنا يقصد بها موجود كلي يقول به الغيبيون . والقول بوجود الكليات مذهب [illegible] يقابله مبدأ فلسفي آخر ينفيه ، هو القول بعدم وجود الكليات .

تعمل ، ليست هبة من الآلهة ، كما جرت على ذلك الأسطورة القديمة ، وإنما هي نتاج جهد بذله أجيال متعاقبة .

وهي فوق ذلك ليست نتيجة تجمّع بطيء متصل الأثر . ككرة الثلج كلما زدتها ثلجاً زادت حجماً وتكوراً . فإن أنماً برمتها وسلالات بجملتها ، قد جهدت ما جهدت في استنباط آراء وقضايا عقلية ، ثم اختفت من الوجود ، غير مخلفة في عقول القرون المتأخرة غير أثر تافه . ومما تبقى مما خلف هؤلاء ، تلقفه جماعات أخر وأمعن فيه النظر وأدمجنه في بقية معتقداتهم ، ومن ثمّ تلقفها أناس آخرون ، فحوّروا فيها ، وبدّلوا من قوامها ، وعدّلوا في قوالبها .

حلول عديدة من البدايات ، وكثير من الأشياء ذوات القيمة قد فقدت وزالت ، وكثير من الأشياء النافعة ، وحتى الضارّة ، قد اكتنزت وبولغ في العناية بها . ومن المستطاع الآن ، بما بين أيدينا من المصادر ، وبجهد الباحثين المتواصل وكدّهم ، أن نرجع سعياً إلى الماضي السّحيق ، وأن نؤلف صورة لحقيقة ما كان عليه كثير من الحضارات ، وأن نجسّمها كلاً كاملاً مُتّصل القسمات .

إن مثل هذا الجهد يطبعنا دائماً بطابع العجب من كثرة ما كشفنا عنه من خبايا الماضي . فقد نعلم من طريقه أن المصريين الذين عاشوا في الألف الرابعة قبل الميلاد ، وأن الأمم التي عاصرت البابليين ، كانوا صورة مما نحن الآن ، وبكلمة موجزة : كانوا أناسيّ فيهم مثل إنسانيتنا ، ولكن الكلام في ذلك ليس من شأننا في بحث نريد أن نلمّ فيه بحقيقة الانسان في العصر الحاضر ، وكيف تكوّن على الصورة التي نراها .

إنّ مدنيتنا هي في الواقع مزيج مما استطاع أسلافنا أن يفوزوا به من تلك الثقافات الوضاحة رتّبقة ، مضافاً إليها ما استطاعوا أن يضيفوه إلى المادة التي تلقوها عن السابقين . وإننا لنفهم ذلك الهيكل الكلّي ، إذا بدأنا بالنظر في أمم "العالم القديم" ، وحاولنا أن نتبصر كيف استطاعوا أن يستجمعوا كنوز الماضي ؟

المدنية الغربية وقالبها التاريخي

عند ما نتكلم عن الحضارة ممتدحين صفاتها ، فإنما نعني بها جملة الأشياء الاعتقاديّة والعمليّة الذائعة في أوربا وفي غيرها من بقاع الكرة الأرضية ، التي يأهل بها سلالات من الأصل الأوربيّ . وإن شاء لبعض الأغراض نقرّر أن قولنا هذا ينظر إلى النصرانية ، ولأغراض أخرى نقرّر إنه ينظر إلى البلاد التي مسّتها الثورة الصناعية .

هذه هي الحضارة التي تتصل فوزها ببعض علوم تطبيقيـة استطاعت أن تخترع المدفع السريع والبارجة الحربية ، فكان لها شيء من التسلط غير المستقر على أرجاء الأرض . وأنها لحضارة فتية بالقياس على الحضارات ، فليس لهـا تاريخ متصل الا من الف سنة ، ولـكنها في هذه الفترة قد انتابها من التطور والتغاير أكثر مما نال غيرها من حضارات العالم . وبالرغم من أنها استمـلكت العلم منـذ ثلاثة قرون ، فانها لم تملك مزايا معيّنة بيّنة على غيرها من ضروب الثقافات ، إلاّ في مئة العام المنصرمة . ففي نهـاية القرن الثامن عشر ، لم يَرَ اهل الصين في أوربا من شيء يمكن أن يستفيد منه علماً . ولا يزال كثير من المفكرين يشكّون في انه لم يكن على صواب . ولـكن الواقع انّ هذه هي الحضارة التي ورثناها والتي تخضع ويخضع لها معنا العالم كله . وقبل أن نمضي في سرد الظروف التي أدّت الى نشوئها ونمائها ، يكون من الفائدة أن ننعم النظر في بداياتها التاريخية الصحيحة .

الحضارة الغربية ثمرة مجهود أجيـال من البشر ، وبخاصـة ، أولئك الذين قطنوا شمال أوربـا الغربي ، الذين وجدوا هنالك بعد أن انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى الانحلال عقليّـا واجتماعيّـا . وهي تمثل مزيجاً من الآراء المنتحلة من العالم الهلّـيني ، والعادات والأمزجة التي وسعها عقل الهمج الذين غزوا تلك الامبراطوريّـة وقوّضوا قائمها .

إن لانحلال الامبراطورية الرومانية ، بحضارتها العقلية والمادية ، أسباباً كثيرة معقدة ملتبسـة ، لم يكن غزو الهمج الاّ سبباً مكمّـلاً لها ، ان لم يحتمل أن يكون نتيجة لا سبباً وكان من نتائج انحلالها ان مركز الحياة العقليّـة أخذ يرتد نحو الشرق شيئاً بعد شيء ، حتى استقرّ في القسطنطينية مدينة الهلينيين والأغارقة . هذا ونجد أن غرب أوربـا قد تولاّه كثير من العوامل ، من أهمها الغزو الاسـلامي الذي اجتاح جزءاً عظيماً من حوض البحر المتوسط ، فاضطرّ مركز القوة في الغرب أن يرتد نحو الشمال شيئاً بعد شيء ، حيث استقرّ في زمن شارلمان في فرنسا وغربي المانيا .

ان السلالات التي أهلت بها تلك البقاع لم تكن في غالبيتها من الارومات التي اقامت الحضارة القديمة ، بل خليطاً من الغاليين القدماء ، الذين مدنهم الرومان في مستهل العهد النصراني ، وعدداً قل من الغزاة « التيرتون » الذين هبطوا من الشرق .

وإذا نظرت في ايطاليا الرومانية واسبانيا وجنوبي فرنسا ، وجدت ان الهمج النازحين قد كوّنوا جزءاً لا يستهان به من مجموع السكان .

ان الارتداد نحو الشمال قد دلّ على ان الأمم الغربية بنشوئها تدرجاً من الخليط الذي تألف من تلك العناصر وبروزها من ثناياه ، كانت على وجه عام من سلالة أقرب عهداً بالحضارة

من أمم البحر المتوسط وفوق هذا ، فانها قد قضت قليلاً قليلاً ... بالآهلين ، وفي كنف حالات اجتماعية كانت لا تزال مشابهة لتلك التي أحاطت بروّاد القارة الاميركية لدى أول استعمارها . هذا في حين ان الحياة الاجتماعية في الجنوب كانت قد أخذت تنزع الى الخشونة درجة بعد أخرى . وقلّ ان نقع على انحراف فيه شذوذ يخرج بالحياة عن اطراد الثقافة القديمة في ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا وتواصلها . رغم ما لحق بالأسس الاقتصادية التي كانت لتلك الثقافة من الانحلال والفساد . أما في الشمال فان الغاية التي اتجه فيها أهله ، منذ أيام الغزو الروماني ومن بعده ، قد انحصرت في اقامة حياة اجتماعية نظيمة في بقعة لم تشهد إلاّ نماءً حضاريًّا نسبيًّا ، كما اتجهت الى هضم وتمثيل ثقافة الدنيا الحافة بالبحر المتوسط ، بقدر ما يمكن من العجلة .

إن صدمة الهمج الذين قبضوا على زمام الحكم ، قد عاقت سير النظام الذي كان قد قفز نحو الكمال بخطًى واسعة في ظل الحكم الروماني . وقد جاء زمن يغلب ان يكون قد حصل فيه انتكاس بيّن ، ورجوع الى الوراء . ولقد نستطيع ان نكوّن فكرة عن ذلك الموقف ، إذا قرناه بما وقع في اميركا في أوائل القرن التاسع عشر . فشمال أوربا قد ينظر الى ما عرف في ذلك الوقت بوادي المسيسبي وغربي الولايات المتحدة ، وإيطاليا والجنوب ينظران الى شاطىء الاطلنطي ، وكان فيهما ثقافة أرقى مما كان في الأولى . أما القسطنطينية والشرق ، فينظران إلى اوربا ، وفيهما نواة الحياة المدنية ومركزها .

ان الجمعية التي قطنت غربي اوربا كانت جمعية ارتياد ، وقد جاهدت في سبيل تكوين مملكة جديدة ، ولم تجد في اثناء جهادها من الوقت ما تصرفه في سد حاجات العقل . ومن أجل ذلك دُمِغَت بكل ما في اصطلاح « العصور المظلمة » من المعاني . ففي شمال اوربا الشرقي ، كان العصر عصر « ظلامية » ، لا لأن الناس لم يكونوا على قسط وافر من النشاط والقدرة ، ولا لقلة ما كان يتوقع من حياة طيبة مستكفية تنال بفضل ذلك الجهد وتلك القدرة ، ولكن لأن أهل تلك البقاع كانوا حينذاك ، كأهل تخوم اميركا ، قد صرفوا كل ما لديهم من جهد لتحقيق أغراض كان من الواجب تحقيقها ، قبل ان تتجه المطامع إلى الأمل في وجود جمعية متنوّرة مثقفة .

بذلك ارتدّ مركز الغرب الحيوي الى بقاع أهلت بسلالات من حقنا ان ندعوها الأمم الغربية . وهم أمم شغلت ، في أول ما شغلت به ، بتنشئة حياتها المدنية في بلاد قليلة السكان مهملة المرافق . على ان القليل منها من استطاع ان يحصل على فراغ صرفهُ في تحصيل ثقافة بلغت من الرقي مبلغ ثقافة الدولة الرومانية قبيل انحلالها . وانحصرت هذه الاقلية في الكهان

وبعض سكان المدن من النبـلاء . ولكن وجد الى جانب هؤلاء زمر وفيرة من الجهـلاء والمخشوشنين صرفتهم مهام الحياة عن مباشرة مثل هذه النعائم ، مثلهم كمثل أميركا المستعمرة ، فقد كان في مدنها الشاطئية جماعات متنورة رفيعة الثقافة ، كما كان في داخليتها روّاد خصوا بالقوة و الذكاء ، ولكنهم كانوا جهلة مظلمين .

وكانت أمم الغرب ، في اكثر الأمم عاجزة عن استيعاب او تمثيل [1].كثير من المقومات الثقافية ، على الرغم من انه حينما انتشر سلطان الـكنيسة ، ازدهر العلم والفن وبلغا درجة كبيرة من الرقي . ولقـد اضطرت هذه الأمم أن تعيش خمسمئة سنة ، عيش الروّاد المستعمرين ، فلم تهدأ بينهم الناجزات في ظلال الحرجات والاجمات والسهول في غربيّ أوربا ، بعيدين عن مؤثرات التيارات الفكرية التي اندفقت في تضاعيف ذلك العصر ، بعدَ سكان كاليفورنيا أو أوستراليا عنها منذ جيلين فرطا من الزمان .

فلو انه وجد في ذلك الزمان بقعة غصت بالمعامل أو أفعمتها رؤوس الأموال وتطلعت الى الأسواق ، إذن لنظر أصحابها الى هؤلاء الغربيين نظرة أنهم من « السلالات المتأخرة » ، ولـكثر الـكتّـاب الذين يقيمون البراهين على أنها ، لعجزها عن استيعاب العلم واستمداد المعرفة من العالم الهلّـيني ، وقصورها ، بعد انسلاخ قرون ، عن أن تفوز من النصرانية إلاّ بسطحيات خشنة غليظة ، هي بحكم الطبع غير كفيلة بأن تحمل أمانة الثقافات الشرقيـة إلاّ بقدر ما يستطيع أن يحمل منها همجي من السود أو الصفر .

لا شك في أن هؤلاء الـكتّـاب يكونون قد أخطأوا تقدير الموقف . ولـكن لا ينبغي أن يعزب عن فهمنا انه من المتعذر طبعاً أن ندرك أن بناة المدنية الغربية قد بدأوا بناءهم عما يقرب من اللاشيء ، ثم مضوا في نشوئهم بمثل ذلك البطء المضني . وانه لمن أبعد الأشياء عن إرضاء كبرياء شعب من الشعوب ، أن يعترف بأن كنوز المعرفة التي اختطّ اليها طريقه بعد لأيٍ وتعب لتكون أساساً لحضارته ، قد أهملت ونبذت من قبل مئات من السنين ، بل كادت تنمى ويعفّـي عليها الزمن .

ان كنوز اغريقية والشرق ، تلك التي وصل الى لبابها الرومان في أقل من أربعة قرون أو خمسة ، والتي هضمتها ومثلتها الشعوب السامية بغير كبير عناء ، قد اقتضت من شعوب الغرب ضعف ذلك الزمن ، حتى يصلوها بفطرتهم . فلم يكونوا قبيل القرن الثاني عشر ، قد بلغوا بعد من الرشد مبلغاً استطاعوا عنده ان يفقهوا معاني الآراء القديمة ، ولم يساووا

....

(١) التمثيل فعل فزيولوجي مؤداه ان الجسم الحي يحول الاغذية بعد هضمها عناصر تندمج في عناصره . والمعنى المقصود هنا حدوث فعل مشابه لهذا في عالم الفكر .

من حيث المقدرة الذهنية : رجال الاسكندرية او القسطنطينية او رومة الذين ظهروا قبل ذلك بألف سنة؛ ولم يصلوا من حيث المدنية الى ما وصل اليه الهنود واهل الصين قبل العصر المسيحي بقرون عديدة ، إلاّ في حدود القرن السادس عشر . وربما كان شذوذ السلالات كشذوذ الأفراد ، كما طال عهد طفولتهم ، طالت مقدرتهم على متابعة الدرس والتفقه في حين يكون غيرهم قد بلغوا أقصى مبالغ القدرة على الاستيعاب ، فاستفرغوا كل مواردهم الطبيعية .

اما القول بأن هذه الأمم المؤتشبة [1] التي سكنت الغرب ، كانت قد اقامت في حدود القرن الثالث عشر جمعية فيها جمال وفيها فخامة ، جمعية تحمل في تضاعيفها من الخصائص ما يجلب لها عطف كثير من القلوب في عصرنا هذا ، وبخاصة لأنها ملكت اشياء فقدناها وكانت لا تقدر بثمن ، فذلك من الحقائق التي لا يدخلها الريب ، ولا تحتمل المماراة . ولكنها على الرغم مما كان فيها من جمال وفخامة ، فانها كانت خشنة جاهلة ، وفيها صبغة الحداثة . جمعية من الرواد ، حاربت وجالدت للخروج من ماضٍ صرفته ، كادّة ناصبة ، في سبيل البقاء من ناحيتين : الناحية الطبيعية والناحية الروحية .

فاذا اعتبرنا ان القرن الحادي عشر هو نهاية تلك «العصور المظلمة» التي جهدت خلالها الأمم الغربية لتحقق لحياتها دعامة تقوم عليها من الوجهة الطبيعية ، وجب علينا ان نسلم بأن هذه الأمم كانت ، حتى ذلك العصر ، أشبه بالطليعة في الحياة الانسانية . ففي غابات فرنسا البدائية ، عاش بضعة ملايين من البشر الأقوياء يفلحون الأرض ، ولم يكن في مجاهل انجلترا اكثر من مليون . وكانت الوحوش ما تزال تطوّف بعمرات القرى الصغيرة والدساكر ذات الأسواق وكان هنالك فن بدائي محبب الطابع ، ولكن الدرس والاكباب على استيعاب المعرفة ، ورفاهة العيش المدنيّ ، كانت بعيدة عنهم ، بعدها عن مستعمرات تخوم وادي المسيبيّ في عصر واشنطون .

على حدود الشرق ، تربعت القسطنطينية على عرش إغريقية وروما بعد ان ورثتهما ، فكانت بالرغم من حياتها الجامدة المستحجرة ، أعلى ثقافة ، وأفخم مدنيـة من كل ما تقع عليه في رحاب الغرب . غير ان الورثة الحقيقيين الذين تلقوا أمانة المعرفة عن القـدماء ، لم يكونوا في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وإنما كانوا في بغداد عاصمة الخلافة العربية ، وموئل العلم الأغريقي ، ومنزل النشاط العقلي ومستقر الحكمة . ذلك بأنهـا تلقت الفلسفة الهلينية والعلوم الطبيعية بصدرها الرحيب ، عندما طاردهما التعصب النصراني في القسطنطينية

ولقد احتضن الغزاة المحمديون في اسبانيا الثقافة الهلّينية ، مؤتمين بنظرائهم في بغداد

(١) المختلفة المؤلفة من عناصر مختلفة

لاجهاد عصبي مرض يصيب الجسم والعقل معاً ... زادت ...
الطبيعي الدفاعي ... حاجات حيوية حديثة ، ويحصه في هذه ...
... فيهم وتدور الحياة العصبية . وهذا الجهود بل هذا التوتر
العصبي ... من تعب جسمي يؤثر في حركات ... كما يؤثر في ... الامنية
... قلبك .

... العصبي خفيفة ... من ...
... ، فقد ... في ...
والدعة فاستجممت ، فان ... التعب » يتصبا الجسم ثم يطردها فتعود الى حالتك السوية
مرة اخرى .

ومن الناس من يستمر في العمل بجهد جسمه واعصابه من غير ان يفكر في راحة ترد اليه
... فريق آخر من الناس يشعرون بأنهم في تعب وجهد من غير أن يستطيعوا
ان يعرفوا سبب ذلك . و... تقع على أعراض ... و ... : ... مفرطة
وقابلية للتهيج ، وسوء الهضم ، والصداع ، وآلام غير معروفة المصدر او السبب . فاذا
أنست في نفسك بعض هذه الاعراض ... مقدمة على طور من الانهاك العصبي فاذا ...
علاج هذه الاعراض ، ... شك ... الى نتائج ...

ما السبب في أن بعض الناس قد يصيبهم الانهاك العصبي ؟ فراجعه الى انهم يهملون الخلود
الى الراحة اذا شعروا بحاجة اليها . والوصايا الصحية التالية هي علاج ... في مثل
هذه الحالات

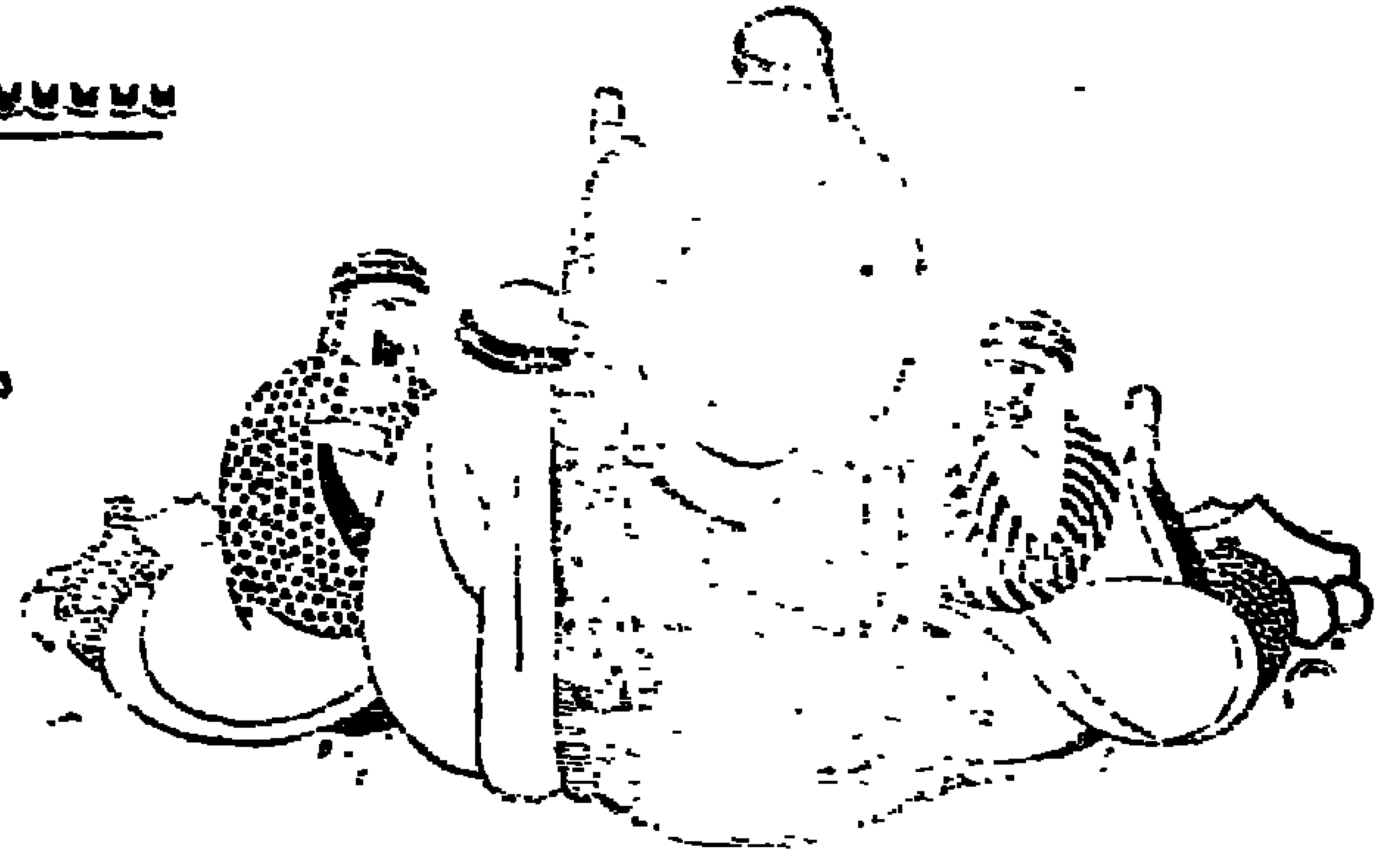
(١) لا تتجاوز حد ... من التعب (٢) ... الراحة ... و ...
(٣) الزم الاعتدال في كل ... (٤) ... ذهنك ... (٥) ... كيف ...
عواطفك (٦) ... عن قلبك ما تتوقعه من مخاوف (٧) خذ من الراحة والنوم قسطك المطلوب
(٨) نظم ساعاتك (٩) ... عن نفسك ... في دورات منظمة (١٠) ... في نفسك عادة
اتباع الانظمة الصحية .

فعمرت بها معاهد قرطبة وغرناطة كما نظر علماء البربر من خلال مدنهم العامرة ، ومكتباتهم المفعمة بألوان الكتب والمجلدات ، باستخفاف وعدم اكتراث إلى الشمال ، حيث قطن أولئك الفلاحون ، سكان فرنسا والمانيا .

ولكن ، من أجل أن نستكشف مستقر الحضارات الحقيقيَّة التي نشأها وغذاها تواصل الحياة وطول العهد بالرفاهة الماديّة والنشاط الروحي ، وجب علينـا أن نضرب نحو الشرق ممعنين فيه لابعد من تلك البقاع التي نشأت فيها الحضارة السامية على ضفاف الرافدين ، وأن نضرب في الأرض حتى نصل إلى الهند والى الصين ، فهنالك نقع على مُـثـل من الحضارة ، تتضاءل الى جانبها كل ما تضمنت أوربّا ، بل هي تقمأ [1] وتذل ، حتى لتكاد تتوارى .

اسماعيل مظهر

(١) تصغر



مقتل مالك بن نويرة

وموقف خالد بن الوليد

أصدر سعادة الدكتور محمد باشا هيكل بضعة كتب في التاريخ الإسلامي ، في الصدر الأول . وكان عملاً ناجحاً ، ناجحاً من ناحية النفاق تماماً ، فما يكاد الكتاب منها يصدر حتى تتخطفه الأيدي ، وحتى تكادَ نُسخُه تَنفَد من السوق . وناجحاً من الناحية العلمية بعض النجاح . ولو لم يكن من أثره إلاّ أن يُحبِّبَ إلى شبابنا، الذين كدنا نفقدهم، قراءة سيرة رسولهم ، وأخبار قومهم وسلفهم . وكانوا من قبلُ يُعرضون عن دينهم وعن عروبتهم . ويتمسحون في أوروبة ويقدسونها ، ويجهلون كلَّ ميزة لقومهم ، بل يكادون ينكرون أنهم أمة من الأمم ! لو لم يكن من أثره إلاّ هذا لكفى .

وقد تناول الباحثون المحققون كتابه الأوّل « حياة محمد » بالنقد ، وطال الجدال حوله حتى لقد ذهب ذاهبون إلى أنه منقول أو مقتبس أو مترجم عن كتاب بهذا الاسم لمستشرق يدعى درمنغهام ، ولم يكن لنا سبيل إلى تحقيق ما قالوا ، إذ لم نطلع على كتاب درمنغهام ، عن جهلٍ منّا باللغة التي كتب بها . وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية أخيراً ، وظهر من عهدٍ قريب ، وسيكون لنا في ظهوره فرصة نحقق بها ما رُمي به كتابُ الباشا ، فنقرن فصوله وأبحاثه إلى مثيلاتها من الكتاب المترجَم ، فنعرف ما أخذ أحدهما عن سلفه ، بعد أن عرفنا أنه أخذ منه اسم الكتاب « حياة محمد » ، وإن كان الكتابان — فيما يبدو لنا — متباينين ، وسنرى في ذلك رأينا إن شاء الله .

وكان فيما قرأنا من هذه الكتب ، كتاب « الصديق أبو بكر » فأعجبنا منهُ حسنُ سرده للحوادث ، والعناية بعرضها عرضاً جيداً مشوّقاً . وأبين مزاياه قوةُ المؤلف ومقدرته في تلخيص الروايات وجمعها ، وفي الاقتباس والتضمين ، حتى ليبدوَ الكلام نسقاً متقارباً ، فإذا ما تأمله العارف وضح له الفرق بين الكلام المقتبس والكلام المؤلّف ، وقد استيقنّا من ذلك في مواضع كثيرة ، قرنّا فيها قصّةُ الوقائع إلى نصوص الأقدمين من المؤرخين ، خصوصاً ابن جرير الطبري .

وهذه الطريقة الصريحة فائدة نحرص عليها ، أن يمرن القارئون المحدثون على قراءة النصوص العالية القوية البليغة ، التي تحدث بها الفصحاء والبلغاء من الرواة والمؤرخين السابقين ، مما كاد يهجره أهل هذا العصر .

وكان لنا على كتابه هذا مآخذ ، بعضها هيّن ، لا يغض من قيمته ، وبعضها خطير . وأخطرها — فيما أرى — وأبعدها مدًى في الإبطال ، صنيعه فيما كان بين خالد بن الوليد ومالك بن نويرة ، وحبه الإتيان بما لم يأت به الأوائل في الدفاع عن خالد ، فجاء حقيقة بما لم يأت به الأوائل ! !

فقد لخّص المؤلف — أو اقتبس — الروايات التي وردت في وقعة خالد ومالك ، وذكر تضارب الأخبار فيها ، ولكنه أتى في بعض الرواية بشيء لم نجد عليه دليلاً ، وما نظنه يصح ، فلو أنه صحّ لم يكن لخالد عذر ، ولم يكن أبو بكر ليعذره ، ولوجب عليه أن يأخذه بدم مالك بن نويرة . فقد قال المؤلف (ص ١٤٥) : « إلى هنا تتفق الروايات ، ومن هنا يبدأ اختلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقروا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصرّوا على منعها » ! !

ولم يكن شيء من هذا ، فيما نعلم . فقد كان من عهد أبي بكر إلى جيوشه في حروب الردة : « إذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ، فإن أذّن القوم وأقاموا فكفّوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ، ثم تقتلوا كل قتلة ، الحرقَ فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الاسلام فسائلوهم ، فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ، ولا كلمة » .

وهذا هو المعقول البديهيّ المعروف من شرعة الاسلام ، ومن أخبار الخلاف بين أبي بكر وعمر في قتال مانعي الزكاة المرتدين ، فقد كان عمر يظن أن منع الزكاة ليس ردة ، وأن إظهار الاسلام وإقام الصلاة كافيان في حقن الدماء ، فأقام أبو بكر عليه الحجة حتى اطمأنَّ إلى أن أداء الزكاة كإقام الصلاة شرط في صحة الاسلام ، فقال عمر : « والله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفتُ أنه الحق » .

فلو أن أبا قتادة ومن معه ، الذين خالفوا على خالد ، قبل مسيره الى البُطاح[1] وبعده ، وبعد أخذ مالك بن نويرة ، شهدوا أن مالكاً وقومه « أقرّوا بالزكاة وإيتائها » لم يكن خالد ليأمر بقتل رئيسهم مالك إن شاء الله ، فإنما كان مسيره ليرجعهم إلى الاسلام وليأخذ منهم الزكاة ، فإذا بعد أن يعطوا ما سار اليهم من أجله ؟ لا شيء إلا العدوان وسفك الدم الحرام ،

(١) البطاح : بضم الباء ، وقد ضبطت في الكتاب (ص ١٣٦) بكسرها ، وهو خطأ .

ونعيذ بالله خالداً ومن معه من ذلك . فهذه رواية لم نرها في شيء مما بين أيدينا من المصادر ، ولا تكون صحيحة أبداً ، فما ندري من أين جاء بها المؤلف ! !

وقد ساق المؤلف مسير خالد هذا المساق : « ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقي فيها مالك بن نويرة ومن كان معه في مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم منه فترددوا وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . وأجابهم خالد : إن يكن عهد اليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي . وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار ، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد له بمن معي من المهاجرين والتابعين لهم باحسان ، ولست أكرهكم » . (ص ١٤٣ — ١٤٤) وهذا النص نقله المؤلف من تاريخ الطبري (٣ : ٢٤١ طبعة الحسينية) واختصره بعض الاختصار ، وحرّفه بعض التحريف ، وإن أتى بجملته ومعناه تقريباً ، ولا بأس . ولكنّ في هذه الرواية شيئاً من الشذوذ ، تحتاج معه الى نقد وفحص . فليس من منطق الحروب ولا منطق الولايات أن يعهد الأمير الأكبر أو القائد الأعلى الى من دونه من القواد والولاة بعهد ثم يعهد في الوقت نفسه الى الجند أو إلى من دون القائد والوالي ممن يأتمرون بأمره — : بعهد آخر خاص بهم ، بل المعروف في الدنيا كلها ، وفي تاريخ الولايات في صدر الاسلام خاصة ، أن الأمير أو القائد له الطاعة الكاملة على من هو في ولايته من الجند والقواد ، حتى لو كانوا أرفع درجة منه أو أقدم اسلاماً وهجرة . والمثل على ذلك حاضرة ، يعرفها كل من قرأ شيئاً من التاريخ . فهذه الرواية إما أن يكون فيها شيء من الخطأ من رواتها ، وإما أن يكون أبو قتادة رضي الله عنه ومن معه من الأنصار سمعوا شيئاً من أبي بكر ، ظنوه عهداً خاصاً اليهم فأخطؤوا سمعه أو فهمه ، ثم أخطؤوا فيما ذهبوا اليه من الخلاف على خالد ، فلما استبانوا خطأهم ، بعد أن سار وتركهم ، أرسلوا وراءه من استمهله حتى أدركوه ، ندماً على ما كان منهم ، ودخلوا معه في أمره .

وفي الطبري رواية أخرى تساير منطق الحوادث ، وتساير منطق العهود في الولايات (٣ : ٢٢٥) فهي تقول : « لما أراح أسامة وجنده ظهرهم ، وجمّوا ، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية ، فعقد أحد عشر لواء ، عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له » . فهذا هو العهد الصحيح ، وهو المعقول في شأن الولاة والقواد ، أن يكون

العهد لهم ، وأن تصدر الأوامر اليهم ، لا الى مَن دونهم من القادة أو الجند .

ولسنا نأخذ على المؤلف أن أتى بتلك الرواية ، ولكننا كنا ننتظر منه أن ينقدها ويظهر ما فيها من ضعف ، ونأخذ عليه أنْ أعرض عن الرواية الصحيحة التي تصوّر الأمر تصويراً منطقيّاً معقولاً ، وتفسر تلك الرواية وتظهر ما فيها من ضعف أو وهم .

ومما يدل على ضعف تلك الرواية أو بطلانها أن أبا قتادة بعد أن عاد هو ومن معه الى خالد ، وبعد مقتل مالك بن نويرة ، عاد إلى سخطه على خالد ، لجادلهُ في مقتل مالك بن نويرة ، يقول الطبري (٣ : ٢٤٢) وصاحب الأغاني (١٤ . ٦٥ طبعة الساسي) : « فزبره خالد ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر، حتى كلمهُ عمر فيه ، فلم يرضَ إلاّ أن يرجع اليه ، فرجع اليه حتى قدم معه المدينة » . فهذا الخليفة ، وهو القائد الأعلى إذ ذاك ، يغضب على أبي قتادة ، على فضله وسابقته ، أن خالف عن أمر أميره وقائده، وأن ترك الجيش ورجع إلى المدينة يشكو أميره ، لم يقبل له عذراً ، ولم يسمع له شكوى ، وأبى إلاّ ان يرجع إلى أميره يكون في طاعته ، لم يمنعهُ من ذلك شفاعة عمر ، فأطاع وكان مع أميره حتى وردا المدينة معاً ، بعد تمام الغزو الذي خرجوا له .

أفرأيتم هذا يلائم تلك الرواية : أن أبا بكر عهد إلى أبي قتادة ومن معهُ من الانصار عهداً خاصّاً لا يعلمهُ أميرهم خالد ؟ ! وأين احتجاج أبي قتادة بأنهُ إنما صنع هذا طاعة للعهد الخاص به ، وماذا يكون جواب أبي بكر إن حجّهُ أبو قتادة بما عهد اليه به ؟ !

ولست أدري لماذا أعرض المؤلف عن هذا النص القاطع أيضاً ؟ إلاّ أن يكون يسوقُ الروايات والأخبار كما يحب ويَرى !

ثم قصّ المؤلف قصة مقتل مالك بن نويرة ، وتزوج خالد أو تسرّيه امرأة مالك بعد قتله، وحكى الروايات المتضاربة التي وردت في ذلك ، ويطول القول لو أردنا أن نفصل ما فصلهُ أو نجملهُ . ولكن الثابت من مجموع الروايات أن ضرار بن الأزور الاسديّ قتل مالكاً، فبعضها يجعل هذا القتل عن خطأ في فهم اللغة ! تزعم الرواية أن خالداً أمر منادياً فنادى « دافئوا أسراكم ، وكان في لغة كنانة اذا قالوا : دافأنا الرجل وأدفئوه فذلك معنى اقتلوه ، وفي لغة غيرهم أدفئوه من الدفء ، فظنّ القوم أنهُ يريد القتل ، فقتلوه . فقتل ضرار بن الأزور مالكا » (عن الأغاني ١٤ : ٦٥ والطبري ٣ : ٢٤٢) . وهذه رواية باطلة ، تشبه أن تكون من خيالات الأدباء وفكاهاتهم ، وبطلانها ظاهر من أول سياقها ، فانها تبدأ بأن الخيل جاءت إلى خالد « بمالك بن نويرة وفيهم أبو قتادة ، وكان ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم » وقد بيّنا فيما مضى من قبل أن الأذان وإقام الصلاة

مع منع الزكاة لا يحقن الدم ولا يمنع من الحكم عليهم بحكم الردة . فاختلاف السرية — في هذه الرواية — أو اتفاقها على أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا لا يقدم ولا يؤخر ، إذا كانوا لا يزالون مصرين على منع الزكاة . وانما هذه الرواية أشبه بالأحاجي والألاعيب .

وتذهب الروايات غيرها إلى أن خالداً جادل مالكاً وطاوله ، فلما استيقن من أمره أمر بقتله ، وان اختلفت ألفاظها فيما حكت من الحوار بينهما . ففي تاريخ الطبري (٣ : ٢٤٣) : « وكان خالد يعتذر في قتله أنهُ قال وهو يراجعهُ : ما إخال صاحبكم إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا ، قال : أو ما تعده لك صاحباً ؟ ! ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه » . وفي تاريخ ابن كثير (٦ : ٣٢٢) : « ويقال بل استدعى خالد مالكَ بن نويرة فأنّبه على ما صدر منه من متابعة سَجَاح — المتنبئة الكاذبة — وعلى منعه الزكاة ، وقال ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك ! فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ يا ضرار اضرب عنقه » . وفي ابن خلكان (٢ : ٢٢٧ طبعة بولاق) : فكلمه خالد في معناها — يعني الزكاة — فقال مالك : إني آتي بالصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل واحدة دون أخرى ؟ فقال مالك قد كان صاحبك يقول ذلك ! قال خالد : وما تراه لك صاحباً ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجاولا بالكلام طويلاً . فقال له خالد : إني قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ! قال وهذه بعد تلك ، والله لأقتلنك » .

وفي رواية لصاحب الخزانة (١ : ٢٣٧ طبعة بولاق) عن رسالة لأبي رياش أحمد بن أبي هاشم القيسي أن أبا بكر بعث خالد بن الوليد « وأمره أن لا يأتي الناس إلاّ عند صلاة الغداة ، فمن سمع فيهم مؤذناً كفَّ عنهم ، ومن لم يسمع فيهم مؤذناً استحلهم ؛ وعزم عليه ليقتلنَّ مالكاً إن أخذه » وأن خالداً لما أخذ مالكا قال له : « يا ابن نويرة هلمَّ إلى الاسلام . قال مالك : وتعطيني ماذا ؟ قال : ذمة الله وذمة رسوله وذمة أبي بكر وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر . قال : يا مالك إني قاتلك . قال : لا تقتلني . قال : لا أستطيع غير ذلك . قال : فأت ما لا تستطيع إلاّ اياه . فقدمهُ إلى الناس فتهيبوا قتله . وقال المهاجرون : أتقتل رجلاً مسلماً ! غير ضرار بن الازور الاسدي من بني كوز ، فانه قام فقتله » .

فهذه الروايات وغيرها تدل على أن خالداً لم يقتل مالكاً إلا بعد حوار وجدال ، وأنه لم يقتل لخطا في فهم الأمر بالدفء كما تزعم الرواية الأولى . وان كان في الرواية الأخيرة ما يفهم منه أن خالداً أمّن مالكاً وأعطاه الذمة ، فيكون قتله بعد ذلك غدراً ، ولكنها لا تدل هي ولا غيرها على أنه عاد إلى الاسلام وأقر بالزكاة . وهذه الرواية تساير ما روي

ابن خلكان وغيره أن متمم بن نويرة جاء إلى أبي بكر يستعديه على خالد ويعتب على أبي بكر ، قال ابن خلكان : « فلما بلغه مقتل أخيه حضر الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى الصبح خلف أبي بكر الصديق ، فلما فرغ من صلاته وانفتل في محرابه ، قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سِيَة قوسه ، ثم أنشد :

نِعْمَ القتيلُ إذا الرياح تناوحتْ خلفَ البيوت قتلتَ يا ابن الأزْوَرِ
أدعوتَهُ بالله ثم غدرتَهُ لو هو دعاك بذمةٍ لم يَغْدِرِ

وأومأ الى أبي بكر ، فقال : والله ما دعوتُهُ ولا غدرتُهُ » .

وأكثر الروايات وأرجحها تدل على أن خالداً كان موقناً من ردة مالك ، وإصراره على منع الزكاة ، ولم توجد رواية قط تثبت إثباتاً قاطعاً أن مالكاً رجع عن ردته ، وأعطى مقاده مخلصاً للدين ، وإنما أعطى مقاده مغلوباً على أمره ، وكان يرجو أن يضع يده في يد أبي بكر لعله يجد عنده عطفاً أو ليناً ، فلم يمكنه خالد من ذلك ، وأخذه بالعزم وقتله .

وهذا متمم أخو مالك لم يدَّع قط أن أخاه قتل بعد توبةٍ ، إنما ادعى أن خالداً غدر به ، بل هو يدعي في شعره أن الغدر كان من ضرار بن الأزور ، وانما أشار الى أبي بكر أن كان هو الأمير الأكبر ، فهو المسؤول عن أعمال عماله ، خالدٍ فمن دونه . ولو أيقن متمم أن أخاه تاب عن ردته وأقرَّ بالزكاة كما أقرَّ بالصلاة ، لكان له قول غير هذا القول ، وشأن غير هذا الشأن . وكذلك كان قوله حين قال له عمر : «لوددت أنك رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك ، فقال : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته . فقال عمر : ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته » (ابن خلكان ١ : ٢٢٨ والأغاني ١٤ : ٦٨) فهذه الرواية تدل على أن متمماً لم يكن يجزم بأن أخاه مات مسلماً ، إن لم تدل على معرفته بأنه قتل في ردته . لأن زيد بن الخطاب ، أخا عمر بن الخطاب ، قتل شهيداً يوم اليمامة ، فيشير متمم إلى هذا ، أن زيداً صار الى الجنة ، إذ قتل شهيداً مسلماً ، ويشك — على الأقل — في ان مصير أخيه مالك كمصير زيد .

فلم يك خالد متجنياً ولا عادياً ، وإنما كان حازماً سريع الفصل ، يعرف ما يأتي وما يدع ويرى الاسلام في خطر من دعاة الردة ، ويرى الموقف على حقيقته بنظرة رجل الحرب ، ويعرف عواقب التردد او التهاون ، ويعرف خصمه مالكاً ، ويعرف قوته وأثره في قومه ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب . فلئن يؤخذ على خالد ، إن كان عليه فيما أتى مأخذ ، إلا أنه تسرَّع ، أو تأول فأخطأ ، ولا حرج .

وأما ما رجف به المرجفون ، من أنه إنما صنع هذا بمالك ، رغبةً في امرأته ليلى بنت

سنان، وأنه كان بينهما هوًى في الجاهلية، فما نظنه إلاّ من نسج الخيال، ومن أقوال الأعداء المغرضين. فالثابت ان خالداً أخذ ليلى سبياً بعد مقتل زوجها، وأنه بنى عليها بعد انقضاء طهرها، وبعض الرواة يعبر عن هذا بالزواج، ففي الطبري (٣ : ٢٤٢) « وتزوّج خالد أم تميم ابنة المنهال — هكذا سميت في هذه الرواية — وتركها لينقضي طهرها، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتماره» وهذا تعبير شاذ يذهب الثقة بهذه الرواية وأمثالها فان كراهة العرب النساء في الحرب — إن صحت — لا تكون حجة في الاسلام، وهو تشريع أنفٌ، لا يقرّ كثيراً من تقاليد العرب في الجاهلية، بل ينهاهم عن أكثر ما كانوا عليه وما كان عليه آباؤهم من قبل.

والظاهر من سياق الروايات في الوقعة وما دار حولها، أن خالداً سبي نساء القوم، أي أخذهنّ رقيقاً غنيمة، كحكم الاسلام في حرب الكفار والمشركين. واصطفى لنفسه من السبي امرأة مالك، والاسلام يجيز ذلك، وأنهُ استبرأها بحيضة واحدة، ثم دخل بها. وهذا عمل مشروع جائز، لا مغمز فيه ولا مطعن، وأن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم، وأن خالداً قتله من أجل امرأته، وذهبوا ينسجون حول هذا الاكاذيب، حتى بلغوا بذلك عمر، وكان سيء الظن بخالد، ولم تكن بينهما مودة، يقول صاحب الأغاني (١٤ : ٦٦) : « فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند أبي بكر، وقال: عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته » وأكثر عمر في ذلك على أبي بكر، حتى قال له: « هبه يا عمر تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد» . وحمى أبو بكر قائده العظيم من الاراجيف، وقضى على الفتنة بأن أدّى دية مالك، وكتب الى خالد برد السبي (الطبري ٣ : ٢٤٢) فهذا من أبي بكر سياسة واحتياط، فان كان القوم قد تابوا ورجعوا إلى الاسلام، كما يزعم خصوم خالد والمخالفون عليه، فالدية للقتل الخطأ، والسبي يرد على أهله، وإن تكن الاخرى لم يكن بذلك بأس.

وتجري بعض الروايات بأن أبا بكر أمر خالداً أن يفارق امرأة مالك (الاصابة ٦:٣٦-٣٧) ولكني لا أظنها رواية ثابتة، فان أكثر الروايات على أن أبا بكر حين جاءه خالد واعتذر اليه، عذره « وتجاوز عنهُ ما كان في حربه تلك» . (الطبرى ٣ : ٢٤٣ والاغاني ١٤ : ٦٦) ويروي صاحب الخزانة عن رسالة أبي رياش (١ : ٢٣٨) : « وأخذ خالد بن الوليد ليلى بنت سنان امرأة مالك، وابنها جراد بن مالك فأقدمهما المدينة، ودخلها وقد غرز سهمين في عمامته، فكأن عمر غضب حين رأى السهمين، فقام فأتى عليًّا فقال: إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك، قتل رجلاً مسلماً ثم نزا على امرأته كما ينزو الحمار! ثم قاما فأتيا طلحة، فتتابعوا على

ذلك ، فقال أبو بكر : سيف سله الله لا أكون أول من أغمده ، أكل أمره الى الله . فلما قام عمر بالأمر وفد عليه متمم فاستعداه على خالد ، فقال : لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر ، فقال متمم قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ؟ فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلت ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر . ورد عليه ليلى وابنها جراداً » .

ومجموع هذه الروايات وغيرها مما لم نذكر ، يدل على أن امرأة مالك كانت سبياً ، كغيرها من النساء اللاتي غنمن في الحرب ، وأن خالداً أخذها هي وابنها ملك يمين ، لم يتزوجها بعد مقتل زوجها ، كما يوهم ظاهر بعض الروايات . وحكم السبي والرقيق في الشريعة معروف ، يخالف حكم الزوجة . فالزوجة إذا توفي عنها زوجها لا يحل زواجها إلا أن تنقضي عدتها ، إن كانت حاملاً بوضع حملها ، وإن كانت غير حامل تربصت أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يجوز غير ذلك . فإذا عقد عليها في حملها أو قبل انقضاء الأربعة الأشهر والعشرة الأيام كان العقد باطلاً ، وكان قربانها سفاحاً حراماً . وأما السبي والرقيق فانه يحل ملكها ملك يمين وإن كانت حاملاً ، لأنه لا عدة عليها إذا سُبيت ، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها ، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة .

هذه أحكام بديهية في الشريعة ، لا يعذر أحد بجهلها ، فلا أدري كيف خفيت على المؤلف العلامة الكبير ، حتى جزم في غير تردد ولا احتياط بأن خالداً تزوج امرأة مالك وأنه « نزا عليها قبل انقضاء عدتها » !!

ولست أتجنى عليه أو أحمل كلامه على محمل سيء ، بل حاولت أن أحمله على أحسن محامله ، لأنزهه عن هذا الذي قال ، فلم أستطع . وها كم نص كلامه في توجيه الخلاف بين أبي بكر وعمر ، ثم الاعتذار عن خالد ، قال في (ص ١٥١) ما نصه بالحرف الواحد :

« الرأي عندي في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تُتّبع في هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه في قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسيء إلى مكانتهم بين العرب ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى . ولو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد . وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذي يسير النصر في ركابه ، فلو أن مثل هذا العذر نهض لابيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين في احترام كتاب الله . لذلك

لم يفتأ عمر يعيد على أبي بكر ويلحّ حتى استدعى خالداً وعنّفه على فعلته أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قتلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيق بالدولة كلها ، والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، وهذا القائد الذي يُتّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدفع بها البلاء ويُتقى بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على اختلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحقّ له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه ! ! إن التزمّت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر » !

ولقد ترون ما أرى ، أن هذا المؤلف لبس رداء المحامي النابه ، وأخذ بقلم الكاتب الحزبي القدير ، وهما صناعتاه المفضلتان ، اللتان مارسهما طول حياته حتى بلغتا به ما بلغ ، وهما اللتان تحملان صاحبهما — عن غير قصد — على أن ينظر للأمر من ناحية واحدة ، فيبالغ فيها حتى يبلغ الغاية في القوة ، حتى إذا ما أراد أن ينظر إليه من الناحية الأخرى غلبته ناحيته الأولى حتى يبلغ الغاية في الضعف ! ! فلا يكاد يصل إلى تحقيق ، ثم يضطرب في يده ميزان العدل .

وهكذا كان شأنه هنا ، اتجه به تحقيقه عن غير قصد إلى أنّ عملَ خالد جريمة ، فصوّرها أقوى تصوير ، وخفي عليه الفرقُ بين الزواج والسبي ، وخفي عليه الفرق بين العدّة والاستبراء ، وخفي عليه حكم الاسلام فيمن تزوج امرأةً في عدّتها ، أو قارب ثيباً من الرقيق قبل أن يستبرئها ، وخفي عليه بعد ذلك كثير من مقاصد الاسلام وأحكامه ، ومن خلق المسلمين الأولين وسيرهم ، فذهب يجزم بأن خالداً « عدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها » ينسب ذلك الى عمر ، لا يشك فيه ، ويجزم بأن الذي كان من خالد زواج ثم دخول قبل انقضاء العدة ، ثم يصوّر أثر ذلك في قيادة الجيش وفي مكانة المسلمين بين العرب ، ثم يرى رأي عمر أن الحدّ على خالد واجب . فلما أن أراد أن يدافع عن خالد ، ويبرّر فعل أبي بكر في التجاوز عنه ، تخاذل ثم تخاذل حتى جثا على ركبتيه ، فلم يصنع شيئاً ، إلاّ أن أتى بما لا يقره شرع ولا عدل ، لا في دين الاسلام ولا في سائر الأديان ، فقد أتى بما لم يأت به الأوائل ! !

وسأزيد الأمر بياناً حتى لا يخفى على من لا يعرف شيئاً من أحكام الاسلام . فقتل المرء المسلم عمداً جريمة من أكبر الكبائر ، يجب فيها القصاص ، لا يملك أحد العفو عنه إلا وليّ الدم من عصبة القتيل وحده ، لا يملكه خليفة ولا ملك ولا دولة . وتزوج المرأة في عدة

زوجها بعد موت أو طلاق ، زواج باطل لا أثر له، وقربان المرأة بسببه زنا ليس فيه شبهة، ويجب فيه الحدّ ، الرجم على المحصن والجلد على غيره . لا يملك أحد أبداً العفو عنه ، لا صاحب العرض ، ولا المرأة ، ولا الدولة ، لا أحد قط . وكذلك حكم قربان الأمة المسبية في الحرب إذا كانت ثيباً قبل استبرائها بحيضة واحدة . ثم هذه المحرمات القطعيـة البديهية التحريم إذا وقع فيها أحد إنما يجب عليه ما يجبّ فيها من الحد أو القصاص ، إذا كان لا ينكر أنها حرام . أما إذا أنكر أنها حرام واستحلها فان حكمه في الشريعة أن يكون مرتداً خارجاً عن الاسلام ، وحكم المرتد معروف . وكذلك يجري حكم الردة على من عرف وقوع ذلك وأقره ورآه أمراً هيناً لا إثم فيه أو فيه إثم قليل . لأنه ينكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة .

ثم هذا الدين في عهد أبي بكر وعمر ، كان ديناً فقط ، لم تشبه شائبة السياسة ولا شائبة الدنيا والغرور بها ، وكان هؤلاء الناس إنما قاموا يقاتلون في سبيل الله ، يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، يقاتلون لترسخ قواعد الاسلام وأخلاقه وآدابه في العرب أولاً ، ثم في سائر الأمم من بعـد . فاذا بدؤوا في أول أمرهم — كما يصوّرهم المؤلف — بالتهاون في أدق شيء عند العربي ، وهو العرض وما يمس النساء ، وفي كبيرتين من أكبر الكبائر ، القتل والزنا ، فأنّى يستقيم لهم الدين ، وأنّى يرجون من الله النصر ؟ ثم ممن يكون هذا التهاون ؟ من أبي بكر ؟ حتى يرميه المؤلف بأنه « كان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيـه لمثل هذه الأمور وزن » وأنه « ما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها » !! أتظنون أيها الناس أن يستطيع رجل من عامة المسلمين ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، فضلاً عن أبي بكر ، أن يرى هذا الرأي ، ثم يزعمَ أنهُ مسلم، أو يزعمَ له أحد أنهُ مسلم ؟ !

أبو بكر يقول لعمر « هبهُ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » وهذا هو الحق ، وتأول خالد واضح لمن فهم شرائع الاسلام وحقائقه، أيقن من ردة مالك بن نويرة ، ولم يوقن من توبته إلا بما شهد له ناس أنهم سمعوا الأذان في ناحيته، وإلاّ قوله لخالد في بعض الروايات أنهُ مسلم ، ولم يشهد أحد لمالك أنهُ أقرّ بالزكاة ، ولم يقل هو ذلك أيضاً ، بل قال لخالد : « إني آتي الصلاة دون الزكاة » . ثم تفلت منهُ بعض كلمات تنبيء عن إصراره ، فلا يرى خالد مناصاً من قتله ، فتكون نساؤه سبياً بحكم الشريعة، ثم نجد أخاه متمم بن نويرة لا يكاد يرثيه بكلمة تنبيء عن إسلامه ، بل يدّعي غدر خالد وغدر ضرار ، ويصرّح بالفرق بين استشهاد زيد أخي عمر ومقتل مالك أخيه. أفلا يكون في كل هذا عذر ومتأوّل لخالد ؟!

ثم بعد هذا كله تبقى ليلى وابنها في يد خالد ملك يمين ، مدة خلافة أبي بكر ، وبعض

خلافة عمر . حتى يأتي متمم بن نويرة فيستعدي عمر على خالد ، وقد صار الخليفة وولي الأمر ، فلا يعديه عمر ، ويأبى أن يغير حكم أبي بكر ، ولكنه يرضيه بأن ردّ عليه امرأة أخيه وابنها . ولسنا نفهم هذا الردّ إلاّ بأن عمر طلب إلى خالد أن يتنزل عنهما ، وهما ملك يمينه ، فيرضى ولا يأبى . استجابةً لرغبة عمر . لا طاعة لحكمه . فليس في سلطان أمير المؤمنين أن يأخذ أموال الناس كرهاً ، ولم يكن ذلك من عملهم ولا من خلقهم . أفيظن ظانّ أن الصدر الأول من أصحاب رسول الله كانوا يقرّون خالداً على استبقاء ليلى امرأة مالك ، وهم يعلمون أنها تعاشره بعقد باطل حرام ، كما يصور المؤلف زواجه إياها قبل تمام طهرها ؟! اللهمّ غفراً .

لشدّ ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون وغيره من ملوك أوروبة ، في مباذلهم وإسفافهم ، وبما كتب الكاتبون من الافرنج في الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم ، بما كان لهم من عظمة ، وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأيادٍ ، حتى يظن بالمسلمين الاولين أنهم أمثال هؤلاء فيقول : « إني التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد » ! ! ! وهذا قول يهدم كلّ دين وكلّ خلق .

إن هذه النظرية ، نظرية تبرير الجرائم والمنكرات ، بعظمة العظماء ، ونبوغ النوابغ ، وارتفاع الزعماء ، وآثار القادة والكبراء ، نظرية خطيرة ، لا تقوم معها للأمم قائمة ، تنحدر بها إلى مهاوي الشهوات ، وتنتهي بها إلى الإباحية ثم إلى الانحلال ، كما انحلت فرنسة وغيرها من الامم ، بما استرسل كبراؤهم وزعماؤهم في التبذل والترف ، وتبعهم العامة والدهماء ، (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً) . ومعاذ الله أن نظن مثل ذلك بالصدر الاول من الصحابة والتابعين ، عهد أبي بكر وعمر ، وسيرتهم معروفة ، وآثارهم مشاهدة ، وفضلهم على العالم كله لا ينكر .

وليت المؤلف الفاضل يشرح لنا في هذا الأمر وجهة نظره ، ويبين لنا لحساب مَنْ يقرّر هذه النظرية الخطرة المدمرة ؟ !

أما قسوة عمر في اتهام خالد عند أبي بكر ، فإنها قسوة الرجل العادل الحازم ، لم يشهد الأمر بنفسه ، ولم يكُ قاضياً فيه ، إنما بلغهُ أمر ، فكان لسان الاتهام ، يقرّر ما سمع ويعرضهُ على الخليفة ولي الأمر ، والخليفة بما يملك من سلطة القضاء ، سأل خالداً عما نسب اليه ، وسمع قول أبي قتادة وغيره ، ثم حكم بما استبان له ، فعذرَ خالداً ، ولم يجد في عمله موضعاً للقصاص ، ولا موجباً للحدّ . فكان حكماً قاطعاً ، لا يجوز لعمر ولا لغيره أن يستأنف النظر فيه ، ولذلك قال لمتمم في خلافته « لا أرد شيئاً صنعهُ أبو بكر » فقال متمم : قد كنت تزعم

أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ، فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلتُ ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر » . وما نظن عمر يفعل ما كان يريد لو كان خليفة ذلك اليوم ، إنما هو يبين عن رأيه في أمر قد نظر إليه من جانب واحد ، هو جانب الاتهام ، ولعله لو قد سمع الطرف الآخر ، طرف الدفاع ، ونظر إلى الأمر من الجانبين كما نظر إليه أبو بكر ، لانتهى إلى ما انتهى إليه حكم أبي بكر . وفي مثل هذا تختلف أنظار القضاة ، ويختلف اجتهاد المجتهدين ، في وزن الأدلة ، وتقدير البراهين . فلن تكون كلمة عمر وحدها حجة على خالد ، تثبت عليه إجراماً لم يثبت عند الحاكم ، وقد برأه الحاكم مما نسب إليه . ولن تكون كلمة عمر وحدها حجة على أبي بكر ، حتى يتهم بالتهاون في شأن جرم يوجب الحد أو القصاص ، وبأنه كان يتزمت في تطبيق التشريع على العامة والدهماء ، ولا يتزمت في تطبيقه على النوابغ والعظماء ! ! كفعل ساسة هذا العصر !

ومع هذا كله فإن عمر رجع عن كل ما كان يظن بخالد وينسبه إليه ، فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبير (٧/٢/١٢١) باسناد من أصح الأسانيد التي يصححها المحدثون في رواية السنة أنه : « لما مات خالد بن الوليد قال عمر : يرحم الله أبا سليمان . لقد كنا نظن به أموراً ما كانت » وليس بعد هذه الشهادة شهادة ، من رجل كان من أشد الناس قسوة على خالد ، وكان لسان الاتهام في هذه الوقعة بعينها . رضي الله عنهم جميعاً .

وبعد : فإن كتاب المؤلف لا يزال مع هذا كتاباً قيماً ، جديراً بما نال من تقدير ، أفدنا منه فوائد جمة ، وأعجبنا بكثير من أبحاثه ، ووقفت عند كثير من روائعه ، مغتبطاً متذوقاً ما فيها من بلاغة ، مهتزاً بما صدقت في الوصف ، وبما احتوت من قوة التصوير . ومن أحسن كلماته التي أوفى فيها على الغاية ، وأطلتُ الوقوف عندها ، كلمة أقتبسها هنا ، لتكون دستوراً لكثير من الباحثين والكاتبين ، علهم ينتفعون بها ، ويتعظون بما وعظهم المؤلف فيها . قال (ص ٣٣) : فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء النـاس ويرونها ميناً باطلاً وحديث خرافة ، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضه ، التماساً للعافية ، وجراً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النفاق في سواد الناس وعامتهم ما تجده في المثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة النـاس والابانة لهم عن وجه الحق في الحياة » .

أحمد محمد شاكر

التغذية الصحيحة

الناس جميعاً يأكلون ، ولكن هناك [illegible] لا يأكلون [illegible]
من يحفر بأسنانه قبره .

والفريق الأول فئة قليلة ، هداها الله سبحانه الى فنون التغذية الصحيحة فعرفوها ، وجعلوها عقيدتهم ، لا يحيدون عن اتباع خططها لسبب من الأسباب [illegible] للصحة [illegible] ولاسيما لقوة [illegible] موقنين بأنها ينبوع حياة [illegible] مستودع [illegible] الشباب [illegible] .

وأما الفريق الثاني ، وهم غالبية الناس ، فقد انحدروا في طريق معوج فيه امتلاء بطونهم بضروب التغذية الخاطئة ، فمضوا بأقدام سريعة نحو أمراض الدائمة ، ومن ثم الى مقابرهم الأنيقة التي شيدوها [illegible] يبتلعونه من أطعمة ميتة ذات ألوان شهية قتالة ، وبما شربوه من سموم طلية فتاكة .

وهذه الفئة الكثيرة نسيت أن الطريق الى الصحة مستقيمة معبدة سهلة ، لا مغاور فيها ولا منعطفات ، وليس اليها غير مسلك واحد ، وهو العود الى الطبيعة في عرائها وشمسها [illegible] ، في ثمارها وخيراتها وجمالها . وقد فاتهم أيضاً أن سر الصحة والقوة والسعادة هي في أحضان الطبيعة عندما نهرع اليها في مرحنا ولعبنا ، ورياضتنا وراحتنا ، ثم في آخر اليوم لما نهجع الى المنام المبكر الهادي ، ونحن من الطبيعة سكارى ، قد احتسينا من كؤوسها رحيقه وسحراً [illegible] .

ان الطبيعة وحدها هي المعلم الأول الذي يلقننا ان الصحة ثروة من السماء ، لها [illegible] الطائلة التي نستطيع أن ننفق منها الى التسعين من العمر ، لا بل وأكثر ، والطبيعة هي التي تعلمنا ان لا ننفق صحتنا هدراً ، والا كنا من المرضى العليلين .

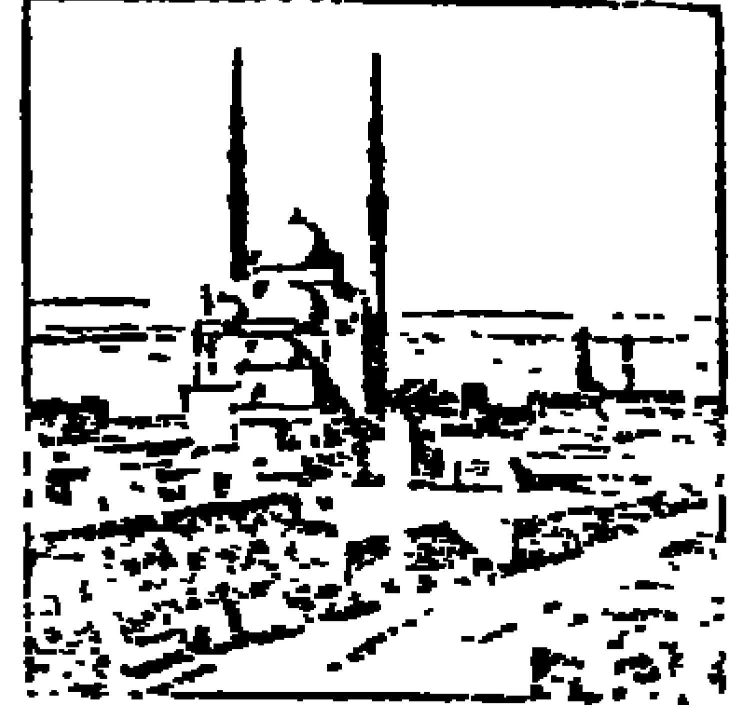
وعندي لو ان المدنية سمعت لصوت الطبيعة المنادي الى ما فيه نفع البشرية ، فوجهت هذه المدنية عنايتها الى فنون التغذية الصحيحة ، وكيفية نشرها بين الناس [illegible] الى تلك المخترعات الحديثة سعدت الانسانية بهدي أكثر من سعادتها بتلك . الا أن الله سبحانه قد أراد للانسان أن يحرر من عبودية التغذية الخاطئة ، فأرسل شعاعاً من رحمته ، دفع بعض عباقرة أمريكا أمثال « لصت » و « هوسر » و « بنجامين » فأخذوا على عواتقهم أداء رسالة مقدسة ، وبدأوا حركة مباركة نحو المدنية للتغذية الصحيحة ، وشاء الله تعالى أن يكلل بالفوز صادق مسعاهم ، والحق انا مدينون لهذه المدرسة الحديثة بكل ما غذوتنا به عقولنا من هذا الفن النافع المفيد .

والتغذية الصحيحة يجب أن تتكون من مواد زلالية ونشوية وسكرية ودهنية وعناصر معدنية وفيتامينات والنسبة الصحية لهذه المواد كما توصل اليها الدكتور « دوجلاس توماسون » في أبحاثه يجب أن تتكون من ١٠ ٪ مواد زلالية و ١٠ ٪ مواد سكرية ونشوية و ١٠ ٪ مواد دهنية و ٢٠ ٪ فاكهة و ٥٠ ٪ خضروات على أن يكون ٩٠ ٪ من مجموع هذه الاطعمة قلوياً و ١٠ ٪ منها حمضياً

والمواد الزلالية هي بانية الأنسجة العضلية وتوجد في اللحم والسمك والبيض واللبن والجبن والبقول والمواد النشوية والسكرية وتولد النشاط والحركة وأنفعها ما كان في الخبز الكامل والعسل الأسود والنحل والمواد الدهنية وتولد الحرارة وهي في الزبد والزيت وأما العناصر المعدنية والفيتامينات فهي أهمها جميعاً حيث تقوم على دعائمها أسس التغذية الصحيحة وهي في الفاكهة والخضر والبقول وأنواع البندق والفواكه المجففة واللبن ومستخرجاته وهذي جميعها قوام الغذاء الكامل الصحي .

وكل من يروم حفظ صحته ، أو ينشد عودها من جديد ، عليه أن يحرص أشد الحرص على أن تكون هذه الأغذية بين طعامه ينتقي منها ماينتقي اليوم ، ويصنف منها مايصنف لآخر

فهمي عطا الله



مسجد المدرسة السامرية
بالشاغور بدمشق

هذا هو الفصل الثاني في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القراء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الخاص بمساجد دمشق الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد طلس

يقول ابن عبد الهادي في ص ١٠٧ :

«وثمّ مساجد لم يذكرها (اي ابن شداد المؤرخ الذي ينقل عنه ابن عبد الهادي) . . . الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي » اه .

• • •

ولم يعلق الأستاذ أسعد على ذلك بشيء مطلقاً فلم يخبرنا أين كانت تقع هذه المدرسة بمدينة دمشق ؟ ومن هو الصاموي (بالصاد والواو) الذي أنشأها ؟ وأي نوع من المدارس أو المعاهد كانت ؟ وفي أي عهد بنيت ؟ الى غير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها لقارىء كتابه، والتي يعتبر تحقيقها أول الواجبات المفروضة على من يتصدى لنشر مخطوط يكاد يكون سجلاً احصائيّاً لمساجد دمشق ومحلاّتها لا يمكن لغير اخصائي في دراسة آثار دمشق ومعاهدها وخططها وتاريخها الانتفاع به الاّ اذا وضعت تحت نظره جميع البيانات التي تجلو له هذه النقط جميعاً بحيث يستطيع ان يفيد من الكتاب الفائدة المقصودة بنشره والتعليق عليه والتذييل له .

والآن نتقدم لبيان ذلك فنقول :

لم نجد بين جميع مساجد دمشق ومعاهدها وآثارها القديمة القائمة حتى الآن معهداً واحداً باسم ابن الصاموي هذا وراجعنا جميع اوراقنا ومذكراتنا عن حارات دمشق ومحلاّتها وأزقتها ودروبها فلم نجد واحداً منها يحمل هذا الاسم . ولم نجد أحداً من المؤرخين او الجغرافيين او الأدباء ذكره أو أشار اليه ، فرجعنا الى الفصل الذي ورد فيه ذكر هذا المسجد في كتاب ابن عبد الهادي فوجدنا الرجل بدأ من صحيفة رقم ١٠٣ يذكر مساجد حي الشاغور بجميع محلاته بما في ذلك المساجد الموجودة بجهة القبلة وباب الصغير فيقول :

الأول : مسجد على باب الصغير ملاصق للسور يعرف بمسجد شجاع الخ .

الثاني : مسجد يعرف بعبد الملك بالشاغور .. الخ .

الثالث : مسجد العنابة بالشاغور الخ .

حتى يصل الى المسجد الثالث عشر فيقول : مسجد يعرف بقبلية السور خارج باب الشاغور ثم يذكر مساجد مقبرة باب الصغير وقبور آل البيت .

ويقول في المسجد الرابع والعشرين : مسجد السماق شرقي الشاغور الخ .

حتى ينتهي الى المسجد السادس والعشرين وهو آخر ما ينقله عن ابن شداد ، ثم يأخذ في ان يضيف من عنده ما لم يذكره ابن شداد من مساجد هذه المنطقة فيقول :

الأول : مسجد في المقبرة (اي مقبرة باب الصغير) يعرف بقبر ويس الخ .

ثم يعدد مساجد اخرى بهذه المقبرة حتى يصل الى المسجد الخامس فيقول :

الخامس : مسجد بالمدرسة التي في اول درب الشاغور من جهة باب الجابية .

السادس : مسجد في التربة التي تحت ذلك من الغرب .

السابع : مسجد تجاه ذلك من الشرق .

الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي الخ . اه

إذن كانت هذه المدرسة بلا شك في حي الشاغور الى شرق باب الجابية . فهل كانت في هذه المنطقة مدرسة او تربة او دار حديث او دار قرآن او رباط او خانقاه او مسجد او زقاق يحمل اسم ابن الصاموي هذا ؟

لقد وجدنا ابن العماد الحنبلي يقول في كتابه شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٣ في وفيات سنة ٦٤١ هـ ما نصه :

« فيها (اي توفي في سنة ٦٤١ هـ) الصدر الرئيس جمال الدين محمد بن عقيل بن كروس محتسب دمشق . كان كيساً متواضعاً دفن بداره بدرب السامري . والله اعلم » اه

ووجدنا النعيمي يترجم لداري حديث كانتا تقعان بحي الشاغور هذا . احداهما المدرسة الكروسية . والثانية المدرسة السامرية ويقول انهما كانتا متجاورتين وان موضعهما كان غربي مأذنة الشحم . يقول النعيمي ما ملخصه :

فصل دار الحديث الكروسية :[1] غربي مأذنة الشحم . قال الحافظ ابن كثير [2] : في سنة

(١) عن دار الحديث الكروسية انظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ١٣٠ ، ١٣٢ (مخطوط) . ومختصر الدارس للعلموي ص ١١ (مخطوط) ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ٧٥ و ٧٦ (مخطوط)

(٢) انظر ترجمة محمد بن عقيل بن كروس في ابن كثير ج ١٣ ص ١٦٣ في وفيات سنة ٦٤١ هـ . وكذلك في شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٣

٦٤١ هـ (توفى) ... الكروسية محمد بن عقيل بن كروس جمال الدين محتسب دمشق ...
وتوفى بداره التي جعلها مدرسة (شافعية) وله دار حديث اهـ

وقال الصفدي في وافيه : المحتسب ابن كروس محمد بن عقيل بن عبد الواحد بن احمد بن حمزه بن كروس جمال الدين أبو المكارم السلمي الدمشقي ... توفى ٦٤١ هـ : اهـ

وقد عاد النعيمي في باب مدارس الشافعية وعقد فصلاً خاصاً بالمدرسة الكروسية الشافعية ذكر فيه موضعها كما يلي :

المدرسة الكروسية (الشافعية) (٣) التي إلى جانب السامرية الشافعية » اهـ

أما المدرسة السامرية : فلم يذكرها النعيمي بمدارس الشافعيــة في فصل خاص وإن كان عني بترجمتها و. دور الحديث قال :

فصل دار الحــديث السامرية (٤) : وبها خانقاه وقفهــا الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس احمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري بفتح الميم وتشديد الراء نسبةً إلى مدينة سرَّ من رأى (سامرّا) وهي بلدة على الدجلة وينسب إليها أيضاً بلفظ السُّرَّمَرِّي وهي إلى جانب دار الحديث الكروسية بدمشق .وكانت داره التي يسكن فيها فدفن بهــا بعد أن وقفها دار حديث وخانقاه . وكان قد انتقل الى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة.وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام بناها من حجــارة منحوتة كلها . وكان السامري كثير الأموال حسن الأخلاق معظماً عند الدولة جميل المعاشرة (٥) له أشعار رائقة ومبتكرات ذائقة.توفى رحمه الله يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة (٦٩٦ هـ).وقد كان له ببغداد حظوة عنــد الوزير ابن العلقمي وامتدح (الخليفة) المستعصم وخلع عليــه خلعة سوداء سنية . ثم قدم دمشق في أيام الناصر صــاحب حلب فحظي عنده أيضاً فسعى فيــه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها باب مصــادمة (ولعلها مصادرة) الملك لهم بعشرين الف دينار فعظموه جداً وتوسلوا به الى أغراضهم...الخ » . اهـ

....

(٣) عن المدرسة الكروسية الشافعية أنظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥١ ومختصر الدارس للعلموي ص ٤٧ ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ١٩٦ . وعن التربة الكروسية أنظر منادمة الاطلال ج ٢ ص ٣٣٦

(٤) عن دار الحديث السامرية وبها خانقاه أنظر النعيمي ج ١ ص ٩٤ والعلموي ص ٩ وبدران ج ١ ص ٥٦

(٥) في النعيمي : جميل الاشعار . وقد صححناه عن ابن كثير (ج ١٣ ص ٣٥١) الذي ينقل عنه النعيمي هذه الترجمة حتى تستقيم العبارة لانه يقول بعد ذلك « له أشعار رائقة» فتكون صحة العبارة هكذا : جميل المعاشرة له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة ... الخ

وقد ترجم له ابن كثير في وفيات [٦] سنة ٦٩٦ كما ذكر في حوادث [٧] سنة ٦٨٦ قصة طلبه إلى مصر ومصادرته بأموال باهظة.

• • •

لم يبق هناك أقل شك في أن مسجد المدرسة الصامورية الذي يعنيه ابن عبد الهادي هو المدرسة الشافعية (والخانقاه ودار الحديث) السامرية المجاورة لدار الحديث (والمدرسة الشافعية) الكروسية وان هذا السامري هو الذي أطلق اسمه على الزقاق الذي كانت تقع فيه المدرسة الكروسية . فأين يوجد هذا الزقاق الآن بدمشق ؟

إننا إذا سرنا الآن بسوق مدحت باشا متجهين نحو الشرق حتى تقاطعه مع شارع سوق البزورية واستمررنا في طريقنا في شارع مأذنة الشحم حتى الناصية الجنوبية الغربية لخان النحاسين فاننا نجد طريقاً يسمى زقاق السلمي متجهاً الى الجنوب ممعناً في حي الشاغور

وقد وجدنا الصفدي يقول في وافيه : ان المحتسب بن كروس محمد بن عقيل صاحب المدرسة الكروسية كان يسمى جمال الدين أبا المكارم السلمي .

فلا شك إن هذا الزقاق الواقع « غربي مأذنة الشحم » هو نفسه الذي كانت تقع فيه مدرسة ابن كروس السلمي وهو نفسه درب السامري الذي ذكره ابن العماد الحنبلي بقوله « ودفن ابن كروس بداره بدرب السامري » . وهذه الدار هي التي يقول النعيمي ان ابن كروس جعلها مدرسة شافعية ودار حديث .

ويستنتج من ذلك جميعه إن هذا الدرب سمي أولاً باسم السلمي حين سكنه وأوقف فيه مدرسته ودفن بها سنة ٦٤١ هـ ثم لما بنى السامري مدرسته بجوار المدرسة الكروسية ودفن بها سنة ٦٩٦ هـ سمي هذا الدرب باسم السامري فكلا الاسمين في نظرنا كانا يطلقان على درب واحد . على إن اسم السامري قد زال من أفواه العامة وبقي اسم السلمي . والظاهر أن ذلك لصعوبة نطق الأول وسهولة الثاني على الألسن . والآن لا يزال هذا الزقاق يسمى باسم السلمي وباسم الدسوقي نسبة الى المرحوم الشيخ الدسوقي » [٨]

• • •

ماذا تبقى من هاتين المدرستين الآن :

يقول الشيخ عبد القادر بدران عن دار الحديث الكروسية في كتابه منادمة الأطلال

(٦) ابن كثير جـ ١٣ ص ٣٥١ (٧) ابن كثير جـ ١٣ ص ٣١٠

(٨) يقول العلموي في مختصر المدارس ص ٩ فصل دار الحديث السامرية « هي بالقرب من محلة مأذنة الشحم زقاق المرحوم الشيخ السالك الدسوقي » أ هـ مما يدل على ان هذا الدرب كان يسمى باسم الدسوقي في عهد العلموي المتوفى سنة ٩٨١ هـ .

ج ١ ص ٧٥ و ٧٦ : «... هذه المدرسة ذهبت أحاديثها إلا من القرطاس وصعّبتها أيدي المختلسين إليها . . . ولقد خفي عليّ مكانها أولاً ثم ظفرت به فإذا هي محل يقال له الآن زقاق السلمي غربي مأذنة الشحم ولما تأملتها وجدت حائطها الشرقي باقياً وبه بركة ماء (أي سبيل) مبنية بحجارة ضخمة من طراز قديم وهندسة معجبة ونقوش بديعة وعن يمينها ويسارها عمودان لطيفان . وصدرها من الحجر المعجن وبابها لم يزل باقياً إلا انه مسدود وبعد ثماني خطوات من البركة نحو الجنوب حجرة لطيفة بلا سقف ولا شباك نحو الطريق وبها قبر مصبوغ بالمغرة يقولون انه قبر السلمي وعن شمالها أثر في الجدار ينادي على أنه كان مدرسة ولعلها أختها السامرية التي أصابها ما أصاب أختها « اي الكروسية » اهـ

وقال في مختصر المنادمة[9] عن هذه المدرسة بعد ان لخص ما تقدم : ولعلها هي بيت السباعي وقد أخبرت أن المحراب كان في هذه الدار »

وقال عن دار الحديث السامرية في منادمة الأطلال ج ١ ص ٥٦ :

« هي بالقرب من مأذنة الشحم بزقاق المرحوم الشيخ الدسوقي وبها خانقاه أيضاً وهي التي الى جانب الكروسية ... وهذا الزقاق مشهور الآن بزقاق السلمي وهو مقابل للزقاق الذي هو وراء سوق البزورية من جهة الشرق . وقد صارت الآن دوراً للسكنى فمحي أثرها واندرست أطلالها ولم يبق منها سوى أحجار في أساس جدار يشير اليها . . .

• • •

اننا نود قبل ان نمضي في بحث بقايا هاتين المدرستين ان نترحم على الاستاذ الفاضل المرحوم الشيخ عبد القادر بدران الدوماني الدمشقي وان نذكره بالخير ونخصه بالثناء لجهده العظيم في تحري الدقة في تحقيق وضبط مواقع الآثار بدمشق . ولا شك انه عانى ما عانيناه من المتاعب والصعاب في هذا السبيل بمدينة دمشق حيث يكثر الاعتداء على المباني الأثرية واختلاسها وتشويهها واضاعة معالمها عمداً من النهابين والمختلسين الذين يتفننون في محو الكتابات والنقوش الأثرية بازالتها او تغطيتها بطبقة من الطين او الاسمنت او رفعها من مكانها وإعادة بنائها بالحائط بحيث يخفى وجهها المنقوش بداخل الحائط . وفي سد الأبواب والنوافذ القديمة سداً كلياً او جزئياً بحيث تخالف الحالة التي كانت عليها او فتح فتحات جديدة واخفاء معالم الجدران القديمة المبنية بالحجارة الضخمة بازالتها او أجزاء منها او طليها بطبقة تخفي البناء الأصلي او ازالة الزخارف العلوية والشرافات والمقرنصات والقباب لبناء الطبقات العليا الى غير ذلك من الأساليب والطرق والوسائل التي ظل العمل جارياً بها طوال قرون

---

(٩) مختصر المنادمة للشيخ عبد القادر بدران (مخطوط)

هدة حتى عهد قريب ، حتى زال من الوجود كثير من الآثار الجميلة الخاصة التي كانت تزدان بها دمشق وينتفي بعضها وبهاؤها المؤرخون الذين شاهدوها وترجموا لها ويتميها ويتحسر على زوالها من أتوا بعدهم ممن آلمهم اختلاسها أو تشويهها أو هدمها وازالتها .
ونستمر في بحثنا فنقول :

إننا إذا دخلنا في زقاق السلمي ونظرنا إلى اليمين وجدنا بالصف الغربي بالمنازل رقم ١٠ و ١٤ و ١٦ و ٢٢ ما يلفت نظرنا .

فنجد في المنزل رقم ١٠ مشيدة قد بنيت جدرانها بالحجارة الضخمة ولها عتب ضخم أيضاً ونجد الجدار بجوارها قد بني من نفس نوع الحجارة مما يميزها عن بقية الجدران والأبنية المجاورة . ثم نجد جداراً أثرياً سفلياً يبدأ من المنزل رقم ١٤ ويستمر جنوباً حتى المنزل رقم ١٦ ومن بعده السبيل الجميل الذي يشير إليه بدران يتلوه جدار أثري هو واجهة مدفن الشيخ السلمي ومن بعده المنزل رقم ٢٢ المعروف ببيت السباعي .

وقد ذهبنا إلى هناك وتقابلنا مع صاحب هذا المنزل فسمح لنا حضرته بمعاينة المدفن فوجدناه ساحة سماوية صغيرة بها قبر وواجهتها على زقاق السلمي من الحجارة الضخمة وبها باب ونافذة يتلوها من الشمال السبيل أو البحرة البديعة الزخارف يحف بها عمودان جميلان ثم يستمر الجدار الأثري من أسفل من نفس نوع هذه الحجارة والبناء في المنزل رقم ١٦ حتى المنزل رقم ١٤

أما المحراب الذي يقول الشيخ بدران إنه قيل له انه ببيت السباعي فقد سألنا عنه فأجابنا صاحب البيت (أو ساكنه الذي تقابلنا معه) بالنفي ولم نجد له أثراً بالمدفن الذي به القبر . ولا استطعنا بأية وسيلة التحقق من وجوده ببيت السباعي أو غيره من الجيران لما هو معلوم من صعوبة دخول المنازل الاسلامية لشدة الحجاب المفروض على النساء فيها وما يتوجسه أصحابها من شرّ من جراء مثل هذه الابحاث الاثرية في أبنية قديمة لما قد تنتهي إليه من نتائج يخشاها أصحاب هذه الأبنية وقطانها . .

هذا هو كل ما تبقى من البناء أو الأبنيــة الأثرية التي كانت تشغل المنطقة الممتدة من المنزل رقم ١٠ حتى آخر المنزل رقم ١٦ وربما كانت تمتد إلى أبعد من ذلك شمالاً أو جنوباً ولكنها قد اختلست وأدخلت في دور السكنى

ولكن هل يمكن مع ذلك ان نجد من الظواهر المعمارية أو الزخرفية أو الحقائق التاريخية ما يساعدنا على الحكم بان هذه الجدران هي حقيقة البقية الباقية من المدرستين الكروسية والسامرية ؟

ان البراهين والحقائق التي يمكن ان تساعدنا في اثبات ذلك هي :

أولاً : البرهان التاريخي المستمد من رواية النعيمي عن موقع هاتين المدرستين متجاورتين «غربي مأذنة الشحم» وهذا ينطبق تماماً على الموقع الحالي لبقايا المدرستين المذكورتين بزقاق السامري (على رواية ابن عماد الحنبلي) المعروف باسم زقاق السلمي أو الدسوقي. (على رواية العلموي).

ثانياً : الرواية المتواترة عند أهل الحي بأن هذا القبر هو قبر السلمي. وقد سمي الزقاق باسمه. وقد كان صاحب المدرسة الكروسية يسمى محمد بن عقيل السلمي (كما يقول الصفدي) مما يدل على أن المدرسة الكروسية كانت بهذا الموضع . لما جرت به العادة في ذلك الوقت من وقف المنازل الخاصة مدارس ودفن أصحابها بها وتسمية الأزقة والدروب باسماء (الأولياء) المشهورين بها .

ثالثاً : ان هذه البحرة (او السبيل) المجاورة للمدفن على امتداد الواجهة بزخارفها البديعة وخاصة الجزء العلوي منها تذكرنا بالطرز الزخرفية التي كانت سائدة بدمشق في منتصف القرن السابع الهجري . وهي تعد في نظرنا — بحسب ما وصل اليه علمنا — أجمل بحرة من العصر الأيوبي بدمشق وغيرها من المدن الاسلامية العديدة التي أتيحت لنا فرصة زيارتها ودراسة آثارها . ولا تشبهها في طرازها وزخرفتها بقية البحرات الأخرى بدمشق التي أنشئت بعد ذلك في العهدين المملوكي والتركي . فإن هذه البحرات قد خضعت لأساليب العمارة وفنون الزخرفة الغالبة في هذين العهدين من أمثال البناء بالمداميك الرفيعة من الحجر الابلق (الأبيض والأسود أو الأصفر والأسود على التعاقب) أو زخرفة أجزائها العليا بمقرنصات دقيقة بديعة مدلاة أو تحلية العقود بصنج على شكل الوسائد المتراصة أو نقش الشارات والرنوك عليها او تحليتها بالنقوش الهندسية او العناصر النباتية او الفسيفساء الجصية او الخطوط المملوكية او العثمانية الخ . . . علاوة على ان الكثير من هذه البحرات مؤرخة من العهدين المملوكي والتركي . مما لا يجعل هناك اي شك في نسبتها للعصور التي بنيت فيها .

رابعاً : ان البناء بالكتل الضخمة والمداميك العريضة كان من مزايا العمارة الأيوبية وان العصرين المملوكي والتركي يتميزان بالبناء بالحجر الأبلق والمداميك الرفيعة فيما عدا الأبنية الحربية والتحصينات وقد رأينا ان واجهة مدفن السلمي والجدار الى جانب السبيل وبقايا الجدار السفلي الممتد حتى المنزل رقم ١٤ مبنية جميعاً بمداميك عريضة ايوبية مما يثبت ان هذا الجدار هو من بقايا هاتين المدرستين .

وخلاصة القول ان المدرستين الكروسية ، والسامرية كانتا تقعان بزقاق السلمي هذا ، الأولى الى الجنوب منها البحرة (أي السبيل) والثانية الى الشمال منها .

وان الاسم الصحيح الذي كان يجب أن ينشر في كتاب «ثمار المقاصد» هو ابن السامري

سلالة تتهيأ للانقراض ....

سكان أوستراليا الاصليون من أقدم السلالات البشرية . يعيش هذا الانسان كما كان يعيش منذ آلاف من السنين ، ويقول الاجيالون : وهم الذين يبحثون في طبائع اجيال البشر Arthropologists انه ربما لا يتغير فيظل كما هو حتى ينقرض ويفنى من الوجود . وقد لا يطول انتظار وقوع هذا الحادث .

عند ما استعمرت هذه القارة أخذ هذا الانسان ينطوي مرتداً نحو الشمال شيئاً بعد شيء حيث اتخذ من تلك الانحاء معاقله الاخيرة ازاء المدنية . وفي أوستراليا الآن نصف مليون من هذه السلالة ؛ غير ان هذا العدد آخذ في التناقص سنة بعد سنة ، ولا يزال أفرادها عاكفين على عاداتهم القبلية واحتفالاتهم الدينية وشرائعهم الخاصة بالاسرة والتعامل .

وسوف يظلون على نزعتهم في مواجهة البيض وقتلهم اذا خيل اليهم ان هنالك ما يمس شرائعهم القبلية من النظامات . ومنذ عهد قريب وقع فلول من البيض في قبضة هؤلاء البدائيين، فدفعوا ثمن تدخلهم غالياً جداً ، إذ فقدوا حياتهم جزاء ما أرادوا بهم من اصلاح . وشاءت حكومة أوستراليا أن تحاكم المجرمين بمقتضى قوانين البيض المدنية ، ولكن اتضح ان رجال هذه القبائل الذين قدموا للمحاكمة ، لم يفقهوا مما يجري من حولهم شيئاً . وظهر انهم يعتقدون انه من حقهم أن يقتلوا اذا مست عاداتهم بصورة من الصور .

ان قانون « بقاء الاصلح » هو القانون السائد في حياة هذه القبائل . وعلى شبابهم أن يثبت بلوغه طور الرجولة بأن يقتل وأن ينهب ويغتصب . وليس لونهم السواد ، بل هم الى السحمة : وهي يضم الصاد سواد الى صفرة أو غبرة أو سواد قليل . فاذا أزيل ما على البدن من الشحم المفرز مع العرق ، كان لونهم أغبر أو أحمر الى الدكنة . وليس فيه شيء من الجمال . أما لون عيونهم فالسواد الى الغبرة ، وبياضها الى الصفرة : وهم سلالات بدوية متنقلة وعيشهم بالصيد . فلم يزرعوا أرضاً ولم يفلحوا شيئاً من محاصيل الزراعة . ويأكلون النمل الى جانب ما يأكلون من الكناجر والخنازير البرية والثعابين والفيران وعسل النحل وكل ضروب الحشرات . واذا فدح بهم الجوع أكل بعضهم بعضاً .

وقد يعمل بعضهم في مراعي الحيوان التي يملكها البيض ، غير انهم لا يلبثون غير قليل حتى يعودوا الى حياتهم البدوية . وتعمل الحكومة الاسترالية على وضع قواعد تحميهم بها من الفناء كالقواعد التي وضعتها حكومة الولايات المتحدة لحماية الهنود الحمر . غير أن الاجياليين يعتقدون أنه ما من شيء يحميهم من الانقراض .

(صاحب المدرسة السامرية) لا ابن الصاموي كما ذكره الاستاذ أسعد .

وقد علمنا من ترجمة السامري ان اصله من سامرا وانه كانت له حظوة عند الوزير ابن العلقمي ببغداد وانه امتدح الخليفة المستعصم فخلع عليه خلعة سوداء سنية . ثم رحل بعد ذلك الى دمشق واستوطنها وأنشأ بها مدرسته التي مات ودفن بها .

القاهرة السيد محمد رجب

وقع تحريف في الصفحة ١٣٤ س ١ من مقتطف يوليو الماضي في كلمة برج الصفر وصوابها سرج الصفر

عن هيني : شاعر الحب والجمال والحرية

قارئي بعد حين

لا تضحك (1)

« كلمات قديمة كأنها كتبت اليوم »

قارئي العزيز : ليفهم كل منا صاحبه ، مرة وبلا ردة إنني لم أبجل في حياتي فعلا . إن ما أبجله هو الروح الانساني . ما الفعل إلا الوشاح الذي يتشح به الروح . وما التاريخ إلا الأسمال الخلقة التي خلعها الروح الانساني . غير أن الحب قد يتصل ، بعض الأحيان ، بالقسمات والأردية القديمة . فأراني أحب عباءة مارنجو (2)

« نحن الآن في ساحة موقعة مارنجو »

لشد ما اضطرب قلبي في صدري عندما فاه السائق بهذه الكلمات . كنت قد غادرت « ميلان » في الليلة السابقة ، برفقة لتواني رفيع الأدب ، كريم الخلق ، تظاهر بأنه روسي . وفي صبيحة اليوم التالي شهدت الشمس تبزغ على ساحة الموقعة المشهورة .

هنا شرب الجنرال « بونابرت » جرعة مترعة من كأس الصيت والشهرة فأسكرته ، ومضى في سكرته حتى أصبح قنصلا ، ثم عاهلا ، ثم غازيا عالميا ، ولم يفق من سكرته هذه إلا من فوق صخور القديسة هيلانة . ولسنا بأحسن منه حالا . فقد نسكر نحن أيضا ونشاطره أحلامه ، ثم نفيق . وفي تعاسة الصحوة تؤخذ بمختلف ضروب النظر والفكر اليقظ — وكأني أعجب هل أصبح المجد الحربي لهوا قديما ، وان الحروب قد لبست معنى أنبل من معناها القديم ، فذهبت ومعها نابليون ، الذي قد يكون — آخر الغزاة ؟

يظهر كما لو أن لبانات روحية ، أكثر منها مادية ، قد علق بها الانسان في هذا العصر ، وكما لو أن التاريخ الانساني قد تحول فلم يصبح حديث اللصوص ، بل حديث الفكر ، وكما لو أن القومية ، ذلك الصمام الذي حذق الأمراء ، ذوو الأطماع والشهوات ، كيف يستخدمونه قضاة لأغراضهم ، القومية بما فيها من غرور وبغض ، قد بليت وعلاها العفن

(1) From "Journey from Munich to Genoa, 18

(2) مارنجو قرية على ثلاثة أميال جنوب شرق اليساندريا في ايطاليا ، واشتهرت بموقعة ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ التي [illegible] ، وكان نابليون يرتدي عباءة [illegible] بجزيرة القديسة هيلانة . ولما مات كانت بجواره ، فسجي بها .

نرى في كل يوم إن بعض حماقات القوميه يختفي إثر بعض ، وان كل مقوماتها الخشنة قد مضت تنحل ، وتغيب في شمولية الحضارة الاوربيّة . أصبحنا ولا نرى في أوربا من أمم بل نرى أحزاباً ، نكبر فيها أنها بالرغم من اختلاف اللون وتباين اللغة ، قد تعرف ، بل وقد تفهم ، بعضها بعضاً جدّ المعرفة . وكما إننا نعلم أن هنالك سياسة ماديّة تنتحيها الدول، نعرف أن هنالك سياسة روحانية تؤيدها الأحزاب .

بالرغم من أن السياسة الدولية قد تقلب أتفه المشاحنات التي تقع بين أقل الامم شأناً ، حرباً أوربية شاملة يشترك فيها الجميع بحماسة تضطرم بشدة أو بضعف ، بحسب ما يختص وراءها من مصالح ، فانه من المستحيل في هذا العصر أن تقع في طرف من أطراف العالم مشاحنة، مهما تفهت وذلت ، لا تتجلى فيها تضمينات روحية واسعة النطاق، تعبّر عنها تلك السياسة الحزبية ، ومن غير ان تضطر أشد الأحزاب تنافراً وبعداً عن التآلف ، الى الاشتراك فيها تأييداً أو نفياً .

بمقتضى هذه السياسة الحزبية ، التي أدعوها سياسة الرّوح ، لأن لباناتها أقل ماديّة وعُدَدُها في التنابذ ليست مصبوبة من معدن مصهور ، وبمقتضى انها تنظم الامم صفين متقابلين ، كما تفعل الدول السياسية تماماً ، أدرك أن هنالك معسكرين متشاحنين ، آخذين في النماء والنشوء ، يتحاربان ، بالكلمات ، ويتقاذفان بالنظرات . إن نداءات الحرب بينهما تختلف يوماً بعد يوم ، كما يختلف الذين يتلونهما آونةً بعد أخرى . وكذلك الفوضى ، فانها لا تنقصهما . فالغالب ان أعظم الخلافات قد تزيد ولا تنقص ، بفضل الزعماء الذين يحرّكون تلك السياسة الرّوحية (١) .

ولكن .. .. بالرغم من أن العقول قد تخطىء ، فان القلوب قد تشعر بما تحتاج اليه ؟ وإن الزمن لكفيل بأداء واجبه الأعظم . فما هو ذلك الواجب الاسمى الذي يضطلع به زماننا .

إنه التحرير !

لا تحرير أهل ارلاندا أو اليونان أو يهود فرنكفورت أو سود جزائر الهند الغربية أو غير هؤلاء من الأجيال المستبد بهم ، بل تحرير العالم كله ، وبخاصة أوربا التي استطاعت أن تحظى بنفوذ الأغلبيات ، وهي اليوم تمزق أصفادها لتفلت من براثن الأرستوقراطية الحَمْر .

إن بعض المرتدين عن دين الحرية من الفلاسفة ، قد يحاولون إن يحيكوا من المنطق أقسى القيود وأعتى الأصفاد ، ليبرهنوا على ان الملايين من الناس قد ولدوا ليكونوا دواب للحمل ، يستخدمها بضعة آلاف من الارستوقراطيين .

(١) يشير الى نشوء الأحزاب الاجتماعية التي رمت الى القضاء على تفضيل الطبقات .

إنهم ليقصمونا ، أو يظهروا ، كما قال فولتير ، إن الأولين قد ولدوا وعلى ظهورهم السروج ، وإن الآخرين قد ولدوا وفي أكعابهم المهاميز .

لكل عصر واجبه . ذلك الواجب الذي تتحرك الدنيا نحوه لانجازه . قد يمكن أن تكون الفوارق والامتيازات التي خلفها عصر الاقطاع في أوربا ضرورة فيما مضى من الزمن ، وقد تقول أنها كانت حالة محتومة اقتضتها ضرورات التقدم نحو الحضارة . ولكنها الآن تعرقل أوربا وتركها تتعثر ، فتثير كل القلوب التي تقدس الحرية .

إن الفرنسيين ، وهم أكثر الشعوب اجتماعية ، كانوا بالضرورة أشد تأثراً بهذه الفوارق ، لما لحظوا فيها من عداء لمبدأ الاجتماعي . فسعوا الى تحقيق المساواة ، وعمدوا الى الاطاحة في غير عنف ، ولكن بثبات وعزم ، برؤوس أولئك الذين أرادوا أن يؤيدوا الفوارق بين الطبقات بكل ثمن ، وكانت ثورتهم أول اشارة للانسانية كي تهب إلى حرب التحرير .

فلنمجد أهل فرنسا !

لقد عنوا كل عناية بأعظم حاجتين من حاجات الجمعية البشرية : الغذاء الطيب ، والمساواة المدنية . لقد خطوا أعظم الخطوات في أمرين الطهي والحرية .

وإذا قدر لنا أن نجلس جميعاً مرحين متساوين في وليمة نضع فيها أساس التفاهم — وأي شيء أرضى للنفس من صحابة من الأنداد حول مائدة ممتعة ؟ إذن فلنشرب نخب فرنسا اولاً .

غير أني اتوقع انه سوف يمر بعض الزمن قبل ان تقام هذه الوليمة ، وقبل ان يتم تحرير الناس جميعاً . ولكنها لا بد آتية لا ريب فيها . فاذا أتت فسوف نجلس الى مائدة واحدة ونحن متساوون وفي سلام . سنتحد حينذاك . واذا اتحدنا شرعنا نحارب غير ذلك من شرور الدنيا ، وربما شرعنا في النهاية نحارب الموت نفسه ، ولو ان نظامه في المساواة لا يرمينا بحسبة أنكى من تلك التي يرمينا بها مذهب تفاضل الطبقات ، الذي يعتنقه الارستقراطيون .

قارئي بعد حين لا تضحك !

ان كل عصر يظن ان معركته التي يخوض غمارها هي أهم المعارك جميعاً . ان هذه الحقيقة التي تنطوي عليها عقيدة العصر . انها تعيش وتموت فيه . وكذلك نحن . سوف نعيش ونموت في هذا الدين ، دين الحرية . ولقد تكون الحرية أخلق بهذا الاسم من ذلك الخيال الفارغ الذي يضفي عليه هذا الاسم

ليظهر لنا ان معركتنا المقدسة التي نخوضها هي أهم المعارك التي شهدتها الأرض . ذلك على الرغم من ان القياس التاريخي يوحي الينا بأن أحفادنا سوف ينظرون اليها ، نفس تلك النظرة الهازئة التي نلقيها على معارك أسلافنا الاولين ، الذين قاتلوا أشباه الذين نقاتلهم اليوم من السعالي والعمالقة والأغوال .

أهل الذمة

في العصر الفاطمي

من المبادىء التي اتبعها المعز لدين الله الفاطمي منذ فتحه مصر حرية العقيدة إذ جعلها حقًّا للمصريين جميعاً فكان لليهود دينهم وللنصارى دينهم ، وكان الناس في عهده وفي عهد من أتى بعده من الخلفاء الفاطميين، متساوين تربطهم رابطة انسانية واحدة، وتظلهم راية واحدة هي راية الوطن . ولا غرو فالدين الاسلامي ترك للذميين الحرية التامة في اتباع احكام دينهم وبذلك قضى على معظم الخلافات التي كثيراً ما فرّقت بين المسلمين وأهل الذمة

والخليفة الفاطمي انما يتبع في هذه الحرية سنة المسلمين منذ فتح عمرو بن العاص مصر ايام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ويطبق الشريعة الغراء التي تقرّر المساواة التامة بين المسلمين وذوي العهد في كل شيء دنيوي والتى تجعل الود موصولاً بين أتباع موسى وعيسى ومحمد . فقد قال تعالى « لكم دينكم ولي دين »[1]. وقال ايضاً « لا اكراه في الدين »[2]. وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[3] وغيرها من الآيات الكريمة ، التي تدل دلالة واضحة على تسامح الدين الاسلامي مع الذميين ، وان الله خلق الانسان حرًّا مختاراً ان شاء آمن وان شاء كفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[4] ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « من آذى يهوديًّا او نصرانيًّا كنت خصماً له يوم القيامة »[5] ويقول « استوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمّة ورحماً »[6]

(١) الآية ٦ من سورة الكافرين رقم ١٠٩ (٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) الآية ٩٩ من سورة « يونس » رقم ١٠ (٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف رقم ١٨

(٥) السيوطي حسن المحاضرة ص ٦٧ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ١٠٧ نقلا عن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ص ١٦٢

(٦) أما الذمة فلأن الرسول عليه السلام تسرى منهم مارية القبطية التي أهداها اليه المقوقس فولدت له ولده ابراهيم في ذي الحجة سنة ٨ هـ. أما أختها « سيرين » فقد وهبها النبي عليه الصلاة والسلام الى « حسان ابن ثابت » . مات ابراهيم وعمره ١٦ شهراً وقيل ١٨ شهراً وصلى عليه الرسول ودفنه بالبقيع . أما الرحم فلأن هاجر ام اسمعيل بن ابراهيم من القبط ولقد اتبع الفاطميون سنة نبيهم وتزوج مثلاً العزيز بامرأة نصرانية وعين أخويها بطريركين ملكيين أحدهما بالاسكندرية والآخر ببيت المقدس . الكندي فضائل مصر المخطوطة ورقة ٣ [illegible] التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٤٤ — ١٤٥ وابن الاثير اسد الغابة ج ١ ص ٣٨ — ٣٩

ويقول عليه الصلاة والسلام « وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم في دينكم » ورد على الذين قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله بقوله « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرّغون للعبادة » (١)

ونرى أن هذا الحديث موضوع وضعه الأقباط ، وهو يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به الكتّاب النصارى في الدولة الاسلامية

ولقد أوجدت المعيشة المشتركة بين المسلمين وأهل الذمة منذ البداية نوعاً من التسامح ، وآثر أصحاب الأديان المختلفة أن يعيشوا متقاربين متفاهمين ، ولكن المعز لدين الله نمّاها هو وغيره من الخلفاء الفاطميين ، فكان أهل الذمة في زمنه أحراراً في تقاليدهم وعاداتهم لا يضيق عليهم إلاّ اذا دعت المصلحة العامة لهذا التضييق . فمثلاً أبطل المعز لدين الله مهرجان ليلة الغطاس إذ شاهد بنفسه مايحصل فيه ليلاً من المفاسد من قصره الذي كان يشرف على النيل إذ تجاهر الناس فيها بشرب الخمر وأفرطوا في اللهو والفساد . كذلك منع المعز لدين الله القبط من صب الماء على الناس في الطرقات يوم النوْروز (أو النيرُوز) ، ومنع الناس من ايقاد النار في تلك الليلة لما يأتون من الافراطات . يؤيدنا في هذا الرأي ان هذا الخليفة كان يحتفل بمواسم النصارى فيضرب خمسمائة دينار ذهباً (عشرة آلاف خروبة) ، ويفرقها على جميع أرباب الرسوم يوم خميس العهد الذي يسميه العامة « خميس العدس » والذي فيه يتهادى النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، كما كان من رسوم الدولة ان تفرق الموائد التي بها السمك والزلابية والبوري في عيد الميلاد المسيحي على أرباب الدولة من أصحاب السيوف والأقلام ، كما كانت تفرق الدولة النارنج والليمون والقصب والسمك وغيرها برسوم مقررة لكل واحد من ارباب السيوف والأقلام في يوم الغطاس (١١ طوبة) (٢)

إنهم جميعاً في الانسانية اخوان وأعوان . لذلك رأى الخليفة الفاطمي ، كما رأى المسلمون من قبله ، ان العقيدة يجب أن تترك امرها لعلام الغيوب وحده ، لأن النبي عليه السلام يقول « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافراً فليس بينها وبين الله حجاب » ويقول أيضاً « من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته او انتقصه او أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (٣)

ومن الأمور التي انزعج لها المسلمون أيام الدولة الفاطمية كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، حتى كان النصارى واليهود هم الذين يحكمون المسلمين

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة ص ٤ و ٩ (٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٤٦ والمقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٩١ — ٣٩٢ وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٦ و ٥٩ (٣) أبو يوسف الخراج ص ١٤٥

في بلاد الاسلام . نعم إن الشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ، ولكن هذه السياسة وان اختلفت ليناً وشدة ورأفة وعنفاً على توالي الأيام ، فنهـا مكنت أهل الذمة من الحصول على المناصب الهامة في الدولة ، فكان منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية وبذلك جمعوا ثروات طائلة واصبحوا ذوي سلطان ونفوذ .

وتحدثنا المصادر التاريخية عن كثير من أهل الذمة تولوا أرفع المناصب في الدولة الفاطمية وعوملوا برفق وعناية من خلفائهم فتمكنوا من مرافق الدولة وعظم نفوذهم وسلطانهم فكثر لديهم المال . فمثلاً كان طبيب المعز لدين الله قبل ولايته للعهد « اسحق بن سليمان اليهودي » طبيب المنصور والد المعز ، ثم بعد موت والده اتخذ « موسى بن العازار » طبيباً له [1] . كذلك استوزر المعز من اهل الذمة « ابا الفرج يعقوب بن كلس » [2] الذي كان يهوديًا وأسلم فكان متفوقاً في المالية ماهراً في الادارة ، ووضع نظم الادارة الفاطمية بمصر وانتعشت البلاد في عهده وكان الرخاء وافراً في وادي النيل . ولما مرض ابن كلس مرض الموت ركب العزيز بالله اليه وعاده وقال له « وددت انك تباع فأبتاعك بملكي وولدي » ولما توفي سنة ٣٨٠ هـ حضر الخليفة جنازته وصلى عليه وألحده في قبره وكان دفنه في قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه [3] ولا ادل على ثروته من انها احتوت من الجواهر الثمينة

....

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٥ والقلقشندي صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٦ والمقريزي اتعاظ الحنفا ص ٥٧ Lane Poole a History of Eygpt in the Middle Ages p. 12[illegible] —Margolouth Cairo, p. 41-42—Mann, The J[illegible], p. 17

(٢) كان ابو الفرج يعقوب بن كلس يوسف الملقب بابن كلس (٣١٨ — ٣٨٠ هـ و ٩٣٠ — ٩٩١ م) يهودياً من أهل بغداد فيه فطنة وذكاء خرج الى الشام بالرملة في شبابه واشتغل بها في التجارة وأثقلته ديون عجز عن ادائها فهرب منها بعد مدة الى مصر فرأى منه كافور الاخشيدي فطنة سياسية ومعرفة بتصريف الشؤون فقال « لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » وأسلم سنة ٣٥٠ وقيل سنة ٣٥٦ هـ على يد كافور ولما مات كافور قبض عليه الوزير « جعفر بن الفرات » وزجه في السجن وصادر أمواله لأنه كان يحسده ويعاديه فما زال يسعى ويبذل الاموال حتى أفرج عنه وفر من مصر سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) الى المغرب. ودعا المعز الى فتح مصر بعد أن وصف له غناها واضطراب أحوالها وضعفها . ولما دخل المعز مصر ليتملكها دخل معه وترقى ابن كلس حتى وصل عنده الى منصب الوساطة وأصبح حجة في العلوم الاسلامية بفضل ذكائه وانكبابه على العمل. ولقد ألف ابن كلس كتاباً في الفقه على مذهب الفاطميين وهو المعروف بالرسالة الوزيرية نسبة الى مؤلفها الوزير يحضر بنفسه في الناس عامتهم وخاصتهم لقراءته . وكان أول من فكر في جعل الجامع الازهر معهداً بمدرسة المنتظمة . ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٠ و ج ٣ ص ١٠[illegible] — ٣٩٦ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٠ و ٢١ و ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠ وابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥١ و ج ٤ ص ١٥١ وابن ظافر اخبار الدول المنقطعة ورقة ٤٧ — ٤٨ و ٥١ — ٥٢

(٣) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

ما قدر قيمته بمائة الف دينار ، وقيل ٤٠٠ الف دينار [1] . وكان اقطاعه من العزيز بالله الف دينار وله اربعة آلاف غلام من العبيد والمماليك [2] ولما مات ابن كلس رد العزيز بالله النظر في الاموال الى عيسى بن نسطورس المسيحي [3] ثم رفعه الى منصب الوساطة .

وكان مَنَشّا بن ابراهيم القزّاز اليهودي والياً على الشام ايام الخليفة العزيز بالله ، وكان طبيب هذا الخليفة وطبيب والده الحاكم بأمر الله « ابو الفتح سهل بن مُقَشّر النصراني المصري . ولما مرض الحاكم وداواه ابن مقشّر اعطاه عشرة آلاف دينار [4]

ورقي « فهد بن ابراهيم » النصراني الى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد ان كان كاتباً ولقب بالرئيس وخلع عليه الخلع وحُمل على بغلة وقيد بين يديه بغلة اخرى وحمل بين يديه عشرون ثوباً .

كذلك تقلد الوزارة « منصور بن عبدون » النصراني سنة ٤٠٠ ﻫ كما تقلدها زرعه ابن نسطورس المتوفى سنة ٤٠٣ ﻫ وهو اخو عيسى بن نسطورس السالف الذكر ايام الخليفة الحاكم بأمر الله .

وفي ايام الخليفة المستنصر تولى الوزارة « ابو سعد منصور بن ابي اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور النصراني الذي كان نصرانيًا وأسلم ، كذلك تولى ابو سعد التستري وكان يهوديًا فأسلم نظارة أم الخليفة المستنصر الخاصة .

وكان ابو نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله وقد امر هذا الخليفة ان يعمل لأبي نجاح بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة له من الصوف الابيض المنسوج بالذهب ليلبسها ومن فوقها العفافير الديباج وسمح له ان يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة وكان يشم ريحه من مسافة بعيدة لتطيبه بالمسك يوميًا [5] ؟ كما تقلد الاحزم بن ابي زكريا أمر الدواوين أيام الخليفة الحافظ كذلك عهد هذا الخليفة الى بهرام الارمني النصراني سنة ٥٢٩ ﻫ بالوزارة وعهد الى اخيه المعروف بالباساك بولاية قوص . ولما مات بهرام سنة ٥٣٥ ﻫ حزن الحافظ لدين الله عليه حزناً شديداً وأخرجه عند صلاة الظهر في تابوت

(١) ابن منجب الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ (٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٣ ص ٥٣٩ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ — ٤٢٠ ، Lane Poole. A, History of Egypt. p. 119 (٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي ج ٢ ص ١١٣ (٤) ابن العبري مختصر تاريخ الدولة (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ والاستاذ عنان الحاكم ص ٣٧ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٥ والدكتور حسن ابرهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢٠٥ نقلا عن يحيى بن سعيد ص ١٨٥ - ١٨٦ (٥) ابن ظاهر اخبار الدول المنقطعة مخطوط ورقة ٥١—٥٢ و٧٥ وابن ميسر حوادث مصر ج ٢ ص ٥٦ و ٧١ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ والعيني عقد الجمان المخطوط المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠

عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر منهم احد من الاعيان . وخرج الخليفة راكباً بغلة خلفه والقسس يقرأون الانجيل ولقد بكى الخليفة بكاءً شديداً عليه عند ما وضع في قبره[1] ولا شك ان المسلمين كانوا يكرهون ان يكون احد من اهل الذمة في منصب رفيع كالوزارة ، لا سيما وان من رسوم هذا المنصب ان يصعد الوزير مع الامام المنبر في الاعياد ايزرّر عليه المزرّة (الستارة) الحاجبة له عن الرعية ، وغير ذلك من الامور التي تتصل بعوائد المسلمين الدينية مما اضطر الخليفة ان يضع تقليداً جديداً ، يتعهد الى القاضي في القيام بمثل هذه المهامّ عند ما يكون الوزير من اهل الذمة[2] غير ان اهل الذمة عند ما ولاهم الخلفاء الفاطميون اكبر المناصب في الدولة أظهروا محاباة ظاهرة لبني ملتهم فعينوهم في المناصب الحكومية ومنعوا المسلمين اصحاب الاغلبية العظمى في البلاد من ان يستخدموا : فكانوا بذلك العاملين على بث شعور الكراهية والبغض بينهم وبين المسلمين فتذمر المسلمون وقاموا بالاحتجاج عند الخليفة بين الفينة والفينة فكان ذلك سبباً في اعتزالهم واقصائهم من مناصب النفوذ ، كذلك سخط المسلمون على أهل الذمة في العصر الفاطمي لأنهم تمكنوا من جمع الثروات ووقفوا قسماً كبيراً من أراضي مصر على الكنائس والأديرة ، ولأنهم تسلطوا على عقول الخلفاء .

فاذا قسا خليفة فاطمي على أحدٍ من أهل الذمة فانما كان يقسو في اعتقادنا تحت ضغط الرأي العام الاسلامي ، الذي كثيراً ما آلمه محاباة نفر من أهل الذمة وايثاره بكل النفوذ والسلطان وحرمان المسلمين من حقهم الطبيعي في تقلد الوظائف العامة ومن هنا نشأ القبض على بعض أهل الذمة وحبسهم وعزلهم ومصادرة أموالهم وقتلهم أحياناً .

تحدّثنا المصادر التاريخية انه وقفت امرأة في طريق الخليفة العزيز بالله (وقيل صورة مصنوعة على هيئة امرأة) بقصة (شكاية) فيها « يا مولاي بالذي أعزّ النصارى بعيسى ابن نسطورس واليهود بمنشا بن ابراهيم القزاز وأذل المسلمين بك ، ألا نظرت في أمري »[3] لأن عيسى مال الى النصارى وقلدهم الاعمال والدواوين ومنع المسلمين منها وسلك مسلكه

---

(١) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٨٤ والداودار زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة المخطوط ورقة ١٧٥ — ١٧٦ والعيني عقد الجمان المخطوط ورقة ٤١٩ — ٤٢١ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨ وانظر Lane-Poole, A. History of Eygtitpn he Middle Ages p.121

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٧٩ (٣) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٣١ وخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١١١ — ١١٢ والعيني عقد الجمان ورقة ٤٢١ — ٤٢٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

منشا بالشام فرفع اليهود واستخدمهم وبذلك استولى اليهود والنصارى على الدولة واعتزوا بهما وآذوا المسلمين

وسواء أصحت هذه الرواية ام كانت مختلقة لأنها رويت لأكثر من خليفة فنسبت الى العزيز بالله احياناً [١] والى الحاكم بأمر الله احياناً اخرى [٢] فهي لدينا ذات مغزى هي ان نفوذ اهل الذمة طغى واستعانتهم ببني جنسهم ازدادت حتى تكوّن في مصر رأي عام يقول بالحد من سلطانهم وعدم اصطناعهم لبني جنسهم

فمثلاً عيسى بن نسطورس حابى أهل ملته وعينهم في الوظائف الهامة بعد ان عزل الكتبة وجباة الضرائب من المسلمين . ولما عوتب في ذلك قال « إن شريعتنـا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة فمتى كان منكم الينا احسان حتى تطالبونا بمثله ان مانعناكم قاتلتمونا ، وان سالمناكم أهنتمونا إذا وجدنا لكم فرصة ، فاذا تتوقعون أن نصنع بكم » [٣] ؟

لذلك لما عاد ابن نسطورس الى منصبه اشترط عليه استخدام المسلمين [٤] أما منشا ابن ابراهيم القزّار فقد اتبع نفس سياسة ابن نسطورس ببلاد الشام بالنسبة لأهل ملته اليهود فملأ الوظائف بهم وخفض الضرائب المفروضة عليهم [٥] أما أبو سعد التستري اليهودي فقد تعسف بالمسلمين وحابى أهل ملته حتى كان المسلمون يحلفون بهذه العبارة « وحق النعمة على بني اسرائيل » وهذا ما حدا بالشاعر أن يقول في هذا اليهودي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك [٦]

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ان هـذا الشاعر يحتمل أن يكون الرضي بن البواب [٧] وهو شاعر معاصر .

وما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أن يقول :

تنصرْ فالتنصر دين حقٌ عليه زماننا هـذا يدلُّ

....

(١) ابن طاهر أخبار الدول المنقطعة المخطوط ورقة ٥٢ و ٥٣ (٢) الذهبي تاريخ الاسلام المخطوط ج٣ ورقة ٢٨٧ (٣) النويري نهاية الارب ج٢٦ ورقة ٥٠ (٤) النويري نهاية الارب ج٢٦ ورقة ٤٩
(٥) Mann, The jews in Egypt & Palestine under the Fatimid Caliphs pp. 19 — 20
(٦) ابن ميسر أخبار مصر ج٢ ص ١٠٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ (٧) الدكتور حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢١١

وقل بنا زلة عزّوا وجلّوا   وعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا   عزيز ابن روح القدس فضل

أما ابو نجاح بن قنا النصراني الراهب فانه لم يبق أحد من المسلمين أيام الخليفة الآمر إلاّ ناله منه مكروه من ضرب أو نهب أموال [١].

ولما قرّب الخليفة الحافظ « الاحزم بن أبي زكريا » النصراني اليه وأولاه أمر الدواوين أعاد لكتاب النصارى تجبرهم وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسوّمة بالسروج المحلاة بالمجم الثقيلة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الاحباس الدينية والأوقاف الشرعية واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات وفي ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى في الفروج   وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرًّا   وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هـذا   زمانك ان عزمت على الخروج [٢]

وعند ما تولى بهرام الأرمني الوزارة سنة ٥٢٩ هـ أيام الخليفة الحافظ وكان بهرام نصرانيًّا فولى الأرمن ومكنهم من إهانة المسلمين ، فلما اشتد ضرره بالمسلمين ، جمعهم رضوان بن ولخش لمحاربته [٣]

كذلك أمر الخليفة الحافظ بكف أيدي النصارى عند ما انتقم الكاتب النصراني من الموفق بن الخلال « ضامن المعدية » وجعله يدفع ظلماً خراج أرض الاجـام مع انه ليس له أرض زراعية بالناحية [٤] ويقول أوليري O'Leary [٥] ان الفاطميين بالغوا في استخدام أهل الذمة في المناصب الدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل .

ولا غرو فقد اشتهر أهل الذمة ولا سيما الأقباط بدرايتهم في الأعمال الكتابية والحسابية فكانوا يستخدمون في فروع الادارات المختلفة واحتكروا الوظائف المالية في الدواوين الفاطمية لمهارتهم في الحساب حتى قال ابن الحاج [٦]

لعن النصارى واليهود فانهم   بلغوا بمكرهمو بنا الآمال
خرجوا اطباء وحساباً لكي   يتقسموا الأرواح والأموال

ونرى أن الحركات التي يقصد بها مقاومة أهل الذمة في العصر الفاطمي كانت موجهة

(١) النويري نهاية الارب جـ ٢٦ ورقة ٨٧ (٢) المقريزي الخطط جـ ٢ صـ ٢٥٠ (٣) العيني عقد الجمان المجلد الاول جـ ١٨ ورقه ٩٢ وعلي مبارك باشا الخطط التوفيقية جـ ١ صـ ١٧ (٤) المقريزي الخطط جـ ٢ صـ ٢٤٩
(٥) O'Leary de Lacy, a short History of the Fatimid Khalifate p.114
(٦) ابن الحاج المدخل جـ ٤ صـ ١١٥

إلى محاربة تسلطهم على المسلمين ، إذ إن سيطرة الذمي على المسلم أمر غير مألوف للمسلمين وكان يحدث من ذلك القليل من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة نتيجة تجبر المتصرفين منهم وايذائهم للمسلمين. وهذا ما دعى الخليفة الفاطمي أيضاً إلى منعهم من الاحتفال ببعض أعيادهم وبتنفيذ الأوامر التي تقضي بشد الزنار ولبس الغيار وان لا يظهر يهودي بغير غيار [1] وكما لبس اليهود الطرابيل الطويلة لبس النصارى البرانس فتعقبهم الجمهور وآذاهم وأغفل العهد أو الميثاق الذي أعطي لهم من قديم الزمن فاتخذ الغوغاء سوء معاملتهم للمسلمين ذريعة لنهبهم وسلبهم ولقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ بهدم كنائسهم بالديار المصرية [2] فهدمت عدة كنائس وأديرة .

كما تحرش المسلمون في الطرقات بكل من يُرى من أهل الذمة بغير الزي الذي رسم له أن يظهر به . هذا الشعور العدائي . في نفوس المسلمين من ايثار أهل الذمة عليهم كان يزيد ويعظم كلما ولي رجل من أهل الذمة منصباً له جاه وسلطان ومع ذلك فقد تمتع اليهود والنصارى [3] بصفة عامة بحريتهم الدينيـة في أغلب العصر الفاطمي وشجع الخلفاء اقامة الكنائس والبيع والأديار [4]

لقد لقي أهل الذمة من الخلفاء الفاطميين كل مودة وعطف ورعاية في الحياة وبعد الموت ، وكما استعين بأهل الذمة في الدواوين كذلك استعين بهم في الأعمال الأخرى فمثلا كان منهم أطباء الخليفة وكان لهم منزلة سامية عنده

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا ص ٨٧ ففي سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بأمر الله مثلا أن تعمل في أعناق النصارى الصلبان بحيث تكون ظاهرة على صدورهم وفرد الحاكم بأمر الله لليهود حارة زويلة ليسكنوها ولا يخالطوا المسلمين

وفي سنة ٤٨٤ هـ لما استطال أهل الذمة على المسلمين ألزمهم الخليفة المستنصر بلبس الغيار (علامة أهل الذمة) والزنانير وتعليق الدرهم الرصاص في أعناقهم مكتوب عليها ذمي وفي أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وخلخالا في رجلين فذلوا وقمعوا . الذهبي: تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٥٣ و ٢٧٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ — ١٧٩ و ج ٥ ص ١٣١ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥١ — ٥٣ وذخيرة الاعلام مخطوط ورقة ١٦

Mann, The jews in Egypt p. 33 & Betler, the Arab conquest of Egypt p. 448

(٢) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٧ (٣) زاد بلاط الخليفة العزيز بالله في إكرام النصارى وكان للخليفة أصهار منهم Lane Poole, the Story of Cairo p. 121

وانظر Lane Poole, A history of Egypt in the Middle Ages p. 169

(٤) الاستاذ عنان الحاكم بأمر الله تلاعن أبي صالح الارمني ص ٣٩ أ و ٤١ ب

وانظر Arnold, the Preaching of Islam chapter 3 & Laue Poole, the Story of Cairo p. 121

نقل الدم وشفاء الامراض

اتضح لرجال الطب في العهد الاخير ان نقل الدم يكون علاجاً جديداً يشفي الامراض النوعية ، اي التي يسببها جراثيم معروفة او فيروسات (مترشحات) غير مرئية بالمجهر . فانه من المعروف ان البلاسما ، وهي الجزء المائي من الدم ، قد انقذت من الموت آلافاً من الجنود بعد اصابتهم بالصدمات الجراحية المميتة . كذلك نعرف ان هذه البلاسما تحتوي على قدر من البروتينات المعقدة التركيب احدها المعروف باسم (غما جلوبولين) Gamma globulin الذي يحتوي على الاجسام المضادة Antibsdeis التي تقي من الامراض او تقاومها وقد تشفيها . وتوجد هذه الاجسام المضادة في جلوبولين بنسبة ٢٥ ضعفاً زيد من كثافة الدم وحقن الجلوبولين تحتوي على هذه الاجسام في افراد معرضين للاصابة بمرض او هم مرضى به بالفعل ، اما ان يمنع الاصابة ، واما ان يحول سير المرض .

وتستعمل الآن مادة (غما جلوبولين) في اتقاء مرض الحصبة ، وهو كذلك ذو أثر كبير في حالات اليرقان المعدي وهو مرض كثير الانتشار بين الجنود ، وربما كان ذا أثر في مقاومة امراض أخرى فيروسية لم يعرف بعد شيء من طبائعها .

ولا يخامرنا شك في أنه ان صدر مرسوم بشأن أهل الذمة فإنما كان صدوره لاعادة المستبد منهم الى حظيرة القانون ولم يكن ابداً نتيجة تعصب ديني فقد فرج مثلاً الخليفة العزيز بالله عن ابن نسطورس بتأثير ابنته « سيدة الملك » وزوجته النصرانية ، بعد إن اشترط عليه ألا يحابي أهل ملته وان يستخدم المسلمين في الدواوين فلما لم يرتدع أهل الذمة شنق العزيز بالله منشا على أبواب دمشق ، كما ضرب الحاكم بأمر الله عنق ابن نسطورس لما استجار الناس به من سوء فعله (١)

كذلك لما نال الناس من أبي نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب من الجور والظلم واستباحه الأموال الشيء الكثير قتل ، ولما أساء بهرام النصراني السيرة سجنه الحافظ ثم أطلقه فترهب (٢)

وعلى ذلك فلم يفرق الخليفة الفاطمي في دولته بين المسلم والنصراني واليهودي بل كان عهده عهد سلام ووئام بين رعاياه جميعاً مسلمين وغير مسلمين وبذلك تمتع أهل الذمة براحة البال من حيث عقائدهم الدينية .

عطية مصطفى مشرفة

(١) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٤٤ و ٨١ والعيني عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٣٠ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) العيني المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٩١ والمجلد الثالث ج ١٩ ورقة ٤٣٢ و ٤٦٧ وابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦



القلب وأمراضه[1]

١ — كيف نتقي أمراض القلب

للوقاية من أمراض القلب لا بدَّ من ملاحظة النقاط التالية :

١ — ﴿ الطفولية الأولى ﴾ : العناية بصحة القلب يجب أن تبدأ منذ الأيام الأولى من الحياة وذلك بإزالة جميع الأسباب التي تنشأ من اضطرابات الجهاز الهضمي أو اضطرابات الجهاز العصبي . فأنيميا الأطفال مثلاً التي تتسبب من رداءة التغذية العامة نتيجة حدوث التهاب معوي ، لها بلا ريب أسوأ التأثير على تغذية القلب ونموّه وتبدو نتائجها السيئة هذه حتى في السنين الأولى من حياة الطفل . أما إذا حرصنا بالعكس على حسن تغذية هذا الطفل وكافحنا أسباب الاختلالات الهضمية التي تنتابه فنجعله في الوقت نفسه في مأمن من الاصابة بأمراض القلب التي ستعتريه فيما إذا استمرت عندهُ تلك الاضطرابات .

ولا ينبغي أن يبرح عن الذهن أيضاً ما لمراعاة الشروط الصحيــة إبان إنتشار الامراض المعدية التي تصيب الأطفال خاصة وضرورة التقيد بها — وذلك بعزل المصابين منهم ، وتطهير الأماكن واستعمال طرق التعقيم المعروفة . فمكافحة القرمزية أو الخنَّاق مثلاً تقي بلا شك عدداً عظيماً من الأطفال من الاصابة بمرض القلب إن لم نقل من الموت أحيــاناً ، والخناق نفسه تعقبه حالة من ضعف القلب تدوم مدة طويلة من الزمن ، وقد يصاب هذا العضو نفسه بالشلل . ومع ذلك فشفاء المصاب ممكن غالباً بفضل العناية اللازمة والعلاج والتدابير الفعالة في مكافحة الأمراض المعدية .

٢ — ﴿ الرثية المفصلية ﴾ : هذا الداء الوبيل الفتَّاك يُعدّ من أقتل العلل المكروبية

---

(١) تتمة البحث المنشور في مقتطف يونيو ١٩٤٥

فهو يسبب كثيراً من أمراض القلب وعلى الخصوص التهاب الصمامات . ومما يؤسف له إننا لم نتقدم حتى اليوم تقدم الكافي في مكافحته واستئصال شأفته . فألوف من المصابين يقضون نحبهم سنويًّا نتيجة زحفه القاتل وغاراته المميتة . وألوف غيرهم يبقون تحت رحمته متعلقين بخيوط واهية من خيوط الحياة بعد أن أتلف صمامات قلوبهم تلفاً بليغاً وترك فيها ندوباً مختلفة . ولا بد على كل حال من الاستمرار في مضاعفة الجهود لدرء أخطاره والقضاء عليه قضاء مبرماً بفضل طرق العلاج الحديثة ولا سيما باستعمال البنسلين والعقاقير اللذين ثبتت الآن فيهما يظهر فوائدهم العلمية .

٣ — نظام عمل القلب : ومن أهم الأمور لسلامة القلب وانتظام عمله وبقائه بحالة صحية جيدة هو حفظ الموازنة بين العمل والراحة . وعدم ارهاقه بالعمل المضني فوق طاقته . فالأشخاص الذين يضطرون بحكم مهنتهم أن يبقوا مدة طويلة وقوفاً أو جالسين ، فضلاً عن أنهم يكونوا معرَّضين للاصابة بالدوالي أو البواسير بسبب اضطرابات الدورة الدموية في الأطراف السفلى أو البطن أو الشرج ، يغدو قلبهم في أغلب الأحيان عاجزاً عن القيام بأي مجهود عضلي يزيد عن الحد اللازم . فاذا ما أراد ذوو الحياة الجلوسية مثلاً المشي بسرعة أو الذهاب إلى إحدى النزهات الخلوية الطويلة ، أو تسلق الجبال الخ فليس في النادر أن يصابوا بعوارض أو اضطرابات مزعجة من ناحية القلب كالخفقان وضيق الصدر وعسر التنفس نتيجة ضعف القلب وقلة الرياضة البدنية أو عدمها . ومتى كان ذلك أصبح متعذراً على القلب نفسه القيام بالعمل المطلوب منه لاتمام الدورة الدموية خلال المجهود العضلي . ولا مراء في أن الأشخاص الذين يمارسون الرياضة البدنية بانتظام وبدون مشقة أو اجهاد ، ولاسيما في الهواء الطلق ، تكون قلوبهم أشد احتمالاً وأكثر مقاومة من قلوب الأشخاص القعودين أو ذوي الحياة الجلوسية . وبهذا الصدد نقول ان أفضل أنواع الرياضة هو ما ينبه القلب والرئتين كالركض والمشي بسرعة والمطاردة والوثب وركوب الخيل والانزلاق على الجليد ، فهي تحرك العضلات (عضلات الزراعين والفخذين والظهر) وتلائم الحالة الصحية أكثر من ضروب الحركات الاخرى لان جميع أعضاء البنية تتحرك بها ولاسيما أعضاء التجويف الصدري . وهذه كلها ليست لمجرد التسلية واللهو وقتل الوقت بل هي ضرورية لصحة الجسم بحسن جريان الدم وتقوية العضلات وانتظام الهضم وتهدئة الأعصاب وتقوية الأعضاء للقيام بعملها خير قيام . ولكي تأتي هذه فعلاً بالفائدة المنشودة يجب أن تمارس في الحقول والأرياف ان أمكن ذلك وليس في المدن الكبرى . وكم من الأشخاص يقضون العام بكامله دون أن تتاح لهم فرصة لتمرين عضلاتهم بالاعمال اليدوية المفيدة المسلية مثل حرث الارض أو زرعها ، أو

أعمال النجارة اليدوية الخفيفة ، أو رفع الأثقال الخ . وبديهي انه لا يمكننا أن نقابل هذه الاعمال اليدوية بالتي يقوم بها العمال عادةً في المعامل والمصانع بقرب الآلات في أماكن محصورة قليلة الهواء . وقد تبين بالاستقراء ان عمل اليدين مما لا بدّ منهُ لتقوية الرئتين وان الذين يعيشون عيشة القعود تكون عضلهم ضعيفة وعظامهم موثقة التركيب وخصوصاً عظام فقرات الظهر والالواح والضلوع فينحني الظهر ويهبط الكتفان وبسبب ذلك تضعف جميع الوظائف الحيوية في الجسم ، ويزداد هذا الضعف حين يتناول الجهاز العصبي . ويا حبذا لو تأسست في المدن الكبرى شركات أو نوادي خاصة بالتمارين العضلية المنظمة في الهواء الطلق التي تعود على الانسان بالفوائد الصحيــة العميمة ، ولاسيما للقلب ، فيغدو هذا أكثر قوة ومناعة . ومهما تكن مشاغل الانسان كثيرة في المدن ففي استطاعته الرحيل عنها مدة من الصيف على الأقل للتمتع بالهواء النقي وممارسة الرياضات المنوه عنهــا . أما اذا تعذر ذلك فيجب أن تخصص ساعة كل يوم ينصرف فيهــا الانسان الى الرياضــة ليبقى محتفظاً بصحته ونشاطه .

أما من حيث ركوب الدراجات وصعود الجبال والسباحة والتجذيف والفروسية فلا تقل أيضاً فوائدها الصحية للجسم وللقلب أيضاً ما دامت تمارس باعتدال وضمن حدود معقولة ، وبعكس ذلك فانها تأتي بأسوأ النتائج على هذا العضو . فكثيرون من الشبان في عصرنا هذا مصابون بضعف في قلوبهم وقليلو المقاومة البدنية ، نراهم يجازفون ببعض المسابقات الشاقة مثل سباق الدراجات وتسلق الجبال ورفع الأثقال وغير ذلك دون أن يأبهوا لمبلغ الضرر الذي ينتابهم من ناحية القلب . ولذلك يجــدر بهؤلاء الشبان عند قيامهم بمثل هذه التمارين العنيفة أن يتنبهوا غاية التنبه الى حالة قلبهم وعدم الاستمرار على متابعة هذه الرياضات عند الشعور بضيق الصدر أو الخفقان أو عسر التنفس الدالة كلها على عجز القلب ومجهوداته .

٤ — « انتخاب المهنة » لا مندوحة عن درس حالة الطفل أو الشاب العصبية لمعرفة ما اذا كان يوجد عنده استعداد لبعض الحالات العصبية بغية انتقاء المهنة التي تلائم حالته الصحية حرصاً على صحة قلبه . فليس أضر من اعطاء شاب منهوك القوى محطم الأعصاب او مصاب بفقر الدم مثلاً مهنة لاقدرة لجسمه او لقلبه على احتمالها او القيام بأعبائها . ومن الضروري ان يأخذ هؤلاء المتعبين المنهوكين القسط اللازم والكافي من النوم والراحة ليلاً ، وان تنظم طريقة خاصة معقولة لمعيشتهم من جهة الأكل والشرب والنوم والراحة والعمل لئلاً يسيروا من سيء الى أسوأ .

٢ – علاج المصابين بامراض القلب

هل يمكن شفاء هذه الامراض وإلى أي حد يا ترى ؟ الجواب نعم يمكن ذلك الى حدٍّ ما وذلك بمساعدة المريض على التخلص كليًّا او جزئيًّا من العوارض والأسباب التي تنتابه ، وجعل قلبه أحسن حالاً من ذي قبل . فالمصاب بالقلاب (مرض القلب) كغيره من المصابين بالأمراض الأخرى ، يتوقف شفاؤه في غالب الأحيان على كيفية العلاج وعلى العوامل والظروف التي تحيط به ، والبيئة التي يعيش فيها ، وعما اذا كان يعطي لقلبه القسط اللازم من الراحة او بالعكس . فلا بد والحالة هذه من تنظيم معيشته حسبما تتطلبه حالته الصحية الراهنة ، وبعبارة أخرى « يجب ان يكون هو طبيب نفسه » . ففي كثير من الاحايين قد أدَّت طرق العلاج وحسن المداواة الى نتائج باهرة في ظروف كان أمل الشفاء أو التحسن ميؤوساً منهما . والغرض الأساسي الذي يجب أن نرمي اليه هو العمل على تقوية القلب ما أمكن بالوسائل اللازمة نسبةً الى حالة المصاب وإلى طراز معيشته وبذلك يمكنه ان يسترجع شيئاً فشيئاً قوته ونشاطه والقيام بعمله على أحسن حال ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى يجب ان نقول هنا ان كثيراً من أمراض القلب يكون مزمناً ، وأخرى يكون سيرها سريعاً كما هي الحالة مثلاً في التهاب الشغاف (باطن القلب) او في حالة التهاب التامور (غشاء القلب الخارجي) كما اننا نكون في حالات اخرى ازاء اضطرابات قد مضى على وجودها زمن طويل وتبقى ملازمة المريض الى النهاية . ولا بد كذلك من القول أن معظم التغيرات التي تطرأ على وظائف القلب ليست في الواقع الاّ نتيجة حدوث التهاب في الصمامات وفي جدران الشرايين والاوردة التي أخذت بطبيعتها شكلاً نهائيًّا بعد ان تركت ندوباً فيها .

ولنلق الآن نظرة عاجلة على بعض الاضطرابات القلبية وعما يجب اتخاذه من التدابير والوسائط الصحية للاسترشاد والعمل بها .

﴿ الخفقان ﴾ هو عبارة عن نبضات قلب سريعة متواترة وأشد قوة مما في الحالة الطبيعية وهو يأتي على هيئة نوب تدوم من بضع دقائق الى عدة ساعات ، والمريض ليس فقط يشعر بها بل انه يتألم ايضاً منها . ويصاحب هذه الحالة ضيق في التنفس وعرق وبرودة الاطراف وأحياناً الغثيان أي الميل الى القيء او الاغماء . اسبابه عديدة أخصها التأثرات القوية العصبية والخوف والانفعالات النفسانية والافراط في الأشغال العقلية ، او السهر الطويل ، او الاكثار من شرب الشاي والقهوة والتدخين والمشروبات الروحية ، والهموم والمشاغل الفكرية . وقد يحدث الخفقان ايضاً من سوء الهضم والأرياح البطنية وفقر الدم والهستريا

والنوراستنيا وقطع الحيض ومدة الحمل . وهو يصاحب بعض الأمراض القلبية مثل التهاب التامور ، والتهاب الشغاف والصمامات مع التهاب عضلة القلب نفسه ، ولا يدل على علة في هذا العضو الاّ إذا رافقته أعراض أخرى لا يستطيع أن يميزها إلاّ الطبيب الحاذق .

﴿ الاسعافات الطبية الوقتية ﴾ : اجتناب الاسباب المار ذكرها ما أمكن . وفي مدة النوبة يُترك المريض براحة تامة في غرفة مظلمة نوعاً وبعيدة عن الجلبة والضوضاء والحركات المزعجة ، ويكون نومه على ظهره أو على جانبه الأيمن بحيث يكون أعلى جسمه مرتفعاً قليلاً عن أسفله ثم يحلّ ما هو ضيق في اللباس حول العنق والصدر ، ويُسقى قليلاً من ماء الزهر أو ماء الورد المضاف اليه قليلاً من الإيثر ، وتدلك أطرافه بالكحول أو الكولونيا . وإن كان مصاباً بالامساك يُعطى مسهلاً من سلفات الصودا أو تُعمل له حقنة شرجية . ثم توضع له على منطقة القلب في المكان الذي يشعر فيه بالخفقان المكمدات الباردة بواسطة منشفة او قطعة قماش مطوية بشكل منديل الجيب ومبتلة بالماء البارد . ويُستحسن اضافة مقدار قليل من الخل أو العرق أو الكولونيا إلى هذا الماء لزيادة مفعوله ، ويكرر عمل هذه المكمدات مرات كثيرة في اليوم إذا لزم الأمر . واذا تكرر حدوث النوب يوضع للمريض على منطقة القلب كيس مطاطي مملوء بالثلج او بالماء البارد ويترك نحو نصف ساعة ثم يُرفع . ويمكن تكرار استعماله إذا اقتضت الضرورة لذلك .

اما الخفقان الذي هو من أصل عصبي فيمكن مكافحته ايضاً وذلك باستعمال الوضعيات او اللفائف الرطبة حول الجذع ، او ايضاً استعمال الحمامات الدافئة للمقعد (٢٥ الى ٣٠ درجة مئوية) أو الحمامات الباردة (١٤ الى ١٨ درجة مئوية) . اما من جهة استعمال الدواء وغير ذلك من الارشادات فموكول امرها الى الطبيب ، ويجب انتدابه في الحال عند حدوث النوبة للبحث عن السبب الحقيقي الذي أدى الى حدوث الخفقان والعمل على ازالته .

﴿ الأوجاع في منطقة القلب ﴾ من أفيد الطرق لازالة هذه الأوجاع عند الذين يصابون بها هو وضع كيس مطاطي مملوء بالثلج على منطقة القلب . ويمكن كذلك للغرض نفسه استعمال التحويلات في الجلد révulsions cutanées وعلى الخصوص اللبخ الخردلية ، أو استعمال أوراق الخردل التي تباع جاهزة في الصيدليات وأحسنها أوراق خردل Rigollo فتوضع منها اثنتان أو ثلاث الواحدة بجانب الأخرى على منطقة القلب بعد غمس الورقة أولاً في ماء ساخن مدة بضع ثوان ، ثم توضع في الجهة التي بها الخردل على المحل المعين ، وتمسك باليد او تربط حتى يحصل تأثير منها اي حتى ظهور احمرار على الجلد ويشعر المصاب بمفعولها الشديد ثم تنزع بعد ذلك من مكانها . ويمكن تكرار استعمال هذه اللبخ او اوراق الخردل اذا

لزم الأمر بوضع اخرى في اماكن بعيدة عن الاولى كبطن الساقين مثلاً

وتزداد فائدة هذه اللبخ والمحولات الخردلية بنوع خاص في حالة حدوث عسر الصدر (عبقة الصدر) وعسر التنفس عند المصاب ويوضع منها في بطن الساقين . كما انه يمكن أيضاً في هذه الحالة وضع كمادات حارة جداً على منطقة القلب ، أو فرك الظهر أيضاً بفوط مغموسة بماء حار جداً . وحتى وصول الطبيب يُعطى المصاب فنجاناً من القهوة السوداء القوية مضافاً اليها ١٠ الى ٣٠ نقطة من محلول هوفمان . أما استعمال الكوفئين حقناً تحت الجلد فموكول أمره الى الطبيب إذا رأى لزوماً لذلك . كما انه لا يجوز اعطاء البروميور تحت أي شكل كان بدون موافقة الطبيب أيضاً . وقد أفاد في كثير من الأحيان اعطاء المصاب قدحاً من الليمونادة المثلجة التي هي من أحسن المسكنات . واذا لم تأت الوسائط المذكورة بالفائدة المرجوة فيلجأ إذ ذاك الى فرك راحة اليدين والقدمين بالكحول أو الكولونيا ؛ أو تغطيسها بالماء الحار وحده أو مضافاً اليه قليلاً من الخردل وذلك لمدة بضع دقائق ؛ ويجب تكرار ذلك مرات عديدة اذا لزم الأمر . واذا بدت على المصاب أعراض اختناق أو عسر التنفس فيجب فتح الأبواب والنوافذ لدخول الهواء ما أمكن ، وتهوئة وجه المصاب بالمروحة ؛ ومن النادر أن تؤدي نوب القلب الى الوفاة إلاّ إذا تكرر حدوثها وبانت خطراً حقيقياً على حياة المصاب وفي هذه الحالة تحدث الوفاة خلال بضع ثوان في أثناء النوبة . وعلى كل يجب أن يخلد مثل هؤلاء المصابين الى الراحة التامة والهدوء الشامل وكلما قلّ عدد الأشخاص حولهم كان ذلك أفضل لهم . وقد كانوا قبلاً يستعملون الفصاد في أحوال كهذه ، غير أن هذه الطريقة صُرف النظر عنها حالياً ولم يلجأ اليها الأطباء إلاّ في ظروف نادرة جداً .

وفي بعض الأحيان يأخذ المرض لسوء الحظ شكلاً خطيراً وتبدو على المريض أعراض ضعف القلب وعدم قدرته على العمل Asystolie ، ثم تزداد هذه الأعراض شيئاً فشيئاً وبدون انقطاع مما ينذر بحدوث اضطرابات من ناحية الدورة الدموية فيمسي القلب غير قادر على الانقباض أو التقلص بالقوة الكافية لافراغ تجويفاته من الدم إفراغاً كاملاً مما تؤول نتيجتهُ الى تمدد هذه التجويفات وبالتالي عدم وصول مقدار الدم بالكفاية الى مختلف الأعضاء ، ثم ان الذي يصل الى هذه لا يكون حاملاً إلاّ مقداراً قليلاً من الاوكسجين فيحدث إذ ذاك هبوطاً محسوساً في ضغط الدم وضعفاً في قوة التيار الدموي ، والقلب نفسه يغدو إذ ذاك عاجزاً عن التغلب على المقاومة أو الضغط الواقع عليه فينشأ عن هذه الحالة ركود دموي في مختلف أنحاء الجسم وعلى الخصوص في الرئتين حيث تزداد أعراض ضيق التنفس عند المريض . وذات الركود الدموي يحدث أيضاً في الاطراف السفلى (الساقين

والكلى احياناً . ثم تبدو تورمة وهذه تمتد شيئاً فشيئاً الى البطن فتعم الانحاء من الجسم).
وسبب ذلك ان الاوردة تتمدد من تجمع الدم فيها فينفذ السائل من جدرها الى الاجزاء المجاورة . ثم تتناول هذه التورمة الكبد والمعدة والامعاء ، ويكون نتيجة للضعف متأخراً والاضطرابات الوظيفية شاملة . وفي الدور المتقدم للمرض يزداد تجمع السائل في النسيج الخلوي تحت الجلد وفي البريطون وغشاء الرئة والتامور . وبكلمة واحدة يحصل استسقاء عام في كل انحاء الجسم من ارتشاح نسيم مائي وتسرب الدم من جدران الاوردة في النسيج الخلوي وفي تجاويف الجسد بسبب عاقة الدورة الدموية . لكن بالرغم من هذا كله في الامكان تلطيف هذه الحالة واراحة المريض وعلاج قلبه العليل . ولا ينكر ان معظم هؤلاء المرضى الذين يصلون الى هذه الدرجة من العجز والاعياء يجب ان يحاطوا بالعناية الفائقة والرعاية التامة ويأخذوا حظاً عظيماً من الراحة . فاذا ما توفرت لهم فعلاً هذه الشروط الجوهرية ، مقرونة بالعلاجات اللازمة التي يصفها الطبيب ، أمكن حينئذٍ تحسين حالتهم وحفظهم مدة طويلة في حالة صحية مرضية نوعاً فوق ما كانوا يقدرون بعد أن كان يخشى ان يتخطفهم الموت في بضعة أيام .

﴿ الأدوية ﴾ : يجب أن نقول هنا ان عدداً كبيراً من المصابين اصابات خفيفة بأمراض القلب ليسوا في حاجة الى تعاطي الادوية او فقط الى تعاطي بعضها عند مساس الحاجة اليها . كما ان الذين لا يزال قلبهم يقوم بوظيفته على أحسن حال بالرغم من اصابة الصمامات بالمرض يمكنهم ايضاً الاستغناء عن الأدوية سنوات عديدة . أما حالات المرض الخطيرة التي يكون فيها القلب ضعيفاً جداً، ولا سيما اذا كان مقروناً هذا بوجود استسقاء او ارتشاح عام في الجسم فاستعمال الادوية أمرٌ ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه . فالديجيتال يؤدي في هذه الحالة أحسن الخدمات ، والعدد العديد من الأطباء يعتمدونه خصوصاً في مكافحة ضعف القلب ، بل انه يعتبر في نظر الكثيرين منهم من أثمن الأدوية في العالم بشرط ألاّ يساء استعماله وأن يتم ذلك تحت اشراف الطبيب بنفسه .

ويرجع الفضل الأكبر في اكتشاف خواص الديجيتال الفسيولوجية الموجودة في أوراق هذا النبات الى الطبيب الباڤاري ليونار فوش Léonar Fuchs في عام ١٥٤٦ . ولم يمض على اكتشافه زمن طويل حتى عرف اكتشافه هذا في انكلترا . أما في فرنسا فلم يعرف ويبتدىء انتشاره الا في عام ١٨٢٢ حيث قام علماؤها وعلى رأسهم F. Frank و Lancelot و Homol وغيرهم بدرس خواص هذا النبات درساً وافياً . وقد أيدت الاختبارات العديدة أن الديجيتال أطال حياة الألوف من المصابين بالقلب ويُستعمل في جميع حالات ضعف

عضلة القلب . واختفاق وسرعة دقات هذا العضو (Tachycardie) ، وهبوط ضغط الدم ، وعدم انتظام النبض وسرعته الخ ويؤخذ اما مسحوقاً أو منقوعاً (منقوع الاوراق) أو بشكل حبوب أو سائلاً (صبغة الديجيتال) الخ . وعلى كل لا يجوز استعماله مطلقاً كما قلنا الا باشارة الطبيب الذي هو نفسه يصف المقدار اللازم من الدواء وفقاً لحالة المريض الراهنة والمدة التي يراها ضرورية للعلاج به . ذلك ان الديجيتال يتجمع بالسهولة في الجسم ولا يتخلص هذا منه إلاّ بعد بضعة أيام . وقد أيدت الاختبارات ان غرامين من الديجيتال تتطلب ٨ إلى ١٠ ايام كي يتخلص الجسم منها — وهذا ما يبرهن لنا كيفية تراكم هذا الدواء في الجسم عند ما تعطى منه مقادير زائدة . ولذلك لا يصح استعماله مدة طويلة دفعاً لحدوث أعراض تسمم خطيرة كثيراً ما تكون وبالاً على المريض نفسه — بخلاف المقادير القليلة منه فانها تأتي بأحسن النتائج . ومجمل القول ان الديجيتال يقوي وينظم ضربات القلب فيأخذ هذا العضو في تفريغ محتوياته تماماً من الدم الذي يصل اليه ، ثم انه يرفع ضغط الدم إلى المستوى الطبيعي ، والدورة الدموية تسترجع بدورها قوتها ونشاطها ، كما ان جميع أعراض ضيق الصدر وعسر التنفس تخف تدريجاً عند المريض بفعل الديجيتال الذي يفعل فيها حقاً ما يفعل السحر ! وبنفس الوقت يأخذ الورم ان يقل شيئاً فشيئاً ويستعيد المصاب راحته المشردة ويستطيع ان ينام نوماً مريحاً نوعاً ما .

أما الاستسقاء نفسه المسبب عن ضعف القلب والذي قد يبلغ احياناً نحو عشر لترات فيكافح بالبزل وهذا من متعلقات الطبيب . ويساعد على ذلك استعمال الطرق الطبيعية وأعني بذلك الافراز بواسطة الكلى والجلد . ولهذه الغاية يعطى بعض العرّقات او النباتات المدرّة للبول مثل حبوب العرعر baies de genevrier . فيؤخذ قدر ملعقة حساء من هذه الحبوب وتدق وتوضع في كوب ماء حار جداً وتصفى ثم يتناول المريض هذه الخلاصة . وهكذا قل عن النباتات الأخرى العرقة والمدرة للبول . وعلى كل فأمراض القلب سواء أكانت ناشئة عن أمراض معدية ام غيرها فتتطلب من بداية الأمر الراحة التامة التي هي احسن علاج للمريض والتي تمهد السبيل للشفاء ، ثم اتباع النصائح والارشادات الأخرى التي يراها الطبيب موافقة في مثل هذه الأحوال .

الدكتور عبده رزوق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة ببغداد : العراق

القديم

وأثره في حديث

إن من يزور « روما » فيترك حي « انكورسو » ، وينحدر مطوفاً نحو « التيبر » مخترقاً ذلك التيه المؤلف من الأزقة الضيقة المفعمة بفتيان عاصمة ايطاليا الحديثة وشيوخها ، يمسه ضربٌ من الغبطة في تتبع تلك السجلات الصخرية التي خلفتها الأجيال المتعاقبة من الرومان ، والذين يجوس اليوم اخلافهم خلال ديارهم . فاذا استدار بعد ذلك دورة ، وقف أمام حسرجـةٍ من الأعمدة الاخاذة ، برغم تهدمها ، أعمدة المدرّج العظيم الذي شيد عند ما عرف ذلك المكان باسم « كامبوس مارتيوس » وكان مسرح اللهو لرعايا الامبراطور « هدريانوس » .

بين الأعمدة جدران شيدت من كتل عظيمة من الصخر « التيبرتي » ، نقضت من بناء امبراطوري آخر ، وبني هنالك ليكون حصناً غليظ الهيئة مظلم الجنبات ، في تلك الأيام التي كان يهب فيها أسر من مثل « أورسيني » أو « كولونا » الى السيف ، اذا وقع التشاحن على انتخاب « ليون » أو « غريغوري » لمقام البابوية .

هنالك قد تقع على طنف رفيع الفن من عصر النهضة ، صنع في حياة « برامنتي » أو « ميكلينجيلو » . بينا ترى هنا أو هناك شيئاً من ملاط المرمر فوق بناء « الآتوسكنتو » وقد تسلخ وانقشر بما صادف من عنف رجال « غاريبالدي » ذوي القمصان الحمر ، أو رجال « موسوليني » ذوي القمصان السود .

ثم اعبر شارعاً مزدحماً وانعطف الى زقاق يفصل صرحين من الصروح المعروف أمرها في القصص ، فانك تقع على احتفال « فاشستي » أقيم أمام قبر « فتريو إمانويل » في كنيسة « سانتا ماريا روتوندا » ؟ وكانت من قبل مدفناً تكريمياً أقامه « هدريانوس » تخليداً لذكرى الفرق الرومانية ، التي غزت كل آلهة الشرق .

عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، استعمر الاخلاف ما شيد الاسلاف ، وحوّروا عمائرهم بمقتضى أغراضهم ، فحفظوا بها بعض الاحيان كما هي ، وقوضوها حيناً آخر ، وأقاموا بأنقاضها عمائر حديثة . هذه والحياة متدفقة ، جياشة ، تزدحم بدورات الوجود والأمل والفشل والموت ، في ظل عامل أو سيد أو بابا أو ملك أو أحمق مستبد ، سواء في ذلك مظاهر نشاطها الحديث ، أو مظاهر تعفيتها على ما انقضى من الاعمار .

وفي الحق أن «روما» مدينة خالدة . خالدة بقدمها ، في صورها وجدرانها المدعمة ، خالدة بحداثتها ، في آمالها ومراميها ، وكأني بها رمز الانسانية التي اقتبلت تلك المدنية ، فهي صرحها ومركزها .

ذلك بأن تاريخ المدنية البشرية ، انما هو قصة تشابه ما روينا ، جهد يبذل وآثار تقام ثم تتكيف وتضخم على الاستمرار ، وتمضي في سبيل يلائم بينها وبين مجاري الحياة . رواية الجدران القديمة يهدمها الزمن ثم تتقوّض ، ثم تبنى ثانية في صور جديدة . رواية الافك والعدوان تمتد بهما أيدي الهمج الخشنة الغليظة الى الآثار القديمة ، رواية الكنائس التي يحوطها بالعناية المؤمنون ، والقصور والدساكر تسوى بالأرض لتمهد طريقاً ، رواية المجالس التشريعية تلتئم في أبهاء القصور التي شيدها أمراء عصر النهضة ، والدعوة الشيوعية تضج بها الدور التي عمرها أشراف « روما » .

أما إن كان أثر القديم في الحديث غير بين في جميع النواحي بيانه في مدينة الكرسي البابوي ، فان من الحقائق الثابتة أن الآراء والمعتقدات والعادات والمثاليات التي ينطوي عليها صدر فلاح في أقصى الغرب من أميركا ، أو عامل في أقصى الجنوب من استراليا ، إنما فيها إثارات وبقايا من الاشياء التي ورثت خلال العصور المتتالية ، صبت في قوالب جديدة لتلائم حاجات الزارع الاميركي ، والعامل الاوسترالي . ولو جلت جولة في نواحي العقل الحديث ، لانكشف لك عما فيه من تراكب العقائد وتراكمها طبقة على طبقة ، وقد ظل ذلك مطرداً غير منقطع خلال الأحقاب المتطاولة ولاستبان لك ما فيه من أشتات الآراء المستجمعة من هنا ومن هناك ، وقد حبكت معاً ثم شيدت بناء قام أساسه على قحط وفي من دواعي الانحلال والتضعضع . وفي جدرانه عدد من الثغرات ، ولكن من ورائه قوة العقل تعمل على تدعيم ذلك الاساس وسد تلك الثغرات ، ليكون ذلك الهيكل في مجموعه صدراً على تلبية قوامس الحاجة ، والقيام بوظيفة الحمى والسكن ، حتى تأتي القوة التي ترفعه درجة أخرى نحو الكمال .

فقد يعتقد الانسان في العصر الحاضر أن ذرّة الزئبق يمكن تحويلها الى ذرّة ذهب ،

وأن عيسى الناصري قد قام من بين الموتى وانه الآن جالس الى يمين الذات العلية ، ذات الله ، وأنه من الفخر أن يموت الانسان في ميدان الحرب دفاعاً عن وطنه ، وأن كل المشاحنات التي تقوم بين الدول ينبغي أن تعالج وتفض في محكمة عالمية . وان الاتحادات بأنواعها وبمختلف صورها يجب أن تحل وتلغى ، وان دنيا الحياة الانسانية ينبغي أن يفسح المجال فيها للديمقراطية حتى تظل سالمة آمنة . ومع كل هذا فان الانسان الحديث ليؤمن بهذه الأشياء ، وليس في نفسه غير خيال ضعيف عن أصل نشوئها ومعانيها وقيمتها لحياته التي يحياها خيال أشبه بما يقوم في نفس الطفل الروماني ، الذي يمرح بين الآثار المخلفة عن أسلافه الأولين .

* * *

ان من بواعث الابتهاج والغبطة أن نكشف القناع عن نواحي العقل الحديث وثناياه وشعابه المستخفية في تضاعيف الجيل الحاضر ، وأن نفحص عن كل خيط من الخيوط التي تؤلف سداه ولحمته ، وأن نتعقب بداياته منذ أول ظهورها منسوجة على نول الزمان . ان ذلك لأبهج للنفس وأرخى للعقل من جولة في جنبات « روما » وإن ذلك لأكثر من باعث على الابتهاج والغبطة . إن له لوزناً كبيراً ، عند من يريد أن يتفهم حقيقة الحياة الخافقة به ، ويفقه طبيعة قواها العقلية ، ويتبين ما يحتمل أن يندفق فيه تيارها من الاتجاهات ، ولعله يأخذ المجداف في يده ، فيمخر فيه .

إن الآراء لمن أبقى الأشياء التي تمخضت عنها المدنية . والآراء التي تحوم اليوم في العقول الحديثة ، لها أصولها الممتدة إلى ماضٍ لا تعيه الذكريات . ومن طريق العقل يستطيع الانسان أن يصل نفسه بآباء عريقين في القدم . وان صلته بهم عن طريق العقل ، لأوثق حتى من صلته بهم عن طريق الاتصال الطبيعي والعلاقة السلالية . ويصدق هذا خاصة على أميركا . فانها برغم ماضيها القريب هي جزء من المدنية الاوربية ، كروما نفسها . ومن أجل أن نفهم حقيقة العلم والدين والفن والمثاليات الأدبية في العالم الحديث ، ونقيمها ونقدرها حق قدرها ينبغي أن نستوعب عظائم ما وصل اليه الانسان في سالف عصوره ، تلك العظائم التي شيدت ذلك الصرح الفسيح ، الذي تطوف في أنحائه اليوم الروح الانسانية

إن الحاجة الملحة في أن نحلل معتقدات الانسان ونتتبع بداياتها ، إنما ترجع الى حقيقة أن الآراء ليست كآلهة « أوليمبوس » ، باقية أبدية ، ثابتة دائمة الشباب . وهذه الحقيقة على ما لها من بالغ القيمة والأثر ، قد أغفلها العديد الغالب من الباحثين . إنها كـكل الأشياء البشرية ، تولد وتنمو وتنضج ، وقد تموت .

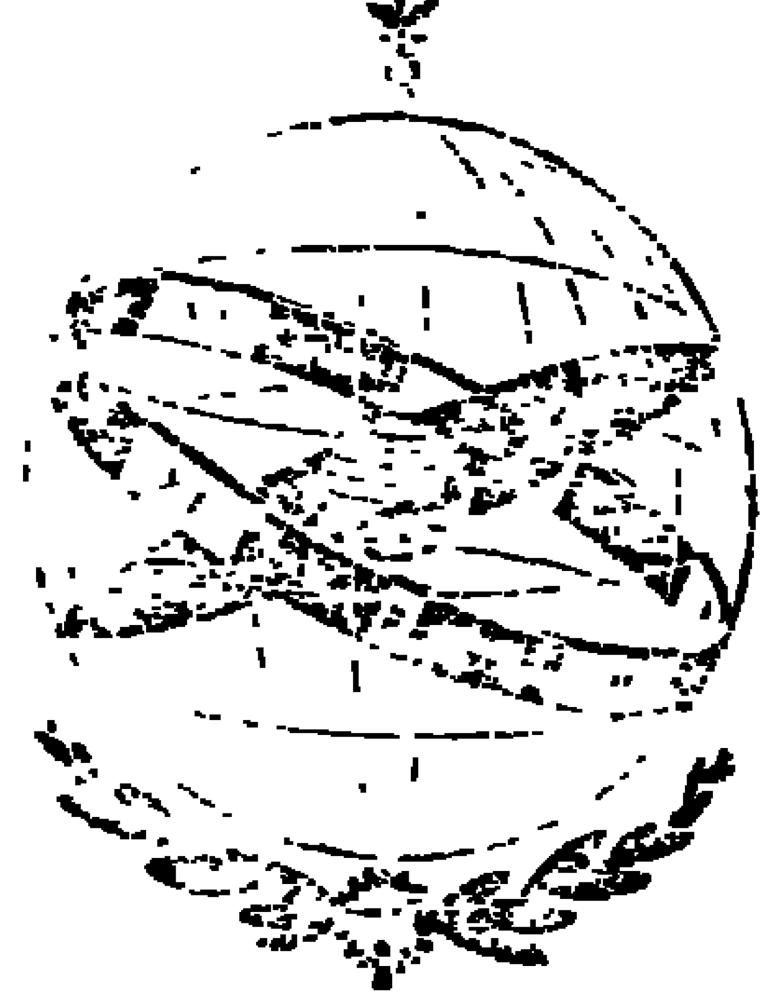
للآراء صفة الحياة ، وكل ما هو حي ، لا بدَّ له من بيئة ينتعش فيها ويعيش ، كما ينبغي له أن يتكيَّف بها . والناس ينظرون في مجمل معتقداتهم ، نظرتهم إلى التلال التي يرفعون اليها أبصارهم ، فكأنها ثابتة غير متغيرة ، وكأن كل انحراف عنها ، انحراف لا يقرّه الطبع ولا يجيزه العقل . أو انهم يتخذونها كما يتخذون قطع النقد المسبوك من خالص الذهب ، فيعتقدون انها صالحة للتعامل بها في كل زمان ومكان . فالنصرانية والعلم والديمقراطية والملكية الخاصة ، على ما يتخيلون ، كانت ولم تزل ، وسوف تكون ولا تزول . فالانقلابات التي يعترفون بأنها واقعة في عالم الأشياء المادية ، لا يرى إلاَّ الأقلون منهم ، أن مثلها قد يقع في عالم الروح ، الذي هو أقل وضوحاً من عالم المادة . وليس ذلك لأنهُ من المتعذر ان ندرك ان الانسان قد اعتقد في عصر مَّا عكس ما يعتقد اليوم ، ولكن لأنه من المتعذر علينا أن ندرك انه اعتقد حقيقةً بتلك المفارقات البعيدة عن العقل ، وانه آمن بها وأخلص لها ، إيماننا وإخلاصنا لما نعزّ ونحترم من يقينياتنا ، وربما لم يقم عنده من الدلائل على صحتها إلاَّ النزر اليسير .

إن تعقب تاريخ هذه المعتقدات في نشوئها وتطورها النامي ، قد يولد فينا حسًّا ندرك بهِ شيئاً من التلاؤم الذي يقوم بين الآراء وقوالبها الأولى ، ونعرف بهِ أن صحتها انما تستقر من بيئاتها التي نشأتها ، وان منفعتها تظل ، ما دامت تلك البيئة تغذيها وتربيها .

* * *

إذا شبَّهنا عقول الناس بنقوش تراكبت فيها المعتقد فوق المعتقد تراكب اللون فوق اللون ، كان من مهامّ العقل البشري الكبرى أن يفقه تاريخ حياة هذه المعتقدات ، ولماذا وجدت ، وهل من حقها أن توجد ، أم انه ينبغي أن تنبذ وتهمل ؟ ما هي تلك الموجات الفكرية العظيمة والآمال المتوثبة التي خلفت من ورائها تلك الرواسب المتراكمة ؟ عن أيٍّ من الاشياء عبرت عند ما حملها الفيضان ، وما قيمة الأشياء التي خلفتها للعصر الحاضر ، وما هو الجديد الذي ينبغي للانسان أن يبحث عنه ، ليقوم بواجبه نحو تجديد الحضارة ؟ ذلك التجديد الذي لا ينقضي أمده ، ولا تنتهي دورته .

إذا انتهى المرء الى معرفة المواد التي تهيئها له الدنيا الحافّة به ، والمصادر النفسية الحالة فيه ومنها يستمد ، بقي عليه أن يستوعب الماضي ، ويعرف أثره في الحاضر ، ثم يتفهّمه ويحكمه ، حتى تكون له السيادة عليه .



أساطير القدماء
ودلالتها

إن أساطير القدماء وعقائدهم وخيالاتهم ، قد تمدنا بأداة ندرك بها الفرق بين ما أكب القدماء وأهل العصور الوسطى على اليقين به ، وبين العقائد والأفكار التي تذيع في هذا العصر. ان تلك الاشياء كانت في العصور الأولى من المسلمات التي لا تحتمل الشك ، في حين انها وان كان لها مثيلات تنتشر اليوم بين الطبقات الدنيا ، فانها أشياء قد دخلت بالشك عند الأوساط من الناس ، ورفضها أهل الطبقات المنتقاة .

ولا شك في أن بعض الناس يعتقدون اليوم في أهل كثير من البلاد النائية عن مواقعهم الجغرافية ، معتقدات أساسها الوهم والخيال ، غير انها خيالات وأوهام اشك في أنها قد تبلغ من الخطأ مبلغ تلك التي ذاعت في القرن الثامن عشر مثلاً . وان هذا لهو « المقياس » الذي نقيس عليه مقدار ما أثر الأسلوب العلمي في العقول ، من حيث القضاء على الوهم والخيال في أدمغة الناس .

الانسان الذي عاش منذ ستة قرون مضين ، غير انسان الزمن الحاضر . كان في عقله متسع لأن يصدق أي شيء وان يتقبل كل ما ينقل اليه ، مصدقاً به مسلماً بكل ما هو منابذ لطبيعة الأشياء أو بعيد عن مألوف الواقع ، إذا ما نقل اليه عن سلطة يحترمها أو مصدر يجله . وكيف يستطيع ان يرفض أقصوصة تقص عليه أو واقعة تنقل اليه ، وهو في حياته اليومية على انتظار ما يقع فيها بين لحظة وأخرى من معجزات وخوارق ، كلها على النقيض من سياق الأشياء الطبيعية ؟

من فوقه في السماء ، ومن تحته في الأرض ، عوالم مفعمة بجواهر عاقلة مريدة ، شياطين وملائكة وسلائل عجيبة التكوين من أنسال الآلهة ، وفوق ما فيه من استعداد إلى تلبية نداء

الله أو الشيطان — إذ كان يتعذر على القلب ان يحكم أية من الناحيتين تناديه — فيقودانه حيناً الى الخير والخلاص ، وحيناً الى الخطيئات واللعنات .

القديسون والذين هم على اتصال بالقوة القدسية هم صنائع الله الذين أمدهم بقوة من عنده على اصطناع الخوارق والأعاجيب والمعجزات ، لتكون وسيلة الى ايقاظ الورع والتقوى في نفوس المؤمنين ، وإلى جنبهم الشيطان وعماله يشنون حرباً مستمرة لا هوادة فيها ليزعزعوا ما ثبت في أطهر القلوب وأنقى الأفئدة من بواعث الخير والطيبة والاستسلام .

إن هذا الاعتقاد الثابت في امكان حدوث المعجزات ، قد أنشأ في عقليته اتجاهاً اصطبغت به كل الأشياء في العصور الوسطى ، من الحوادث البسيطة في مجرى الحياة ، الى الوقائع الكونية التي تصرفها العناية الالهية . وعلى العكس من هذا كله تجد العلم الحديث ، فانه لا يبحث وراء الغاية التي من أجلها وجدت الاشياء في هذه الدنيا ، ولا يجري وراء المعنى الذي يختبىء خلف وجودها . إنه يصف « كيف » تحدث الأشياء « ولماذا » تحدث .

يقول « سنتايانا » :

قد نتكلم بعض الأحيان كما لو ان القول بخرافة الخوارق او الاعتقاد في المعجزة ، هو في ذاته رفض لشمولية القانون الطبيعي ، او وحي توحي به الينا رغبة في تشويش تجاريبنا وقمع قدرتنا الفكرية او العقلية . وليس من فرض هو أبعد عن الحقيقة من هذا الفرض . فان كل خرافة انما هي شظيرة صغيرة من العلم : يمشي في أنفسنا رغبة في ان نفهم وان نتطلع ونستنبىء وان نحتكم في شيء من خدع العالم المنظور . وقوى الفضيلة أو قوى الفرد الحي ، أقرب الى الفهم وأطوع على الاستيعاب من السنن الآلية الشاملة القريبة منا . اذا عرفنا ذلك علمنا أن أساس الخرافة والمعجزة امر قريب من أنفسنا وعقولنا . فقد يرى الانسان في المعجزة طريقاً الى طلب الرحمة ، او وسيلة الى اثبات وجود السلطة العليا في الخلق أو رغبة من نوع ما تجبرنا على الاعتقاد بها . وعلى الضد من ذلك ، نجد ان قانوناً آلياً ان كان في الواقع تسجيلا لما يجري في العادة ، فهو في ظاهر نظام الاشياء أمر لا عقل ولا رشد فيه . فان حادثاً من حوادث الطبيعة يستعصي على التفسير ، ولا يستظهر منها قصد معين معروف ، لا يدخل في نطاق المعجزة . على ان ما يدهشنا من أمر المعجزة والاعتقاد فيها ، انه على العكس مما رأينا فيها من قبل ، قد يرى الآن ان لها أساساً صحيحاً حتى تبرر الاعتقاد فيها زماناً ما .

من ثمت نجد أهل القرون الوسطى في توثبهم إلى فهم الدنيا الحافة بهم ، قد أيقنوا بأن القصد يختفي من وراء الاشياء ، والغاية تكمن خلف ظواهرها ، وان هذا القصد وتلك الغاية قد يكتشفان عند حدوث أي حادث . كذلك رأى أن ارادة الله هي السبب الغائي لوجود الكون ، وان هذه الارادة إن استعصى على العقل الكشف عن معضلاتها ، فانها على الأقل تهيىء للانسان فرصة الوقوف على معنى الأشياء وصبغتها العقلية .

لا شك في أن الانسان الذي يعيش في مثل هذا الجو ، من شأنه أن يعمر الدنيا المحيطة به بذوات عاقلة يتخيل وجودها وقوات روحية يتصورها ، ويتوقع حدوث ما لا يمكن توقعه من أحداث الدنيا ؛ ويضفي على كل ذلك قيمة موهومة وكذلك لا يبعد على ذهنه أن يقبل فكرة أن هذه الذوات وتلك الارواح قد تعمل على اثبات وجودها وتحقيق أثرها باحداث خوارق ومعجزات .

• • •

ان حياة القديسين ، وكانت من أشهر ما يخاطب القلوب في العصور الوسطى ، تزخر بذكر أشياء خارقة للطبيعة ، وقد سجلت في المخلفات التي تركها هؤلاء القديسين وأقيمت لاحياء ذكراها الاحتفالات ونظمت المهرجانات ولا مشاحة في أن هذه الخوارق كانت الطريق المعبد الى القداسة .

أما الشيطان وأنصار الشيطان فكانت أشياء حقيقية واقعة في معتقدهم ثابتة في روعهم، وأن قدرة الله وقوة ملائكته كانت كثيرة ما تعبأ بين آونة وأخرى لتعلن عليهم الحرب بعد الحرب والغارة بعد الغارة . وكانت مخلفات القديسين وتبريك الكنيسة والصلوات والتوسل والعطايا والتضحيات . كانت الاشياء التي يلجأ اليها إذا حزب الأمر وثار ثائر الفوضى .

فسن القديس بطرس ، ودم باسيل ، وشعر دنيس ، وجثمان القديس مرقص الذي سرقه البحارة البندقيون ليكون في كاتدرائيتهم المرصعة بالجواهر على صفاف ضحاضحهم ، وبيت العذراء مريم الذي طار بمعجزة عبر البحر الى « لورتو » عامة ذا قد اتخذت مصادر تستمد منها القوة التي يمكن بها رد البغي الانساني والغواية الشيطانية . ولقد رغب الناس في هذه رغبة محمومة حتى أن القديس لويس الفرنسي قد أراح نفسه بالاعتقاد بأن حملته الصليبية كانت فوزاً مبيناً ومجالاً خالداً ، بالرغم من انه لم يهبط الأرض المقدسة ، لأنه استطاع أن يحضر معه قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح .

• • •

ولقد روى غريغوري الكبير قصة عن قديس ، تمثل بجلاء فكر الناس ومعتقداتهم في العصور الوسطى :

في جبل مرسيتوس في إقليم كامبانيا . عاش رجل محترم اسمه مارتن سنوات عديدة في كهف ضيق . ولقد عرفه الكثيرون منا وأصبحوا شهداء على أعماله . ولقد سمعت عنه الكثير من البابا بيلاغيوس سلفي وغيره من رجال الدين الذين رووا ما اتصل بهم من وقائعه وها هي ذي أولى معجزاته : فانه لم يكد يستقر في رأس

ذلك الجبل [illegible] حتى انبثق ينبوع من الماء الجاري يكفي لسد حاجاته حتى يقوم بخدمة الله [illegible] ولا [illegible] .... ولكن عدو الانسان القديم حقد على الرجل [illegible] أن يخرج هذا الرجل من كهفه متحدياً من شيطنته وميله سبيلاً الى ذلك. وقد حل في [illegible] وحاول أن يفزع الراهب ويخيفه ويروعه عسى أن يهرب من مأواه هذا [illegible] القديس عند مكان يصلي [illegible] نام في جنبه عندما أراد أن يستريح ولكن الرجل [illegible] أصبح [illegible] ويقول له : « اذا أردت أن [illegible] ثلاث مرات [illegible] عدو الانسان الاقدم [illegible] من فوق الجبل [illegible] فأحرق [illegible] الاشجار التي كانت في ذلك المكان »

• • •

مثل هذه [illegible] الشريرة يعيش في الجحيم ، موئل العذاب الذي سوف يلقف أولئك الذين لم يقوموا [illegible] . ولقد سعدت جهنم العبرانية Gehenna بكثير من عناية الانسان في [illegible] . فوصفت أكمل وصف ، واختبرت مجالاتها ومفصلاتها أتم اختبار ، و رتبت [illegible] القصية وأصقاعها الجحيمية ، وأضفيت عليها كل الأوصاف التي تخيلها القدماء [illegible] فكانت بعيدة [illegible] نائية كل النأي ، هنالك فيما بعد القبة [illegible] كل [illegible] المرئية . ولكن قدرة الله قد تمتد فتصل الى كل ركن من أركان [illegible] ، والى كل وقب مهما ذلّ وصغر من وقوب العالم المخلوق .

وكثيراً ما كان الناس يستمعون الى ما سوف يحل بهم من عقاب اذا عصوا ومن ثواب إذا أطاعوا ، وقلما كانوا يصغون الى شيء من هـذا من غير أن ترتعد فرائصهم فزعاً وروعاً . وكان هذا العالم ، عالم الغيب ، قريب كل القرب من مشاعر ريفي من الفلاحين أو تاجر من المدنيين ، بل ربما كان أقرب اليـه ، من ما يخيّل اليه عقله وشعوره ، من بلاد كبلاد الهند ، أو [illegible] وما نفسها ، حتى لقد كان يتخيل المرء انه على عتبة الآخرة ، وانها أقرب اليه من حبل الوريد . على انه لا ينبغي أن يسبق الى حدسنا أن انسان ذلك العصر العادي أو [illegible] أكثر حذراً وأمعن تقية [illegible] لدار الأخرى التي سوف [illegible] اليها ، أو أن التحقق من حدوث العقاب والثواب بعد الموت قد كان من موانع [illegible] في رغباته وشهواته ؟

لا شك في انه [illegible] أن ينال الحلّ absolution وغفران الخطيئات ، وان نياته كانت ولا شك على أتقى ما يمكن بحكم الطبع البشري . ولكن الجنة وجهنم ، كانتا من الأشياء

الواقعة لامحالة — وإن كل منكم إلا واردها — وانهما كمثل الاشياء التي تقع بالانسان من غير أن يكون له اختيار فيهما كأن يولد وأن يموت . وما دام الأمر كذلك ، فليس من الحكمة أن يعنت الانسان نفسه في التفكير فيما هو محتوم انه يقع ، وإن كان قريب الوقوع .

أما أشياؤه الدنيوية فمنطوت على مجموعة من العادات والعرف والآراء المتداولة بين الناس تتداول النقد ، من غير أن يترتب ذلك الانسان الى مجالات جديدة من العمل أو غيرها جديدة من التفكير .

على هذه الصورة كانت دنيا الأوساط من الناس في العصور الوسطى . وهي دنيا لا تبعد كثيراً عن دنيا كثير من أهل الريف في هذا العصر . وفي هذا دلالة على ان حركة « التنوير » الذهني قد مضت وئيدة الخطوات ، وان الخطوات التي خطتها ، كانت في مكان دون مكان .

أما الباحثون في علم الانسان فيقولون ان تيارات العقول التي عاشت في مثل تلك الدنيا ، انما تعطينا صورة من تلك الخصائص العامة الشاملة التي تختص بها المعتقدات الانسانية حينما تعذر على العقل أن يتهذب باستيعاب التحقيقات العلمية . إذ « العقلية البدائية » ، انما دعيت كذلك استناداً الى ما يستدل به عليها من عقلية أهل القبائل المتأخرة التي تعيش في العصر الحاضر . وهذه العقلية بذاتها هي التي دفعت بها عقول أهل العصور الوسطى ، فاحتكمت في تكييف البيانات العقلية ، حتى عند أرقهم فهماً وأحدهم ذكاء .

• • •

بالنظر في هذه المعتقدات التي ترجع الى تلك الأزمان القصية تجد ان اساس العصر الحديث ، إنما هو في حقيقة أمره كثير الصلة شديد القرب من نهج تلك العصور ، لأنه لا يزال أبعد ما يكون عن شكية أهل العلم التجريبية . وان الخاصية الشاملة التي يتعلق بها هذا القالب العقلي : سواء أوقعت عليها في جزر البحار الجنوبية ، أو في العصور الوسطى ، أو عند الخشابين في حرجات عصرك الحاضر ، انما تنحصر في افراط في الاعتقاد وتفسير كل حادث من حوادث الحياة تفسيراً تأثريًّا انفعاليًّا ، وثقة يقينية في حقيقة تلك المعتقدات ، وكراهة عنيفة في وضع هذه الأشياء موضع البحث ، أو جرها الى مجال الاختبار .

وبالاختصار نقول ان مثل هذا العقل انما « يفهم » معنى كل الأشياء ، ولكنه في الوقت ذاته لا يعرف معرفة تحقيق الأ مفصلات تتعلق بحياته اليومية المحدودة فهو من الجهل بالعالم بحيث يمكن أن تسلم به أتفه الاخطاء ، إلى أنكى الاخطار .

النظام الحزبي

في بريطانيا

نظرة تاريخية تحليلية

﴿ موالون ومعارضون ﴾ تنقسم البلاد عادةً الى أحزاب إذا فرّقت الخلافات السياسية بين أبنائها . والوطنية دائماً هي المصدر الأول للحزبية ، أما في انجلترا فقد نشأت الحزبية من الخلافات الدينية . ففي سنة ١٥٣٣ قامت الكنيسة الانجليكانية القومية الرسمية بعد أن تحررت من سلطة البابوية وأصبحت خاضعة خضوعاً مباشراً للملك ، تستمد منه سلطانها ويعين هو رجالها . وكانت تقوم الى جانب كنيسة الملك كنائس أخرى لا تخضع للبابا أو الملك ، إنما تتبع نظام الاصلاح الذي نادى به لوثر وكلفن ، وقد عرف أتباع تلك الكنائس بالمعارضين ، بالنسبة لغيرهم من الموالين للعرش وكنيسة العرش . وكان النزاع بين الفريقين شديداً ، وقد أصدر البرلمان — وأغلبيته من الموالين — في النصف الثاني من القرن السابع عشر عدة قوانين تعسفية ضد المعارضين ، منها ما يمنعهم من حرية العبادة ، أو يحول بينهم وبين شغل أية وظيفة في الدولة ، أو يحرّم عليهم إنشاء المدارس . فكان من شأن ذلك أن زاد حقد المعارضين على الملك وكنيسته .

﴿ « ويج » و « توري » ﴾ وحوالي سنة ١٦٧٥ تكوّنت جماعة سياسية أطلقت على نفسها اسم « جماعة الشريط الأخضر » جعلت هدفها مقاومة حزب الملك ؛ لما بدا من اعوجاج في سياسة الملك نحو فرنسا ونحو الكاثوليك ، فبادر أتباع الكنائس المعارضة بالانضمام الى هذه الجماعة ، فنشأ عن الفريقين حزب جديد قوي منظم يعمل على اضعاف نفوذ الملكيين الذين من ناحيتهم كان يجمعهم حزب لا يقل قوة وتنظيماً ؛ وقد أطلق الملكيون على المعارضين تهكماً بهم لفظة « ويج Whigs » كما أطلق المعارضون على الملكيين تهكماً بهم كذلك لفظة (توري Tories) وكلا اللفظين من ألفاظ السباب ، ويتضمنان معنى الخروج عن مبادىء الشرف واللفظ الأول من أصل اسكتلندي ، أما الثاني فمن أصل ارلندي وهكذا وضعت أصول الحزبية في انجلترا

﴿ محافظون وأحرار ﴾ وعقب ثورة ١٦٨٩ أعلنت الحريات العامة في المملكة فقرّب ذلك بين الحزبين من حيث ولائهما للعرش والدستور ، ولم تبق بينهما إلا خلافات مبدئية

بسيطة ، وكان كل من الحزبين يتكوّن من طبقة النبلاء ملاّك الارض أو كبار التجار . غير ان الثورة الصناعية التي عمت اوربا خلقت طبقة جديدة ، البورجوازية الصناعية التي أخذ نفوذها يقوى وبدأت تطالب بتعديل اللوائح البرلمانية فيما يتعلق بحقوق الانتخاب والتمثيل النيابي وقد قوي ساعد حزب « Whig » بهذا العنصر الجديد ، فاتجه نحو سياسة من الحرية أوسع ، تشمل الحرية السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية . ولما كان طابع الحرية هو أهم ما يميز حينئذ الحزب فقد أطلق على نفسه اسم حزب الاحرار وذلك منذ سنة ١٨٣٢ .

أما حزب « Tory » فبعد أن قاوم مطالب الرأسمالية الصناعية . وقد فشل في مقاومته اضطر أن يسلم للامر الواقع ، وكان على رأسه السير (روبرت بل) وهو من أصحاب المصانع ، الذي استطاع ان يستميل الى نظرياته المعتدلة عدداً كبيراً من أفراد الحزب ، وكانت لفظة « Tory » قد أصبحت مكروهة لماضيها غير الحميد ، فرأى أعضاء الحزب أن يستبدلوا بها لفظة أخرى ، ألطف وأخف وقعاً في نفوس الشعب وأقرب معنى إلى روح الحزب ، فاختاروا لأنفسهم اسم المحافظين ، وكان ذلك في سنة ١٨٣٤ .

« المحافظون » والواقع ان معنى المحافظة لا يتفق كل الاتفاق مع روح الحزب بعد سنة ١٨٣٤ ، فقد أخذ الحزب يتجه نحو سياسة جديدة ترمي الى مراجعة الانظمة العتيقة لتبين أخطاء الماضي وإدخال ما يلزم من تعديل واصلاح بغير تقيد بالتقاليد وبغير تطرف وتسرع ، فهي سياسة اصلاحية تدرجية حذرة .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ظهر على الحزب طابع جديد هو التمسك بالوحدة والاخاء ، ففي سنة ١٩٢٢ عند ما قامت حركة ارلندا الحرة ، تشبث المحافظون بفكرة وحدة (المملكة المتحدة) ، وفي أيام دزرائيلي وجوزيف تشمرلن تعلق المحافظون بفكرة وحدة الامبراطورية البريطانية وتقوية هذه الوحدة بالعلائق الاقتصادية ، وفي يومنا هذه يدعو المحافظون الى التجانس بين طبقات الامة وعناصرها . وهم يعضدون الملكية الفردية والمنشآت الخاصة . ولما كان معظمهم ملاكاً زراعيين فهم يولون الارض والزراعة كل اهتمامهم ، هذا على الرغم من أن كثيراً منهم أصبحوا من الرأسماليين الصناعيين ، وليس حزب المحافظين مقصوراً على طبقات أو فئات خاصة ، فباب الانضمام اليه مفتوح لأي نوع من الاعضاء من أي الطبقات كانوا ، فهو حزب التآلف والتوافق يريد أن يجمع عناصر الامة في وحدة أساسها الاخاء — لا المساواة — وأن يسير بالامة في طريق الاصلاح بالتدرج والاعتدال لا عن طريق الثورة والتطرف ، هذا مع الاحتفاظ بالاطار — أو الشكل — التاريخي الذي نشأت الامة البريطانية في داخله .

﴿ الاحرار ﴾ أما حزب الأحرار فجوهر فكرته الدفاع عن الحرية . فقد دافع عن الحرية الدينية وعن حق المعارضين للكنيسة القومية في العبادة ، والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة ، ثم دافع عن الحرية السياسية وعن حق كل فرد في اعطاء صوته . وعن حق مجلس العموم في أن تكون له الكلمة الأخيرة الفاصلة في شؤون الأمة ، ثم دافع عن الحرية الفردية حرية الفكر وحرية العمل في حدود الدستور والقانون . وقد دعا الأحرار في بادىء الأمر الى الحرية الاقتصادية ، إلا أنهم بعد أن اتسعت حركة العمالية ، رأوا أن للعمال حرية يجب أن تصان ، وأن هذه الحرية لا تصان إلاّ اذا تغير النظام الاقتصادي ، ففكروا في برنامج اقتصادي ديمقراطي يوفقون فيه بين حرية المنشآت الفردية وبين مصلحة العمال ، وطالب الحزب بأن يكون للعامل نصيب من أرباح المنشأة يمكنه مع الزمن اقتناء ملك خاص ، ويتضح وجه التقارب بين الأحرار والاشتراكيين في أمرين . في تعصبهم وتحبيذهم لاشتراكية جميع المنشآت التي تستطيع الدولة ادارتها خيراً من الأفراد ، ثم في محاولة ادخال مبدأ التعاون الاجتماعي ، إلاّ أن هناك عوامل كثيرة جدت كان من شأنها إضعاف مركز هذا الحزب. فقد تكوّن الحزب أصلاً لتحقيق الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية، وقد تمّ له ما أراد ، أما الحرية الاقتصادية فبعد أن دعا اليها انتهى الى تقييدها ، فكأنما هو يلغي نفسه بنفسه ، خصوصاً وان حزباً جديداً فتيًّا اقتحم ميدان السياسة البريطانية داعياً إلى تقييد الملكية الصناعية ، مثله مثل حزب الأحرار ولكن بصورة أوضح وعزم أشد ونشاط أقوى ، ذلك هو حزب العمال .

﴿ حزب جديد ﴾ كانت الامة تتوق الى سن قوانين اجتماعية ديمقراطية تحد من امتيازات الملاك الزراعيين ، وتحد من غلواء الكنيسة الرسمية ، وتعمل على تحسين حالة العمال ، وتنظم توزيع الثروة الاقتصادية ، وتساعد على إظهار إرادة الشعب ، وكانت الامة ترتقب تحقيق تلك الآمال على يد حزب الاحرار . والواقع أن عدداً غير قليل من الاحرار أخذوا يسيرون في طريق الاشتراكية المعتدلة ، كما دعا بعض مفكريهم الى تغيير نظرية الحرية الاقتصادية والمنافسة الفردية ، كما دافع بعضهم عن الناحية الانسانية في الانتاج الصناعي وكان للأدباء الانجليز أمثال (شو) و (ولز) نصيب كبير في هذه الدعوة .

ثم قامت حركة كبيرة تنتقد احتكار بعض النبلاء للأرض والزراعة وانحصار الملكية العقارية في المدن في أيدي عدد محدود من الارستقراطيين الأثرياء ، كما زاد نشاط اتحادات العمال ، وكانت الحركة العمالية تمتاز بالخصومة المستمرة بين العمال وأصحاب العمل أكثر منها بين العمال وبين الدولة ، إلاّ أن العمال بدأوا في ١٨٩٠ يشعرون بأن الحكومة لا تؤازرهم ،

ونشأ التنافر بينهم وبينها . وفي نفس الوقت كانت الماركسية قد اتسع مداها في بريطانيا .
ففي ١٨٨١ تكوّن (الاتحاد الاجتماعي الديمقراطي) يضم العناصر المثقفة ويرمي الى نشر الشيوعية بين الشعب . وفي ١٨٨٣ تأسست (الجمعية الفابية) تدعو الى اشتراكية الصناعة والارض والحكومة . وفي ١٨٩٣ تكوّن (حزب العمال المستقلين) وقد بنى سياسته على الشيوعية المنقحة ، وفي ١٩٠١ اتحدت كل تلك الهيئات وانضم اليها جميع اتحادات العمال ، فنشأ حزب جديد قوي هو المعروف اليوم بحزب العمال .

« العمال » تلك هي الظروف التي نشأ فيها (حزب العمال) البريطاني الذي أخذ نفوذه يطغى على حزب الاحرار وصار المحافظون يحسبون له كل حساب . وكلمة العمال هنا لا تعني عمال المصانع فحسب ، بل تشمل كذلك أصحاب المهن العقلية أمثال الاطباء والمدرسين والمحامين والصحفيين .

ونحن اذا درسنا سياسة حزب العمال على ضوء التصريحات التي أدلى بها زعماؤه ، استطعنا أن نقول انه حزب اشتراكي يرمي الى جعل وسائل الانتاج من الملكية العامة ، والى البحث عن خير النظم التي تستطيع الامة بها أن تدير وتراقب الصناعات والمنشآت ، إلاّ أن هذه المراقبة وتلك الادارة من جانب الامة ، ليس الغرض منهما مجرد تطبيق النظرية الاشتراكية من حيث هي نظرية ، إنما الغرض منهما الوصول الى حل عملي لرفع الضيق ومنع أسباب الشكوى . وتحقيق المساواة الاجتماعية ، فرغبة الحزب إذن هي تحرير الشعب من القيود السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يرزح تحتها ، وهو يهتم بتلك الفئة من الشعب التي يرتبط مصيرها ارتباطاً مباشراً بالقدر الذي تؤديه من العمل للحصول على ضرورات الحياة .

يسعى حزب العمال الى ازالة الفوارق بين أفراد الامة ، وهو في ذلك انما يتبع سياسة الحزبين الآخرين ولكن بنشاط أوفر وحماس أشد ، نظراً لحداثته ، وهو يكاد يكون اليوم أقوى الأحزاب البريطانية ، ومما زاد نفوذه انتصار روسيا العظيم في الحرب الأخيرة وظهورها بمظهر أقوى الدول الأوربية قاطبة ، وروسيا كما نعرف هي حاملة لواء الاشتراكية وحزب العمال ثم روسيا تأخذ بهذه النظرية ، وهو يعتبر نفسه اليوم الحزب الوحيد الذي يمكنه أن يتفاهم مع روسيا ، ثم صرّح بذلك زعماؤه .

هذه نظرة عاجلة لتاريخ نشأة الاحزاب في بريطانيا وتطورها وسياستها ، وقد رأينا أن وجه التقارب كبير بين حزبي الاحرار والعمال ، لذلك يرى كثير من الكتّاب السياسيين أن بريطانيا لا تعرف اليوم في الواقع الا حزبين رئيسيين هما حزب العمال وحزب المحافظين .

ليليا نعمان حكيم



من أنواع النبات

الضبي

﴿ السُنْبُل ﴾ ويقال له سُنْبُل الطِّيب والسنبل الهندي وسنبل العصافير والناردين يطلق على نباتين ضبي الرائحة يتداوى بهما . الأول من الفصيلة النجيلية ينبت في المنطقة الحارة اسمه النباتي Andropogon or Cymbopogon Nardus وبالانكليزية Ginger Grass وبالفرنسية Spicanard, ou Nard Indien يستخلص منه بالتقطير دُهن متصعّد يدخل في صناعة الصابون العطر ويستعمل في طرد البعوض . والثاني عشب من الفصيلة الناليريانية ينبت في منطقة جبال هيمالايا اسمه النباتي Nardostachys Jatamansi وبالانكليزية Spikenard وبالفرنسية Lavande Indienne - و Nard Indien وبالسنسكريتية « جِتّالاء » و « جتاماسي » و « جتامانسي » استعمل جذره العطري منبهاً .

﴿ السيساليون ﴾ ويقال السيسالي من Séseli باليونانية هو الانجدان الرومي نبات من الفصيلة الخيمية اسمه النباتي Seseli tortuosum وبالانكليزية French Hartwort وبالفرنسية Séséli de Marseille يتداوى ببزوره مخرجة للارياح ومضادة للدود .

﴿ السَيْسَبان ﴾ شجيرة مصرية من الفصيلة القرنية سريعة النمو وتنبت في المناطق الحارة . أوراقها ريشية مضاعفة ظريفة وأزهارها صفر . اسمها النباتي Sesbania aegyptiaca وبالانكليزية Egyptian Sesban وبالفرنسية Sesban, ou Sesbanée تستعمل أوراقها مسهلة مثل السنا المكّي .

﴿ الشرنب الحجازي ﴾ هو الشبرُم عن الفارسية نبات من الفصيلة الاوفوربية له حب كالعدس أوراقه تشبه الطرخون أو العرعر . موطنه في منطقة البحر المتوسط وفي اسبانية

~~اسمه النباتي Euphorbia Pithyusa وبالفرنسية Euphorbe Pithyuse و Euphorbe~~ à feuilles de genévrier لم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة

﴿ الشغم ﴾ معرّب جشم بالفارسية ويسمى في السودان حبة العين وحبّ العين . واسمه العلمي Cassia Absus من الفصيلة القرنية وهو حبٌّ صغير أسود مستطيل يذرّ سحيقه في العين عقيب الرمد ليخصصه وأهل السودان يتداوون به أيضاً من مرض جلديّ يسمى القوباء Ringworm مسبّب عن فطر .

﴿ الشُّلْشَكَة ﴾ اسم يطلق على الجنطيانا وهو نبات من الفصيلة الجنطيانية منبته في أوربا وآسيا الصغرى في قلل الجبال الشامخة . اسمه النباتي Gentiana lutea وبالانكليزية Yellow Gentian وبالفرنسية Grande gentiane و Gentiane Jaune . أصله شبيه بأصل الزراوند يستعمل يابساً في الطب مقوّياً مرّاً ومعديًّا وتستخلص منه مادة تسمى أروماتين يستعاض بها عن حشيشة الدينار في صناعة الجعة (البيرة) .

﴿ الشونيز ﴾ ويقال الشهنيز معروف في مصر بالحبة السوداء وحبة البركة وبالكمون الأسود حبّ نبات من الفصيلة الشقيقية منبته في منطقة البحر المتوسط ويزرع في مصر اسمه النباتي Nigella sativa وبالانكليزية Black Cumin وبالفرنسية Nigelle Cultivée و Toute-épice وهذا الحبّ عطر يتداوى بسحيقه مخرجاً للأرياح ومعديًّا ومدرًّا للعاب ويدخل في تركيب السعوط معطساً كما يستخلص منهُ شبه قلويّ يسمى نيجلّين .

﴿ الشيطَرَج ﴾ معرّب جيترك بالفارسية نبات من الفصيلة الصليبية منبته في أوربا وشمال آسيا والمشرق وقد تأقلم في مصر بحدائق القاهرة العتيقة اسمه النباتي Lepidium latifolium وبالانكليزية Dittander وبالفرنسية Cresson, ou Passerage à large feuilles وهو غير الخامشة المذكورة في مقال سابق . ولم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة .

محمود مصطفى الدمياطي

المراسلة والمناظرة

الارواح

عاد حضرة الفاضل الأستاذ احمد فهمي أبو الخير يناقشني في موضوع الروح تأييداً لعقيدة تحضير الأرواح وقد اكتشف من مقالي السابق ان كل ما كتبته معروف لا جديد فيه لأنه ترديد للآراء السابقة التي سادت عقول العلماء في القرن التاسع عشر والتي اندثرت اليوم ازاء الفتوح الحديثة في العلم .

بالطبع لم أخترع كلاماً وأقوالاً ونظريات وانما اعتمدت في مقالي على ما تلقفته من كتابات كبار العلماء واكتشف اني لم اطلع على مؤلفات جينز وادينغتون واينشطين . بلى اطلعت على مؤلفات الأولين وغيرها مثل بلانك والسير اوليفر لودج وبرتراند رسل وعلى بعض ما كتبه اينشطين . ولم أرَ انهم نادوا بانهيار مذهب آلية الكون فحطموا الكون المادي تحطيماً . وقد ينه لم يصل الى علمي أن الكون المادي تبخر تحت ضوء علم الفيزيقيا الحديثة . نعم لم يصل شيء من ذلك لأنه لا هو ولا أنا تحطمنا وتبخرنا مع أننا نحن من الكون المادي .

يريد جناب الأستاذ اثبات وجود الروح باثبات تحطيم المادة . يعني ان المادة غير موجودة وان الروح وحدها موجودة . فليرشدنا الى أي مؤلف يتبسط بهذا الموضوع . نحن نعلم أن الفلاسفة التصوريين يعتقدون أن الكون الذي نراه لا وجود له إلاّ في عقولنا . ولهم في ذلك تفسيرات فلسفية . فهل يعني الأستاذ هذا ؟

ثم انه نقل عبارة من مقال لاينشطين عن « الأثير والنسبية » راجعتها مراراً فغمضت عني بعض آياتها ولا سيما قوله : « لا توجد من ثمت أية فترات فضاء زمنية بالمعنى الفيزيقي » فما هي فترات الفضاء الزمنية ؟ هل هي فترات زمكانية Space-time .

أما الاثير فاني من أنصاره . وانما لا برهان عندنا على وجوده إلاّ أن بعض الظاهرات الطبيعية لا تعلل إلاّ بوجوده كأمواج النور المتعامدة خط اتجاهها Transverse وغيرها أيضاً . ولهذا نعتقد ان الأثير موجود فعلاً وان كان ثمت لا برهان على وجوده ، موجود لأن به نستفهم حركات المادة .

واينشطين لم يجحد الاثير جحداً باتًّا وإنما لما رأى ان عملية ميكلسن لم تكتشف سرعة الارض في الاثير قال ان نظرية النسبية تصح من غير حاجة الى الأثير .

ولكن أي أثير هو ؟ ما هو ؟ هو ما ذهب اليه علماء هذا العصر من انه الذرة الصغرى

التي تألفت منها المادة والتي تنحل اليها أخيراً . فقد ذهب جينز وادينغتون وأينشطين وغيرهما أن الالكترون الذي هو الجوهر الأصغر السلبي في المادة التي انحلت أطبق على البروتون وهو جوهر آخر ايجابي انفرطا الى فوتونات تذهب في الفضاء شعاعاً . الالكترون ينحل الى عشرة آلاف فوتون . وكما كان البروتون يساوي ١٨٤٠ الكتروناً كان ينحل الى هذا الرقم مضروباً بعشرة آلاف . وفي رأيهم أن الفوتون هو ذرة الاثير والاثير مادة ، فما هو غريب عن المادة .

وفي كتاب Ether and Realty للسير اوليفر لودج ما يستفاد منه ذلك أيضاً .

بناءً عليه إذا كانت الروح هيكلاً أثيريًا مطابقاً للهيكل الجسدي المادي خلية خلية فالروح إذن شيء مادي. وقد صرّح بهذا القول حضرة الأستاذ أبي الخير نفسه في ردّه بقوله :

« الروح مادة لا تستجيب لها المشاعر . وقد وصل العلم الى تصويرها بالفوتوغرافيا والأشعة الحمر والى وزنها كما وصل الى تصوير سيول الكهرباء المختنقة ووزنها الخ »

فاذا كانت الروح مادة فهي اذن غير الروح التي يعنيها اللاهوتيون وفلاسفة الأديان

دعنا من الروح اللاهوتية والفلسفية وخلّنا في الروح المادية التي تصور فوتوغرافيًا والتي يشير اليها الاستاذ أبو الخير . هي ما نريد برهاناً على وجودها .

لاثبات الروح الاثيرية يوجه الاستاذ أبو الخير نظرنا الى العلم الروحي الحديث في الجامعات لانه يعتقد أني لم أسمع به . ولعله يظنني من أهل نيام نيام لم أتتبع الحركة العلمية العالمية .

ولا أدري ان كان يعني بالعلم الروحي سبيرتيزم او Psychic research او شيئاً آخر . ويلفت نظري إلى كراسي لهذا العلم أنشئت في بعض جامعات اوربا الكبرى والى حجرة تحضير الأرواح في جامعة لندن .

فاشكر له توجيهه هذا ونصحه. وليسمح لي ان أقول له ان وجود هذه المعاهد الروحية والعقلية ليست برهاناً على وجود الروح اثيرية وغير أثيرية . وانما هي دلالة على اهتمام العلماء في البحث العلمي فيما يلاحظونه من الظاهرات العقلية وفيما يزعمه الزاعمون من الظاهرات الروحانية . فهم الآن في طريق البحث . الى الآن لم يثبت العلماء بالقواعد والطرق العلمية وجود الروح وماهيتها وخلودها الى غير ذلك . نحن صابرون منتظرون حين يدق ناقوس البشائر بظفرهم علميًا بالروح فيكون ذلك الحين عيداً عظيماً عند جميع البشر .

بقي أن الأستاذ أبا الخير يطلب مني أن اعلل الحادث الذي أثار هذه المناقشة وهي رؤيا رفعة حسنين باشا . وهو يعتقد اني لا أستطيع تعليلها ويؤكد لي أنه حادث حقيقي بدليل أن مجلة الدنيا الجديدة رددته — ما شاء الله .

نعم أؤكد لحضرة الأستاذ اني لا استطيع ان أعلل ذلك الحادث لانه لم يحدث . ومن يستطيع أن يعلل ما لم يحدث الا في مخيلة راويه . لا أكذِّب الراوي . هو صادق فيما روى ولكنه كان مخدوعاً في رأي شأن جميع الرؤى . ومثلها كثير كل يوم مع كثيرين من الناس . أقول ان تلك الرؤيا وغيرها هي وهم انخدع به الراءُ . فعلى حضرته أن يثبت انه حقيقةٌ وليس عليَّ أن أثبت أنه وهم

الفرصة سانحة الآن لان أروي حكاية تدور حول وهم من هذه الأوهام .

كان هوديني مشعوذاً أميركيَّا مشهوراً . وقد دهش الناس بما عمله من الشعوذات العجيبة وكان من شعوذاته انه يستحضر الارواح

ولما قدم عهده وفرغ وطابه من عملياته التي لا تكاد تحصى عاد يكررها ويشفعها بتفسير لها . أي كان يعمل العملية ثم يفسر للمشاهدين كيف عملها وكيف خدع أبصارهم . فكان هذا التفسير أدهش لهم من العملية . ولذلك كانت عمليات تحضير الارواح عنده شعوذة . وأكد لهم ان كل دعوى من دعاوي محضري الارواح انما هي زور وبهتان .

فثار عليه أنصار تحضير الارواح وشجبوه فلم يناقشهم وانما كتب بعض أسطر في ورقة وأودع الورقة في علبة وختمها وسلمها لجمعية المباحث النفسية . ثم طلب الى الجمعية أن تعلن بعد موته ان تحت يدها علبة تحتوي على كتابة من هوديني . فمن يستطيع ان يحضر روح هوديني ويستمليه ما في تلك الورقة فله جائزة ٥٠٠٠ ريال إذا طابق ما قاله ما كتبه . وتقدم الى الجمعية أستاذ أرواح ايطالي مدعياً انه يستحضر روح هوديني ويستنطقه مضمون الورقة .وعقدت جمعية المباحث النفسية اجتماعاً في دار مجلة الاكتشاف والاختراع في نيويورك حضرها علماء وصحفيون . وأعد الأستاذ الروحاني القاعة كما شاء من حيث التعتيم وتسويد الجدران ونحو ذلك وأرسل شاشة لكي تظهر عليها صورة هوديني ويسمع صوته منها .

وجاهد هذا الأستاذ مستعيناً برفيقته نحو ٣ ساعات بعد الظهر فلم ينجح .وأخيراً أعلنت رفيقته ان الأستاذ تعب فترجو تأجيل الجلسة الى حين آخر .

وفي اليوم التالي منحت الجرائد ذلك الأستاذ الروحاني حقه من التهكم والسخرية

كان ذلك منذ نحو عشرين سنة وقد قرأت الخبر في مجلة الاكتشاف والاختراع وأظن أن العلبة المختومة لا تزال في حوزة الجمعية معروضة لمن يطمع بجائزتها . فلعلَّ أستاذنا أبا الخير يود أن يجرب حظه لا طمعاً بالجائزة بل رغبة في تقديم البرهان الدامغ على صحة علم استحضار الأرواح وليكن الله معه .

نقولا الحداد

مكتبة المقتطف

الفلسفة الرواقية [1]

للدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب

هذا الكتاب احدى علامات الوقت في مصر والشرق العربي . موضوعه مدرسة واحدة من مدارس الفلسفة اليونانية ، يعرض المؤلف كل ما يتصل بها في قرابة ثلثمائة صفحة بالقطع الكبير ، ويحيل في الهوامش الى مراجع يونانية ولاتينية وفرنسية وانجليزية والمانية وعربية ، ويصادف معظم مسائل الفلسفة وتاريخها ، ويقف عند كل منها وقفة العارف المحص الموازن ، ويختتم بثبت جامع للمراجع في اللغات المذكورة مع ملاحظات عليها ، وبكشاف للاصطلاحات اليونانية ومقابلاتها العربية واللاتينية والفرنسية . كل هذا يعني أنه قد صار بيننا بحّاث هيأوا أنفسهم للبحث العلمي الدقيق وأحاطوا بعظائمه وحذقوا طرائقه . وهو يعني فوق ذلك أن قد صار بين أبناء العربية جمهور يقبل على البحوث العلمية ، فيجد المؤلفون في تقديره بعض العوض مما يعانون . وهذه ثمرة التعليم الجامعي في أقل من عشرين سنة ، تخليقٌ بالذين قاموا عليه أن يغتبطوا بها أشد اغتباط .

يعرض المؤلف ترجمات زعماء الرواقية في اليونان والرومان ، ويفصل آراءهم ، ويناقش مختلف الاقوال فيها ، بما لا يدع حاجة للاستزادة ، ويبلغ في ذلك أكثر من ثلثي الكتاب . ثم يعرض لآثار الرواقية ، فيتحدث عن أثرها في التشريع الروماني وفي المسيحية وفي الاسلام وفي عصر النهضة وعند ديكارت وسبينوزا . وكنا نتوقع أن يصل الى كانت ، وفلسفته الخلقية مدينة للرواقية بالشيء الكثير ، ولكنه لم يفعل . على أن الدكتور عثمان أمين أشار صراحة الى رواقية كانت (ص ١٠) فنستطيع أن نقول ان كتابه جاء صورة كاملة المدرسة في نفسها وفي تاريخها .

---

(١) الكتاب الثاني من سلسلة « أعلام الفلسفة » الناشر مكتبة الخانجي سنة ١٩٤٥

واذا سمحنا لنفسنا بالتعقيب عليه ، وفاءً لحق النقد العلمي ، قلنا انا وقفنا فيه عند أمور : منها ما نرى انه لا يذكر لغير المؤلف لأننا نقدر أن يكون له فيه رأي ، ومنها ما نرى الافصاح عنه هنا . وجملة ما سنورده ترجع الى رغبةٍ في تقريظ الرواقية تشتد بالمؤلف فيغلو، فيكاد القارئ يتوهم انه لم يكن قبلها فلسفة ، وان كل فلسفة بل كل تفكير جاء بعدها كان صدًى لها . وقد نلتمس لحضرته بعض العذر في طول عشرته المدرسة وانعام النظر في تعاليمها ونشدان المثل الأعلى في الأخلاق ، ولكن شيئاً من الأناة كان واجباً .

يرى حضرته اننا « اذا رجعنا الى آراء المسيحيين أنفسهم وجدنا منهم من يرى في المذاهب الرواقية « تمهيداً » للانجيل ، بل لقد ظهر باللغة الالمانية كتاب ذهب فيه صاحبه الى أبعد من هذا ، فقرر ان « الرواقية أصل المسيحية » وجعل هذه العبارة نفسها عنوان كتابه » (ص ٢٢٢) . وكان خليقاً بصديقنا أن يورد أولاً الفوارق العميقة التي تفصل بين المسيحية والرواقية . فالرواقية تقول بوحدة الوجود أو بتأليه المادة ، وبالضرورة المطلقة ، وبفناء الشخصية الإنسانية بعد الموت ، وبجواز الانتحار ، وتقول المسيحية بالروحية ، وبالإله مفارق للمادة ، وبالحرية في الله والانسان ؛ وبنفس انسانية روحية خالدة ، وبعناية الهية فعالة ، وبانكار الانتحار ، عدا عقائدها الخاصة التي لا يقابلها شيء في الرواقية . وكان خليقاً به ثانياً أن يستوفي المراجع في هذه النقطة . ونحن نحب أن يميز كتّابنا بين المسيحيين مولداً والمسيحيين عقيدة ، فإن من بين أولئك كتّاباً ملحدين متحاملين فلا تؤخذ أقوالهم على علاتها ، بل اذا قورنت بالردود عليها تبددت كالهباء . ونحب أن يميزوا بين أقدار الكتّاب ، فإنمنهم الخطير ومنهم الصغير ، ومنهم من ارتفع صيته لسبب من الأسباب ثم سقط ، مثل رنان الذي ينعته المؤلف بأنه « حجة الباحثين في أصول المسيحية » (ص ١٨٢) . وأقل ما أقول فيه الآن إن أحداً من المعنيين بهذه الأصول لا يذكره أو يرجع اليه ابتغاء العلم . هذه مسائل دقيقة عسيرة للغاية نحب أن يتحاشى كتّابنا الخوض فيها فيتحاشوا الزلل . ولا نرى بأساً في أن ندل على مثال بسيط لما يستهدف له الكاتب في عقد الموازنات : ففي ص ٢٢٧ يقول المؤلف « ان بين المثل الأعلى الرواقي والمسيحي فرقاً عميقاً : فالرواقيون يرون أن الفضيلة عبارة عن مجاراة الفطرة الطبيعية ... أما المسيحي فيرى أن الفضيلة عبارة عن مكافحة الطبيعة » والحقيقة ان لفظ الطبيعة مشترك بين الطبيعتين الحسية والعقلية ، وأن المسيحي يرى مكافحة الطبيعة الحسية ، كما يكافحها الرواقي ، لتغليب الطبيعة العقلية التي يعنيها الرواقي . فالطرفان متفقان ولا خلاف بينهما البتة في هذه النقطة . فناهيك بالمقارنة بين أقوال الرواقيين وأقوال الاناجيل ورسائل بولس . يبقى أن

كثيرين من المسيحيين ، الذين تنصروا بعد رواقية وأفلاطونية ، وغيرهم من بعدهم ، أفادوا من الرواقية في تفصيل القول في الفضائل ، وأخذوا عنهم بعض الاصطلاحات ، وهذا ما كان يستطيع حضرة المؤلف ان يستقصيه ، وهذا شيء آخر غير جوهر العقيدة .

وفي الكتاب أمثلة أخرى على هذا الغلو في الاشادة بالرواقية . منها قول حضرته مع الأستاذ جلسون إن نظرية المعاني الفطرية « وردت على لسان ديكارت حاملة طابع أصلها الرواقي » (ص ٢٥٩) : وإذا سلمنا بهذا كان لزاماً علينا أن نلاحظ أن النظرية أفلاطونية قبل ان كانت رواقية . ومنها هذه العبارة « لكن انكار الأشياء اللاجسمية عند الرواقيين لا يفيد انكارهم للروحانيات ، بل كل ما في الأمر أنهم يجعلون من الروح جسماً من الاجسام » (ص ٢٨٢) ! ومنها اضافة الفضل الى الرواقيين في أفكار عامة مشتركة بين العقول ، كالتي يذكرها في ص ٢٧١ وفي غيرها ، وتوارد الخواطر ظاهرة معروفة خصوصاً في الاخلاقيات وفضل الأفلاطونية سابق ولاحق ، وفضل أرسطو غير منكور .

على أننا نريد أن نعلق ان هذه التحفظات لا تنال بحال من قيمة الكتاب . فإن قيمته كبيرة . يتجلى فيه علم غزير معروض بأسلوب رصين رشيق ، وتنساب فيه حرارة روحية صادقة تنفذ الى نفس القارىء فتسمو بها الى الخير . فهو خدمة جليلة علمية وخلقية . وإنه ليلذ لنا أن نهنيء صديقنا الدكتور عثمان أمين مخلصين بهذا التوفيق الجميل .

يوسف كرم

Muhammad Abduh

Essai sur ses idées philosophiques et religieuses

par Dr. Osman Amin

طبع بمطبعة مصر بالقاهرة وبه مقدمة لمعالي مصطفى عبد الرزاق باشا

هذا الكتاب ألفه بالفرنسية الدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب ، وهو بحث مستفيض في آراء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الفلسفية والدينية والاجتماعية وقد تقدم به المؤلف لنيل اجازة الدكتوراة فظفر بها مع مرتبة الشرف الممتازة

ولقد أنصف الأستاذ المؤلف في وضع هذا الكتاب بالفرنسية ليعرّف علماءنا ومصلحينا وقادة الرأي فينا الى الأجانب وليلقي ضوءاً على نواحي النهضة في بلادنا .

وسنعود في فرصة أخرى الى توفية هذا الكتاب القيم حقه من الدرس والتقدير

الانجليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني

تأليف أمين المميز — مطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية — ٣٣٢ صفحة من القطع الكبير — الطبعة الاولى سنة ١٩٤٤

من السنن المتبعة في السلك السياسي العراقي أن يؤلف الموظف فيه رسالة عن الأمة التي انتدب للعمل في بلادها وان يكون تأليفه بلغة الأمة نفسها وهذه سنّة محمودة فقد كان من ثمراتها هذا الكتاب النفيس الذي ألفه الأستاذ أمين المميز وهو من كبار رجال السلك السياسي العراقي . ألفه لما كان يعمل في المفوضية العراقية في لندن ثم ترجمه الى العربية ببعض التصرف ووضع مقدمة الكتاب فخامة السيد توفيق السويدي بك وفخامته من خيار رجال العراق علماً وفضلاً وله منزلة ممتازة في علمه وفضله وحكمه . ولقد ولي رياسة الوزارة العراقية عدة مرات بعد ما كان من كبار رجال الحقوق . وقد أثنى فخامته على المؤلف بما هو أهل له وأشار الى فائدة الكتاب وفائدة التعارف التي يحدثها بين العرب والانجليز فقال :

« وإذا تعرّف الجمهور العراقي الى صديقه وحليفه الجمهور الانجليزي يكون من السهل تقوية أواصر المودة بينهما وخدمة المصالح المشتركة التي تأسست لحسن الحظ وتوطدت أسسها لا بين العراق وحده وبريطانيا بل بين العالم العربي وبينها . وفي ذلك ما لا يقدّر من منافع تعود بالخير العميم على الجميع » .

والمؤلف الفاضل يضرب على هذه النغمة بجلاء في خاتمة مقدمته فيقول :

« نحن مقبلون على عالم جديد وحياة جديدة ستختلف في كثير من النواحي عن الحياة التي اعتادها عالمنا السالف . وعلينا ان نعد العدة ونتنكب السلاح لمواجهة هذا العالم الجديد. وحريٌّ بنا نحن معاشر العرب أن ندرك أننا أقرب بتفكيرنا وآمالنا ومطامحنا ومثلنا العليا وطرق حياتنا ونظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الانجلوسكسوني من أية مجموعة دولية أخرى . فعلينا إذن أن نتفاهم ونتعاون ونتبادل الرأي والشعور والمصلحة معه بالدرجة الأولى ان أردنا أن نحقق مهمتنا ونؤمن خيرنا وسعادتنا ونحتل المركز اللائق بنا بين مجموعات الشعوب العالمية »

وبعد ذلك بحث المؤلف عن التشابه بين العراقي والانجليزي فقال :« فلو قارنا بين طبيعة الفرد العراقي وطبيعة الفرد الانجليزي لرأينا الفرق البين بينهما ؛ فتباين الأحوال الجوية والمناخ القاري ذي الصيف الحار جداً والشتاء البارد جداً جعل من العراقي فرداً سريع

التأثر والانفعال تسيره العاطفة في كثير من الأحيان . أما الانجليزي فهو على العكس من ذلك بارد الطبع بطيء التأثر الى درجة انه يوصف بالبلادة » . ثم قارن بين العراقيين والانجليز في تعلم اللغات واتقانها في صفحتي ١٧ و ١٨ ولم يفته أن يظهر تدرب فضلاً على الانجليز في اقتباسهم العلم عن العرب في صفحة ١٤ . ولما تكلم عن مشكلات الانجليز أشار الى المشكلة الفلسطينية في صفحتي ٢١٠ و ٢١١ فقال : — « وفي هذه الامبراطورية التي أغدقنا عليها آيات الوصف والاعجاب ثلاث قضايا معقدة ما زالت أعقد من ذنب الضب ولم تتوصل أدمغة الساسة الى ايجاد حل لها وهذه القضايا هي : القضية الفلسطينية، والقضية الارلندية، والقضية الهندية . فالقضية الأولى نشأت منذ أن استحوذت بريطانيا على الأراضي المقدسة بحجة « الانتداب » فخلقت ما يسمى بالقضية الفلسطينية تلك القضية التي أصبحت الآن ليست قضية فلسطينية وانما قضية بين العرب والصهيونيين ، بين الاسلام واليهود ، بين انجلترا وأميركا ، بين الشرق والغرب . وبكلام أوضح بين الحق والباطل والبحث فيها خارج عن نطاق موضوعنا هذا والأفضل أن نترك أمرها لغيرنا » .

والكتاب مقسم الى أربعة فصول استوفى المؤلف البحث فيها عن الرجل الانجليزي والمرأة الانجليزية وحياة الانجليز السياسية والاجتماعية . وقد أسهب في ذلك كثيراً . واذا شئنا الاسهاب في سرد ما امتاز به الكتاب من معارف ومعلومات طارفة وتليدة احتجنا لمساحة لا تتسع لنا هنا ولوقت كبير . فنقول اجمالاً ان للكتاب لذة كتب السياحة والوصف وهو مع هذا كتاب له روح التحقيق والاستقصاء وفيه حرية متسمة في نقد ما رآه خليقاً بالنقد والتنبيه الى ما فيه فائدة لبريطانيا الحليفة وللبلاد العربية جملة وتفصيلاً . وقد استحق المؤلف الثناء والاعجاب .

محي الدين رضا

زمزم الغريقة

لمحمد كاظم المحرر بالاهرام — ١١١ صفحة من القطع المتوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية بمصر

يمتاز هذا الكتاب بميزتين : كثرة التحقيق وحلاوة الاسلوب . أما التحقيق فليس غريباً على مؤلفه الفاضل فقد عرفته الصحافة الرفيعة كيف يتحرى الدقة في الأخبار وكيف يكون أميناً عليها . وأما الاسلوب فليس فيه تكلف ولا اغراب . ولكنه عذب ينساب في خلال الكتاب انسياب الجدول الترقرق .

والمؤلف وصّاف بارع يغريك حديثه من سطر الى سطر ومن صفحة الى أخرى حتى تأتي على الكتاب كله في جلسة واحدة . فهو بارع حين يصف البحر الهادىء حيناً والمضطر

حيناً آخر ، وهو بارع حين يصف زمزم وقد تلقفتها أمواج المحيط وهو بارع حين يصوّر لك حياة الفلاح في ... وهو بارع حين يعود بالمتنقلين الى وطنهم العزيز لينشقوا نسمات الحرية من جديد .

لقد ذهبت زمزم في ثناياها الخضوم وبقي كتاب « زمزم الغريقة » أثراً باقياً لها . فنهنىء المؤلف على كتابه ، ونشكر دار احياء الكتب العربية على معونتها الصادقة لنشر الآداب والعلوم .

١ — الحياة الروحية في الاسلام

الدكتور محمد مصطفى حلمي مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول
[illegible] صفحة من القطع الوسط — طبع بدار إحياء الكتب العربية

٢ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة

الدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول ،
[illegible] صفحة من القطع الوسط — طبع بدار إحياء الكتب العربية

فكرة موفقة ، ونهضة مباركة ، فأما الفكرة فهي قيام الجمعية الفلسفية المصرية بما أخذته على نفسها من إصدار تلك السلسلة القيمة من المؤلفات يشرف على إصدارها عالمان جليلان هما الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية ، والدكتور عثمان أمين سكرتيرها العام ، ولعلمهما الواسع وخلقهما النبيل أثر ملحوظ في نجاح تلك الفكرة . . ولدار إحياء الكتب العربية التي أخذت على عاتقها إخراج هذه السلسلة فضل لا يجحد في تدعيم تلك الفكرة .

وأما النهضة المباركة فتظهر في هذه الحيوية المتدفقة في آثار تلك الجمعية ، فلقد أخرجت خمسة مؤلفات قيمة ولما تمض على تكوينها بضعة أشهر ، وأمامها سلسلة من المؤلفات النفيسة قدّمها مؤلفوها اليها لتتابع إخراجها .

ولقد شاءت المصادفة أن يخرج من مؤلفات هذه الجمعية كتابان متتاليان يبحثان في عالم واحد هو عالم الروحية الاسلامية .

وانها لمكرمة جميلة أن يصدر هذان الكتابان . وقد هدّت المادية أعصاب العالم وقوّضت أركانه وزعزعت إيمانه حرب طاحنة غلبت فيها شهوات الجسد وأطماعه روح الخير في الناس فاندفعوا وراء أطماعهم ومدنيتهم يصطرعون ويهدمون ويحطمون حتى أنفسهم لا يردعهم هاتف روحي ولا يعصمهم مثل من أمثلة الانسانية المتجردة عن أطماعها .

فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه مؤلفه الفاضل الحياة الروحية في الاسلام تلك الحياة « التي يخضع فيها الانسان لالوان مختلفة من مجاهدة النفس وكشف حجاب الحس، وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى، وقطع العلائق المادية التي تفسد عليه صلته بربه، وصلته بأشباهه، ثم هي بعد هذا كله تأمل في الكون، ومشاهدة لمبدع الكون مشاهدة سبيلها الفناء عن النفس البشرية، وقوامها البقاء في الذات الالهية، والاتحاد بالحقيقة العلية، والتحقق بمعرفتها معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها» . وبيّن كيف نشأت هذه الحياة من تحنث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم تناول حياة محمد النفسية وأحواله وأقواله في الزهد والتقشف مما كان له أثر في حياة أصحابه والتابعين له .

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على مصادر الحياة الروحية الاسلامية، وناقش كل مصدر، وهو يميل الى مسايرة الحياة العربية في الجاهلية عند الكشف عن مصدر الروحية بحيث يمكن القول بأن حياة الزهاد والصوفية في الاسلام إنما هي استمرار لهذه الحياة الخشنة التي كان يحياها العرب الجاهليون، وهو بهذا يرى أن بذور الروحية الاسلامية نشأت في الجزيرة العربية ولم تتلق أصولها من مصادر هندية أو فارسية أو نصرانية أو يونانية . . . ثم تناول بعد ذلك زهاد القرنين الاولين للهجرة وخصائص الحياة الروحية للزهاد وعرض لناحيتين من الزهد في حياة زاهدين : الحسن البصري تمثيلاً للزهد مع الخوف، ورابعة العدوية تمثيلاً للزهد مع الحب . ثم تكلم عن الصوفية والتصوف وعن معناهما. ثم انتقل من ذلك الى خصائص التصوف في القرنين الثالث والرابع والصراع الذي قام بين الفقهاء والصوفية ومذهب الحلاج، حتى أشرف على القرن الخامس فتناول حياة الغزالي الروحية وتطرق البحث الى علم الكلام والفلسفة وتصنيف العلوم والمعرفة والسعادة عند الغزالي، ثم تناول خصائص التصوف في القرنين السادس والسابع وتكلم عن رجاله السهروردي وابن عربي والفارض — وللمؤلف دراسة واسعة عن هذا الشاعر الالهي لم نسعد بقراءتها بعد — وابن سبعين حتى انتهى به البحث الى التصوف بعد القرن السابع والى ما أصابه بعد ذلك من تدهور وانحطاط وبذلك تمت الناحية التاريخية من هذا البحث القيم، ولعل الوقت لا يطول على اخراج القسم الثاني من هذا البحث في الناحية الموضوعية

• • •

أما الكتاب الثاني الذي وضعه الدكتور ابو العلا عفيفي فقد قصره على الكلام على

اللامتية والصوفية وأهل الفتوة . واللامتية فرقة من فرق الصوفية ظهرت بمدينة نيسابور بخراسان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة تقوم فكرتها على اتهام النفس ولومها في كل ما يصدر منها من قول أو عمل ومحاربة الرياء . وإذا كانت غاية الصوفية — في مقارنة السهروردي — الفناء في الله ورؤية الخلق بعين الزوال لا تعظيم النفس ولا اخلاصها ولا الخلق وآثارهم لأن سلطان الحقيقة يستولي عليهم فلا يشاهدون عيناً ولا رسماً . أما اللامتية فأهل صحو وإدراك يرون ان الغاية من الطرق الاخلاص في الأعمال وتجريدها عن معاني الرياء . وأما الفتوة فاسم أطلق على مجموعة من الفضائل وكانت في الصدر الاول من الاسلام أمراً فردياً ولم يعرف لها نظام اجتماعي الا في عصر متأخر . . . وقد تناول المؤلف في القسم الأول من كتابه مذهب اللامتية ونشأته التاريخية والصلة بين تعاليمها وتعاليم الصوفية وأهل الفتوة كما تناول أصولها وفلسفتها في النفس . وانتقل في القسم الثاني الى رسالة اللامتية التي ألفها أبو عبد الرحمن السلمي وقد مهد لها بدراسة مستفيضة عن مؤلفها ومنزلته من تاريخ التصوف وتلاميذه وتصانيفه .

• • •

وختام القول ان المؤلفين الفاضلين قد أحسنا صنعاً باخراج هاتين الدراستين النفيستين في الروحية الاسلامية في هذا الزمن الذي يجب ان تقوى فيه عوامل الخير ومحاربة النفس . وقد أحسنت الجمعية الفلسفية في اصدارها هاتين المحققتين موصولتين . وهو جهد مشكور

حسن كامل الصيرفي

مشكلات الاطفال اليومية

للدكتور دوجلاس توم وترجمة الاستاذ اسحق رمزي — صفحاته ٣٠٠ صفحة

من الحجم الكبير — طبع بدار المعارف بمصر

كتاب علمي يعرض كافة المسائل التي تعرض لسلوك الاطفال وتوجيههم . ينبغي للآباء والامهات والأطباء والمعلمين الاطلاع عليه لما فيه من نصائح وتوجيهات [illegible] وما فيه من عرض وتحليل لأسس الصحة العقلية والنفسية .

وسنعود في عدد تالٍ الى دراسة هذا المؤلف النفيس

١ — شخصيات ومذاهب فلسفية

للدكتور عثمان امين — ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط — دار احياء الكتب العربية بمصر

العقل بطبعه ميّال الى المعرفة طموح الى زيادتها ، لا يقنع بكشف منها ، بل يشرئب الى المزيد ويتطلع دواماً الى آفاق جديدة . هـذا ما تمليه علينا الطبيعة الانسانية الصحيحة التي تأبى إلاّ أن تستغلّ كل عضو من أعضاء الجسم فيما خلق له وتسرف في هـذا الاستغلال مخافة أن يتراكم عليه الصدأ ويبلى بطول الوقت . ولن يجد العقل غذاء دسماً يملأ زواياه وينتشر في خلاياه كالفلسفة . فالفلسفة غذاء ذهنيّ شهي كلما هضمته زاد شوقك إلى سواه ، ولو أنت بقانع مهما اتسع عقلك له .

ويطيب للعقل أن يسبح فيما وراء الطبيعة محاولاً أن يتفهّم كنهها ويدرك ما خفي عنه منها ويسبر غورها ويتفرّس في أسرارها وخباياها لعله يوفق الى استجلاء ما غمض عليه وتعليل ما أشكل على الحواس . وما الفلسفة إلاّ حب المعرفة والسعي لادراكها بأساليب ومناهج شتى وتتوسل الى ذلك بالمنطق مرة ، وبالحواس أخرى ، وبالاستنتاج مرة ثالثة .

والفيلسوف بطبعه لا يمقت إلاّ كل مختزن للمعرفة ضنين بهـا على الآخرين ، فما الأثرة من سجايا الفلاسفة ، وإنما الايثار والمشاركة . لذلك رأى الدكتوران علي عبد الواحد وافي وعثمان أمين أن يصدرا سلسلة من المؤلفات الفلسفية يشرف عليهـا من عل معالي الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ليستطيع المبتدئون في الفلسفة أن يشقوا طريقهم بين خضمها وليلمّ الذين يتهيبون الفلسفة بما يهيء لهم سبيل الاقبال على مناهلها وورود ينابيعها .

وأصدر صديقنا الدكتور عثمان أمين أستاذ تاريخ الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كتاباً يجمع الى سهولة التعبير عمق المادة ودقة الرواية وإصالة التفكير وجمال العرض . وتناول في « شخصـيات ومذاهب فلسفية » طائفة من الفلاسفة ، سرد سيرتهم وفصّل مناهجهم ودفع عن بعضهم ما لحقهم من إتهامات . واختار أن يعرض فلاسفة من اليونان ، فتحـدث عن السوفسطائيين الجـدليين الذين يتاجرون بالـكلام وبالمنطق ، وعن سقراط الأخلاقيّ الشجاع الذي أبى أن يهرب من السجن لينقذ حياته وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة . ثم عرض فلاسفة من الاسلام وتحدّث عن الفارابي الذي بدأ شبابه متفلسفاً وقضى كهولته متعبداً وختم حياته متصوفاً . وعن ابن سينا الذي تقلد مناصب الوزارة والرياسة ولم يسلم من جناية السياسة عليـه ، وعن ابن رشد النابغة الذي كتب نحواً من عشرة آلاف ورقة وتبحر في الشروح والبحوث الدينية والفلسفية وكان بعيد الأثر في فلسفة الغرب . ثم تناول الدكتور عثمان أمين فيلسوفين أوربيين هما ديكارت زعيم المدرسة العقلية وصاحب نظرية الشك في كل شيء ، وهيوم التجريبيّ الاختباري الناقد

فالكتاب لم يقتصر على عصر معين أو فيلسوف معين ، بل وسع دائرة بحثه ليستطيع القارىء أن يلم بمدارس فلسفية منوعة وأساليب متباينة . فقرأنا فيه عن فلاسفة ماديين وعن آخرين أخلاقيين وغيرهم عقليين وعمليين ونظريين ، وسمعنا عن اليونان والاسلام وفرنسا وانجلترا ، وما كل هذا الجهد وكل هذا العناء إلاّ ليتذوق القارىء حلاوة الفلسفة وليشارك الفلاسفة فيما يهدفون اليه من حب للمعرفة وسعي حثيث لادراكها ومتعة في النفاذ الى أعماقها السحيقة .

ولم يكتف الدكتور عثمان أمين بسرد النظريات الفلسفية مجردة من الشهيات ، بل لجأ الى مدّ كتابه بطائفة من الحوادث الطريفة عن كل فيلسوف . فقال عن ابن سينا انه كان بارعاً في الطب النفساني ، لجيء اليه برجل أصيب بالماليخوليا ليعالجه . وكانت العلة قد اشتدت على المريض حتى سيطر عليه الاعتقاد انه أصبح بقرة ، فشرع يقلد الأبقار في خوارها ويشرب معها ممتنعاً عن مؤاكلة بني الانسان . فقال ابن سينا للمريض : « هلمّ نذبحك ما دمت أصبحت بقرة » فأجاب المريض : « افعل ما تشاء » فأمر ابن سينا بأن يقيد المريض بحبل وأن يلقى على الأرض ويؤتى بسكين حاد . فلما جيء بالسكين ، أهوى به على المريض كأنه يريد ذبحه . فلما قرب من نحره قال له : « ما بال هذه البقرة هزيلة ! انهـا لا تصلح للذبح » فقال المريض : « انها تصلح للذبح فاذبح » ولـكن ابن سينا أبى أن يذبحها حتى تمتلىء لحماً وشحماً . وأشار على « البقرة » أن تأكل كثيراً وتشرب كما يأكل النـاس ويشربون . فسأل المريض : « أوتذبحني إن فعلت وأصبحت سميناً ؟ » فأجاب بالايجاب . وأخذ المريض يأكل ويشرب كثيراً ويعاشر الآدميين حتى برىء من علته وردّ اليه صوابه !.

ولعل أجمل ما في كتاب « شخصيات ومذاهب فلسفية » الفصل الذي أفرده الدكتور عثمان أمين لديكارت ، فهذا رجل بدأ نهجه الفلسفي بالشك في كل شيء حتى في ذاته ، وانتهى باليقين القائم على دعائم لا تقبل النقض ولا تتسرّب اليها الريب .

أما فيما يختص بترجمة المصطلحات الفلسفية ، فالحق إن المؤلف أجاد كل الاجادة في اختيارها ، غير اني كنت أوثر أن يستعمل كلمة « الكائن » بدلاً من « الوجود » لتؤدي معنى Being وكلمة « الايحاء » بدلاً من « الحدس » لتؤدي معنى Intuition وكلمة « الاستنتاج » بدلاً من « الاستنباط » لتؤدي معنى Deduction .

وكتاب « شخصيات ومذاهب فلسفية » نموذج موفق للفلسفة المبسطة . والدكتور عثمان أمين نموذج صادق للشباب الوثاب . وقد جال من قبل جولات موفقة في رسائله « ديكارت » و « محمد عبده » و « الفلسفة الرواقية » وما زالت جعبته عامرة يمد المجلات بما يتدفق من فيضها .

٢ — ابرهيم الكاتب

تأليف ابرهيم عبد القادر المازني — ٣٠٨ ص . من الحجم الكبير — مكتبة مصر بالفجالة

ليس من ينكر على الكاتب الكبير الأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني فضله على الأدب العربي وهو الذي سخر قلمه في خدمة الضاد زمناً يربو على ربع قرن . فهو كاتب خفيف الظل ، سهل العبارة ، دقيق التصوير ، صادق الرواية ، صريح حتى ليفتح لك قلبه على مصراعيه في أول لقاء . فهو يقبض على أزمة اللغة ويملك نواصيها ويتحكم في بيانها ، فيخلق من الكلمات معانٍ دقيقة معبرة ، ويبعث من مَسْوَات اللفظ شخوصاً تراهم رأي العين البصيرة النافذة التي لا تترك شاردة ولا واردة ، ولا تغيب عنها حركة مهما قلَّ شأنها ، ولا تهمل تعبيراً من تعبيرات الوجه أو حركة من حركات الجسم الا رصدته وأحسنت تبيانه .

والأستاذ المازني رجل حياة ، شغوف بالواقع ، عزوف عن المغالاة والمبالغة . فتجيء جميع كتاباته طبيعية لا تصنع فيها ولا ادعاء ، تعكس صوراً لا تنقصها الحياة ولا تعوزها الصراحة . على هذا المنوال عوَّدنا الصديق الكبير في كل ما تخط يده ، فما فتىء يرجع إلى الدنيا في كل ما يكتب ، يستقي منها مادته ويصوغها في قوالب بعيدة عن التحيز او المجافاة . ومن يقرأ كتبه « ابرهيم الكاتب » و « ابرهيم الثاني » و « عود على بدء » و و . الخ يرى هذا جليًّا .

ومنذ نحو خمسة عشر عاماً خرج الأستاذ المازني على العالم العربي بكتابه الرائع « ابرهيم الكاتب » الذي أودعه عصارة قلبه ونفسه وفكره ، فصوَّر فيه حوادث أغلب الظن أنها عرضت له وكان هو بطلها أو ضحيتها على الأصح . وسلك في كتابته مسلكاً يدفع السأم عن القارىء ويطرد الملال عنه . « فابرهيم الكاتب » قصة كثيرة الفصول ، بل هي في الحق مجموعة قصص شُدَّت الى بعضها البعض بحبكة قصصية بارعة خلقت منها رواية تامة الفصول تجمع الى صدق التصوير جمال المعاني وبساطة الحياة ورصانة الاسلوب ، وكيف لا يكون هذا واللغة قد لانت للأستاذ المازني وطاوعته وأسلمته قيادها ؟ .

واليوم يطلع علينا الاستاذ الكبير بالطبعة الثانية من ذلك الكتاب ، لم يدخل عليها تعديلاً ما لأنه رأى أن روايته أصبحت من الآثار الأدبية المعتمدة التي لا يحق له أن يتناولها بالتعديل أو التحريف . ولا تزال الرواية تحتفظ بجدتها ، ولا تزال شخوصها تتمتع بصحة وارفة ، فلم يشخ « ابرهيم » وهو البطل ، ولم يَعْلُ المشيب هامة « شوشو » ولم تنل الايام من « الشيخ علي » ولم يعرض « الدكتور محمود » ولم تتخلَّ الطفلة « زوزو » عن طفولتها ، وإنما استطاعت الرواية لفرط جودتها الابقاء على رونقها والاحتفاظ بالحياة تدبّ في أوصالها .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية

ألقى الأستاذ الدكتور أحمد زكي بك المدير العام لمصلحة الكيمياء محاضرة عن « العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية » قال فيها : ان صناعة حامض الكبريتيك في مصر مهددة أكبر تهديد بعد الحرب إذا لم تكن لها حماية . ومن أسباب ذلك ان خاماتها (الكبريت أو البيريت أو الجبس) لم تثبت البحوث الجيولوجية القليلة وجودها في مصر ، كما أن قلة الانتاج المصري بالنسبة لنظائره في الخارج يزيد في ثمن انتاج الطن بمقارنته الى الثمن العالمي .

صناعة الورق

وقال الدكتور زكي بك ان صناعة الورق في مصر تنهض على قش الأرز . وهذا لا ينتج إلا الصنف الخسيس من الورق . فلا بد لهذه الصناعة من أن تتطلع الى خامات مصرية أخرى كمصاصة القصب ونبات البردي إن أمكن استنباته في مصر . ولا بد كذلك من تجديد الصناعة حتى تتحمل منافسة الخارج ولا مناص من مضاعفة الانتاج تخفيضاً لثمن الورق .

صناعة الكحول

أما صناعة الكحول ، فانها تعتمد في الأغلب على الميلاس (العسل الأسود) المتخلف من صناعة السكر . وقد يدخل في هذه الصناعة بعد الحرب عامل منافسة جديد شديد . فلسوف يتمخض السلم عن صنع الكحول من نشارة الخشب ومن الحطب المتخلف من قطع الشجر في الغابات . والولايات المتحدة تنتج من ذلك ٣٠ مليون طن يمكن تحويل نسبة كبيرة منه الى سكر فالى كحول ، وقد تمّ هذا فعلاً . ويقدر ثمن الكحول الناتج بنحو نصف ثمنه قبل الحرب وهذا تحول كبير . وتستخدم الولايات المتحدة الآن نحو أربع مئة مليون جالون من الكحول في صناعة المطاط الصناعي .

صناعة الصودا

وقال المحاضر ان انتاج العالم من الصودا بلغ في عام ١٩٣٧ نحو ١٧ مليون طن وان خامتها العالمية العظمى هي ملح الطعام (كلورور الصوديوم) . وثمة طريقتان متنافستان لانتاج الصودا أقدمهما طريقة

سلفاي ، وتعتمد على النوشادر والجير وأحدثهما طريقة الكهرباء وتعتمد على قوة كهربائية رخيصة . أما في مصر ، فان الصودا تستخرج بطريقة بدائية من وادي النطرون فهي والحال كذلك لا يمكن أن تمي إلاَّ بالقليل من حاجة البلاد .

المواد الصناعية

ثم تحدَّث المحاضر عن المواد الصناعية Synthetics فقال انها تستخرج من مواد كيميائية أهم مصدر لها قطران الفحم وقد تسببت هذه الصناعة الجديدة في تغير الصورة الاقتصادية للصناعات الكيميائية تغيراً كبيراً . ودلل على ذلك بصناعة النيلج لان تحضير هذه المادة من قطران الفحم قضى على صناعة النيلج في الهند ومصدرها الشجر المزروع . وأشار الى الحرير الصناعي وقد بلغ الانتاج العالمي منه عام ١٩٤٠ نحو مليون ومئتي الف طن ، وكاد يكون معدوماً في الحرب الماضية . أما اللدائن أو المعاجن الكيميائية Plastics فكان ينتج منها في عام ١٩٢٠ نحو خمسة ملايين من الأرطال ، فأصبح انتاجها عام ١٩٤٠ نحواً من مئتي مليون رطل .

وثمة صناعة المطاط الصناعي الذي ينتج اليوم من الكحول ومن زيت البترول بعد تحطيمه Cracking . والمطاط الصناعي يمتاز كثيراً عن الطبيعي فضلاً عن ان الصانع يستطيع أن يتحكم في خواصه على الوجه الذي يبغي .

وتحدَّث زكي بك عن البنسلين الذي تنفق على صناعته اليوم مئات الالوف من الجنيهات . فقال : متى اهتدى البحث الكيميائي قريباً الى معرفة تركيبه وصناعته من مواده الأولية (مثل قطران الفحم أو غيره) ألغيت المصانع التي أنشئت الآن وضاعت جميع النفقات التي صرفت سدىً . وعندئذٍ ينخفض ثمن البنسلين الى ثمن الاسبرين ويصبح في متناول الفقير قبل الغني .

المطاط الصناعي

تنبأ الدكتور جود فري كولدويل Godfrey Caldwell بشركة المطاط الاميركية في ولاية ساوث كارولينا بأن مجال استخدام المطاط الصناعي بعد الحرب سيكون واسعاً جدًّا . وقال ان الخبرة التي كسبها علماء الكيمياء من انتاج المطاط الصناعي في السنوات الثلاث الأخيرة تزيد كثيراً على الخبرة التي كسبوها من انتاج المطاط الطبيعي في ثلاثين سنة . وقال إن البوتيل Butyl وهو أحدث أنواع المطاط الصناعي أثبت انه يمتاز بكثير عن المطاط الطبيعي ولاسيما في صناعة اطارات السيارات الداخلية ، وذلك لانه يقاوم الحرارة العالية ويقاوم عوامل التمزق ويقاوم رطوبة الجو .

أشعة اكس في الحرب

أذاعت مصلحة الانتاج الحربي الاميركية أن حاجات الحرب أسفرت عن استنباط استعمالات جديدة وأنواع جديدة منوعة من آلات رنتجن (إكس) في ميادين الطب والصناعة.

ولم تكن أشعة إكس تستخدم في الكشف عن المواد الصناعية أو المنتجات الآلية قبل الحرب، على الرغم من أن هذه الأساليب كانت معروفة من ثلاثين عاماً. ويحتاج إنتاج معظم مواد الحرب تقريباً الى الكشف عليها بوساطة أشعة إكس، فقد ساهمت في الحرب بقسط كبير. وستحدث آلات الأشعة من أوزان مختلفة تتفاوت بين بضعة أرطال وعدد من الأطنان وتتفاوت قوة التيار الكهربائي المستخدم فيها بين أربعة آلاف ومليونين من الفولطات.

ومن المنتجات التي تجتاز اختبار أشعة اكس يومياً للتثبت من صلاحيتها ما يلي: قطع الآلات وألواح الفولاذ اللازمة لبناء البوارج ورصاص البنادق والقنابل من عيار عشرة بوصات. وفائدة هذا الاختبار التثبت من أن التركيب الداخلي لهذه المواد خالٍ من العيوب. ويلاحظ ان العينات التي تجري عليها هذه الاختبارات لا تتعرّض لتلفٍ أو فساد بسبب أشعة إكس.

ترقية زراعة القطن

نشرت جريدة «وول ستريت جورنال» أن العلماء الأميركيين الذين يتوفرون على شؤون القطن توصلوا إلى تحسين حالة القطن واستحداث أساليب جديدة في زراعته وصناعته من شأنها أن تكسب القطن الطبيعي بعض الصفات الجيدة المتوفرة في منافسة القطن الصناعي، مع احتفاظ نبات القطن في الوقت عينه بالمميزات التي ينفرد بها. وسيؤدي هذا إلى كشف مئات من الاستعمالات الجديدة لمنسوجات القطن.

علماء ألمانيا يحاكمون كمجرمي حرب

جاء في برقية لاحدى وكالات الانباء الاميركية من لندن أن لجنة محاكمة مجرمي الحرب المؤلفة من ممثلي الأمم المتحدة تبحث موضوع ادراج أسماء العلماء والأطباء الالمانيين البارزين في قائمة مجرمي الحرب تمهيداً لمحاكمتهم لأنهم تسببوا في وفاة ألوف من الرجال والنساء بما أجروه عليهم من تجاريب علمية.

وديع فلسطين

موقد كهربي

اخترع موقد كهربي للطبخ ، فيه مصباح متألق ولوحة زجاجية مربعة ذات إطار لفحص الطعام . ويحتوي على ساعة اعتيادية واخرى مثل ساعات السباق .

ثم تقصد ربة البيت إلى خزانة الأغذية المثلجة حيث تنتقي العشاء المرغوب من الرفوف المحتوية على الفطائر المبردة ، غير المخبوزة ، واللحمة المفرومة والليمون الهندي والسرطان وفلبتو السمك والدجاج والمخللات ، وفواكه المنطقة الحارة واللحوم وطيور الصيد البرية

وتتناول من رف آخر علبة قشدة فتفتحها لتعرّض مشتملاتها السائلة للهواء فتتحوّل قشدة مخفوقة . ثم تجفف البطاطس المهروسة ، وكذلك يوضع البن المسحوق أقراصاً صغيرة تلف بورق السيلوفان . وهذه يمكن جعلها قهوة تشرب حالاً بإسقاطها في الماء الساخن .

ثم تجيء ربة الدار فتجلس معك الى مائدة مغطاة بنسيج لا تؤثر فيه النار ومرصعة بصحون خفيفة من العجائن الكيميائية ، مشفوعة بشوك وملاعق عجينية وسكاكين بمقابض منها أيضاً .

وبعد انتهاء العشاء ، يحل دور الترويح عن النفس ، فتسمع اسطوانات ، مطربة هي بكرات سلك ممغنط ، وكل بكرة منها ملفوف عليها سلك يزيد طوله على ميلين . وتحتوي كل واحدة منها على برنامج للغناء يُلْقى في ساعة بلا انقطاع .

وتستعمل الآن بدل هذه الأجهزة والآلات التي وصفناها ، مئات من الأجهزة والمخترعات الصغيرة التي هي من ثمار مباحث زمن الحرب الحالية . وقد تمّ اتقانها لتنافس غيرها وتفوقها في أسواق العالم . وبعضها مؤسس على مبادىء الرائد اللاسلكي . ولا جرم أن العلم سيثمر ثمرات عجيبة جداً حينما تنشر ألوية السلام على العالم .

الراديو المبصر أو المصور

وقد يعروك الدهش إذ ترى ربة الدار ترحب بمقدمك وهي واقفة في مطبخها تطهي طعامها ، وذلك الترحيب يصدر عن طريق جهاز لنقل الصوت ركب في حجرة تحت المطبخ خصص أصلاً لنقل ضوضاء الأطفال حينما يستيقظون في حجرتهم فتسمعهم أمهم . وحينما يستقر بك المقام ، في دار مضيفتك ، ترجوك رفع التكليف ثم تصارحك القول بأنها قد راقبت حضورك من قبل بلوغك مسكنها ، وذلك عن طريق مطبخها بوساطة ستار الراديو المبصر المركب في واجهة البيت وهو من المخترعات الغالية القيمة حتى الآن .

عوض جندي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السابع بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٥ — ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٦٤

*طبقة من نور

وأخرى من ظلام في العصور الوسطى

كان الفرق بين الآراء التي تجول في عقول الأوساط من الناس ، وبين الذين خصوا باستيعاب أرقى ضروب المعرفة الذائعة في العصور الوسطى ، كبيراً شاسعاً . على أن مثل هذا الفرق قد وجد دائماً بين الزمرتين ، وهو في عصرنا هذا ، بالرغم من نظام المدارس والتدريس ، لا يزال واسعاً عميقاً ، كما كان في تلك العصور . غير أن بعض الظروف قد جعلت ذلك الفرق في العصور الوسطى ، أوسع بعض الشيء مما هو الآن . ذلك بأن غالبية الناس إذ ذاك كانوا الى الخشونة ، تسترقهم الصناعات اليدوية أو الفلاحة ، فلم يزايلوا ديارهم الاصلية التي نشأوا فيها . اللهمّ الاّ إذا دعتهم الحاجة الى الخروج لمنازلة يزجهم في غمراتها سيد الاقطاع الذي يملك رقابهم . كانوا يجهلون القراءة . ولو أنهم عرفوها إذن لما وجدوا كتباً ولا مخطوطات يعكفون عليها ، فظلوا من حيث العلم بأحوال الدنيا الخارجة عن دنياهم الضيقة ، واقفين عند ما يتلقفون من أقوال المهاجرين وعابري السبيل والتجار . وفي الحق ان صلتهم بالمعرفة كانت مقصورة على قسيس القرية . وكان قساوسة القرى أقل رجال « الاكليروس » علماً وأعجزهم عن التعلم . كانوا في شغل شاغل وفي فقر مدقع ، حتى ليتعذر على أحدهم الحصول على مخطوط يكب عليه . وكانوا محتقرين في نظر الذين هم أعلى منهم مرتبة في الكنيسة ، ومن الديّارين ، على السواء .

إن اتصال الفلاحين وعمال المصانع في العصر الحاضر بالعالم المحيط بهم ، ووقوفهم على

أخبار الدنيا والآراء التي تذيع فيهم عن طريق الصحف والمجلات والصور المتحركة ، دع عنك تعليم المدارس ، لم يتهيأ مثله للناس منذ ستة قرون فرطنَ من الزمان . أضف الى ذلك أن طبقة المتعلمين كانت نسبتها بالقياس على المجموع أقل منها الآن . فاننا بالرغم مما نقرأ من أن آلاف الطلاب كانوا في ذلك العصر يغشون جامعة باريس أو جامعة بولونيا ، فإن عدد الجامعات الكبرى ذات الأثر الثقافي، حتى حدود القرن الرابع عشر ، لم يتجاوز اثنتي عشرة جامعة في كل أوربا ، إن لم يكن أقل . وكانت جميعها ، على التقريب ، واقعة تحت سلطان رجال الدين . وهم طائفة انحصر فيهم كل ما نسمّيه اليوم وظائف السياسة والشرع والتعليم ، ومعنى هذا أنهم كانوا منفصلين عن بقية أفراد الجمعية وطبقاتها ، فلا يختلطون بغيرهم إلا قليلاً ، فضلاً عن اعتقادهم القائم على فكرة الرعاية الكنسية التي أوحت اليهم بأن العلم مجالهم وحدهم وصناعتهم المحتكرة ، وأن تدخل عامة الناس فيه أمر لا يخلو من خطر ينبغي أن يتقى بصرفهم عنه وإبعادهم عن سبيله . يأتي فوق ذلك حقيقة أن الكتب التي ظنَّ أن بها إثارة من العلم المدرسي والمدوّنات والمراجع ، كانت جميعاً مكتوبة باللسان اللاتيني ، وكان مجهولاً من العامة حتى في ايطاليا نفسها . وكذلك الانجيل ، وكان من دعائم العلم في كل العصور الوسطى ، كان مكتوباً باللغة اللاتينية كما عرفها القديس « ييروم » . أما ترجمته الى اللغة المتداولة فكان مقدمة لحركة الاصلاح الديني التي قام بها لوثر ، وكان بقاؤه في اللاتينية وحدها من العوائق التي صدت مقدمي الاصلاح الديني ، من أمثال « ويكليف » و « هوس » عن بلوغ أهدافهم في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . ولم يكن ليصل الى العامة من صور التبشير النصراني التي يمكن أن تسعها عقولهم، قبل ظهور القساوسة المستجدين من الدومينيكيين والفرنسسكانيين في أوائل القرن الثالث عشر، إلا إثارات ونتف لا غناء فيها. واما أكثر ما يتصل بهؤلاء القساوسة من الشهرة ، فإنما يرجع الى بعثاتهم التي جابت أنحاء أوربا ، ورغبتهم في اقتسام علمهم مع الناس .

كانت الطبقات العليا ، بطبيعة الحال ، غير منقطعة كل الانقطاع عن خزائن الحكمة الذائعة . ففي خلال العهد الأخير من العصور الوسطى ، كان أسياد الاقطاعات يقرأون ويكتبون ، جرياً على عادة أتبعت ، كما أنفقت للهوهم أقاصيص وأغنيات وحكايات للتسلية عن سياحات ومخاطرات ، وهي من الأشياء التي تؤلف جزءاً عظيماً مما تفخر به الآداب الأوربية الأولى . كذلك كان نواب المدن وكبار رجالها متعلمين تعليماً لا بأس به . وفي الحقيقة ان العثور على طبقة متعلمة تعليماً ثقافيّاً، قد اقتصر في الغالب على كبار رجال الأسر التجارية ورجال البلديات والموظفين الذين كان يحتاج اليهم في معالجة مشاكل التجارة والحياة

التجارية . فان دانتي الفلورنسي، وهو ابن مسجل عقود ، انما هو المثل العالي لذلك الضرب من التعليم الذي ذاع في المدن، وبخاصة مدن شمال ايطاليا العامرة في القرن الثالث عشر . ولقد كان في المانيا وفي الفلاندر طبقة مثل هذه تمثل أرقى ما وصل اليه التثقيف في المدن الكبرى.

من هذه الطبقات خرج أعاظم الذين تحمسوا لآداب العالم القديم واحتضنوها وعملوا على تفهمها . أولئك كانوا أوائل النشوريين[1] في عصر النهضة . وبنشوء هذه الطبقة القارئة، نشأت آداب واسعة تناولت العلوم المبسطة ، ونوع آخر من الأدب جمع بين التسلية والتثقيف . وكان من الطبيعي أن تتجه العقول الى أنواع الثقافات الأدبية التي فيها شيء من الروعة أو الغرابة .

من أمثال الكتب التي ذاعت في ذلك العصر كتاب — Romaunt of the Rose — الذي ترجم الى كثير من اللغات وترجمه « شوسر » الى الانجليزية . وكذلك كتاب — [illegible] Romance وكتاب Treasure الذي وضعه برونتو لاتيني أستاذ دانتي وكتاب — [illegible] — الذي وضعه بارتولوميو الانجليزي وكثير غيرهم ممن قلدوهم . وهؤلاء لم يكونوا في عصرهم أقرب الى مراقي الثقافة العليا، علمية وأدبية ، من كثير ممن يكتبون على صحف « العلم المبسط » التي تنشر في عصرنا هذا . ان هذه ليست إلا نفايات إذا قيست بالموسوعات الثقافية التي وضعها البرت الكبير أو القديس توماس الاكويني .

إذا رجعنا إلى عقائد الرجل العادي في حقيقة العالم، فاننا نجد أن آراءه من حيث تأمله في حقيقة البيئة التي وضعه الله فيها ليقضي حياته الفانية ، كانت خليطاً من مشاهدات، إن دلت على فطنة ورجاحة عقل، فانها في مجموعها قد عُلِّقت بتلك الأشياء التي وقعت تحت حسه وفي دائرة حياته المحدودة، وأثرت في حياته اليومية وطبيعة عمله ، وقصص خيالية وخرافات كونها فيما تخيل من أمور تبعد عن عصره أو عن عقله ، سواء أفي الزمن أم في المكان ، وعقيدة مختمرة في نفسه في حقيقة الأشياء التي بعدت عن مجال تجاربه وعجز عن تعليلها ، وكانت خرافة الانجيل ، مفسَّرة على ما يرضي أهواء الأخيلة السائدة ، هي المرجع الذي يستمد منه مهيئات تلك العقيدة .

خلق الله العالم ، كما ثبت في مخيلة ذلك الرجل العادي ، في ستة أيام ، جرياً على التقليد العبراني القديم ، فخرج كاملاً بكل تفاصيله، وثبت كما خلق فلم يقع عليه أي تغاير أو نشوء.

(١) Humanists

وانَّ التغير الذي نلحظه في حياتنا هذه انما يقتصر على حياة الانسان وعلى أعماله . خيل اليه أن الأرض سهلٌ عظيم ، يحيط به من جميع الجهات لج من الماء . ومن فوقها امتدت القبة السماوية ، التي سبحت فيها الشمس والقمر والسيارات ، وفي جنباتها الفسيحة استقرَّ ملائكة يحملون النجوم الثوابت ، كأنها المصابيح .

أما حركات السيارات فكان علمه بها أرقى من علم الانسان العادي في زماننا هذا ، ذلك بأنه عاش في العراء ، فاذا غربت الشمس ، عزَّ عليه أن يجد ما يستضيء به ، فشغل نفسه بالتطلع الى السماء ، حتى استطاع أن يقف على مجرى تلك الكواكب السيارة ، وطبيعة حركتها ، ونشأت فيه غريزة الفلاح التي حملته على أن يدرس علاقة حركاتها تلك بحالات الطقس والرياح . ناهيك بما علم من مبادئ التنجيم ، وهي مبادئ انحدرت اليه من أبعد الازمان، وكانت قد نشأت في تلك البلاد التي يدعوها « بلاد الكفّار » — ويقصد بهم العرب — فاعتمد عليها واتخذها ، كما اتخذها غيره من أهل القرون الأولى ، هادياً في العمل وموجهاً في الزراعة ووسيلة للشفاء ، ومستقرأً للمستقبل . أما المجازات المشرقية التي وردت في كتب العهد القديم ، فقد فهمها بحرفيتها ، وربما كان قد عطف على ذلك الاسقف القديم الذي قال :

ليست السماء كرة ، بل خيمة أو مظلة « انه هو ... الذي مد السماوات حجاباً ، وبسطها خيمة نعيش فيها » . تقول الكتب المقدسة إن لها قمة . وليس للكرة قمة . وكذلك كتب : علت الشمس عن الارض عند ما هبط لوط أرض صوغر(١) Zoar . الارض منبسطة، والشمس لا تمر من تحتها خلال الليل ، بل تمر بالاجزاء الشمالية ، كما لو كان يحجبها جدار . والشمس تغرب ومن ثم تسرع الى المكان الذي منه تشرق».

***

اتخذ الراهب « قوزماس » من هذه التعبيرات أداةً ، وأكبَّ في القرن السادس على تأليف كتاب ذاع صيته وانتشر بين الناس على اختلاف طبقاتهم حتى القرن الثاني عشر ، فصوَّر الدنيا في هيئة خيمة عظيمة مستطيلة الشكل ، مملوءة بالماء ، ومنها يتساقط المطر على الارض .

غير ان كثيراً من الذين وصلت الى أيديهم كتب العلوم المبسّطة في القرنين الثاني عشر

(١) واذ أشرقت الشمس على الارض دخل لوط الى صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . تكوين : ١٩ : ٢٣ الى ٢٦ .

والثالث عشر ، كان علمهم أقوم من علم هـذا الراهب والذين أخـذوا عنه . فقد بُرهِن بسهولة على أن الارض كروية ، وان من حولها تدور الأفلاك والسيارات .

جاء في كتيِّب من مخلفات القرن العاشر :

في اليوم الثاني خلق الله السماء وسميت الثبة ، وهي مرئية بالعين ، هيولية القوام . ومع هذا فقد يتفق ان لا نراها لعظم ارتفاعها وتراكم السحاب وضعف أبصارنا . تضم السماء في صدرها الدنيا برمتها وهي لا تنفك تدور من حولنا ، بأسرع مما تدور أية من عجلات الطواحين ، وهي من تحت الارض كما هي من فوقها ، على بعد واحد . انها مستديرة من كل أطرافها ، كاملة البناء ، تامة الخلق مرصعة بالنجوم . وفي الحق ان الشمس تمشي بأمر الله بين السماء والارض فتعلو نهاراً وتهبط ليلا . وهي دائمة الحركة من حول الارض ، وبذلك تضيء الجزء الإسفل من الارض عند ما يكون ليل في جزئها الاعلا . والشمس عظيمة الحجم فائقة القدر ، وانها على ما تقول الكتب ، بعرض الارض واتساعها ، ولكنها تظهر صغيرة لبعدها عن أبصارنا . والاشياء كلما بعدت عنا ، ظهرت أصغر حجماً مما هي . والقمر والنجوم تستمد ضوءها من الشمس . والشمس في السماء نظير مخلصنا المسيح في الارض ، فانه شمس الحق والتقوى . أما الكواكب والنجوم فهي في السماء ، نظير المؤمنين بالله في الأرض .

السماوات من فوق الأرض ، وتبعد عنها بعداً شاسعاً عظيماً ، حتى أن حجراً كبيراً اذا هبط من السماء ، فانه لا يصل الى الأرض في أقل من مئة سنـة . ولا شك في أن أكثر المتعلمين كانوا على إلمام بالمبادئ الأولية التي قام عليها الفلك اليوناني ، وهو علم اقتصر الاشتغال به على فئة من المنقطعين للدرس ، ولو أنه كان في ذلك العصر مطوقاً بالأساطير مندفناً في الخرافات .

في سفر « سدراك » أن الشهب المنقضـة على الأرض ، هي مدارج الرياح ، أو هي الرطوبات التي تنفثها الأرض فتصعد من صدرها حتى تصل طبقات الهواء العليا ، أو ربما تكون أقباساً من النار يرمي بها الملائكة الطيبون الملائكة المغضوب عليهم ، إذا أرادوا أن يدخلوا خلسة ملـكوت السماء .

إن الرجل العـادي لم يكن ليعرف شيئاً من الجغرافيا ، اللهم إلاّ ما يتلقفه من أفواه المسافرين ، وكان من الغرارة بحيث يقبل أي شيء يروى له عن البلاد البعيدة عن محيطـه ، وما تأهل به من أقوام غرباء ، شأنه في ذلك شأن أمثاله في عصرنا هذا . ولا ينبغي أن يغرب عن فهمنا ان كل الأقاصيص المثيرة التي ذاعت في « العصور الوسطى » انما استمدت أصلاً من كتب القدماء ، من الرومان أمثال بلينيوس ومن اليونان بعد العصر القديم ، وهي أقاصيص نتخذها مثالاً للمعتقدات التي ذاعت في الحضارة القديمة والعصور الوسطى . والحقيقة انها لا تدل على تأخر عقلي أو انحطاط ذهني ، بل تدل على انها أرقى ما وصل

اليه العقل البشري في ذلك العصر ، اللهمَّ الاّ فئة من المختارين في العلم .

فهنالك السواطير (١) على مثال الانسان،منسريو الانوف ، مقرنو الجباه ، بأرجل أشبه شيء بأرجل الماعز . ولقد رأى القديس «انتوني» واحداً منها في الفلاة ؟... ان هذه الوحوش الغريبة ذوو قدرة على الغوص في الماء . وقد سمي بعضها « المكلبات » — Cynocephali (٢) —لان رءوسها كرءوس الكلاب ، ويظهرون في تصرفاتهم أشبه بالسوائم منهم بالانسان . وقد يسمى بعضهم «مستديرات العين» Cyclops (٣) ووسموا بذلك لان لكل منهم عيناً واحدة تستقر في وسط الجبهة ، وقد يكون بعضهم بغير رءوس أو أنوف ،وعيونهم في أكتافهم ، ولبعضهم وجوه مسطوحة بغير خياشيم ، والشفاه السفلى قد تمتد وتطول حتى تغطي وجوههم ، اذا ما أحرقتهم الشمس . وفي«إسقوثيا» — Scythia(٤) — أقوام منهم أذانيون (٥) أي عظام الاذان ضخامها،حتى انهم قد ينشروا آذانهم فيغطون بها كل أبدانهم .وهؤلاء يسمون Panchios: (٦)

في أثيوبيا غير هؤلاء خلق كل منهم بقدم واحدة ، غير انها من العظم والضخامة ، بحيث يستطيعون أن يستظلوا بظلها اذا ما استلقوا على ظهورهم ورفعوا أقدامهم الى أعلا ، ليتقوا بها حرارة الشمس. وهم مع ذلك عداؤون، في سرعة كلاب الصيد عدواً ، ولذا سماهم الاغارقة Cynopods (٧) أي الكلابية الارجل، اشارة الى السرعة لاالى الصورة . وهنالك من يتبسط جلد كفوف أرجلهم الى ما وراء أقدامهم، ولهم ثمانية أصابع في كل قدم ، فيستطيعون بذلك الجولان والتنقل في جنبات صحراء لوبيا ».

***

ولم تكن الغرائب المروية عن السوائم والنباتات بأقل مما ذكرنا غرابة :

---

(١) Satyrs : were natnre-dieties or daemons of mountain forests and streams, of a subordinate or sabaltern character, and therefore especially the attendants of Dionysus, like whom they represented the luxuriant vital powers of nature. etc. Class. Dict. 842.

(٢) Cynocephali — Dog's Heads : Class. Dict. 263.

(٣) Cyclops == round-eyed. In Greek Mythology, a race of one-eyed giants, represeuted in the Homeric cycle of legends as Cicilian shepherds. Cent. Encycl. p. 299.

(٤) Scythia : a name applied to very different countries at different times. Class. Dict. 855.

(٥) اذانيون : ورجل أذاني وآذن عظيم الاذن طويلها ونعجة أذناء وكبش آذن. القاموس المحيط ٤:١٩٥

(٦) Panchios : Panchion (Panshon) Encycl. Dict. p. 365 Vol. V. Panshon : (Perhaps a corrupt, of puncheon). An earthenware vessel wider at the top than at the bottoms, used for holding milk, and other purposes. Encycl. Dict. p. 369 Vol. V.

وفي الاسم اشارة الى الصفة الخرافية التي تخيلها أهل تلك الازمان

(٧) Cynopods : Gr. Kuon = dog + pod = foot.

أي الذين أقدامهم مثل أقدام الكلاب

يقول ابن سينا ان الدب تلد قطعة من اللحم ناقصة التكوين كريهة الصورة ، فتلحس الام تلك الجزلة وتصور الاعضاء باللحس ... فان الفلو يكون قطعة من اللحم لا تزيد عن الفأر حجماً ، وليس له عينان أو اذنان ، فتلحس الام هذه القطعة من اللحم وتصور منها الفلو . ومن أعجب الاشياء التي تروى عن « ثيوفراسطوس » ان لحم الدب اذا أخذ في حالة ما يكون الدب في خدوه الشتائي وطبخ ، فلا يبقى منه في القدر غير كمية قليلة من الاخلاط : humours

ويروى شيء آخر هو غاية في العجب : في بعض بقاع من بلادهم ، يصطاد الاثيوبيون الفيل بالطريقة الاتية : يذهب الى الحرجة فتاتان عذراوان ليس عليهما لباس البتة ، محلولتا الشعر ، فتحمل احداهما جرة والاخرى سيفاً ، ثم تأخذان في الغناء منفردتين ، فيطرب الفيل بصوت الغناء ، ويقبل نحوهما ويلحس حلمتيهما ، ثم يغشى عليه النوم فيخر صريعاً من نشوة الغناء . فتنتهز احداهما هذه الفرصة وتحز رقبته أو جنبه بالسيف ، وتتلقى الاخرى دمه في الجرة ، وبهذا الدم يصبغ الناس ثيابهم ويلونونها بهذه الطريقة .

التنين أعظم الحيات وكثيراً ما يئوي فيخرج من كهفه ، ويرتفع في الهواء ، فيتحرك الهواء بحركته ، وكذلك البحر ، فانه يتلوث بسمه . وله قنزعة وفم صغير ، ويستنشق الهواء من أنابيب صغيرة ، وله أسنان كالمنشار . وله قوة وبطش ، لا في أسنانه وحدها ، وانما في ذنبه أيضاً ، وله قدرة على القضم واللدغ فيقضم بأسنانه ويلدغ بحمته ، على ان ما فيه من كمية السم أقل مما في بقية الحيات .

وقد يحدث ان يجتمع أربعة أو خمسة منهم ، فيصلون أذنابهم بعضها ببعض ويحكمون وصلتها ، ثم يرفعون رءوسهم ، ثم يحلقون فيقطعون البحار ويجتازون الانهار طلباً للرزق الطيب من اللحم . وبين التنين والفيل عداوة مؤصلة . فاذا تصاولا يصيب الفيل الانهاك قبيل النهاية فيعمي بصره ، فاذا سقط على التنين ، قتله بثقل جسمه . والسبب في أن التنين يطلب الفيل أن دم الفيل بارد ، فيرغب فيه التنين ليتبرد به .

يقول القديس « ييروم » إن التنين وحش عطشان شديد التعطش الى الماء ، وقلما يجد من الماء مايكفي لاطفاء ظمئه ، فيفغر فاه نحو الجهة التي يهب منها الهواء ، لعله يخفف بذلك شيئاً مما يحس من ألم العطش . وهذا هو السبب في ان التنين اذا رأى السفن تدفعها الرياح ، مضى نحوها طلباً للهواء الذي يدل عليه امتلاء أشرعتها به ، وقد يقلب السفن أحياناً بقوة جسمانه ، اذ يصطدم بالاشرعة . فاذا رأى الملاحون التنين يقترب منهم ، وقد يعرفون ذلك بتضخم الامواه التي من حولهم وانتفاخها ، فانهم يسرعون بطي الاشرعة ، وبذلك يسلمون من شره .

وعلى هذا النمط تجري الأقاصيص عن عجائب الأرض ، وكلها تفيض بصور شتى من الخيال والتصوير . فان نمّت عن شيء فانما تنم عن سعة في الأفق ، ولو انها خيالات .

***

فمن الأشياء التي رواها « بارتولوميو الانجليزي » عن انجلترا ، ان هذه الجزيرة التي تحيط بها المياه من كل جوانبها ، هي من أعظم جزر البحار ، وان نبلاء طروادة Troy وكبراءها بعد أن تحطمت مدينتهم وأصبحت انقاضاً ، غادروها ومعهم أسطول بحري عظيم ، ونزلوا

تلك الجزيرة معتصمين بجبالها المشمخرة ، وانهم فعلوا ذلك بإيماء من إلاهتهم « فلاس » Pallas ، فقاتلوا عمالقة الجزيرة الذين عمروها منذ أزمان بعيدة وتغلبوا عليهم ، بالحيلة حيناً وبالقوة حيناً آخر ، حتى أتموا اخضاع الجزيرة لأمرهم ، وسموها أرض بريطانيا نسبة الى « بروطه » Brute أميرهم الأعلى .

***

فاذا وصف انجلترا في عصره وصفها وصفاً فيه دقة في التعبير . فقال انها ركن الدنيا ، وهو يقصد بذلك ركن أوربا ، وانها أرض لا تحتاج الى غيرها في حين أن غيرها يحتاج اليها ، وان أهلها محبون للحرية مقدسون للصدق والاستقامة ، ولكن الأرض نفسها هي التي بثت فيهم روح الحرية وعلمتهم الصدق بروائها وحسن منظرها وطلاوة اقليمها ، فدتهم البيئة الطبيعية بهذه الصفات وغرستها في فطرتهم . وكذلك اذا تكلم عن فرنسا ، فانه يخالط تاريخها القديم بالأساطير ، فاذا وصفها كما كانت في عصره ، تكلم فيها بشيء من موضوعية الذهن وتوخي الواقع بقدر المستطاع .

فاذا انتقل من ذلك الى الكلام في الهند طغت عليه الأسطورة وتغلب عليه الخيال . فقال ان الهند أغنى بلاد الأرض ولكنها مع ذلك أكثرها أعاجيب . ويقول إن بلينيوس قد صدق عند ما قال إن الهند أرض المدهشات . ففيها أعظم الوحوش وأعظم كلاب الصيد. أما أشجارها فقد تعلو وتسمق حتى ان واقفاً تحت شجرة إذا أطلق سهماً من قوسه ، فقد لا يبلغ السهم في رميته قمة الشجرة . وذلك هو السبب في الغنى الذي تنعم به هذه الأرض، وفي اعتدال الاقليم والهواء وغزارة الماء . وقد تمتد أشجار التين هنالك ، حتى أن كتائب برمتها قد تستظل بواحدة منها وتقيم تحتها ولائم وأعياداً . وهنالك أنواع من القصب تعلو وترتفع حتى أن الفلك الواحد من قصبة منها ، قد يحمل ثلاثة رجال عبر الماء اذا تشبثوا به . ومن أقوام الهند قوم لا تلد نساؤهم غير مرة واحدة ، فاذا وضعن كان أولادهن بيض الرؤوس شيباً منذ الولادة . وفي شرقي الهند حيث ينبع «نهر الكنج» قوم من الهنود لا أفواه لهم ، يكتسون بالمواد النباتية ويغتذون بالروائح والمشمومات التي يستنشقونها بخياشيمهم ، فهم لا يأكلون ولا يشربون ، وان الروائح الكريهة تقتلهم .

اسماعيل مظهر



موضوع يهم الوالدين

الفطـــام

الفطام هو تعويد الطفل هجر ثدي أمه أو مرضعته واعطاءه لبناً خارجيًّا أو طعاماً آخر غير اللبن . وتختلف السن التي يبتدئ فيها الفطام باختلاف البلدان ، فقديماً ، وحتى أيامنا هذه أيضاً ، كان فطام الطفل يبدأ حينما يبلغ الثانيـة أو الثالثـة من عمره ، ولا نزال نرى بعض الشعوب في أنحـاء الشرق الأقصى تترك أطفالها يرضعون ثدي أمهاتهم حتى السنة الخامسة أو السادسة . وهناك أيضاً شعوب أخرى من الاسكيمو يرضع أطفالهـا إلى السنة الثامنة أو العـاشرة ، وغيرهم إلى السنة الخامسة عشرة ، لكن الآراء الحديثـة والتجـارب العديدة دلـت على ان الطفل لا يستفيد فائدة ما من الرضاعة بعد الشهر التاسع من عمره ، بل بالعكس اذا استمررنا على ارضاعه لبن أمه بعد تلك السن، فمن الجائز أن يصاب بالأنيميا نظراً لعدم وجود مقدار الحديد الذي يحتاجه الطفل في لبن أمه . صحيح ان ثدي الأم أو المرضع يفرز اللبن كالعادة ، ولكن عناصرهُ المغذية تفقد ولا تعود تصلح للطفل .

ومن هذا كله نرى ان الحدّ الكافي لارضاع الطفل هو الشهر التاسع من عمره — اذا كانت صحته جيدة . ومن الأطباء من يستحسن فطام الطفل في نهاية السنة الأولى من الرضاعة. وعلى كل حال لا يجوز فطـام الطفل قبل نهاية الشهر التاسع لئلاً يتعرض لأمراض شديدة سوف يأتي البحث عنها . والأوفق أن يكون الفطام تدريجيًّـا ويبتدئ ، كما قلنا ، من الشهر التاسع، فيعطى مرة أو مرتين في اليوم بعض الأطعمة المصنوعة باللبن أو باحدى المواد النشوية بدلاً من الرضعات الطبيعية او الصناعية ، وبالتدريج تنقص وجبات الرضاعة الطبيعية ويستعاض عنها بالمساحيق النشوية : كدقيق القمح او دقيق الأرز او الشعير او الذرة او البطاطس او الأراروط مثلاً ،مطبوخة بالسكر او بمرق اللحم الى أن يترك الطفل ثدي أمه من تلقاء نفسه بدون أن يشعر بتعب او ارتباك ما في أمعائه . وفي ذلك الحين يكون ثديا الأم قد تعوّدا ترك الارضاع، ويكون افراز اللبن قد قلّ منهما شيئاً فشيئاً

ويمكن أيضاً تعويد الطفل على التغذي بلبن البقر او الجاموس او غيرها ابتداءً من الشهر السادس من عمره حتى تألف معدته الرضاع الصناعي ، ولا ترتبك حالته الهضمية عند فصله عن ثدي أمه . فيُعطى الطفل مثلاً وجبة من لبن البقر او الجاموس المخفف بالماء المبرّد الى درجة حرارة الجسم، وذلك بدلاً من رضعة الثدي الطبيعي، ويستمر على ذلك ثلاثة او اربعة أيام . ثم يعطى بعد ذلك وجبتين من الطعام المعوّض للبن أمه ، ويستمر على هذا المنوال في زيادة عدد الرضعات الصناعية وتقليل عدد الرضعات الطبيعية الى أن يفصل الطفل عن ثدي أمه بتاتاً في نهاية الشهر التاسع

وهنا يجدر بنا الحذر من الفطام الفجائي ، اذ ان مثل هذا العمل حادث خطر محزن ومؤلم للطفل . فهو يرى نفسه بعد ان كان متمتعاً بلبن أمه وثديها بالأمس ، قد حُرم منه اليوم بدون انذار او ذنب فيثور ضد ذلك ويبكي ويرفض ما يُقدم له من الأطعمة مهما كان نوعها وان كان متعوداً أكلها من قبل ، وقد يتقيأها اذا أرغم على أكلها . ويستمر أحياناً في رفض الأكل حتى يضعف او يمرض . وهذا ما يدعو الى اتباع نظام الفطام التدريجي في كل الاحوال ولو كانت سن الطفل كبيرة، ويُستحسن ان يخرج الطفل من البيت كثيراً حتى يتلهى عن أمه ومرضعته

والذي تجب ملاحظته هنا هو ان حرارة الصيف غالباً ما تعكر أمزجة الاطفال وتسبب اضطراباً في معداتهم ، ولهذا يقتضي تدارك هذه الحالة لئلا تؤدي الى عواقب سيئة، وعدم فطم الطفل في أشهر الصيف الشديدة الحرارة ، ذلك لأن اللبن يكون أكثر تعرضاً للتلوث بالجراثيم في هذا الفصل . كذلك عدم فطمه في أثناء بروز أية سن من أسنانه ، وخصوصاً اذا كان مصاباً بقيء او اسهال او في دور النقاهة من أي مرض من الأمراض . وأحسن طريقة لذلك هو الغاء كل طعام مدة يوم او يومين في فصل الصيف ، فيقتصر فيهما على اعطاء الطفل حساء الخضر ، وتحضيرها يكون على الوجه التالي :

يؤخذ قدر ملعقة حساء من كل من العدس والذرة والقمح المجروشة ، والحمص والشعير المجروش ، ويُغلى كل ذلك في ثلاثة لترات ماء مدة ثلاث ساعات . ولما تنضج يصفّى من هذا المغلي نحو ثلاث لترات وتملّح وتقدّم للاطفال .

ويمكن أيضاً أخذ ٦٠ غراماً من البطاطا ، و ٤٥ غراماً من الجزر و ١٥ غراماً من اللفت و ٦ غرامات من الفاصوليا و ٦ غرامات من الحمص اليابس ، وتغلى كلها مدة أربع ساعات في لتر من الماء ، ثم يصفّى منها لتراً من الحساء ويُملّح . اما كمية الحساء الواجب اطعامها للطفل في كل وجبةٍ فمنوط بعمره وبحالة امعائه — أي مقدار الارتباك الحاصل له . والعادة

أن يعطى صحناً غير مملوء . اما اذا كان رضيعاً فيوضع له في مصاصته نحو ١٥٠ غراماً كل ساعتين ونصف ساعة بدلاً من الرضعات الطبيعية . ولا يجب أن تحفظ هذه الحساء أكثر من اربعة وعشرين ساعة ، وتعتبر هذه الحساء نفسها أحسن غذاء أيضاً للمراهقين المصابين بالحمى التيفية او بالالتهاب المعوي الحاد وغيره من الأمراض المعوية.

﴿ الحالات الموجبة فصل الطفل عن ثدي أمه ﴾ في بعض الأحيان يُضطر الى فصل الطفل فجأة عن ثدي أمه قبل انقضاء الشهر التاسع ، سواءً كان لقلة مقدار لبنها ، أو لجفافه من ثديها ، او بسبب التعب ، او لضعف يعتريهـا في جسمها ، او لاصابتها بمرض يمنعها عن ارضاعه ، او ايضاً لوجود أسباب عائلية او اجتماعية خاصة الخ . ففي هذه الحالات يُستعاض عن الارضاع الطبيعي بالارضاع الصناعي . وأحسن الألبان التي يتحملها الطفل بعد لبن أمه هو لبن البقرة الصحيحة ، ويأتي في الدرجة الثانية لبن الجاموس المخفف بالماء المغلي قبلاً — بعد تبريده الى درجة حرارة الجسم . وسواء كان هذا اللبن او ذاك يجب تخفيفه قبل اعطائه للطفل ، وكلما كانت نسبة الماء كثيرة في اللبن يقلّ احتمال اصابة الطفل بالارتباكات الهضمية

ويحترس من اعطاء الطفل الأطعمة النشوية قبل بلوغه الشهر السادس من عمره ، لأنه لا يستطيع ان يهضمها مهما يكن نوعها ، بل انها تكون كالسمّ لعدم تكوّن المادة التي تحوّل النشا الى سكر وتجعله صالحاً للهضم حتى ذاك التاريخ . فان اربعة اخماس الاطفال الذين يموتون في أشهر السنة الأولى بعد الولادة سبب موتهم الطعام ، لأن الذين يربونهم يحسبونهم قادرين على هضم الأطعمة النباتية كالخبز و النشا لأنها اذا كانت ليّنة لا تحتاج الى مضغ ، فلا يبخلون عليهم بها . وهذا خطأ ، فان الطفل لا يستطيع أن يهضم المواد النشوية مهما يكن نوعها . فاذا بلغ الشهر السادس فما فوق يجوز حينئذٍ أن يضاف الى اللبن الذي يرضعه قليلا من الأطعمة النشوية كالاراروط مطبوخاً بالسكر أو بمرق اللحم .

أما كيفية صنع الاغذية الصناعية فكما يلي : تضـاف ملعقة صغيرة من أحد المساحيق النشوية التي أتينا على ذكرها الى كمية من الماء البارد وتمزج به مزجاً جيداً ، ثم يسكب هذا المزيج شيئاً فشيئاً في إناء يحتوي ١٢٠ أو ١٥٠ غراماً من اللبن المغلي ، ويغلى على النار مدة عشر دقائق ، وفي خلالها يمخض بالملعقة ليمتزج جيداً .ويضاف اليـه قليل من الملح أو السكر . وبعد مدة قصيرة يضاف اليـه قليل من الزبد ويتناوله الطفل بالملعقة . فاذا أصيب بامساك مثلاً يعطى مسحوق الشعير . واذا أصيب باسهال يعطى مسحوق الأرز . واذا كان مصاباً بضعف البنية أو بفقر الدم يعطى مسحوق الخرطال Avoine . وعلى كل يعطى الطفل قبل بلوغه الشهر العـاشر نوعاً واحداً من الأغذية النشوية ، وتستأنف الرضاعة من

الثدي أو من المرضع ، وتكون الفترة بين الطعام النشوي ونوبة رضاعة الطفل كافية لتتمكن معدة الطفل فيها من الهضم .

وقد لوحظ أن الاطفال يميلون كثيراً الى الاطعمة المطبوخة بمسحوق الكاكاو ، لكن هذه كثيراً ما تسبب لهم امساكاً وتهيجاً ، فضلاً عن انها تجعلهم يكرهون المساحيق الغذائية الأخرى نظراً الى الفرق بين مذاق هذين النوعين من الاطعمة .

ولما يبلغ الطفل الشهر الخامس عشر من عمره يستحسن تنويع طعامه ، فيعطى مثلاً خمس وجبات يومياً : ثلاث منها ٢٠٠ غرام من اللبن ، ومرة واحدة من الأمراق الخفيفة الخالية من الدهن (كل يوم نوع واحد) ، ومرة أيضاً بيضة واحدة مع البطاطا المسلوقة المدهوكة purée أو أحد الاطايب كالنشا المحلى بالسكر ، أو (كريمة) مصنوعة بالبيض واللبن والسكر .

وعند ما يبلغ الشهر الثامن عشر من عمره يعطى ٤ وجبات يومياً فقط في أوقات محدودة ، أي الساعة السابعة صباحاً، والساعة الثانية عشرة ظهراً ، والرابعة عصراً ، والسابعة مساءً . ففي الصباح مثلاً يأكل الخبز واللبن والبيض ، أو الخبز والزبد والمربى . وفي الظهر يأكل لب الخبز مغموساً بمرق اللحم ، والسمك والارز والجبن الحلو والخضر والفواكه الناضجة والمطبوخة . وفي الأصيل الزبد والخبز والمربى . وفي المساء الحساء والخبز واللبن وما يشبه ذلك من الطعام الساخن .

واذا جاع الطفل بين وجبة ووجبة يعطى كسرة خبز وكأساً من اللبن . ولا بدَّ من تنويع الأكل كما قلنا، وإلاَّ عافه الطفل كما يعافه البالغ.

فللفطام اذاً كما ترى أهمية كبرى من ناحية مستقبل الطفل خصوصاً وان هذا يكون معرضاً في خلاله لأغلب الاضطرابات المعدية المعوية التي تؤثر في حياته تأثيراً بالغاً ، وليست هذه الاضطرابات إلاَّ نتيجة أخطاء التغذية . وكم من الأغلاط تقع فيها غالباً الأمهات الشابات سواء وقت ارضاع الطفل من الثدي، أو وقت فطامه أيضاً، لجهلهنَّ اتباع التغذية الصحيحة له وتطبيقها وفقاً لحالته الصحية مما تؤدي نتيجته الى اصابة الطفل بالقبض أو الاسهال أو القيء أو قلة الشهوة للطعام الخ . لذلك يجب أن نبحث عن الأخطاء الناتجة عن سوء تدبير الغذاء ونعمل على ازالتها ما أمكن — وهذا لا يتم إلاَّ باصلاح القانون الغذائي وتعيين مواعيد محدودة لطعام الطفل مع استعمال بعض الادوية اذا اقتضت الحاجة اليها ، مع العلم ان هذه الأدوية ليست إلاَّ كمساعد فقط بصورة مؤقتة لاعادة الشيء سريعاً الى حالته الأولى ، لأن مفعولها لا يزيل الاَّ الأعراض وليس السبب، وبازالة السبب يزول المسبِّب .

ومن هذا كله ندرك أهمية العناية بتغذية الطفل خلال مدة الفطام واتباع القانون الصحي في تغذيته وهذا أفيد بكثير من استعمال الأدوية لمعالجة ما ينتابه من الارتباكات الهضمية وغيرها فيما اذا لم يراعَ أي نظام في تغذيته وفي نوع الطعام الموافق نسبةً لسنه .

﴿ عوارض الفطام الباكر ﴾ ويجدر بنا هنا قبل ختام هذا المقال أن نأتي على ذكر بعض العوارض الناجمة عن الفطام الباكر . وهذه العوارض تظهر في اليوم الخامس عشر الى اليوم الخامس والعشرين بعد فصل الطفل الرضيع عن ثدي أمه ، وفي بعض الأحيان يكون ظهورها في اليوم الثاني او الثالث الذي يستعاض فيه عن لبن الأم باللبن الصناعي . ففي هذه الحالة الأخيرة يفقد الطفل من وزنه حوالي ٣٠٠ غرام او اكثر من ذلك ، غير ان هذه الخسارة تكون وقتية ، والطفل لا يلبث أن يسترجع بعدها وزنه الأول . وبالعكس لما تبدو الأعراض متأخرة فالحالة تكون شديدة الخطورة وغالباً ما تؤدي الى الوفاة . وبوجهٍ عام اذا مضى اليوم الخامس والعشرون على الفطام ولم يحدث في خلالها عارض للطفل ، فلا يبقى ثمة من خطر عليه من هذه الناحية ، ويمكنه أن يتحمل بعدها الرضاع الصناعي بالراحة والسهولة .

وأهم العوارض التي تحدث على أثر الفطام الباكر هو ، كما قلنا ، هبوط الوزن . ففي الحالات البسيطة يبقى عادةً وزن الطفل على حاله مدة اسبوع واحد الى اسبوعين . اما في الحالات الخطيرة فيخسر الطفل من وزنه في الأيام الثلاثة الأولى ٨٠٠ غرام تقريباً دون حدوث اي اضطراب معدي او معوي فيه . فالطفل الذي كنت تراه حتى وقت ابتدائه بالارضاع الصناعي بشوشاً طروباً لعوباً ، ووزنه منتظم ، وينام ويهضم طعامه جيداً بدون تجشؤ او قيئات ، وبرازه طبيعيّاً لا رائحة فيه — تراه الآن يتبدّل فجأةً بين عشية وضحاها بدون سبب ظاهر ، فيضعف ويهزل ويفقد من وزنه ٥٠ ثم ٨٠ ثم ١٠٠ او ٢٠٠ غرام فأكثر . وقد تبلغ هذه الخسارة من وزنه كيلو غراماً واحداً وأكثر أحياناً ، بتقدّم الوقت . وفي تلك الأثناء تظهر عوارض أخرى فتكسب الحالة شكلاً خاصّاً . وأهم هذه العوارض الضعف الذي يزداد يوماً بعد آخر بسرعة فائقة . واذا نظرنا الى الطفل نجدهُ غائر العينين ومنظره منظر شيخ هرم ، وبطنه منكمش وجلده متجعد ولونه شاحب وأغشيته المخاطية باهتة ولسانه جاف وهيئته حزينة كالحة . وفضلاً عن ذلك نراه يميل دائماً الى النعاس ويفقد شهوة الطعام ، وقد ترتفع الحمى فيه الى ٣٨ و ٣٩ بل ٤٠ درجة مئوية ، وينتهي الأمر أخيراً بموته عاجلاً ، بعد ان يفقد ربع او خمس وزنه . كل هذه الأعراض تحدث والطفل لا يصاب بأي اضطراب معوي او قبض ، ولا قيء ولا تبدّل في حالة برازه .

لكن في كثير من الحالات لا ينتهي الأمر بالوفاة ، والطفل بعد ان يهبط وزن جسمه

كما قلنا لا يلبث أن يستعيد وزنه الأول شيئاً فشيئاً وتعود شهوته للطعام الى حالها ، ويغدو أكله سهلاً ويعود نموه تدريجاً الى حالته الطبيعية وتزول بعدئذٍ الأعراض الأخرى .

فما السبب يا ترى الذي يؤدي الى عوارض الفطام هذه التي تظهر بدون اضطراب في الهضم ولا قبض ولا قيئات ولا أي مرض آخر ؟ هذا ما لا يزال أمره مجهولاً . والغالب أن حرمان الطفل من لبن أمه يحرمه بعض أنواع الفيتامينات اللازمة له ، ويؤيد ذلك زوال خطر الاعراض المنوّه بها سريعاً حينما يعود الطفل نفسه الى ثدي أمه . ولا بد من التنويه هنا ايضاً وفي هذا الصدد بأن عوارض الفطام الآنف ذكرها تزول تدريجاً ، باعطاء الطفل في مدة الـ ٢٥ أو الـ ٣٠ يوماً التي تعقب الفطام الباكر : ٥٠ الى ١٢٠ غراماً يوميًّا من لبن أمه أو لبن امرأة أخرى صحيحة البنية .

الدكتور عبده رزوق

طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو (العراق)

من أدب الغرب

سياسة انجلترا الخارجية

BRITISH FOREIGN POLICY. By Sir Edward Grigg, M. P. Hutchinson. 7s. 6d.

كان سير إدوارد جريج سكرتيراً خاصاً لمستر لويد جورج فى خلال عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ فأهله ذلك الى الوقوف على داخلية السياسة الامبراطورية في اثناء ذلك الزمن الذي عدل السياسة الاوربية بما جعلها مقدمة للحرب العالمية الثانية التي بدأت في ١٩٣٩

ونظريته التي يدور من حولها البحث في ذلك الكتاب هي قوله بأن الخطأ الاكبر الذي ارتكبه الحلفاء في عهد السلام الاول (أي عقب الحرب العالمية الاولى) هو إرهاق فرنسا ، كان هذا الارهاق نتيجة لسوء تقدير المانيا من ناحية بريطانيا والولايات المتحدة من جهة ، وإقصاء روسيا عن الميدان السياسي من أخرى .

وأخذاً بهذه النظرية يمضي في بحثه مستهدياً بهذه النظرية الواقعية، حاثاً على ان لا تغيب عن أذهان الساسة في تدعيم نظام السلام الجديد ، وان تكون القاعدة التي تأتم بها بريطانيا خاصة والامم المتحالفة عامة

ولا ريب في أن الشرق العربي بعد هذه الحرب وتكوين جامعة الامم العربية وفوز اكثر شعوبه بنوع من الاستقلال السياسي ، ينبغي ان يوجه اهتماماً اكبر الى السياسة الاوربية ، باعتبارها عاملا مؤثراً فيه ، ينعم اذا سادها السلام ويألم اذا اضطربت أحواله . ولقد يأتي يوم إذا فهمنا اتجاهات السياسة الاوربية على حقيقتها ، أن تصبح عاملا فعالا في توجيه نواحي منها ، هي النواحي ذوات العلاقة المباشرة برفاهية الشرق وتقدمه سياسياً واقتصادياً .

الصباح

أطلّ الصباحُ وثوبُ الدجى ... على الأرض منعقدٌ مسبلُ
فحلّت يدُ الصبح ما أحكمتْ ... يدُ الليل نسجاً وما تغزلُ
وحالت بهيمَ الدجى بحراً ... بمنهمرٍ من لظى يهملُ
فللنور إثر الربى منهلٌ ... يسيل ودون السّما مشعلُ
تنفست الأرض عند الضحى ... كأنّ جناحَ الدجى الجندلُ
وساور عطفَ الربى هزةٌ ... من الطّيش واصْطَفَقَ الجدولُ
فللغصن من مَرَحٍ رقصةٌ ... وللطّير قرآنُه المُنْزَلُ
وللريح في الروض شكوى الحزين ... إذا عصف الوجد في الأضلعِ

***

تدفق بالنور رحبُ الفضاء ... تَدَفُّقَ سيلٍ جرى واصطفقْ
إذا عصف الضوءُ في جانب ... من الأفْق خلتَ خضمّاً غَدَقْ
وتحسب ما احمرَّ من غربه ... حريقاً يشبُّ بجنح الغسقْ
أو البرق أومض خلف الدجى ... على غاربٍ من لظى وائتلقْ
وإنْ قَدَحَ الفجرُ أضواءَه ... حسبتَ إزار الظلام احترقْ
فما كنت تعلم من روعةٍ ... أبحرٌ طغا أم حريقٌ دفقْ
تساقَطَ نظمُ جُمَانِ الضّياء ... تساقُطَ غيثٍ بليلٍ ودقْ
فهبّت طيورُ الربى في الضحى ... تُرَجّع أنشودةَ الموجعِ

***

تنبهت الأرضُ من هجعةٍ ... على غَمْرِ ضَوْءِ الضحى المشرقِ
فجاشت بأعطافها سَوْرَةٌ ... من الوجد والأمل الشيّقِ
وكادت لِمَا جاش في صدرها ... من الشوق تجْهَرُ بالمنطقِ

وتلقى الأزاهر قد فتّحت . إلى النّور مُقبلةً مُستوثِق
تراقب ما سال فوق الثّرى من الفجر في لهفة المشفق
فتنكس بالرأس كالمطرق وتغمض بالجفن كالمُحنَق
وتملك أعطافَها هِزّةٌ من الزهو والعجب المغرق
وموج الضحى زاخرٌ غربُه على يانع الشفق الممتع

***

جرى ذائبُ الفجر فوق الثرى كما لو بأرضٍ خِضَمٌّ زخرْ
إذا لمع الضوء في جدولٍ حسبت به قبساً من شرَرْ
فما كنت تدري أماءٌ جرى على الأرض أم لجّةٌ من سقرْ
تلاطَمَ ذوب نضار الضّحى تلاطُمَ سيل بقفر هدرْ
وإن راحت البُهْمُ تبغي الورود لتطفىء بالماء جمر الوحرْ
ترى البُهْمَ من حيرة أمسكتْ عن الماء مما رأت من صورْ
فلم تك تدري أماءٌ يسيل أم النور يلمع لمع الدُرَرْ
فيمسكها الشك مما رأت وتدفعها ذلةُ المطمع

***

أرى الكون من جذلٍ بالضحى تبسم عن أملٍ زاهرِ
وأشرق بالبشر ثغرُ الزمان وشعّت به بسمة الظافرِ
وراح الهَزار على غصنه يُرَجّع لحنَ الهوى الساحرِ
وماست على نغمات الهوى غصونٌ بقادمتيْ طائرِ
ولكنَّ قلبيَ لا يأتلي من الوجد يزفر كالثائرِ
يحن إلى عهده الغابر ويبكي على ربعه الداثرِ
ويَخفقُ في أضلعي كالذبيح تقَنَّصَهُ مِخلَبُ الكاسرِ
اذا بارق شعّ في مقلة تساقط من شجنٍ مَدمَعي

دمشق عدنان مردم بك

بحث معجمي : في الفلسفة واللاهوت

الافلاطونية الجديدة : Neo-Platonism

١ — مذهب فلسفي وديني ، يتألف من مزيج من الآراء الافلاطونيـة ومبادئ من التألـه الشرقي . وكانت نشأة هذا المذهب في الاسكندرية خلال القرن الثالث الميـلادي ؛ ومن أكبر رؤوسـه أفلوطين Plotinus الذي يدعوه العرب « الشيخ الاسكندري » وفرفـوريوس الصوري Porphyry ، وإفـروقـلوس Proclus : ويقول العلامة « ليـكي » Lecky إن الافلاطونية الجديدة وضروب الفلسفة المتصلة بها، كانت في جوهرها وحـديّة.[1] قضى بذلك في كتابه تاريخ الخلقيـّات الأوربية.

Neoplatonism and the Philosophies that were allied to it were fundamentally pantheistic.

٢ — يقول لُـوس G. H. Lewes : إن ما في هذا المذهب من التجديد ينحصر في اتخاذ الجدليّـات الافلاطونية مرشداً (ا) في بحث التألُـه [٢] والوَحديّة [٣] (ب) وفي جعل العقل مبرراً للعقيدة (ح) وأن معتنقيه من حيث الجدليـات كانوا أفلاطونيين ، ومن حيث فكرة التثليث كانوا تألهيّـين، ومن حيث مبـدئهم في الفيض أو الاشراق[٤] كانوا وحديّـين، أي من أصحاب القول بوحدة الوجود .

(٣) تدرجت الافلاطونية الجـديدة في أدوار ثلاثة : الاول : عصر أمّـونيوس سقّـاس[٥] وأفلوطين في القرن الثالث، والثاني : عصر فرفوريوس الصوري وإيامبـليخوس[٦] في القرن الرابع ، والثالث : عصر إفـروقلوس.

وقد انقرضت مدرسة الاسكندرية في عصر يوسْـتنْـيانوس [٧] (٤٨٣ — ٥٦٥) م.

وعن دائرة المعارف البريطانية :

With the exception of Epicureanism, which was always treated as the moral enemy of neoplatonism, there is no outstanding earlier system which did not contribute something to the new phiosophy. Encycl. Brit. (9th Ed.) XVII, 333.

ومن هنا يتضح أن كاتب المادة في المَـعْـلَـمَـة البريطانية يعتقد أن الابيقورية اعتبرت العدو

Ammonius Saccas (٥) Emanation (٤) Pantheism (٣) Mysticism (٢) Pantheistic (١)
Justinian (٧) Iamblichus (٦)

بحث معجمي : في الفلسفة واللاهوت

الرهبانية : Monasticism

اشتق اللفظ الاعجمي Monastry من اللاطينية Monastrium ومن اللفظ اليوناني (Monasterion) ومعناه فيها مكان منقطع أو منفرد . ودلالته المعجمية تنصرف الى أشياء :
(١) النظام الخاص الذي اتبعه جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العمياء للرئيس (٢) نظام الرهبانية وأساليبها (٣) حالة العيش على أسلوب الرهبان بالانقطاع عن الدنيا (٤) نظام من نظم الحياة قائم على المعيشة في عزلة عن الناس . والرهبانية في معناها الاوسع الاخذ بقواعد النسك Ascetism والتأله Mysticism وليست الرهبانية وليدة النظام المسيحي ، فقد عرفت وموِرست في الهند وأقاليم أسيوية أخرى ، حيث نظمت تنظيماً عظيماً . ولم يعرف الافارقة هذا النظام ، وانما عرفه اليهود قبل العهد المسيحي . ثم ظهر ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج وأكل اللحوم وشرب الخمور ، ووقفوا أعمارهم على ضروب من العبادات ووهب الصدقات . ثم عاش النساك Ascetics منزلين العالم ، وكثروا في مصر في منتصف القرن الثالث ؛ وانتشرت دعوتهم في غربي أوربا في عهد القديس أثناسيوس ثم القديس بندكتوس ، وهو الذي وطد دعائم هذا النظام في الغرب .

الاول للأفلاطونية الجديدة ، وانه فيما عداها لم تترك الافلاطونية الجديدة من مذهب سبقها لم تأخذ منه نتفاً وأطرافاً .

(٤٠) قوام هذا المذهب الفلسفي عناصر أفلاطونية مدخولة بمعتقدات شرقية . وتأثر في عصوره المتأخرة بفلسفة فيلون [٨] واللاأدرية [٩] والنصرانية . وقد أيد الافلاطونية الجديدة بصورتها الاولى كثير من أعلام النصارى مثل كليمان [١٠] الاسكندري وأوريغن، [١١] وقد ختم تاريخ هذا المذهب في القرن السادس المسيحي .

Origen (١١) Clement (١٠) Gnosticism (٩) Philo (٨)

واذا أردت التوسع فارجع الى مادة Justinianus : في معجم الاعلام القديمة تأليف Smith والمعجم الانسيكلوبيدي .Encyclopaedic Dict ص ١٨ ج ٥ ومعجم سنتشوري .Century Dict ص ١٢١٩ ج٢ مادة Consul & Consulship وفي غلق مدارس أثينا في عصر يوستنيانوس عد الى تاريخ مؤرخي العالم Historians History of the World ص ٨٥ ج ٧ ، وعن أوريغن عد الى الجزء الاول من تاريخ الكنيسة المصرية History of the Church of Egypt تأليف E. L. Butcher

نهضة أوربا

في القرن الثاني عشر

أساسها اللاهوتي ثم الفكري

تدرجاً وعلى مر العصور ، وضعت أوربا أساس حياة ثقافية خاصة بها . ولقد زودت الزراعة شعوب الغرب بفضلة من الرفاهية ، تحولت نزعة الى اجتناء ثمرات بعيدة عن مجرد الحاجات الموضعية . فنمت المدن ذوات الأسواق واتسعت لتبادل السلع الأهلية وتوزيع البضائع الكمالية المجلوبة من الشرق . ومع وجود أهل المدن وانتشار الرفاهية والمصالح المادية بدأ التطلع العقلي لحقق وجوده ، وأثبت ذاتيته، بالنظر في العقائد السائدة ، والولع الروحي نحو الحكمة المفتقدة .

لقد بدأ تسارع الحياة الروحية بتأسس دير كلوني Cluny العظيم في القرن العاشر ، فأدى الى الاصلاحات التي بدلت الكنيسة من نظام موضعي ، الى نظام بابوي شامل فيه عشرات من المؤسسات التي آنس الناس في ظلها متسعاً لسد حاجات التطلع العقلي والنفسي ، وكانت في العصور المظلمة نظاماً قام على دير هنا ودير هناك ، استقر فيها ديارون انصرفوا الى المخطوطات القديمة يستعمقون في طياتها ، كلما سمحت لهم ظروف الفراغ من قطع أشجار الغابات أو زراعة الأرض

ضاعف ذلك من عدد أولئك الذين تسلطت عليهم الشهوة العقلية ، كما هيأت البيئة لتفريخ الميول الجديدة في الفكر . فنشأت ثقافة شعبية تبدت في أدب الغناء والقصص حتى غزت القصور الاقطاعية وبيوت الأثرياء من التجار في المدن . أضف الى هذا أن مجازفة التوسع التي نعرفها باسم الحروب الصليبية ، كانت مبدأ احتكاك الكثيرين من أهل الغرب بالحضارات الشرقية الراقية ، لحضارة العرب والبربر ، كما كان غزو قوات الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية (١٢٠٣—١٢٠٤) أول تماس فعلي لرجالها بحضارة إغريقية ، وبالحرى بحضارة الروم .

ولكن مهما كان لهذه الحوادث من قيمة وأهمية ، فانه خليق بنا أن نعترف انه ليس من احتكاك أو نظام ، كان السبب في بلوغ الشعوب الغربية حد الرشد ، بل كان السبب في ذلك نماء الجمعية الأوربية في العصور الوسطى ، نماءً مطرداً وان كان بطيئاً ، وبخاصة في حياتها الاقتصادية .

منذ بداءة القرن الثاني عشر وفي أثناء القرن الثالث عشر ، استطاع رجال أوربا الغربية

أن يقيموا حضارة فيها نظام وفيها ألفة وتجانس. واذا سقنا القول في مجمل العقائد والمعاملات، فانما نشير بذلك عامة الى الحياة الثقافية في القرون الوسطى. وانه لمما يثير العجب ان ذلك العصر قد شهد أول خطوة خطتها الشعوب التي تحكم الآن كرة الأرض، نحو تنشئة ما يقال «بجتوز» إنه «حضارة» أو «ثقافة». ولن تقع على فترة، حتى ولا على لحظة واحدة منذ نهضة القرن الثاني عشر حتى الآن، يمكن أن يشار اليها فيقال إن قوى التطور في الغرب قد وقفت فلم تتابع سيرها، أو أن النماء العقلي والاقتصادي قد تبدل فصار حياة سكون أو همود في حياة تلك الشعوب، أشبه بذلك الذي شهد في حياة الصين والهند أو الشرق بوجه عام، أحقاباً برمتها في التاريخ.

لقد عملت الطاقة البشرية، كما عمل الذكاء الانساني منذ ذلك العصر، فعدل وبدل، وازاد وأربى من وراثات تلك الشعوب، ثم تسارع ذلك فبلغ في هذا العصر أعظم مبالغة. ولا شك في أن هنالك آراء عامة وأخرى رسيسة من الآراء التي امتازت بها العصور الوسطى كما كان هناك وجهات من النظر، ظلت جامدة نسبيًّا، ومضت ثابتة قروناً عديدة. هذه الآراء والمثاليات، هي بذاتها وفي الحق، أساس النصرانية الحديثة ومتماها. ولقد ظل كثير منها رسيساً في معتقدات العديد الغالب من الناس حتى الجيل الفارط، ولقد قُبل بعضها، فاتخذ على انه من الأشياء الجوهرية في عصرنا هذا.

فاذا وقف الرجل الغربي اليوم موقف من ينظر الى العقل الاوربي في العصور الوسطى نظرة انه غريب عنه دخيل عليه، فان ما وقع خلال الزمان منذ تلك العصور الى اليوم من الانقلابات والتغيرات وما تخللها من تعديلات وفقت بين مختلف نواحي الفكر، لا يمكن أن تفهم حق الفهم إلاّ في ضوء الماضي وما فرط من عمر تلك الحضارة. والغالب أن أقوم طريق لتفهم حقيقة الآراء والعقائد، أن يفقه الباحث انها ارتكاسات — reactions — برزت استجابة لعوامل خاصة.

أما واننا سوف نبدأ البحث بالقرن الثالث عشر، فواجب علينا أن نصور كيف تبدت الحياة الانسانية لأهل ذلك العصر، وماذا كان شعورهم تلقاءها. سوف نبين عما ظل ثابتاً مطرداً من مفصلات تلك الحياة وماتقوض منها وباد، كما اننا سوف نبين عن تلك المستكشفات المتتالية التي بدلت من حياة دنيا العصور الوسطى وخلقت منها دنيانا التي نعيش فيها.

قارن «أناتول فرانس» في كتابه «حديقة أبيقور» مبيناً الفرق بين دنيا العصور الوسطى، ودنيانا الحديثة، فقال:

لا شك يعتورنا شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصور عقل الانسان في العصر القديم، حيث اعتقد اعتقاداً لا يرهنه الشك أن الارض في مركز النظام الدنيوي، وان كل الكواكب تدور من حولها.

لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما قد خيل اليه انه رأى بعيني راسه ، وشم بذات أنفه ، أدخنة الكبريت تنبعث من جهنم ، مفلتة من خلال صدع من الصخور . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثنى عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك القمر وعطارد والزهرة التى زارها « دانتى » فى يوم الجمعة الحزينة سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التى تتلألأ فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن خلف هذه ، رأى بعيني عقله ، السماء التاسعة او الفلك التاسع مستقر القديسين ، ثم المحرك الاول او الفلك البلوري (١) ، ثم فى النهاية المطهر (٢) مقام المنعمين ، واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، ان يتلقفها ملكان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه فى طهر الطفل الوليد ، فتغسل بالتعميد ، وتعطر بزيت السر المقدس ، (٣) فى ذلك العصر لم يكن لله من أولاد غير الانسان ، أما بقية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولة ، وفى صورة شعرية ، فكأنها كاتدرائية (٤) عظيمة ، فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد نتخيله فى مجموعه وفى مختلف صوره وحركاته ، كأنه جملة ساعات مصورة تحركها آلات .

اما الان فقد قوضنا الافلاك الاثنى عشر ، وكذلك الكواكب التى كان يولد الانسان فى ظلها سعيداً او شقياً ، مشتري الحياة او زحليها . اما القبة الصلبة التى هي السماء ، فقد تهشمت وتطايرت شظاياها فى اعتبارنا ، وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية ، فلا نجد اليوم ذلك المطهر ، مستقر الصالحين والملائكة ، قائماً من خلف السيارات ، بل مئات الملايين من الشموس ، تحوطها من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة . وفى وسط تلك العوالم اللانهائية يقع عالمنا ، كأنه ذرة من غاز ، وأرضنا كأنها ذرة من طين .

العوالم تموت لانها تولد ، انها تولد وتموت الى غير نهاية . والخلق ، بحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال ، لا بد من أن يعتوره التغير بغير انقطاع . ان الشموس تنطفىء ، فلا نقدر ان نقول اذا كانت بنات الضوء هذه ، تبدأ بموتها على هذه الصورة ، حياة أخرى فى صورة سيارات ، فتكون حياتها الجديدة حياة مفيدة مفعمة بالخير ، كما لا نقدر أن نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارة أخرى . كل ما نعرف ان السكون غير كائن ، لا فى السماء ولا فى الارض ، وان سنة العمل والجهد ، تحكم العوالم وتقدر مصايرها الى ما لا نهاية .

هنالك شموس انطفأت امام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب . أما السماوات ، التى خيل للناس انها ثابتة لا تتغير ، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية ، الا أبدية انها مسوقة فى مجرى الاشياء . The Garden of Epicurus, by Anatole France.

غير أن أهم ما يدور بأذهاننا عن ذلك الكون المركب في هيئة صندوق ، والذي تخيله عقل الانسان المُخَلِّط في العصور الوسطى ، إنما هو الغاية الأساسية التي من أجلها وجد غاية أن يكون مسرحاً لتمثيل تلك المأساة التي هيأها الله لسلالة آدم . ومهما يكن من أمر معرفة الانسان في العصور الوسطى وضيقها ، فان الشك لم يتسرب الى نفسه إزاء أمر واحد : هو أن الأرض والسماوات وكل الأشياء التي فيهن ، قد خلقت له حتى يحيي حياته ، ويصطنع فيها مصيره الأخير .

أما رواية ذلك الخلق ، والمناظر المثيرة التي وقعت فيه ، والصور التي عبرت بجلاء عما قام في ذهن الانسان انه سوف يقع ، فكانت أشياء معروفة لديه مروية في أسطورة أو قصة ، فلأت أفكاره وأفعمتها ، كما أفعمت صورها الكاتدرائيات العظمى ، نحتاً في الحجر أو تصويراً على الجدران .

(١) Primum Mobile or Crystalline (٢) Empeyrean (٣) Sacraments (٤) Cathedral

على أنك إذا أردت أن تعرف كيف فقه الرجل الوسط الذكاء حقيقة التاريخ، وكيف أمل أن يكون مصير الانسان، فان الفيلسوف «سنتيانا» يرويه لنا في قالب طريف، أخذاً من الصورة التي أثبتها الأسقف «بوسويه» في كتابه «بحث في التاريخ العام» (١) الذي ألفه في أواخر القرن السابع عشر، واليك ما قال:

كان في البدء، على ما تروى القصة اللاهوتية، ملك سماوي عظيم، تحيط به حاشية ذوو أجنحة من موسيقيين وأتوار (٢). وجد ذلك الملك من أزل الآزلين ولكنه كان مصمماً خلال كل أزليته وعندما تأتي الساعة المناسبة، أن تخلق كائنات زمانية (٣) على أن تكون صورة ناقصة منه بنسب متفاوتة. هذه الكائنات، التي كان الانسان أعظمها شأناً، بدأت سيرتها الأولى سنة ٤٠٠٤ ق. م. وانها سوف تعيش زمناً غير محدود. ولكن يحتمل أن الاتساق الزماني سوف لا ينفصم حتى تجيء سنة ٤٠٠٤ بعد الميلاد.

إن هذه المأساة قد بدأت، وسوف تختتم، بصورتين فيهما فخامة وروعة.

فأول شيء، وطوعاً لكلمة الله، أخذت الشمس والقمر والنجوم والأرض، مع ما يتبعها من نبات وحيوان، مراكزها المقسوم لها، وطفرت الطبيعة الى الوجود بكل ما فيها من السنن والقوانين، وخلق الله أول انسان من طين، وخلق أول امرأة من أحد أضلاعه، عندما كان في نوم عميق ووضع الاثنين في حديقة حيث كان في مستطاعهما أن يريا الله الفينة بعد الفينة، وحيث كانا يتنزهان في رطوبة المساء. وجعلهما يتبوآن منها حيث يشاءان وأن يأكلا من ثمارها التي غرسها فيها، وأمرها أن لا يقربا شجرة معينة، ولكنهما بتغرير شيطان، انتهكا ذلك الأمر، فأخرجا من هذا الفردوس تتبعهما لعنة الله. فالرجل يعيش بعرق جبينه، والمرأة تحمل وتلد وتتألم. والأولاد الذين يلدونهما يرثون، منذ أن يستقروا في رحم الأم تلك الطبائع المسفة التي اكتسبها أبواهم أنعاهم ولدوا ليخطئوا ويحدثوا الموت والفوضى، حينما يكونون وأينما يكونون، في أنفسهم، وفيما حولهم من الأشياء.

ولكن الله، حذر أن يندثر ذلك العمل الذي عملت يداه، صمم أن يستنقذ بعض بني آدم ويردهم الى الحياة الطبيعية. على أن هذا الاستنقاذ كان سيحدث في النهاية مع أحفاد حواء، الذين قدر لهم أن تطأ أقدامهم رأس الأفعى (٤). ولكن هذا الاستنقاذ كان سوف يقع بحوادث جزئية سبقت في علم الله. فكان لا بد من أن يستنقذ نوح من الطوفان، ولوط من سدوم، واسحق من التضحية، وموسى من مصر، والأسرى اليهود من بابل، وكذلك كل الذين يؤمنون بفساد الكفر والوثنية.

(١) Discourse on Universal History.

(٢) الاتوار: الرسل، واحدها تور: رسول (٣) محدثة لا أزلية ولا ابدية

(٤) التي تشكلت في صورة الشيطان وأغرت حواء وآدم على الاكل من الشجرة المحرمة.

هنالك قبيلة واحدة أخرجت من زمرة الانسانية منذ البداءة لتكون حفيظة على كلمة الله مشيدة بذكره موصية بأحكامه ، محيية لوصاياه ، مذكرة بوعوده ، في حين أن بقية الانسانية، قد نبذت،فسلطت عليها نقائصها الطبيعية ورذائلها النفسية،فمضت تنحدر شيئاً بعد شيء في غور الجرائم والمغررات .

ان الطوفان الذي أرسل ليغسلهم من هذه الحماقات لم يفد فيهم شيئاً . جدد الطوفان الدنيا وبرزت الأرض بعده على صدر الماء مطهرة،ولكن هذا التجديد قد خلف من ورائه وبصورة أزلية ، إثارات من الانتقام الالهي . فالى الزمن الذي حدث فيه الطوفان كانت الدنيا والمخلوقات في خشونة تقاوم فواعل الطبيعة ، ولكن الله قد أمر أن يعم هذا الطوفان الأرض ويغطيها ، ويطول مكثه عليها ، فاعت كل العصارات ، فتشبع الهواء بالماء ، فنشأت بذلك زوائل جديدة ، واستحدثت بواعث أخرى من الفساد والفوضى ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل أن صلابة الخلق الأصلي أصابها ضعف ووهن ، فأخذت الحياة الانسانية تتناقص في مداها ، بعد أن كانت حياة الفرد قد تبلغ ألف عام . وكذلك فقدت الأعشاب والجذور خصائصها الأولى وتأثيراتها الفطرية ، فبدل طعام الانسان بطعام أخشن وأصلب ، وأكل لحم الحيوان .

خيم الموت على الحياة ، وشعر الناس بأنهم مأخوذين بالايدي والأذقان . ولكنهم لم يزدادوا على مر الأيام إلا شقاوة وعناداً ، فكان من الطبيعي أن تلم بهم على الأيام شقاوات جديدة . ولقد قدر عليهم تقييد طعامهم أن ينحدروا الى الفساد والتنكس ، ومع امعانهم في هذا وتمكن الضعف في نفوسهم ، زادوا نهماً وتعطشاً للدماء .

من ثم كان في الوجود روحان ، أو فئتان ، أو كما قال القديس أوغسطين ، مدينتان ، في هذه الدنيا : مدينة الشيطان، وهي مهما بلغت من الفن أو الحرب أو الفلسفة ، فانها مدينة متنكسة كافرة بعيدة عن التقوى . ان مسراتها ليست أكثر من قناع يحجب حقيقتها، وجمالها طلاء كاذب . انها ملعونة في عين الرب ، كما هي ملعونة في عين التقي لما فيها من غرور وقساوة ونعاسة منبثة في تضاعيفها ، وجهلها بكل ما ينبغي أن يعرف مما يؤهل الانسان إلى الخلود والحياة الأبدية .

الى جانب هذه المدنية كانت مدينة الله ، التي وعد بها أرواح أولئك الذين قدر لهم الخلاص . كانت مفقودة في ذلك التيه الذي صورنا به مدينة الشيطان ، أو كانت على الأقل غير مستبانة إلا كسراب . هي مدينة مهما بلغ من استخفائها وتواضعها لأهل الأرض ، فان الموعودين بها وغاياتها وأصولها الأولى ، ثابتة في اللانهاية . ممن وعد بهذه المدينة البطارقة والأنبياء ، أولئك الذين ظلوا طوال أعمارهم قانتين صاغين الى تلك الايحاءات التي إن ظهرت

لهم أول الأمر ملفوفة بضباب البداية ، فقد انتظروا بصبر وجلد الخلاص الأكبر الذي لا بدّ ان يأتيهم يوماً مّـا . من أهل هـذه المدينة أولئك المجوس الذين تتبعوا تنقل النجم حتى استقر فوق الحظيرة في بيت لحم ، وسمعان الذي توقع خلاص بني اسرائيل ، ويوحنـا المعمدان الذي توقع مثل ذلك وشق طريقـه الى الحق قويـاً مستقيماً ، وبطرس الذي لم يستشف ألوهية المسيح من قوى لحمه ودمه ، وإنما فاض الآب بها عليه من السماء . ذلك بأن الخلاص لم يأت إلاّ بعد أن تهيأ له الزمان ، وانه ليس كما يقول اليهود الشهوانيون ، عبارة عن فعل دنيوي استردت به الأرض شبابها وقوتهـا ، بل حدث بتجسّـد ابن الله في مريم العذراء ، وموته على الصليب ، وهبوطه الى جهنم ، ثم رفعه الى السماء في اليوم الثالث من موته ، على ما تقول الأناجيل . والى هذه المدينة أيضاً ينتسب أولئك الذين يؤمنون برسالة المسيح وحقيقتها وأثرها ، والذين يلتجئون الى فضله ويستمطرون هدايتـه ، ويتتبعون وصاياه بكراهة هذه الدنيا والزهد فيها .

ليس التاريخ في حقيقته وماهيته إلاّ رواية الصراع الهائل الذي قام بين تينك المدينتين ويرمز لهما بفضيلتين : إحداهما طبيعية ، والأخرى فوقيطَـبـيعيّـة . أو هما بالايجاز فضيلة الشهادة ، وفضيلة الغيب . أو هما فلسفتان : إحداهما عقلية ، والأخرى وحييّـة . هما ضربان من الجمال : أحدهما جسداني ، والآخر روحانيّ . أو جلالتان : إحداهما زمانية ، والأخرى أبدية ، أو نظامان أحدهما الدنيا ، والآخر الـكنيسة .

المدينتان مختلفتـان كل الاختلاف متنابذتان كل التنابذ ، أجنبيتان في أساسهما ، إحداهما من الأخرى ، برغم ما قد يلوح بينهما من الترابط أو التفاهم بعض الأحيان .

ستظلان متنابذتين متجالدتين أزماناً بعد أزمان ، حتى يأتي يوم الحصـاد . وما يوم الحصاد ذاك إلاّ كمثل اليوم الذي تتفق فيه الحنطة والشيلم على اقتسام الارض ، فينبت كل منهما في مكان يقسم له ، فيتفاهمان بعد طول الصراع ، على اقتسام الأرض .

أما أولئك الذين اعتقدوا أن أشياء الدين انما هي خيالية ولا حقيقة لها ، فسيرون الله يوم الحساب ، وقد أخذتهم الرجفة ، هابطاً من سحاب السماء ، والملائكة ينفخون في الصور ، وقد خرج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر ، ليلقى كل منهم جزاء ما عمل ، فالناجون يدخلون في ملـكوت الله ونعيمه ، تحف بهم حاشية ترتل الأناشـيد حتى يصلوا الى عالم كله ضياء ، في حين يكون الذين أصابتهم اللعنة يتضورون ألماً ، صارخين صاخبين ، منكسين في صور وحوش كريهة المنظر شائهة الوجوه ، تلفّـهم نار لواحة للبشر ، لا تبقي ولا تذر

المدينتان في تناقض وتضاد ، في الحقيقة وفي الجوهر ، ولهذا فلا بدّ من أن تنفصلا في النهاية ، ولا بدّ لـكل منهما أن تحمل ثمراتها الطبيعية نامّـة عن حقيقتها .

المذهب العقلي : Rationalism

العقلي (ج : العقليون) Rationalist(s)

المذهب العقلي : Rationalism

١ — المعنى العام : (١) الاعتقاد بتفوق العقل في الحكم على المعتقد والسلوك، على العكس من القول بخضوع العقل لسلطان ما . (٢) التفكير الذاتي اي الحر .

في اللاهوت : (١) اسلوب يرمي الى تفسير قضايا التاريخ المقدس المقول ان فيه أثراً فوقطبيعياً Supernatural بطريقة مطابقة للعقل . (٢) القول بأن العقل هو المرشد الاوحد في الحكم على المسائل الدينية . (٣) مبدأ استخدام التفكير العقلي في نقد مذاهب الدين . (٤) إخضاع المذاهب الدينية، وتفسيرات الكتب المقدسة ، لنقد العقل الانساني أو الفهم ، ورفض القول بسلطان العقيدة على أنه مناقض للعقل وحرية الضمير .

٢ — في العصر الحديث : مذهب يؤيد النظريات والمبادىء التي تنكر الوحي ، سواء أكان فوقطبيعياً Supernatural او مفروضاً بسلطان ما ، ويقضي بأن العقل وحده ، دون احتياج الى الاستعانة بالهام ، قادر على ادراك كل الحقائق الدينية التي يمكن ادراكها .

والمذهب العقلي باعتباره نظاماً لاهوتياً ، يقضي بأن العقل هو الحكم الوحيد بل العلة النهائية الصحيحة التي ينبغي ان تحكم في مشكلات الدين ومسائله . وبهذا يكون المذهب مناقضاً لمذهب التأله : Mysticism : القائل بأن في الانسان قوة روحانية تستعلي على موهبتي الادراك والعقل .

أما باعتباره نظاماً مذهبياً اعتقادياً ، فيتضمن كل المبادىء التي قامت على الفلسفة العقلية . غير انه يرفض السلطة المستمدة من الكتب المقدسة وأصول النصرانية ، المقول باستمدادها من الفوقطبيعية ، في حين يسلم بفكرة وجود الله وخلود النفس على انهما من الفكرات الترجيحية او التغليبية ، ولكنه يقضي ، الى جانب هذا ، بأن مبادىء الخلق Moral حقائق لا تقبل الجدل . اما من حيث تفسير الكتب المقدسة ، فالمذهب العقلي على ان هذه الكتب نفسها تؤيده وتتضمن مبادئه ، فتنفي عنها عناصر القداسة والفوقطبيعيات

واصطلاح « المذهب العقلي » Rationalism لا يخلو من غموض . ذلك بأن وجوه استعماله ومدلولاته في الجدليات اللاهوتية الحديثة ، قد كثر التحوير فيها حتى امتدت الى نواح غير محددة الاغراض والمعاني

٣ — في البمديطبيعيات أو الغيبيات : Metaphysics

(١) الاعتقاد بوجود معرفة بديئية : a priori (٢) القول بأن المعرفة لا تتكون بفعل الاشياء الخارجية على الحواس لا غير ، بل يتألف بعضها من التكيف الطبيعي الذي يتكيفه العقل ، فيدرك الاشياء على وجهها الصحيح

العقلي : العقليون : Rationalist

(١) المعنى العام : من يتبع وحي العقل ، ويرفض الخضوع للسلطان في التفكير والتأمل . (٢) من يعتقد في استعلاء العقل على المنقول والمأثور . (٣) من له كفاية التفكير العقلي . (٤) مجهز بكفاية العقل . (٥) من في قدرته أن يستخدم كفاية العقل بأسلوب صحيح . (٦) فاره (١) في الحكم على حقيقة الاشياء . (٧) عاقل . (٨) رشيد .

(٢) عقليو النصارى : من يعتقدون أن كفاياتهم العقلية فوق تصورهم النصراني .

في اللاهوت : من يطبق قواعد النقد العقلي على كل ما يقرر بسلطان البمديطبيعية أو قداسة الوحي ، وعلى التعيين أحد رجال المذهب أو الحزب الذي ظهر في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، ومبدؤه الاول الاستمساك بأن العقل الانساني مستقل بذاته ، وانه من غير استعانة بضرب من الوحي القدسي ، في مستطاعه الوصول الى الحقائق الممكنة ، وان الكتب المقدسة مادة أولية للوصول الى الحق ، من طريق البحث والمقارنة والاثبات والنفي ، وليست وحياً منزلاً .

---

(١) فره ككرم : فراهة وفراهية : حذق ، فهو فاره بين الفروهة ج فره كركع : القاموس (٤:٢٨٩)



الوساطة والمحسوبية

والاستثناء



الوساطة هي التوسط بين اثنين طالب ومطلوب منه، أو ذي حاجة ومن عنده الحاجة ، والمتوسط يسمى وسيطاً وواسطة ، وقد رُزقَ لفظ الواسطة هذا أكبر حظ من الذيوع والانتشار، فقلما يدور حديث حول قضاء المصالح والوظائف والأعمال في دواوين الحكومة بدون أن يجري لفظ الواسطة على الألسنة يراد به أحياناً الوسيط وأحياناً الوساطة، كأنْ يقال : لا بدَّ من الواسطة : ابحث لك عن واسطة : لا يقضى أمر إلاّ بواسطة : المدار على الواسطة : ونحو ذلك . والمفهوم من معنى الوساطة أنها تكون بين ثلاثة طالب ومطلوب منه ووسيط بينهما ، والمفهوم من معناها كذلك أن يكون للوسيط دالّة على من بيده الحاجة أو له عليه سلطان ، وأنه يستطيع بهذه الدالة أو بهذا السلطان أنْ يضطرَّ من بيده الحاجة الى أن يتخلى عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة الوسيط وعزمه فيحقق رغبة الطالب .

والمحسوبية في العرف علاقة بين اثنين أحدهما محسوب ويكون صغيراً قدراً ، والآخر محسوب عليه ويكون كبيراً قدراً ، أما هذه العلاقة فهي قرابة أوْ مصاهرة أو صداقة أو خدمات يؤديها المحسوب للمحسوب عليه ، وهذه العلاقة تقتضي أن يتخلى المحسوب عليه للمحسوب عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة المحسوب وعزمه بدون وسيط بينهما .

فالوساطة والمحسوبية يجتمعان في أنّ كلاً منهما يضطرّ من بيده الامر أن يتخلى عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة غيره وعزمه ، ويفترقان في أنّ الوساطة فيها وسيط وأن المحسوبية لا وسيط فيها ، والأصل فيهما مخالفة الحق والعدل .

والاستثناء في العرف هو مخالفة القوانين والقواعد في شؤون الدولة العامة كالتوظيف والترقيات والعلاوات والتنقلات وتوزيع الاعمال ونحو ذلك ، وهو في ذاته حسن وضرورة لا بدَّ منها لأن القوانين والقواعد العامة ناقصة إذ لا يمكن أنْ تشمل كل المستحقين فهو مكمّل لنقصها . وإنما يذمّ الاستثناء إذا كان نتيجة للمحسوبية أو الوساطة ومخالفاً للحق والعدل .

ونحن — معاشر المصريين — لا نكاد نعوّل في جلب المصالح ودفع المضار إلاّ على لوساطة والمحسوبية فالولد حين يأبى والده أن يوافقه على ما يريد يعتمد على منزلته عنده

وهي من المحسوبية ويلح ، فان لم ينجح عمد الى الوسيلة الثانية وهي الوساطة ، فيبحث له عن واسطة من الأسرة أو من غيرها حتى يضطر الوالد الى الموافقة . وكذلك جميع آحاد الأسرة الأقربين والأبعدين . والمرءوس حين يأبى رئيسه أن يوافقه على ما يطلب ولم يكن له عليه محسوبية يسارع الى البحث عن واسطة له دالة على الرئيس أو له عليه سلطان ، فيضطره الى الموافقة.وكذلك كل الناس فالزراع والصناع مع أصحاب المزارع والمصانع والمشتري مع البائع والمستأجر مع المالك والجمهور مع الحكام وغيرهم إذا أراد أحد من أحد شيئاً لا يوافق عليه المطلوب منه، ولم يكن للطالب على المطلوب منه محسوبية لجأ الطالب الى الوساطة فيقضي الأمر

هذا شأننا يدرج عليه أطفالنا ويراهن عليه كبارنا في حياتينا المنزلية والاجتماعية منذ مئات السنين، للآن حتى صار عقيدة راسخة وخلقاً ثابتاً فينا لا يكاد مصري يسلم منه ، فان أبى انسان أبي النفس أن يستغل المحسوبية أو أن يستعين بواسطة على قضاء ما يريد لا يسلم من أن يرغمه غيره ارغاماً على أن يتوسط له في أمر أو أن ينزل على ارادة وسيط إن كان ممن بيدهم الامور . انها خلة عامة، فقلما تجد من لا يفكر في محسوبية أو في وساطة .

وهاتان الخلتان المحسوبية والوساطة من مستلزمات القرابة والصداقة والمصاهرة والصنيعة. فاذا رزق انسان جاهاً أو سلطاناً كان عليه أن يفكر فيمن حوله من الأقرباء والاصدقاء والأصهار وذوي الخدمات ممن يعلقون عليه الآمال، والويل كل الويل له اذا تخلى عن واحد منهم فلم يؤثره بخير لا يستحقه الا لانه قريب أو صديق أو صهر أو ذو خدمات ، والويل كل الويل لكل واحد من هؤلاء إذا لم يتوسط لدى من رزق هذا الجاه او السلطان لمن يطمع في وساطته عنده .

وان من مستلزمات هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة في الأصل انجاز المطالب المنافية للحق والعدل . وإذ كان الجمهور المصري يدين بهما فقد أصبح من بيده حق من حقوق الناس لا يرده لاصحابه إلا بواحدة منهما بالمحسوبية أو بالوساطة. فكثيراً ما تبقى الحقوق معطلة حتى تنجزها المحسوبية أو الوساطة، وبذلك أصبحت المحسوبية والوساطة وسيلتين لقضاء المصالح ما كان منها باطلاً وما كان منها حقاً .

وإنا لندفع ثمن هاتين الخلتين الذميمتين فاحشاً فادحاً لانهما شر معاول الهدم للنظام الاجتماعي وأقساها ، إنها تستل بناءه حجراً حجراً، حتى تأتي عليه من القواعد بما تجني على الطالب والمطلوب منه والوسيط وعلى الامة .

فأما المطلوب منه فانه يضطر الى أن يتخلى عن ارادته وعزمه ويخضع لارادة غيره وعزمه فينقض اليوم ما أبرمه أمس، أو يبرم اليوم ما نقضه أمس، ويغير ما عقد عليه النية وأضمر عليه

من قول أو عمل، فان كان ما رجع عنه هو الباطل وما رجع اليه هو الحق، فهو مذموم لأنه لم يتحرَ الحق والعدل في أعماله حتى جاءه المحسوب أو الوسيط فرده الى الصواب، وإن كان ما رجع عنه هو الحق وما رجع اليه هو الباطل فهو أذم لأنه قوض بيديه وهو عالم عامد أركان الحق والعدل وأقام على أنقاضها صروح الظلم والباطل وآثر ارضاء المحسوب أو الوسيط طمعاً في خير يرجوه أو اتقاء لشر يخشاه على ارضاء ضميره

وقد يتفاقم شر المحسوبية والوساطة فيضطر بعض القابضين على أزمة المصالح العامة الى ان ينظروا الى هذه المصالح بمنظارين أحدهما يرون به الناحية العامة التي يجب أن يقصدوها والآخر الناحية الخاصة وما قد يكون فيها من ارضاء هذا أو اغضاب ذاك، وما قد يكون في هذا أو ذاك من خير يرتجى، أو شر يتقى، فيؤثرون من تلقاء أنفسهم المصالح الخاصة على المصالح العامة ويصبح هذا دأبهم وفي هذا وحده شر الأضرار تصيب المطلوب منه أولاً والأمة ثانياً .

وأما الوسيط فقد يضطر الى الكذب والخديعة والملق والنفاق ويقف مواقف المذلة والهوان، وقد يمتلىء غروراً ويضرى على الاستخفاف بالمصالح العامة وإيثار المصالح الخاصة عليها

. وأما الطالب فان كلاً من المحسوبية والوساطة تميت في نفسه خير الخلال وهي الاعتزاز بالنفس والثقة بها والاعتماد عليها دون غيرها في جلب المصالح ودفع المضار، ومن راض نفسه على احداها باء بالخسران المبين ، لأنه ينصرف عن خير وسائل التقدم والرفعة في هذه الحياة الدنيا ، وهي الجدّ والاجتهاد وتوخي أمثل الطرق للنجاح .

وفيما يصيب هؤلاء الثلاثة من أذى ، أذًى أبلغ للأمة بما يتضافرون عليه من هدم الحق والعدل وهما أساس الملك ، وبما يجنون على أنفسهم من آثار المحسوبية والوساطة السيئة وهم أعضاء في جسم الامة ، والجسم اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فعليهم وعلى الأمة معهم يقع وزر هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة وما ينشأ عنهما من استثناء وغيره، لأنهما من الخلات المتأصلة فينا ،والأمراض الوبيلة الفتاكة بها، وهي غافلة عنهما لا تفكر في أسبابهما وفي القضاء على هذه الاسباب . واذا حمّل من بيده الأمر اذا خالف الحق والعدل مُكرَهاً تحت تأثير الوساطة نصيباً من الوزر ، فان الوسيط اذا ألحّ وأصرّ يحمل نصيبين، وصاحب الحاجة إذا كان في غنًى يحمل ثلاثة، والأمة تحمل ستة أنصبة تعدِلُ أنصبة الثلاثة .

أما أسباب تفشي هاتين الخلتين النميمتين فينا فيمكن اجمالها في ثلاثة :

السبب الأول — الحكم الفردي المطلق الظالم : فالحاكم المطلق الظالم يستأثر بكل خير في

البلاد ولا يختص بما عنده منه الا للمقربين ذوي المحسوبية ومن يتخذ من هؤلاء المقربين ومن غيرهم من وسطاء . وهذا من شأنه أن يحمل الناس على الذل والخضوع لمن بيده السلطان لتكون لهم عليه محسوبية ومن لا يُوَفق لهذه المحسوبية يلجأ الى الوساطة .

وقد قضت مصر التعسة القرون الطوال تحت هذا الحكم الفردي المطلق الظالم في أكثر عهوده ، وأقرب هذه العهود من عصرنا الحاضر العهد التركي الذي دام خمسة قرون ونحو نصف قرن . ثم عصر الاحتلال البريطاني، فأي بيئة أخصب من هذه البيئة، وأي ظرف أصلح من هذا الظرف، لانتعاش هاتين الخلتين المحسوبية والوساطة اللتين يُنال بكل منهما ما عند الحاكم الفردي الظالم من خير ويتقى بكل منهما ما يخشى منه من شر .

وقد عاش أجدادنا العرب كسائر الأمم القديمة بالحكومة الفردية المستبدة الظالمة . وكان آحاد الأمة لا يعوّلون في جلب الخير لأنفسهم وفي دفع الشر عنها الا على الزلفى والمحسوبية عند أمرائهم وعظمائهم ممن بيدهم نفعهم وضرهم من البشر، أو على التوسط بمن هم أعلى منهم حرمة ومنزلة عند هؤلاء الأمراء والعظماء ، فأيّ ظرف أصلح من هذا الظرف ، وأي بيئة أخصب من هذه البيئة لانتعاش هاتين الخلتين الذميمتين، المحسوبية والوساطة في أجدادنا العرب .

وقد تجاوز أجدادنا الفراعنة مراتب السيادة الانسانية الى مرتبة السيادة الالهية فكان كل فرعون ملكاً وإلهاً معاً بيده ملكوت السموات والأرض وحياة الناس في الأولى والآخرة . لا يتحرك مصري حركة ولا يسكن سكنة إلاّ اذا طلب المعونة من فرعونه، ملكه وإلهه معاً ، بالزلفى والمحسوبية إن كان ممن يستحقها أو بوساطة واسطة من هؤلاء المقربين المحسوبين وهم الكهنة فأيّ ظرف أصلح من هذا الظرف ، وأي بيئة أخصب من هذه البيئة لانتعاش هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة في أجدادنا الفراعنة .

فنحن — معاشر المصريين — في ماضينا القريب وفي ماضينا البعيد ، من ناحيتي أجدادنا العرب وأجدادنا الفراعنة، عشنا عيشة ملائمة كل الملاءمة لانتعاش خلتي المحسوبية والوساطة الذميمتين كل الانتعاش .

السبب الثاني — فساد التربية فساداً عامّاً شاملاً :

فأما التربية العقلية فقد ترك العامة وهم سواد الأمة الأعظم في جهالة جهلاء وضلالة عمياء لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يعرفون ألزم ما يلزم من الحقائق العلمية التي تكتنفهم آثارها وتقوم عليها أعمالهم، ولا من الحقوق والواجبات الوطنية فانقطعت صلتهم بالحياة انقطاعاً تامّاً وانبعثوا في ميادين البدع والخرافات والأوهام والضلالات الواسعة انبعاث الحُمر الضالة يلجؤون في أتفه الأشياء وفي أشد المحن الى من يتوهمون فيه النفع والضر

لا من الأحياء فحسب ، بل من الأحياء ومن الأموات متخذين عندهم الزلفى والمحسوبية أو الوساطة ، ولعلَّ ذلك من آثار وثنية أجدادنا العرب والفراعنة .

وأما التربية الجسدية فلا وزن لها ولا رعاية وإن سواد المصريين الأعظم لفي معيشة ضنك غذاءً ولباساً وفراشاً وغطاءً ومساكن ونظاماً ، وهم من ذلك في ضعف جسدي شديد وفي أمراض قتالة . وحسبنا أن الفحص الطبي للتجنيد أثبت أن تسعين في المائة من المرشحين للتجنيد لا يصلحون للجندية لضعف أجسامهم وضعف الجسم من شأنه مع ذلك أن يضعف النفس والعقل ويعوق الضعيف عن الكسب ويضطره الى الاستعانة بغيره بالزلفى والمحسوبية أو بالوساطة لأجل أن يعيش .

وأما التربية الخلقية فليست أحسن حظاً من أختيها بل هي أسوأ منهما لاهمالها وللمعاول التي تهدم بنيانها كالشهوات التي ركّبت فينا فهي تدفعنا الى ما يرضيها ، وقد يكون محظوراً ، ولما يكتنفنا من مغريات ومفسدات ، ولما لاضمحلال الأجسام والعقول من تأثير سيء في الأخلاق ، وأبرز ما في أخلاقنا من عيوب الاتكال . إننا أمة لا نعرف معنىً ولا سبيلاً الى التربية الاستقلالية فكلنا ، عامة وخاصة ، إلاّ من عصم الله ، إتكاليون نعتمد في حياتنا على غيرنا لا على أنفسنا ، وهذا الاتكال أكبر باعث على التماس الزلفى والمحسوبية والوساطة ولعله أثر من آثار الوثنية وسوء فهم التوكل في الشريعة الاسلامية .

والسبب الثالث — هو الفقر : والفقر لا يكون إلاّ عن عجز عن الكسب إما لضعف الجسم وإما لضعف العقل . والعجز عن الكسب يدفع الانسان دفعاً الى الاستعانة بغيره والاستعانة تضطره الى الزلفى والمحسوبية والى التماس الوساطة .

من ذلك يتضح أن المحسوبية والوساطة وما ينشأ عنهما من إيثار من لا يستحق على من يستحق واختصاصه بالخير دونه مرضان قديمان متأصلان في الأمة المصرية تأصلاً عميقاً وأن لهما أسباباً ثلاثة قوية كل القوة ، وهي الحكم الفردي الاستبدادي الجائر ، وسوء التربية بضروبها الثلاثة ، والفقر .

أما القضاء على هذه الأسباب فيكون بالوسائل الآتية :

الوسيلة الأولى : نشر التعليم وتعميمه بين الشعب كله بأكبر قسط منه ممكن ، فان التعليم كفيل بأن يوقظ ما في أبناء الشعب من ذكاء ومواهب عقلية كامنة ويقوي مداركهم وينير بصائرهم ويعينهم على ترقية أعمالهم ومستوى معيشتهم وفي نشر التعليم وتعميمه معوانٌ على القضاء على الفقر والمرض .

الوسيلة الثانية : نشر الصناعة وتعميمها وإن لنا في ميدان الصناعات لمجالاً واسعاً كل

السعة ، فالصناعة خير الوسائل لتربية الأمم لأنها تحيي روح الكد والعمل والنظام والتعاون والاعتماد على النفس والصبر واحتمال المتاعب والاحتيال لحل المشكلات والدقة والذوق السليم والتفكير وغير ذلك من جميل الصفات ، وهي فوق ذلك كله ترفع السواد الأعظم من الشعب من هوة الفقر التي ألقته فيها الزراعة .

الوسيلة الثالثة: رفع الأجور والاخذ بنظام التأمين الاجتماعي وكفالة أبناء غير القادرين من الشعب باطعامهم وكسوتهم وتعليمهم .

الوسيلة الرابعة : إبقاء الحكم الجمعي المقيد وهو الحكم الدستوري القائم الآن مع اصلاحه بتحريره من سيئاتنا، فان أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا طغت عليه فكادت تجعله حكماً فردياً في ثوب جمعي ، وحكماً مطلقاً في ثوب مقيد، وهذا الاصلاح لازم لذاته ولأن القوانين التي يضعها ويقرها المجلسان لاتصير جزءاً من الشريعة الاسلامية واجب الطاعة إلا إذا روعي في تكوين المجلسين ثلاثة أمور خطيرة . الامر الاول: حرية الناخب حرية تامة وهو لايستطيع أن يملك هذه الحرية إلا بالحكومة العادلة وبتحرره هو من الفقر والضعف الجسدي والنفسي وبتعلمه القراءة والكتابة ونصيباً محموداً من الثقافة يساوي التعليمين الاولي والابتدائي وشيئاً من الثانوي بدون لغة أجنبيـة . الامر الثاني: حرية النائب وهو لا يمكن أن يملكها هو الآخر كاملة الا بقدر محمود من الثقافة وبقيام الأحزاب وهي عماد الحياة الدستورية على المبادىء ،لا على الاشخاص، وباستقرار المجلسين وعدم تعرضهما للحل الا بمضي المدة القانونية وبكف الناخبين وغيرهم إذا تعلموا واغتنوا عن ضغطهم على النواب بالطلبات التي تضطرهم الى استجداء الهيئة التنفيذية التي يراقبونها ويوجهونها . الامر الثالث: أن يكون في كل من المجلسين فريق من علماء الاسلام العاملين الذين يعرفون الشريعة الاسلامية حق المعرفة ويعملون بها أصدق العمل ليبصروا المجلسين بما قد يخفى عليهما من أحكامها ليتمشى التشريع فيهما على ضوئها ويصير المجلسان بهذين الفريقين هم اولي الأمر المقصودين بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ويجب على المسلمين طاعتهم فيما يشرعون .

ولعلك تقدر بعد ذلك كله خطورة المحسوبية والوساطة وخطورة أسبابهما ووسائل علاجها (١) .

عبد الله أمين

(١) في هذا المقال مقتبسات من مجلة المنار لصاحبها أخي وأستاذي السيد الامام محمد رشيد رضا .

الحيتان

Cetacea = Whales and Dolphins. From Gr. Cete = any monster or large fish, particularly a whale.

جاء في معجم الحيوان للمعلوف ص ٥٨ : « رتبة الحيتان ، حيوانات بحرية لبونة تشمل البال والمركول وعجل البحر والعنبر والدلفين وغيرها » — وعن معجم شرف ص ٢٠٠ : «السيتيا ، الحيوانات القيطسية ، رتبة الحيوانات الثدية البحرية ، تشبه الاسماك ، منها العنبر : odontoceti والحيتان ذوات السنام الكندارة Hump-backed whales ، او الحدباء والدلفين والبال » ا هـ . وقول شرف « السيتيا » خطأ في التعريب .

***

الحيتان قبيلة (١) من الثدييات ذوات الرحم : monodelphia ، وتلحق بالفواره : Educabilia وتشمل الحيتان والدلافين والبال وغيرها . والعائشة منها اليوم قبيلتان (٢) : الاولى المسننات : Denticete ، والثانية السبليات : mysticete . وأجناس هذه القبيلة وأنواعها كثيرة ، ويحصرها المواليديون عادة في عشر فصائل (٣) .

تمتاز هذه الحيوانات بأن الحوض والاطراف الخلفية منضمرة قليلا أو كثيراً بحسب الاجناس ، ولها جسم يشبه جسم السمك ، معد للسبح في الماء ، وينتهي بذنب أفقي الوضع . والاطراف الامامية قصيرة ، أشبه بزعانف السمك ، ومن أصابعها أصبع تزيد فيه السلاميات على ثلاث ، والرقبة قصيرة . أما فقارات الرقبة ، فقد يكون عدد منها ملتصقاً بعضه ببعض ، وهذا العدد يزيد وينقص بحسب الاجناس . وهي من الحيوانات الثديية ، تلد وترضع صغارها ، والامهات من أرأم ما يعرف في عالم الحيوان .

ولقد عدد الاستاذ « بورادیل » : Borradaile : الصفات المميزة لقبيلة الحيتان ، وحصرها في أبواب هي :

(١) الجسم مكون على غرار الاسماك ، وليس لها آذان نابية ، أو اطراف مؤخرية او فرو . ولكن لها ادمة ناعمة تهيؤها للسبح بسرعة خلال الماء .

(٢) الاطراف المؤخرية قد استحالت اعضاء دافعة لها وظيفة الزعانف الجنبية في الاسماك .

(٣) يغلب ان يكون لها زعنفة ظهرية .

(٤) للذنب اسطوانتان عريضتان تزيدان من قدرتها على السبح ، ولكنهما أفقيتين ، لا رأسيتين كما في الاسماك ، وبذلك تزداد قدرتها على حركتي الصعود والهبوط ، وهما حركتان ضروريتان لها ، لحاجتها الى استنشاق الهواء .

(٥) الخيشومان في اعلا الرأس، حتى لا تحتاج إلا لرفع جزء من الجسم فويق الماء ، ويمكن سدها بجهاز خاص

(٦) الحلقوم مستطيل ويلتقي بالمنخرين المؤخرين، فيكونان مسلكاً ينفذ منه الهواء الى الرئتين ، وبذلك يمكن غلق الفم في اثناء التنفس تحت الماء .

(٧) للمجموع الوعائي ضفائر كثيرة : ritia mirabilia ، ويرجح ان تكون وظيفتها اختزان كمية كبيرة من الدم ، فينتج عن ذلك اختزان كمية كبيرة من الاكسجين .

(٨) وجود طبقة سميكة من الشحم تحت الجلد ، للاحتفاظ بحرارة الجسم ، فيعوض ذلك عليها ما تفقده من الحرارة بسبب تجرد الجسم من الشعر ، كما تجعل الجسم اكثر قدرة على العوم .

(٩) العظام خفيفة .

(١٠) العيون صغيرة .

(١١) غدد الدمع والعرق واللعاب فاقدة ، إذ لا فائدة منها لاحياء تعيش وتغتذي في الماء .

---

(١) Order (٢) Sub-orders — بصيغة التصغير في العربية (٣) Families

تولستوي

ان البلاد الروسية التي خاضت غمار حرت طاحنة كانت ولا تزال وطن الادباء ومنبت الكتبة والشعراء الذين ظهروا كواكب لامعة فأناروا حالك لنيل من الجهل خيم على تلك البلاد طويلاً وهم كما قال فيهم كاتب فرنسي كبير « انه اذا وضعت الامبراطورية الروسية في كفة ميزان ووضع ادباؤها وشعراؤها في كفة أخرى رجحت كفتهم لانهم لا يكتبون بل يوحون، ولا يقولون بل يفعلون، فأدبهم هو وحي النفس والقلب المتألمين. فاذا غمسوا القلم فبدم القلب وذوب النفس»

واذا ذكر ادباء الامة الروسية وفلاسفتهـا كان تولستوي الزعيم المقدم. او على حد التعبير الروسي انه « الرجل الواقف على برج الادب العاجي » وها كم نبذة من حياته.

انسنة ١٨٢٩ لم تنزل هاوية الابد قبل ان اكتحلت عيناها برؤية تولستوي طفلا تحبوه آلهة الفن والآداب أثمن عطاياها ، وشهر آب من تلك السنة لم تتصرم انفاسه قبـل ان اودع ذمة الدنيا مولود الفلسفة نابغة من نوابغ العالم

في وياسانا يابوليانا، تلك القرية الصغرى المجهولة في رقعة البلاد الروسية ولد رسول الفن فاعتزت بعد خمول وشرفت بعد ضعة وأصبحت كبيرة بين البلاد الروسية بل بين بلدان العالم أجمع

ان القدر، وما أمرّ قضاء القدر، شاء ان يلقي على هذا الطفل الدروس، فحرمه ابوين متحدرين من أشرف البيوتات الروسية، فكفلته عمة له كانت له الام الرءوم، وظل يذكرها طول حياته. دعت له نخبة من الاساتذة تخرجوه في العلوم واللغات. ولما حان الوقت لادخاله الجامعة ارسل الى جامعة قازان . الا ان عهده لم يطل فيها اذ دعي الى الجندية دفاعاً عن وطنه. لان حرب القرم نشبت اذ ذاك . فخاض غمارها وشرى وباع على حد قول عنترة الفوارس . أوحت الينا تلك الحرب مواضيـع عديدة عالجها بعقل الفيلسوف وقلم الاديب، فجاءت قصصاً متينة المبنى بليغة المعنى شيقة الاسلوب، أو كما قال فيها احد المعجبين بها انها « وعاء ذهبي للحقيقة وبيت للحكمة» عرفت بقصص من سفستوبل

طارت شهرة هذه القصص في الآفاق الروسية وأقبل الناس على قراءتها إقبالهم على الماء النمير ، وتوقعوا لـكاتبها تسلم صولجان الـكتابة ، فتم له ذلك وأصبح الهلال بدراً كاملاً

ولما وضعت تلك الحرب أوزارها عاد الى بطرسبرج او لينين غراد كما يدعونها اليوم ، واذا بنوادي الادب ودور الجامعات تتسابق الى دعوته وتحسب انتسابه اليها شرفاً ما بعده شرف، وفتحت له قصور العظماء وردهات الـكبراء، فاغترف من ملاذ الحياة بكلتا اليدين وطابت له

مناهل تلك العاصمة الصاخبة بمظاهر الشرف والبذخ ، وقف على حياة الخاصة والعامة وما يتخلل الاولى من فساد وما عليه الثانية من بؤس وشقاء

فعافت نفسه الحياة الاولى الجوفاء وعز عليه ان يرى الحق عبداً والباطل سيداً والرذيلة فضيلة والفضيلة معرة وجموداً والنفس منغمسة في حمأة المفاسد ، فهجر تلك العاصمة ووجهته قريته المتواضعة ، فتزوج من امرأة جاءت له ببنين وبنات ، وعكف على الكتابة معالجاً مواضيع عديدة اجتماعية وادبية وتاريخية وفلسفية وأبرزها في ثوب من الروايات قشيب ، فعلا نجمه وأتته الشهرة تجرر أذيالها منقادة اليه

ترى ما الفكرة التي تخللت كل مؤلفاته وما واسطة العقد في رواياته ؟

وما الغاية من استخدامه القلم ؟ الربح الجزيل ؟ وهو الغني الكبير ! انه نفسه يكفينا مؤونة البحث عن هذه الفكرة التي ملكت عليه زمام القلب والعقل ، انها فكرة الحق والجهاد في سبيله ، الحق الذي جرأه فما بالى بسطوة عظيم ولا عبئ بسخط كاهن قديم . كانت فكرة الحق المحور الذي تدور عليه مؤلفاته جميعها كبيرها وصغيرها ، فانفتحت لتلك الصيحة أذان صم وأقضت تلك الصخرة مضاجع الكثيرين من ذوي السلطان العالمي والروحي ، واتهم كما اتهم صنوه في القديم سقراط الفيلسوف اليوناني ، انه يفسد الشبيبة فكادوا له كثيراً ، وضاقت نفسه بما رحبت بدسائس أولئك الاقوام فرفع الصوت جهرة مهدداً انه سيغادر أرض روسيا الى انكلترا موطن الاحرار وموئل الفكر، كما قال في ندائه الى بني قومه، ولو وقف الامر عند هذا الحد لهان ، الا انه رأى ان الحق الذي نشده حياته كلها يقضي عليه ان يشاطر الفلاحين أرضه الواسعة فحاول ذلك فهبت عائلته تعارض فكرته هذه وترى فيها القضاء على هنائها اذ يسلبها مورد عيش رغيد ويساويها بالفلاح الوضيع فتكدر صفو حياته، وصمد لتلك الصدمة وساوى نفسه بالفلاح فارتدى ملابسه وعاش عيشه يشق الارض بمحراثه ويخالطهم مخالطة رفعت شأنه في عيونهم، ثم نصب نفسه استاذاً لابنائهم، فأنشأ مدرسة قام هو بنفقاتها واختط للتربية خطة جديدة مبتكرة أخذ بها الكثيرون في تربية نشئهم في الكثير من البلدان الاوربية ، ومن شاء الاطلاع على اساليبه في التدريس فعليه ان يقرأ كتابه « مدرسة ياسانا بوليانا» المترجم الى معظم اللغات الحية . وأصبحت تلك القرية كعبة يؤمها الناس من كل فج عميق بينهم الاساتذة والعلماء والادباء ورجال الفكر .وكثيرون من طلبة الجامعات حذوا حذوه وعاشوا عيشته مهتدين بهديه وفي هذه الآونة أخرج روايته « الحرب والسلام »

ويجدر بي ان اذكر شيئاً عنها وهي غرة مؤلفاته وعنوانها ينبئك عن موضوعها ، انه عالج فيها مشكلة الحرب وما يحول دون السلام معتقداً ان فكرة الفرد المستبد هي مثار كل حرب، وذلك الفرد هو نابليون الكبير والبطل الثاني القائد الروسي كوتوزوف . فنابليون

الاول تدور أعماله على محور ارادته ولا يقيم للنتائج السيئة وزناً ولو خرب العالم وغرق أبناؤه في بحار من الدم والحديد ما دامت ارادته الدافعة الى ذلك

والثاني شيخ علت به السن مفكر جد مفكر ، ويطيل التفكير لا يعارض في حسن ولا يسمح بضار ، ويرى ان سوق الجنود الى ساحات القتال لا يسلم أمره الى رجل واحد ، ثم يمضي في وصف القتال أبلغ وصف . وأبطال هذه الرواية عديدون ومختلفون مهنة ونظراً الى الحياة فهي نهر تصب فيه جداول عديدة من نزعات النفس ورغائب القلب ، وانك إذا قرأتها لا تقول ما أعجب هذه الرواية وما أغرب ترتيبها التاريخي، بل تشعر انك نفسك واحد من أولئك الابطال وأنهم ينطقون بما تشعر به ولهم صلة شديدة بك ، أو كما قيل تقرأ فيها نفسك ، وكل من قرأها اعترف أن مؤلفها رسول الفن ونبي الادب وهو نفسه كان معجباً بها أيما إعجاب وكان كلما قرأ منها شيئاً على زوجه حرك رأسه قائلاً « صوفيا » وحق الله ان الشيخ يكتب حسناً ،انها انجيل ثان لاوروبا . واني عند كتابتها كنت أبقي قطعة من جسدي في الدواة . وله روايات أخرى مثل البعث، وانا كارينينا ،وكتاب دوائر القراءة وهو كتاب اقتطفه مما استحسنه من آراء وأقوال لكبار الفلاسفة والعلماء والادباء فجاء في جزئين وجعل لكل يوم من أيام السنة فصلاً خاصاً وفي آخر كل أسبوع قصة أو بحث ، منه ما عربه بنفسه، ومنه ما لخصه لكبار الادباء ، ومنه ما وضعه بنفسه. وإذا علمت أيها القارىء الكريم أن تولستوي قرأ في حياته أربعة عشر الف كتاب في لغات متعددة وترك على هوامشها تعليقات كثيرة أدركت ما لهذا الكتاب من أهمية ، فهو كما يقول فيه الروس أنفسهم . دائرة معارف للنفس والقلب ، النفس السابحة في فضاء اللانهاية والقلب النابض بحب الانسان ، ففي هذا الكتاب حكمة الانسان في شتى العصور ، ولكل أمة هدفها الاعلى في حياتها فيه ، فهو لم يكتب لأمة من الأمم ولا لجنس من الاجناس بل للانسانية جمعاء . لأن مؤلفه رسول الانسانية فلا غرو إذا رأينا المرحوم شاعر النيل حافظ ابراهيم يرثيه بهذه الأبيات مكبراً وفاته ومعظماً حكمته :

ولست أبالي حين أبكيك للورى ... حواك جناني أم حواك سعير
فاني أحب النابغين لعلمهم ... وأعشق روض الفكر وهو نضير
حياة الورى حرب وأنت تريدها ... سلاماً وأسباب الكفاح كثير
تحاول رفع الشر والشر واقع ... وتطلب محض الخير وهو عسير

هذا هو تولستوي ، وما تولستوي ممن يستوفى حقه من البحث في مقال وجيز مثل هذا وما ذكرناه قليل من كثير .

أديب سعادة موسى

المذنبات

ماذا تعرف عنها .

اعتقد القدماء أن المذنبات نذر سماوية ، هي مقدمات لحرب أو وباء أو موت أو غير ذلك من الكوارث التي تحل ببني الانسان . وفي رواية يوليوس قيصر لشكسبير تقول كلبورنيا لقيصر : « عند ما يموت الدهماء لا ترى المذنبات » .

مر بأرضنا هذه أكثر من ألف مذنب ، ذلك منذ علمنا السنين والحساب ، منها اربعمئة غشيت جونا قبل ان يعرف المقراب (التلسكوب) . وقلما تظل المذنبات التي تظهر لاهل الارض مرئية أكثر من بضعة أسابيع ، ولكن المراصد قد تتبعها سنين عدداً . وجميع المذنبات من بنات النظام الشمسي ، وتتبع في دوراتها افلاكاً من حول الشمس كبقية السيارات . غير ان هذه الافلاك مستطيلة استطالات تبعد أكثر المذنبات بعداً شاسعاً عن الشمس ، وبخاصة عندما يكون المذنب في المنحنى المقابل للمحترق المقابل للشمس .

ما هو المحترق ؟ . الثابت أن السيارات تدور حول الشمس في افلاك اهليلجية الشمس ثابتة في احدى محترقيها . والمحترق في الشكل الاهليلجي ، وهو شكل بيضي ، احدى نقطتين تقع كل منهما في ناحية من ناحيتي الاهليلج عند أعظم استطالة فيه . فاذا انحدرت المذنبات مبتعدة عن الشمس متخذة سمتها نحو المحترق الآخر مخترقة طريقها بين السيارات ، فان مداراتها تتأثر بجذب تلك السيارات فيتغير بذلك شكل افلاكها بعض الاحيان ، فتصبح هذلولية (١) أو شلجمية (٢) بدلاً من ان تظل أهليلجية . ولذا فهي قد تهيم في الفضاء ولن تعود الى محيط الارض ثانية .

من المذنبات حوالي خمسين مذنباً لها أفلاك تستغرق دورتها أقل من قرن ، لتعود الى حيث ترى من محيط الارض . واعظم هذه المذنبات هو مذنب « هالي » الذي يتم دورته حول فلكه في خمسة وسبعين سنة ، وكان آخر ما ظهر لاهل الارض في شهر مايو سنة ١٩١٠ ، ولاح ذنبه قبيل الفجر ممتداً في روعة وجلال من أفق الارض الى سمت السماء .

واذناب المذنبات تمتد دوماً الى الجهة المخالفة لموقع الشمس . والسبب في ذلك ان الذنب يدفع عن نقطة الرأس بضغط الاشعة المنبعثة من الشمس . والمذنبات ، على العكس من السيارات أضواؤها ذاتية ، غير مكتسبة من ضوء الشمس . وهي ليست كالشهب التي تحترق من جراء اصطدامها بجو الارض

ولا تقترب المذنبات من الارض اقتراباً يدخلها في منطقة الارض ، ولكن حدث سنة ١٩٩٠ ان اقترب ذنب مذنب « هالي » من تلك المنطقة . ولكن الذنب كان من اللطافة بحيث لم يشعر به سكان الارض ، بل انه لم يحدث أي ضرر ، وكذلك لا يحدث ذنب أي مذنب آخر ضرراً ما ، ولو ان القدماء كانوا يتطيرون به أشد الطيرة . وقد يشتد لمعان بعض المذنبات ، فترى في وضح النهار كما حدث في المذنب الذي ظهر سنة ١٨٨٢ ، وهي السنة التي احتل فيها الانجليز قطرنا المصري

والمعتقد أن المذنبات تتألف من مجموعات عظيمة العدد من الحبيبات النيزكية تتجمع بقوة الجذب الذاتي . فاذا اقتربت هذه المجموعات من الشمس تسخن بأشعتها . اما الغازات التي تتضمنها تلك الحبيبات فتنفصل عنها ومن ثمت يدفعها ضغط اشعة الشمس الى الجهة المضادة فيتكون منها الذنب . وبذلك يشتد لمعان الذنب كلما أقترب من الشمس ، فاذا اخذ يتباعد عنها ، متبعاً فلكه غير المنظم ليبدأ رحلة قد تبلغ بلايين الاميال وإلى لاعودة ، يأخذ لمعان نقطة الرأس في التضاؤل شيئاً بعد شيء حتى يصير لا شيء .

Parabolic (٢) Hyperbolic (١)



الفقر

صديق الحضارة الاغريقية (1)



كل البدايات غامضة : إما لدقتها وإما لتفاهتها الظاهرية . وهي لا تستعصي على الادراك ، وان أفلتت في الغالب من الملاحظة . لذلك فان مصادر التاريخ ، ينبغي أن تستخلص تتابعاً ، خطوة بعد خطوة . انه يجب أن تفتقد في نبعها الأول ، كتيار في غدير ، ينبع من منحدرات جبل شاهق . هـذه الخطوات أو الدرجات هي ما ندعوه الاستنباط . والاستنباط نوعان : يقتضى أنه إما أن يستمد منه أسباب ، وإما أن يستمد منه مسببات .

ان الاستنباطات التي هي من هذا الطراز لا مفرّ منها ، ولـكن يغلب أن تكون خاطئة . فانه بالرغم من ان كل سبب أو علة مستقلة ، تحدث باطراد نفس النتيجة ، فان هذه القضية إذا عكست لا تصح نتائجها دائماً . فان كل مسبب أو معلول لا يكون باطراد نتيجة سبب واحد بعينه . والحالة التي يشير إليها إصطلاح « تعـدد الأسباب » لها أثر ذو بال ، وليست هي في عالم الفكر ، بأقل منها فعلاً في عالم الـكون الطبيعي . ولـكن العملية المضادة لهذا السياق ، نتائجها أقرب الى الصحة في الغالب . ذلك بأنها تبـدأ بجملة من الأسباب ، أي بمتوالية منظومة من العوامل القوية الواضحة، ظاهرة أو سهلة الظهور ، مستبانة أو قريبة الاستبانة، بحيث تكون قد أثرت في الحوادث المراد معالجتها ، وليس فيها من موضع للشك ، إلاّ في مقدار التأثير الذي لها في هذه الحوادث .

في مثل موقفنا هذا ، حيث تعالج الحياة العقلية العليا في أمة ، ينبغي أن يحتل المـكان الأول من اعتبارنا ، حالاتها الجغرافية ، وصفات مواطنها وخصائصها .

---

(1) نقلا عن كتاب Greek Thinkers: a History of ancient Philosophy

By : Theodor Gomperz :

Professor of Emeritus at the University of Vienna, and Member of the Imperial Academy; Hon. LL. D., Dublin and Cambridge; Hon. PH. D., Konigsberg; Corresponding member of the British Academy for the Promotion of Philosophical, Historical and Philological Studies.

إلاّس [١] أرض جبلية يحيط بها البحر كأنه منطقة . ومُحصّل ثراها راجع إلى ضيق وديانها النهرية . وفي هذا نقع على أول مفتاح نعالج به أول باب يسلم بنا الى بعض الظواهر الرئيسة للتطور الاليني الصحيح .

فمن الواضح مثلاً ان أية بزرة من بزور الحضارة كان يتفق أن تزرع هنالك ، قد تجد سكناً دائماً وظرفاً مواتياً . فان تخومها الجبلية هي بمثابة جدران مشيدة تكسر من حدة تيارات الغزو ، تلك التي تجد في السهول مرتعاً خصباً تمرع فيه . وكل إقليم من أقاليمها الجبلية هو بذاته مستقر مثالي له أثره في تنشئة الثقافة ، وفي كل منها قدرة خاصة على توليد طراز برأسه من طرز تلك التفردية الفذة القوية الممتازة ، التي انقلبت في النهاية عاملاً مكوناً لحضارة الأغارقة المنوعة الصور ، العديدة الجوانب ، كما كانت عاملاً معوقاً ، منع قواها السياسية عن التركز والاتحاد ، فاقليم أرقاديا مثلاً ، وهو إقليم أصابه الترهل والخدر الريفي كان له نقيضه على الشاطىء المقابل حيث يمتد البحر ، ويلتوي ثم يدور .

شواطىء إلاّس أطول من شواطىء اسبانيا ، ومساحة أرضها أقل من البرتغال . أضف إلى ذلك حالات أخرى كملت بها تلك الهبات الطبيعية المتفرقة . فان تجارات متباينة الأنواع والضروب ، وصناعات متفرقة الغايات ، كانت معروفة بمقربة منها . فهنالك فلاحون ورعاة ، وقناصون وفلاحون ، تكاثروا ونموا بجوارها ، فأنتج التخالط العائلي بين إلاّس وهؤلاء ، خلال أجيال درجت ، محصلة من المواهب العقلية والكفايات ، كانت ثمرة لفعل التكامل الذي حدث بذلك الاختلاط . أضف إلى ذلك إن حوريات السماء ، اللواتي أشرفن على ميلاد إغريقية ، لم يكن في مستطاعهن أن يضعن في مهدها من هدية يحيينها بها ، أعظم من « الفقر الذي ظل على وجه الدوام ، صديقها الحميم » .

لقد عمل الفقر من ثلاث جهات مختلفات ليقوي في حضارتها روح الارتقاء . عمل في صورة منخاس اضطرها إلى إبراز كل قواها . وعمل في صورة مانع صرف عنها الغزو الخارجي ، لأن الأرض الممحلة لا مطمع فيها ، وهي حقيقة لاحظها عن أقليم « أتّيكا » ، فيلسوف المؤرخين القدماء ، وعمل في الثالثة ، وهي الأهم ، في صورة حافز قوي لا يقاوم صرف أهلها نحو التجارة وفن البحار والهجرة وإقامة المستعمرات [٢]

(١) إلاس Hellas أو إلنس Hellenes أو إغريقية : Graecia : وقد دلت كلمة إلاس في الجغرافية القديمة عند اليونان على الامكنة التي قطنها الاليليون من الدنيا القديمة حيثما كانوا . فسكان قورينة في شمال افريقية أو سيراقوز في صقلية أو طرنطوم في ايطاليا أو أزميرنة في آسيا الصغرى، كانت تنضوي تحت اسم إلاس ، ولكن جغرافيي اللاطين قصروا دلالتها على أواسط إفريقية وأخرجوا منها الفيلوبونيز. وكل ما يقع شمالي خليج مالية . والى هذا يشير العلامة جومبرتز في وصف إلاس

(٢) Cp. Bursian, Geographie von Griechenland, ; i. 5-8; hissen, Italische Landeskunde,;, 216 : "Nowhere else in so restricted an area is so striking a variety of

إن الخلجان التي هي أصلح المرافىء على شبه الجزيرة الاغريقية ، تواجه منافذها الشرق ، والجزائر والجزيرات المتناثرة في هذا الصقع ، هي بمثابة درجات من الصخر ، تُسلم إلى مقار الحضارات الآسيوية القديمة . يجوز أن يقال إن أغريقية تنظر إلى الشرق وإلى الجنوب ، ويستند ظهرها إلى الغرب وإلى الشمال ، بما يقوم فيهما من حالات أشبه بأن تكون همجية .

حالة أخرى ، هي من حالات الحظ الاستثنائي الطيب ، يمكن أن تضاف إلى تلك الامتيازات الطبيعية . قامت إغريقية الطفلة في جانب ، والحضارات التي تعجز الذكريات عن تلمس بداياتها في جانب إزاءها . فمن ذا الذي قسم له أن يربط بينهما ؟ لقد وجدت الحلقة الرابطة ، وكأنها اختيرت عمداً لتقوم بتلك المهمة التاريخية . أولئك الخاطرون الأشداء الأيّدون الذين اقتحموا البحر ، تجار فينيقية ، الذين هم إن لم يكونوا من شعب ذي شأن من الناحية السياسية ، فانهم من شعب مليء جرأة وصلابة وطمعاً في الكسب . حدث إذن أن الأغارقة قد استمدوا عناصر الثقافة من بابلونيا ومصر ، من غير أن يدفعوا ضريبة الاستقلال عن بقية الدنيا .

والفوائد التي تجنى من مثل هذا الظرف ظاهرة لا تحتاج إلى بينات . فأن الأمة المحبوة بمثل ذلك تهيأ في العادة بمنهج ارتقائي ثابت الخطا مطرد السوق ، وتطور متصل غير منفصم الحلقات ، ومناعة نسبية عن التضحية بمواردها القومية . وإذا أردت برهاناً على صحة هذه النظرية ، فاعتبر مصير الكلت Celts : والجرمان الذين استعبدتهم روما في البرهة التي مدنتهم فيها ، أو اعتبر مصير القبائل الهمجية في عصرنا هذا ، وهي التي تتلقى مراحم المدنية من يدي أوربا الكالية القدرة ، وكثيراً ما تنزل بهم العنات .

ومع هذا فأن المؤثر الفاصل في نشوء الحياة العقلية عند الأغارقة ، ينبغي أن يفتقد في نظامهم الاستعماري . فأن الاستعمار الأغريقي قد وجد في كل وقت ، وفي ظل كل ضرب من ضروب الحكومة . فالملوكية ، وقد قطعت عهدها في تطاحن مستمر ، كثر ما شهدت متوطنين أخلوا مواطنهم لقبائل مهاجرة ، باحثين عن مواطن جديدة وراء البحار . وحكومة الأقلية التي قامت على التحالف الثابت بين نبل المولد وامتلاك الأرض ، مضت على سياسة إبعاد أولئك « السادة المساكين » لأنهم رمز القلق ومبعث الفوضى ، فزودوهم بأملاك في بقاع أجنبية ، حيث تبعتهم إليها وشيكاً تنابذ الأحزاب ، وتطاحن العصبيات والفساد والقتل .

في نفس ذلك الوقت ، تطلب نماء التجارة البحرية عند الأغارقة ، وتكاثر الانتاج

bays, promontories, mountain ranges, valleys, plains, highlands of all kinds to be found„. Cp., too, G. Perrot, Revue des Deux Mondes Feb., 1892 : Se sol et le climat de la Grèce," especially p. 544. For the "Poverty... her familiar friend„, cp. Herodotus, vii. 102; and for the most philosophical historian....„, cp. Thucydides, i.2.

عن « الفقر وانه صديقها الحميم » انظر هيرودوتس ج ٧ : ص ١٠٢ ؛ « فيلسوف المؤرخين القدماء » : ثوقوقوديدس : انظره ج ١ ص ٢ .

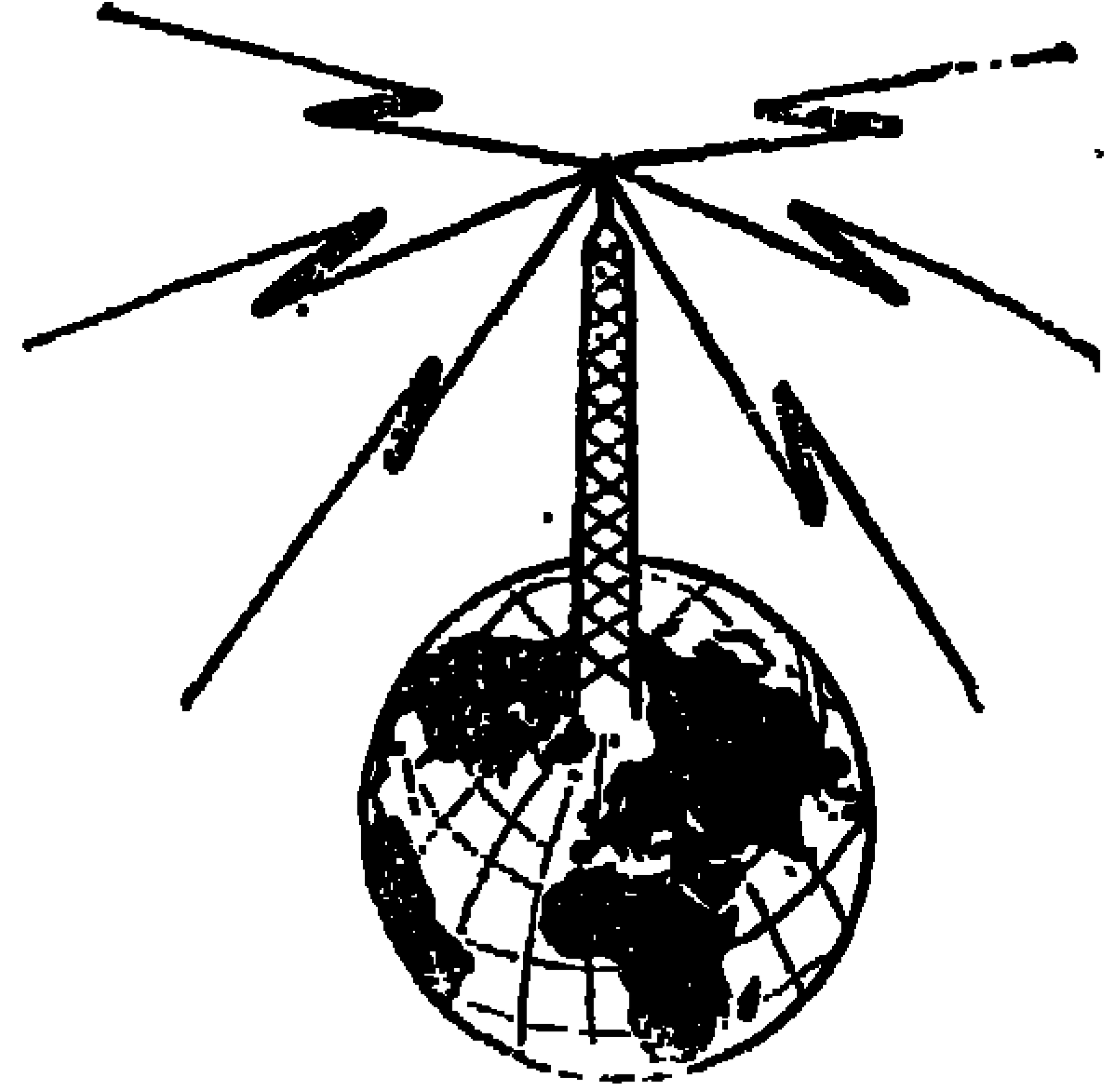
الصناعي ، وزيادة عدد السكان ، ضرورة تأسيس مراكز ثابتة للتجارة وطرق آمنة لاستيراد مواد الغذاء . استخدمت هذه المسالك بذاتها، وبخاصة في ظل الديمقراطية ، لاغاثة المعدمين ذوي الخصاصة ، وتسريح الزائد من السكان . بذلك ، وفي زمان مبكر من بداية تحضرهم ، نشأ الاغارقة تلك الحلقة العظيمة من المستعمرات التي إمتدت من مواطن القوزاق على نهر الدّن إلى الواحات الصحراوية ، ومن شواطىء البحر الاسود الشرقية ، إلى سواحل إسبانيا .

قد نقول أغريقية العظيمة ، إذا قصدنا بذلك الجزء الالّيني من جنوبي إيطاليا . أما إغريقية العظمى ، فمدلولها مجموعة المستعمرات في خارج بلاد « إلاّس » . إن عدد هذه المستعمرات وتنوعها ، قد حققا بطريق عملي ، ما يتوقع عادة من نشاط يصيب أيًّا شئت من بزور حضارية ، فتفرخ وتنمو ، إذا ألقيت في أرض ملائمة . ولقد ساعد على تحقيق ذلك والتوسع فيه ، وبلوغه درجة من الرقي والبهاء فذة باهرة ، طبيعة تلك المستعمرات ، والاسلوب الذي اتبع في تأسيسها . فان مواقعها قد اختيرت بعناية ، فقامت في نقط ساحلية منحت التجارة أعظم اليسر ، ووهبتها أضخم المرافق . وكان المهاجرون أنفسهم في الاكثر من عنصر الشباب ، وفيهم نزوع إلى الخشونة وميل إلى الجرأة، فورّثوا أخلافهم ، صفاتهم الفردية العليا . أما أولئك الذين هاجروا من بقاع لم تضف الطبيعة على أهلها مثل ذلك من الصفات، والذين عاشوا في ظل السلطة والسيادة ، وفي حمى الفراغ والخمول، فلم يدفع بهم من دافع إلى مغادرة مواطنهم ، غير الحاجة والفقر .

زد إلى ذلك إن دولة مدينية (City-state) بعينها ، إن بادرت إلى تأسيس المستعمرات، فانها كانت تتزود في الغالب ، بطائفة كبيرة من الاجانب ، فيقع بذلك بين القبائل الالينية المتفرقة تلاقح ، يعززه فيما بعد تلاقح يتلوه ، بدماء غير إلّينية ، بحكم الضرورة التي تفرضها زيادة عدد الرجال زيادة كبيرة على عدد النساء ، بين رواد المهاجرين لدى أول هجرتهم .

بمقتضى ذلك ، كانت كل مستعمرة كانها بوتقة أدت غرض التجربة والاختبار . فالعناصر الاغريقية وغير الاغريقية ، ظلت تتلاقح بنسب مختلفة ، وكانت نتيجة هذه التجربة ، ما شهدناه مطبقاً في حياتهم العملية من قوة الاحتمال والمقاومة . أما العادات المحلية والاساطير القَبَلِيَّة ، فزالت بفضل ما اتصفت به الجاليات من حس كان أرهف ، وذوق كان أسمى . واتصال هؤلاء بحضارات أجنبية ، مهما كانت فجة من حيث النماء والتطور ، ما كان ليحدث إلا إتساعاً في الافق العقلي ، بعيد المدى ، قصيّ المرامي[1].

(1) On the extension of the geographical horizon, co. further H. Berger, Geschichte der wissenschaftlichen Erdkunde, i. 16. Ed. Meyer, Geschichte Egyptens, 367. Settlers from Samos in the Libyan Desert are mentioned by Herodotus, iii, 26.
ذكر هيرودوتس ان مستعمرين من ساموس هبطوا صحراء لوبيا : ج ٣ ص ٢٦



تيار المغنطيس

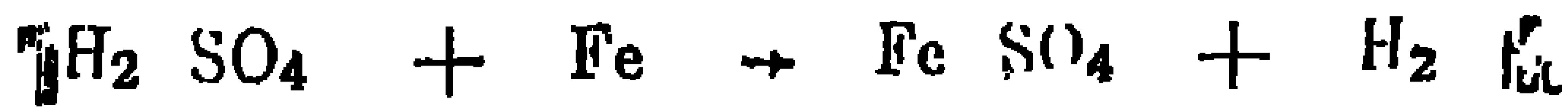
حملت الينا مجلة انكليزية نبأً علميًّا خطيراً نظن أنه سيبدأ صفحة مشرقة جديدة في تاريخ العلم ، وربما أدت نتائج هذا الكشف الى ممكنات واسعة النطاق يعود تطبيقها على الانسانية والمجتمع بخير عميم ونفع كبير . وما أظن العالم العلمي إلاَّ قد قابل هذا النبأ بهزة إعجاب واستغراب . ولذا نود اشراك قراء المقتطف الأغر في التفكير فيه وتقدير بعض احتمالات استغلاله في الصناعة والحياة .

تمَّ هذا الكشف على يدي العالم النمسوي إهرنهافت Ehrenhaft ، وهو عالم ذائع الصيت ملحوظ المكانة في المقامات العلمية، وكان قد هرب فيمن هرب من ظلم النازي القاسي لما احتل وطنه النمسا . ولجأ الى أميركة وسكن نيويورك حيث يقوم بتجاربه الجديدة فأصبح ضيف شرف على حكومة الولايات المتحدة .

يقول هذا العالم مسنداً قوله الى الشواهد والبراهين التجريبية — بأن المغنطيس يسري وقوته تتحرك كما تسري وتتحرك قوة الكهربا . ووجه الغرابة والجدة في هذا الرأي أن النظريات القديمة والحديثة تجمع على أن قوة المغنطيس ساكنة لا تنتقل أو تبدي أي نوع من الحركة الطبيعية ، فيكون الاتجاه مقصوراً على هذه القوة . وهي لا تعلن عن نفسها في الجسم الممغنط نفسه كما يمكن أن تظهر شواهد واضحة على السلك النحاسي الذي تسري فيه الكهربا كالتوهج أو ارتفاع درجة الحرارة أو ارتجاج جسم اللامس . ويتسنى لأقطاب المغنطيس الدائمة أن تحتفظ بقوتها الى أجل طويل دون أن تستنفد منها قدراً ملحوظاً . فتفرق هذه النظريات الكلاسيكية — إن صح التعبير — بين القوة الكهربية والقوة المغنطيسية ، في أن الأولى سيل جارف من الالكترونات المتدافعة السارية في سلك النحاس أو أي جسم موصل عند ما تكون الدائرة مغلقة . أما الدائرة المغنطيسية فلا حركة فيها وحينما نتحدث عن خطوط القوة المغنطيسية التي تنقبض وتمتد، فانما نتحدث عن شيء وهمي لا ميزة له إلاَّ وصف المجال المحيط بالقطب ، ولكن لا وجود ذاتي لها في حقيقة الواقع .

وبينما تكون البطارية جزءاً مهمًّا في الدائرة الكهربية ، تدفع نتيجة التفاعل الكيماوي بين عناصرها الأساسية الشحنات الكهربية عبر الأسلاك ، تكون القوة المغنطيسية كيفما كانت الاتصالات التي تربط قطبيها، مغلقة على نفسها لا يظهر فيها أي انتقال للجزئيات أو أي نوع آخر من الحركة .

أما اهرنهافت فقد برهن على أن في الامكان حفز القوة المغنطيسية على السريان ، بحيث ينتج ما يمكن أن يسمى بالتيار المغنطيسي الذي لم يكن معروفاً من قبل . وكانت إحدى التجارب التي تعزز رأيه بسيطة مقنعة ، وقد أجراها على مشهد حافل من علماء أمريكا اللامعين . وفي مستطاع طالب المدرسة الثانوية أن يعيدها بنفسه إذا أخذ قطعة من الحديد وألقاها في ماء محمض — ممزوج بقطرات من حامض قوي كحامض الكاوردريك أو حامض الكبريتيك ... — فانبعثت فقاعات غاز الايدروجين وفق المعادلة .



$$H_2SO_4 + Fe \rightarrow FeSO_4 + H_2$$

وهذا التفاعل يشبه طريقة استحضار الايدروجين في المختبر عند إلقاء قطع الخارصين التجاري المحبب في الحامض المخفف . ويتم التفاعل لأن الحديد أو الخارصين أعلى من الهيدروجين في جدول الاحلال . فيحل كل منهما محله ويتحد مع جذر الحامض على حين ينطلق الايدروجين حرًّا .

أخذ إهرنهافت قطعة الحديد ومغنطها ثم ألقاها في الحامض مرة أخرى، فلم تنبعث فقاعات الايدروجين وحدها ، وإنما رافقتها فقاعات غاز الأكسجين أيضاً . ولا شك أن هذه التجربة تعيد إلى الأذهان طريقة فولتا في تحليل الماء كهربيًّا إلى عنصريه الأساسيين الأكسجين والايدروجين . فكأنما سرى في الماء المحمض تيار يشبه التيار الكهربي ويسعه تحليل الماء أيضاً . وليس هذا التيار الجديد — كما هو واضح — تياراً كهربيًّا . فيكون اهرنهافت قد برهن بذلك على وجود تيار مغنطيسي ، أي أن القوة المغنطيسية تسري وتتحرك وتفعل

كان قضيب المغنطيس لعبة ساذجة يعبث بها التلاميذ ، ولكنها منذ الآن مستودع غني بالطاقة ، وما إن يضع العلم يديه على مفاتيح هذا المستودع حتى يفضي بابه إلى نتائج عملية غير متوقعة، ربما يفيد منها كل فرد ، وتكون المشكلة بعد ذلك مشكلة صنع المغنطيس القوي وخزن طاقته إلى أن تمس الحاجة لاستهلاكها . ولدينا ثلاث طرق بسيطة للمغنطة : أولاها أن يوضع قضيب الحديد في اتجاه شمالي جنوبي ، ثم يطارق قليلاً فيؤثر مجال الارض — وهي مغنطيس جسيم — في القضيب و يولد فيه قوة مغنطيسية : إلا أن هذه القوة ضعيفة لا يمكن الاستفادة منها عمليًّا . والطريقة الثانية دلك القضيب في اتجاه واحد بقضيب آخر قوي

المغنطيسية. وهذه الطريقة ايضاً لا تجدي لأن مشكلة الحصول على قوة مغنطيسية كبيرة لذلك تبقى غير محلولة. أما الطريقة الثالثة ففيها الخير كل الخير، وبها يتيسر صنع مغنطيس قوي، وهي تتلخص في أن يحاط قضيب الحديد أو أي سبيكة معدنية من خواصها الاحتفاظ بقوة المغنطيس، يحاط القضيب بملف كثير الدورات يحمل تياراً كهربائياً عالياً، فبعد لحظة قصيرة من اقفال الدائرة يتحول الحديد الميت مغنطيسياً قوياً حياً. وقد رأت الحرب الحاضرة تقدماً عظيماً في تعميم المغنطيس الضئيل الحجم الذي يخزن طاقة كبيرة بالنسبة لحجمه ووزنه.

***

لا نستطيع أن نتكهن باحتمالات الفوائد العملية التي قد تنجم عن تسخير التيار المغنطيسي. فقد نستغني عن خطوط التواصل الكهربية التي توزع القدرة المولدة في محطة مركزية، بأن نلجأ الى هذه القدرة الجديدة ونولد من تيارها النور والحرارة وغيرها من الحاجات المنزلية. وربما حمل كل فرد في المستقبل في جيبه قضيباً ممغنطاً صغيراً كما يحمل اليوم مصباح الكهربا اليدوي ويستعمله عند الحاجة في أغراض مختلفة، بفارق واحد: هو أن هذا المنبع الجديد للطاقة أقوى وأفعل. وحينما نستهلك الطاقة في القضيب نعود به الى المخزن ونشحنه مرة أخرى كما نفعل بمراكم السيارة أو بطاريات الراديو الرصاصية، ولكننا في الحالة الأولى لا ننتظر وقتاً طويلاً للحصول على قوة المغنطيس لأن شحنها لا يستغرق أكثر من بضع ثوان.

***

كان أمير الكهربا «فاراداي» العالم الانكليزي المشهور يجري تجاربه ويحاضر جمهوراً من المستمعين. وما إن انتهى حتى ابتدرته إحدى السيدات قائلة: «ولكن ما فائدة ذلك؟» فأجاب: «أتستطيعين يا سيدتي أن تقولي ما فائدة الطفل ساعة ولادته» كانت تجاربه تقوم حول ماهية التأثير الكهرطيسي. وقد نجم عن كشوفه الدينامو (المحرك والمولد) وكلنا نقدر قيمة سيطرة الانسان على توليد الكهربا ونقلها وتوزيعها ليسعد بها المجتمع وتتحول الصناعة وتتقدم.

لقد انبثق فجر العصر الكهربي باكتشافات «فاراداي» هذه، أفلا يصح لنا أن نظن إذا ثبتت النتائج لبحوث اهرنهافت — أن فجر العصر المغنطيسي يوشك أن ينبثق وتطلع شمسه مشرقة زاهية. إن المستقبل مفعم بكل جديد ومن يعش يره.

خليل السالم
السلط — شرق الاردن

مدينة الشمس

Prof. Hermann Junker deduced from known data that Heliopolis must be in the neighborhood of Helwan. Science Digest, June, 1945.

يقول علماء الخطط (الخططيون) Archaeologists انهم قد توصلوا الى حل لغز من اعظم ألغاز التاريخ القديم — ذلك بأنهم عينوا موقع مدينة الشمس المقدسة ، عاصمة مصر التي درست منذ اكثر من ٦٠٠٠ سنة مضين .

يقول دكتور ايتين درويوتون مدير دار الآثار المصرية ، ان خططياً مصرياً يعمل على تحقيق النظرية التي روجها استاذ الماني في برلين ، قد سقط على نقش في قبر قديم يؤيد بالدليل المادي ان مدينة الشمس القديمة كانت بقربة من حلوان ، على عشرين ميلا جنوبي مدينة القاهرة .

كان من رأي الاستاذ « هرمن يونكر » الذي عمل في مصلحة الآثار المصرية ، وعلى استنتاجات استمدت من معلومات عديدة ، ان مدينة الشمس كانت في مكان ما بقربة من حلوان . وقد وصل الى مصر من طريق البلاد المحايدة في اثناء الحرب ملخص محاضرة له ايد فيها هذه النظرية . وقد اصبحت هذه النظرية الآن حقيقة واقعة .

إن مساحة عظيمة من القبور التي لم تكن قد حقق امرها من قبل ، قد اتضح انها مدينة الموتى : Necropolis وبالحري مدافن مدينة الشمس ، اما المدينة نفسها ، فلم يعثر على مكانها الاصلي بعد .

الخططي المصري ، صاحب هذا الكشف ، هو الاستاذ زكي سعد ، الذي يعمل برعاية جلالة الملك فاروق وقد بدأ بحوثه بالحفر بين القبور بقربة من حلوان ، فكشف عن قبر يرجع تاريخه الى عصر الاسرة الحادية عشرة وعليه نقش معناه ان هذا القبر قد اقيم ليرقد صاحبه بين « عظماء مدينة الشمس » : Heliopolis

والمعروف انه كان لمدينة الشمس مكان مرموق وأثر ثابت في العصر الغامض السابق على العصر الفرعوني ، ولكن قليلا ما يعرف عن تلك المدينة التي درست في خلال الحروب التي أدت الى اتحاد مصر العليا ومصر السفلى حوالي سنة ٥٠٠٠ ق . م .

وكان من عادة المصريين الفراعنة ان يدفنوا موتاهم في الناحية الغربية — اي في الضفة الغربية من النيل . ويقول دكتور دريوتون ان سكان مدينة الشمس كانوا من عباد الشمس ومذهبهم مخالف لمذهب الفراعنة ، وقبورهم لا تقع في الناحية الشرقية فحسب ، بل في شرقي المدينة الاصلية ذاتها .

اما القبر الذي عثر فيه على النقش الذي ورد فيه اسم مدينة الشمس ، فيرجع الى عهد الاسرة الحادية عشرة اي حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ولكن هنالك قبوراً ترجع الى عهد الاسرة الاولى اي حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل عهد تلك الاسرة ، اي حوالي الزمن الذي درست فيه مدينة الشمس .

Condensed from The New York Times, by Sam Pope Brewer.





القواعد الاساسية

في تأليف معجم لغوي تاريخي (١)



تألفت لجنة بمجمع فؤاد الاول للغة العربية سميت لجنة المعجم ، اجتمعت ونظرت في انواع المعاجم التي تحتاج اليها اللغة العربية ، وبخاصة المعجم اللغوي التاريخي الذي يجمع شتات المفردات التي استعملت في اللغة منذ عصور الجاهلية الى الآن ، وبيان المعاني التي تعاقبت على الالفاظ في الاستعمال اللغوي مرتبة بحسب العصور ، واظهار المعاني الحقيقية من المعاني المجازية ، الى غير ذلك من الاشياء التي تجعل ذلك المعجم سجلا للغة وتاريخ ألفاظها ، وتطور معانيها ، والفصل بين الفصيح والمولد والمعرب والمنقول من اللغات الاخرى . وكان الاستاذ الدكتور ا. فيشر قد بدأ في كتابة معجمه اللغوي التاريخي الذي انتهى به الى آخر القرن الثالث الهجري ، ونقل جزءاً من جزازاته الى مصر ، ولا تزال محفوظة بدار المجمع ، فاتجهت النية الى ان يعقب المجمع على عمل الاستاذ فيشر فيبدأ معجمه بالقرن الرابع الهجري الى الآن . ولهذا الغرض كلفت بأن اضع تقريراً عن الطريقة التي تتبع والخطوات التي تتخذ للبدء في تأليف هذا المعجم ، فلم أجد طريقة اجدى من الرجوع الى مقدمة معجم اكسفورد اللغوي التاريخي لاستخلص منها القواعد التي جرى عليها مؤلفوه والطرق التي اتبعوها ، فاستخلصت من تلك المقدمة تقريراً قدمته للجنة المعجم في اوائل سنة ١٩٣٩ ثم استقلت من المجمع في صيف ذلك العام . وظل العمل في هذا المعجم العظيم، الذي لا يجمع شتات لغتنا غيره ، واقفاً عند هذا . فاذا نشرت على صفحات المقتطف ما استخلصت من مقدمة معجم اكسفورد في هذا الظرف ، فاني انما أفعل ذلك وكلي امل في ان يشمر المجمع عن ساعده ويرسل دعواه الى العالم العربي كله ليؤيده في هذا الجهد الذي سوف يكون ، إذا تم ، سجلا للغة وتاريخ مفرداتها وعاملا يؤيد جامعة العرب . وعندي ان أعظم ما تخدم به جامعة العرب شيئان : معجم لغوي تاريخي ، ومعلمة كبرى أي دائرة معارف تجمع الى العلوم والآداب الحديثة ، آداب العرب وتاريخهم . شيئان من اعظم مقومات الجنسية العربية ، مصر ، بتأييد العرب ، أقدر الامم العربية على الاضطلاع بهما . اسماعيل مظهر

***

بدأ العمل في معجم اكسفورد اللغوي التاريخي الحديث في سنة ١٨٥٩ ، وتم طبعه في ١٩ من ابريل سنة ١٩٢٨ ، فكان العمل فيه قد استغرق قرابة سبعين عاماً . ولم يشرف طبعه على التمام حتى كانت نسخه قد نفدت ، فأعيد طبعه ، وظهرت طبعته الثانية في سنة ١٩٣٣ فزيد اليها ملحق يكمل ما استدرك على الطبعة الاولى . ولقد نال القائمون بهذا العمل الفذ من التشاريف ، ما يجدر أن يصدر عن شعب يعرف قدر لغته ويعرف أن اللغة جزء لا يتجزأ من القومية . فقامت الاكاديميا البريطانية بصك مدالية نقشت عليها صورة أول من قام على

(١) مستخلصة من مقدمة معجم اكسفورد الحديث للغة الانجليزية ومقدمة الى لجنة المعجم بمجمع فؤاد الاول للغة العربية

تحرير هذا المعجم من العلماء تخليداً لذكراه ، وأضفيت الألقاب العلمية على كثير ممن تولوا العمل فيه ، وكان لهم في تحريره أثر رئيس

***

وكان السبب الذي حدا علماء اللغة من الانجليز الى القول بضرورة تأليف معجم جديد على قواعد جديدة شعورهم بأن معاجم اللغة الانجليزية، منذ بداءة القرن السابع عشر ،كانت تقصر عن ادراك أغراض الأدباء وأهل العلم باللغة والفنون ، وان الزمن كلما تقدم بالأدب الانجليزي ازدادت المعاجم قصوراً عن ادراك اغراضه والقيام على حاجاته بما يحقق الغرض منها ، حتى لقد شبه معجم « كودري » Cawdrey الذي طبع في سنة ١٦٠٤ الى جانب معجم أكسفورد الحديث، بالبزرة اذا قيست بشجرة البلوط العظيمة

ولقد كان السبب الأول في عظم ما تجد من فرق بين تلك البزرة الدنيئة وتلك الشجرة العظيمة ، دخول ثلاثة مبادىء جديدة في تأليف المعجمات الانجليزية : فان مؤلفي المعاجم كانوا قد عكفوا على الطريقة القديمة في جمع المفردات الغريبة التي لا تعرض لعامة الناس ، على اعتبار أن ما بقي من الكلمات هي من البيان والتداول بحيث لا ينبغي ان تدخل في معجم اللغة الانجليزية، ولكن عدل عن هذه الطريقة في القرن السابع عشر وأخذت المعاجم تتسع لكثير من الالفاظ التي كان يرى أن اثباتها غير ضروري . وفي القرن الثامن عشر ألف جامعو المعاجم طريقة إثبات جميع الالفاظ التي يمكن أن تتداول في اللغة . أما الخطوة التالية لهذه فقد خطاها الاديب الكبير « جونسون » Johnson إذ عمد الى إثبات الشواهد التي توضح التعريفات الموضوعة للالفاظ وتؤيدها ، ثم أعاد النظر في معجمه وأضاف اليه ، في ملحق ، كل الالفاظ التي كان قد أهملها ، وأثبتها بشواهدها .وأكمل هذا البناء العلامة اللغوي « رتشاردسون » Richardson بخطوة ثالثة هي التوضيح التاريخي للالفاظ ، واتباعاً لهذه الطرق ، وجب أن يكون المعجم الكامل للغة الانجليزية ، كتاباً من أضخم الكتب العالمية

ومن العجيب أن معجم « رتشاردسون » لم ينل ما يستحق من التفات العلماء وربما كان ذلك لنقص مّا في طريقته . ولقد أمضى نحو اربعين سنة منذ أن ظهر الجزء الاول من معجمه في « المعلمة الجامعة » Encyclopaedia Metropolitana قبل أن تقبل الجمعية اللغوية النظرية التاريخية في وضع المعجمات قبولاً تاماً، وكذلك لم يؤثر طبع معجم «رتشاردسون » مستقلاً عن تلك المعلمة في سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ أي أثر في المعجميين (أي مؤلفي المعاجم) Lexicographers الذين ظلوا يتبعون نفس القواعد التي اتبعها « جونسون » في انجلترا ، و « وبستر » في امريكا . ومن العجيب ان تلك الثروة الهائلة من الشواهد التي أتى بها

«رتشاردسون» لم ينتفع بها وظلت غير مستخدمة في أغراض اللغة، في حين أنها كانت مستودعاً طبيعياً خصباً بعد كل من فتش في جوانبه بجواهر لغوية حديثة وقديمة ، تضاف الى ما جمعه « جونسون » وأتباعه .

كانت الخطوة التالية بعد تلك الأربعين من السنين التي مضت على ظهور معجم «رتشاردسون» حتى اقتنعت الجمعية اللغوية بضرورة اتباع المبدأ التاريخي في تأليف المعجمات ، أن عهدت الجمعية الى لجنة مؤلفة من ثلاثة من أعضائها بأن يجمعوا الالفاظ الانجليزية غير المسجلة في المعجمات ، وأن يقدموا بذلك تقريراً عند انعقاد الجمعية في شهر نوفمبر من سنة ١٨٥٧ . وكان السبب في ذلك أن الجمعية أرادت أن تثبت في ملحق للمعاجم جميع الالفاظ التي أهملها « جونسون » و « رتشاردسون »

غير أن هذه اللجنة لم تقدم تقريرها اذ ذاك . ولكن أحد أعضائها وهو الاسقف « ترنش » Trench قرأ جزءاً من كلمة ألفها في « بعض النقائص في المعجمات الانجليزية » في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٥٧ وأجل تقديم تقرير اللجنة الى الثالث من شهر ديسمبر التالي. فأعطى هذا التأجيل فرصة طيبة للاسقف « ترنش » لكي يقرأ الجزء الباقي من كلمته على الجمعية في اليوم التاسع عشر من نوفمبر من تلك السنة فأصدرت الجمعية قراراً على أثر سماعها تلك الكلمة (تضمن أنها طلبت من أسقف وستمنستر أن يطبع كلمته الثمينة المفيدة وانه وافق على قرار اللجنة) فطبعت تحت العنوان الآتي : —

On some deficiencies in our English Dictionaries, Being the substance of two papers read before the Philological Society, Nov. 5 and Nov. 19, 1857. By Richard Chenevix Trench, D. D. Dean of Westminster.

ويقول كاتب المقدمة في معجم أكسفورد الحديث إنه بالرغم من مضي ثلاثة أرباع قرن (١٩٢٨) على ما كتب الاسقف « ترنش » ، وبالرغم من تقدم البحوث والدراسات الانجليزية في أثناء ذلك ، فان ما ارتأى الاسقف « ترنش » من آراء لا يزال حافظاً لقيمته العلمية باعتباره أساساً لما يجب أن يكون عليه المعجم الكامل للغة الانجليزية . ثم قال حرفياً :

« ولا يقرأ أحد (ما كتب ترنش) حتى يدرك على أية صورة من الجلاء والبيان استطاع أن يستشف كل التفاصيل التي ألف على مقتضاها معجم الجمعية ، وكانت جميعها على التحقيق نتيجة للمذهب التاريخي الذي جعله الأساس الثابت المعقول لعمل المعجم » .

وقبل ان انتقل الى الكلام في شيء آخر، آمل ان توصي لجنة المعجم بهذا المجمع الموقر بالحصول على هذا البحث الذي اتخذ اساساً لوضع معجم اكسفورد الحديث ، لعلنا بدرسه نفيد من العلم ما لا يتيسر لنا بدراسة هذه المقدمة وحدها ، واقترح الاتصال بالاستاذ « جب » بجامعة اكسفورد وتكليفه الحصول على نسخة منه وارسالها الينا .

***

في الثالث من شهر ديسمبر التأمت الجمعية اللغوية ، وقرىء عليها تقرير اللجنة التي عهد اليها البحث في « نقائص المعاجم الانجليزية » فقررت حفظه واستعاضت عن بحثه بأن قررت أنه سوف يعرض على الجمعية عما قريب مشروع كبير لتأليف معجم حديث كامل للغة الانجليزية . ذلك بأن بحث الاسقف « ترنش » كان قد أقنع الجمعية بما تضمن من آراء ومقترحات ، وأبان أنه لا معدى للجمعية عن القيام بتأليف معجم حديث ، إذا هي أرادت أن تكفي حاجة اللغة الانجليزية .

ولم تضع الجمعية وقتاً في تنفيذ الفكرة الجديدة ، ولم تستخف بضخامة العمل التي هي مقدمة عليه ، ولا بعدد السنين التي تلزم لاكماله ، بل بالتي ينبغي أن تنفق قبل البدء به . وفي السابع من شهر يناير سنة ١٨٥٨ أصدرت الجمعية القرارات الآتية .

١ — يستعاض عن الملحق الذي أقرت الجمعية تأليفه تعقيباً على المعاجم الانجليزية المأثورة ، بتأليف معجم حديث للغة الانجليزية باشراف الجمعية اللغوية .

٢ — يعهد بعمل المعجم الى لجنتين : الاولى لجنة أدبية تاريخية : والثانية اشتقاقية ، وفي حالة الشك في حقيقة أية مادة ، يكون حكم اللجنة الادبية التاريخية نهائياً ومقبولاً (وكانت اللجنة الاولى مؤلفة من ثلاثة أعضاء والثانية من عضوين)

٣ — تشكر الجمعية جميع الذين اشتركوا متطوعين للعمل مع «لجنة الالفاظ غير المسجلة» وتطلب مساعدتهم ومساعدة متطوعين آخرين للعمل الجديد . ويتلو ذلك ثلاث قرارات إدارية لا حاجة لنا بذكرها هنا ، لأنها تتعلق بالطبع وتمويل المشروع بأموال الجمعية وغير ذلك .

***

ومما هو ثابت في القرار الثالث ، نجد أن — « لجنة الألفاظ غير المسجلة » ، كانت قد نجحت نجاحاً كبيراً أثناء حياتها القصيرة ، في اذكاء روح الاهتمام بعمل اللجنة وفي تطوع مساعدين يعملون على تنفيذه . وأشار الى ذلك الأسقف « ترنش » في بحثه الذي ألمعنا اليه ، فأثبت في نهايته كلمات تشجيع فقال : «واني لأذكر أن ستة وسبعين متطوعاً قد انضموا فعلاً الى اللجنة ، مطالبين بتعيين نصيبهم من العمل . وان واحداً وعشرين ومائة من المؤلفين الانجليز قد وزعت مؤلفاتهم على هؤلاء المتطوعين ، وقد اختص فى حالات عديدة متطوع منهم بكامل المؤلفات الصادرة عن مؤلف بعينه . وأزيد على ذلك أن واحداً وثلاثين عملاً كاملاً قد ردت الى اللجنة حتى الآن » — ثم يقول كاتب مقدمة معجم اكسفورد الحديث : «وبهذا وضع نظام القراء المتطوعين الذين لولا مساعدتهم الفعالة ، لما تم استجماع المادة اللازمة

لتأليف معجم الجمعية اللغوية ، اللهمَّ إلاّ بمبالغ طائلة من المال وأحقاب مديدة من الزمن ، لو لم يوفرها المتطوعون لاستحال انجاز العمل » .

ومضى زمن قبل أن أتيح للجمعية نشر تفاصيل عملها العظيم . ففي سنة ١٨٥٩ نشرت مقترحات لنشر معجم انجليزي حديث تقوم به الجمعية اللغوية . وقد يتضح من هذا المنشور مبلغ ما أنفق في تصميم هذا المعجم من الاستغراق في الدرس والتفكير ،واختتم بذكر الأسس التي سيقوم عليها المعجم ، وقد اكتفى كاتب المقدمة بذكر الأول والرابع منها باعتبارهما اب الموضوع : وهما..

١ — ان الحاجة التي ينبغي أن تتوفر في أي معجم ، أن يتضمن كل كلمة استعملت في آداب اللغة التي يتناولها .

٢ — في معالجة كل لفظ بذاته، يجب أن تتبع الطريقة التاريخية بغير استثناء . ويتضمن المنشور عدا ذلك ارشادات للمتطوعين من جامعي الألفاظ بحسب ما اتفق عليه في اللجان الأدبية والتاريخية والاشتقاقية ، ثم تنظيمات آلية وعملية (تتبع في تدوين الألفاظ) ، ويتلو ذلك كله قوائم الكتب (أي المراجع) تدل كل قائمة منها على مقدار ما بذل في وضعها من جهد ومشقة . وقد نظمت كالآتي :

الأولى — قائمة بالمراجع الانجليزية المطبوعة من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥٢٦

الثانية — قائمة بمراجع العصر الثاني أي من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٦٧٤ .

الثالثة — قائمة بمراجع العصر الثالث أي من سنة ١٦٧٤ الى سنة ١٨٥٨ .

ولقد روعي في اختيار هذا التقسيم حادثان تاريخيان الأول : طبع العهد الجديد (الأناجيل) بالانجليزية في سنة ١٥٢٦، والثاني وفاة الشاعر ملتن « Milton » في سنة ١٦٧٤ . ويرجع هذا الاختيار الى «هنري كولردج» H. Coleridge ، غير أنه وقع أيضاً عن مصادفة، أن هذين التاريخين هما مبدأ الزيادة العظمى في مفردات اللغة الانجليزية ،فأقرّا واتبعا في تبويب المؤلفات بحسبهما .

وبدأ عمل المتطوعين يثمر ويؤتي أكله ، ويزود اللجنة بمادة تعمل على بحثها وتحقيقها. ففي شهر ابريل من سنة ١٨٥٩ نشرت الجمعية تقريراً يتضمن أسئلة عن معالجة بعض المعضلات الاشتقاقية وكثير من العبارات الصعبة في الكتب الانجليزية القديمة ووزعته على أعضاء الجمعية وعلى المراسلين العاملين في المعجم ، وطالبت منهم تأويلها . ولقد قام « كولردج » باستخلاص ما له قيمة علمية من الردود التي تلقتها لجنة المعجم والتي رؤي انه من المفيد أن تطبع وتنشر ، وتقدّم بهذه الخلاصة الى الجمعية اللغوية في بحث عنوانه :

« محاولات لتبيان أصول بعض الكلمات الصعبة والعبارات الغامضة عند كتّاب الانجليز .
وفي العاشر من شهر نوفمبر من تلك السنة نفسها قدم « كولردج » ، وكان قد عيّن محرراً للمعجم ، تقريراً عن « معجم الجمعية » المراد تأليفه فكان من نتائجه أن أصدرت الجمعية في الثامن من ديسمبر ثلاثة قرارات :

الأول — تأليف لجنة تضع قواعد يسترشد بها محرر المعجم .

الثاني — تأليف اللجنة من سبعة علماء لوضع هذه القواعد .

الثالث — الترخيص للجنة بطبع القواعد التي تضعها اللجنة وأن توزع نسخاً منها على أعضاء الجمعية . وأن تعين إحدى الليالي المخصصة لالتئام الجمعية ليناقش الأعضاء في تلك القواعد .

فأخذت اللجنة ؛ وبالحري أخذ « كولردج » بالنيابة عنها ، توًّا في تحرير تلك القواعد ثم ناقشت فيها الجمعية متوسعة في بعضها مهذبة للبعض الآخر في جلسات عقدت في شهر ديسمبر من سنة ١٨٥٩،ويناير من سنة ١٨٦٠ ، ثم أعيد النظر فيها ونوقشت مرة أخرى في شهري ابريل ومايو من سنة ١٨٦٠ ، ثم طبعت نهائيًّا بعنوان : « قواعد معجمية لغوية : أو الأسس التي ينبغي أن تراعى في تحرير المعجم الانجليزي الحديث الذي تصدره الجمعية اللغوية » — وهذا عنوانه في الانجليزية :

Canones Lexicographici, or rules to be observed in editing the new English Dictionary of the Philological Society.

• وقبل ان انتقل الى الكلام في مسائل اخرى اقرر انه ينبغي لنا الحصول على هذه القواعد المعجمية اللغوية — لعلنا نسترشد بأشياء فيها تساعدنا على وضع قواعد في تأليف معجمنا ربما غابت عنا وانتفع بها مؤلفو المعجم الانجليزي ، ويمكن الحصول عليها اذا اتصلنا بالاستاذ « جب » بجامعة اكسفورد .

***

وكان العمل كلما تقدمت به السنون ، ازداد القائمون بأمر المعجم بصيرة بحقيقته وعظمته وضخامته . فان محرره الأول « هنري كولردج » قد بدأ بتحرير جزء من حرف الألف في سنة ١٨٦١ ليكون مثالاً يحتذى في تحرير مواد المعجم . ولكن اتضح أن كل عمل من هذا القبيل ، انما يكون سابقاً لأوانه حتى يتم جمع أكثر مواد المعجم من المظان الأدبية واللغوية . وحتى بعد ذلك ، لا يمكن أن يكون تحرير المواد نهائيًّا وكاملاً ، وانما يكون تمهيداً لتحريرها بحيث يضاف الى كل مادة ما يعثر عليه في المظان من الاستعمالات في أثناء قراءة الكتب المعتمد عليها والمتخذة أصولاً لجمع مواد المعجم . ومن هذا يتضح لنا أن معجماً لغويًّا تاريخيًّا انما هو عمل موصول أوله بآخره . فقد يحتاج محرر المعجم الى إضافة

استعمال لكلمة في مؤلف ظهر في آخر عصور اللغة ، ولا يكون لهذا الاستعمال مثيل فيما تقدم من الأزمان .

وفي ١٢ من يوليو سنة ١٨٦١ ، جمع « فورنيوال Furnivall » ، المحرر الذي عمل في المعجم بعد « كولردج » ، الذي مات في تلك السنة وله من العمر احدى وثلاثون سنة ، أسماء الكتب التي قرئت حتى ذلك التاريخ ، فوقعت في قائمة عدد صفحاتها أربعة وعشرون ، ومما جاء فيها يتضح أن عدد الكتب التي قرئت من العصر الأول كان ١٤٣ كتاباً ، ومن العصر الثاني ٤٨٦ كتاباً ، ومن العصر الثالث ٨١ كتاباً .

وكان « كولردج » قبيل وفاته قد بدأ بجمع الألفاظ في قوائم سميت « أصول المقارنة » إذ بها يتضح مقدار العمل اللازم لكل حرف من حروف المعجم على حدة ، وما ينبغي أن يبذل في سبيل تحريره من كد ونصب ، حتى إذا أريد بعد ذلك توزيع الحروف المختلفة على عدد من المحررين ، أمكن توزيعها بحيث يتوازى عمل كل منهم على وجه التقريب . وكان يذكر في هذه القوائم التي سميت « أصول المقارنة » عدد الجوازات الخاصة بكل مادة بذاتها مع معرفة الشواهد المفرغة في تلك الجوازات وما هو متفق منها، وما هو مختلف.

وفي أوائل سنة ١٨٦٢ تقدم « فورنيوال » محرر المعجم بمقترحات الى الجمعية اللغوية قبلت برمتها وهذه هي :

١ — تأليف معجم صغير يكون تمهيداً للمعجم الكبير ، ويتخذ العمل فيه أصلاً جديداً من أصول الموازنة يتناول كل العصور التي سيؤرخها المعجم الأعظم .

٢ — أن يكون المعجم الصغير مختصراً للمعجم الكبير وأن يتناول النواحي النطقية والانتقادية والاشتقاقية وأصول الكلمات والبوادىء والكواسع Prefixes and Suffixes والتعريفات وما في بعض الكلمات من الجناس ، وأن يذكر مع كل مادة شاهد أو شواهد لا يتجاوز الواحد منها بضع كلمات مع ذكر التاريخ والمؤلف المأخوذ عنه الشاهد . وذلك من المادة المستجمعة حتى ذلك التاريخ . فاذا كان ما جمع لم يذكر شواهد بعض المواد استعين على ذلك ببعض المصادر الوثيقة التي تكون في متناول المحرر وأضيف اليها كل الأمثال والمعاني التي يحتاج اليها .

٣ — أن يعهد المحرر حسب اختياره بالشواهد المستجمعة عنده الى بعض المراسلين أو الى بعض المتطوعين ، وأن يختار من يثق بهم ليكونوا معاونين له في تحرير هذا المعجم المختصر.

وكانت الفكرة الأساسية في تأليف هذا المعجم المختصر ، هو التمهيد للمعجم الكبير ومرانة على العمل فيه

في سنة ١٨٧٩ تولى « جيمس موري James Murray » تحرير المعجم . وكانت الجزازات المستجمعة من المظان المقروءة قد ازدادت وضخمت وأصبح من الضروري تنظيمها بحيث يمكن الاستفادة منها استفادة عاجلة عند الحاجة ، فمضى ينظمها وكوّن لها أماكن خاصة تتسع للجزازات مبوّبة تبويباً أبجديًّا ، وأنشأ لذلك مكتباً Scriptorium جمع الى قماطر الجزازات موائد للتحرير ، وأخرى للمراجعة وعكف على تنظيم هذا العمل العظيم تنظيماً يحقق الانتفاع بالمادة المجموعة ، مع الاقتصاد في الوقت قدر المستطاع .

وحتى عند بلوغ هذه المرحلة شعر القائمون على المعجم بأنهم في حاجة الى قرّاء متطوعين فطبعت دعوة الى العالم الانجليزي في شهر ابريل سنة ١٨٧٩ بطلب المساعدة لاتمام «المعجم الانجليزي الحديث » ، وسرعان ما تقدم الى الجمعية الف قارىء جدد ، وأخذ جمع المادة اللغوية بعد ذلك يسير بخطوات سريعة محققة النتائجَ .

***

ولقد اتبع في جمع مادة هذا المعجم طريقة نظمت على أساس عملي قام بتنفيذها المتطوعون ومساعدو التحرير . وكان من البين بديًّا أن أول خطوة في سبيل تأليف معجم جديد للغة الانجليزية هي استجماع شواهد وثيقة من الأدب الانجليزي في خلال عصور اللغة المختلفة . وكان «جونسون» و «ريتشاردسون » قد انتقيا من المادة التي استجمعاها ، ومن الظاهر ان هذا الانتقاء ينبغي أن يكون له حدود عملية يسير بمقتضاها ، بصرف النظر عن سعة المادة التي ينتقى منها ، وفي هذه الحالة كان الاشراف على ما ينتقى من الشواهد أمراً غير يسير . وكان الضمان الوحيد لعلاج هذه الصعوبة هي أن يكون من عناية بعض القرّاء وقوة تمييزهم وسمو ذوقهم الأدبي ، ما يمكن أن يسد نقائص الآخرين .

ومن الارشادات التي نشرت في سنة ١٨٥٨ وسنة ١٨٧٩ أمكن الوصول الى اتساق في الأسلوب الذي يتبع في عرض الشواهد . فكل شاهد يكتب في جزازة هي عبارة عن ربع فرخ من الورق (ما عدا القرّاء الذين كانوا يستعملون ورقاً من عندهم ، فهؤلاء كانوا يكتبون على جزازات حيثما اتفق نوعها وسعتها) ، ولا تكون الجزازة كاملة إلاّ باستكمال ثلاثة وجوه . (الأول) الكلمة المنتقاة وتكتب في الركن الأيسر العلوي من الجزازة (الثاني) التاريخ والمؤلف والعنوان والصحيفة وغير ذلك من البيانات الخاصة بالكتاب المأخوذ منه (الثالث) الشاهد نفسه ، إما كاملاً وإما مختصراً : بطريقة لا تعيبه . فكانت الجزازة الكاملة مثلها كالآتي :

Britisher

1883, Freeman Impressions U. S. iv. 29. I always told my American friends that I had rather be called Britisher than an Englishman, if by calling me an Englishman they want to imply that they are not Englishmen themselves

ومن أجل أن يسهل على القارىء تحرير الجزازة من غير أن يضطر الى تكرار البيانات المذكورة في الوجه الثاني ، أي التاريخ والمؤلف والعنوان والصحيفة الخ ، طبعت هذه الأشياء على الجزازات ، وما على القارىء إلاّ أن يملأ فراغها مع نقل بعض الشواهد فقط ، ومع ملاحظة تقدير العدد اللازم من الجزازات لكل كتاب على ضوء حاجة العمل في كتب تماثله . كما انه استعيض عن الطبع بطوابع توضع على كل جزازة وعليها البيانات اللازمة .

والطريقة التي أراها ناجحة فى تذليل هذه الصعوبة هي ان نعمد الى الارقام فهي اسهل واسرع ، فيطبع على الجزازة الكلمات الآتية وتملأ بأرقام كالآتي :

الكلمة	الكتاب	الفصل	التاريخ	الصحيفة	السطر	الطبعة(١)
اخذ	٣١٥	٢	س ٣٢٠ ق ٢	٢٢٠	١٢	مصر – ١٩٤٠

والارقام المعينة للمراجع تفرغ فى قوائم يرجع اليها عند تحرير المادة

وقد طلب في الارشادات التي وزعت على القارئين مراعاة الأسس الآتية : (وكان ذلك فيما نشر سنة ١٨٧٩)

١ — ذكر شاهد لكلمة ترى أنها نادرة الاستعمال أو مهجورة أو قديمة المعنى أو خاصة أو استعملت بمعنى خاص .

٢ — يلتفت التفاتاً خاصًّا للعبارات التي تظهر أو تتضمن الدلالة على أن اللفظ جديد ومستعمل، أو أنه في حاجة الى بيان أنه مهجور أو عهيد ، وبذلك يمكن تعيين تاريخ استعماله أو اغفاله .

٣ — ذكر عدد الشواهد بقدر المستطاع للكلمات العادية . وبخاصة عندما تستعمل لدلالة خاصة ، والرجوع الى القرينة لتوضيح معناها أو ذكر ما يساعد على ذلك من الفروض

ومن الظاهر أن هذه القواعد تختلف درجات السهولة في تطبيقها باختلاف الكتب ، وأن مهمة بعض القراء قد يتفق أن تكون أكثر صعوبة وأوسع مدى من مهمة البعض

(١) س = سنة ، ق = قرن

الآخر ، حتى إذا تناول كل منهم كتباً تتساوى من حيث الضخامة ، وكذلك كمية العمل والانتاج ، فانها تختلف اختلافاً كبيراً . وفي كلا العهدين اللذين مرّ بهما تأليف المعجم ، كان من بين القراء من هم المثلُ الأعلى في الانتاج ، وقد تركوا في كل صفحة من صفحات المعجم أثراً يمكن أن يلمسه كل من له خبرة خاصة بذلك . فهؤلاء من ناحية ، مع جيش عظيم من القراء الذين هم أقل منهم انتاجاً واتقاناً في العمل من ناحية أخرى ، استطاعوا أن يضخموا كمية الجزازات حتى ضاقت بها الأماكن التي خصصت لها في المكتب العظيم الذي أسسه الأستاذ « موري » . ومما يدلك على مقدار السرعة التي ازداد بها عدد الجزازات في العصر الذي بلغ فيه انتاجها أعظم مبالغة ، عبارات نشرت ضمن تقرير تناول سير العمل جاء فيه :

في شهر مايو من سنة ١٨٧٩ ، تقدم الى الجمعية ، تلبية للنداء التي نشرته في أواخر ابريل من السنة نفسها ١٦٥ قارئاً ، منهم ١٢٨ اختاروا الكتب التي يقرءونها بأنفسهم ، فزوّدوا بالجزازات ، وهم عاكفون الآن على العمل أما عددَ الكتب التي وزعت فبلغ ٢٣٤ كتاباً.

وبعد مضي سنة على نشر هذا التقرير (١٨٨٠) ، بلغ عدد القراء ٧٥٤ عكفوا على قراءة ١٥٦٨ كتاب ، انتهى العمل في ٩٢٤ منها ، كما بلغ عدد الجزازات المطبوعة التي وزعت عليهم ٦٢٥ر٠٣٥ ، انتفع منها بما لا يقل عن ٣٦١ر٦٧٠ شاهد لغوي تاريخي. ومن هؤلاء القراء امتاز عدد بضخامة الانتاج فتراوح ما أرسل منهم بين ٤٥٠٠و١١ر٠٠٠ جزازة . وبمضي سنة أخرى ، أي في سنة ١٨٨١ بلغ عدد القراء ٨٠٠ منهم ٥١٠ لا يزالون يعملون في جمع الشواهد ، وبلغ عدد الجزازات في تلك السنة ٨١٧ر٦٢٥ والشواهد المنتفع بها ٦٥٦ر٩٠٠ . وبلغ عدد المؤلفين الذين جمعت مؤلفاتهم ليرجع اليها ٢٧٠٠ ، وبلغ عدد عناوين الكتب ٤٥٠٠ .

أما تفاصيل هذا النشاط العظيم فقد أشير اليها في مقدمة الجزء الأول من المعجم ، كما أن قائمة كاملة تضمنت أسماء القراء ، والكتب التي قرءوها في المدة الواقعة بين سنة ١٨٧٩ و١٨٨٤ مع ذكر عدد الشواهد التي استخلصها كل منهم ، قد ألحقت بخطاب الرئاسة الذي سمعته الجمعية اللغوية في سنة ١٨٨٤ . فاذا نظرت في هذه القائمة اتضح أن الاهتمام بشأن هذا المعجم في الولايات المتحدة قد ازداد بمر الزمن واحتفظ بطابعه . حتى لقد أشار مستر « موري » في خطاب الرياسة سنة ١٨٨٠ الى ما كان من غيرة أهل الولايات المتحدة على العمل والنتائج التي أخرجوها فقال :

« أما من حيث قراءة المراجع ، فاني لا استطيع أن أقوم بواجب التقدير لما أبدى أصدقاؤنا في الولايات المتحدة من غيرة وعطف ، فان غيرتهم الصادرة عن حب صحيح للغتنا المشتركة وتاريخها ، والرغبة الكبيرة في اخراج معجم جدير بهذه اللغة ، جُمّاع ذلك قد ترك في نفسي أثراً عميقاً لا يزول . واني لا أتردد في القول بأني قد آنست في الأمريكيين حبّاً مثاليًا للغة الانجليزية باعتبارها ميراثاً عظيماً ورثناه عن أوائلنا ، وفخاراً بأن لهم صلة بذكرياتها المجيدة ، أشبه بذلك الفخار الذي يتيه به بحاثةٌ فذٌّ من اتصاله بآداب الاغريق الأقدمين . آنست ذلك فيهم بقدر ما آنست من ندرة تلك المشاعر بين الانجليز نحو لغتهم . ومن هنا استنتج معتمداً على قرائن عديدة ، أن الأمريكيين سيكون لهم القيادة العليا في البحوث الانجليزية بعد مضي زمن ليس ببعيد » .

ولا يقل عمل الذين تطوعوا في مساعدة التحرير شأناً عن عمل القراء . ولو لم يقم هؤلاء بعمل سوى تصنيف ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جزازة من جزازات المعجم ، لكان في هذا العمل وحده من اقتصاد في الوقت والمال ، ما لا تقدر له قيمة حقيقية . ولكن الواقع يشهد بأنهم اشتركوا اشتراكاً فعليًا في تنسيق تحرير المعجم تنسيقاً ظهرت آثاره السريعة في انجاز الجزء الأعظم من صفحاته .

***

. واستمر العمل في المعجم بنشاط كبير حتى أن « هنري كولردج » قد تصوّر أنه من الممكن أن يخرج الجزء الأول من المعجم بعد سنتين من بدء العمل فيه أي حوالي أوائل سنة ١٨٦٢ ، وقال إنه لو لا تواني بعض القراء لاستطاع أن يعين لاخراج الجزء الأول ميعاداً أقرب من هذا . ولكن الواقع أن بدء تكوين المواد الأولى من حرف الألف لم يبدأ إلاّ في سنة ١٨٨٢ ، وأخذ العمل في المعجم يتم على النمط الآتي :

AB	1882	88
C	1888	93
D	1893	97
E	1888	93
F	1893	97
G	1897	1900
H	1897	99

والسبب في تداخل السنين في تحرير هذه الحروف أنه كان قد عهد الى لجان مختلفة بتحرير مواد حروف بعينها.

ومن أهم ما يلاحظ في تأليف المعجم قول كاتب المقدمة أن العمل الذي قام به المساعدون الرسميون كان له الأثر الرئيس في جميع الأدوار التي قطعها القائمون بأمر المعجم بعد تنظيم العمل بالاعتماد عليهم فكان من نتيجة ذلك توالي الخطوات على النسبة الآتية

IJK — 1899 — 1901	L — 1901 — 03	O — 1902
O — 1902 — 1904	M — 1904 — 08	R—Re — 1903 — 07
P — 1904 — 09	S—SH — 1908 — 14	N — 1906 — 07
T — 1909 — 15	St — 1914 — 19	Re—Ry — 1907 — 10
Wh-Wo— 1922 — 27	W—We — 1920 — 23	Si—Sq — 1910 — 20
	Su—Sz — 1914 — 19	V — 1916 — 20
	XYZ — 1920 — 21	U — 1921 — 26
		Wo-Wy — 1927

وظهر المعجم مطبوعاً أول مرة في سنة ١٩٢٨ .

***

ايضاحات عامة

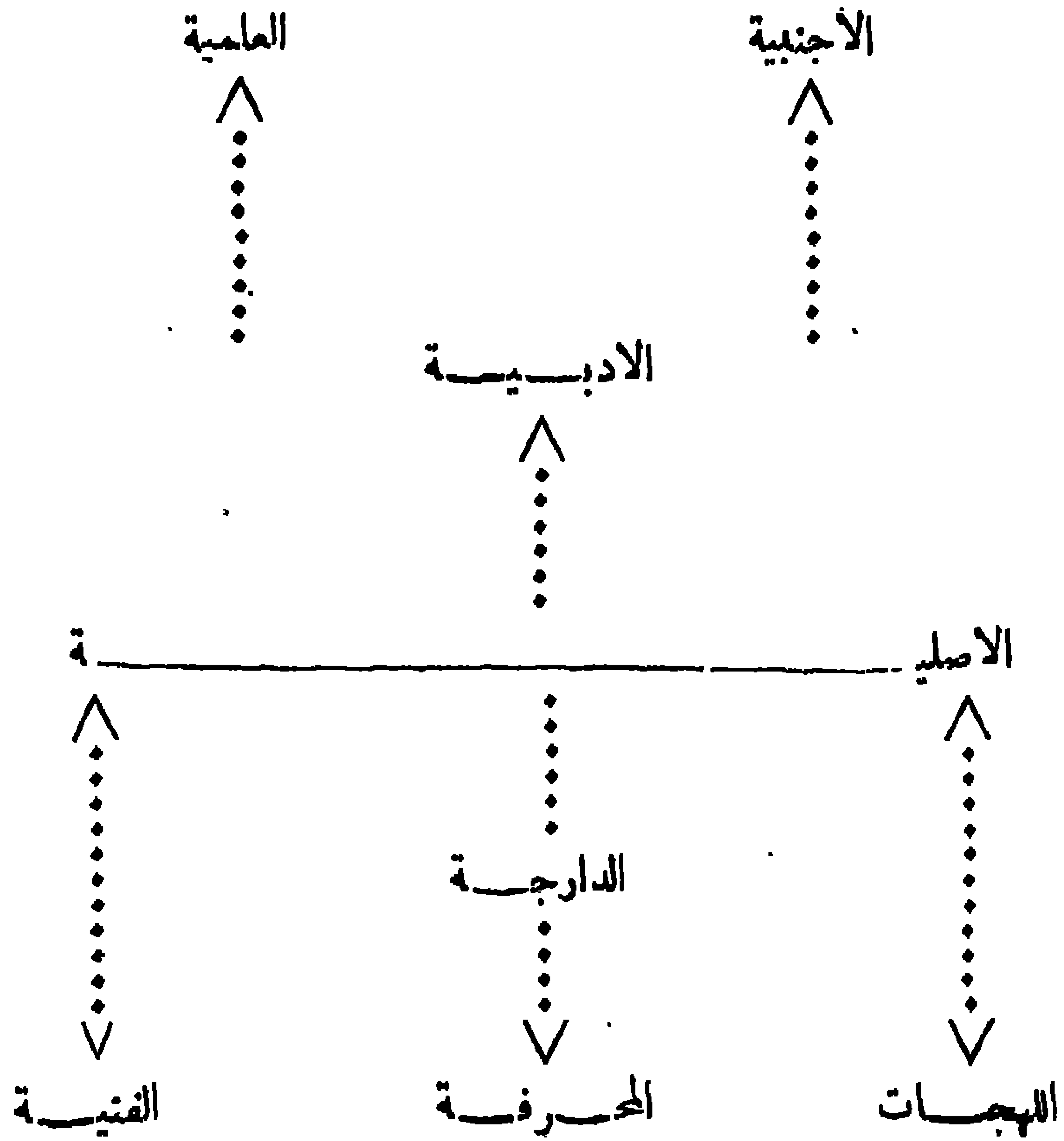
من الايضاحات العامة التي ذكرت في مقدمة معجم اكسفورد الحديث ما يمكن الانتفاع به ، لانه يتناول جهات عامة يستطاع تطبيقها على كل الحالات ومنها ما لا يمكن الانتفاع به لانه يتعلق بخصائص اللغة الانجليزية التي لايشاركها فيها لغة أخرى . لهذا نلخص هنا ما نتوقع ان ننتفع به من الآراء التي اتخذت دعامة لتأليف هذا المعجم اللغوي التاريخي الذي يعتبر الآن الديوان الكامل للغة الانجليزية

ان مفردات لغة حية عظيمة الانتشار سامية الآداب فائقة الثقافة، لا يمكن أن تصبح كمية ثابتة تحوطها حدود معينة . فان تلك المجموعة الهائلة من الالفاظ والعبارات التي منها يتكوّن مفردات اللغة التي يتكلمها الانجليز ، انما تمثل لعقل أولئك الذين يريدون النظر فيها باعتبارها كلاً محدود النواحي معين الاطراف، منظر واحدة من تلك الكتل السديمية المعروفة عند الفلكيين، والتي يكون فيها نواة نيّرة تستبان بدقة، مرسلة ضوءها إلى جميع ما يحوطها فيخترق مناطق يقل فيها الضوء، الى أخرى تلوح كأنها بريقٌ كميد لا تكتنه له منتهى ولا غاية ، ثم تمتد كمدته متدرجة شيئاً بعد شيء حتى تغيب في الظلمات الحافة به ، من غير أن يدرك كيف غابت وكيف ابتلعتها تلك الظلمات . فاللغة في تكوينها وحقيقتها يمكن أن

توازن بواحدة من تلك العشائر الطبيعية التي يصنفها الحيوانيون والنباتيون والتي تتخذ فيها أنواع مثالية لتكون بمثابة النواة الجوهرية لقبيلة من قبائل الحيوان أو النبات ، في حين تتصل هذه الانواع بأنواع أخرى ، تكون فيها تلك الصفات المثاليـة أقل ظهوراً ثم أقل ظهوراً ، حتى تختفي في النهاية عند حافة نلتقي عندها بصور انحرفت صفاتها عن الصفات المثالية ، ونزعت الى الاندماج لاشعوريًا في قبائل مختلفة تحف بها في النظام الطبيعي ، أي الى حيث يكون تحديد مركزها الحقيقي غامض ومشكوك فيه . ومن أجل أن يسهل الباحث الطبيعي مهمته في التصنيف ، يبـدأ بوضع خط يحدد عنـده تخوم شعب أو قبيلة من الاحياء ، بحيث يكون هذا الخط في خارج نطاق صورة معينة (حيواناً أو نباتاً) أو في داخل نطاقها ، ذلك في حين أن الطبيعة لم ترسم مثل هـذا الخط في ناحية من نواحيها ولم تقم ندًا له في تضاعيفها كذلك مفردات اللغة الانجليزية ، فان لها نواة أو بالأحرى كتلة مركزية مكونة من آلاف من الالفاظ لم يطعن في انجليزيتها ، ومن هـذه الالفاظ جزء أدبي صرف ، وجزء آخر علمي صرف ، فأغلبية هذه الالفاظ أدبية علمية ، وهذه هي التي تدعى ألفاظ اللغة الاصلية ، غير أن هـذه الالفاظ موصولة من جميع نواحيها بألفاظ أخرى تمضي أحقيتها في أن تسمى هـذه التسمية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، في حين أن تضاؤل أحقيتها في أن تكون من « الالفاظ الاصلية » يحرفها نحو مجال آخر : أي نحو اللهجات المحلية، أو التحريف أو الكلام الاصطلاحي الذي يكون لبعض الطوائف والطبقات، أو العبارات التجارية أو ما تواضع عليه بعض الشعب الاجتماعية ، أو المصطلحات العلمية التي يشترك في استعمالها كل الامم المتمدينة ، واللغات التي يتكلمها أهل البلاد الاجنبية أو بعض الأمم الأخرى . ولن تقع في جُمَّاع ذلك على خط تعييني في جميع هذه الاتجاهات . فدائرة اللغة الانجليزية لها مركز معروف تام المعرفة محدد تام التحديد ، ولـكن لن تقف له على محيط محدود . ذلك في حين أن الاستفادة العملية من معجم ، ينبغي أن يكون لها بعض الحدود .

وإن معجماً مّا لابدّ من أن يـكون له منتهى وغاية . وهنـا ينبغي للمعجمي أن يتشبّـه بالعالم الطبيعي ، فيرسم خطًّا أوليًّا في موضع ما لـكل اتجاه من اتجـاهات الانفراج والتباعد .

ولقد رسم مؤلف مقدمة اكسفورد شـكلاً بيانيًّا لألفاظ اللغـة الانجليزية على الصورة الآتية :



فمعجم جديد يؤلفه معجميون محدثون ، ينبغي أن يتضمن جميع الألفاظ العامة في الأدب والحديث (الكلام) ، وكذلك الألفاظ العلمية والفنيـة والمحرفة وألفاظ اللهجات والألفاظ الأجنبية المستعملة في اللغة والتي درجت بها الألسن مما قارب مرتبة « الألفاظ العامة » للغة . وبعد كل هذا ينبغي أن يعلم المعجمي أن الخط الذي رسمه لألفاظ اللغة سوف لا يرضي النقاد. ذلك بأن مجال « الألفاظ العامة » يتسع بمقتضى اطلاع كل ناقد وبحوثه وأعماله ومعاشه من حيث اقامته في الريف أو المدن أو في بلاد أجنبية ، كما يضيق هـذا المجال في النواحي التي لا صلة له عمليًّا بها . فليست انجليزية أي فرد هي الانجليزية برمتها ، ولذا ينبغي للمعجمي أن لا يقتنع إلاّ برصد الجزء الأعظم من الألفاظ التي يستعملها كل فرد بذاته ، وهـذا يفوق ، بما لا يمكن تقديره ، مجموع الألفاظ التي يستعملها فرد واحد .

بالاضافة الى الألفاظ العامة للغة ، وبالاضافة الى كل اتجاهات التوسع والتباين فيها ، نقع على عدد غير محدود من أسماء الأعلام مرتجلة ومنقولة تخرج عن دائرة الألفاظ المعجمية ، في حين أنها تمسها من آلاف النواحي التي تضفي على هذه الأسماء ، وبصورة أخص على النعوت والأفعال المستمدة منها ، قيمة معنوية تختلف بحسب الأحوال . وفي هذه الحالة ينبغي أن نرسم حدوداً قد يزيد فيها أثر الاختيار أو يقل .

كذلك نجد أن للغة ناحية أخرى لا يمكن تحديد تخومها ، ذلك إذا نظرت الى اللغة من حيث علاقتها بالزمان . فان المفردات الحية للغة من اللغات ، لا تملك من صفة الاستقرار في تكوينها ، أكثر مما تملك من صفة التقيد بحدود تنتهي عندها . فمفردات اللغة اليوم غيرها منذ قرن من الزمان ، وكذلك ستكون غيرها بعد قرن يمر من الآن . ذلك بأن عناصرها المكونة لا تفتأ في انحلال وتجدد مستمرين ولكنهما بطيئي الأثر . فالألفاظ القديمة يتولاها الاغفال فتصبح مهجورة أو ميتة . ذلك في حين أن الألفاظ الجديدة دائمة التغلغل في تضاعيف اللغة . وموت كلمة من الكلمات ليس من الأشياء التي يمكن تحديد زمانها تحديداً تاماً . ذلك بأن موت اللفظ عبارة عن عملية اختفاء ، تستمر زمناً متطاولاً ، لا يستطيع المعاصرون أن يدركوا نهايته . فكلمة تستعمل في هذا العصر ، لا يمكن أن تهجر ، وانما تموت بعض الكلمات بموت أجدادنا الذين كانوا يستعملونها . وحتى بعد أن نكف عن استعمال كلمة ، فان ذكراها تظل حية قائمة ، وتبقى معتبرة حية على اعتبار امكان الرجوع الى استعمالها . فاذا مات آخر من يحتمل أن يستعملها ، ماتت الكلمة . ومن هنا نجد أن هنالك عدداً كبيراً من الألفاظ نشك في أنها وحدة من الوحدات الحية في اللغة ، ذلك بأنها حية عند البعض ، ميتة عند آخرين، ونرى من جهة أخرى أن ألفاظاً يمكن أن يكون لها حق الدخول في مجموعة المفردات المعترف بها في اللغة وهي ألفاظ يمكن أن يعود بعضها الى التقبل والاستعمال، بل هي من الألفاظ الكثيرة الدوران على ألسنة بعض المتكلمين وأقلام بعض الكاتبين، وهي ليست من الانجليزية الجيدة عند البعض، أو هي ليست انجليزية بحال ، عند البعض الآخر . اذا اتبعنا طريقة تقسيم الألفاظ قسمين : مستعمل ومهجور ، وجعلنا الفكرة في اللغة مقصورة على الألفاظ التي هي انجليزية صرفة منذ البداية أو من عصر ما من العصور ، فاننا بذلك ندخل ناحية من موضوع بحثنا يكون استعراضنا فيها لطبيعة اللغة ناقصاً غير تام . ذلك بأننا نعرف مفردات العصور السالفة عن طريق المدونات التي تركها السلف ، ومقدار علمنا بها يتوقف على كمية ما يصل الينا من هذه المدونات والمامنا بمحتوياتها . وكلما كان رجوعنا الى الماضي أبعد وأقصى ، نقصت هذه المدونات ، وقل محصول المفردات التي يمكن أن نقع عليها.
(يلاحظ هنا ان الحال في اللغة العربية الآن ربما كان على عكس ذلك تماماً)

وهذا المعجم ، مع خضوعه لكل الحالات التي يمكن أن تعتور تأليف معجم كامل للغة الانجليزية ، سيتضمن تاريخ كل الكلمات المستعملة الآن ودلالتها ، والكلمات التي يمكن أن يعرف أنها كانت مستعملة منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي . وكان تعيين هذا العصر راجعاً الى الرغبة في اهمال جميع الألفاظ التي استعملت في الانجليزية القديمة أو الانجلوسكسونية .

أنطون تشيكوف

القصصي الروسي

ولد انطون تشيكوف وهو من أعظم القصاص الروس عام ١٨٦٠ في مدينة تاجانروج Taganrog بجنوبي روسيا وبرغم انه نشأ في بيت لا يمت بصلة الى الطبقة العليا او المتوسطة اذ كان والده عبداً محرراً ووالدته ابنة تاجر ، فانه لم يتخلف في مضمار التعليم والتهذيب

ولم يكن أنطون تشيكوف سعيداً في حداثته ، اذ تضافر الضنك والقسوة الابوية عليه وقد صرَّح مرة بأنه لم يكن حدثاً في يوم ما، لأن حداثته كانت معذبة . التحق بكلتا المدرستين اليونانية والعالية في تاجانروج ، وتخرَّج عام ١٨٧٩ في جامعة موسكو طالب طب . وفي هذه السنة نفسها ، ابتدأ تشيكوف يمد الصحف والمجلات الاسبوعية ومنها الفكاهية، بقصصه ونوادره . ونال عام ١٨٨٤ درجته الطبية ثم اشتغل حولاً من الزمان بالتطبيب فكان موفقاً، واستمرَّ يتابع دراسة الطب حتى بعد ان اتخذ لنفسه مهنة الكتابة حرفة ، وأدى خدمة طبية جليلة حينما انتشر وباء الكوليرا عام ١٨٩٢ ، لم يرج منها جزاءً ولا شكوراً

***

إن أعمال تشيكوف الخيرية الكثيرة التي أداها للمتألمين والمتضايقين لتفصح عن رقة قلبه وعظم اهتمامه بهم فقد أسس مدارس ريفية ، وصادق المعلمين التعساء، ووفر القوت لصرعى الجوع والقحط . وفي عام ١٨٩٠ ، زار مستعمرة العقوبات بجزيرة سخالين Sakhalin لكي يدرس نظام اشتغال السجناء بفلاحة الارض ، تمهيداً لوضع كتاب في هذا الموضوع . ولما واتته الشهرة والثروة ، قضى أوقات فراغه في الفلاحة ، وفتح باب منزله على مصراعيه لاستقبال الناس على اختلاف حالاتهم، يلجأون اليه طالبين إرشاداً روحياً، وتحرراً من أمراضهم الجسدية . وبرغم انه أصيب قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً بالتدرن الرئوي ، فانه لم يدع حالته الصحية تمنعه من الكتابة او تؤخره عنها . واجابةً لرغبة طبيب، ترك تشيكوف سكنه في الشمال عام ١٨٩٨ ، ونزح الى القرم الدافئة ، وهناك بنى لنفسه منزلاً في يالتا Yalta وفيه بدأ كتابة مسرحيته الخالدة «حقل الكرز» The Cherry Orchard التي مثلت في اليوم

السابع عشر من يناير من العام التالي على مسرح موسكو الفني بحضور تشيكوف نفسه إذ أصر على مشاهدة العرض الاول رغم سوء حالته الصحية . وفي يونيو ١٩٠٤ صحب معه اولجانيبر Olga Knipper ممثلة موسكو التي تزوجها قبل ثلاثة أعوام. صحبها إلى الغابة السوداء أملاً في التخلص من دائه ، ولكن حالته ازدادت سوءاً فمات في يوليو التالي في قرية بادنويلر الصغيرة Badenweiler

وكان تشيكوف كثيره من الروسيين مكبًّا على دراسة نفسه وفحصها والتمعن فيها حتى ان كتاباته اصبحت تترجم عن حياته دون مراء وتظهر شخصيته وأخلاقه دون تزويق او طلاء. والصورة التي نستطيع استخلاصها من قصصه ومسرحياته ورسائله هي صورة شخص دعامته الحب ، له سمات القديسين ، لطيف ، رؤوف ، حساس . شجاع . حر الفكر ، على استعداد لأن يقف موارده المالية ومعارفه الطبية دائماً على المحتاجين من جميع طبقات بني وطنه . وقد نجح تشيكوف باعتباره فرديًّا متطرفاً Strong Individualist في سلوك حياته على حسب رغبته ووفق منهله او كما وصفه القصصي الروسي ماكسيم جوركي : «في كل حياته عاش تشيكوف على نفسه، فقد كان دائماً كما هو، محرراً في دخيلته لا يعبأ بما يرجوه منه الآخرون»

وكان تشيكوف أديباً منصفاً دقيقاً ، وكانت له قدرة عظيمة على العمل ، فبرهن برغم علله الجسدية على أنه كاتب خصب مثمر . وقد خلف ، الى جانب مسرحياته نيفاً واربعمائة قصة قصيرة تكشف عن سعة معلوماته وتظهر كمال ملكته الادبية . وكانت كتابة الرواية novel النوع الوحيد من فنون الأدب ، الذي لم ينبغ فيه

وكثيراً ما اطلق على تشيكوف لقب « موباسان الروسي » وعلى الرغم من زعامة كل من موباسان وتشيكوف في كتابة القصة القصيرة فانهما لا يتفقان في أشياء كثيرة . فقصص موباسان الفاترة تتعارض مع حمية قصص تشيكوف وميله الى النزعة الانسانية ، كما ان إحكام بناء قصص موباسان وسبك تركيبها يختلف عن قصص تشيكوف التي تقل عنها حبكاً وسبكاً

***

وفي عام ١٨٨٤ سخر تشيكوف قلمه أولاً لكتابة الدراما . فأنهى مسرحية « على الطريق المرتفع » On The High Road التي لم تطلع على عالم الادب بجديد ، ولم تخلق ثورة في دنياه وبعد سنوات ، في عام ١٨٩٦ قدم مسرحية The Sea-Gull وهي تفوق سابقتها بمراحل ، ومثلت في سنت بطرسبورج على عادة القوم في التمثيل ، ولكنها لم تنجح ، فغادر تشيكوف المسرح ، وكان يشهد تمثيلها ، معتقداً انه ليس بالكاتب المسرحي ، وصمم على هجر هذا الفن إلى الأبد . ولم يتزعزع عن عقيدته هذه ويرجع إلى صوابه إلا بعد أن أعيد

تمثيل The Sea-Gull في مسرح موسكو الفني عام ١٨٩٨ تحت إشراف المخرج العظيم ستانيسلافسكي Stanislavsky فسما بتمثيلها الى الذروة وأعاد الى تشيكوف ثقته بقواه ،وحرّك فيه حماسته المسرحية السابقة التي كادت تخمد، ونفض الرماد فبدا الجمر المستعر، وتبدت الحمية الملتهبة وثارت القوة الدفينة ، فاستطاع في سبع سنوات ان ينصرف الى كتابة مسرحياته الخالدة التي نال بها الشهرة الطائرة والصيت الذائع .

وكان من حسن التوفيق أن تعاقد تشيكوف ومسرح موسكو الفني ، فأصبح عميده المبدع في الانتاج الذهني والكتابة المسرحية ، واجتمع للمسرح الى جودة التأليف ، جماعة من خيرة الممثلين ، استطاعوا بفضل مقدرتهم وحسن قيادتهم أن يخلقوا الجو الملائم، ويعبروا التعبير الصادق عما يتطلبه دور كل منهم ، وان يلمسوا كل غموض في مسرحيات تشيكوف ويجعلوها ذات مغزًى ومعنىً ومذاق .

ويحق لتشيكوف أن يدرج اسمه في عداد الطبيعيين ، الاّ أن طبيعيته تغلب عليها النزعة الفردية ، وهو قليل الاهتمام بالقشور من التعاليم ، شديد العناية بالحقائق السامية الخفية التي كان كثيراً ما يسوقها في أسلوب رمزي دقيق .

وأدبه كله احساس ،غني في روحانيته ، ماكر في سياقه ، عرضي في عرضه ، حتى انه يبدو في كثير من الأحيان بلا غرض أو مرمى . ولكن خاتمة مسرحياته تحمل على الاعتقاد بأن هذه العرضية أوالاتفاقية ظاهرية أكثر منها حقيقية، وان مسرحياته الجميلة تسير من بدايتها الى نهايتها وفق خطة ماهرة .

***

أما أشخاص مسرحيات تشيكوف ، فهم يبعثون وكلهم حياة ويقدمون أنفسهم الى النظارة أو القراء بما يقولون أكثر مما يفعلون . وأما الحوار المرن الطبيعي فهو محشو بعبارات التردد وألفاظ الشك ، كثير التقطع والتكسر. ولم يهب تشيكوف الحياة لأشخاص مسرحياته وحسب ، بل تعداها الى بعثها في الاجسام المادية التي تدخل في المسرحيات ،كالصقيع ، وقوى الطبيعة ، وحتى أثاث المنزل ورياشه ، واستطاع كذلك أن يجعل جميع الأشياء الظاهرة والخفية ، حنطة لطاحونته النفسية ، وعجينة في يديه يشكلها كيف شاء .

وبرغم أن تشيكوف لم يكن من عمد مدرسة « المسرحية المحبوكة » (١) يصعب علينا

---

(١) مدرسة المسرحية المحبوكة well-made play مدرسة فرنسية يتزعمها Dumas fils, Scribe، Sardou, Augier

انكار أن دراسته للمأساة الفرنسية أثرت تأثيراً ناجعاً في كتاباته المسرحية ، وأنقذته من بعض القصور المعيب الذي يميل اليه الأدب الروسي . كما انه تعمد اهمال كثير من التدابير المرعية ، مثل المناظر الهندسية البارعة ، والخاتمات المختلقة ، والستائر المسدلة وابتدع نظاماً فريداً لمستطاع أن يجعله آلة يسخرها لتصوير مختلف المشاعر ، وتبيان شتى السجايا والنزعات ، وذلك ما أعاره تشيكوف جل عنايته واهتمامه .

***

وتغلب على كتابات تشيكوف نغمة كئيبة حزينة ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل البعض على الظن بأنه كان ينظر في الحياة نظرة تشاؤم وانقباض . ولكننا اذا علمنا ان هذا الأسلوب الكئيب Welschmertz ممثل صادق لما اتصف به الروس ، وكذلك لو أدركنا أن تشيكوف كان يعيش في عصر ركود قومي مثبط للهمم ، لأدركنا السر في هذه النغمة الحزينة التي تسم كتاباته . وكان طبيعياً جداً أن كاتباً حاد البصيرة حي الروح مثله ، يقدم صورة شوهاء لزمن مشوه ، وقد صرح هو بنفسه أنه رأى من واجبه الأدبي أن يقدم حقائق الحياة الأساسية ، مهما كانت خستها ، دون خوف أو محاباة أو تشويه ، فقال : « ليس الكاتب حلوانياً[1] ، أو مجملاً ، أو مرفهاً أو نديماً مسلياً . انه رجل مرتبط بعقد مع ضميره وشعوره الذاتي بواجبه ، ومتى وضع يده على المحراث وجب ألا يلتفت الى الخلف . وعليه ، مهما جابهه من مشاق ، أن يتغلب على الغثيان ، وأن لا يلوث مخيلته بدنس الحياة . واجب الأديب أن يقول الصدق عن شخصياته وألا يحاول السمو بأخلاقهم ، يجب ألا يكون لهم ديّاناً ، أو قاضياً عليهم» . ويجمل الاعتراف بأن تشيكوف كان عملياً ، وأنه كان مخلصاً لهذا المبدأ وفياً له .

***

ويعرض تشيكوف في معظم مسرحياته ، بؤس الأشراف الذين غدر بهم الزمان وتدهورت حالتهم ، وهي الطبقات التي تدرك عجزها ووهنها ، والتي أصبحت الحياة لا تحمل لها أي معنى أو مغزى . ولا يسع الانسان إلا أن يعجب كيف يتشبث هؤلاء القوم المحطمو القلوب ، الضعفاء الارادة ، بالحياة ! فبرغم إدراكهم أن الفرص تولي الأدبار عنهم ، فانهم ما فتئوا يترددون ويماطلون ويسوفون ، معللين نكبتهم « بالقضاء والقدر » وهو الاعتقاد

(١) الحلواني صانع الحلوى وبائعها .

الذي به يبرر الخامل خموله . والقوة الوحيدة التي يملكونها ، تظهر في مقدرتهم الفائقة على احتمال الألم والصبر عليه ، وقد أجاد الناقد الروسي تومكيف Tomkeyeff تشخيص الأمراض التي يعانيها هؤلاء القوم حينما قال : « تعاني جميع الشخصيات التي ابتدعها تشيكوف شلل الارادة ، والفساد في الطبيعة وعدم ضبط النفس ، وهم على استعداد للانتحار ، أو لطلب العزاء والسلوى في كؤوس الراح في كل مرة تسلب الحياة منهم شيئاً معيناً . وهم لا يطمحون الى مثل عليا عملية ، ولا يستطيعون تأدية عمل . أما العمل الوحيد الذي يملكون انجازه ، فهو نسيج هشّ من الأحلام » .

***

وجميلٌ بنا أن نسجل هنا أن كآبة مسرحيات تشيكوف يتخللها بصيص من المرح ، وأن بعض الفقرات المبعثرة في مسرحياته ، تحمل على الاعتقاد بأن تشيكوف كان متفائلاً أصلاً ، وانه يؤمن ايماناً غير محدود بالتقدم البشريّ ، وأنه يؤمل تحقيق سعادة العالم في المستقبل .

ويشترك تشيكوف مع كارليل في صفة واحدة على الأقل ، وهي أنه علق شأناً كبيراً على « العمل » ، وعدّه الترياق لكل داء عضال فتاك ببني وطنه . وقد تبدّى هذا الزعم على لسان بعض أشخاص رواياته ، فهم يمجّدون العمل ، ويرون فيه أعظم ضمان وأوكده لتحقيق سعادة الأجيال القادمة . وقد قال بهذه النظرية طوسنباخ Tusebach في رواية تشيكوف المسماة « الشقيقات الثلاث » The Three Sisters إذ قال متنبئاً : « الوقت قريب ، والسيل ينهمر صوبنا والعاصفة الهوجاء ستبلغنا ، وهي قريبة منا ، وسوف تزيل من المجتمع التراخي وعدم المبالاة ، وبغض العمل ، والكلل والملل . سأعمل ! وبعد خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين ، سيحمل الجميع على العمل » . وقد تحقق هذا الرأي برمته في القرن العشرين وفي نظام روسيا السوفيتية .

وظاهرٌ أن غرض تشيكوف من كتاباته هو أن يبين أن الشقاء ليس إلاّ فترة انتقال يجب احتمالها بالصبر للتكفير عن الأخطاء الماضية ، والاستعداد للأيام السعيدة المقبلة [1] .

وديع فلسطين

---

(١) عولنا في كتابة هذا المقال على كتاب Representative Modern Dramas, by C. H. Whitman

سيكولوجية أدلر

تلخيص وتبسيط

نظرة عامة

يرى « الفرد أدلر » أن اتصال الانسان — ذكراً كان أم أنثى — بالحياة والناس يقوم على دعائم ثلاث : العمل ، والحب ، والعلاقة الاجتماعية . ان هذه عنده هي وظائف الفرد في الحياة . فاذا كان الفرد مطمئنـًا فيها جميعاً كان انساناً سويـًا هانئاً ، والاّ فانه لا ينجو حين تنتقصه الحياة إحدى هذه الصفات الثلاث، من أن يكون هدفاً لانحراف عصبي .

ولأدلر نظرية قائمة بذاتها في علم النفس مركزها فكرة (النقص) . ويظهر من تجارب الناس في الحياة ان فلسفة أدلر النفسية فيها شيء من الحق ، ان لم يكن فيها الحق كله ، بالرغم من النزاع العنيف القائم بين اتباعه وأتباع فرويد .

ونظرية أدلر الأساسية في علم النفس بسيطة . وقد وضعها هو في عبارات وشروح سهلة تجعل كثيرين ينظرون اليها مرتابين أول الأمر ، خشية أن تكون هذه الفكرة قولاً عادياً لا طائل وراءه . والذي قرّب نظرية « أدلر » من الأذهان أمران : أولهما نزعته العنيفة الى التبسيط ، وثانيهما طواعية أمثلة كثيرة من الحياة لتكون شواهد عليها ، وشعور كل انسان بشيء منها في نفسه . والنظرية تؤول بعد الى دعوة اصلاحية عامة ذات مساس شديد بمصالح الناس وهنائهم . ولا عجب في ذلك ، فأدلر يعتقد مع وليم جيمس « ان العلم الحقيقي ليس إلاّ العلم الذي يتصل بالحياة اتصالاً مباشراً » .

وفلسفة « أدلر » في علم النفس تدعى (السيكولوجية الفردية) . وهو يذكر ان هذه السيكولوجية انما تنجت معه من دراسته لدوافع الحياة الخلاّقة ، أي الدوافع الخفية التي تحدو بالأحياء الى الرقي والتطور ، بالرغم من أي عائق يعوقها . ولذلك يرى أن الكائن البشري وحدة تستهدف غرضاً معيناً في اندفاعها نحو الرقي والتكامل . ان للنفس البشرية طابعاً خاصـًا يتكوّن في الصغر . والنفس تحب أن تتكامل فتسد ما بها من نقص ، وان تندفع الى الأمام نحو هدف ثابت الرقي . ولاحظ « أدلر » ان الجسم البشري تتساند جميع أعضائه

لتحفظ الجسم وتسعده . بل هو يلاحظ أن أجزاء الجسم تحاول أن تسد أي نقص يطرأ عليه . فالجسم يجرح مثلاً ، فتعمل سائر أعضائه على تغذية المكان المجروح ووقايته حتى يلتئم ويذهب الألم والتشويه الناتجين من ذلك . « الحياة تحاول دائماً أن تستمر ، وقوى الحياة لا تخضع قط لأي عائق من الخارج يحول دون استمرارها ، من غير أن تجهد نفسها في التغلب عليه . وان حركة النفس لشبيهة بحركة الحياة العضوية » .

وهذا معناه أن النفس البشرية كذلك تتعاون أجزاؤها في سبيل إسعاد النفس ذاتها ، ودفعها الى الأمام في طريق السمو . فالنفس البشرية لها هدف أو مثل أعلى . وهي تحاول أن تتخطى الحالة التي تكون عليها . فاذا كانت منقوصة ، حاولت أجزاؤها الأخرى أن تسد هذا النقص . أما هذا الهدف الذي ترسمه النفس لذاتها فانه يتكوّن في أول عهد الطفولة الباكر . في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الطفل . ويتركز الهدف الذي تستهدفه النفس حول نقص تحس به من جراء عضو مفقود أو مشوّه . فالطفل بنقصه هذا وهدفه الذي تستهدفه نفسه من جراء هذا النقص ، يكون وحدة كاملة يسميها أدلر «النموذج الأول»(١) Proto-type . وهذا النموذج الأول للطفل يظل هو هو في أساسه لا يتغير مدى حياته . وانما يمكن تعديله وتوجيهه وجهات حسنة . وهذه هي فائدة السيكولوجية الفردية . وخير وقت لهذا التعديل والتوجيه ، هو فترة العمر الباكرة التي يتكوّن في أثنائها النموذج الأول.

وليس من الضروري أن يتشكل الشعور بالنقص من جراء فقدان عضو أو تشوّهه . ولكن حرمان الطفل من ميزات الحياة ، وخاصة بالنسبة الى غيره من الناس ، يقيم فيه الشعور بالنقص . فالتربية الناعمة المرفهة (المُدلَّلة) للطفل ، التي تحفه بعناية زائدة لا حاجة اليها ، أو الكره الشديد الذي يحس معه الطفل حرج مركزه بالنسبة الى غيره ، هي من الأمور التي تزرع فيه الشعور بالنقص من ناحية أخرى . ان الطفل المدلل يتعوّد الاعتماد على أهله ، فاذا ما لم يستطع مقابلة الحياة ، وانما استمرّ يطلبها على الصورة التي كان يطلبها من أهله وهو صغير . وبالطبع لا يجد من الحياة التلبية التي كان يجدها من أهله ، فتتغلب عليه الحياة وتهزمه وينحرف بذلك الى نواحي الحياة الضارة . فالحياء الشديد والادعاء والقعود عن العمل ، والاجرام والجنون والادمان على الخمر ... الخ هي مظاهر مما تؤول اليه حالة الطفل ، اذا نشأ شاذاً غير سوي واستولى عليه شعور بالنقص .

ويلخص « أدلر » نظريته فيقول : « لا مندوحة لي من الاعتراف بأن طريقة

---

(١) يحسن ان يقال في هذا المصطلح « المثال البدائي » او « النموذج البدائي » . (المقتطف)

« السيكولوجية الفردية » تبدأ وتنتهي بمشكلة النقص ... فالنقص هو أساس الجهاد البشري والنجاح . غير أن الشعور بالنقص هو أساس جميع مشاكلنا النفسية . ان الفرد اذا لم يجد هدفاً من الرفعة ، تعرّض لشعور بالنقص . وهذا الشعور يقوده الى مخرج يخلصه من مواجهة الحياة . هذا المخرج هو الذي يدعى « مركب العظمة » ولا يزيد هذا المركب عن كونه هدفاً عابثاً غير مفيد يوهم بالرضى الذي يناله الانسان من نجاح خيالي »

وما دام الشعور بالنقص هو أول ماتنتحل اليه نظرية « أدلر » النفسية وآخره ، فجديرٌ بنا أن نبحث في هذا الشعور بشيء من التفصيل

***

الشعور بالنقص

قلنا من قبل أن الشعور بالنقص يبدأ في الطفل من نقص او ضعف في التركيب الجسماني، ومن الحرمان النفسي أيّـاً كان نوعه . ويتوقف نوع الشعور على نوع الضعف او على نوع الحرمان . ويشمل ذلك عوامل البيئـة التي نشأ فيها الطفل وبخاصة طبائع الوالدين والناس المحيطين به وكافة الذين يؤثرون في تربيته والوضع الاقتصادي الذي ينشأ فيـه . ومن البين والمهم ان الطفل لايقوى على العيش وحده حين يولد، ولذلك كان لامناص له من أن يعتمد على غيره ــ عائلته ــ في مطلع حياته . واعتماده هذا هو مبـدأ احساسه بالحاجة الى غيره .

وهذا الاحساس يستمر معه في الحيـاة . فتى كبر وأضحى مستقلاً ، كان موضعه بالنسبة الى المجتمع كما كان موضعه بالنسـبة الى عائلته وهو صغير . وبعبارة أخرى تنتقل حاجة الفرد الى جماعة اكبر . ومن هنا يشعر الـكبير بحاجته الى الناس وشعوره بالنقص يحمله على مواصلة العلاقة بالمجتمع « فمبدأ الحياة الاجتماعية » كما يقول « ادلر » هو ضعف الفرد واستمرار ضعفه بالنسبة للمجتمع يلزمه ان يكون اجتماعيـاً . وهذه الملاحظة، مهمة من ناحيتين : أولاهما: اشارتها الى ان الانسان اجتماعي بالطبع. وثانيتهما: الالماع الى ان طمأنينة الفرد في المجتمع الذي يعيش فيـه من أحسن علامات الشعور بالنقص كما سيجيء . ومجتمعنا اليوم في الشرق قلما يضع الفرد في موضعه المناسب في الحياة . ولذلك يلازم المرء شعور الوحشة مما يجده في نفسه من نقص ومما يجده في المجتمع من عدم افساح الطريق له ليستعيض بالبروز في ناحيته عن شعوره بالنقص . وليس المجتمع في الغرب أحسن بكثير مما هو عليـه في الشرق. ولـكن « أدلر » يرى ان المجتمع الراقي لايتخلف عن اسداء كل فرد فيه مايستحقه بالنسبة لـكفايته وهذا يفسح المجال للمواهب ، واذا فحصنا عباقرة التاريخ وجدنا في كل واحد منهم نوعاً من

النقص، فضعف البصر ضعف شائع في العظماء ، وبعض العظماء والناس يعانون ضعفاً في معدهم أو امعائهم ، ومن الأطفال والناس من يكون أعسر فلا يستطيع أن يستعمل يده اليمنى ، ومنهم من يكون عييـاً يتلعثم ، ومنهم من يكون بالغ القصر . الخ ...كل هذه عوامل تولد الشعور بالنقص .

فاذا أثر النقص في الانسان تأثيراً شديداً تولد فيه «مركب نقص» ، وظهرت لذلك بوادر كثيرة مختلفة ، فبعض الناس تراهم في حركة دائمة ، فاذا مشوا ضربوا الأرض بأرجلهم واذا تحدَّثوا رفعوا أصواتهم ليسمعهم الآخرون ، ولهم أمزجة حادة ، وانفجارات عاطفية فجائية ، ومن الناس من يتناقض في آرائه وأعماله ، ومنهم من يتردد تردداً عظيماً فلا يستطيع ان يجزم في أمر . كل ذلك من علائم المرء وقد أصيب بشعور بالنقص . ومما يدل على شعور النقص في انسان الوقوف المعتدل المتوتر الذي يدفع المرء فيـه برأسه الى أعلى على شـكل ملحوظ ، أو طأطأة الرأس الى الارض اثناء المشي أو الاعتماد المستمر على الطاولة أو الجدار أو العصا حين الوقوف . والطفل الذي يحب الاستناد الى أمه أو يخاف من مواجهـة الناس فيظل متهيباً منفرداً ، طفل يحس بنقص ، والرجل الذي يتجافى عن المجتمع ويتحاشاه انما يفعل ذلك في الغالب لأنه يتملـكه شعور بالنقص ، والخوف صفة من هـذا القبيل كذلك . وهنالك نوع من الجرأة لا يختلف عن الخوف ، فالانسان أحياناً يتملـكه تهور فجائي نادر يدفعه الى الهلاك .

ويرى أدلر ان الخوف والشجاعة مرتبطان بالايمان بالقضاء والقـدر ، وهو يقول « ان الايمان بالقضاء والقدر مخرج يخلص به الانسان من الجهاد والبناء المفيد في الحياة . ان هـذا الايمان دائماً دعامة واهية يستند اليها الانسان »

والغيرة المعتـدلة صفة عادية معروفة ، ولـكنها اذا اشتدت كانت من علامات الشـعور بالنقص . أما الحسد فدليل مركب نقص شديد عميق . ويوافق علم النفس الفردي على ان « الحسود لا يسود » وانه لا يمكن ان يكون الحسد مفيداً في أي شكل من الاشكال .

***

التحليل النفسي

تصبح بذلك طريقة التحليل النفسي عنـد « أدلر » واضحة ـ ان هذه الطريقة تعمد الى فهم الشخصية الانسانية الحالة ، وترمي بشكل خاص الى النفاذ الى هدف هذه الشخصية في الحياة . وعلى أساس ذلك يوصف العلاج النفسي . وللوصول الى هذا يجب ان يفهم (طراز

الحياة — Style of Life للانسان المحلل ، وان تدرس الذكريات القديمة ، والاحلام التي يحلمها . و « طراز الحياة » هذا هو الشكل الذي تكون شخصية المرء قد استوت عليه بعد نموها خلال السنوات الاولى ، ويمكن ان نفهم هذا الطراز من دراسة أوضاع الانسان ، وخاصة في حالاته غير الطبيعية ، فالانسان السَّوِيّ هو الانسان الذي يستفيد المجتمع منه ، والذي يكون له من الاقدام والجهود ما يتقوَّى به على مشكلات الحياة ، ان الرجل الذي ينحرف عن هذا لا يكون سويًّا ، ويمكن مراقبته ومعرفة دائه . ومن بَعْدُ معرفة طريقة اصلاحه .

ويروي « أدلر » حكاية رجل كان من صفاته أنه خجول شديد الشك بأصدقائه ، فمثل هذا الرجل لا يمكن لشكه أن يكون ذا أصدقاء ، ولا يمكن لشدة خجله أن يخالط الناس ، ثم انه كان شديد الخوف من الفشل في عمله . فحمله ذلك على شدة العمل حتى أنهك نفسه. ويعتبر هذا الرجل فاشلاً في علاقاته الاجتماعية ، كما يعتبر فاشلاً في عمله ، انه يحس احساساً عميقاً بالضعف ، وقد لوحظ أنه في مشكلة الحياة الثالثة — الحب — كان شديد التردد ، فانه كان يتنقل في حبه من فتاة الى أخرى ، ثم لم يتزوَّج قط ، وكان هذا الرجل بكر أبويه . وبكر أبويه في نظر « أدلر » ، يتعرض في الغالب للحرمان كله أو بعضه من جراء العناية الخاصة بالطفل الثاني التي يشاهدها البكر ، وهذا الحرمان يولد في نفسه الشعور بالنقص ، ومثل هذا الرجل اذا أردت أن تمكنه من أن يتغلب على شعوره بالنقص ، وجب أولاً ان توضح له ان يقدر نفسه دون ما تستحق ، كما يجب أن توضح له تزمته في ملاقاته الناس ووجه خطئه في تخوفه من أن يفضل عليه أحد

***

وأما عن تذكرات الانسان القديمة ، فان المرء يتذكر ما له أهمية في نفسه ، ولا عبرة في أن تكون تذكرات الانسان حقيقية أو وهمية ، فانه ما دام يتذكرها فانها مهمة في حياته. والذكريات القديمة عبارة عن اشارات الى شخصية الانسان . انها تدل على نموذجه الأول (أي Prototype الذي تقدَّم ذكره) ، لأنها تشير الى ما وقع من أمر هام ، والى ما يقع على مثاله، لأن شخصية الانسان الأساسية لا تتغير ، ويصلح هذا الموضوع للمقارنة بما قد اكتشف عن الانسان بوسائط أخرى ، وللحصول على التذكرات القديمة ، يطلب الى الانسان أن يرتد بذاكرته الى حداثته ، وان يتذكر من ذلك ما يتذكر ، وقد يجد المحلل صعوبة في هذا ، لأن المريض قد يقول انه لا يذكر شيئاً ، ولكن الالحاح عليه يثمر دائماً ثمرة طيبة ، فيذكر المريض شيئاً . ان ما يذكره الآن له أهمية لأنه يدل على «وضعه الأول» — أي الحالة التي

نشأ عليها ، والذاكرون من الناس يذكرون أشياء كثيرة ومختلفة بالطبع ، ولكن براعة المحلل تردها الى أصول محدودة .

فبعض الناس مثلاً يقول انه يذكر انه سمع صوت قاطرة قاصف ، وبعضهم يذكر انه أكل أكلة لذيذة وبعضهم يذكر أشياء تتعلق بأمه وأبيه ، وبعضهم يذكر حالات مرضية أصابته وبعضهم يذكر شيئاً يتعلق بملابسه أو أنه ضرب أوحرم الخ. فوظيفة المحلل هنا أن يرد هذه الأشياء الى أصولها ليجد منها شخصية المرء الأولية وليربط ذلك بشخصيته الحاضرة . على اعتبار أن أساس شخصية الانسان لا تتغير بتقدم السن

يذكر الانسان مثلاً من قديم ذكرياته ان أمه ضربته وعنفته ، حتى فرَّ منها هارباً ، وضلَّ الطريق حتى خاف على نفسه من الموت ، فثل هذه الذكرى تشير الى عامل قويٍّ من عوامل التخوف . لابدَّ وان يكون قد دخل في تكوين شخصية الانسان ، وهذه الحالة تقرب من الواقعية ، فان صاحبها حين دخل الجامعة ليتعلم ظلَّ خائفاً من الرسوب في الفحوص الجامعية بالرغم من ذكائه ، فلما تخرَّج قتل نفسه اجتهاداً في الحياة حتى لا يفشل فيها ، فهو يلعب في حياته ، من حيث الأساس ، دور الرجل الخائف ، وهذا هو شعور النقص الاساسي في نفسه

***

ونموذج الحياة الأول للانسان ، يظهر منه شيء في الأحلام . فالحلم عند « أدلر » لا يخرج عن كونه قسماً من « طراز الحياة » . و « النموذج الأول » دائماً منطو فيه . ومن هنا كانت معرفتك لانسان مؤدية الى معرفة نوع أحلامه . ومعظم أحلام الناس خوف ، لأن النوع البشري جبان . ويحلم المرء أحلاماً مخيفة لأنه في يقظته دائماً يتوجس من الفشل ، ويحاول أن يتخلص من الحياة بالهرب من مشاكلها . هو يبحث عما يجنبه متاعبها . هذا هدفه . والحلم يؤيد له هذا الهدف . ولا فاصل عند « أدلر » بين النوم واليقظة . فان طرف أحدهما منساب في طرف الآخر. فنحن في النوم نفكر ونسمع ونحس احساسات عامة. وتستهدف أحلامنا على العموم هدفاً من العظمة يخلصنا مما نحس فيه من شعور بالنقص . ولكن في الأحلام نوعاً من التشويش والغش والتمويه على النفس . ولذلك فالذين يفكرون تفكيراً منطقيا ويواجهون حقائق الحياة لايحلمون الاَّ قليلاً ، أو لا يحلمون قط . والذين يدركون ما في الأحلام من خداع نفسي تقل أحلامهم أو تنعدم . ان المرء يصنع أحلامه. فأحلامه تتجه في محتوياتها الى ما يتجه هو اليه في الحياة، ومن أحلامه يتضح لك بشيء من هدفه فيها.

فأنت تستطيع إذن بمختلف هذه الأساليب أن تتصل بمعرفة « النموذج الأول » الذي ينشأ عليه الانسان و « طراز الحياة » الذي يتبعه . وتستطيع من ذلك أن تعرف النقطة

المركزية التي يدور عليها شعوره بالنقص والطريقة التي يحاول أن يعوض بها عن هذا النقص . ان النقطة المركزية على كل حال نوع من الضعف . وهذا الضعف نفسه يحمل المرء رجلاً ، كما حمله طفلاً ، على التزام جانب المجتمع والشعور بحاجته اليه . فطريق الاصلاح الأساسي لأي انسان أصبح شعوره بالنقص مركباً وأثر في حياته فدفع به الى نواحي غير مفيدة ، هو تعديل مركزه في المجتمع وتسويته . ومرة أخرى يتلخص هذا التعديل في تحسين موقف المرء من الناس الذين هم من حوله ، ومن مهنته ، ومن مسألة زواجه.

ولا أقصد أن أطيل أكثر مما قد فعلت . فالطريقة التي يمكن أن ينشأ بها طفل لكي يكون انساناً سويًّا ، هي أن يعامل بعدل واحترام . ولكن الشاب الذي تمَّ تكوين طراز حياته على صورة معوجة يجب أن يدرس وأن تعرف مزاياه وأن يوجه نظره لها . فأدلر يعتقد أن « كل انسان يصلح لكل شيء » . فاذا فتحت للشاب آفاق جديدة ، وسوعد في التغلب على ضعفه ، اندفع في الحياة من جديد . وقد عولجت عمليًّا حالات كثيرين من المرضى العصبيين وحالات قريبة من الجنون على هذا الأساس ، فنجحت طريقة العلاج .

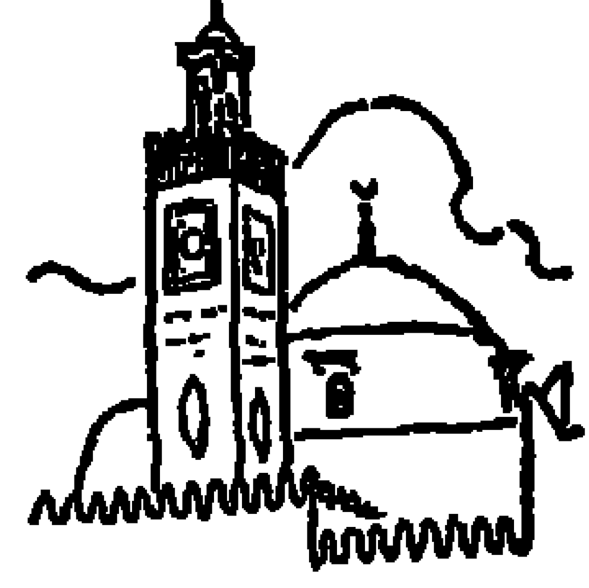
***

أما في ناحية المهنة ، فيحذر « أدلر » من الاستعلاء الذي يجده كل شاب في نفسه حين يعمل مع غيره . هذا الاستعلاء يحمله على الفوضى وعدم الطاعة للرؤساء . وليس من السهل ايجاد عمل لمبتدىء لا يرأسه فيه أحد . فاذا لم يعرف كيف يتلقى من رئيس له ، لم يقدر على التقدم . وإذا لم يحسن التصرف مع الناس على اعتبار انه رجل اجتماعي ، فلا سبيل الى نجاحه.

ولا يعني « أدلر » ، فيما اطلعت عليه من كتاباته الى اليوم ، بمظالم عميقة تقترفها البشرية في حق نفسها ولا تفيد فيها نصائحه ، ولكننا نغضُّ النظر عن ذلك الآن .

وحل مشكلة الحب عند « أدلر » يدخلنا في بحث يختلف عما تثيره حياتنا الاجتماعية في الشرق من مشكلات في هذه السبيل . ولكن مما لا ريب فيه أن الرجل المصاب بداء الشعور بالنقص ، قد يحجم عن الزواج خوفاً من مسئوليات الحياة الجديدة . وضعف الانسان عامة عن مواجهة انسان من الجنس الآخر ، ينتج عن إحساس بالنقص يحمل صاحبه الى التردد والحياء .

السلط (شرق الاردن) محمد أديب العامري



المدرسة الخاتونية

البرانية بدمشق[(١)]

يقول الاستاذ اسعد بالذيل ص ٢١١

المسجد رقم ٨٢ : مسجد الخاتونية البرانية

تقدم ذكره ص (١٣٠) ونضيف هنا أنها (اي المدرسة الخاتونية البرانية) كانت باقية الى زمن ابن كنان فانه قال في المروج السندسية بتاريخ الصالحية ص ٢٧ : جامع الخاتونية فيه درس حديث في الاشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحي.وقال العدوي : اول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي (أنظر مقال سوفير بالمجلة الاسيوية سنة ١٨٩٤ ص٢٥٤ ـ ٣٠٢)

وموقع هذا المسجد على الخريطة الملحقه بآخر الكتاب بالمربع ر ـ ٣) انتهى

***

هذا ماذكره الأستاذ بالذيل عن مسجد الخاتونية البرانية . وقد رأينا في أول عبارته أنه يشير الى ص ١٣٠ فلنرجع الى هذه الصحيفة لنرى ما ورد بها عن هذا المسجد

اننا نجد ابن عبد الهادي يقول :

فصل ثم قال (اي المؤرخ ابن شداد الذي ينقل عنه ابن عبدالهادي)

المساجد التي لم تذكر يعني فيما قدمه وهي كثيرة :

المسجد الخامس مسجد تربة خاتون بالجبل اﻫ

وعلق على ذلك الاستاذ أسعد بحاشية رقم ٣ بنفس الصحيفة بقوله :

وفي ابن كثير ﺣ ١٣ ص ١٦١ خاتون بنت عز الدين مسعود بن زنكي واقفة المدرسة الاتابكية بالصالحية كانت زوجة الملك الاشرف وقفت مدرستها وتربتها بالجبل وهي غير ـ

---

(١) هذا المقال هو في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الخاص بمساجد دمشق الذي الفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ اسعد طلس

الخانقاه الخاتونية بباب النصر المعروف بباب السعادة كما قال النعيمي في باب ... واتو في اول الشرف القبلي على (نهر) بانياس شرقي جامع تنكز ولصيقه وهي منسوبة الى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين محمود ــ انتهى

***

يستنتج مما سبق بيانه ما يلي :

أولاً : ان مسجد الخاتونية البرانية ورقمه المسلسل بالذيل ٨٢ ص ٢١١ موجود بالخريطة الملحقة بالكتاب بالمربع رقم ر ــ ٣ (راء) .

ثانياً : ان هذا المسجد رقم ٨٢ بالذيل وبالخريطة هو نفسه الذي عناه ابن شداد بقوله بصحيفة ١٣٠ : « الخامس : مسجد تربة خاتون بالجبل » .

ثالثاً : انه هو نفسه مسجد المدرسة الاتابكية التي بنتها خاتون بنت عز الدين مسعود ابن زنكي كما ورد بحاشية رقم ٣ ص ١٣٠ تعليقاً على قول ابن شداد المذكور في « ثانياً » .

رابعاً : انه هو نفسه المدرسة الخاتونية البرانية التي يقول العلموي ان الأمير سيباي هدمها ونقل رخامها الى مدرسته .

خامساً : انه هو نفسه « جامع الخاتونية » الذي يقول ابن كنان في كتابه « المروج السندسية » ان فيه درسا في الأشهر الثلاثة وان آخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحي » .

سادساً : ان الخاتونية البرانية هدمت في عهد سيباي كما يقول العلموي ومع ذلك كانت موجودة في عهد ابن كنان .

مناقشتنا لاقوال الاستاذ أسعد واظهار ما فيها من أخطاء

الخطأ الأول : خلق مواقع خيالية خاطئة للآثار :

ونحب قبل أن نمضي في مناقشة الاستاذ أن نصحح رقم المربع الذي يقع فيه المسجد رقم ٨٢ على الخريطة فان صحته ز ــ ٣ بالزاي لا بالراء لأن الخريطة تبدأ خطوط مربعاتها الرأسية من حرف الألف وتنتهي بحرف الزاي على الترتيب الأبجدي المعروف أبجد هوز حطي فلا وجود لحرف الراء فيها .

فاذا رجعنا الى هذه الخريطة وجدنا المسجد رقم ٨٢ يقع بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و ٢٦٧ وهذان المسجدان هما كما وردا في الذيل :

الأول ــ مسجد رقم ٢٣٠ : ص ٢٤٣ هو مسجد القرشي (بالراء) بجادة بين المدارس

بالصالحية : (وقد كتبه الأستاذ بالواو تارة وبالراء أخرى وصحته بالراء كما ذكرناه ولنا في ذلك بحث مستقل تال) .

الثاني — مسجد رقم ٢٦٧ : ص ٢٥١ هو مسجد المرشدية بجادة بين المدارس بالصالحية.

ولأجل تعريف القراء وخاصة الدماشقة منهم بمواقع هذه الآثار نقول : اننا اذا أخذنا ترام الصالحية حتى محطة العفيف ثم سرنا في زقاق العفيف شمالاً فاننا نجد طريقاً يتجه من الغرب الى الشرق هو شارع السكة فاذا وصلنا إلى أول طريق الماوردي عند المنزل رقم ٧٦ وانحرفنا الى اليمين في جادة بين المدارس فاننا نجد الى يسارنا بالصف الشمالي للشارع قبة بالمنزل رقم ٣ تسمى محلياً بقبة النبي يونس ، يتلوها الى الشرق زقاق ضيق غير نافذ هو زقاق رجب أغا . فاذا واصلنا السير شرقاً حتى بيت أبي صادق الطرودي رقم ٢٧ بالصف الشمالي نفسه وجدنا مقابله بالصف الجنوبي قبة الشيخ علي الفرنثي وعلى عتب شبا كها كتابة خمسة أسطر بالنسخ الأيوبي ذي الحرف الصغير وبها اسم الشيخ علي الفرنثي وتاريخ وفاته.

وهذه القبة وما يتبعها هي المسجد رقم ٢٣٠ الذي يشير اليه الأستاذ .

أما المسجد رقم ٢٦٧ وهو مسجد المدرسة المرشدية فيقع شرقي قبة الفرنثي مباشرة. وقد سقطت القبة ولكن لا تزال توجد الى شرقها المأذنة الحجرية المربعة الخاصة بهذا المسجد . وعلى عتب باب هذه المدرسة نقش تاريخي أربعة أسطر بالنسخ الأيوبي بحروف صغيرة به اسم بانيتها عصمة الدين خديجة خاتون ابنة السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب وتاريخ انشائها .

هذان هما المسجدان اللذان وضع الأستاذ أسعد بينهما مسجد الخاتونية البرانية فهل حقيقةً يوجد بينهما هذا المسجد الآن أو كان يوجد بينهما في أي وقت مضى ؟

يستطيع كل دمشقي أن يثبت بطلان ذلك بمجرد سيره بجادة بين المدارس ومشاهدته هذين الأثرين المتجاورين .

أما غير الدماشقة فنثبت لهم ذلك بالصورة الشمسية التي أخذناها لكتلة الأبنية الأثرية الممتدة من قبة الفرنثي في الغرب حتى المدرسة الأتابكية في الشرق وتشمل (١) قبة الفرنثي (٢) تتلوها المدرسة المرشدية بقبتها الساقطة ومأذنتها الحجرية المربعة (٣) مدرسة دار الحديث الأشرفية وقد سقطت قبتها ولا مأذنة لها (٤) يتلوها زقاق على ناصيته المدرسة الأتابكية ومأذنتها المربعة .

وواضح من الصورة الشمسية أن قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية متجاورتان بل ملتصقتان إحداهما بالأخرى وليس هناك مكان لأي أثر آخر يمكن قيامه بينهما .

وليس ثمة شك أو شبهة في التعريف بهذين الأثرين واسمي منشئيهما لوجود النقشين التاريخيين المشار اليهما . ووجود نقش تاريخي ثالث على عتب باب مدرسة الحديث الأشرفية. لذلك فنحن نقتبس هنا بعض ما رواه مؤرخو دمشق وخططها عن مواقع هذه الآثار لنرى هل أشار أحدهم الى وجود هذه المدرسة الخاتونية البرانيـة يوماً ما في الموضع الذي اختاره لها الأستاذ أسعد أو هو الذي انفرد بذلك ؟ .

أولا — يقول ابن عبد الهادي في كتاب المساجد الذي نشره الأستاذ أسعد بنفس الفصل الذي ورد فيه ذكر مسجد تربة الخاتون بالجبل ما يأتي بص ١٣١ : الثاني والعشرون : مسجد المرشدية . الثالث والعشرون : مسجد الشيخ علي الفرنثي .

ثانياً — يقول المؤلف نفسه في ص ١٥٦ من نفس الكتاب وهو يعدد مساجد المحلة الحادية والثلاثين من محلات الصالحية وهي حارة سوق شعيب (ونقول : هذا السوق يسمى الآن جادة بين المدارس ويمتد من الشركسية حتى شارع السكة) ... الثاني مسجد بالمدرسة التابكية (ونقول : التابكية أو التابتية هي التسمية العامية المحلية وصحتها الاتابكية نسبةً للخاتون الاتابكية) .

الثالث: مسجد بمدرسة دار الحديث (نقول: هي دار الحديث الأشرفية)

الرابع: مسجد في المدرسة التي فوقها (نقول: هي المدرسة المرشدية)

الخامس: مسجد في المدرسة الفرنثية (نقول: هي زاوية الشيخ علي الفرنثي)

فيلاحظ في أولاً : ان المؤلف ذكر المسجدين متجاورين ولو كان هناك ثالث بينهما لما غفل الاشارة اليه .

وفي ثانيـاً : ان الثبت الوارد هنا يشمل بالضبط الآثار الأربعة الأيوبية المتجاورة من الشرق الى الغرب كما هي موجودة فعلاً في الصف الجنوبي من هذه الجادة وليس بينها جميعاً محل لهذه الخاتونية البرانية التي أقحمها الأستاذ بين المرشدية والفرنثية (انظر الصورة) .

ثالثاً — عن المدرسة المرشدية : يقول النعيمي : هي بالصالحية على نهر يزيد جوار دار الحديث الأشرفية (مخطوط الدارس للنعيمي ج ٢ ص ٥٧)

ويقول ابن قاضي شهبة : وتوفيت خديجة خاتون ببستان الماردانية سنة ستين وستمائة ودفنت بتربتها التي أنشأتها جوار تربة الشيخ الفرنثي بالجبل . اهـ .

أي ان المدرسة المرشدية تجاورها دار الحديث الأشرفيـة (من الشرق) كما تجاورها تربة الشيخ الفرنثي (من الغرب)

رابعاً : عن الزاوية الفرنثية : يقول الشيخ عبد القادر بدران في كتابه منادمة الأطلال

المخطوط ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : هي بسفح قاسيون غربي الخاتونية (ونقول انه يقصد بها مدرسة خديجة خاتون المعروفة باسم المرشدية . انظر قول ابن قاضي شهبة في « ثالثاً »)

وينقل الشيخ بدران عن العدوي في « الزيارات » بعد أن يضبط اسم الفرنثي ما نصه : قال العدوي: زاويته أي الفرنثي جوار المدرسة المرشدية بصالحية دمشق من جهة الغرب » اه

وليس أصرح من هذا في اثبات ان المدرستين متجاورتان وان الفرنثية غربي المرشدية.

ويظهر أن الأستاذ أسعد قد خدعته كلمة الخاتونيـة الواردة في كلام الشيخ بدران فظن أنها الخاتونية البرانيـة دون أن ينتبه الى أن كل تربة أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه أو مؤسسة بنتها خاتون أي سيدة تسمى خاتونيـة وبدمشق والصالحية الـكثير من المعاهد التي بنتها الخواتين في العهدين الأتابكي والأيوبي وأوائل المملوكي من أمثال الخاتون الأتابكيـة والماردانية والحافظية والقيمرية وزمرد خاتون وعصمة الدين خاتون زوجة نور الدين محمود ثم من بعده صلاح الدين وعصمة الدين خديجة خاتون وست الشام والصـاحبة ربيعة خاتون أختا صلاح الدين والملك العادل بن أيوب والملكة هدية خاتون والخاتون المغنية وأم الملك الصالح وغيرهنَّ .

وما يقصده بدران هنا هو مدرسة خديجة خاتون ابنة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أيوب المعروفة باسم المرشدية فالخاتونية والمرشدية هنا اسمان لمعهد واحد تقع المدرسة (أو التربة أو الزاوية) الفرنثية الى الغرب منه .

***

والخلاصة انه لا وجود لهذه المدرسة الخاتونية البرانية بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و٢٦٧ الواردين بخريطة الأستاذ وهما مسجدا المدرستين الفرنثية والمرشدية .

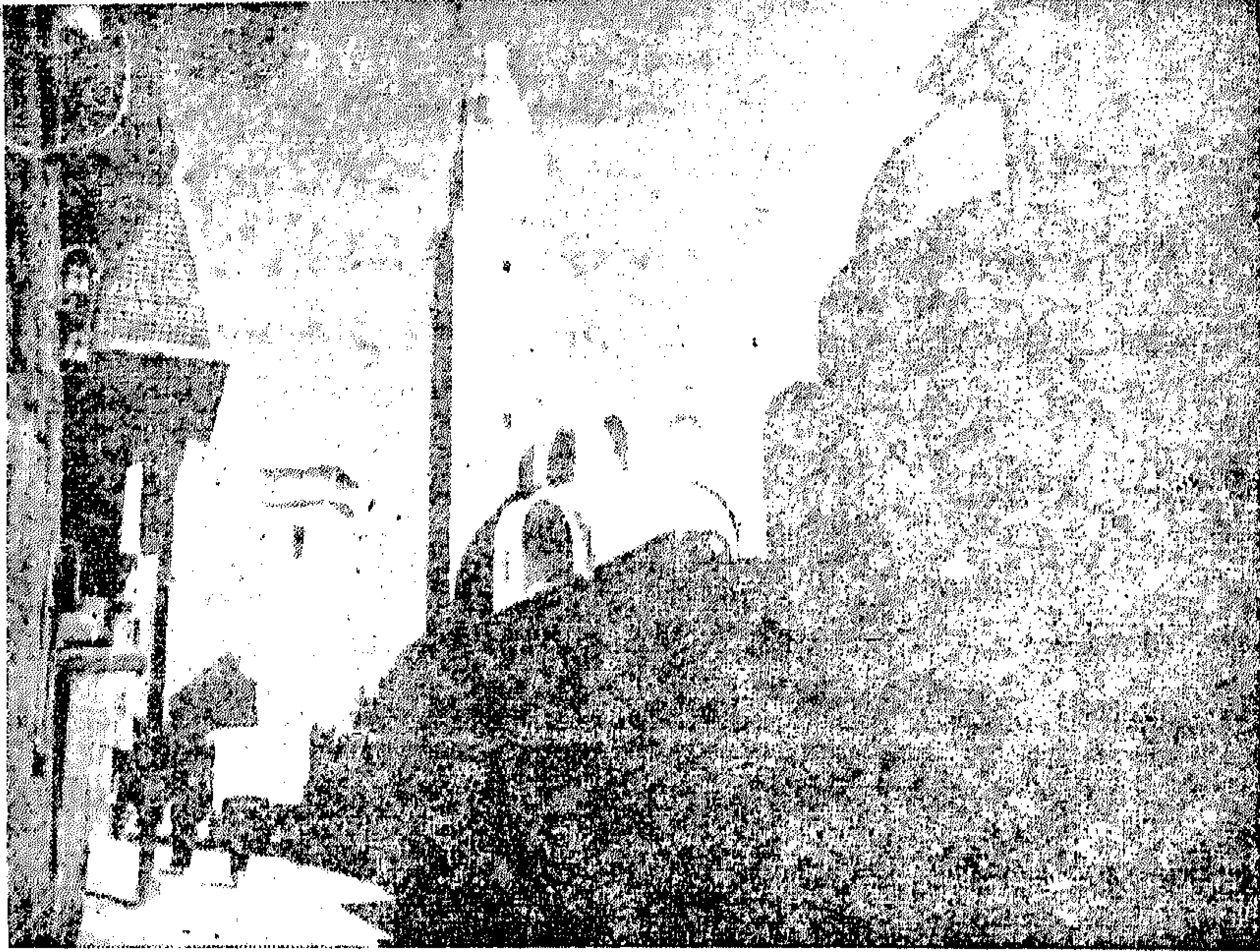
وأما الخاتونية البرانية التي يعنيها العلموي ومسجد الخاتونية الذي يشير اليه ابن كنان فيقع كل منهما في مكان آخر سيعلمه الأستاذ عند اتمام البحث .

الخطأ الثاني : في اثبات أن المدرسة الأتابكية ليست هي المدرسة الخاتونية البرانية :

اذا كان الاستاذ أسعد قد اطمأنَّ الى خلق موضع للمدرسة الخاتونية البرانية بين قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية بجادة بين المدارس فلا ندري كيف تكون هذه المدرسة هي المدرسة الأتابكية أيضاً ؟

يقول الأستاذ في الحاشية رقم ٣ صحيفة ١٣٠ تعليقاً على قول ابن عبد الهادي (نقلاً عن ابن شداد) . «الخامس : تربة خاتون بالجبل » ما نصه :

«هي الخاتون بنت عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي واقفة



شارع المدارس : دمشق

من اليمين : قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية ومأذنتها والمدرسة الاشرفية والمدرسة الاتابكية ومأذنتها



دمشق : تربة عصمة الدين خاتون

المدرسة الأتابكية بالصالحية التي كانت زوجة للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابي بكر ابن أيوب ووقفت مدرستها وتربتها بالجبل» .

وقد رأينا الأستاذ عند كلامه على المسجد رقم ٨٢ بالذيل وهو مسجد المدرسة الخاتونية البرانية« التي كانت باقية الى زمن ابن كنان» يشير الى هذه الحاشية نفسها رقم ٣ بصحيفة ١٣٠ مما يدل على انه يعتقد ان هذه المدرسة التي يشير اليها ابن كنان وان تربة خاتون بالجبل التي يذكرها ابن عبد الهادي هما هذه الأتابكية التي بنتها زوجة الملك الأشرف وجعلت تربتها بها

فاذا علمنا أن المدرسة الأتابكية (ويسميها العامة بدمشق التابكية أو التابتية) بجادة بين المدارس تقع شرقي دار الحديث الأشرفية ومكانها معروف مشهور ولها مأذنة مربعة ضخمة فلا ندري كيف يمكن في الوقت نفسه أن يضعها الأستاذ بين المدرسة المرشدية وزاوية الفرنثي ؟

والظاهر ان الأستاذ كان متسرّعاً في كتابته هذه الحاشية فاننا لا نجده يشير اليها عند كلامه في الذيل عن المدرسة الأتابكية صحيفة ١٩١ بل يكتفي بالاشارة الى الهامش رقم ٣ ص ١٥٦ غير أن التوفيق قد خانه أيضاً في هذه المرة فقد وضع هذه المدرسة الأتابكية غربي المرشدية ودار الحديث الأشرفية وعزا ذلك الى النعيمي والحقيقة ان النعيمي يقول في باب المدرسة الأتابكية ج ١ ص ١٧١ وكذلك العلموي ص ١٦

المدرسة الأتابكية : غربيها المدرسة المرشدية ودار الحديث الأشرفية .

ويذكر الأستاذ تاريخ وفاة هذه السيدة الأتابكية في هذه الحاشية سنة ٧٤٠ والحقيقة انه سنة ٦٤٠ كما عاد وذكره بالذيل بصحيفة ١٩١ وكان من الممكن أن يشير اليه في باب التصويبات بآخر الكتاب ان كان من سبيل الخطأ المطبعي ، ولكن الذي نعتقده انه اعتمد على الرواية الخاطئة في منادمة الأطلال ج ١ ص ١٠٤ ومختصره المخطوط لبدران فصل المدرسة الأتابكية أو على ما نقله النعيمي عن الصفدي الذي انفرد بذكر تاريخ وفاتها في ربيع الأول ٧٤٠ وان كان النعيمي قد حرص على تصحيحه فنقله مصححاً ٦٤٠ عن العبر للذهبي . ولو انتبه الأستاذ قليلاً لهذا الأمر لأدرك أنه ليس من المعقول أن يتوفى الملك الأشرف موسى سنة ٦٣٥ وتتأخر وفاة زوجته تركان خاتون الأتابكية عنه — وهي صاحبة هذه المدرسة — الى سنة ٧٤٠ أي بعد وفاته بنحو ١٠٥ سنوات .

ونتيجة ذلك ان المدرسة الأتابكية ليست هي الخاتونية البرانية التي يعنيها العلموي ويذكرها الأستاذ بالذيل تحت رقم ٨٢ وليست هي التي يقصدها ابن شداد وابن عبد الهادي بقوله « الخامس مسجد تربة الخاتون بالجبل » . ولا يمكن ان يكون موقعها بين

قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية لتجاور البنائين بل والتصاقهما .

الخطأ الثالث : نعود الى ما نقله الأستاذ أسعد عن العلموي خاصًّا بمسجد الخاتونية البرانية ذي الرقم ٨٢ بالذيل ص ٢١١ ونصه :

« قال العلموي أول من هدمها (أي المدرسة الخاتونية البرانية) ونقل رخامها الى مدرسته سيباي » ا هـ .

ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ذات الرقم ٨٢ التي اخترع الأستاذ وجودها بين زاوية الفرنثي والمدرسة المرشدية بصالحية دمشق كانت موجودة في هـذا الموضع الى أن هدمها الأمير سيباي كافل دمشق وآخر حكامها من قِبَل السلاطين المماليك قبل الفتح العثماني للشام ومصر .

وهذا خطأ فاحش كنا نربأ بالأستاذ أسعد طلس أن يقع فيه لأن هذه الخاتونية البرانية التي عناها العلموي والتي نقل رخامها سيباي أمير دمشق ونائبها لم تكن تقع بين هـذين الأثرين المتلاصقين .

كما أنها ليست هي المدرسة الأتابكية كما ظنَّ الأستاذ خطأً . ولا علاقة لها « بمسجد تربة الخاتون بالجبل » الوارد ذكره بص ١٣٠ وحاشية رقم ٣ بهذه الصحيفة كما خيل للاستاذ. بل لا علاقة لها بالصالحية أصلاً ولا توجد بها ويكفي ذكر كلمة بالجبل في تحـديد موقع « مسجد تربة الخاتون » لانتفاء أن يكون هـذا المسجد الذي بالجبل هو نفسه مسجد الخاتونية البرانية الذي عناه العلموي بعبارته السابقة .

ونتقدم نحن الآن لايضاح حقيقة ما قصد اليه العلموي من أمر هذه المدرسة فنقول : ان هذه المدرسة الخاتونية البرانية هي المدرسة الحنفيـة التي أوقفتها زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دقاق المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ بالمدينة المنورة والمدفونة بالبقيع الغرقد.

يقول أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي من علمـاء القرن التاسع في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٧٦ — ٧٧ :

« المنيبع محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها (نهر) بانياس ونهر القنوات على بابها ولهـا شبابيك تطل على المرجة وبهـا ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدة (من) خلاوي الطلبة . وبجوارها دار الأمير الأصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى . . . . وهذه المحلة من محاسن دمشق . ا هـ .

ونقل الشيخ عبد القادر بدران في مطول المنادمة المخطوط بالجزء الاول ص ٢٢٦ ومختصره المخطوط أيضاً عن ابن المزلق في تحفة الأنام مثل ما رويناه .. .. وقال :

« والحاصل ان هذه المدرسة كانت بالشرف القبلي ثم اندرست وذهبت » اه
وقال ابن كثير ج ١٢ اص ٣١٨ .. « كان يعرف ذلك المكان بتل الثعالب » اه
وقال الصفدي : « وهذه المدرسة بأعلا الشرف القبلي »
وقال العلموي في مختصر الدارس المخطوط ص ٥٦ :
هذه الخاتونية هي شمالي نهر بانياس مطلة على الميدان الأخضر وكانت قبلة بمأذنة وبئر الى آخر وقت الجراكسة وأوائل الدولة العثمانية وأول من خربها وأخذ رخامها ومن جملته رخام المحاريب سيباي ووضع ذلك بمدرسته الكائنة بباب الجابية الملقبة بجمع الجوامع .. اه
وفي مخطوط الدارس للنعيمي فصل مطول عن هذه المدرسة بالجزء الأول ص ٧٣٣ وما بعدها ... ومنه يتضح ان تاريخ وقف هذه المدرسة هو سنة ٥٢٦ هـ وان زمرد خاتون أوقفتها على الشيخ ابي الحسن علي البلخي وهو اول من ذكر الدرس بها ...الخ

***

هذه هي المدرسة الخاتونية البرانية التي عناها العلموي وهي كما قال صراحةً تقع « شمالي نهر بانياس » وتطل على الميدان الأخضر فأين الميدان الأخضر من سكة بين المدارس بالصالحية ؟ وأين الشرف القبلي جنوبي بردي من جبل قاسيون بأقصى شمالي المدينة ؟
وأين زمرد خاتون المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ والتي أوقفت مدرستها سنة ٥٢٦ هـ من تركان خاتون الاتابكية المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ ؟
ان على الاستاذ أسعد أن يتفضل باجابتنا مشكوراً عن هذه الاسئلة جميعاً .
وقد سميت هذه المدرسة بالخاتونية نسبةً للخاتون أي السيدة التي بنتها وسميت البرانية لوقوعها على الشرف القبلي جنوبي نهر بردي خارج أسوار المدينة ويمتد هذا الشرف كما شاهدناه من شارع النصر المسمى سابقاً شارع جمال باشا حتى طريق المزه غرباً. وقد كان من نزه دمشق لارتفاعه واشرافه على نهر بردي الذي يجري بينه وبين الشرف الشمالي . وقد كان يزخر بالمساجد والمدارس وكانت جميع المدارس الموجودة به يطلق عليها لفظ البرانية أي الواقعة خارج الأسوار كالمدرسة الظاهرية البرانية التي بناها الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي والخانقاه النجيبية البرانية التي انشأها جمال الدين اقوش النجيبي والمدرسة الأسدية البرانية التي انشأها أسد الدين شيركوه وغيرها .

له بقية — القاهرة السيد محمد رجب



سر المريخ

اقترب المريخ من الارض في سنة ١٩٣٩ م، فجدد عناية الفلكيين به . ذلك بأن المريخ من جيران الارض الاقربين في النظام الشمسي . والمريخ ، ولو أنه يقترب من الارض في كل خمس وعشرين سنة ، الا أن مقدار اقترابه منها يختلف اختلافاً كبيراً تبعاً لغرابة فلكه وتذبذبه ، فيتراوح مقدار اقترابه من الارض بين ٣٥ و ٦٣ مليون ميل . أما أنسب الاوقات التي تلائم رصد هذا السيار فتقع في فترات تقع بين ١٥ و١٧ سنة . فقد اقترب المريخ من الارض في ٢٣ من اغسطس سنة ١٩٢٤ حتى صار على ٣٤٫٦٣٧٫٠٠٠ ميل منها ، وهي أقل مسافة يمكن أن تفصل بين سيارين من سيارات النظام الشمسي . وفي شهر يولية من تلك السنة كان بعده عن الارض لا يتجاوز ٣٦٫٠٢٢٫٠٠٠ ميل ، وبعد سبعة عشرة سنة سيعود المريخ الى هذا الموضع ثانية .

لا تقوى المقارب[1] الحديثة على استجلاء أشباح على سطح المريخ يقل امتدادها عن ٢٥ ميلاً ، حتى لو بلغ قرب المريخ من الارض مبلغه في سنة ١٩٢٤ ، لهذا كان البحث عن وجود آثار للحياة هناك أمر استنتاجي ، وعلمنا به يكون بالواسطة لا بالاصالة . ولوجود الحياة في المريخ علاقة كبيرة بدرس الحالات الطبيعية القائمة فيه . ولقد نجح الفلكيون في معرفة الكثير من هذه الحالات ، غير ان بحوثهم الحديثة لم تقربنا من حل ذلك اللغز . فتركتنا بحوثهم حيث كنا منذ ربع قرن مضى

ان الصور الضوئية التي استخدمت فيها الاشعة الدوينحمراء[2] والفوقبنفسجية[3] التي حصل عليها (رايت)[4] في مرصد (ليك) بكاليفورنيا سنة ١٩٢٦ ، قد أثبتت أن للمريخ جواً ينتشر صعداً فوق سطح السيار ستين ميلا . والتحليلات الطيافية[5] التي قام بها أدمس[6] وسان جون[7] ودنهام[8] في مرصد جبل ويلسون ، قد أبانت عن أن

(1) Telescopes (2) Infra-red (3) Ultra-violet (4) Wright (5) Spectroscopic analysis
حل الاضواء المنبعثة من النجوم الثوابت والسيارات لمعرفة حقيقة المواد التي تتكون منها
(6) Adams (7) St. John (8) Dunham

جو المريخ يحتوي بخاراً نسبته ثلاثاً في المئة من كمية البخار الذي يحتويه جو الارض، وبه اوكسجين أقل واحداً في المئة من الاوكسجين الذي في جو سيارنا

والقياسات الحراريكهربية[1] للاشعاع المرّيخي التي عملت في مرصدي لويل وجبل ولسون قد أبانت عن أن حرارة الظهيرة في منطقة الاستواء المريخية تتراوح بين ٣٠ و ٨٠ درجة فارنهايت، تبعاً لاقتراب السيار من الشمس أو بعده عنه. والدخان العالي الدائم الذي ينبعث من جو المريخ ينزع بنا الى القول بأن انخفاض درجة الحرارة الى حد الجليد، لا بدَّ من أن يقع وشيكاً في سطح هذا السيار بعد غروب الشمس مباشرة، حتى في أشد المناطق انخفاضاً. ووفقاً لذلك قضى الفلكيون بأن جارنا المريخ ليس موافقاً للحياة على الصورة التي نعرفها. ولكن مثل هذا القول لا يحل المشكلة، ولا يخرجها من مجال البحث.

قد يرد الى ذهننا سؤال: لماذا يتجه فكرنا الى المريخ كلما جدَّ البحث عن الحياة في اجرام السماء، وما المريخ الاَّ كرة صغيرة من آلاف الكرات المنثورة في الفضاء؟ هنالك أسباب كثيرة، ولكن أهمها هو موقع المريخ من النظام الشمسي، إذ هو السيار التالي للارض من حيث البعد عن الشمس، وموقعه هذا يجعل رصده أهون وأجدى من رصد غيره. ولكن ما بال الزهرة Venus وهي قد تقترب من الأرض فتصير منها على بعد لن يصل اليه المريخ؟ ولكن للمريخ ميزة على الزهرة. ذلك بأن الزهرة قريبة جدًّا من الشمس فموقعها غير ملائم لظهور الحياة. ناهيك بأنها مهما اقتربت من الأرض فانها لا ترينا الاَّ وجهها المظلم، أي الذي لا تقع عليه أشعة الشمس، ولا تسمح للمقارب[2] أن ترى غير هذه الناحية منها. أضف الى ذلك أن عطارد والمريخ هما السياران الوحدان في النظام الشمسيّ اللذان يمكن الفحص عن سطحهما. فان غيرهما من السيارات مغلَّفة بغلالة سميكة من السحب تخطر في جوّها بحيث لا يمكن اختراقها الى السطح بحال.

عُطارد قريب جدًّا من الشمس، بحيث لا يمكننا أن نتصوَّر وجود أي صورة من صور الحياة فيه على ما نعرف من خصائصها. ان حرارة عطارد بالنسبة الى قربه من الشمس تكفي لصهر الرصاص، وهذه الحرارة تتناوب على وجهيه سنة بعد أخرى. وهو يتوجه الى الشمس بنصف كرته سنة، وسنة أخرى بنصفه الآخر. فالنصف الذي يتعرَّض الى الشمس تشويه الحرارة شيًّا، حتى لقد يصبح سطحه في حرارة الرصاص المذاب. أما

(١) Thermo-electric (٢) Telescopes

النصف الذي لا يكون معرَّضاً للشمس فيكون في ظلام دامس ، وتهبط حرارته حتى تبلغ ٤٥ درجة تحت الصفر . فلم يبقَ إذن غير المريخ من سيار يتوجه نحوه أهل الأرض بالبحث عن آثار الحياة .

دورة المريخ من حول الشمس تجعل فيه فصولاً إقليمية كفصول الأرض . ولا شك في أن هذه الفصول أبرد من فصول الارض لبعد السيار عن الشمس . وهي أطول مدًى لأن سنة المريخ سنتان أرضيتان تقريباً . وإذا كان في المريخ أقاليم ينبت فيها الزرع وهي تستمد طاقتها الحيوية من حرارة الشمس ، فلاشك نتوقع أن سطحه يكون عرضة للتغيرات الموسمية . ذلك بأن الزرع على سطح الأرض إذ يزدهر في الربيع ، ويصيبه السبات في الشتاء ، فان حاله يكون كذلك في السيارات الاخرى، بأن يجري على دورات من الازدهار والسُّبات ، إذا تعرَّض لحالات تشابه حالات الارض .

ونحن إذ نرى المريخ يضيء كأنه نجم أحمر اللون في السماء في أثناء الليل ، نظن أن هذا اللون هو لون سطحه الحقيقي . ان اللون الاحمر يستغرق ثلثي حجم المريخ ، في حين أن الثلث الآخر هو عبارة عن ندوب سود كبيرة وصغيرة متفرقة على سطحه هنا وهناك ، كما انها تختلف شكلاً وظلاً ، وهي فوق ذلك متغيرة غير ثابتة .

فاذا تقدم النصف الشمالي من المريخ نحو الربيع فان معظم مساحته تلبس لوناً أزرق الى الخضرة . ويكون هذا اللون باهتاً حائلاً أول الأمر ، ثم يشتد شيئاً بعد شيء ويستمر كذلك الصيف بطوله . فاذا أقدم فصل السُّبات أخذ ذلك اللون الازرق المخضرّ في الزوال تدرجاً ، حتى اذا أناخ الشتاء على تلك الاصقاع استحال الى الدكنة . ذلك في حين أن الندوب السود في النصف الجنوبي تجري على نفس هذه الدورة ، ولكن باختلاف في زمن الاكتساء باللون . فالزرقة في الشمال تقابلها دكنة في الجنوب ، والدكنة في الجنوب تقابلها الزرقة في الشمال . وهذه الدورة مستمرة التناوب في مناطق المريخ .

من الجائز ان الانسان يستطيع أن يعلل هذه التغيرات بحيث يردها الى آثار غير عضوية ، ولكن أهون تعليل وأكثر التعليلات مسايرة للمنطق هو القول بأن هذه الندوب السود انما هي مساحات واسعة يكسوها الزرع . ويكاد الفلكيون يجمعون على هذا القول .

ولكن ماذا يقول العلم عن ذوات عاقلة في المريخ؟ إنه لا ينكر ولا يقرر ، لا يثبت ولا ينفي .



الارواح

أبى حضرة الفاضل الأستاذ نقولا الحداد إلاّ أن يكتب مرة أخرى في موضوع الروح معارضاً حقيقة تحضير الأرواح منكراً أن للانسان روحاً . الأستاذ نقولا الحداد يرى أن شخصه آلة تحركها وتسيرها تفاعلات كيميائية الى آخر ما قال . وهو لا يعترف بروح أو نفس ، ويعتمد في كل ذلك على ما قرأه هو وتلقاه من كتابات علماء القرن التاسع عشر ومن ردّدها من علماء القرن العشرين . وهو يدعي في جرأة غريبة أنه اطلع على مؤلفات جينز وايتشتين وادنجتون (وهم من سماهم بلغته الفصحى تجينز وأينشطين وإدنغتون) بل لقد قال إنه اطلع على مؤلفات غير هؤلاء من أمثال بلانك وسير أوليفر لودج ... الخ . وقال في جرأة أشد وأغرب « ولم أر أنهم نادوا بانهيار مذهب آلية الكون لخطموا الكون المادي تحطيماً » وأنكر أن الكون المادي تبخر في ضوء علم الفيزيقا الحديثة ، وتهكم على ذلك بقوله « نعم لم يصل هذا الى علمي لأنه لا هو (يريد ني أنا) ولا أنا تحطمنا وتبخرنا مع أننا نحن من الكون المادي » . أرأيت اللباقة والحجا ؟ ! ومضى يستنتج في منطق غريب اني أعني « أن المادة غير موجودة وان الروح وحدها موجودة » مع اعترافه بأني قلت إن الروح مادة . وطلب أن أرشده إلى مؤلف يتبسط في هذا الموضوع . ولما جئت له بكلام اينشتيز الذي يعترف فيه بوجود الأثير، عاد فاستدرك انكاره هو قائلاً انه اطلع « على بعض ما كتبه اينشطين » مع أن الأستاذ نقولا هو مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » وكان يوم أصدر هذا الكتاب، يسمى صاحب نظرية النسبية أينشتين لا أينشطين .

واما أن الأستاذ نقولا الحداد لم يطلع على مؤلفات جينز وأينشتين وادنجتون الخ . أو انه اطلع عليها كلها أو بعضها ولم يفهمها فاليه الدليل : —

أولاً — عن العلامة جينز ونبدأ بالكتب التي ذكرها مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » في ثبت المراجع التي استعان بها في التأليف .

١ — في كتاب « الكون الغامض » ترجمة وزارة المعارف وقد قام بها زميلي الأستاذ عبد الحميد حمدي مرسي يوم كان وكيلاً لادارة الترجمة ، وراجع الترجمة العلامة الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم — نرى المؤلف يقول « وعندما حاول العلماء منذ مائة عام أن يفسروا العالم تفسيراً آليـًا لم ينبر لهم رجل حكيم يؤكد لهم أن النظرة الآلية لا بدّ من أن يخطئها

التوفيق في آخر الأمر ، وان الظواهر الكونية لن يكون لها معنى إذا لم تعرض عرضاً رياضيًّا بحتاً » . الى أن قال «وها قد بدأ الكون يتضح مما في خلق الكون نفسه من دليل أن مبدع الكون الأعظم عالم من علماء الرياضة البحتة » . ولما علق على فلسفة باركلي القائلة بوجود روح أبدي خالق قال «وسواء أكانت الأجسام موجودة في عقلي أم في عقل أي روح من الأرواح المخلوقة الأخرى أم لم تكن، فان شيئيتها تنتج من وجودها في عقل روح أبدي». وقبيل ختام هذا الفصل الأخير في الكتاب قال « بدأ الكون يلوح أكثر شبهاً بفكر عظيم منه بآلة عظيمة » .

٢ — وفي كتابه « الكون الذي حولنا » نراه بعد استعراضه بعض الآراء الفلسفية الخاصة بتصوير الكون يقول : ان هذا يقرّبنا كثيراً الى تلك المذاهب الفلسفية التي تعتبر الكون فكرة في عقل خالقه ، وبذلك يختزل جميع النقاش بالخليقة المادية الى سخف عديم الاعتبار »

٣ — وفي كتابه « الوراء الجديد للعلم » يقول : « كان رأينا الأخير في الطبيعة قبل شروعنا في أن نخلع عنا نظاراتنا الآدمية أنها خضم من الآلية يحيط بنا من جميع الجهات . ولكنا حين بدأنا نخلع بالتدريج نظاراتنا وجدنا المدركات الآلية تتداعى مخلية الطريق للمدركات العقلية ... الخ » .

هذا ما جاء في الكتب التي استشهد بها صاحب « هندسة الكون » . أما عن التي لم يستشهد بها من مؤلفات جينز فاليه ما يلي : —

٤ — في كتاب « علم الفلك وعلم تكوين العالم » نرى جينز قد ختمه بهذه العبارة : « لنعلم إذاً أن الجنس البشري في بداية وجوده ، فهو اذا قسناه بمقياس الزمن الفلكي لا يكون قد عاش إلا بضع لحظات قصار ، وانه قد بدأ ينظر الى الكون الخارجي عنه هو نفسه . وإخال أنه يكاد يكون من المتعذر عليه أن يفسر ما يحيط به تفسيراً حقيقيًّا في تلك اللحظات القليلة الأولى التي منها تفتحت عيونه » .

٥ — فلما تفتحت العيون تكلم جينز في كتابه « الفيزيقا والفلسفة » الصادر سنة ١٩٤٣ صراحة على انهيار المذهب الآلي في الفصل الرابع وعنوانه « انقضاء العصر الآلي The Passing of the Mechanical age » وفي الفصل الأخير الذي عنوانه « بعض مسائل الفلسفة » نرى جينز تحت عنوان فرعي هو « المظهر والحقيقة » يقول : « ان عالم المادة يتألف من عالم الشهادة كله ، ولكنه لا يحتوي على عالم الحقيقة كله . ويصح أن نقول إنه مجرد مقطع في عالم الحقيقة » .

ثانياً — عن العلامة ادنجتون وقد استشهد الأستاذ نقولا بمؤلفاته .

١ — في كتاب « طبيعة العالم الفيزيقي » نرى ادنجتون قد استهله بفصل عنوانه : « انهيار الفيزيقا الكلاسيكية » تحدث فيه عن تكوين الذرة فقال في الصفحة الأولى « اذا نحن محونا كل الفضاء الخلاء في جسم الانسان وجمعنا بروتوناته وإلكترونانه لتكون كتلة واحدة، فان الانسان يختصر الى هباءة تكاد لا ترى إلا بمنظار مكبر » .

٢ — وفي كتابه « المسالك الجديدة في العلم » نرى ادنجتون قد تكلم في الفصل الأخير كلاماً صريحاً عن « طبيعة الانسان الروحية » وعن « الحقيقة الروحية » منكراً أن الانسان آلة .

٣ — وفي محاضرته المطبوعة عن « العلم والعالم غير المنظور » نراه قد قال « لا بدَّ لروح الانسان من أن تعود الى العالم غير المنظور إذ أنها تخصه » .

ثالثاً — في كتاب « تطور الفيزيقا » لمؤلفيه اينشتين وانفلد، نرى موضوع الجزء الأول من الكتاب « قيام المذهب الآلي » ونجد موضوع الجزء الثاني منه « انهيار المذهب الآلي » وقد قال المؤلفان في ختام هذا الجزء « إن العلم لم ينجح في المضي بالمنهج الآلي بشكل مقنع ، ولا يوجد اليوم من علماء الفيزيقا من يعتقد في إمكان المضي فيه » .

رابعاً — في كتاب « الكون في ضوء الفيزيقا الحديثة » لمؤلفه العلامة بلانك نراه قد ختمه بهذه الجملة « ان الفيزيقا الجديدة تقرر لنا بشكل خاص صدق المذهب القديم القائل بأن هناك حقائق ليست في متناول مدركاتنا الحسية ... الخ » . وبلانك هذا من العلماء الذين قرأ الاستاذ نقولا لهم !

خامساً — في كتاب « تركيب الطبيعة » لمؤلفه العلامة أندريد أستاذ الفيزيقا حالاً بجامعة لندن نراه قد صدَّر الفصل الأول الذي عنوانه « ما الفيزيقا » بهذه الجملة : « إن من واجب الفيلسوف أن يفكر في الطبيعة العامة للأحداث المادية والروحية التي منها تتألف حياة الانسان » .

سادساً — لم يكشف العلم بعد شيئاً يصح أن يقال انه خامد ميت حتى لقد قال العلامة هوايتهد في كتابه « العلم والعالم الحديث : « إن الذرة حولت نفسها الى كائن حي ... »

سابعاً — يقول العلامة السيكولوجي يونج في كتابه « الانسان الحديث يبحث عن نفس » وفي الباب الذي عنوانه « مسألة الانسان الحديث الروحية » ما يأتي : « وحتى الفيزيقا قد بخرت عالمنا المادي ، ولهذا فلا عجب اذا عاد الانسان الحديث فلصق بحقيقة الحياة الروحية مترقباً منها ذلك التثبت الذي أنكرته الدنيا عليه » .

مما مضى يتضح كيف نادى العلماء الذين استشهد بهم أستاذنا نقولا الحداد بانهيار المذهب الآلي ، وفي هذا المعنى تبخر الكون المادي وتحطم ياصاحب « هندسة الكون » !

وغريب من أستاذنا أن يستشهد بكتاب « الأثير والحقيقة » لمؤلفه سير أوليفر لودج، لا لأن هذا الكتاب يعترف صراحة بوجود الأثير ، بل لأن أوليفر لودج هذا من أساطين الروحيين . ففي كتبه « ما وراء الفيزيقا » و « ريموند » و « فلسفتي » قد نادى بالروح وبالحياة بعد الموت وبامكان الاتصال بأرواح الموتى . وفي خطبة له ألقاها سنة ١٩٤٠ قبل وفاته بشهور في قاعة براونتج في ولورث قال يخاطب الحاضرين « أقول لكم اننا باقون بعد الموت ، والتواصل بين الأحياء والموتى ممكن . ولقد أثبت أن الذين اتصلوا بنا هم حقيقة نفس من قالوا انهم هم . والنتيجة أن الحياة بعد الموت من الوجهة العلمية قد أثبت البحث العلمي صدقها » .

وأعود فأقول إن الروح مادة لا تستجيب لها المشاعر ، وهل تستجيب المشاعر للكهارب التي هي أصل المادة ولبناتها ؟ . ولقد صورت الروح في كمبردج وفي المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن ، وفي المانيا وفي الولايات المتحدة وكندا وغيرها .

وتوجد كتب كثيرة جداً تبحث في تصوير الارواح وتجسيدها وتسجيل اصواتها المباشرة واكتفي ان أحيل الاستاذ نقولا الحداد الى الكتب الآتية :

ا — « ظواهر التجسد » لمؤلفه الألماني العلامة فون شرنك نوتزنج استاذ البيولوجيا في جامعة ميونيخ

ب — « تصوير غير المرئي بالفوتوغرافيا » لمؤلفه الدكتور كوتس

ج — « تجارب في العلم الروحي » لمؤلفه العلامة واريك

د — « خمسون من سني البحث الروحي » لمؤلفه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية وقد صدر هذا الكتاب بصورة فوتوغرافية لروح متجسدة يعد نبضها أحد اطباء كلية الجراحين بلندن وقد التقط الصورة العلامة السر وليم كروكس

هـ — « التجسدات » لمؤلفه هاري بودنجتون وفيه صورة لسير وليم كروكس وهو متأبط ذراع روح متجسدة

و — « موسوعة العلم الروحي » لمؤلفها الدكتور ناندور فودور

ز — « أنباء من العالم الثاني » لمؤلفه القس المحترم تويديل وفيه صور عديدة من بينها صورة فوتوغرافية لروح سير وليم كروكس وبجوارها صورة فوتوغرافية له صورت قبل وفاته

ح — « وساطة جاك وبر » لمؤلفه هاري ادواردز وفيه صور لمختلف الظواهر التي

تمت في كمبردج مصورة بالأشعة تحت الحمراء ومن بينها صورة للوسيط الواقع في الغيبوبة ظهرت معها صورة لروحه المنسلخة منه

ط — « الحياة الآن والى الابد » لمؤلفه الدكتور ولز عميد كلية العلوم والبحوث الروحية في الولايات المتحدة

ي — « المسألة الكبرى » لمؤلفه الطبيب البارع الدكتور جورج لندسي جونسون

وسواء كان العلم الروحي هو Psychical Research أو Spiritism فان المعاهد الروحية والعقلية أثبتت وجود الروح بالبرهان العلمي. ولقد وصل العالمان الهولنديان الدكتور ثان زلست والدكتور مولطا الى وزن الروح بجهاز خاص ابتدعاه اسمه « الدينا مستوجراف » وتجد صورة لهذا الجهاز في كتاب « تجارب معملية في الظواهر الروحية » لمؤلفه العلامة السيكولوجي الدكتور هيريوارد كارنجتون أحد أعضاء لجنة التحكيم في المباراة الخيالية التي أقامتها مجلة « سينتفك أميركان » .

وأؤكد لسيدي الأستاذ نقولا الحداد أنه لا يساير الحركة العلمية العالمية وعلى الأخص في البحوث الروحية ، وأتحداه أن يذكر لي أسماء خمس كتب فقط قرأها من كتب العلم الروحي الحديث ظهرت في السنين العشر الأخيرة لأساتذة جامعيين . بل انه لا يتابع الحركة العلمية العالمية في الفيزيقا ، وبرهاني على ذلك انه وهو مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » لم يكن قد عرف حتى فبراير من سنة ١٩٤١ كيف أن الجسم اذا تحرك بسرعة الضوء انكمش الى حيز العدم ، على حين تزيد مادته الى ما لا نهاية . فقد كتب في مقتطف فبراير سنة ١٩٤١ بعد ما قرأ كتابي « الفيزيقا الحديثة » يطلب تعليلاً لما سماه « التناقض العجيب » في نظرية النسبية . وأرجو أن لا ينسى قرائي أنه مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية ». وقد أوضحت له في مقتطف ابريل سنة ١٩٤١ أنه لا تناقض البتة ، وذلك لأننا نهمل في بحوثنا المادية كل ما يتعلق بغير المدرك من مشاعرنا، وضربت له على ذلك الأمثال .

ويأبى الأستاذ نقولا الحداد الا أن يكون مفرداً علماً له مصطلحاته العلمية الخاصة . ذلك أنه في كتابه « هندسة الكون » اختار مصطلحات غريبة غير المصطلحات المتعارفة المفهومة في مدارسنا ومعاهدنا العلمية ،وكلياتنا الجامعية. مثال ذلك « الاستمرارية والمسارعة » يريد بهما « القصور الذاتي والعجلة » و « الجو الكهربي والجو المغناطيسي » يريد بهما « المجال الكهربي والمجال المغناطيسي » و « قوة الشرود عن المركز » يريد بها « القوة المركزية الطاردة » و « القوة energy » يريد بها « الطاقة » و « الزمكان » يريد « الزمكان » . ذكرت هذا لأنه

استغرب المصطلح « الفترات الفضازمنية Space-time intervals » ويكفي أن أقول إنه في الترجمة العربية التي قامت بها وزارة المعارف لكتاب « الكون الغامض » سالف الذكر قد اختير المصطلح «الفضاء والزمن » مقابلاً المصطلح space-time .

***

ونعود الى الحادث الذي أثار هذه المناقشة وهو حادث رؤيا رفعة حسنين باشا ، فنؤكد له أنه حقيقي،وأن رفعة حسنين باشا لم يكذبه حتى بعد أن طلب الاستاذ نقولا الحداد في المقتطف وفي التعليل الذي نشره المقتطف لنا حوادث مشابهة . وأما القول بأن الحادث وهم وخداع فهروب من التعليل بشكل لا يليق بمؤلف كتاب «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وإن يكن هذا الهروب بذلك الشكل المضحك لا يمكن أن يضاهي بما سماه « التناقض العجيب» في نظرية النسبية ! !

ونسأل أستاذنا الكبير نقولا الحداد أن يعلل لذلك الحادث الذي وقع لسعادة الدكتور نجيب محفوظ باشا وقد أنبأنا به حضرة الطبيب الفاضل الدكتور مصطفى شعراوي بك . وخلاصة ذلك الحادث ان الدكتور نجيب باشا دعي مرة لتوليد إحدى الاميرات ، وكانت الولادة عسرة . ومكث شطراً كبيراً من الليل يجاهد حتى تعب ، فجلس ليستريح ، فأخذته سنة من النوم ، فرأى في منامه المرحوم ولده يبشره بأن الاميرة قد وضعت ويدعوه أن يتم اجراءات الولادة . فاستيقظ الدكتور على الفور ، واذا به يجد الاميرة قد وضعت فعلا ، فأجرى الاسعافات اللازمة لها والمولود . ولما اطمأن ارتدى ملابسه وغادر قصر الاميرة الى داره . فلما دخل داره وجد كريمته يقظى ، وما إن رأته حتى أقبلت عليه وسألته في لهفة قائلة «هل ذهب اليك ؟» فدهش وقال متجاهلا «من؟» قالت«شقيقي» فلقد زارني في الحلم وقال لي إنه ذاهب لكي يسري عنك ويبشرك بأن الأميرة قد وضعت». قال « نعم لقد زارني ونبهني، يبارك الله لنا فيه حيًا وميتاً » .

هيا علل لهذا الحادث أيها الصيدلاني المتبحر في علوم الارض والسماء ، والمتتبع الحركة العلمية العالمية . هيًا واستفسر أولاً من سعادة الدكتور عن صحة ذلك الحلم ، وحذار أن تنسبه للوهم والخداع والعقل الباطن الذي أنكره جماعة السيكولوجيين وفي مقدمتهم مكدوجل ويونج وفرويد نفسه . وعد الى كتابنا الحديث « السيكولوجيا والروح» ففيه البيان القاطع . ولا نخالك إلاّ متفقاً معنا في أن الكمرا وخاصة باستخدام الاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية في البحوث العلمية لا تنخدع ، وبنوع أخص إذا أجريت التجارب في كمبردج تحت رقابة علمية شديدة . وجهاز « مخدع واسن » الذي صورت به

سيول الكهارب ثم صورت به أرواح الحيوانات عند موتها ، لا بدّ أن يكون صادقاً في الحالتين .

ولقد دقّ ناقوس البشائر فعلاً بظفر البحث علميًّا بالروح ، ويخيل الينا أن إكباب الاستاذ نقولا الحداد على هندسة الكون واشتغاله بها لم يترك له وقتاً للقراءة والبحث . وانه لواجد البرهان العلمي العملي عند صديقه وزميله الدكتور صابر جبرة كبير صيادلة مستشفى قصر العيني . نعم ليسأله يحدثه كيف أن الارواح أبرأت السيدة حرمه من ذلك المرض المستعصي القاتل Myasthenia Gravis بعد أن عجز الطب والعقاقير عن ابرائها . سله يا سيدي الاستاذ نقولا يحدثك عن الاشعاعات والاضواء الروحية التي كانت تعالج بها . سله يحدثك عن الارواح المعالجة وكيف تيسر لمن معه رؤيتها سواء أكان العلاج عن بعد أم عن قرب . وكذلك سل الدكتور شوقي نخلة طبيب مستشفى الاقصر كيف أبرأته الارواح من أخبث حالات اكتهاف العمود الفقري وهو النوع المسمى Syringo-bulbia بعد أن أشرف على الموت ، وهو سيحدثك عن تلك الاضواء التي رآها تنصب عليه . بل سل كذلك حضرة الطبيب الفاضل الدكتور منير الجزائرلي أستاذ الباثولوجيا بكلية الطب بجامعة فاروق الاول عن الارواح التي يراها ، وسله كيف رأى عندنا الارواح المعالجة وما تحمل من أجهزة أثيرية تستحدث بها مختلف الاشعاعات . واقرأ يا سيدي عندي مجلة « سايكك أوبزرفر » الامريكية رقم ١٥٨ بتاريخ ١٠ ابريل سنة ١٩٤٥ ورقم ١٦٢ بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٩٤٥ تجد كيف أن طبيباً توفى منذ تسعة عشر عاماً قد تجسد وهو روح أمام أطباء وصحفيين وأجرى عملية استئصال الزائدة الدودية بنجاح في الظلام بغير مبضع الجراح وعقاقير الصيدلي . وأثبت الكشف بالاشعة السينية قبل وبعد العملية وجود الزائدة ثم اختفاءها ثم وجودها في قاروزة ملأى بالكحول أعدت من قبل كطلب ذلك الطبيب الجراح الميت الحي . وكان ذلك في البرازيل . وقد كتب قنصل الولايات المتحدة المساعد تقريراً مصوراً نشرته المجلة في العدد الثاني المذكور . وأشارت مجلة « سايكك نيوز » اللندنية الى ذلك في عددها رقم ٦٧٦ بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٤٥ وعادت فذكرت في عددها رقم ٦٨٩ الصادر بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ أن هذا الطبيب « الميت » قد تجسد روحه ثانياً وأجرى عملية أخرى لاستئصال الزائدة الدودية أمام جمهور من بينهم ثمانية من الأطباء نصفهم من الجراحين ، وأن أحد هؤلاء الجراحين ابن لذلك الطبيب الميت . وهذا الطبيب الميت الحي هو الدكتور أمارال ! !

بقيت مسألة هوديني غفر الله له فأقول لسيدي الاستاذ نقولا الحداد « صحّ النوم ».

عد يا سيدي الى كتاب « ظواهر حجرة تحضير الأرواح » لمؤلفه العلامة الطبيب الدكتور باورز أستاذ الأمراض العصبية فى منيا بوليس ، وقد نقلنا هذا الكتاب الى العربية ، وإلى مجلتي الهلال والعلوم تتضح لك حقيقة هوديني الوسيط الروحي المتساحر . ويجب أن نفرق بين وساطته وشعوذته . ويكفي أن أقول إن لهوديني كتاباً اسمه « ساحر بين الأرواح » كتبه ليهاجم به الروحية ، وقد قال عنه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية في كتابه « خمسون من سني البحث الروحي » إنه « عبارة عن مجموعة حيل وألاعيب لا يجرؤ على استعمالها أي وسيط مدلس خارج مستشفى المجاذيب » .

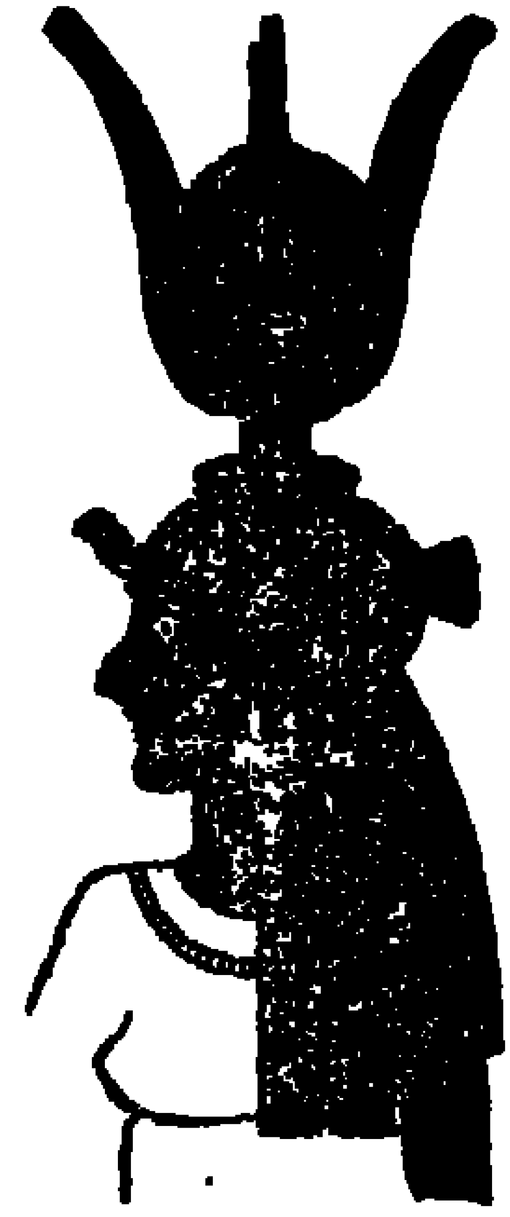
وفي عدد مجلة « سايكك أوبزرفر » الأمريكية رقم ١٦٠ الصادر بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٤٥ نرى نصاً لمحاضرة أذاعها الوسيط الروحي آرثر فورد من راديو ميامي في فلوريدا عن « الروحية كعلم ودين » . وفورد هذا هو رئيس الجمعية الدولية العامة للروحيين ومدير جمعية فلوريدا الروحية بهوليوود ، وهو الوسيط الروحي الذي فضح هوديني ، واستحضر روحه بعد وفاته واستخلص منه الرسالة الشفرية المتفق عليها بينه وبين زوجه مسز هوديني . وقد نشرنا بالزنكوغراف اعتراف مسز هوديني بصحة الرسالة ممهوراً بامضائها . بل لقد نشرنا اعترافاً لهوديني نفسه قبل وفاته بأنه هو نفسه وسيط روحي . وهوديني هذا لما استغل وساطته لجمع المال والتشهير بالروحية غير عابئ بنصيحة الأرواح المهيمنة عليه هجرته هذه الأرواح وراح ضحية إحدى ألعابه الخارقة وكان يجريها في جامعة مكجيل بأمريكا ، فخرج مغلوباً على أمره الى المستشفى ثم الى القبر .

مرة أخرى « صح النوم » يا سيدي المساير للحركة العلمية العالمية .

يا سيدي الأستاذ نقولا الحداد ، كان من بين الأساتذة في جامعة وارسو أستاذ له مكانة علمية خاصة هو العلامة أوكوروفكز ندد بالعلامة سير وليم كروكس حين جهر بآرائه الروحية التي ظهرت مطبوعة في كتابه النفذ « بحوث في ظواهر الروحية » . فانظر ماذا قال بعد ذلك . لقد قال : —

« انني حين أذكر كيف أني رميت بالخرق والغباء والحمق ذلك الباحث الشجاع كروكس لأنه كان لديه من الشجاعة ما وكد به صدق الظواهر الروحية ، فانني أخجل من نفسي ومن غيري وأصيح من أعماق قلبي : اغفر لي يا أبي : فلقد أجرمت في حق النور » .

احمد فهمي أبو الخير
مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف



تقسيم
تاريخ مصر القديمة

اعتاد علماء التاريخ المصري القديم أن يقسموه الى عصور رئيسة أطلق على كل منها اسم معين . غير اننا لو تعمقنا في دراسة التاريخ وآثاره نرى ان معظم هذا التقسيم الشائع بتسميته غير مطابق للحقيقة والواقع .

فالعصر الأول : يقصد به الفترة التي يرجع تاريخها الى ما قبل الأسرة الأولى وأطلق عليه « عصر ما قبل التاريخ » على أساس أن التاريخ يبدأ عند وجود الكتابة ويعتمد على النقوش المدونة فقط .

على أنه لدينا بلاداً لم تعرف الكتابة قديماً ، وأخرى عرفت الكتابة ولم نستطع قراءتها ، وبالرغم من هذا فلها تاريخ . فتكون الكتابة وتدوين الحوادث اذن ليست الوسائل الوحيدة للتاريخ ، بل هناك وسائل أخرى أساسها علم الانسان، وعلم الحيوان ، وعلم طبقات الأرض، وعلم الآثار. وقد أرشدتنا هذه العلوم مجتمعة الى معرفة تاريخ هذا العصر الطويل الذي يبدأ من حوالي سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد الى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، كما أن هذا العصر أول قسم نبدأ به تاريخنا لذلك كله نطلق عليه اسم «فجر التاريخ» .

العصران الثاني والثالث : يطلق الأول منهما على عصر الأسرة الأولى والثانية ويسمى بالعصر العتيق، والآخر على عصر بناة الاهرام من الأسرة الثالثة الى السادسة ويسمى باسم الدولة القديمة ، فيقتطع أصحاب هذا الرأي الأسرتين الأولى والثانية بدعوى أن المرجع في تحديد ذلك الى بناء الاهرام .

لكننا نرى ان الدولة القديمة تبدأ من الأسرة الأولى وتستمر الى الأسرة الثامنة أي من حوالي سنة ٣٢٠٠ ق. م. الى سنة ٢٢٤٥ ق . م. لأن بناء الاهرام لا يجب أن يوضع في المكان الأول ويتخذ أساساً لتقسيم دول التاريخ المصري القديم ، وانما التقسيم كان قائماً على التوحيد السياسي للبلاد تحت رعاية ملك واحد، بعد ان كانت عبارة عن ولايات مفككة، والذي كان من نتائجه ان أصبحت البلاد جميعها ملتفة حول العرش رمز البلاد . ولقد تمت

وحدة مصر الأولى على يد الملك مينا (نعرمر) أول ملوك الأسرة الأولى حوالي سنة ٣٢٠٠ ق. م. ونطلق عليه اسم « عصر الوحدة الأولى » .

العصر الرابع : وهو العصر المتوسط الأول ويشمل الاسرات السابعة الى العاشرة في نظر المؤرخين ولكن أشرنا سابقاً بأن عصر الوحدة الأولى ينتهي بالاسرة الثامنة ونضيف الآن بأنه من الاسرة التاسعة الى منتصف الحادية عشر نطلق عليه اسم « عصر تفكك الوحدة الاولى » وذلك لأن التوحيد السياسي قد تفككت أوصاله في هذه الفترة من ٢٢٤٥ ق . م الى ٢٠٧٠ ق . م

العصر الخامس : يطلق عليه المؤرخون عصر الدولة الوسطى ويشمل من أول الاسرة الحادية عشر الى آخر الاسرة الثانية عشر، ونرى هنا أن الوحدة السياسية قد عادت الى البلاد على يد الملك « نب حبت رع » منتوحبت الثاني حوالي سنة ٢٠٧٠ق . م . أي من منتصف الاسرة الحادية عشر، واستمرت حتى منتصف الاسرة الثالثة عشر (حوالي سنة ١٧٥٧ ق.م) ونسميه عصر الوحدة الثانية »

العصر السادس : ويطلق عليه العصر المتوسط الثاني ويشمل من الاسرة الثالثة عشر الى آخر الاسرة السابعة عشر. ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثانية من منتصف الاسرة الثالثة عشر الى الاسرة الخامسة عشر أي من سنة ١٧٥٧ ق . م الى سنة ١٧٣٠ق . م وعصر حكم الغزاة الهيكسوس من حوالي سنة ١٧٣٠ ق . م الى سنة ١٥٨٠ . ويشمل من الاسرة الخامسة عشر الى الاسرة السابعة عشر .

العصر السابع : عصر الدولة الحديثة ويبدأ من الاسرة الثامنة عشر الى أواخر الاسرة العشرين . ونحن نسميه «عصر الوحدة الثالثة » من حوالي سنة ١٥٨٠ ق. م الى حوالي سنة ١٠٨٥ ق. م (أي بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك احمس الاول واستمر حتى عهد رمسيس التاسع) .

وأهم ما لوحظ من مزايا عصور الوحدة القومية بجانب الازدهار في السياسة والحضارة أن ملوك تلك العصور وجهوا نظرهم الى سياسة خارجية خاصة نستطيع أن نقول انها أصبحت سياسة تقليدية لكل ملك قوي يعتلي عرش مصر الموحدة ، أخذها الخلف عن السلف لدرء الخطر عن أجزاء المملكة المصرية الموحدة تحت عرش ملك واحد . وسنشير اليها مع باقي العصور في مقال آخر باذن الله .

دكتور باهور لبيب
الامين بالمتحف القبطي

سر القنبلة الذرية

كيف تنفجر ومن أين قوتها ؟

قبل أن فوجيء العالم بخبر القنبلة الذرية كان الذي ينفجر في المواد المتفجرة السابقة من بارود وديناميت وكورديت ونيتروجليسرين وترينتروتالبين الخ .هو الجزيء molecule أي أصغر جسيم من المادة . وهو مؤلف من عدد من ذرّات العناصر بقوة الالفة الـكيميائية .

والعامل الاساسي في الجزيء القابل للانفجار هو عنصر النيتروجين على الغالب . لان هذا العنصر شرير لئيم قلما يأتلف مع العناصر الأخرى ائتلافاً مكيناً كما يأتلف مثلاً عنصر الهيدروجين والاوكسجين في تكوين الماء ، أو كما يأتلف الـكلور والصوديوم في ملح الطعام الخ . واذا ائتلف النيتروجين مع عنصر ما يكون عرضةً للانفلات منه، إذا طرأ عنصر ثالث أشد ألفةً بالعنصر الثاني . ولا محل هنا للتفصيل .

إذن فالانفجار في المنفجرات المذكورة آنفاً يحدث في الجزيء molecule المركب من ذرّات مختلفة . ولـكن الانفجار في القنبلة الذرية لا يحدث في الجزيء بل في الذرّة نفسها atom

***

ومما هو معلوم في الطبيعة أن الطاقة الـكامنة في الجزيئات تعادل قوة التجاذب أو الائتلاف بين الذرات المؤتلفة في الجزيئات . فمتى حدث التفكك بينهـا بسبب التفاعل الـكيمائي الذي لا محل لشرحه هنا ظهرت الطاقة من مكمنها قوة شديدة . فاذا انصرفنا عن البحث في انفجار الجزيء الى البحث في انفجار الذرة نفسها ، وجدنا في الذرة ائتلافاً بين عنصريها : الكهرب والـكهيرب أقوى جدّاً من الائتلاف بين عناصر الجزيء الذرية كما سيأتي بيانه .

وهنا أشرفنا على طبيعة الائتلاف في داخل الذرة . هنا نسأل : —

ما هي الذرة !

حتى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل هـذا القرن العشرين كان العلماء يعتقدون أن الذرة atom هي أصغر جسم في المادة لا يتجزأ — هي الوحدة المادية الـكيمية التي تتألف منها كل مواد الـكون من تراب وحجر وخشب ولحم الخ . ولـكل عنصر من العناصر المادية (التي يبلغ عددها ٩٢ عنصراً) ذرّته الخاصـة به التي تختلف عن ذرة أي عنصر آخر . ولم

لكن العلماء يعرفون الفرق بين ذرة عنصر وذرة آخر إلا الفرق في الخواص الكيميائية. ولهذا كان علماؤنا قبل هذا القرن يسمون هذه الوحدة المادية « الجوهر الفرد » . ويسمون الجزيء الذي يتركب من الجواهر الفردة المختلفة أي الذرات atoms « دقيقة » molecule والآن قرروا استعمال الذرة والجزيء .

فيما بين القرنين الماضي والحاضر بدت للعلماء البحاث العمليين ظاهرات جديدة تدلهم على ان الذرة (الجوهر الفرد) ليست أصغر جسيم بسيط تتجزأ اليه المادة . فهي ليست الوحدة المادية في الطبيعة . بل هي نفسها تتجزأ أيضاً الى نوعين من الجسيمات هما وحدتا المادة المؤتلفتين كما سيجيء معنى هذا الائتلاف . كان الكيماوي يقول ان الذرة هي وحدة المادة البسيطة غير المركبة . فجاء الكهربي (نسبة الى الكهرب) يقول : لا . بل الوحدة المادية هي تجاذب كهرب وكهيرب في بطن الذرة نفسها . وهذا التجاذب هو أقوى ألوف المرات من الألفة الكيمية التي بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر .

أول من تنبه الى ان الذرة ليست جسماً بسيطاً غير قابل التجزئة بل هي مؤلفة من جسيمات أصغر منها هو اللورد روذرفورد في أوائل هذا القرن . فلاحظ أن في الذرة تعبئة كهربائية متعادلة أي ذات طرفين أو قطبين ، موجب وسالب . فسمى القطب الموجب « بروتون » ونحن نسميه بلغتنا « كهرباً » وسمى القطب السالب « الكترون » ونحن نسميه « كهيرباً » . ورأى أن ذرات العناصر تختلف بعضها عن بعض بعدد ما فيها من كهارب وكهيربات متساوية في الذرة. فاذا كان في الذرة كهرب واحد فقط كما هو الحال في ذرة الهيدروجين وجب أن يكون فيها كهيرب واحد فقط . واذا كان فيها أربعة كهارب وجب أن يكون فيها أربعة كهيربات كما هو الحال في عنصر الهيليوم . وفي ذرة الذهب ١٩٧ كهرباً ومثلها كهيربات . وهلم جراً .

ثم جاء الدكتور بوهر Bohr الدنمركي فبرهن على أن الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها . وان بعض الكهيربات تقيم معها في النواة والبعض الآخر تدور حول النواة على بعد منها في فلك أو أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس . فالذرة في يقينه كالنظام الشمسي بكل معنى الكلمة لأن الكهيربات تدور في نظام الذرة بحكم الجاذبية حسب قانونها الذي اكتشفه نيوتن .

ثم جاء موزلي المأسوف عليه فبرهن عملياً على عدد الكهيربات السيارة في ذرة كل عنصر (وقد قتل موزلي في الخندق في معركة الدردنيل في الحرب الماضية) فتباً لمن جنده .

الالفة الكيمية تتوقف على عدد الكهيربات السيارة

ولما كانت الكهارب في النواة أكثر عدداً من الكهيربات التي يتم عددها في

الـكهيربات السيارة فتعتبر النواة إيجابية الشحنة الـكهربائية وأفلاك الذرة سلبية . ولـكن الذرة نفسها برمتهـا متعادلة . فلو انتثر منها كهيرب واحد صارت ايجابية ، أو انتثر كهرب واحد صارت سلبية .

(التيار الـكهربائي هو انتقال كهيربات من ذرات الى ذرات متجاورة باستمرار في دائرة circuit فمتى انقطعت الدائرة توقف انتقال الـكهيربات في الحال)

الـكهرب والـكهيرب متساويان حجماً ولـكنهما مختلفان وزناً . الـكهرب يزن ١٨٤٧ مرة وزن الـكهيرب . ولذلك يعتبر الـكهيرب كأنه بلا وزن أي لا يحسب حسابه في وزن الذرة . فيعتبرون وزن الذرة بقدر ما فيها من كهارب . مثلاً ذرة الرصاص تزن ٢٠٧ مرات وزن الهيدروجين الذي في ذرته كهرب واحد وكهيرب واحد فقط .

وفي ذرة الاورانيوم uranium ٢٣٨ كهرباً وهو وزنها بالنسبة الى وزن الهيدروجين .

والأبعاد بين أفلاك الـكهيربات في الذرة وبين نواتهـا التي في مركزها تناسب الأبعاد التي بين الشمس وسياراتها بالنسبة الى أحجامها . فاذاً حجم نواة الذرة بالنسبة الى الذرة نفسها ضئيل جداً ، كما ان جسم الشمس ضئيل جداً بالنسبة الى حجم النظام الشمسي الذي يشمل أبعاد جميع السيارات حول الشمس .

الطاقة التي في الذرة

وهنا مسألة جوهرية جداً في بحثنا وهي : المعلوم ان الأجسـام التي من قطب واحـد موجب أو سـالب تتنافر وتتدافع ، والجسمين اللذين في قطبين مختلفين موجب وسـالب يتجاذبان كما ترى في قطبي المغنطيس والحك (ابرة الملاحين) . ولما كانت الـكهارب كلها موجبة وهي متجمعة في النواة ، كان يجب أن تتنافر وتتدافع وتتباعد . فـما سر تجمعها في المركز خلافاً لقانون الطبيعة ؟ ما هي القوة التي تربطها هناك ؟ هـذا سر لم يكتشفه العلماء حتى الآن . ولـكن الراجح انها متجمعة بقوة الجاذبية centripetal force أي الانجذاب نحو المركز كما ان الـكهيربات السيارة تدور في أفلاكها على بعـد من النواة بقوة الدافعيـة : الاندفاع عن المركز centrifugal force وكلا القوتين معروفتان في النظـام الشمسي ونظام سائر الاجرام . والرأي الحديث ان الـكهارب في النواة مترابطة بقوة كهربائيـة تسمى Electrostatic Force

ومهما يكن السر فلا بد ان هناك قوة او طاقة تربطها . ونرى انها قوة عظيمة جداً

وتظهر عظمتها حين يطرأ طارىء فينفصل أحد الكهارب من النواة وينقذف الى خارج الذرة وينقذف معه كهربه ويلتحمن خارجها فتتنافى التعبئتان الكهربائيتان : الايجابية والسلبيـة وتفنيا معاً بتاتاً . ثم تظهر القوة بشكل حرارة ولمعـة نور ، وهذه القوة محولة في جسيمات أصغر جداً من الـكهيرب وتسمى فوتونات وبلغتنا نسميها ضويئات وهي بلا تعبئة كهربائية

ينفرط عقد الكهيرب الى ١٠٠٠٠٠ فوتون وعقد الـكهرب الى هذا العـدد مضروباً في ١٨٤٠ الذي هو وزنه بالنسبة الى الـكهيرب . يعني يتحولان معاً الى ١٨٤٠٠٠٠٠٠ فوتون او ضُـو يء

اذن فالفوتون هو الوحدة الاولى للمادة . هو الوحدة التي لا تتجزأ بحسب العلم الاخير . ولعلها تظهر في المستقبل متجزئة

وهنا يبدو لنا أمر آخر فيه نظر . وهو : اذا كان الـكهرب الموجب والـكهيرب السالب يتفانيان ويفنيان في الفوتونات اذا التقيا ، فكيف يمكن ان توجد الـكهيربات مع الـكهارب في النواة ولا يفني بعضها بعضاً

هذا أيضاً لغز لم ينحل حتى الآن . ولـكن يمكن القول أن كل كهيرب بعيد عن كهربه يدور حوله في نفس النواة كأنه قمر له كالقمر حول الارض . وحينئذٍ لا تكون النواة كثيفة متراصة بل هي مجموعة جسيمات متباعدة ، والرأي الأخير أن الـكهيرب والـكهرب الملتحمان في النواة . لا تعبئة كهربائية فيهما ويسميان معاً نيوترون

وكان الدكتور شدويك اول من انتبه لهذه الفوتونات وظنهـا نوعاً آخر من الجسيمات لا تعبئة كهربائية فيه فسمى مجموعتها نوترون وتوقع أن يكون خير قذيفة لتحطيم الذرة ، وقد صدق ظنه كما سيأتي بيانه .

هذه الفوتونات تنطلق في الفضاء نوراً وحرارة ومادة أيضاً بسرعة النور أي حوالي ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية — تنطلق تموجات اشعاعية تسمى أشعة « جمّا » .

وقد حسب اينشطين الطاقة التي في جرام واحد المرات بـ ٢١ الف مليون سُـعْـر calories . والسُّعْـر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة كيلوجرام ماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد ، وهذا يساوي حرارة ٣ ملايين طن فحم . فتأمل كم تكون الحرارة التي تحملها فوتونات الـكهرب الواحد وكهيربه . وكم يكون النور الصادر منه ساطعاً . مثل هذا كان من زخم فوتونات القنبلة الذرية التي لا يحصى عددها وحرارتها ونورها .

قوة الاورانيوم Uranium

لا يخفى ان الاورانيوم هو في رأس العناصر ذات الاشعاع radiation ويليه الثوريوم فالاكتينيوم فالراديوم. والاورانيوم يتحول الى ذلك فذاك فهذا على التوالي، وأخيراً يتحول الراديوم الى رصاص.

وعملية التحول هذه تحدث بأن يتناثر كل عنصر من هذه العناصر من تلقاء نفسه تدريجياً كهارب وكهيربات على التوالي حتى تصبح ذرة العنصر الاعلى ذرة العنصر الذي تحته أي ان كل عنصر يذوب رويداً على هذا النحو. والكهارب والكهيربات تتناثر وتنطلق فوتونات اي ضوئيات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم

وقد قدر العلماء الفي وخمسماية سنة لذوبان الراديوم والاورانيوم النهائي على هذا النحو. فاذا كانت حرارة الراديوم أو الاورانيوم التي نحس بها ونوره الذي نراه يستمران ٢٥٠٠ سنة، تنطلق حرارتها ونورها دفعة واحدة في ثانية واحدة كما حدث في انفجار القنبلة الذرية، فهل نعجب من قوة تلك القنبلة الساحقة الماحقة. تصور بارودا كان يحترق تدريجاً في الفي سنة ثم احترق كله دفعة واحدة، فكم يكون احتراقه عظيماً

وقد روى مع خبر ضرب هيرشيما بالقنبلة الذرية انه رئي نور يبهر العيون اكثر من نور الشمس أو لا تطيقه العين وطغت في ذلك الجو حرارة لا تضارعها حرارة الجحيم او حرارة الشمس عند سطحها وهي ستة آلاف درجة سنتغراد، وكان ثمت لسرعة الفوتونات في الاندفاع زخم يفوق زخم قذائف البنادق والمدافع ملايين المرات. فلا نعجب اذا دك هذا الزخم جميع المباني والاعالي وقوض المرتفعات

في ذرة الاورانيوم طاقة هي ألوف أضعاف الطاقة التي في جزيئات النيتروجليسرين مثلاً، لأن قوة الجذب بين الكهارب والكهيربات أضعاف أضعاف قوة الألفة الكيميائية التي في جزيء النيتروجليسرين.

الحرارة والنور اللذان يأتيان الى أرضنا من الشمس، إنما هي فوتونات صادرة من كهارب الشمس وكهيرباتها المقتلعة من ذراتها والمتفككة بسبب تفاني قطبيها الكهربائيين، الموجب والسالب، الملتحمين في أثناء انطلاقها من ذرات الشمس.

فالنور الذي يقع من الشمس على عيوننا هو فوتونات، والذي يقع على النبات والحيوان هو فوتونات تقوم بتمثيل المواد الآلية في أجسامهما. لهذه الفوتونات أعمال عجيبة في تكوين الاكوان وتطورها لا محل لشرحه هنا.

مقدار قوة الدك

وهنا يسأل سائل من أين جاءت هـذه القوة الهائلة التي دكت المدينة الى الحضيض يوماً في قيمتها ؟

والجواب ان سر هذه القوة في سرعة انقذاف الفوتونات الهائل وهي حوالى ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية . واليك الايضاح :

كتلة × سرعة = زخماً

الـكتلة وزن المقدار من المادة . والسرعة مدى انقذاف المقدار بالثانية . والزخم هدة الانقذاف وهي القوة . مثال ذلك : —

تفرض ان حصاة تزن خمسة جرامات رُميت رمياً بسرعة ١٠ امتار في الثانيـة فيكون زخمها ٥ × ١٠ = ٥٠ زخماً على مسافة عشرة أمتار .

ولنفرض كرة صـغيرة من الصلب تزن عشرة جرامات انقذفت من بندقية أو مدفع رشاش بسرعة ٥٠٠ متر في الثانية فيكون زخمها ١٠ × ٥٠٠ = ٥٠٠٠ متر على مسافة نصف كيلو متر ، فهي لا تثقب لوح خشب على هذا البعد . ولـكنها على بعد ١٠ أمتار تثقب لوح زنك سمكه مليمتر ، لأن الزخم يشتد بنسبة مربع البعد عن مركز صدور القذيفة بالعكس . فيكون الزخم مربع $\frac{٥٠٠٠}{١٠}$ = ٢٥٠٠٠٠ زخم .

واذا فرضنا ان هذه الـكرة الفولاذية تزن جراماً واحداً فقط ، وقد انقذفت بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية وهي سرعة النور أو سرعة الفوتون فيكون زخمها ١ × ٣٠٠٠٠٠ = ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر على بعد ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر . فماذا يكون زخمها على بعد خمسة كيلو مترات (أي بعد مركز المدينة عن ضواحيها) ؟ يكون مربع $\frac{٣٠٠٠٠٠٠}{٥}$ = مربع ١٢٠٠٠٠ = ١٤٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ = ١٤ الف مليون وكسوراً . هذا هو زخم فوتونات جرام واحد من الاورانيوم على بعد خمسـة كيلومترات من مركز انفجاره . فلا بدع أن يدك كل ما في المدينة الى الحضيض .

كيف يقلع الـكهرب ؟

نعود الآن الى الذرة ونسأل : ما هي الوسيلة تقلع كهرب منها ؟ أو تحطيمها وتفتيتها الى كهارب وكهيربات ؟ ثم فوتونات وهذا هو العمل العظيم الذي قام به العلمـاء الاميركان

والانكليز في أمركا . كان همهم أن يضربوا الجبل أو اللغم أو أية اداة لكي يقتلعوا الكهارب من ذرات الاورانيوم (الثالث الذي وزنه ٢٣٥) أو تفتيت ذرات هذا العنصر لكي تنطلق بزخم ٣٠٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية يعني بسرعة لمح البرق أو لمح الفكر .

في سنة ١٩١٩ نجح اللورد روذرفورد في اقتلاع كهرب من ذرة . والعلامتان هان وسترسمان فلقا ذرة اورانيوم فلقتين . فتوسما من ذلك امكان تحطيم نوى الذرات بحيث انه كلما تحطمت نواة حطمت جارتها وهكذا تحدث سلسلة تحطيمات . وبعبارة أخرى سلسلة انفجارات (كما يحدث حين تلتهب بعض ذرات البارود فتلهب جاراتها بسرعة) . وهذه هي القضية التي حلها علماء القنبلة الذرية . ومتى عرفت خواص الجسم تماماً وتركيبه سهل على المرء اصطناع المطرقة لتحطيمه

روذرفور اقتطع كهرباً من الراديوم باطلاق أشعة ألفا من الهيليوم عليه ، وأشعة « ألفا » هي أشعة الكهارب أنفسها . وأشعة « بيتا » هي أشعة الكهيربات السابقة . وأشعة « جما » هي أشعة الفوتون التي لا تعبئة فيها . يعني ضرب كهرباً بكهرب أو نواة بنواة . ويوري ولورنس في أميركا وجدا قنبلة أخرى لضرب النواة وهي نواة الديلون أو الديوترون وهو الهيدروجين الثقيل الذي ينشأ منه الماء الثقيل .

ولكن ما هو المدفع الذي يقذف هذه النوى فتصيب الهدف تماماً ؟

هذا ما توفق الى صنعه الدكتور لورنس من جامعة كاليفورنيا ، إذ اخترع جهازاً كهربائياً لهذا الغرض سماه « سيكلوترون » وهو جهاز معقد التركيب يزن نحو أربعة آلاف طن . فينقذف منه الديوترون أي الهيدروجين الثقيل بقوة ١٧٥ مليون فولت . وهذه السرعة الهائلة لا بدَّ منها اذا استعمل الكهرب او الديوترون لانه يحمل تعبئة كهربائية ايجابية تدفع كهرب الذرة بصدمة قوية . ومتى انقذف الكهرب مع كهيربه انحلا الى فوتونات وهي تحمل الطاقة أو القوة التي تندفع بها بزخم شديد .

هذه نظرية مدفع تحطيم الذرة — ذرة الأرانيوم

للأورانيوم ثلاثة نظائر مختلفة الأوزان ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٨ والثاني هو الأصلح لاصطناع قنبلة الذرة، ولكنه قليل بالنسبة الى زميليه جداً . وعزله من بينها يقتضي عملية كيميائية معقدة صعبة جداً . والأورانيوم على كل حال عزيز المنال لقلة وجوده في الطبيعة .

نقولا الحداد

اليأمور

The Narwhal : Technical name : Monodon (genus) Monodon monoceros (species)

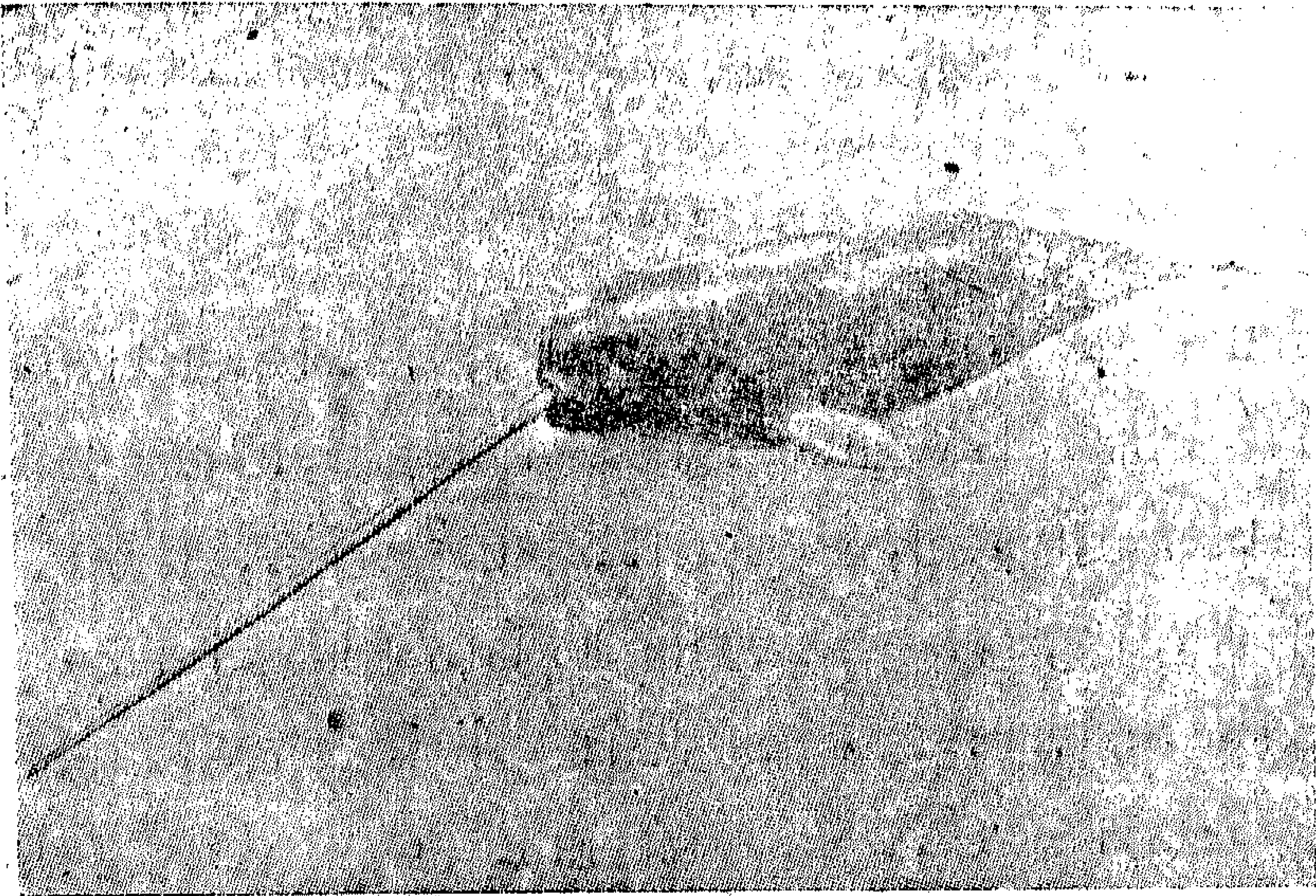
من الحيتان ، وكذلك سماه المعلوف في معجم الحيوان . وفي لسان العرب (٩٤ : ٥) التامور من دواب البحر . واذا شئنا تعريب الاسم قلنا « النرول » ليقابل Narwhal ، وأصل الكلمة من لغات الشمال ، فهي في الدانمركية والسويدية Narhval وفي الايسلندية Nahvarl ، ثم انتقلت من هذه اللغات الى الانجليزية Narwhal والفرنسية Narval or Narwolf والالمانية Narwall .انظر المعجم الانسيكلوبيدي Encyclopaedic Dictionary ص ٣٢٥٢ ج ٣) ، وعندي ان الاولى تعريب اللفظ

***

وقبيلة الحيتان من أعجب صور الحياة ، فهي حيوانات ثديية تعيش في المياه البحرية وتلد وترضع صغارها، وتتنفس الهواء . غير ان من فصائل هذه الحيوانات ما هي أبعث على العجب من غيرها . ومن أعجب أجناس هذه الفصائل «النرول». ففي أول عهده بالحياة يكون أشبه شيء بحوت آخر يقال له تعريباً « البربوز » : Porpoise ، ويكون أدرد فاقد الأسنان . أما عند ميلاده فيكون رصيفاً ، أي ذا أسنان مرصوفة صغيرة . فاذا تقدم به العمر ، فقد هذه الأسنان . ولكن يقع عليه بعد ذلك انقلاب خطير ، ويقع ذلك الانقلاب على الذكور دون الاناث . فان الشفة العليا لا تلبث أن يخترقها ناب يأخذ في الامتداد حتى يبلغ سبع أو ثماني أقدام ، وهذه الناب هي عبارة عن استطالة تمضي فيها احدى السنين القاطعين ، هي القاطعة اليسرى . غير انها تختلف عن جميع أصناف الأسنان في انها مُلَوَّبة حلزونيّة ، وتَلَوُّبها يساري . وقد وقع المواليديون على أفراد من « النرول» لها نابان . ولكن هذه الافراد نادرة الوجود . فاذا وجد لفرد ما نابان، كانت كلتاهما يسارية التلوّب . غير انه وجد أفراد نابها الأيمن يميني التلوّب .

من الطبيعي أن يتساءل المواليديون : ما هي الفائدة التي تعود على الحيوان من هذه الناب ؟ أهي سلاح أم زخرف ؟ ومن الصعب بالضرورة أن يجاب على هذا السؤال جواباً

قاطعاً ، إذا علمنا أن رأي المواليدين فيه مختلف جد الاختلاف ، فيقول البعض انها اداة يكسر بها الحيوان صحيفة الجمد الذي يكون فوق الماء لينشق الهواء . ذلك بأن « النرْوَل » من سكان المناطق الجليدية . ولكن بما ان الأنثى فاقدة الناب ، سقط هذا التعليل . وقال آخرون انه سلاح يقوم عند « النرْوَل » مقام القرون عند الوعل ، إذ هو عدته في سبيل الحصول على أنثاه والدفاع عنها . ولقد رُئي كثير من الذكور وهم يقتحمون معركة حامية ليفوز كل منهم بأنثى ، وكان سلاحهم فيها ذلك الناب الطويل يطعن به الواحد منهم منافسه



اليأمور

فيخترق به جسده بالاندفاع نحوه اندفاعاً قويًّا . وقد ذكر الرحالة الانجليزي « سكورسبي » Scoresby انه أخرج من بطن « نرْوَل » حِدَأَةً (وهي جنس من السمك) ظهر له من شكل الجراح التي بها ، أن ناب « النرْوَل » اخترقها اختراق الحربة حتى أمكن صيدها . ولكن اذا اخترق الناب الفريسة وأصبحت معلقة به ، فكيف يستطيع « النرْوَلُ » أن يتخلص منها ، وينزعها من هذه الحربة المُلوَّبة ؟ ربما استطاع ذلك بحركة رجعية سريعة خلال الماء ، فتندفع الفريسة من الناب الى الامام ، فاذا خلصت منه التهمها .

ابتسامة الجيوكوندا

قصة كبرى : لالدوس هكسلي

تلخيص : محمود عزت موسى

وقف مستر هاتن ينتظر مقدم جانيت سبنس وراح يتأمل خادمتها القبيحة، وكان كل مافيها يذكره بالمجرمين حتى أحس بأنه لا يستطيع أن يتأملها طويلاً فأخذ يتطلع الى ما تحتويه الغرفة، وقد كدستها جانيت بالصور والتماثيل اليونانية واللوحات الفنية، وظل يتنقل بين هذه التحف حتى وقف أمام المرآة فتأمل وجهه فيها بتأن وهو يتحسس شاربه - إنه لا يزال على حاله منذ عشرين سنة ، وكذلك شعره كما هو ، وتذكر هؤلاء الشعراء ومنهم شكسبير وملتون. وحبيباتهم وابتسم ، فإن جانيت لا تدرك ذوقه ولا تفهمه ، ولاحظ فجأة أن جانيت واقفة بالقرب من باب الغرفة فاتجه اليها كأنما قد بوغت ، فمن يدري فربما تبعت ما يهمس به وأدركت مايجول في نفسه ورأته وهو يتطلع الى صورته في المرآة . وابتسم لها ولهذه المفاجأة، ومد يده ليصافحها وابتسمت جانيت أيضاً — ابتسامة الجيوكندا التي تلازمها — كما لو كانت هذه الابتسامة من خصائصها . وكانت جانيت ، امرأة جميلة ، ذات فم معبر ، وأنف دقيق ، وعينين واسعتين ، شهوانيتين ، سوداوين ، كانتا عينين جميلتين حقاً بكل ما فيهما من شهوة وسواد واتساع ، يعلوهما حاجبان مقوسان أسحمان .

***

وراح مستر هاتن يخبرها بأنه كان يظنها قد خرجت من المنزل فأزمع في نفسه الانصراف، ولكن هذه المقابلة قد أسعدته ، وأشارت اليه أن يجلس فاعتذر بأنه يود أن ينصرف ليعود أميلي - زوجته - فانها متعبة ومصابة بعسر هضم شديد ، وكاد يخطيء ويقول لها إن أمثال هؤلاء النساء كان يجب أن لا يتزوجن ، لكنه استدرك وراح يدعوها الى الغذاء معهما غداً ، فاعتذرت ولكنها عادت فقبلت بعد إلحاح ووقف هاتن لينصرف وهو يودع هذه الفتاة العذراء وهو يقول لها : يجب أن أذهب الآن أيتها الجيوكندا الغامضة، فازدادت ابتسامتها وضوحاً وهو يقبل يدها لأول مرة ، وقال لها : غداً نراك ، ولكنه عاد يقبل يدها مرة أخرى . واصطحبته جانيت الى الخارج وهي تسأله عن سيارته ، فأخبرها بأنه يحركها

بعيداً عن المنزل وعرضت عليه أن تصحبه إليها ولكنه أقنعها بأن لا تفعل، ثم ودعها سريعاً وراح يركض في الطريق كأنه يخشى أن تلحق به، وكأنه سرّ بهذا الركض، فانه يدل على شبابه والتفت الى الوراء فوجدها لازالت واقفة فأرسل اليها قبلة في الهواء ، واختفى عن أنظارها حتى وصل الى سيارته ففتح بابها وأمر السائق بأن ينصرف به الى منزله وأن لا ينسى الوقوف عند تقاطع الطريق، وكانت صديقته دوريس تنتظره بالسيارة، وما كاد يجلس الى جانبها حتى راح يقبل وجهها الصغير فقالت :

— لا تمسني بيديك فاني أشعر برجفة كهربائية .

فابتسم هاتن وراح يكرر اسمها مرات وهو يحس بلذة عميقة عند ندائها باسمها وأخذ يقبل عنقها الجميل فقالت له : اني سعيدة جدًّا .

فأجابها — وأنا كذلك . . هل هذا حقًّا . .

فقالت — ولكني أريد أن أعرف هل هذا خطأ أم صواب .

فقال — إن هذا ما كنت أسأل عنه نفسي في ثلاثين السنة الماضية

فقالت — لتكن جادًّا . فاني أريد أن أعرف هل هذا صواب . هل من الصواب أن أكون معك وأن يحب كلانا صاحبه فاني أشعر برجفة كهربائية حين تمسني .

فقال — صواب . إن هذا حسن جدًّا بأن تصيبك هذه الرجفة الكهربائية ، فذلك أفضل من العاطفة المكبوتة . اقرئي فرويد . فالكبت خطر .

فقالت — ولكنك لم تدلني ، ولماذا لا تكون جادًّا وأنت تعلم أنني أحياناً أكون شقية حين أظن أن هذا خطأ ولا أدري ماذا أفعل حتى انني أفكر أحياناً في أن أقف علاقة حبنا .

فقال — ولكن هل تستطيعين ؟

فأجابت — كلاّ أنت تعرف أنني لا أستطيع ، ولكني أهرب وأختفي عنك وأبعد نفسي ولا آتي إليك .

فطمأنها وقد وضع خده على شعرها حتى وصلت السيارة، فنزلت منها وكأنها قد حطمتها هذه القبلات وهذه الرجفة الكهربائية من يديه الرقيقتين .

***

.. كان اليوم من أيام الصيف الدافئة حين راح مستر هاتن يحادث زوجته وهو يلعب معها الورق ، فأنبأته أن الدكتور ليبارد أشار عليها أن تستجم بتغيير الهواء في هذا الصيف ،

وكان هاتن يفكر في ذوريس فلم ينتبه لزوجته فاستمرت تقول : فإني يجب أن أشرب مياه معدنية لعلاج الكبد ، وأن أعالج بالكهربا والتدليك . ولكن هاتن كان لا يزال يفكر في دوريس وهي تجري في الغابة خلف الفراش الأزرق الذي كان يتنقل طائراً بين الزهور، وهي من ورائه هاتفة صائحة كأنها طفلة غريرة ، وأعاده صوت زوجته الى تفكيره فقال لها :

— إني أعتقد أن تغيير الهواء هذا سيفيدك جداً .

فقالت — ولكن يجب أن تأتي معي يا عزيزي .

فقال — ولكنك تعرفين بأني سأذهب الى سكوتلندا في نهاية هذا الشهر .

فنظرت اليه وقالت : ولكني لا أعرف كيف أقوم بهذه الرحلة، وأنت تعلم أنني لا أنام في الفنادق ، ثم هناك الحقائب . فلا أستطيع الذهاب وحدي . فأجابها : ولكنك لن تكوني وحدك . ستكون معك وصيفتك .

وراح يفكر في حبيبته الضاحكة . فقطعت زوجته عليه تفكيره بقولها .

— أظن انني لا أستطيع أن أذهب .

— ولكن يجب أن تذهبي كما أخبرك الطبيب . ثم ان هذا التغيير يفيدك .

— لا أظن ذلك .

— ولكن الطبيب يعتقد هذا . ثم أظن أنه تحدث به .

— لا . لا استطيع ، فأنا متعبة جداً ، ولا أستطيع الذهاب وحدي .

وحاول زوجها أن يقنعها ليخلو له الجو ولكن عبثاً ، فقد راحت زوجته تبكي فأدرك أنه عالج هذا الأمر بصبر معقول . ولكن لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، فمنذ وقت طويل في بداية رجولته اكتشف — في ذات نفسه — أنه لم يشعر بالعطف على الفقراء والضعفاء والمرضى والناقهين فقط بل كان يكرههم ، وقد كانت أميلي جميلة وغنية عند ما تزوجها فأحبها حقيقة ، ولكن هل هي غلطته أن تكون هكذا الآن.

وتعشى هاتن وحده ، ثم ذهب الى زوجته يجاملها ويقرأ لها شعراً بالفرنسية وما كاد يصل إلى الصفحة الخامسة عشرة حتى رآها قد استسلمت لنوم عميق، فأخذ يتأمل وجهها بكراهية . لقد كانت جميلة مرة واحدة منذ زمن طويل ، وأثارت هذه الذكرى في نفسه أعمق العواطف مما لم يشعر بمثله من قبل. ولكنها الآن مجعدة ، نحل وجهها ، وبرزت عظام خديها ، وأحاطت الزرقة عينيها . كان وجهها كأنما هو وجه المسيح كما صوره الرسامون مصلوباً، فسرت في جسده رجفة خرج على إثرها من الغرفة مسرعاً على أطراف أصابعه

وفي اليوم الثاني حضرت مسز هاتن العشاء ، وكان يبدو عليها في تلك الليلة الانقباض ، ولكنها راحت تجامل ضيفتها جانيت سبنس التي ظلت تستمع إلى شكواها وهي تتحدث بصوت عالٍ وتقذف بالكلمات كأنها منطلقة باستمرار من بندقية .

وكان هاتن ينظر اليها في سكون ، وقد أثار في نفسه منظر جانيت شعوراً غريباً ، فراح يقارن بين زوجته ودوريس وبينها وبين جانيت بابتسامة الجيوكوندا أو حاجباها الرومانيان.

وتجاذبت الزوجة وجانيت الحديث لماماً ، حتى أحضرت الخادمة القهوة ، فقامت جانيت لتأخذ قدحاً ولتقدم آخر لمسز هاتن ، بينما ذهب الزوج يحضر زجاجة الدواء ، ولما تناولت جرعتها من الدواء ، قدمت اليها جانيت القهوة . واستمر الحديث بينهما حتى شعرت مسز هاتن بأنها متعبة ، وأنها في حاجة إلى الراحة ، فاستأذنت صديقتها ومضت إلى غرفتها . ولما أراد زوجها أن ينصرف تضرعت اليه وهي تبكي أن يبقى معها في المنزل فقد أصبحت لا تطيق البقاء وحدها .

ولكنه اعتذر بأنه على موعد سابق مع أحد أصدقائه ولا يستطيع أن يخلفه ثم قبلها وذهب الى الحديقة حيث قابلته جانيت وهي تقول له بلهفة .

— ان زوجتك في حالة خطيرة .

— ولكنها سرت كثيراً بقدمك .

— انها عصبية جداً ولقد راقبتها جيداً ومع سوء حالة قلبها فهي عصبية .

— ولكن الدكتور ليبارد لا يهتم كثيراً بصحتها .

— انه طبيب القرية . ويجب ان تستشير إخصائياً .

وسارا معاً حتى خرجا من الحديقة الى حيث تقف سيارة جانيت ، فساعدها على ركوبها وودعها وهي تذكره بأن يزورها في الغد .

***

ومضى هاتن بعد ذلك الى دوريس وكانت تنتظره عند تقاطع الطريق فذهبا لتناول العشاء معاً في فندق بعيد وأمضيا وقتاً ناعماً لذيذاً ، كانت فيه دوريس في غمرة العاطفة ورقة الحب .

وعاد هاتن الى منزله قبيل منتصف الليل، فقابله الدكتور ليبارد في مدخل المنزل فبادره هاتن قائلاً : هل زوجتي مريضة ؟ فأجابه : لقد بحثنا عنك منذ مدة وسألنا عنك في كل مكان فقال : كنت مشغولاً في جهة أخرى . فقال الطبيب : وكانت زوجتك تريد أن تراك. فقال : سأذهب اليها الآن واتجه نحو السلم ولكن الطبيب وضع يده على ذراعه وهو

يقول له : أخشى أن يكون الوقت متأخراً .

فقال : متأخراً ! وراح يخرج ساعته من جيبه دون جدوى فقال الطبيب

—ان مسز هاتن توفيت منذ نحو نصف ساعة .

وكان الطبيب يتكلم عن الموت كما لو كان يتكلم عن مباراة رياضية

وتذكر هاتن كلمات جانيت في الحال . انها قد تموت في أي لحظة اذن قد كانت على صواب

— ولكن ماذا حدث . وما السبب .

وأخذ الطبيب يذكر له أنه انتابها قيء شديد أعقبه احتقان قلبي شديد وانفجار شرياني.

***

. . جلس هاتن يطالع في المكتبة في مساء يوم الجناز وكان يقرأ ملتون وهو موزع الذهن مبلبل الخاطر حتى انتصف الليل فتوجه الى الشرفة وكان الجو دافئاً صافياً والليل ساكناً . فراح يحدق في النجوم اللامعة ويتأمل أزهار الحديقة وهو غارق في تفكير عميق . ما العظمة والنبل وما الفارق الجدي بين النبل والدناءة . ملتون . والنجوم والموت ونفسه . الروح والجسد، الطبقة العليا والطبقة السفلى . ملتون يهذي، والنجوم اللامعة والموت وأميلي في قبرها ودوريس . كان نهباً مقسماً لصراع عقلي عنيف وتفكير محزن مشتت ، حتى خيل اليه أنه أبغض كل شيء في الحياة واعتزم في نفسه أن يحيا حياة جديدة يراقب مزرعته في النهار ويدرس في الليل .

ومضى هاتن الى فراشه متألماً شقيًّا ولو أنه أحسَّ بشعور طيب في نفسه واستيقظ في الصباح ، وقد نفذت أشعة الشمس الدافئة الى غرفته فتناول افطاره وامتطى صهوة جواده وظلَّ يتجوَّل في مزارعه ثم راح يطالع في دراسته المعقدة بعد الغذاء ويكتب بعض الملاحظات . وفي اليوم السادس من هذه الحياة الجديدة التي قدَّرها لنفسه تلقى خطاباً من دوريس . كانت كلماتها جوفاء تافهة ، كتبت اليه تعزيه وتخبره بوحدتها وشقائها . ان فكرة الموت أصبحت تسيطر عليها ولا تجد منها خلاصاً وأنها محطمة شقية بدونه، وأنها لم تكن لترغب في أن تكتب اليه بل كانت تود أن تنتظر حتى ينتهي من أحزانه ويحضر فيراها ، ولكنها يائسة وحيدة حزينة. ولذلك كتبت اليه لتستمد معونته وتريده ، فليس لها في الحياة سواه . فهو الرجل الطيب القلب ، الرقيق الحس ، وهي لا تستطيع أن تنسى طيبته ورقته نحوها، وهي لا تستطيع أن تتصوَّر أنه سيتركها ، فهو يجب أن يحبها لأنه أحبها قليلاً .

وثار هاتن واختلج في جنبات نفسه شعور عظيم بالخجل، فهي تشكره وهو يخدعها .

فيا للحماقة ، ويا لها من تعسة . انه يجب أن يكتب اليها خطاباً رقيقاً بأنه سيلقاها قريباً . وعاوده حنينه وتفكيره فيها حتى قطع عليه الخادم تأملاته بأن أعلن اليه إعداد جواده .

ومضت خمسة أيام أخرى حتى تقابل هاتن ودوريس . . كانت جميلة رائعة في ملابسها الحريرية البيضاء الناعمة ، وأمضيا الليلة كأنها حلماً ذهبياً ، وراحت دوريس تغرق في نوم عميق بينما حاول أن ينام عبثاً ، فقد كانت الأفكار تلاحقه والأوهام تطارده ، ولما تحركت ألفته على كثب من مخدعها . وقد أخذ يتأملها على ضوء النور الخافت الذي تسرّب من بين الستائر ، وانعكس على ذراعيها العاريين وكتفيها وعينيها وشعرها الأسود الرخص . كانت رائعة حقاً ، ففكر لماذا لا ينام الى جانبها ويدع أحزانه وآلامه ، وماذا لو عاش في الحياة بلا أمل . ومرّت به لحظات في التفكير أن يبتعد عن المسؤولية . يجب أن لا يكون مسؤولاً فهو حر ، حر أبداً . وفي شوق عاصف جذب اليه الفتاة فاستيقظت كالمسحورة وهي ترتجف تحت قبلاته . . واستحالت ثورة رغبته الى نوع من المرح الهادىء ، وقالت له — هل تستطيع أن يحبك أحداً كما أحبك أنا فقال لها : أظن أن هناك واحدة تستطيع هذا فقالت: من هي خبرني ؟ وكان صوتها مزيجاً من الشك والألم والرجفة . فقال : ألا تستطيعين أن تعرفي ؟ وظلّا ساكنا حتى عجزت أن تجيبه . فقال لها : أنها جانيت سبنس . فأجابته في سخرية : هذه المرأة العجوز ؟ فقال ضاحكاً : هذا حق . ولكنها تعجب بي وإني أعتقد أنها ترغب في الزواج بي فأجابته : ولكن يجب أن لا تتزوجها ؛ لا تفعل . فقال : لقد قرّرت الزواج بك أنت أنت . وأحسّ كأنه عمل أحسن ما في حياته .

ولما غادرا مكانهما الذي تقابلا فيه خرج هاتن منه رجلاً متزوجاً . ولكنهما اتفقا على أن يظلّ الأمر سرّاً حتى يرحلا الى الخارج في شهور الخريف ، وحينئذ يعلم الناس بذلك الزواج .

***

وفي اليوم التالي ذهب إلى جانيت فقابلته بابتسامتها المعتادة ، ابتسامة الجيوكوندا ، وجلسا معاً في منزلها الصيفي الجميل . ثم أخبرها أنه سيرحل إلى ايطاليا في هذا الخريف . فدهشت لهذا الرجل ، وكأنما أصابتها صدمة فاستلقت على كرسيها وأغمضت عينيها وأسلمت نفسها لصمت طويل ، ولم يتبادلا حديثاً حتى تناولا العشاء .

وكان الليل ساحراً ، والسماء رقيقة جذابة ، والقمر يغمر الطبيعة بضوئه الفضي ، وما لبث هذا الهدوء والصفاء أن عكرته سحابة مارة رعدت لها السماء وأبرقت ، وهطلت الأمطار ، وهبت

الرياح . وقالت بعد صمت طويل : أنظن أن لكل شخص الحق إلى حد ما في السعادة أليس كذلك . فقال : بلا ريب .

ومضى يفكر ، ماذا تقصد بالسعادة ، وعرج بتفكيره إلى حياته الماضية حينما كان لديه المال والحرية ، وفي استطاعته أن يفعل ما يشاء ، فلقد افترض أنه كان سعيداً ، أسعد الرجال ، ولكنه الآن ضئيل الحظ من السعادة وقد اكتشف في عدم المسؤولية سر المرح والحياة ، وكاد يحدثها عن السعادة لولا أنها قاطعته ! إن مثلك ومثلي لهما الحق في أن يسعدا . فقال متعجباً ! مثلي أنا ؟ فقالت يا للمسكين إن الحظ لم يعاملنا معاملة حسنة فقال : لقد عاملني بسوء . فأجابته : أنت نفس وحيدة حائرة تبحث عن رفيق وأنا أحب أن أشاركك وحدتك ومضت تحدثه عن نفسه ووحدته ووحشته ، وأنها المرأة التي تستطيع أن تملأ هذا الفراغ الشاغر في حياته وأن تسعده لأنها تحبه . كانت تكلمه جادة وبحرارة ، فظل لائذاً بالصمت حتى صدمها بقوله : ولكني فقدت عاطفتي . فلم تأبه لقوله وراحت تتضرع إليه وتتوسل وتطارد قلبه وتلح عليه أن يتزوجها ، أن يرتبطا بهذه الرابطة المقدسة انها تحبه وقد حانت الفرصة الآن فهما أحرار ، وارتمت بجسدها عليه وأخذت تعانقه ولكنه أبعدها ، فبكت تستعطفه ، وقد ارتمت على الأرض تنبش في حرارة وحرقة ، حرارة الفتاة المحرومة ، وحرقة المرأة الوالهة المهجورة ، وتركها تبكي وانصرف ، وقد هدأت العاصفة وانقطع المطر ، وأسفر القمر ، وأخذ يفكر فيما حدث فلعلها تمثل دوراً وتلعب لعبة

***

وانصرف يوماً الى دوريس في منزلها الجديد الذي استأجره لها في ضاحية المدينة وهو يبدو عليه التفكير العميق فسألته عما به ، لكنه اعتذر اليها ببعض متاعبه ، وقد بدا له أنه كان من الأفضل له أن يهجر دوريس أيضاً وغرامها الفريد . فهو لم يعرف قط آلام الحب الفاشل ، ولكنه يجرب الآن آلام الحب المهجور ، فهذه الأسابيع الماضية تزيده سقماً وشقاء ، ولو أن دوريس دائماً معه . ان من الأحسن له ان يكون وحيداً وأخرج من جيبه خطاباً . لكم أصبح يكره هذه الخطابات التي تحوي دائماً أخباراً سيئة في هذه الأيام وخاصة بعد زواجه الثاني . وكان الخطاب من أخته فكاد يمزقه لولا أن رأى فيه عبارة قرأها وقلبه يخفق بشدة ، فقد كانت عبارة وحشية مروعة فهي تذكر أن جانيت تذيع عنه في كل مكان أنه سمم زوجته ليتزوج دوريس .

وكاد يتمزق غيظاً وهو يقرأ هذه الكلمات ويلعن هذه المرأة وأيقظ عقله المكدود

وقع خطوات التفت نحوها فوجدها الخادمة تقتطف فاكهة من الحديقة فراح يتأملها . كانت خادمة جميلة بفمها الصغير وجسمها اللدن فناداها وابتسمت له ابتسامة اخاذة ارتجف لها فقرر أن ينسحب قبل أن يتمادى في الحديث معها .

***

وظهرت الصحف في الأيام التالية تتحدث عن جريمة هاتن التي عرفت بعد حدوثها بشهور . وكان الرأي العام قد ثار لهذه القصة المؤلمة ، قصة الرجل الذي دس السم لزوجته ليقتلها ، وانتاب هاتن فزع شديد ، فقد أمضى هذه الشهور في آلام ولكنه كان في طمأنينة وأمان ، وقدم للقضاء ، وأخذ الأطباء يبحثون جثة المتوفاة فوجدوا بها آثار السم وتعجب هاتن كيف ماتت زوجته بهذا السم . لقد قرر الاطباء أن السم ابتيع قبل الوفاة بعدة ساعات في وقت العشاء ، واستدعيت الخادمة للسؤال فقررت أن مسز هاتن استدعتها وطلبت منها دواءها ، وكان مستر هاتن وحده يحضر هذا الدواء وأيدت جانيت شهادة الخادمة وأضافت أن مستر هاتن عاد ومعه الدواء في كوب لا في زجاجة

وتأجل التحقيق أياماً وفي نفس هذا المساء ذهبت دوريس إلى فراشها لشعورها بصداع ولما دخل عليها زوجها بعد العشاء وجدها تبكي فجلس على حافة الفراش يداعب شعرها ويسألها سبب بكائها ولكنها لم تتكلم ، فأخذ يلعب بين أنامله بخصلات شعرها بلا تفكير أو شعور وانحنى عليها يقبل كتفيها العاريين وهو غارق في تفكير عميق فيما حدث لزوجته اميلي التي ماتت مسمومة وأن هذا لا بد أن يكون كذباً وادعاء فمحال أن يحدث ذلك .

وقطعت عليه دوريس تفكيره بقولها : لقد أخطأت أنها غلطتي ، كان يجب أن لا أحبك وكان يجب أن لا أجعلك تحبني . لماذا خلقت في هذه الحياة . ولم يقل شيئاً بل استمر في صمته واستأنفت حديثها : اذا أساءوا اليك فاني سأقتل نفسي .

ثم جلست في فراشها وأمسكته بقوة وأخذت تتطلع اليه في ذهول وهي تقول :

ـ إني أحبك : أحبك أحبك

وجذبته اليها قائلة « لم أكن أعرف أنك كنت تحبني كل هذا الحب ، ولكن لماذا فعلت هذا .. لماذا ؟ فتملص منها هاتن وقد احمر وجهه خجلاً وقال : هل تظنين حقاً أنني قتلت زوجتي . انه كذب . انها حماقة لا يرتكبها رجل متحضر ، هل ابدو من نوع هؤلاء الرجال الذين يقتلون الناس . لست اعرف ما هذا الشيطان الذي دفعني الى الزواج منك ، فقد كانت حماقة سيئة وانصرف عنها الى غرفة المكتبة يفكر فيما حدث دون أن يجد عند نفسه جواباً . وقد امتلأت عيناه بالدموع وناداه شعور في نفسه بأنه يجب أن يعيش كما أن هذا الشعور ينادي زوجته

الاولى من قبل، واستغرق في تفكيره بأنه يريد ان يصلي كما كان يفعل ذلك منذ اربعين سنة عندما كان صغيراً يصلي عند سريره راكعاً كل مساء، وتذكر ليالي الطفولة وراحت ذكرياته تمر به كأنها صور الحياة نابضة. ودعا الله ان يغفر لأبيه وأمه فكل هؤلاء الذين لازموه في طفولته وكل من أحبهم قد جعلوا منه طفلاً هادئاً صالحاً وشعر في هذه الذكريات بهدوء ينسكب على أعصابه فيريحها وذهب الى حيث دوريس يسألها المغفرة، فوجدها مستلقية على مقعد طويل وعلى أرض الغرفة بجانبها زجاجة دواء سام وقد بدأ عليها أنها شربت قدراً كبيراً.

ولما رأته يفتح الباب ويتقدم منها ثم ينحني عليها قالت انك لا تحبني فأدرك كل شيء وأسرع باستدعاء الدكتور ليبارد لينقذها واستطاع الطبيب أن ينجح في عمله فقال لها وهما وحيدان في الغرفة: يجب ان لا تفعلي هذا ثانية

فقالت: وما الذي يمنعني عن أن أفعله ؟

فقال: ليس هناك ما يمنعك، ولكن هناك نفسك وطفلك، فلا يجب أن يكون طفلاً سيء الحظ في هذا العالم. فصمتت برهة ثم قالت: حسناً لن أفعل.

***

قضى هاتن بقية الليل الى جانبها وقد شعر في ذلك الوقت أنه قاتل حقاً، وكان شعوراً هو مزاج من الألم والشقاء والحنان والعطف حتى أنه أصبح لا شيء أكثر من مخلوق شقي، وذهب الى فراشه في نحو السادسة صباحاً ثم استدعي الى المحاكمة في نفس ذلك اليوم.

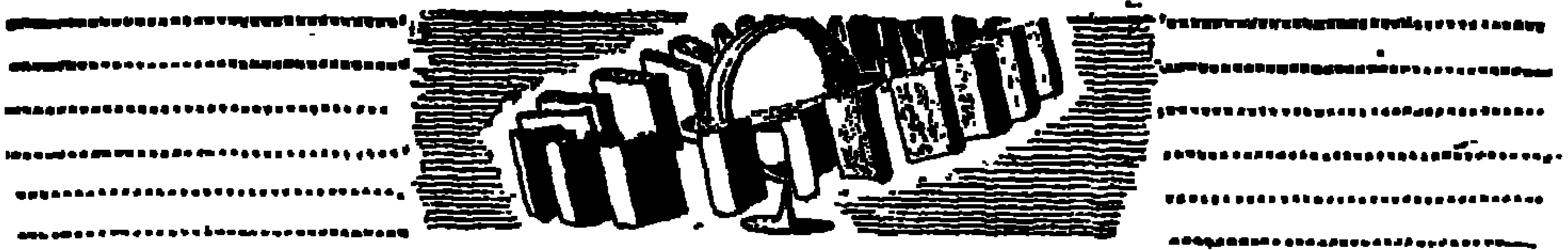
وأما جانيت فقد ساءت حالتها وانتابها أرق شديد وراح الدكتور يزورها يوماً بعد يوم، بينما أخذت هي تحدثه عن هاتن في لهجة يبدو منها غيظ المرأة التي تتلظى بالغيرة والغضب والانتقام وبخاصة بعد أن جاءتها الأنباء بأنه قد أصبح لهاتن طفلاً من زوجته الثانية فأثارها ذلك وكأنما كانت هذه صدمة أخرى قاتلة.

وأخذ الدكتور يحادثها بلطف ورقة حتى فاجأها في صباح يوم بسؤال وهي متعبة كليلة: أظن أنك دسست السم بنفسك لمسز هاتن. أليس كذلك فحملقت في وجهه بضع لحظات بعينيها الواسعتين ثم قالت في هدوء.

— أجل.

واندفعت تبكي. فسألها: في القهوة أليس كذلك

فهزت رأسها وتناول الطبيب قلمه، ليكتب لها تذكرة طبية بجرعة منومة.



مكتبة المقتطف

الفلسفة الرواقية

تأليف دكتور عثمان أمين : نشرته مكتبة الخانجي بمصر : ٣٢٠ صفحة من القطع الاوسط ١٣٦٤ ه — ١٩٤٥ م

نقدنا هذا الكتاب في زميلتنا مجلة « الكتاب » التي نتمنى أن تكون للكتاب خير نصير ، ولأدب العرب أكبر ظهير ، على طول السنين والأعوام .. ولكن الفراغ لم يواتنا في « الكتاب » بأن نعطف على الكثير من مظاهر هذا الكتاب ، فقصرنا النقد على الموضوع في اجماله ، وأبقينا على ما وقع في الكتاب من هنات تتناول المظهر الى هذه الصفحات .

أول شيء يسترعي نظرك في هذا الكتاب ، كثرة ما وقع فيه من التحريف في رسم أسماء الأعلام ، فهي لا تجري على قاعدة . ولا تتفق والقواعد التي جرى عليها العرب ، ولا تجري على القواعد التي وضعها مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

ذكر المؤلف اسم « فنايطوس » فرسمه بانيتوس (ص ١٢) ثم رسمه بنايطيوس (ص ٣٩) والمسمى واحد ، والرسمان مختلفان ، وذكر انطيغون غوناطاس (ص ١٥) ورسمه الصحيح انطيغونوس غوناطوس Antigonus Gonatus ، وقال كروسيبوس (ص ٣٠) وهو خُرُسبوس ، وقال البطاالسة وهم البطالمة لأن رسمه في اليونانية Ptolemaeus والسين في آخر الاسم علامة الرفع في اليونانية، فهي ليست من بنية الاسم ، فعربه العرب بطليموس وحقيقته بطلميوس ، ولما جمعوا الاسم قالوا البطالسة ، فأثبتوا السين التي هي علامة رفع وحذفوا الميم التي هي من بنية الاسم ، وعلى هذا فالمفرد بطلميوس ، والجمع البطالمة ، وقال شيشرون (ص ٣٢) وهو قيقرون أو كيكرون ، ولو انه اشتهر في العصر الحديث بهذا الرسم العجيب ، وقال الاكاديمية (ص ٣٢) وهي الاقادمية ، وقال كليومين (ص ٣٩) وهو إقلومانس ، وقال انتيباطر (ص ٣٩) وهو أنطيفاطر ، وقال أسقبيون (ص ٣٩) وهو إسقفيون ، وقال في (ص ٤٠) بومبي ، وفي (ص ٤١) بومبيوس : والاسم المسمى واحد ورسم رسمين مختلفين في صفحتين متواليتين ، وحقيقته فومبيوس ، وقال أبلودور

(ص ٤٣) وهو أفولودوروس ، وقال أرقيزيلاس (ص ٧٩) وهو : Arcesilaus ويرسم في العربية أرقسيلاوس . وقال استلبون (ص ١٩) وهو إستلفون . والأخطاء في هذا الباب لا تكاد تنتهي من الكتاب .

وترجم المؤلف اسم كتاب إكزينوفانس المسمى Memorabilia فقال المذكرات ، وحقيقته « الذكريات » ، لأنه في الواقع لم يكتب في صورة مذكرات ، وانما كتبه صاحبه ذكريات عن عهد مصاحبته لسقراط ، وقال « بويطوس الصيدوني » ، والنسبة الى مدينة صيدا Sidon صيداوي كما عرفها العرب، وقال السيلان (ص ١٢٥) والألطف السيولة ، وقد قال العرب السيولة والميوعة، وقال ممتدة (ص ١٢٥) والأوفق « ذات امتداد » ، وقال « الجواهر الفردة » (ص ١٢٤) مشيراً الى اللفظ الذي استعمله ليبنتز وهو «monad (s)» واستعالها بمعنى الجوهر الفرد الذي هو «atom» فيه تخليط عظيم . فان جيوردانو برونو أول من استعمل هذا اللفظ (١٥٤٨ — ١٦٠٠) ثم انتحله ليبنتز (١٦٤٨ — ١٧١٦) وما استعمله ليبنتز الا ليتفادى بذلك معنى الجوهرية الذي قال به غسندي ، وعنده انه يدل على عدد من الوحدات الحقيقية لا امتداد لها، ولكن في تضاعيفها حياة داخلية ليفرق بذلك بين المناود monads وبين الجواهر الفردة Atoms هذا ما قاله « مرتز » مؤرخ الفكر الاوربي في القرن التاسع عشر واليك النص الاصلي :

Monad a term first used by Giordano Bruno (1548—1600) and adopted in slightly different sense and brought into prominence by Leibnitz (1648—1716). To avoid the Atomism of Gassendi, he conceived a number of true unities, without extension, but endowed with the depth of internal life, thus distinguishing them from the atoms.

على هذا يتحتم علينا أن نعرب هذه الكلمة فنقول في المفرد « مِنْوَد » وفي الجمع « المنَاوِد » ونخصها بالمعنى الذي أفردها به ليبنتز . وغير هذا خطأ يجب التنبيه عليه .

كذلك قال « القورينائية وقورينا » . والحقيقة التي لا تقبل الجدل ان يقال القورينية وقورنية كما حققت ذلك في كتابي « فلسفة اللذة والألم » ص ٥٠ الى ٥٣

وذكر في (ص ١٢١) تعريفاً للمكان ناقصاً ، وهو تعريف لارسطو نقله عنه ابن سينا في رسالة الحدود . قال المؤلف ان المكان (عن أرسطو) هو « السطح الباطن من الحاوي المماس السطح الظاهر من المحوي » . والحقيقة انه ناقص كلمة « الجسم » فيكون « هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس لسطح الظاهر من الجسم المحوي »

والكتاب من حيث الموضوع لا ينقص من قيمته مثل هذه الهنات . ونحن نهنىء المؤلف الفاضل بكتابه ونطالب منه المزيد فأول الغيث قطر ثم ينهمرُ .

الصهيونية

تأليف أنور كامل : ٦٢ صفحة من القطع الصغير : مطبعة الاعتماد ١٩٤٤

كتاب صغير الحجم كبير القيمة حسن الاسلوب اشتراكي النزعة عربي الروح . استعرض فيه مؤلفه نشوء الفكرة الصهيونية وأثبت بجلاء ووضوح ان لهذه الفكرة سياستين: سياسة سرية توجه دعوتها الى اليهود لانشاء دولة يهودية في فلسطين على انقاض العرب ، وسياسة ظاهرة توجه دعوتها الى التعاون مع العرب تخديراً لأعصابهم حتى تتمكن من السيطرة عليهم في النهاية

ولقد أظهر المؤلف كيف تقلبت النزعات اليهودية مع دورات التاريخ من العصر القديم الى العصر الاقطاعي ثم الرأسمالي ، وشرح كيف عملت الصهيونية منذ اواسط القرن التاسع عشر وجهدت في سبيل الاستيلاء على فلسطين وطرد العرب منها رويداً رويداً حتى يتم لهم انشاء مملكة يهودية فيها

جاء في ختام ذلك الكتاب : « ان التوسع الصهيوني لهو في حقيقة امره نكبة من النكبات التاريخية تحل هذه المرة بالجماهير اليهودية المقيمة في فلسطين أو الزاحفة نحو فلسطين. ولن ينقذ هذه الجماهير من الدمار الاّ شيء واحد « هو انهيار الصهيونية » وقال اننا نحارب الصهيونية « لاننا نعتقد ، واعتقادنا مستمد من الواقع الاجتماعي والتاريخي ، ان الصهيونية حركة استعمارية مركبة »

ولعلّ المؤلف لم يرد ان يقول ان التوسع الصهيوني ليس نكبة من نكبات التاريخ سوف يحل بالجماهير اليهودية المقيمة في فلسطين فقط ، بل ربما حلت النكبة على غير المقيمين بفلسطين. وان قيام هذه الحركة في الشرق ومركزها فلسطين، سوف يخلق من هذا القطر بلقاناً آخر في الشرق أشبه ببلقان الغرب، وبهذا لا يجني أهل الغرب وأهل الشرق جميعاً إلاّ مرّ الثمرات.

ملك من شعاع

تأليف عادل كامل — ٢٠٤ صفحات من القطع الكبير : مكتبة مصر

ظاهرة طيبة ولا ريب بدأنا نلحظها أخيراً ، إذ شرع الكتّاب يولون وجوههم شطر مصر القديمة ويمدون أبصارهم الى تاريخها القديم ، ينهلون منه أدباً جميلاً وقصصاً بارعة ، وأخذوا يستغلون هذا المنجم الذهبي البكر ، ويفرغون كنوزهم في قوالب تتيح لأهل البلاد وجيرانهم أن يشاركوا الفراعين الأمجاد فيما خلفوه من تراث أبقى على الدهر من تراث الذهب والمال.

فأصدرت بسمو الأميرة شيوه كار قصة مصرية عنوانها « نفر رس أس » ، وكتب الأستاذ عبد المنعم محمد عمر قصة عنوانها « ايزيس وأوزريس » ، ونشر الأستاذ عادل كامل قصة « ملك من شعاع » ، وأخرج الأستاذ علي أحمد باكثير مسرحية « الفرعون الموعود » فضلاً عن « أحمس » للاستاذ عبد الحميد جوده السحار و « أخناتون ونفرتيتي» للأستاذ باكثير ، و « رادوبيس » للاستاذ نجيب محفوظ وو ...

وكتاب « ملك من شعاع » الذي نحن بصدده ، وضعه الأستاذ عادل كامل المحامي واتخذ موضوعه من سيرة حياة اخناتون . أسبق الناس الى الاعتراف بوجود اله واحد ينبغي أن يعبده الجميع ، وأول من بشر بأن الله الذي خلق الكون وأبدع صوغه ، لا تنظره العين البشرية المجردة ، وانما يدركه العقل ويؤمن به القلب . وكان اخناتون أول من جرؤ على هدم الأصنام والتماثيل وتحطيم معابدها ، وجاهد ليحمل شعبه القصير النظر ، على اعتناق دينه والخروج من أفق المادوسات الضيق الى عالم اللامرئيات الفسيح . كان اخناتون ، فرعون مصر ، عبقريًا يعيش في عصر لا يؤمن الا بالحجر والشمس والنجوم والماديات ، وكان عليه أن يكافح كفاح الأبطال ليقنع القوم بما يعسر على العقل القاصر ادراكه . ويعمى على العين رؤيته ، فوفق في هذه المهمة أولاً ، ولكن الشعب سرعان ما تألب عليه بايعاز من كهنة الأصنام ، وانقلب عليه يطلب دمه ويحكم عليه بالموت وينعته بالخيانة ، وبيع الوطن . ولكن المنية عاجلت اخناتون ، فمات حتف أنفه مغضوباً عليه من شعبه الذي أحبه وأخلص في خدمته ، مطعوناً في نزاهته من أصدقائه المقربين ، وعلت شفتيه وهو مسجي في الفراش هامداً ، بسمة هادئة عذبة تنم عن راحة قلبية واطمئنان الى عدالة القضية التي نافح لتحقيقها

وقد أجاد الأستاذ عادل كامل ، وهو من الشبان الذين وفقوا في ممارسة فنون الأدب تحليل التطور الفكري لاخناتون ، وبين الخطوات التي استطاع أن يصل بها الى الحقيقة التي غابت عن أذهان معاصريه والسالفين له . وساق القصة ، وهي مزيج نادر من الفلسفة والأدب والمنطق ، في أسلوب جميل أخاذ ، فضلاً عن أن المؤلف ضمنها دروساً في السياسة والاجتماع وألواناً من الحب وضروباً من أفانين الدسائس ووسائل حبكها .

فقال عن الحرب « إنها العمى والعرج والبتر والكساح . إنها الأرملة فقدت زوجها والأم ثكلت ولدها والأخت تبكي أخاها والفتاة تندب حبيبها . . . انها المناحة العظمى تعم أرجا الوطن ، والشقاء والحزن يخيمان على كل منزل . . . انها المجاعة والذلة والمرض حين تخلو الحقول من حارثيها والبيوت من عائليها ، وتنتشر المقاذر والخبائث في كل مكان . . . فليست الحرب هي الشرف ، بل هي الغدر والاغتيال والخديعة . أما الوطن فان من أحبه

حقًّا كره الحرب . فمن يحبّ وطنه يسيئه أن يسلب وطن غيره ، كما ان من يحب زوجته لا يرنو الى زوجة جاره » . وعلى هذا النمط الروائي المنطقيّ ساق الاستاذ عادل قصته الرائعة . انه حقًّا كتاب جليل ، ولا غرو ، فقد فاز بالجائزة الممتازة في مسابقة وزارة المعارف وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين بنشر هذا الكتاب لأنه سدّ فراغاً طالما استشعرناه .

وديع فلسطين

دفاع عن البلاغة

جاء في استهلال هذا الكتاب الجديد الذي أخرجه الاستاذ احمد حسن الزيات أن السرعة والصحافة والتطفل هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر .

ثم تقرأ بعد ذلك في ص ١٢٢ أن الفرق بين عصر وعصر في الأدب أو بين أديب وأديب في الأسلوب « لا يخرج عن قوة الرجولة في هذا وضعفها في ذاك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان، كانت أزهى عصور البلاغة ، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع في سبيل الحياة والغلبة والمجد أشد ما تكون تماماً واضطراماً وقوة » .

وهذا كله صحيح ، وهي جميعاً أسباب أصاب في تفصيلها صاحب الكتاب، ولو أنا نرى بعضها أولى بالتقديم لما له من أثر فعّال في الركاكة والعامية والغثاثة التي يريد دفعها بهذا الدفاع .

وضعف الرجولة عندنا في العصر الذي نعيش فيه ظاهرة ملحوظة ، تجدها في تخنث الشباب ، وعبث الصحافة ، وتفاهة الاذاعة ، وتشهدها في تسكع الكهول والشبان على المقاهي ، وانصراف المتعلمين عن الاشتغال بالأعمال الحرة ، وهي البلية كل البلية في تدهور البلاغة وفساد الذوق ، وتفاهة الأدب .

والأستاذ الزيات من شيوخ البلغاء في مصر والشرق ، جمع بين الثقافتين ، ونقل الى العربية من عيون الأدب الغربي روائع زانها أسلوبه العربي حلاوةً ورشاقةً وجمالاً وجلالاً مع أمانة النقل ودقة التعبير . فأثبت بذلك أن العيب ليس عيب اللغة ، ولكنه جهل الناقلين وعجز المترجمين .

الكتاب دفاع عن البلاغة ، ودفاع عن شخص مؤلفه وعن كل صاحب مذهب في البلاغة وتعريف بالأساليب ، وفتح في الأدب جديد ، وتوجيه للشباب والمتأدبين ، وذكرى للقائمين على شئون العلم والتعليم .

واعتقادي أن الروح الصادق القوي المسيطر على هذا الكتاب انما انبعث من أعماق نفس الأستاذ الزيات فكان صدًى لما يحس وتعبيراً لما يشعر . فاذا علمت أنه كاتب رشيق العبارة، أنيق الأسلوب، يلتزم السموّ ويترفع عن الاسفاف والعامية ، ولكنه مع رشاقته بعيد عن التكلف ، مرتفع عن الاستكراه والتعسف ، حتى لقد تجهد في تغيير لفظة بدل أخرى فتعجز، فقد تفهم بعد ذلك السر في مهاجمة بعض عجزة الأدباء لحملة الأقلام وزعماء البلاغة فيرمونهم بالتكلف والتصنع ، والبون شاسع بين ما يصدر عن الشعور الصادق بالتعبير الجميل وبين ما يتأتى فيه الكاتب خطى المتقدمين مع النقل والتقليد .

والكتاب بعد ذلك دراسة عميقة لخصائص الأسلوب ، جمعت بين آراء القدماء والمحدثين فتقرأ معنى لعبد القاهر الى جانب فكرة لبيفون، أو رأياً للجاحظ يتبعه رأي لفلوبير ، مع الاقتباسات الملائمة من عيون الأدب ، والأخبار الطريفة التي تبعث الشوق وتدفع السأم .

وخلاصة الرأي في الاسلوب أن الهندسة الروحية للملكة البلاغة ، وأن البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لاتفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل : إذ الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فاذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماد لا يحس » .

غير أن الأستاذ الزيات ، بالرغم من أنه ميز في الأسلوب بين الصورة والفكرة ، أو بين التركيب والمعنى ، فانه يميل في ميزانه الى جانب الأسلوب ، فهو يجعل نسبة الصورة الى الفكرة نسبة اثنين الى واحد ، كما هي نسبة الايدروجين الى الاوكسجين في الماء .

وهذه قضية قد تكون موضع خلاف ، ونحن نرى أن عكسها أدنى الى الصواب .

قال في ص ٢٥ « والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونصاعة الايجاز وبراعة الصنعة، فاذا كان مع كل ذلك المعنى البكر، والشعور الصادق، كان الاعجاز .» .

ومن القضايا التي تحتاج الى إثبات ما يقرره في فصل « البلاغة بين الطبع والصنعة » في قوله : البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة .

وهذا يناقض ما جاء في ص ١٠٧ « أريد أن أقول ان توخي الجمال المطبوع في الأسلوب أصل في طبائع الناس امتد منها الى تكوين اللغة وانشاء الأدب ، فاذا سلمت في المنشىء الفطرة وواتته الملكة وساعده الاطلاع . . . صدر عنه الكلام رقيقاً من غير قصد ، أنيقاً من غير كلفة » .

وما دامت خصائص الأسلوب كما جاء في الكتاب هي الاصالة والايجاز والتلاؤم ، فليس ما

يمنع من تعلم الناس الأساليب الجيدة ، فاذا عجزوا كان العيب راجعاً الى التعليم . وفي الكتاب اشارة صادقة الى ذلك حيث يقول «ان معلمي اللغة في كل أمة هم وحدهم المسئولون عن تكوين الذوق السليم والخلق القويم في الناشىء ».

الحق ان هذا الكتاب مرآة للحياة الأدبية المعاصرة ، فيه تحليل عميق وأدب رفيع ، وجرأة في الحق نادرة ، واشراف على التيارات الأدبية المختلفة في مصر والشرق .

احمد فؤاد الاهوانى

فن القصص

١٣٦ صفحة من القطع الوسط — نشرته مجلة الشرق الجديد — مطبعة الرغائب

إذا ذُكرتْ القصة الحديثة في الأدب العربي ذكر معها اسم محمود تيمور فهو الذي جاهد في سبيل إرساء دعائمها ، وجاهد في سبيل النهوض بها ... وكان نجاحه فيها سبباً في اجتذاب أقلام كثيرة وخلق مواهب جديدة وكانت جهوده في هذا السبيل نقطة تحوّل في الأدب العربي كان من نتائجه أن أصبح فن القصة أحبَّ الفنون وأقربها الى النفوس .

فاذا جاء اليوم ووضع كتاباً عن فنّ القصة فان هذا الكتاب يكون خلاصة تفكير بعيد، وثمرة جهاد شاق ، ويكون نهجاً يضعه خبيرٌ لمن يتصدى لهذا الفن ببصره ويهديه ويسلك به إلى الطريق السويّ .

والكتاب كما قدمته أسرة الشرق الجديد يشتمل على ثلاثة موضوعات رئيسية أولها قضية اللغة العربية وهو بحث قيم أبان فيه العوامل التي تمهد للعربيـة وسائل النمو المطرد واستكمال السلطان التام وتقرّب بين لغة الكلام فترفعها وتزيل الفوارق بينها وبين لغة الكتابة .

ثم الموضوع الثاني يتناول فن القصة ، وهو كما قلنا خلاصة تجربة ونتيجة درس ونصائح خبير . أما الموضوع الثالث فهو تذييل الكتاب بثلاث من أقاصيص المؤلف الرائعة هي « على المشنقة » و « إحسان لله » و « في ظلمة الليل » وهي تصور للقارىء مذهب المؤلف في فنه القصصي .

ولقد أحسنت دار الشرق الجديد إذ اخرجت هذا الكتاب لأنها قد سدّت به فراغاً في المكتبة العربية كانت في حاجة اليه فجاء على يد من يحسن الكتابة فيه .

الصيرفي

مجلة الكتاب

ظهر العدد الأول من مجلة « الكتاب » ناطقاً بلسان عربي مبين ، لابساً حلة من العروبة زاهية الألوان رائعة البيان . وكفى بمجلة تصدرها دارٌ عربية أصيلة في العروبة ، أن تكون لسان العرب الجنة الفيحاء . ولروح العرب المرْبى السائغ ، وللوطنية العربية المنهل العذب .

دار المعارف التي تصدر عنها « الكتاب » دار عربية أصيلة في العروبة ، رسيسة في خدمة العرب والعربية . دار تمتّ الى المصرية بأسباب ترجع الى نيف وخمسين سنة ، كانت في خلالها موئلاً للبلاغة ، ومجتمعاً للأدباء ، ومنهلاً لروّاد الأدب . وعلماً في حركة العلم يشار اليه بالبنان .

والصحافة المصرية خاصة ، والعربية جمعاء ، لتهتز أعطافها غبطة بأن يكون لهذه الدار الكريمة ، ممثلة في « الكتاب » ، يد في الارتفاع بالصحافة الادبية العربية الى أسمى الذروات ، على كرّ الايام ، ومرّ الاعوام .

العصر العباسي الاول

دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري — صفحاته ٣٠٤ من قطع المقتطف .
طبع بمطبعة التفيض الاهلية ببغداد

وضع الدكتور عبد العزيز الدوري كتاباً دقيقاً علميًّا مفصلاً عن « العصر العباسي الأول » ليس في نظر من يتصفحه سوى دراسة في التاريخ السياسي والاداري المالي في ذلك العهد ، ولكنها ناحية هامة من حياة الأمم لأنها كالمرآة الصافية التي تنعكس عليها صورة حقيقية للحياة العامة والخاصة على السواء ، وقد كتب الكثيرون عن تاريخ العرب والحوادث السياسية فيه وقد جاء هذا الكتاب باكورة البحوث العلمية الدقيقة عن ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية وعلومها ومعارفها ، ويكفي أن يطلع القارىء على المراجع التي اغترف المؤلف من منهلها العذب بعض أبحاثه ليدرك أي جهد بذل في سبيل العلم .

فن انشاد الشعر العربي

٧٦ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة الآباء الفرنسيسيين بالقدس الشريف

هي رسالة وضعها الأب أغسطس فكيني الفرنسيسي ونقلها الى العربية الأب اسطفان سالم الفرنسيسي والدكتور اسحق موسى الحسيني أراد فيها مؤلفها أن يضع قواعد ثابتة لانشاد الشعر العربي انشاداً صحيحاً الى جانب الفائدة التي تعود على الناظمين من هذه القواعد وذلك باثباته كتابة برموز موسيقية حديثة ليضمن وحدة الايقاع الشعري ودقة اخراجه وهي رسالة لها قيمتها الفنية التي نرجو أن يقبل عليها المهتمون بالشعر العربي وانشاده .

فهرس



الامير بشير

نقلاً عن صورة زيتية صنعت في الاستانة وتاريخها سنة ١٨٥٥ . أي بعد
موت الامير بخمس سنوات . وهذه الصورة محفوظة في قصر بيت الدين

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٥ — ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٦٤

بحث علمي تصنيفي*

الثدييات

Mammalia

اختلف الكتّاب زمناً ، ولا يزالون مختلفين ، في وضع المقابل العربي للمصطلحات التي تعبر عن طبقات الاحياء في علم التصنيف* Taxonomy (أو) Classification ، ويقصد به ترتيب أصناف مملكتي الحيوان والنبات ترتيباً تطابقيًّا ، بحيث يظهر من ذلك الترتيب سلسلة تطورها ومتواليـة نشوئها ، على قدر ما يؤهل بالباحثين علم الاحياء الوصفي ، وأقصد به ما جرينا على تسميته الى الآن علم التاريخ الطبيعي حيناً ، وعلم المواليد حيناً آخر ، والمصطلحات الثلاثة طيبة ولا مأخذ عليها ، فلا حرج من استعمالها مترادفة .

***

ومن أجل أن نتكلم في الثدييات التي هي الشعب الأعلى في الفقاريّـات ، ينبغي لنا أن نذكر هنا ما انتهى اليه مجمع اللغة العربيـة في مصطلحات التصنيف ، وبالحري المصطلحات الدالة على مختلف الطبقات . واليك هي :

العَالَم	Kingdom	العشيرة	Group
العُوَيْلِم	Sub-Kingdom	العُشَيْرة	Sub-group
الأُمَّة	Phylum	الفصيلة	Family
الأُمَيْمة	Sub-phylum	الفصيلة	Sub-family
الشَّعْب	Class	الجنس	Genus
الشُّعَيْب	Sub-class	الجُنَيْس	Sub-genus
القَبيلة	Order	النوع	Species
القُبَيِّلة	Sub-order	النُّوَيْع	Sub-Species
العِمارَة	Tribe	الضرب	Variety
العُمَيِّرة	Sub-tribe	الضُّرَيب	Sup-variety

وهنالك مصطلحات أخرى لا تدخل في باب التصنيف ، وإنما تدخل في بحوث الوراثة كالنسل والسلالة والبطن والعترة ليس هذا موضع ذكرها .

والثدييات في طبقات التصنيف شعب : Class ، أما الكلمة المستعملة : Mammals فترجمتها ذوات الثدي ، والكلمة الاصطلاحية : Mammalia : الثدييات ، وهو اصطلاح يسهل استعماله لغويًا . ذلك بأن الثدييات لفظة تؤدي أغراض اللغة كاملة ، وتقصد أغراض الاستعمال اللغوي من إفراد وتثنية وجمع ونسبة الى غير ذلك ، فنقول ثديي وثدييان وثدييات ، وتتفادى بذلك ما يقتضيه اثبات اللفظ « ذوات » من الصعوبات إذ سماها بعضهم « ذوات الثدي » . وقد أجاز مجمع اللغة هذا الاصطلاح .

وقد اختلف كثير من الكتّاب على تسمية الطبقة المعينة للثدييات في تصنيف الفقاريّات . فسماها بعضهم « طائفة » وقال الآخرون « قسم » وغيرهم « مرتبة » ، والاصلح أن نجري على ما أقرّه مجمع اللغة ، فلفظة « شعب » هي عندي أصلح هذه الالفاظ . بل لقد تطرّف أحدهم في تعريف معجمي فعرّب المصطلح وقال « المامَاليا » ، وهذا إفراط لا موجب له .

فان الثدييات إحدى شعوب ستة تنقسم اليها مملكة الحيوان ، وهي :

الثدييات	Mammalia	البرمائيات	Amphibia
الطيور	Aves	الأسماك	Pisces
الزواحف	Reptilia	الفقاريات الدنيا	Lower Vertebrates

هذا عند الذين يعتبرون الفقاريات مُـمَـيْـلِـكة من مملـكة الحيوان . والذين هم على هذا أكثرية ، وعلى مذهبهم يتعين أن تكون الثدييات شعْـباً : Class ، وهنالك طائفة اخرى ، وهم أقلية ، يعتبرون الفقاريَّـات مملـكة Kingdom ، وبذلك يتعين أن تسمى كلٌّ من طبقاتها « أمة » : Phylum . وكلا الاعتبـارين يمكن الحصول على ما يؤيده علميًّا في التصنيف . على أن الأكثرية هم الذين يعتبرون الفقاريَّـات مُـمَـيْـلِـكَـة ، ورأيهم أثْـبـت .

كذلك ينبغي ان ننبه على خطإ شائع . ذلك قول بعض الـكـتَّـاب « ذوات الفقرات » تعريفاً بالفقاريَّـات . ذلك بأنَّ الفَـقَـرات والفقارات جمعان يستعملان لغويًّـا لتمييز العدد لا غير . وإنما الجمع المستعمل للدلالة على الجنس هو الفَـقَـار . وظني أنه لم يرد غير ذلك في كلام لغويّ . وانظر قول ابن منظور في لسان العرب « فَـقَـار العجز ست فقـارات » . فهو يذكر الفَـقَـار للدلالة على الجنس ، ويميز العـدد بالفَـقَـارات . ألم نسمع بأن سيفاً لعلي بن أبي طالب سمِّـي « ذا الفقار » ، لأن به فقاراً يشبه فقار الظَّـهْـر ؟

أما تفضيل ترجمة اصطلاح : Mammalia بالثدييات فأرجح وجوهه إنهـا ترجمة على الحقيقة تدل على الصفة الذي أخذ منها المصطلح الأعجمي . على العكس مما لو سميناها « الحيوانات اللَّـبُـون» أو « اللبونـة» كما قال بعضهم خطأ ، فان ذلك يكون وضعاً على المجاز ، لا ترجمة تطابق المعنى الاصلي ، أي على الحقيقة .

ومحصَّـل ما مضينا فيه من بحث هو أن — « الثدييات شعب من مملـكة الحيوان (أو مميلـكة الفقاريَّـات) يمتاز أفراده بأن لها ثُـديًّـا تفرز اللبن لتغذية الولائد » .

وقد دخل هذا الاصطلاح في الاستعمال العلمي في اللغات الأوروبِّـية في أواسط القرن الثامن عشر فذكرتها الموسوعة البريطانيـة سنة ١٧٧٣ (ج ٣ ص ٣٦٢) . ثم جرى على استعمالها العلماء .

ومما يؤيد ما أذهب إليه في ترجمة هذا الاصطلاح ما جاء في كتاب كمبردج « للتاريخ الطبيعي » (ص ١ ج ١٠) ففيه ما يلي : « اشتق اسم الثدييات من أظهر صفة فيها ، وهي أن لها أثداء وحلَـمَـات . أما إذا أريد استعمال الاصطلاح بمعنى حرفي ، بحيث لا يحمل من الدلالة أكثر مما يجيز اشتقاقه ، فانه لا يشمل المسلـكيَّـات Monotremes أو Monotremata . ذلك بأن هذه القَـبيلَـة إن كان لها غدداً ثديَّـية ، فان حلماتها لم تبلغ من النَّـمَـضي والظهور حدًّا كبيراً . غير أن في المسلـكيَّـات من جهة أخرى صفات تلزمنا اعتبارها من الثدييَّـات »

أما تصنيف الثدييات فقد اهتديت إلى آخر ما يستنتج من بحوث المواليديين فيه بحسب اعتبار ثقاتهم . فالتصنيف التالي من وضع الأستاذ « ليدكر » Lydekker ، وهو كما يرى

تصنيف يبدأ بالطبقة العليا وينتهي بالطبقة الدنيا :

شعب الثدييات : Class : Mammalia

الشُّعَيب الأول : Sub-class I

Viviparous Mammals (Eutheria or Vivipara)

الثدييات الولود — أو — الولودات

القسم (ا) : Section A

المشيميَّات : Placentals or Placentalia

القبيلة ١ — الرئيسات	Order 1 — Primates
« ٢ — الخُفّاشيات	„ 2 — Chiroptera
« ٣ — الحَشريات	„ 3 — Insectivora
« ٤ — اللواحم	„ 4 — Carnivora
« ٥ — القواضم	„ 5 — Rodentia
« ٦ — الأناعيم	„ 6 — Ungulata
« ٧ — الخَيْلان	„ 7 — Sirenia
« ٨ — الحيتان	„ 8 — Cetacea
« ٩ — الدرداوات	„ 9 — Edentata

القسم (ب) : Section B

اللامشيميَّات : Imblacentals (or) Implacentalia

القبيلة ١٠ — الجِرَابيات	Order 10 — Marsupialia

الشعيب الثاني : Sub-Class II

Egg-laying Mammals (Hypotheria or Ovipara)

الثدييات البيوض (أو) البيوضات

القبيلة ١١ — المسلكيات	Order 11 — Monotremata

أما التصنيف التالي فمن كتاب كمبردج للتاريخ الطبيعي في الجزء الخاص بالثدييات تأليف الأستاذ « بدرد » F. E. Beddard ، وهو كما يرى تصنيف يبدأ بأسفل الطبقات وينتهي بأعلاها .

شعب الثدييات : Class : Mammalia

شعيب الفوارط I. Sub-Class : Prototheria

القبيلة ١ـ المسلكيات أو الأوذريات Order I — Monotremata or Allotheria

شعيب الولودات : II. Sub-Class : Eutheria

القبيلة ٢ — الجرابيات	Order 2 — Marsupialia
« ٣ — الدرداوات	„ 3 — Edentata
« ٤ — الشنيبيات	„ 4 — Ganodonta (ext.)
« ٥ — الأناعيم	„ 5 — Ungulata
« ٦ — الخيلان	„ 6 — Sirenia
« ٧ — الحيتان	„ 7 — Cetacea
« ٨ — اللواحم	„ 8 — Carnivora
« ٩ — القرميات	„ 9 — Creodonta (ext.)
« ١٠ — القواضم	„ 10 — Rodentia
« ١١ — النهاميات	„ 11 — Tillodontia (ext.)
« ١٢ — الحشريات	„ 12 — Insectivora
« ١٣ — الخفاشيات	„ 13 — Chiroptera
« ١٤ — الرئيسات	„ 14 — Primates or Primata

والذي يتضح من الموازنة بين التصنيفين ان الأستاذ بدرد يزيد على تصنيف الأستاذ ليدكر ثلاث قبائل جميعها بائد ، هي المعرفة بالأرقام ٤ و ٩ و ١١ (ext.) وغرضه من هذا أن يبين طريقة التسلل في الطبقات وتطور وجودها. وفيما عدا ما ذكر فالخلاف بينهما ضئيل .

اسماعيل مظهر

دار الامارة

أو

قصر بيت الدين

شادها المولى الشهابي الذي　　جاء بالسعد بشيراً للانام

وعلى باب الحمى قد أرخوا　　دام نصر فادخلوها بسلام — ١٢٤٥

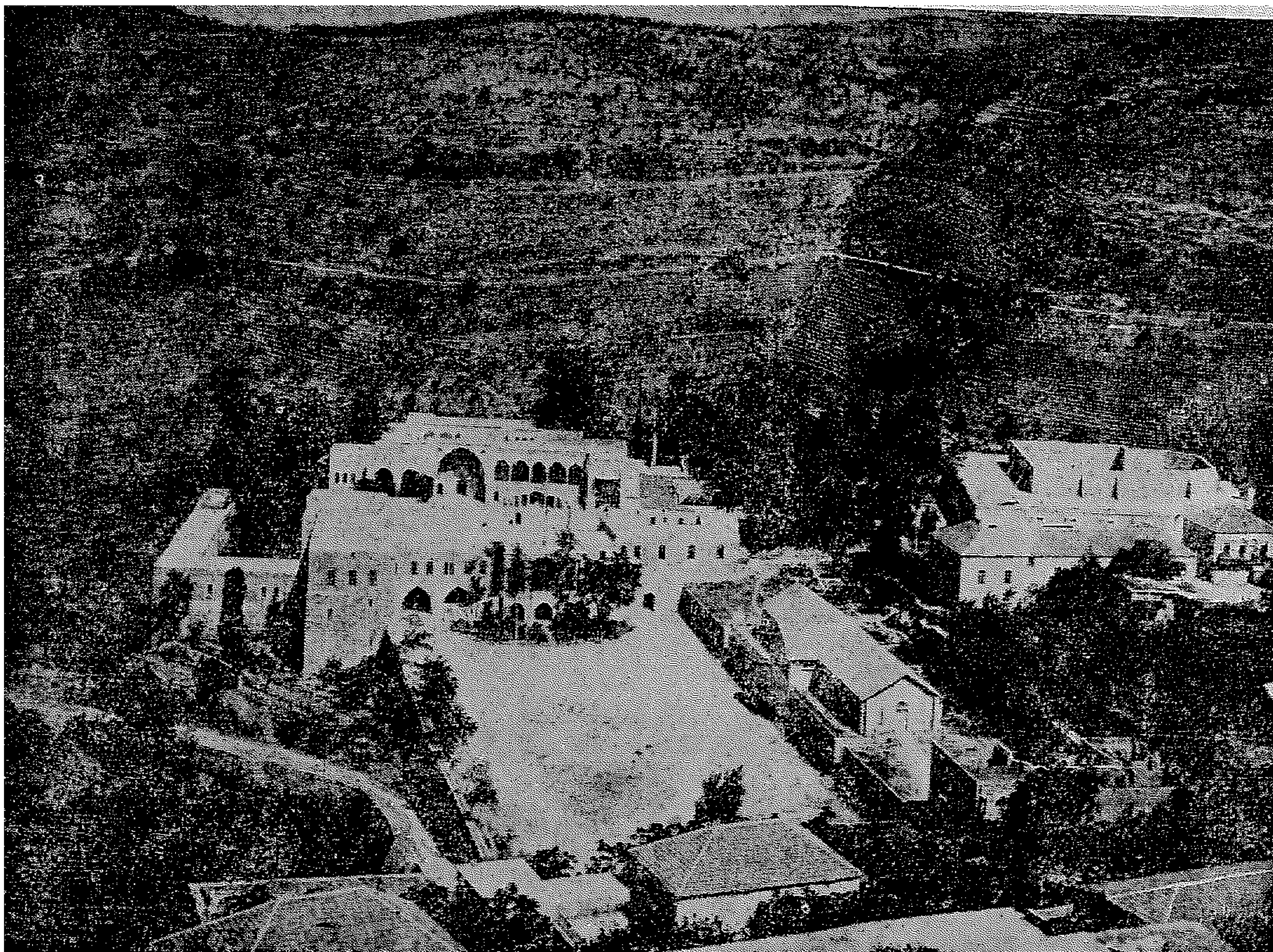
على قمة من قمم لبنان وفي رأس وادٍ شديد الخضرة بديع المنظر والى جانب شلال من الماء الزلال قصر باذخ متين البنيان رفيع الاركان يشرف على دير القمر وبعقلين ويمتد البصر منه الى البحر بحر الروم

هذا هو دار الامارة أو قصر الأمير بشير شهاب أمير لبنان وحليف محمد علي وابراهيم

والقصر بما حوى من دور فسيحة وفسقيات بديعة وأبهاء وحجر وحمامات شرقية فائقة الجمال يدل على خلق صاحبه وسمو تفكيره وحسن تدبيره وجمعه بين القوة والجمال والحسن والجلال

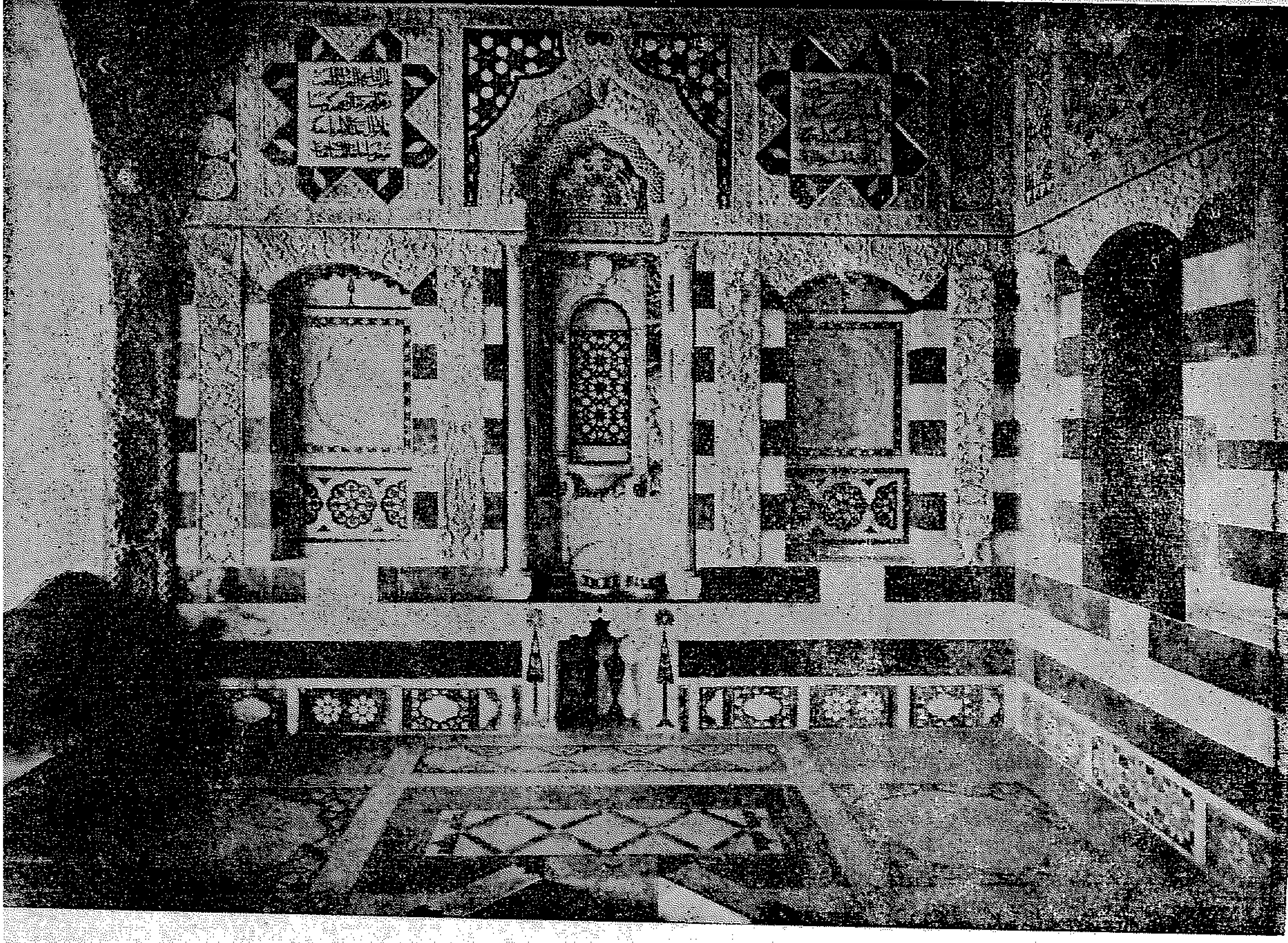
وقد عمدت حكومة لبنان الى اصلاح القصر وترميمه واعادته الى سابق بهائه وبناء بوابته الكبرى ومدخله المقوّس الى الميدان ، وقد نسفا بانفجار الذخيرة العسكرية في سنة ١٩١٢

وعهدت في هذا الاصلاح والترميم الى عالم أثري كبير هو الأمير موريس شهاب مدير مصلحة الآثار اللبنانية فدرس تاريخ القصر وجمع ما استطاع الوقوف عليه من صوره ووصفه ووضع خططاً محكمة للاصلاح والترميم واستعان بصناع بارعين من البنائين والنجارين وجلب من دمشق وسواها أبواباً ونوافذ وسقوفاً عربيــة من الخشب المزخرف والمطعم والملون لاستعمالها في الترميم



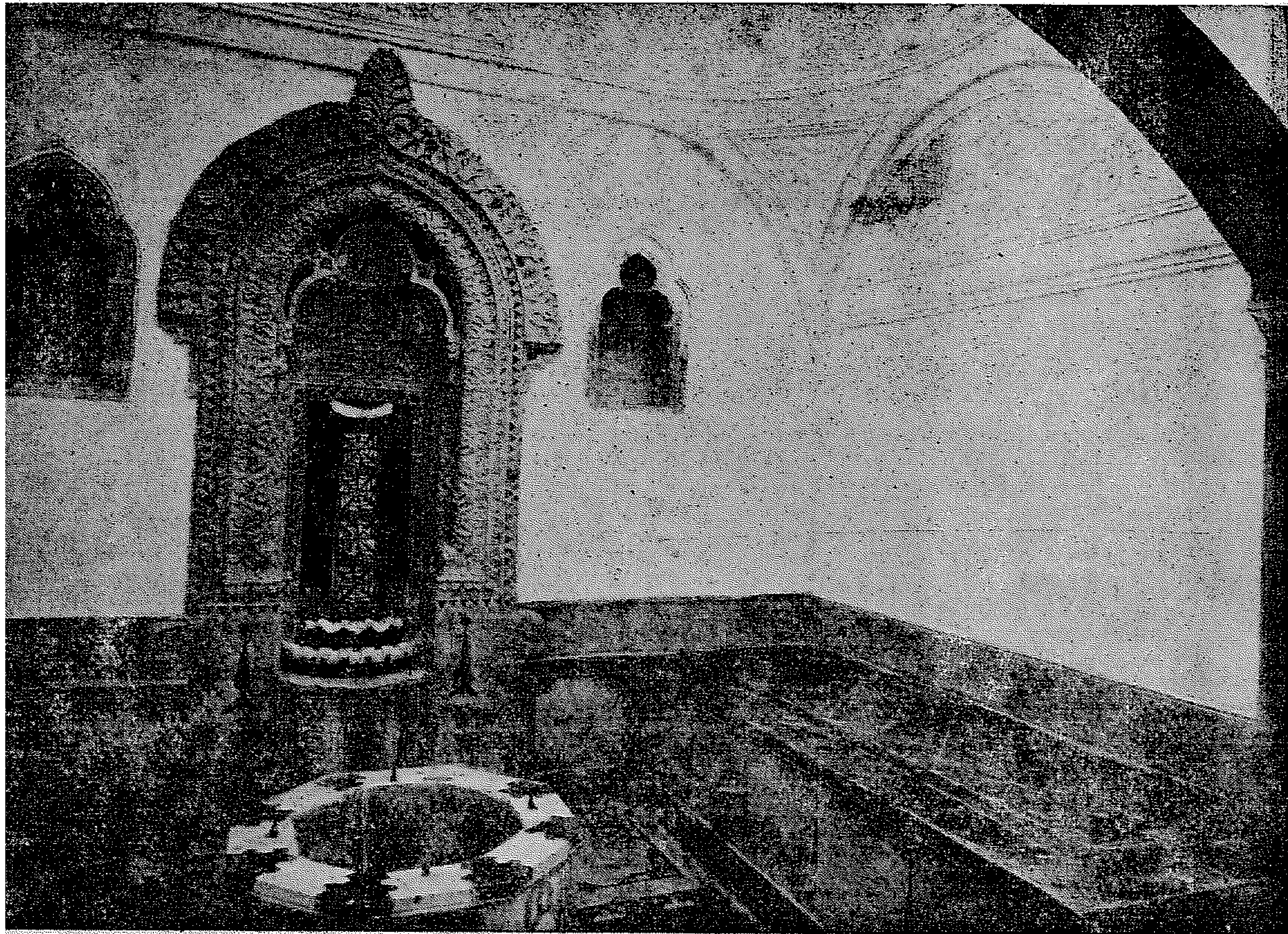
بيت الدين

مشهد عام لقصر الأمير بشير



بيت الدين

مشهد في بهو الاستقبال (قاعة العمود)



بيت الدين

غرفة الدلك في الحمامات

والقصر يجمع بين الحسن والفخامة وله حديقة من الحدائق التي صنعت للاحلام والى جانبها حمامات شرقية لثلاثين مستحمًّا أرضها من الرخام المجزع المختلف الألوان وفيها أجران من المرمر ينحدر اليها الماء الساخن والماء البارد من حنفيات في واجهات بديعة من الرخام الملون والفسيفساء

***

وأجمل ما في القصر البهو الكبير المعروف بقاعة العمود سمي كذلك نقلاً عن بهو كبير في قصر دير القمر قائم على عمود ضخم في وسطه

وقاعة العمود مزخرفة الجدران بالأساليب الشرقية البديعة من رخام ملون ومقرنص ومنقوش ومحفور وفيها استقبل الأمير بشير ابراهيم باشا الكبير

والسقف عربي مذهب وقد جدد من نحو ٤٠ عاماً فزاد البهو جمالاً وبجواره مدخل دار الحريم تعلوه قنطرة كبيرة تستوقف النظر وجدران جميلة المنظر كثيرة الألوان وقد نقش عليها أبيات شعر من نظم المعلم بطرس كرامة كاخية (سكرتير) الأمير وهو ناظم البيتين الذين نشرناهما في صدر هذا المقال وقد نقشا على باب القصر الأكبر المؤدي الى صحن الدار العظيم حيث الفسقية الكبرى

وفي دار الحريم غرف كثيرة للنوم وأبهاء للاستقبال وهذه الأبهاء مزخرفة وأرضها من بلاط الرخام المختلف الألوان

وفي الحديقة قبة تحتها قبر من الرخام الجميل دفنت فيه زوجة الأمير الأولى فرقدت في محيط من النور والحسن والبهاء

ورقد قرينها العظيم في دير أرمني في استانبول حيث توفي منفيًّا بعد خروج ابراهيم باشا من سورية ولبنان

***

وبعد حوادث ١٨٦٠ وانشاء حكومة المتصرفية في لبنان اشترت الدولة العثمانية القصر من زوجة الأمير الثانية وجعلته مقرًّا لحكومة لبنان المركزية وأضيف اليه بعد ذلك مباني

لايواء بعض مصالحها كمجلس الادارة ومحكمتي الاستئناف وثكناً للجند وقد هدمت هذه الثكن الآن لاعادة القصر الى شكله السابق

وفي الدور الأرضي للقصر أقبيــة عظيمة كانت اصطبلات لخيــل الأمير ورجاله وهي متصلة بالحديقة

والقصر كله مجهّز بالماء وفي أقسامه فسقيات كبيرة وصغيرة تسقى بماء نبع القاع ، وقد جره الأمير صاحب القصر مسافة ١٧ كيلو متراً وانتهى في بيت الدين تجاه القصر الى شلال جميل يسمع صوت انحدار مائه في ذلك الوادي كله

وبنى الأمير قصوراً لأنجاله الثلاثة وهم الأمراء قاسم وأمين وخليل

وبنى لنفسه مصيفاً فوق بيت الدين هو الآن كرسي مطران الطائفة المارونيــة لصيدا ودير القمر . وقد جدد سيادة المطران أغسطين البستاني بناءهُ وبنى فيه كنيسة بديعة الصنع

***

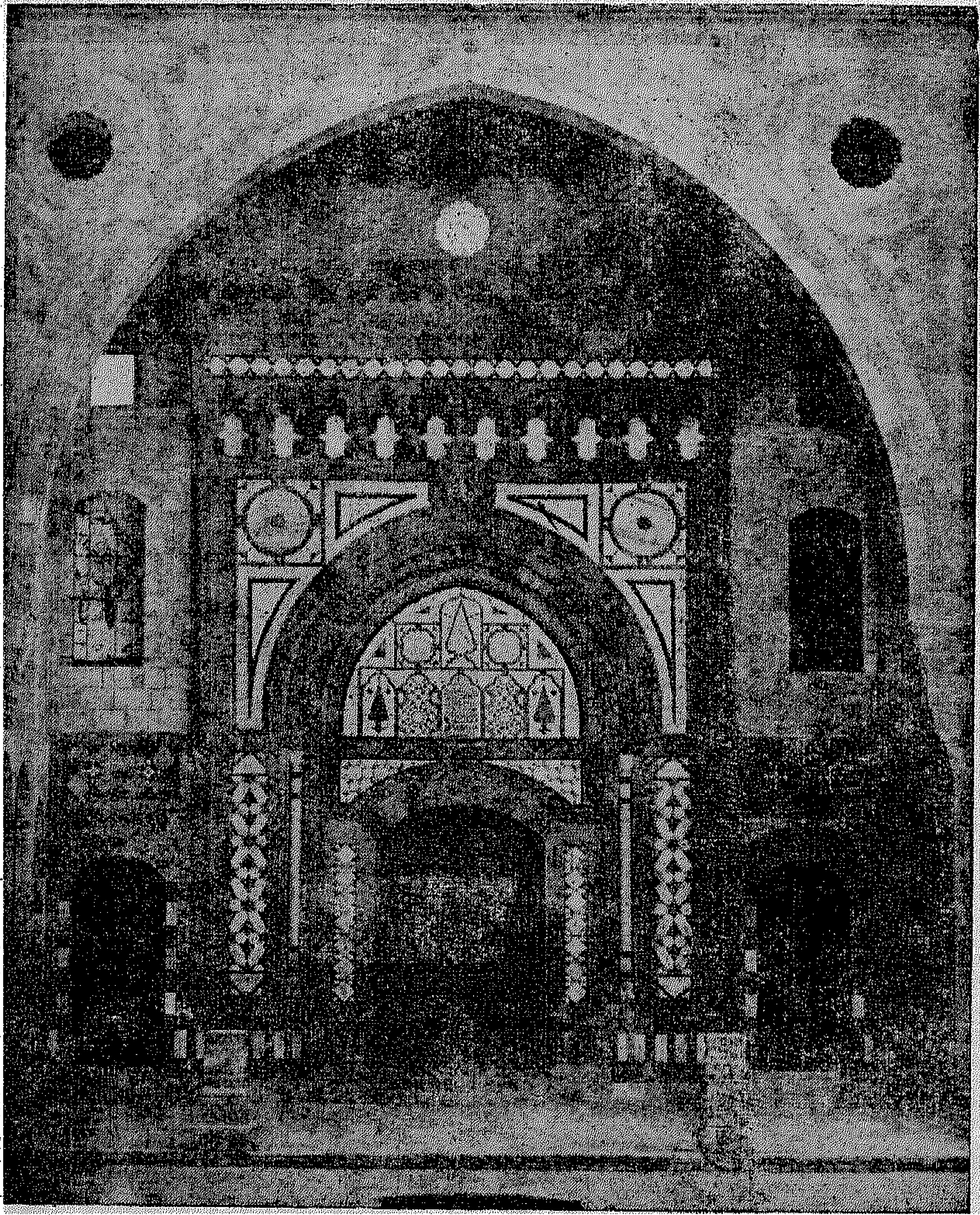
وهناك مشروع لبناء فندق كبير في بيت الدين يجر اليه ماء الشلال قبل انحداره ويشترط الأمير موريس شهاب أن يكون طراز بناء الفندق كطراز بناء القصر

واقترح بعضهم بناء كازينو منفصل عن الفندق

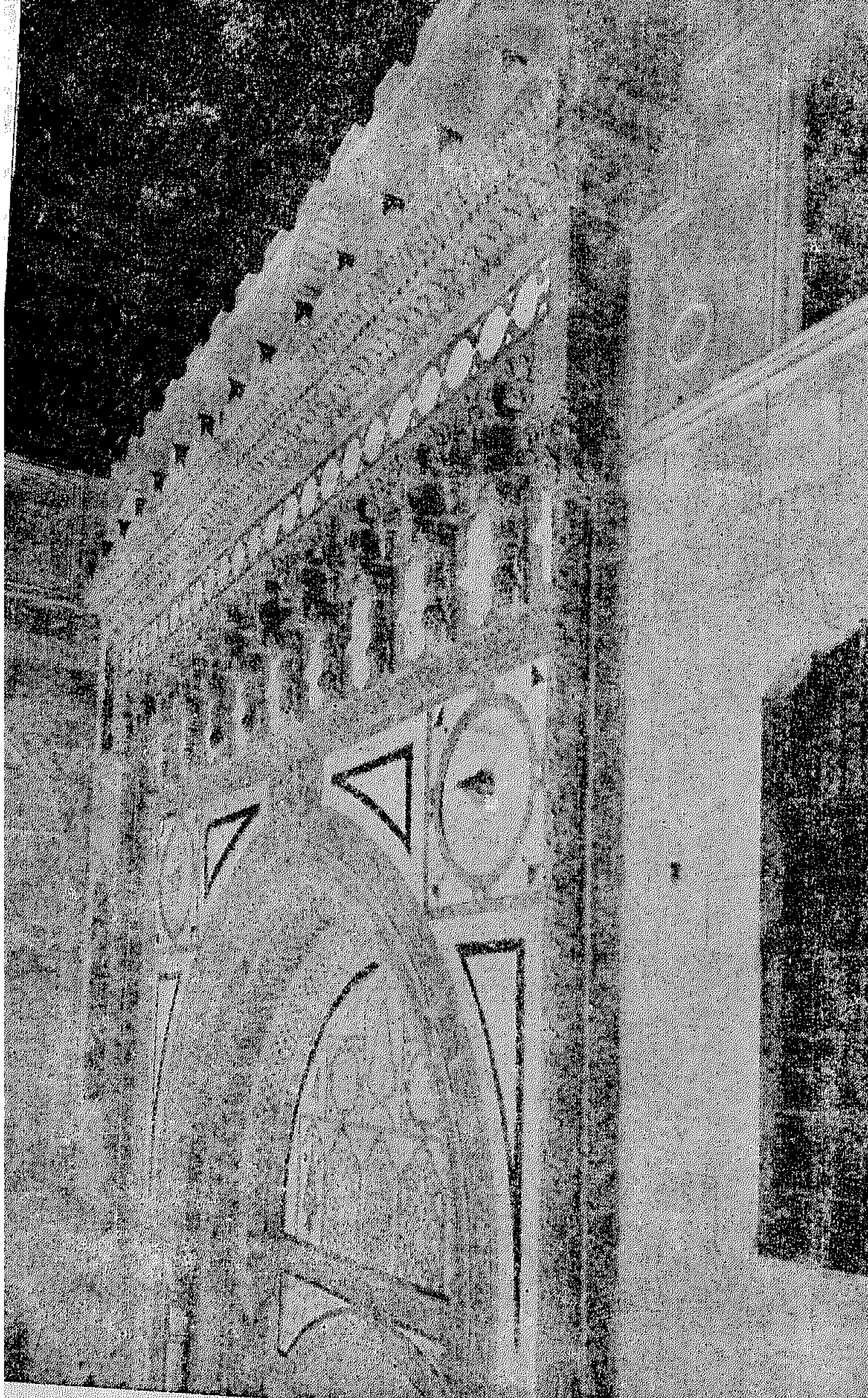
وشرعت الحكومة اللبنانية تصلح الطرق المؤدية الى بيت الدين من أربع جهات وعينت لذلك مليوني ليرا لهذا الغرض

وهناك حركة يراد بها نقل رفات الأمير صاحب القصر من مدفنه في استانبول الى لبنان فيدفن في حديقة قصره لينعم به في مماته كما نعم به في حياته

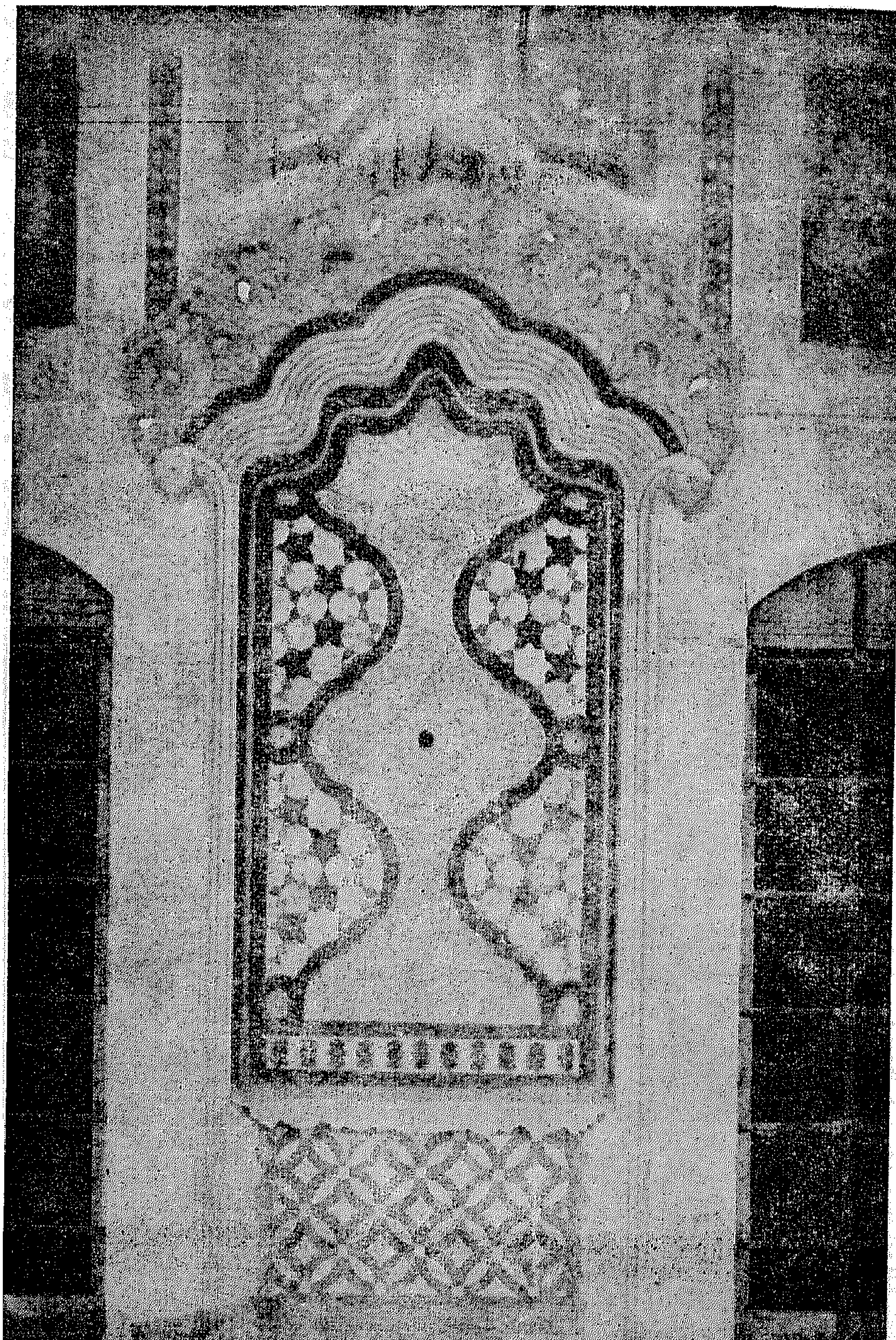
وقيل لنا أن فخامة رئيس الجمهورية اللبنانيــة سيقضي جانباً من فصــل الصيف في هــذا القصر وهو يزوره الآن ويقــيم فيه أياماً وليــالي في الصيف فيشرف على أعمال الاصلاح والترميم ويستريح من عناء الأعمــال الرسمية ويمتع النفس بمناظر تشرح الصــدور وتقر العيون .



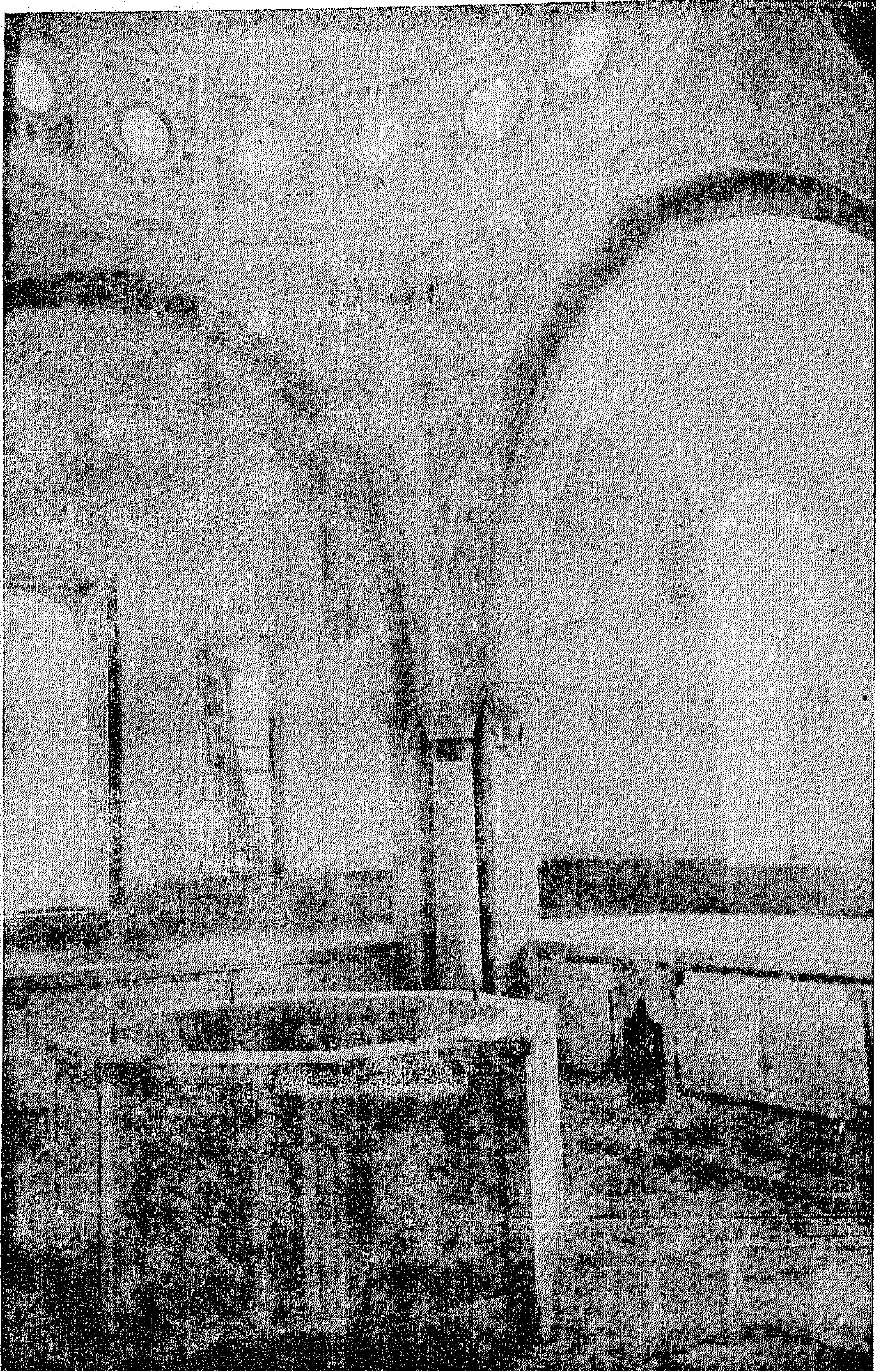
باب دار الحريم في قصر الأمير بشير



نقوش المدخل الكبير لدار الحريم السفلي والسلاملك



حنية في ايوان دار الحريم العليا



قاعة استراحة

في قصر الامير بشير

إبل العم سام

لما أمعنت الولايات المتحدة الأميركية في التبسط غرباً الى ما وراء المسيسبي ، أخذ بعض المفكرين وأصحاب المصالح فيها يهتمون بتسهيل سبل المواصلات بين الولايات الشرقية والبلاد المفتوحة جديداً . وزاد هذا الاهتمام على أثر الحرب المكسيكية التي انتهت سنة ١٨٤٨ اذ غنمت الولايات المتحدة البلاد التي تشغلها الآن ولايات اريزونا ونيفادا ويوتاه ونيو مكسيكو وكاليفورنيا وأقسام من ولايتي ويومنغ وكلورادو .

ولم تكن السكك الحديدية مدّت الى الجبال الصخرية [1] بل كان الاعتماد في النقل والانتقال على العربات والخيل والبغال أو على السفن تدور حول أميركا الجنوبية بطريق مضيق مجلان . واهتمت وزارة الحربية كثيراً بأمر المواصلات في هذه البلاد الجديدة لأنها أقامت كثيراً من الحاميات العسكرية لتأمين المهاجرين الذين تقاطروا لاختطاط الأراضي الزراعية أو للبحث عن الذهب الذي اكتشف في كاليفورنيا سنة ١٨٤٨ . فزادت نفقات الحكومة كثيراً لكثرة الحاميات وتفرقها وصعوبة نقل مؤنها ومعداتها .

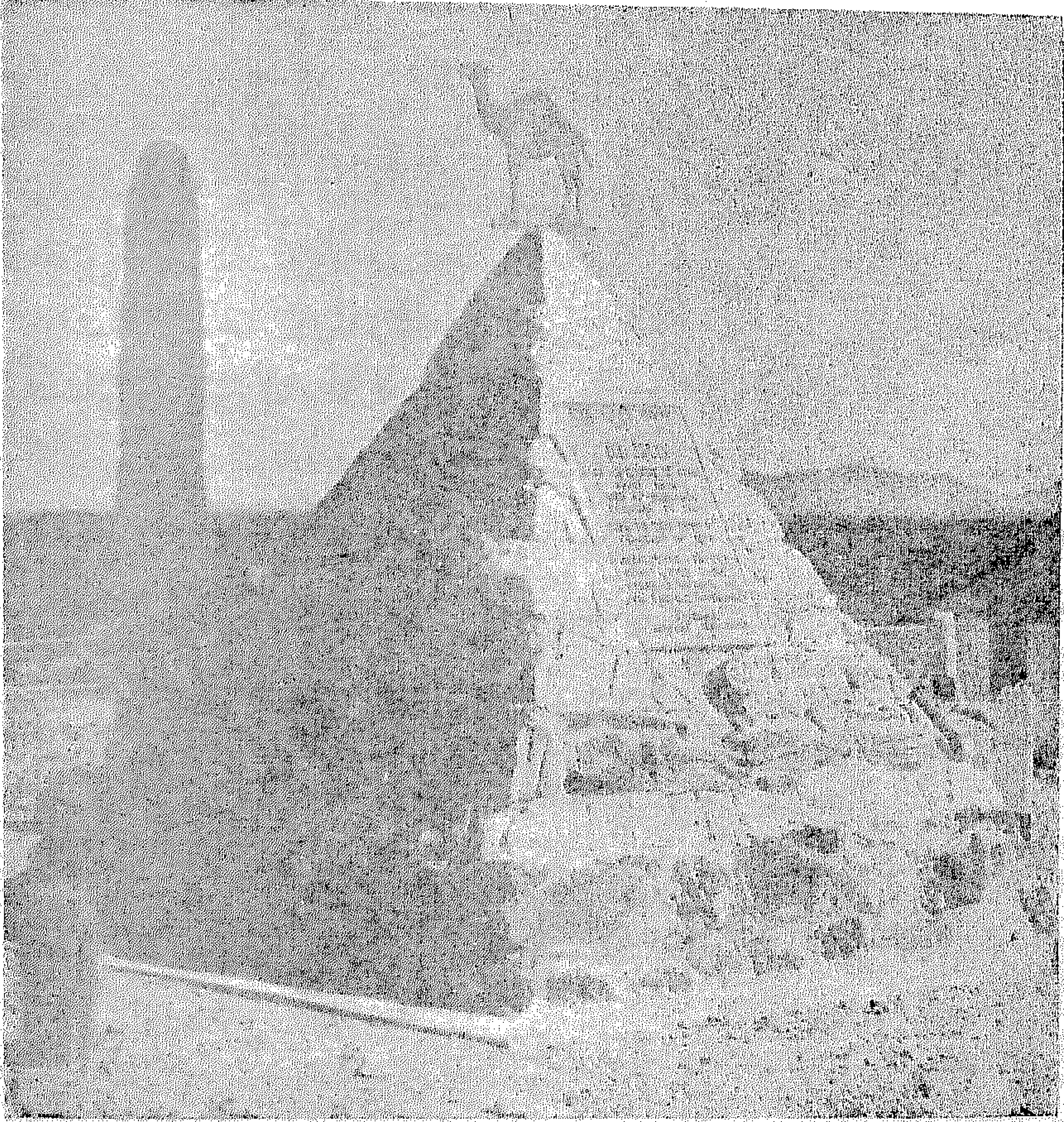
وقام أناس يشيرون باستيراد الابل والاعتماد عليها بدلاً من الخيل والبغال لأن البوادي تكثر في هذه البلاد الجديدة كما تكثر في البلاد العربية وشمال افريقية فلا شك ان الجمل يصلح بها .

وتألفت في نيويورك شركة لاستيراد الجمال والراجح عندي انها وقفت دون اتمام العمل ولم تستورد شيئاً . وقيل ان الاسبانيين جربوا الجمال في بيرو فوجدوا الياما llama أصلح منها في تلك البلاد . وجلب أحد الجلا بين بعض الجمال الى فرجينيا حوالي سنة ١٧٠١ وجرّبها بعضهم في جامايكا فلم تأت هذه المساعي كلها بفائدة .

ولما تولى جفرسن دايفس [2] وزارة الحربية الأميركية رأى أن يستورد بعض الإبل

(١) تم مد السكة الحديدية التي وصلت الباسفيكي بالاتلنتيكي أولا سنة ١٨٦٩ .
(٢) هو الذي تولى بعد ذلك رئاسة الولايات الجنوبية التي خرجت على الاتحاد الاميركي في الحرب الاهلية الاميركية

فوافقه الكونغرس وخصص في ٣ من مارس سنة ١٨٥٥ ثلاثين الف دولار لهذا الغرض. وانتدب للمهمة ضابطين هما الماجر « هنري واين » Wayne والملازم « دايفد بورتر » Porter . فتولى « واين » أمر شراء الجمال ومايلزمها وتولى « بورتر » أمر السفينة التي خصصت لنقلها.



النصب التذكاري لإبل العم سام

وسافر واين الى أوربا ليجمع المعلومات عن الجمال ثم وافاه بورتر بالسفينة فتوجها الى تونس حيث اشترى « واين » جملا وأهداه الباي جملين . وأتيا الاسكندرية وكانت الحكومة المصرية قد حظرت إخراج الحيوانات من مصر ولكن سمح لواين بشراء بعض الجمال باذن خاص فاشترى تسعة كان أنضاها ناقة عمّانية وفحل سناري . ولم يذهب الى

الموانىء السورية إذ لم يكن فيها وسائل لنقل الجمال من البر الى السفينة فتوجه الى أزمير فاشترى فيها من الجمال ما اشترى ولكن بأسعار عالية إذكانت حرب القرم دائرة الرحى والجمال تشترى بالألوف للشؤون الحربية . ثم زار استانبول وبلاكلافا في القرم حيث أكرمه الضباط الانكليز وأطلعوه على كل ما شاء من أمر الجمال التي كانت معهم .

وقفلت السفينة راجعة بطريق أزمير والاسكندرية وكان فيها عدا الابل أناس استؤجروا من مصر وأزمير ليعتنوا بالجمال ويتعلم منهم الأميركيون . ووصلت الى انديانولا بساحل تكسس في ١٤ من مايو سنة ١٨٥٦ فأنزلت الى البر ٣٣ جملاً وبضعة من الجمالة المستأجرين ، ثم عادت الى البحر المتوسط فعادت سنة ١٨٥٧ بسبعة وأربعين جملاً أخرى .

وسيقت الابل كلها الى « كامب ڤردي » على نحو ٦٠ ميلاً من سان انطونيو حيث شغلت في فتح الطرق ونقل اللوازم العسكرية ..

***

وانتدبت وزارة الحربية الملازم « ادورد بيل » Beale ليرود طريقاً من فورت دفاينس بنيو مكسيكو الى القسم الجنوبي من كاليفورنيا على محاذاة الخط الخامس والثلاثين في العرض الشمالي . وجهزته بما يلزم من الرجال والخيل والبغال و ٢٨ جملاً . فاختار بيل فصل الحرّ والجفاف ليمتحن الابل في أصعب الفصول ، فسار الى الباسو على حدود المكسيك ومنها الى البوكركي ثم « فورت دفاينس » .

وتخلّف أكثر الجمّالة المستأجرين من الشرق الأدنى عن مرافقة بيل في هذه الرحلة . قيل انهم كرهوا التعرض للأخطار وقيل ان أجورهم لم تدفع لهم حسب الشروط المتفق عليها ولكن بقي معه اثنان هما جورج الأغريقي والحاج علي . وبدأ «بيل» إرتياد الطريق الجديد من «فورت دفاينس» في آخر أغسطس سائراً على محاذاة الخط الخامس والثلاثين من العرض الشمالي حتى عبر نهر الكلورادو الفاصل بين أريزونا وكاليفورنيا في ١٨ اكتوبر وكان بذلك ختام مهمته . وقد ثبت الآن أن بيل كان موفقاً في ارتياد الطريق إذ قد مدّت على تخطيطه سكة حديد السنتافي وفتحت طريق السيارات رقم ٦٦

وأعجب بيل بالجمال وإمتدح صبرها على العطش وإقتياتها بنبات البادية ومقدرتها على نقل الأحمال الثقيلة . ولكن بعض الجنود ممن كان معه تبرّموا بها خصوصاً لأن الخيل والبغال كانت تجفل منها .

وبعد عبور الكلورادو توجّه بيل بالجمال إلى فورت تاهون في جهات بايكرسفيلد في كاليفورنيا . وقبيل أن يصل إلى سان برناردينو أرسل الحاج علي في أثناء الطريق بجملين إلى لوس أنجلس فقطع الحاج ٦٥ ميلاً في ٨ ساعات . ولما وصل إلى ساحة لوس أنجلس نفرت الخيل والبغال وذعرت الأولاد وسار الخبر في القرية فتألب أهلها لرؤية الجملين والجمّال الغريب الزي . ثم لحق بالملازم « بيل » في المركز العسكري بفورت تاهون ، حيث بقيت الجمال تعمل في النقل والجر والركوب والأميركيون بين معجب ومستحقر حتى بدأت الحرب الأهلية فشغلت الناس عن الجمال كما شغلتهم عن غيرها . ثم باعتها الحكومة إلى بعض التجار فاستخدموها في النقل فكان بعضها ينقل الملح من بعض المناجم في نيفادا وجيء ببعضها إلى سلفركنغ بأريزونا لنقل الفضة إلى خليج كاليفورنيا .

***

وأخيراً أُطْلِقَت في الجنوب الغربي من أريزونا لتعيش وتتوالد كحيوان البر ونشأت الخرافات حولها. ومن هذه الخرافات ما شاع عند بعض الهنود من إن جملاً تمرّد على إلهة الرعد والبرق فسخته جبلاً هو المعروف باسم « كَمِل باك » أي سَنَام الجمل بظاهر مدينة فينكس . ومنها خرافة شاعت بين السذج إن جملاً كبيراً عليه راكب مشدود إليه بالسيور كان يرى في الليالي المقمرة ، ولكن الراكب كان ينقص إرْباً فإرْباً حتى إذا قبض على الجمل لم يكن عليه غير السيور التي كانت تشد الراكب

وقيل إنها تكاثرت في أريزونا بين « يوما » و « طوصان » وكان بعض المسافرين يرونها أحياناً وكان المكاريون والبقّارة يقتلونها لأن حيواناتهم تجفل منها أو لحماية المرعى وما لم يقتل أو يمت منها أمسك فبيع لحدائق الحيوان . قيل أن آخر ما شوهد منها جملان في جهة كوارتسيت سنة ١٩٠٩ .

والشائع عند أهل أريزونا الآن ان الجمال لم تصلح لهذه البلاد لان بواديها غير رملية كبوادي البلاد العربية بل يكثر فيهما الحصى الذي يؤذي إخفاف الابل . وقد نقل بعض الكتّاب ان بعض الجمال التي أرسلت الى نيفادا صنعت لها أحذية من الجلد . ولكن بيل لم يذكر ذلك في تقريره بل امتدح غناها عن البيطرة وفضلها على البغال والخيل من هذا القبيل.

أما الجمّالة الذين جيء بهم من الشرق الأدنى فالذين خرجوا من خدمة الحكومة الأميركية في سان أنطونيو كما تقدم، لم أجد ذكراً لهم في الكتب التي اطلعت عليها . وجورج الاغريقي قتله مكسيكي في شمال اريزونا لخلاف بينهما على لعب الورق على قول ، وانتحر في

نيومكسيكو على قول آخر . واشتهر بكثافة لحيته . ومن غريب ما روي عنه أن هنديـا رماه بنبلة فلم يـكد يخدشه لأن لحيته وقته كالدرع لـكثافتها .

***

أما « الحاج علي » فعمر طويلاً ويجلّ ذكره مؤرخو اريزونا ويحسبونه من روّاد الحضارة فيها Pioneer . وقد تضاربت الآراء في أصله فلا يعلم هل كان عربيًّـا أم تركيًّـا أم اغريقيًّـا . حادثت ملفرد ونزر مدير مكتبة المشترع في اريزونا وصاحب بحث في الحاج علي فقـال لي أن «هاي جلي» كان أبوه عربيًّا وأمه سبيَّـة إغريقية غنمها بعض العرب في الغزو. وكان اسمه الاصلي فيلب تادرو أما اسم هاي جُـلّـي Hi Jolly فلقب اكتسبه في أميركا وهو تحريف « الحاج علي » .

ولما باعت الحـكومة إبلها اشتغل الحـاج علي دليلاً للجنود في تعقـب الهنود المخلين بالامن ومكارياً ينقل السلع واللوازم الحربية . ولما خرج من خدمة الحـكومة عمد الى البحث عن الذهب في اريزونا وشمال المـكسيك ثم مات حتف أنفه في بلدة كوارتسيت القريبة من نهر الـكاورادو في الجنوب الغربي من اريزونا في ١٦ ديسمبر من سنة ١٩٠٢

***

وسنة ١٩٣٥ اهتم بعض الموظفين في مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا بقبر « الحاج علي » فأقاموا فوقه نصباً تذكاريًّـا بشكل هرم علوه عشرة أقدام فوقه تمثال جمل من النحاس علوه قدمان . وأودع في الهرم في جملة ما أودع قسم من رماد جمل وأوراق الحاج علي وثلاث قطع من النقد الاميركي قيمتها أربعون سنتاً كانت في جيبه لما توفي .

وعلى وجه الهرم لوح من النحاس فيه : —

« المناخ الاخير للحاج علي . ولد في بعض نواحي سورية حوالي سنة ١٨٢٨ . مات في كوارتسيت ديسمبر ١٦ سنة ١٩٠٢ . جاء هذه البلاد في ١٠ من فبراير سنة ١٨٥٦ . جمال — مكار — وظل أكثر من ثلاثين سنة مساعداً أميناً لحـكومة الولايات المتحدة . مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا سنة ١٩٣٥ . ودشن هذا النصب في يناير من سنة ١٩٣٦ واشترك في حفلة التدشين حاكم أريزونا ونائب عن حاكم كاليفورنيا

ماسا اريزونا وديع نادر



فصل الخطاب
في الارواح

عاد الأستاذ العلاّمة الروحاني احمد فهمي ابو الخير ينشر على قراء المقتطف درر علمه الواسع في الارواح فضلاً عن العلم الفيزيقي والفلسفي الخ . فملأ ثماني صفحات . ولو وسعه المقتطف لملأه كله من علمه الغزير .

وكنت أقف في هذه المناقشة عند هـذا الحد (لأنه عبثٌ أن نتمادى فيها وهو محاط بطفحات من الأرواح تحجب عنـه حقائق الهيولي) ، لو لا أن عنجهيته قذفت قذائف صغيرة لا تؤذي ولـكنها تضحك . ومنها قوله : « وهو(أي أنا) يدّعي في جرأة غريبة (كذا) انه اطلع على مؤلفات جينز واينشتين وادنجتون » — حقـًّا انها لجرأة .

ومعناه أن مؤلفات هؤلاء الأقطاب العلماء لا يمسها إلاّ الفلاسفة المطهرون من أمثاله. ومن يطلع عليها غيره يكون وقحاً أو جريئاً . وهو يستغرب هذه الجرأة من سواه .

فيا لها من عنجهية جريئة يظهر فيها الاستاذ ابو الخير عبقريته المبدعة وفلسفته البارعة وتشرق منها أنوار علمه الساطعة

ثم يهزأ بلغتي « الفصحى » في كتابتي أسماء Jeans و Einstein, و Eddington, هكذا جينز واينشطين وادينغتون . وكان يجب أن أكتبهـا كما وردت في معجمات اللغة كتاج العروس ولسان العرب هكذا اينشتين وادنجتون وجينز . فأعتذر لجنابه بأني لم أراجع قواميس لغتنا الفصحى لـكي أنقل عنها هذه الأسماء مضبوطة .

ثم استرسل جنابه في نقد كتابي « هندسة الـكون حسب ناموس النسبية » ونسي أن

كتابي هذا ليس موضوع المناقشة وإنما أرواحه موضوعها . ولا بدع أن ينساها ما دام قصده انتقادي على أي حال ، وهدفه التهكم إذا لم يصب نقطة منقودة في مناقشتي

وكان مما انتقده في كتابي ترجمتي المجال المغنطيسي أو الكهربائي بالجو المغنطيسي . وعندي أن الجو أصح من المجال لأن المفهوم من المجال أنه ذو بعدين طول وعرض. ولكن الجو ذو ثلاثة أبعاد وهو طول وعرض وعمق وهو الصواب أو الأصوب . ومع ذلك لا مانع عندي من استعمال « المجال » إذا أثبت في قاموس المجمع العلمي المنتظر .

ثم انتقل من نقد كتابي إلى آراء بعض العلماء في « المذهب الآلي » والتلميح إلى انهياره (في لغة أستاذنا الفصحى) . والعلماء متى اصطدموا بمجهولات الكون التي يستحيل أن تعرف كاللانهاية مثلاً أو تعذر عليهم تفسير اتصال المادة بالعقل،جنحوا إلى افتراض ما يتراءى من الصور في عالم المجهول،لكي يرضوا شهوتهم لمعرفة أسرار الطبيعة .

وتمادى استاذنا في هذا الباب وسرد من أقوال العلماء عدة أشياء ونسي أرواحه .

ان موضوعنا هو الأرواح واستحضارها ! فما لنا والمذهب الآلي والمجال الكهربائي الخ .

***

كاد يقسم جنابه بالأنبياء والرسل اني لم أطلع على شيء من كتب الروحانيين .أجل لم أقرأ سوى كتاب واحد نسيت اسم مؤلفه . فما كان أقوى حجة من الأستاذ أبي الخير . ولكني لم أفهم منه ولا من أستاذنا ما هي الروح . ألا يجب أن نعرّف الشيء الذي نتناقش فيه ؟ أم يريد أن نتلمس الشيء المفروض في ظلام العالم المجهول .

كل ما كتبه أستاذنا لكي يقنعني ويفحمني لم يستملني إلى حظيرته . ولكنه حصر في فيها بايراد بعض عجائب استحضار الأرواح . وأعجبها وأغربها وأكثرها إدهاشاً حادث طبيب جراح حضرت روحه بعد ١٧ سنة من وفاته بين ثمانية من زملائه الجراحين وعمل في الظلام (لماذا في الظلام ؟) عملية الزائدة الدودية لمريض . ولما انتهى منها أنار الزملاء نور الغرفة ، فاذا المريض مضمد الجراح وقطعة الزائدة موضوعة في الكحول في أناء زجاجي .

وذكر حادثة أخرى مثلها . ثم ذكر حوادث أخرى كلها عجائب وغرائب من هذا الطراز .

حقًّا أن هذا الحادث العجيب أي حادث الطبيب الميت الحي ، أعظم مقنع بعالم الأرواح واستحضارها — ولكن هيهات من يصدق .

إذا كنت أصدق هذه القصة وأومن بعالم الأرواح فبالأولى إن أصدق عجائب سنت ترايز وسيدة لورد .

ولكن أستاذنا يصدق . ولذلك يطالع كل كتاب وكل مجلة تنشر هذه الأقاصيص العجائبية . ويأخذها أمراً مسلماً به كأنه شاهدها بعينه . فما أحراه بأن يطوف على العجائز ويستمليهم أخبار عجائب الأولياء والجن وليست المجلات التي تروي قصص الأرواح بأعقل وأصح من أخبار العجائز . وأوجه أستاذنا إلى مجلة للغة الانكليزية تسمى استرولوجي أي علم التنجيم فهي محشوة بالعجائب التي هو مغرم بها .

***

مهما يا أستاذنا . اذا قال العلماء مثل اوليفر لودج وكونان دويل وستيد وفلامريون وغيرهم من أساطين العلماء كما تقول أنت،فمركزهم العلمي لا يثبت صحة أقوالهم الروحانية. « لكي نصدق نريد أن نرى آية من السماء » .

لا أصدق رواية الطبيب الميت الذي عمل العملية الجراحية بعد ١٧ سنة من وفاته ولو كنت أعرفه حيًّا وشاهدته بعيني رأسي يعمل العملية ، فلا أصدق ما ناقض النواميس الطبيعية . وليس ثمت شيء ما وراء الطبيعة . أكذب نظري لأنه غشني ، ولا أكذب السنة الطبيعية .

***

انتهى كلامي في هذه المناقشة العقيمة . وهنا أترك الكلام المطلق لأستاذنا أبي الخير ليشرح علمه الواسع نقرؤه بامعين .

نقولا الحداد

الفلسفة

والانتخاب الطبيعي

هذا جزء من فصل من كتاب « الالوهية والفكر » تأليف أرثر جيمس : إرل أوف بلفور ، الذي ترجمه محرر هذه المجلة وهو الآن تحت الطبع .

- Theism and Thought, Arthur James, Earl of Balfour.

كانت نظرية الانتخاب الطبيعي من الانتصارات العظمى في القرن التاسع عشر. وبالرغم من حقيقة انه في ضوء البحوث التي تلت ذيوعها ، لم تظهر انها قادرة على تحقيق كل ما توقعنا منها، فان ذلك لا يزلزل مكانتها باعتبارها نقطة تحوّل في التفكير العلمي .

الى هنا وبالقدر الذي يهم من وجهة هذا المبحث ، نلحظ نقصاً مستباناً فيه ، بالرغم مما قد نقدر له منه قيمة باعتباره اداة تطورية ذات أثر بيّـن ، ظلت عاملة خلال دور زماني قصير نسبيًّـا . نحن هنا نزن تلك الشبكة العِـلّـية التي تصل معتقدات العصر الحاضر ، أي معتقداتنا جميعاً ، بالمادة والطاقة في حالة توزعهما القديم الأولي — أي كما كانت في العصر السديمي قبل أن تتكوّن الأجرام السماوية . في فترة مجهولة لدينا، وبالحري فترة غير معروفة، وفي مدى ذلك التطور النشوئي ، برز سيار هيئ بمجموعة من الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لتنشئة صورة ما من صور الحياة العضوية. في الطور الذي قطعه ذلك السيّـار مستكملاً العدة لتنشئة الحياة ، لم يكن هنالك من محل للانتخاب ، وكذلك لم يكن للانتخـاب من أثر في تهيئة المدرج التالي من مدارج التطور — وأعني به ذلك المدرج الذي شهد بدء الحيـاة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي ، لم يكن لنا من معرفة بما يضاف من جملة الأشياء أو يستخلص منها . ان عوالم لا عداد لها ولدت ثم بادت . ولـكن أعظم ما وقع من نكبات وأحـداث في عالم الأجرام ، لم يتجاوز حد انه توليف

مُعاد لما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيرات واحدة إثر أخرى ، على مقاس من العظمة والفخامة قلما يتصوَّر . غير أن عامة هـذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيـه صفة الاصالة والجوهرية . لم يكن في النتيجة من شيء ، تشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسـبق له وجود في العِلَّـة. والـكون لم يأت بشيءٍ جديد، اللهمَّ إلاً اعادة تنسيق نفسه. ولـكن ببزوغ الحياة بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما اعتنق من فكرة ، فلست أدعي هُنا ان الحياة ، حتى في أدنا مدارجها ، أكثر من توزع ضروب خاصة من المادة صبَّـت في قوالب معينة ، وأن أفعالها وأركاسها [1] جميعاً ، قد تفسر بمقتضى سنن الـكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملاً . فعلى أي وجه تقلب هذا الرأي، فلا شكَّ يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والارادة . فان هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرد إعادة توليف المادة في صور مـّا . وهي فوق ذلك أشياء ، بقدر ما لأرضنا هـذه من صفة الحدوث الزماني جديدة — نعم جديدة وانها لباعثة على أشد العجب .

لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في ابراز هـذا المتجه الجديد . كما انه لم يكن له من يد في أن يحـدث حدثاً يسير به قُـدُماً عند ما بدأت الحياة بالوجود ، ولـكن عند ما أصـبحت تلابس عضويات من طراز ملائم . فعند ما وُجدت ، بطريقة غير محدوسـة (ا) مُـركَّـبَـات عضوية معقدة (ب) ليس لها صفة الحياة لا غير (ج) بل تـكاثرت (د) وفي تـكاثرها استحدثت أعقاباً لها بها ، على اطلاق القول . مشابهة ، ولو أن هذه المشابهة (هـ) صحبتها تغيُرات (و) متوارثة : قبل أن تقع هذه الأحداث الجسام وتأتلف، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الاحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهدٍ بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة .

***

من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السَّوْق العلّـي للأشياء تدخلاً من شأنه أن يزوّد العقل الانساني ، حتى بما يشاكه أصلاً عقليًّا ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ

[1] Actions and Reactions

الكون . ولكن لديّ شيء آخر أقوله . فان تدخله لا يبدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جدًّا لا غير ، بل انه ينتهي مبكراً جدًّا أيضاً . فان أفعاله التأثيرية تموت وتفنى سريعاً ، حتى ليعجز عن الافصاح عما ينبغي الافصاح عنه ، وأعني بذلك الافصاح : عن مثاليات الحب والحسن (الجمال) والمعرفة .

بالنسبة لي تظهر هذه المسألة كأنها ثانوية القيمة ، فان تلك الاشياء الباهرة العظيمة ، اذا كانت في غائيتها ، هي من عمل اللاّعقل ، فانه لا يعنيني إلاّ قليلاً اذا كان صدورها المباشر راجعاً إلى اللاّعقل ملابساً صورة من الانتخاب الطبيعي محوَّراً فيما يشبه القصد ، أو أسفرت في صورة مصادفة مكفوفة . ان النتيجة بقدر ما يعنيني واحدة ، ولكنّ هنالك من يقتبلون قبلة أخرى . هم يطلبون تفسيراً علميًّا . أعطهم هذا ، وهم بعد لا يُعْنَوْنَ بما يكون واقعاً بين العلة والنتيجة من التفكك وعدم الالتئام . ولذا تراهم قانعين راضين ، ما أثبتّ لهم ان خصائص أية محصّلة من المحصّلات التطورية ، تتضمن قيمة بقائية ، ويقتضى نظرتهم هذه تَمَحّي كل القيم الأخرى ، ولا تساوي عندهم دانقاً ولا سحتوتاً . يكتفون بأن أسمى وأندر ما في الجمال والاخلاق والفكر ، أشياء لا تفعل للانسان ، إلاّ ما تفعل الوسائل الخسيسة لأقل كائن طفيلي حقير — بمعنى انها تساعد على الاغتذاء والتكاثر .

***

إن هؤلاء المفكرين لا يعوزهم الافراط في الطمع . ومع هذا فاني أشك في أن مراميهم ، على تواضعها ، قد تحققت في مثل هذه الدنيا التي نعيش فيها . انهم يخطئون اذ يفرضون ان هذه القيم العليا ذات أهمية في التناحر على البقاء . فالقديسون والفلاسفة والفنانون ، لم ينجحوا اطلاقاً ، على قدر علمي ، في أن ينَشِّئوا أسَراً كبيرة بأنفسهم . وكذلك هم لم يساعدوا الجمعيات التي فتنت بهم وأخرجتهم الحين بعد الحين ، من أن يبذّوا كثرةً ونسلاً ، غيرهم من الجمعيات في بقاع أخر من الأرض . وبمقتضى قياس الطبيعة للمنفعة ، هم لا فائدة منهم . انهم ليسوا من حيث ذلك ، أكثر من نماءات خبيثة في مجمل المحصّلة التطورية ، ولا يكونون جزءاً من نسيجها الجوهري . انهم ، بناءً على فرضية المادية الطبيعية ، حَدَثٌ اتفاقي ، أنتجه حَدَثٌ مثله .

ليس في الناحية الروحانية للتطور من شيء هو أعجب من هذا . وربما لا يكون عجيباً ان هذه الحركة الاستدراجية التي مضت فيها هذه النشوءات، والتي أدّت الى النجاح الاحيائي، قد تذهب بها إلى آفاق تمّحي فيها كل كفاياتها البقائية أو جُلّها . ولكن العجب الحقيقي انه في هذه الآفاق ، او في بعضها على الأقل ، قد تحوز قيماً أجود وأرفع ، بحيث تعجز المادية الطبيعية عن الافصاح عنها أو تفسر وجودها ببيان . فالديانات البدائية ، بما فيها من الخرافات والأوهام الفجّة . والحماقات والإفراطات ، قد يكون لها قيمة ، تلبس تلك الصورة التي يقرها الانتخاب الطبيعي . ربما تكون قد ساعدت الانسان ، بصور متفرقة ، مساعدة مباشرة في مدارج حضارته الأولى ، ان يحتفظ بعدده ، أو أن يكثر ويزداد . ولا شك مطلقاً في انهذا يصدق أيضاً على الخُلُقيّات البدائية ، وعلى العلم البدائي . وربما صدق أيضاً على الفن البدائي . لهذا نقول إن الاجياليين[1] الذين يعالجون علم الأجيال[2] على انه فرع من علم المواليد[3]، محقون في اعتبار أن هذه الأشياء قد تعود بعض الشيء الى التناحر على البقاء . ولكن التناحر على البقاء ليس له تأثير مباشر على مدارجها النشوئية العليا . فأية قيمة بقائية مثلاً لحب الله كما نباشره في الممارسات الدينية العليا ؟ وأية فائدة تلك التي جناها انسان ما قبل التاريخ من ان كفاياته العقلية وتصوره ، تلك التي نلمح ان بداياتها الدّنيّة قد رُبّبَت بدنيّاً في أسلافه بعوامل الحرب والجوع والمرض، قد تتحوّر فتنشأ منها تلك الكفايات ، التي هي بعد مرور آلاف من السنين ، سوف تيسر لأخلافه سبيل العمل والنجح ، في تتبع خطا معرفة هي الى التجريد الصرف ، والبعد عن الكسب المباشر ، وهي لأول وهلة معدومة القيمة ماديّاً ؟ وأي تأثير شامل ، من حيث الاحتفاظ بالنوع ، حدث بنشوء صفة الحب الخيالي الخالص من دَنيّات الشهوة الحيوانية ؟ واذا سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي قد يكون له أثر في تنشئة العطف العائلي والطاعة القبَليّة ، فلأي شيء تزدهر هذه الصفات فتصير رحمة بريئة قوية تشمل في دائرتها كل النوع الانساني ، وهي فوق ذلك ، تخص من يدعون غير الصالحين ، لا الأصلحين، بعطف أكبر وحنان أعظم ؟.

(1) Anthropologists (2) Anthropology (3) Natural Aistory

الشمس

قال شوقي أمير الشعراء :

اتخذ سكناك في طلق الهواء   بين شمس ونبات وهواء

ولو لم يقل رحمه الله في الحب :

الحياة الحب والحب الحياة   ....

لصاغ بيته هذا الخالد في الشمس حيث كان ينبغي ان يقول :

الحياة الشمس والشمس الحياة   ....

لان « غانية السماء » لو أشرقت يوماً ، ثم غابت ، ولم تعد لتطلع على الدنيا الى الابد ، لذبل النبت ، وفنى الحرث ، ومات الانسان ، ونفق الحيوان ، وأمسى الكون ، كما صنعه الله تعالى ، في اليوم الاول للخلق : أرضاً خربة خالية ، ذات غمر تعلوه الظلمات

والكائنات الحية ، بمملكتيها : النباتية والحيوانية ، تعيش تحت الشمس من وقت مشرقها الى ساعة المغيب ، الا الانسان وحده ، فقد حالت المدنية بينه وبين الشمس ، فأسكنته بيوتاً ظل يعيش فيها عاملا أو لاهياً ، كما أنها فرضت عليه ملابس ثقيلة ، ، غطى بها سائر جسده ، فكانت السد المنيع بينه وبين شعاع الحياة

والجسم يولد فيتامين « D » من نفسه اذا تعرض الجلد لاشعة الشمس ، وذلك بتفاعل الاشعة فوق البنفسجية في المادة الدهنية الكائنة تحت الجلد المسماة « Ergosterol »

وينبغي ان تعلم أن النقص الجزئي لفيتامين « D » من جسمك يسبب لك الامساك ، وفقد النشاط ، والتعب السريع ، وعدم انتفاعك بالاغذية التي يدخل في تركيبها عنصري الكلسيوم والفسفور

وأما نقصه الكلي فيسبب الكساح ، ولين العظام ، وتضخم المفاصل ، واعوجاج العمود الفقري ، وتأخر النمو

فالشمس ضرورة لحياتك ، وعليك باتباع ما يأتي صيانة لصحتك :

١ — اياك أن تسكن منزلا لا تدخله الشمس

٢ — استقبل الشمس في بيتك في جميع الاوقات ، وافتح لها النوافذ على الدوام

٣ — في حجرة متشمسة من منزلك ، اخلع عنك ملابسك ، وارتد لباس السباحة ، وعرض جسدك لاشعة الشمس لمدة ربع ساعة كل يوم مهما كانت مشاغلك

٤ — ليكن حمامك الشمسي كل يوم في الصباح الباكر أو في وقت المغيب أي عندما تكون أشعة الشمس مائلة حيث تكثر الاشعة فوق البنفسجية

٥ — ينبغي تعريض جسم الاطفال لاشعة الشمس صباح كل يوم لمدة قصيرة حتى لا يصابون بالكساح أو لين العظام

٦ — في أيام الصيف لا تسرف في حمام الشمس على شاطىء البحر ، وادهن جلدك بزيت حتى لا تحرقه الاشعة

واعلم ان الشمس هي سر الاسنان السليمة ، والعظام القوية ، والصحة الكاملة ، فاحرص صيفاً وشتاء على حمام الشمس كل يوم . فتؤمن ان الشمس هي الحياة ؟

فهمي عطا الله



تقدُّم العلاج(1)

في أوائل القرن الحالي كان مدرسو الطب لا يعلقون أهمية كبيرة لعلاج مختلف الأمراض ولا يظهرون عظيم ثقة فيما كانوا يصفونه من أدوية، بعكس ما كانوا يبذلون من عناية في التشخيص الاكلنيكي والاهتمام به. وكان تأثير ذلك على طلبة الطب إذ ذاك، الاعتقاد بأن التشخيص الصحيح هو السبيل الوحيد للعلاج الناجع، ولكن بخروجهم للحياة العملية صدموا بضدّ ذلك، فكثيراً ما شخصوا الأمراض تشخيصاً صحيحاً ولكنهم عجزوا عن علاجها، ولم يكن أمامهم سوى مواجهة الأعراض لتخفيف ألم المريض بالحد منها تاركين المرض نفسه بدون علاج، وللطبيعة العمل على الشفاء. وبهذا الأمل ينتظرون تقدم حالة المريض عاجزين عن مد يد المساعدة له.

في ذلك الوقت لم يكن هناك سوى أدوية محدودة العدد والأثر، ولم يكن العلاج مبنيًّا على أساس ثابت، إذ كان علم الطب التجريبي يخطو خطواته الأولى، وكانت أسباب المرض لا تزال محل البحث والاستقصاء، فكان مواجهة الأعراض همهم الأساسي فاستعانوا بالمورفين والكوكايين وأملاح البروميد Bromides للحد منها، كما استعملت السليسلات للروماتزم الحاد، وبجانبها استعملت أدوية أخرى ثبت فيما بعد تأثيرها الفعلي على مسببات بعض الأمراض، وان كانت اذ ذاك تستعمل بحكم العادة كمخلفات للقرون الماضية منها السنكونا والكينين، لمرض الملاريا، وعرق الذهب لمرض الدوسنطاريا الأميبية، والزئبق وأملاح الايوديد Iodides للزهري، وذلك قبل أن يكشف عن سبب كل من هذه الأمراض بسنوات.

﴿ اكتشاف أدوية من نوع جديد: الأدوية الحيوية ﴾ قد كان نتيجة البحث عن أسباب الأمراض وجود طائفة جديدة من الأدويه تمتاز عن سابقاتها بأنها مماثلة للجسم نفسه ومن طبيعته لا مواد غريبة عنه، فكانت مكملة لنقص وظائفه ومعوضة لما يعتري أعضاءه من فتور في تأدية عملها. من ذلك استعمال الغدة الدرقية في علاج الأمراض الناتجة

(1) ملخص محاضرة للسير هنري ديل نشرت بالمجلة الطبية البريطانية بعدد شهر اكتوبر سنة ١٩٤٣

عن قصورها ، والانسولين لعلاج البول السكري ، وعلاج الدفتريا بالمصل المضاد لها . هذا النوع من العلاج يؤثر في سبب المرض نفسه ، فيمكن بذلك أن يصفه الطبيب وكله ثقة في النتيجة ، لا كما كان الحال سابقاً ينتظر مساعدة الطبيعة له في شفاء العلة .

بالمضي في هذا البحث أمكن اكتشاف الهرمونات والفيتامينات والأمصال المضادة للامراض. وساعد على ذلك تقدم علم الكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطب. فأحدث ذلك انقلاباً شاملاً في العلاج وأصبح في وسع الطبيب ان يعالج أمراضاً لم يكن لها علاج معروف بنجاح تام، فعولج فقر الدم الخبيث (Pernicious Anæmia) بخلاصة الكبد والكساح بالفيتامين (د) وشجع ذلك على المضي في البحث عن مسببات الأمراض واختبار تأثير المركبات الكيميائية عليها . وكان العالم الألماني الكبير ايرليخ الفاتح لهذا الباب فابتدأ بدراسة مفعول الصبغات على جرثومة الملاريا وخاصة تأثير أزرق الميثيلين (Methyline Blue) عليها. ومع انه أخفق في ايجاد بديل للكينين منهـا، فإنه كان في عمله هذا المؤسس الأول للكيمياء العلاجية . ومما يستحق الذكر أنه بعد وفاته بسنوات تمكن غيره من استحضار مركبات مماثلة لأزرق الميثيلين ذات تأثير فعّال على جراثيم الملاريا

﴿ الصبغات ومشتقاتها ﴾ على هدى تأثير الصبغات استمرّ ارليخ في العمل وساعده على ذلك اكتشاف جرثومة مرض النوم . وهذه الجرثومة تمتاز بامكان ملاحظة حركتها خلال قوة مكبرة متوسطة تحت المجهر ، فأمكنه دراسة حياة هذا الحيوان الأولى ، وتأثير مختلف المواد عليه، وبمساعدة تلميذه «شيجا» الياباني لاحظ تأثره بصبغة التريبان الأحمر (Trypan Red) فكان ذلك نقطة ابتداء لعدة اختبارات انتهت بعد سنوات من وفاة ايرليخ، ولكن بواسطة أحد تلاميذه النابهين «هرمان رهل» لاكتشاف مركب معقد التكوين عرف باسم الجيرمانين، كان الشافي من مرض النوم

وقد أثبت ايرليخ بأن هذه الصبغات لا تمنع هذه الحيوانات الأولية من الحركة، ولكنها تمنعها من التوالد، فتأثير العلاج عليها وقف نموها ويكون من اليسير على قوى الجسم الطبيعية التغلب على الكميات المحدودة منه الكامنة فيه .

﴿ مركبات الزرنيخ ﴾ في عام ١٩٠٥ اكتشف توماس وآخر في ليفربول مركب زرنيخي عضوي عرف باسم الأتوكسيل ذو تأثير فعال على جرثومة مرض النوم . وقد تمكن ايرليخ فيما بعد من معرفة تركيبه الكيميائي وأثبت أن اختزال هذا المركب الخماسي الذرية لآخر ثلاثي الذرية أعظم أثراً ، وبمداومة العمل في هذه المركبات اهتدى وتلميذه «هاتا» الياباني

لاكتشاف السلفرسان قبيل الحرب العالمية الأولى محدثاً انقلاباً في علاج مرض الزهري والأمراض المماثلة المسببة عن الحلزونيات .

﴿ مستحضرات السلفانيلاميد ﴾ باكتشاف المركبات السابقة أمكن علاج الأمراض بالتأثير المباشر على مسبباتها أو بوقف نموها . وكان اهتداء جانكسو لمادة السانثالين أول اكتشاف لمركبات كيمياوية تؤثر على الميكروبات بمنع الغذاء عنها Food Blockade . وعلى هذا الأساس اكتشفت مركبات السلفا .

ففي سنة ١٩٣٢ اكتشف دوماج الألماني مادة البرونتوزيل ولاحظ تأثيرها الفعال في علاج الأمراض المسببة عن البكتيريا القيحية عند حقن الفيران بها . وكان هذا الاكتشاف أول حدث من نوعه لعلاج الأمراض المسببة عن البكتيريا كيماوياً، بعد اكتشاف العلاج الكيمياوي للأمراض المسببة عن الحيوانات الأولية بما يقرب من ربع قرن .

وقد اختبرت هذه المادة بمعرفة علماء انجلترا وفرنسا واتضح لهم أن التأثير العلاجي لها ليس للمادة كلها، بل لاحتوائها على السلفاناميد فيها ، ومن هذا الوقت ابتدأت المعامل في مختلف البلاد من تحضير مختلف مستحضراته ناسبة لكل منها تأثيرها في مختلف الأمراض وكانت الحرب الحالية حائلاً دون مواصلة البحث فيها .

﴿ العلاج بالمواد الفطرية ﴾ في عام ١٩٢٦ لاحظ فلمنج تأثير نوع من الفطريات اسمه (Penicillium Notatum) على البكتيريا القيحية في مزارعها، وتمكن فلوري من عزل المادة الفعالة المفرزة منها والمعروفة الآن باسم البنسلين . وقد لا يمر طويلاً حتى يركب هذا الدواء صناعياً أو الجزء الفعال فيه . وتأثير هذه المادة وقف توالد الميكروب لا إماتته.

كل هذه الاكتشافات تمت في مدة وجيزة فاذا علمنا أنه في نهاية الحرب الماضية لم يكن معروفاً لدينا من الهرمونات سوى الأدرينالين ، وكانت الفيتامينات لا تزال مجهولة منا . وان معظم هذه الاكتشافات تمت في مدة الهدنة بين الحربين أدركنا التقدم العظيم في العلاج في السنين الأخيرة . ولا يزال العلماء في مختلف أنحاء العالم دائبين على اكتشاف العلاج لمختلف الأمراض التي لا نزال عاجزين عن علاجها حتى ليدهشني ما يمكن أن يقوله محاضر آخر في هذا الموضوع بعد عشرين عاماً .

دكتور فريد فايق
المجموعة الصحية بالضبعية



مدينة المستقبل



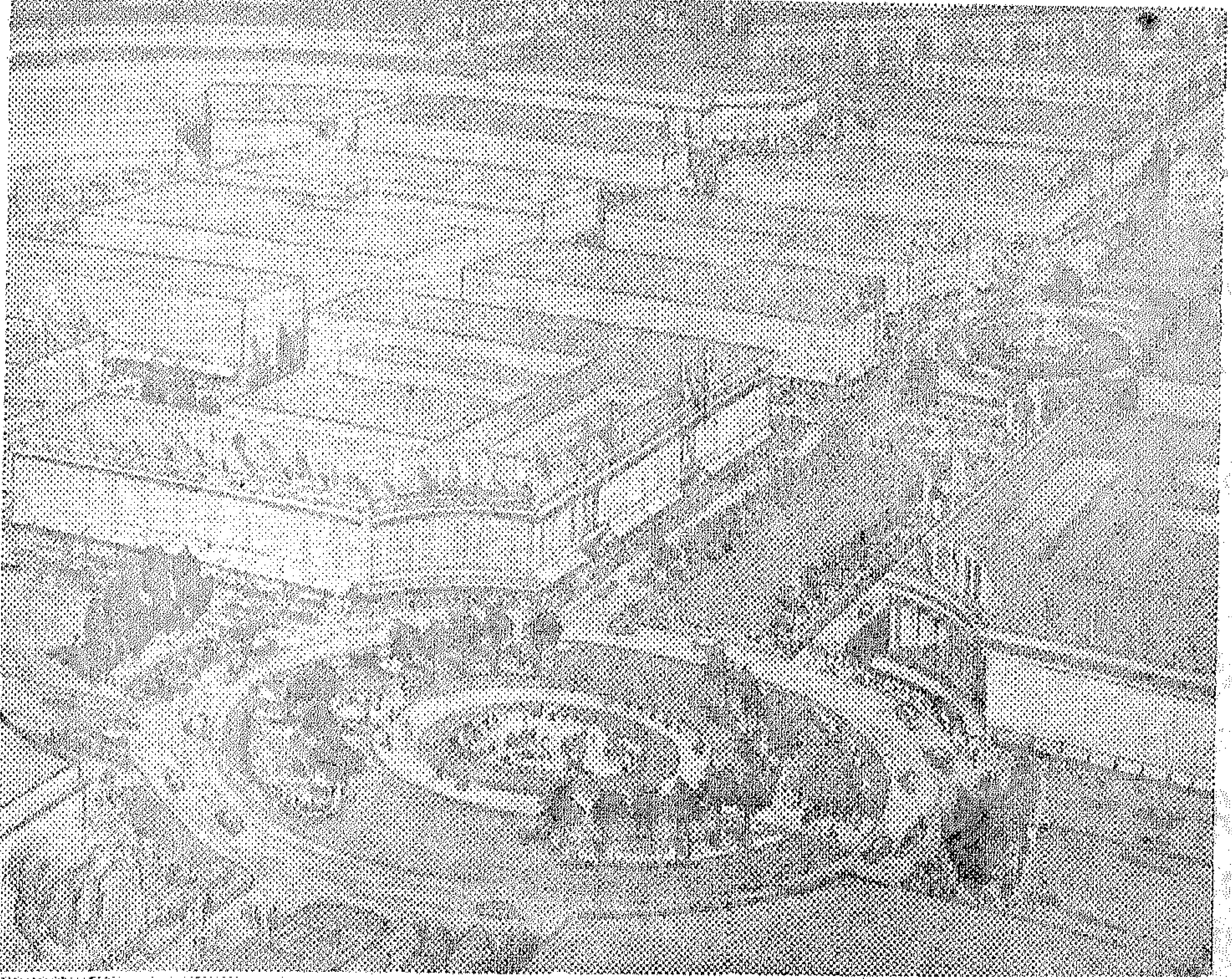
« ان عدد البيوت الصغيرة التي هدمتها الحرب من مساكن العمال أمر مؤلم للنفس . سوف نشيدها مرة أخرى ، وسنصرف نحوها من العناية ما لم تلقه من قبل . والغالب ان لندن وليفربول ومنشستر وبرمنجهام هي المدن التي قاست من ويلات الحرب أكثر من غيرها . ولكنها سوف تقوم ثانية من خلال أطلالها ، أكثر جمالا وأوفر نصيباً من الضرورات الصحية » . ونستون تشرشل : ١٩٤٠

الانسان بطبعه الحضاري ونزعته الاجتماعيـة من أعداء الخراب . فقد يقع زلزال في أميركا أو في اليابان أو الاناضول ، فيقوّض مدناً أو أجزاءً من مدن ويسوّي بها الثرى ، فلا تكاد تهبط ويخيم من فوقها التراب ، حتى يسبق الانسان الى التنقيب في تلك الآثار المدمرة وفي عقله فكرة التجديد في الطراز الذي يشيد على مقتضاه مدينة أجمل نسقاً وأكثر تلاؤماً مع مطلوبات الصحة والسعادة .

على هذا كان الحال عندما هدم الهجوم الجوي الألماني بقنابله الضخمة أجزاء هامـة من لندن وكوفنتري وبريستول وغيرها من المدن العظمى في الجزر البريطانية، فنهض الإخصائيون والاطلال ما تزال مسواة بالتراب ، والثرى يتطاير من حولها ، يفتنون في الفحص عن أمثل الطرق في اعادة تشييد هذه المدن ، واعادة تشييدها على أمثل نمط تتطلبه الحياة المدنية من مختلف وجهاتها وبخاصة وجهتها الصناعية .

صرفت الحكومة البريطانية في سبيل ذلك جهداً عظيماً ، فخصصت للتعمير وزيراً أخذ يدرس أمثل طريق الى اعادة بناء المدن التي خربتها قنابل الألمان . ولم تبخل بالبذل ولا بالرجال فأذالت المـال في سبيل التعمير ، وعهدت به الى أفذاذ المهندسين أمثال لورد « ريث » ، فاستعان بإخصائيين انتخبهم من مختلف المدن المهدمة ، لأنهم أعرف بما تتطلب مدنهم من أوجه التجديد . ولم يكن من تلك المدن المهدمـة من مدينة أحوج الى التجديد من مدينة لندن ، فندب لها المهندس المعروف « فورشو » Forshaw عضو المعهد الملكي للمهندسين والاستاذ « باتريك ابركرومبي » ، ليضعا خطة جديدة للامبراطورية البريطانية . ولقد بدت هذه المهمة شاقة مضنية أول الأمر . هذا اذا علمنا ان لندن بها تسع ملايين نسمة وفي ما حولها أربع ملايين ، وليست لندن مدينة واحدة ، بل هي عدة مدن مندمجة ، وانها

فيما بين حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ قد ضوعفت مساحتها وقطنتها بضعة ملايين أزيد مما كان بها من قبل .



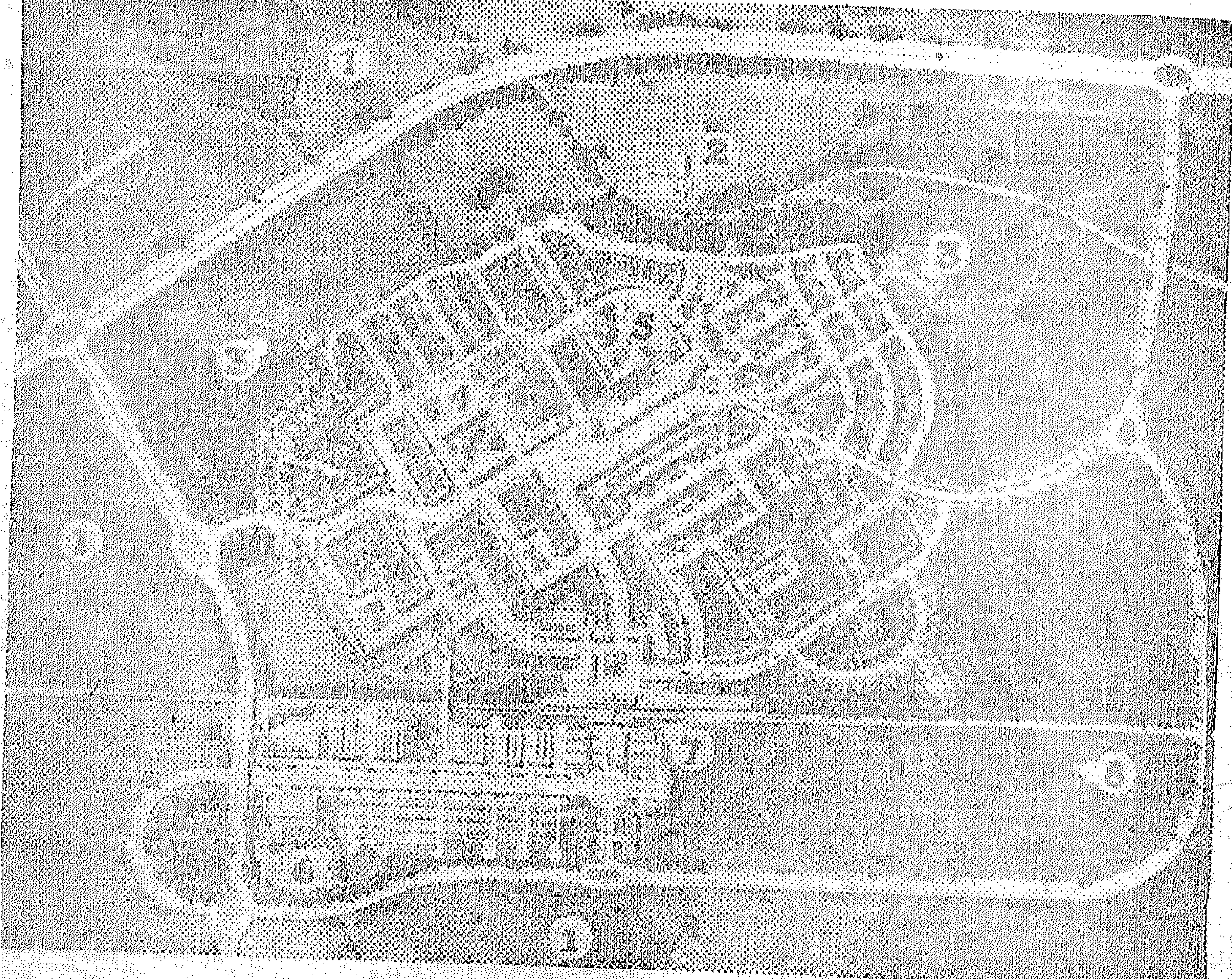
(الصورة رقم ١)

التعمير في انجلترا عقيب الحرب ، وفي غيرها من البلاد الاوربية ، مشكلة من المشكلات الكبيرة . ولقد كان لنشوء الصناعات وازديادها في القرن التاسع وتركزها بجوار المدن العظمى ، أثراً جعل هذه المدن خليطاً غير متناسق من المعامل وبيوت السكن والمدارس والمستشفيات الى غير ذلك من المرافق ، فلم يراع توزيعها حاجات الصحة وحاجات المجتمع . فعكف الاخصائيون على تصميم بناء المدن التي حطمتها الحرب تصميماً تراعى فيه هذه الحاجات . والمبدأ الاساسي الذي ائتموا به هو عدم تركيز بيوت الصناعة والمعامل وعمائر السكن ومؤسسات العلم وغيرها في أمكنة معينة . فالعمال في المدن الجديدة سوف لا يحتاجون الى السفر كل يوم مسافات شاسعة للوصول الى مقار عملهم ، وكذلك غيرهم من عمال المحال التجارية والموظفين والتلاميذ والطلاب . وقد عمدوا في تحقيق هذا المبدأ الى الاكثار من الطرق ووسائل النقل وسكك الحديد ، واصطنعوا ما سموه « الزنار الاخضر » وهو زنار أو زنانير (مناطق) تحوط المدن بالزروع والحدائق والمتنزهات ، لتكون كالرئات لجسم المدينة ، والى جانب كل مدينة عدد من المدينات (المدن الصغيرة) مصممة بحيث تتسع لمن يزيد عن حاجة المدينة الاصلية اتقاء لتكاثفهم في بقاع محدودة غير قابلة للاتساع .

وهذه الصورة لجزء من مدينة بليموث صممه المهندس الانجليزي الاستاذ سير باتريك ابركرومبي ومستر باتون واطسون المهندس المدائني

لم تكن هذه الزيادة وليدة تصميم خاص يلائم الحاجات العصرية ، بل انها زيادة جاءت خبط عشواء ، فكان لها نقائص أهمها الانتقال الاضطراري مسافات شاسعات ليصل ذوو

الأعمال الى أعمالهم ، وليعودوا منها الى بيوتهم ، فكان في ذلك اسراف في الجهد والوقت والمال . حتى لقد دل الاحصاء على أن واحداً في كل عشرة من سكان لندن كان يكسب رزقه من العمل في نقل أهل لندن ذهاباً الى أعمالهم وعودة منها إلى دورهم .



(الصورة رقم ٢)

في هذه الصورة تصميم لمدينة حديثة وضعه مستر توماس شارب وهذا بيانه :

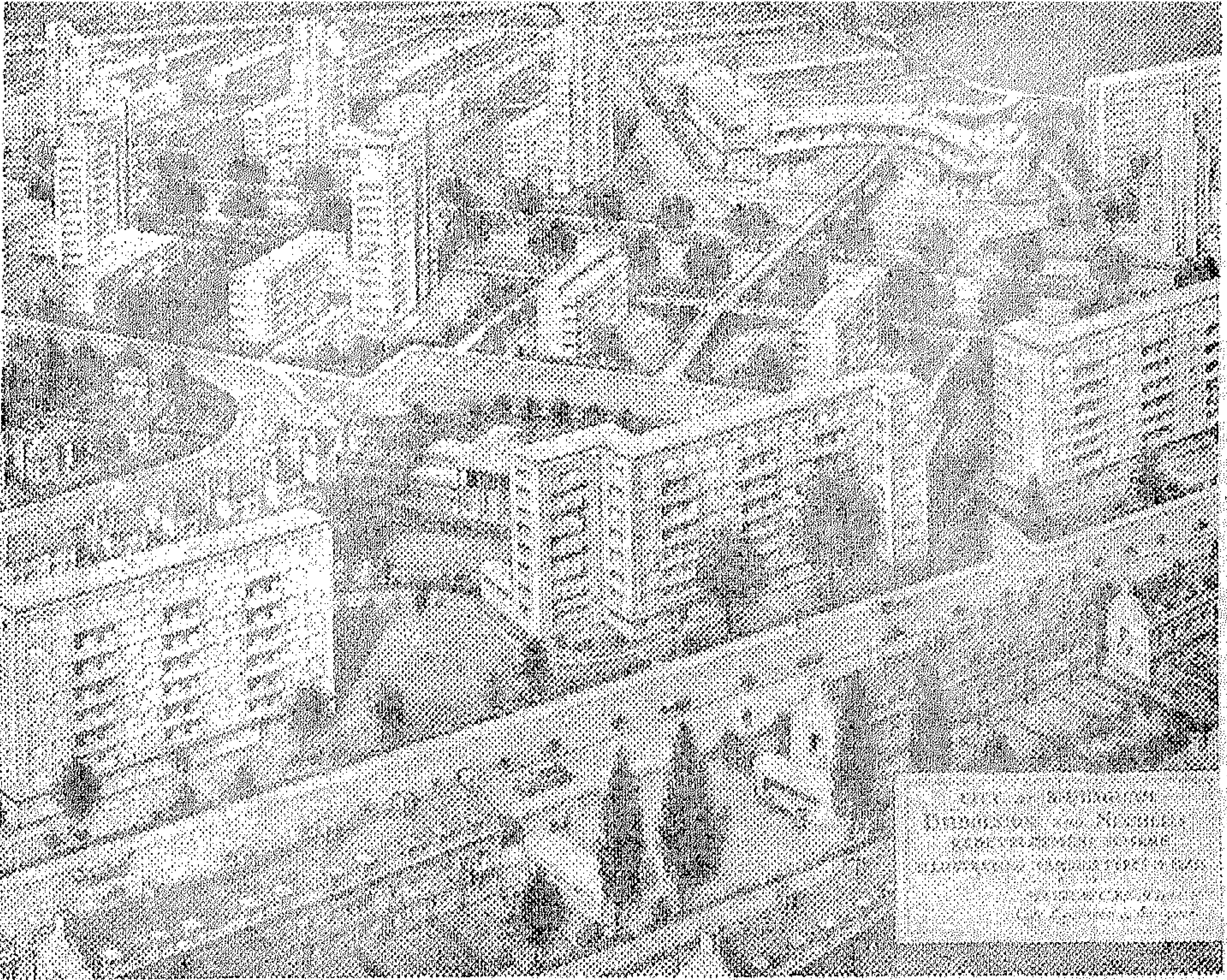
(١) زنار أخضر
(٢) حوض للسباحة
(٣) مدرسة
(٤) مجتمع أهل المدينة ومسرح
(٥) مركز المدينة أو سرتها
(٦) منطقة صناعية
(٧) محطة
(٨) منطقة التوسع الصناعي

أما المنطقة الصناعية وما يليها من فراغ للتوسع في الصناعات فسهلة الاتصال بالمدينة . وهنالك فراغ كاف في داخل المدينة وفيما حولها . وشبكة الطرق منظمة بحيث يسهل فيها التنقل مع الاقتصاد في الجهد والوقت

لوحظ مع هذا أن اتساع مدينة لندن قد جلب اليها أنواعاً جديدة من الصناعات لم يكن لها بها من عهد ، وزاد هذا الأمر الى الصعاب التي كان يعانيها سكان لندن ، كما أن نتائج اقتصادية خطيرة قد نشأت عن ذلك . ناهيك بموقف المدن من الناحية الحربية . فقد دلّ الاحصاء على أن أربعة من كل خمسة أشخاص في بريطانيا يعيشون في المدن . أي ان أربعة

أخماس الناس يعيشون في المدن والخمس في الريف . وهذا أمر جعل الأهلين هدفاً هيناً لقنابل الطائرات .

وعلى ضوء هذه الحقائق عمد الخبراء الى القول بالحد من نماء المدن وبخاصة لندن وغيرها من عظام المدن مع عدم تركيز الأحياء الصناعية والمنازل والمعامل في أمكنة معينة ، وبدءوا سياستهم بترحيل ٦٠٠،٠٠٠ من السكان الى خارج لندن أي في خارج المنطقة



(الصورة رقم ٣)

تبين هذه الصورة أحياء في مدينة برمنجهام عند اعادة تعميرها . وفيها فضلا عن عمائر السكن تسع مطارحات (عمائر باذخة) كل منها مكون من خمسة عشر طابقاً أعدت جميعها بحيث تتسع كل شقة منها لشخص واحد

القديمة ليقيموا في مدائن صغيرة تنشأ من حول المدينة العظمى . وسوف لا تتسع هذه المدن الحديثة لاكثر من ٥٠،٠٠٠ الى ٦٠،٠٠٠ نسمة ولا تزيد . وبالجري على سياسة نقل هذا العدد من السكان لكل من المدائن التي تنشأ ، ومعهم العدد الكافي من المصانع والمعامل يمكن تفريغ أجزاء من لندن يعاد انشاؤها أخص المبادىء الأساسية التي تتطلبها الحياة الانسانية في العصر الحديث .

ونحن في مصر متقدمون ولا شبهة على عصر صناعي سوف ينشأ معه مشكلات اجتماعية واقتصادية . ذلك بأن صناعات مختلفة سوف تنشأ في المدن ومن حولها ، فاذا لم نتجه من



(الصورة رقم ٤)

منذ سنة ١٩١٨ ماشت حركة التعمير في انجلترا حركة التطور الاجتماعي. فنظر المهندسون نظرة جديدة في الطراز الذي ينبغي أن تكون عليه مدينة المستقبل ، بحيث تقوم بكل الضرورات المدنية على اختلاف وجوهها . ولقد عرف عن الانجليز انهم شعب يفضل بطبعه التغير بطريق التطور لا بطريق الثورة والانقلاب . لذلك تراهم وقد بعدوا عن فكرة الزخرفة في تصميم المدن ، وعمدوا الى مراعاة المنفعة والضرورة . ولكن التقاليد ضروراتها أيضاً . فروعي في اعادة تعمير المدن العادات الاقليمية لاهل كل منطقة ، فانه من الواضح ان كل تقليد سار عليه الناس انما هو محصل تجاريب صادقة .

وتبين هذه الصورة مباني مستشفى الملكة اليزابت في مدينة برمنجهام الذي صممه المهندسان لنكستر ولودج ، ويتضمن مستشفيان لمرانة الطلبة وكلية الطب التابعة لجامعة برمنجهام . والمساحة المقامة عليها المباني ١٥٠ أكرا أو حوالي ٦٠ هكتاراً .

الآن الى تنظيمها والعمل على اقامتها بحيث نخفف من وطأة مشكلاتها التي عانت منها مدن أوربا الأمرين، وقعنا فيما يشبه المشكلات التي قامت هنالك، وكانت سبباً في ضياع الكثير من الجهد والمال والزمن .

المخترعات الحربية

في الحياة المدنية

تشمل قائمة معجزات الحرب الحاضرة أشياء شتى لم يكن ليحلم بها امرؤ في زمن ما. وجميعها ستعود بمنافع جمة، في كل طور من أطوار الحياة المدنية، فتحدث انقلاباً في معيشة كل فرد على وجه التقريب، من كساء وغذاء، وسكنى وكماليات، حتى النزهة.

ومن هذه الأشياء، الثقاب الذي لا يؤثر فيه الماء، إذ يمكن إبقاؤه فيها بضع ساعات، دون تلف، ثم يصلح بعدها للاستعمال. والمطهر الحربي الجديد، وهو مادة مبيدة للجراثيم، ستنتفع بها البيوت والمطاعم. وأسوتها في ذلك، الجيش القائم، حيث تذاب بضع أوراق منها في وعاء يسع ٢٥ جالوناً من الماء فينتج من هذا المزيج محلول مطهر قوي، لتطهير أدوات الطبخ وأواني الأغذية مما يغشاها من جراثيم الأمراض وقاية لصحة روّاد الأندية الحربية الذين يتناولون فيها المآكل والمشارب، وهؤلاء يؤلفون سريات تبلغ كل منها مائتي جندي، وذلك عند تعذر وجود الماء المغلي. وفي الجيوش الأمريكية تستعمل مادة جديدة غير سامة لابادة الحشرات، لا تؤذي الناس، ولا تحدث التهاباً. وهذه تُرشّ برشاشة يدوية، بضغط غاز الفريون freon ويكفي رشها في موضع محصور أيّاً كان مدة أربع ثوانٍ لقتل كل ما يحويه من الحشرات. فالصابون الحربي الصالح لكل الأغراض والأجواء حارّاً كان الماء أو بارداً أو أجاجاً أو فراتاً، فيصلح لغسل الأيادي والوجوه والاستحمام والحلاقة وغسل الملابس وأجزاء الأجهزة. ثم المادة الشحمية لدهن الجلد وهي تركيب فائق يلائم الأجواء الباردة فتدهن بها الأحذية والأشياء الجلدية فتلين، ولا تتشقق ولا تتخللها المياه، أيّاً كانت درجة الحرارة من الهبوط، وحالة الجو من التقلب.

وكذلك الشمع الواقي النافع، الذي اخترع حديثاً، وهو مؤلف من موم العسل، مخلوطاً بنشارة الخشب، وقد سمي بهذا الاسم لأنه يغني مستعمله عن موقد صغير أو نار ضئيلة، فيستغنى به الجنود عن اشعال نيران كبيرة، قد يكون ايقادها خطراً عليهم أو متعذراً

وقد أحدثت بعض تحسينات كبيرة في ملابس القوات المسلحة ، ينتظر تطبيقها في الأدوات والمنسوجات ، عند ما تضع الحرب الراهنة أوزارها ، إذ اخترع نسيج أطلق عليه اسم (الساتين الحربي الحامي الواقي) وهو خماسي النسيج ، ويعد أمتن المنسوجات التي عرفت حتى اليوم . ومن هذه المادة سوف تتخذ عقب الحرب ، ملابس للصناع وللاحداث ، كما تصلح للاستعمال في الألعاب ، إذ تروقهم جميعاً .

وما يقال في استحسان هذا النسيج ، يقال مثله في النعال المزدوجة في أحذية الجنود إذ ثبت أنها تعيش زمناً يعدل أربعة أمثال مكث النعال العادية . ولا ننسى في هذا المقال ربط الأحذية أي شرطها المتينة التي تصنع من مادة النيلون . والازرار التي تصنع من العجائن الكيميائية[1] ثم القفافيز المفردة ، التي اذا فقدت فردة منها ، أمكنك ابتياع فردة أخرى تلائم أختها الباقية . والتحسينات التي قامت بها القوات المسلحة في الملابس ، الملائمة للجو البارد ، سيكون لها نتائج بعيدة المدى في الثياب الشتوية . فقد تبين مثلاً أن عدة طبقات خفيفة من القطن والصوف ، تدفىء لابسها دفئاً يفوق ما تحدثه الفراء . ويقول صناعها إنهم يدرسون مسألة صنع معاطف للرجال والنساء على السواء من هذه المادة ، لأن المادة والنسيج اللذين يصنع منهما المعطف الحربي والثوب الواقي من تقلبات الرياح أفضل من أي نسيج مألوف لمثل هذه الغاية .

***

ولم تقتصر معاونة الحرب الحالية على انتاج أغذية جديدة فحسب، مثل الحبوب الجاهزة المطبوخة مع اللبن الحليب والسكر ، وهي التي انما تحتاج الى مزجها بالماء الساخن ، لتعد للأكل ، وكذلك الزبد الذي لا يسنخ ولا يذوب . بل ان الحرب قد عجلت نجاح طريقة تجفيف هذه الأقوات ووسعت نطاق تبريدها تبريداً عاجلاً وتكثيفها أيضاً . ولم يكن مستطاعاً قبل نشوبها ، نجاح تجفيف الأغذية واللحوم معاً . فأصبحت هذه المأكولات شائعة الاستعمال في أماكن شتى . ومن البديهي أن تحسينات كثيرة واسعة النطاق ستحدث في وسائل النقل والانتقال جميعها ، على اختلاف أنواعها ، بصفة كون هذه التحسينات نتائج مباشرة للتقدم الذي ثبت في خلال الحرب الراهنة . ومن هذا القبيل أن شركات النقل الجوي أوصت بصنع أساطيل من الطائرات الجديدة ذات المحركات الأربعة ، خاصة بنقل الركاب والبضائع ، لتقطع مسافة تتفاوت في الدقيقة بين أربعة وخمسة أميال . وستكون

---

(١) راجع مقالنا الضافي — على العجائن الكيميائية وذلك في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٠

حجرها مريحة ملأى بالهواء المضغوط ، ولا يزعج ركابها دوي المحركات .

وصنعت مصانع بوينج الأمريكية ، التي تنتج قاذفات القنابل التي من طراز ٢٩ ب وهي المعروفة باسم القلاع الطائرة الجبارة[1] طائرة ضخمة من ذات الظهرين لنقل الركاب والبضائع عبر المحيطات ، وذلك على غرار الطائرات الحربية الهائلة المشار اليها . وستستخدمها حالما تنتهي الحرب الحالية . على أن تستمد قوتها من أربعة محركات تعدل قوة كل منها ٣٥٠٠ حصان ، فتستطيع السير بسرعة ٣٥٠ ميلاً مقلة مئة راكب عدا البضائع . وقد أطلق عليها اسم « ستراتو كروزر » أي الطوّافة الطخرورية السريعة ، التي ترقى الى أعلى طبقات الجو.

***

أما تأثير المخترعات الحربية في السفر البحري، فان بعض الخبراء يتوقع انتشار السيارات البرمائية أي التي تصلح للسير في البر والبحر على السواء لخدمة المدنيين ، على نمط السيارات المستعملة منها حالياً في جيوش الدول المتحالفة .

وكان للحرب تأثير محدود في السفانة ، ومن الأمثلة على ذلك أن إحدى الشركات الأمريكية قد أتمت وضع الرسوم اللازمة لصنع عابرة أنهار فاخرة للنزهة أطلقت عليها اسم شنانوجا . وتمتاز هذه الباخرة النهرية بطولها البالغ ٢٥٠ قدماً ، وبشكلها المساير للتيار والريح ، وبسعتها الكافية لحمل ٣٠٠ راكب، ثم باحتوائها على الكماليات . وستسير للتنزه في نهر تنيسي عند ما تضع الحرب أوزارها . وستكون مجهزة بتليفون يتيح لركابها محادثة من يشاؤون من سكان المدن والأماكن الواقعة على شاطىء النهر . وهذا الى جانب الوسائل الأخر المعدة لراحة ركابها ، مما لا تتوافر إلاّ في عابرات المحيطات من البواخر الكبرى . وسيكون صدرها محتوياً على تجويف يصلح لاستقبال الركاب وسياراتهم فيركبون السفينة وينزلون منها على صقالات تديرها الطاقة الكهربية . وقد حذا أصحاب هذا المشروع حذو الأسطول الأمريكي في ترحيل السفن والدبابات ، بهذه الوسيلة . وسيكون مقر دليل المركب أي مرشده ، مصنوعاً كله من العجائن الكيميائية الشفافة ، على طراز مركز قائد الطائرة الحربية القاذفة للقنابل . وهذا من شأنه جعل ربان السفينة يتمكن من رؤية الأشباح على المدى الكلي لثلاثمائة وستين درجة . وهو أمرٌ يعتبر من العوامل الخطيرة الشأن في سلامة الباخرة .

(١) انظر وصف القلاع الطائرة بقلم كاتب هذا المقال — وذلك في جزءي مقتطف ابريل ومايو ١٩٤٥

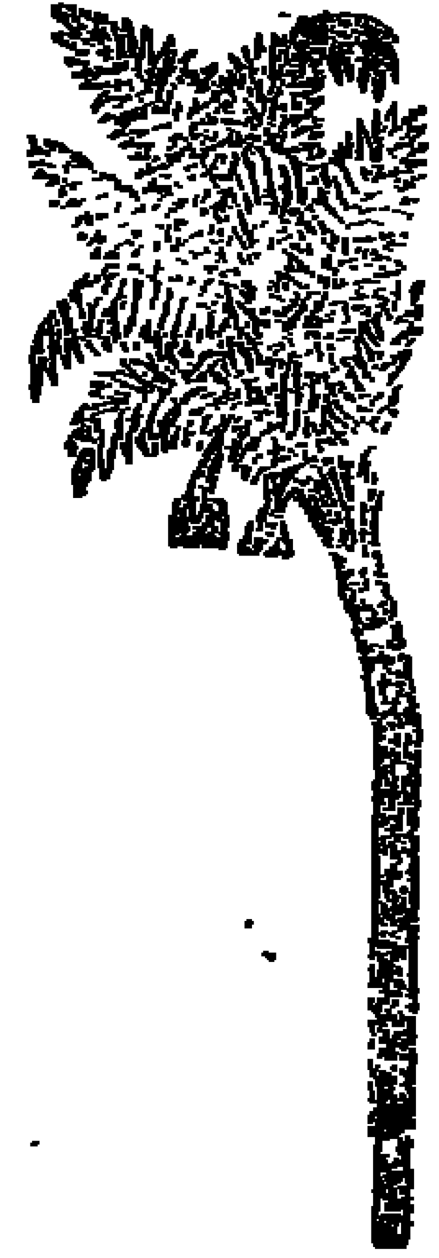
ثم إن استعمال دوائر القوات المسلحة ، للمباني الفولاذية قد أفضى الى ادخال تحسينات جمة اليها ، فجعل مصنع كبير في مدينة ديترويت يعدّ برنامجاً لرسوم تشبه الأكواخ الفولاذية التي يأوى اليها الجنود والبحارة ، ليدخلها المدنيون في مباني مساكنهم ومزارعهم . وذلك لأنها سهلة التركيب متينة ، لا تتأثر بالحرارة أو الرطوبة ، ومن ثمة يتوقع لها العارفون منافع كثيرة في شتى الأغراض . وحينئذٍ يتمتع المولعون بالرياضة البدنيـة ، بالنعيم الذي ينشدونه في حياتهم ، وخاصة في معداتهم على الأقل . هذا إذا عُني الصناع باتباع التحسينات والأجهزة الحديثة التي تستعملها دوائر الجيش والبحرية بصفة كونها أدوات إضافية . ومنها الخيام الخفيفة التي لا قبل للبعوض على مهاجمتها، ثم المواقد الصغيرة التي لايزيد ثقل كل منها على رطل انكليزي واحـد ، وهي التي يمكن استعمالها بعض ساعات ، بملئهـا بالبنزين مرة واحدة . ثم استعمال أقراص الهلزون لتطهير مياه الأنهار والخلجان . ثم اسـتعمال أكياس النوم الجـديدة الطراز وعلب الـكبريت العوامة .

وكذلك الأكياس التي تستعمل فيهـا قوارير صغيرة ملآى بمادة بروميد الميتيل لتطهير الملابس وأغطية الفرش في نصف ساعة .

***

ولا ننسى شـرط (جمع شريط) الثياب التي تصنع من نسيـج النيلون ولا الفُـرش التي تتخذ من شعره لأجل بوية الزيت . وهذه تمتاز بكون شعرها لا يبلى سريعاً . وقناني اللبن والصحون التي تتخذ من العجائن الـكيميائية ، وهي قلما تكسر . ومن المرجح أنها سوف تصير من الأشياء المألوفة في السوق لأجل المدنيين . وحبال النيلون التي أسفرت تجربتهـا عن كونها أمتن من حبال القنب سبع مرات وتمتاز عنهـا بسهولة ربطها وحلها ومقاومتها للاهراء . أضف الى ما تقدم سرده ، المعازف « البيانات» التي هي أخف من سواها بنحو مائة وخمسين رطلاً . وقد اخترعت خاصـة للعزف في المعسكرات . ثم الآلات الموسيقية المصنوعة من العجائن الـكيميائية ، وهي أخف من غيرها وأرخص وكان أول ما اخترع منها البوق الحربي . أجل إن في بعض الأحيان تحدث صعوبات عنيفة إما كثيرة وإما قليلة في تكييف المنتجات الحربية تكييفاً يلائم المنافع المدنية .

عوصهم جبري



تعقيب « على مقال » :

جو جزيرة العرب[1]

للاستاذ البحاثة الدكتور رفيق التميمي العذر حينما يسمي وادي « الحمض » بوادي « الحمث » كما للمرحوم البستاني صاحب « دائرة المعارف » العذر حينما يسمي « ضرمى » البلدة المعروفة في نجد — « ذو رَمَعٍ » . إذ تيارُ « التعريب » الجارف ، والثقة بأقوال أولئك « المتعربين » الذين هم سندُ ذينك الجهبذين الفاضلين ، ورواج مؤلفاتهم ، مع قلة « المعاجم » العربية الصرفة الممحصة ، — أمورٌ مبرّرة .

ولي العذر ، حينما أعقب على قول الدكتور التميمي ، بكلمة قصيرة عن « مرابع » صباي ، و « مراتع » قومي ، سندي فيها المشاهدة ، وان كنت مزجى البضاعة في الاطلاع على آراء « المستشرقين ، المتعربين » ، معدومها في علم « الجيولوجيا » .

١ — من أهم أودية « جزيرة العرب » وادٍ عظيم يسمى « العقيق » على كثرة « الاعقة » . له ذكر كثير في الشعر القديم ، وفي كتب التاريخ والأدب ، يمتد من قرب بلدة « الطائف » ويتجه محاذياً للسلسلة الجبلية « الحجاز » فاصلاً بينها وبين سهول « نجد » ماراً « بالمدينة المنورة » من الجهة الشرقية . حتى يصبُّ في « البحر الأحمر » ، جنوب « بلدة الوجه » . ويختلف نبات ذلك الوادي باختلاف الأراضي التي يمر بها ، وبقرب مصبه يكثر فيه شجر الرمث والأشجار التي من فصيلته ، و « الرِّمثُ » شجر تحمض بأكله الابل ، اذا أكثرت من رعي العشب وأشجار « العضاه » . ولذلك يسميه العرب — هو وكل أشجار تلك الفصيلة — « الحمض » . ويسمون جزء ذلك الوادي — لا كله — الذي يكثر فيه ذلك النبات « وادي الحمض » بالضاد المعجمة ، التي اختصت بها « لغة الضاد » . لا بالثاء كما ورد في مقال الأستاذ التميمي . وفي كتاب الدكتور

(١) المقتطف العدد الثاني من المجلد الخامس بعد المائة ص ١٢٥ يوليو ١٩٤٤

اسرائيل ولفنسون « اليهود في جزيرة العرب » رسم لذلك الوادي يدلُّ على تحقيق ، وسعة اطلاع .

٢ — ومن الأودية العظيمة في « الجزيرة » وادي « الرمة » الذي تنحـدر فروعه في الزمن الحاضر — وفي الأزمان السحيقة في القدم ، من الجبال والحرار (جمع حرَّة) الواقعة شرقي «المدينة المنورة» لا شرقي « مكة » كما قال الدكتور التميمي ، وإذا صحَّ قوله انه يتجه نحو الشرق — وذلك صحيح — فهو يصبُّ في « الخليج الفارسي ، وآثار مصبه — قبل أن تحجزه رمال الدهناء— باقية مشاهدة في هذا العهد ، ولا يصب في« بحر عمان». ولولا أن الدكتور فرَّق بين البحرين فأورد الاسمين قاصداً بذلك التغاير، لقلنا انه أراد ببحر عمان الخليج الفارسي ، ثم ان « السومريين » — على رأي الدكتور — كانوا يسكنون في جهات ما بين النهرين ، فكيف مدينتاهم « أور » و « أدريدو » بقرب بحر عمان ؟ ! .

مع أن قوله بعد ذلك : ان وادي الدواسر يلتحق بوادي « الرمة » بالقرب من شواطىء خليج البصرة ، مع قوله السابق الذي أشرنا اليه فيهما شيء من التناقض — ان لم يصح ان يقال إنه أراد بحراً واحداً سماه بعدة أسماء ! ! . .

٣ — وإذا صح أن مجرى وادي الدواسر « بحذف الياء » كان مجرى لنهر عظيم ، فمن البدهي أن الأثر الباقي في العصر الحاضر للوادي المسمى بهذا الاسم هو أثر مجرى ذلك النهر في الزمن الغابر — واذن فهو يصب في بحر «عمان» — بعد اختراقه اسهل الربع الخالي قبل تكون رماله ، متجهاً الى الجنوب الشرقي ، لا الى الشمال ، اذ سلسلة جبال « طويق » والجبال الواقعة بوسط نجد تحجز بينه وبين الاتجاه الى الشمال والاتصال بوادي الرمة

ومن المسلم به أن علم طبقات الارض وتكوينها «الجيولوجيا » يقرر ان الأنهار تكونت بعد الجبال ، من الوجهة العامة ، لا في الحالات الاستثنائية . كما انه من المسلم به أيضاً أن ذلك العلم تعتمد أصوله وتنبني نتائجه على المشاهدة ، والاستدلال بالظواهر والتغيرات الارضية الباقية . وحسبي أن أقول ما علمت .

الطائف — محمد بن محمد آل جاسر

قاضي ينبع سابقاً .

الهَمَجيّ : ج الهَمَج — Barbarian

Etm., F. Barbaric Barbarie L. Barbarian = Barbariousness

المعنى العام : (١) أجنبي (٢) من تختلف لغته وعاداته عن لغة المتكلم أو الكاتب وعاداته ، وهذا هو المعنى المستفاد من الكلمة في استعمال العهد الجديد (الانجيل) ويسمى أعجمياً .

as : therefore if I know not the meaning of the voice, I shall be unto him that speaketh a barbarian, and that speaketh shall be a barbarian to me I. Cor. xiv. 11

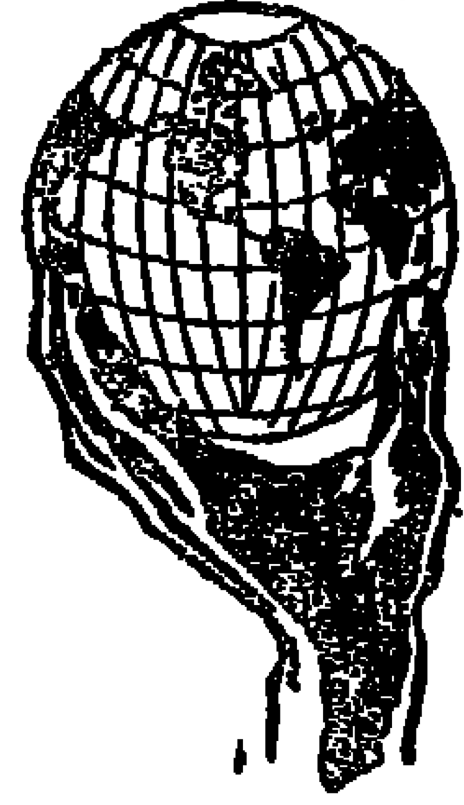
« فان كنت لا أعرف قوة اللغة أكون عند المتكلم أعجمياً ، والمتكلم أعجمياً عندي »
(رسالة بولس الرسول الاولى الى أهل كورنثوس : إصحاح ١٤ آية ١١

Quot., Stillé, Stud. Med. Hist. 50 : ... It is well known that many of the Roman Emprors were barbarians who had been successful soldiers in the Imperial Army.

في العصرين : اليوناني والروماني : كل من لا يمت بنسب الى الاغارقة ، ويشمل ذلك الرومان . والكلمة في اليونانية barbarikos ، ومن ثم أخذت معنى غير حسن بأن أصبحت تدل على النقائص والسفالات التي كان الاغارقة أو أعداؤهم متصفون بها ، أما في العصر الروماني فان كل من لم تظله الامبراطورية الرومانية ، أو لم يصطبغ بحضارتها ، اعتبر همجياً ، وبخاصة شخصاً من أمم الشمال التي خربت الامبراطورية

في عصر النهضة : كل من ليس بايطالي ، أو لم يمت الى الايطالية بسبب

في الصين : كل من ليس بصيني ، وبخاصة الاوربيين وأهل أمريكا ، فانهم يعرفون عندهم باسم همج الغرب : Western Borbarians ويعبرون عن ذلك بكلمة خاصة ، ولما كثر استعمال اللفظ حرم استعماله في المعاهدات المتعددة مع الدول ، كما منع أن يوصف به أحد من رعاياها



هل عرف العرب أميركة ؟ !

نشرت مجلة « المقتطف » في عددها الصادر في شهر فبراير الماضي نص محاضرة للأب الكرملي عنوانها : « عرف العرب أمركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب » . وتقوم نظريته على الأمور الآتية : (١) ان العرب كانوا يتقنون الملاحة وفن بناء السفن (٢) اتساع تجارتهم منذ القدم (٣) كلمتان من أصل عربي في اللغات الأجنبية وهما : Alligator لأنها تبدأ بأل ، فهي القاطور مشتقة من فعل قطر و Caïman ، أصلها قرمان من قرم الشيء بأسنانه

لم يكن التنافس في يوم من الأيام أشد وأعنف مما هو عليه بين أمم الأرض قاطبة . وان هذا التنافس غير مقتصر على الشئون المادية التي تتعلق بحياة الجماعات وكيانها فقط ، بل تجاوز حتى شمل النواحي المعنوية الصرفة . فباتت قضايا فكرية كثيرة موضع نزاع بين الأفراد تارةً ، وبين الأمم تارةً أخرى . ونحمد الله ، لأن المتنازعين على أمر من الأمور العقلية لا يحملون سلاحاً في كفاحهم غير القلم واللسان ، ولا يخوضون ميداناً غير الطرس. وأضحت كل أمة تتحفز للنهوض ، تتمجد وتماجد غيرها من الأمم بالقسط من الروح أو العقل أو المادة الذي ساهمت به في بناء صرح المدنية ، لتفوز بأعظم نصيب ممكن من الشهرة والمكانة . وكل أمة تتمنى لو انها استأثرت بوضع كل لبنة من لبنات هذا الصرح حتى يهنأ لها العيش . وبوحي هابط من هذه الفكرة ، يحاول الأب الكرملي أن ينزع اكليل المجد والشهرة عن رأس كولنبس ويضعه على رأس العرب ، بحجة انهم سبقوه الى معرفة البلاد الأمريكية .

وقبل المضي في الرد على زعم الكرملي ، أنبه على أمر مهم جدًّا وهو أنني لا أرمي الى المجادلة والمماحكة . وان كلمة شعوبية ان جاز أن تطلق على كل من يلصق بالعرب تهمة هم بريئون منها ، فانها لا تطلق على من يرغب أن ينسب الى العرب شهرة لا تصمد في وجه النقد النزيه الجريء ، ولا يكون نصيبها في أندية العلم الاّ الاستخفاف والسخرية . وانني أعتقد أن مراضاة الضمير والحق يجب أن تتقدم على مراضاة العاطفة الثائرة والهوى ، وان القول المأثور « من ليس معنا فهو علينا » قول فاسد لا يؤيده الواقع ولا تبرهن على صحته التجارب.

ويجب أن نقف هنا قليلا لنقول إن العرب الذين يتكلم عنهم الكاتب ويظن انهم

اكتشفوا البلاد الأميركية ، هم سكان شبه الجزيرة العربيــة . لأن البلاد التي ينطق أهلها الضاد في الوقت الحاضر بلدان مستعربة جمعها والعرب الأصلاء مصير سياسي واحد ردحاً من الزمن بعد الاسلام ، ولا يزال يجمعها حتى الآن مصير لغوي وديني واحد . وبعد هذا ابادر الى القول أن العرب لم يعرفوا أمريكا قبل أبناء الغرب . وترتكز حجتي على الأسباب الآتية.

ان العرب شعب غير بحار . ويعود السبب في ذلك الى طبيعة أراضيهم الصحراوية وما ولدت في نفوسهم من السلائق البدوية . وما زالت الصحراء منذ أقدم العصور . ولن تزال ، منافية لكل ثقافة عمرانية ولكل صناعة معقدة تتطلب تفكيراً يعلو على التفكير البدائي . ولما كان لكل بيئة مقومات معينة ، فان هذه الخصائص تؤثر في أعمال الانسان ، وتوجهه توجيهاً ملائماً لطبيعة الأرض الذي يعيش عليها بما تقدم له من وسائل العمل أو تحرمه منها. فالأراضي الصحراوية لا تقدم للانسان الوسائل اللازمة لبناء السفن ، كالأخشاب مثلاً ، التي تؤخذ من الغابات . وأين أماكن الغابات في شبه الجزيرة العربية ؟ وأين المدن التي بناها العرب على شاطىء البحر ، قرب الخلجان الهادئة ، كي تلجأ اليها السفن . وما من شعب يلتفت الى البحر ويراه بدء امكانيات جديدة ، وينفض يده من السعي على سطح الأرض ، الا عندما يتجلى له أن العمل في البر لا يجديه نفعاً . أما العرب الذين اشتهروا بالقناعة في المأكل لقلة خيرات أرضهم ، وبالقليل من الثياب لدفء اقليمهم ، فكانوا ولا يزالون ، يتدبرون أسباب حياتهم بيسر ، وذلك مما تدره التجارة من الأرباح والحيوانات والشجر والحروب التي لا تنقطع وما تأتي به من الغنائم أحياناً . ويمكننا أن نستشف حياة العرب القدامى من خلال حياة العرب المعاصرين لأن التطورات التي تمر بالجماعات البشرية لا تؤثر فيهم تأثيراً يستأصل كل سلائقهم الموروثة ويخلقهم خلقاً جديداً . لأن أمواج الحضارة مهما بلغت من الشدة ، تتكسر حدتها قبل أن تغمر فيافي الصحراء . ولأن العرب في وقتنا الحاضر لا يزالون يعيشون فوق البقاع التي أهلت زمناً بأولئك ، ويمارسون نفس الأعمال التي كانوا يمارسونها ، ويتأثرون بطبيعة الاقليم على نحو ما كانوا يتأثرون . فنلاحظ اليوم ان العرب أبعد الناس عن شؤون الملاحة كما أن أكثريتهم الساحقة تقيم في الأماكن النائية عن شواطىء البحار ، لأن فيها متندحاً لهم عن البحر . وينفر العربي من البحر نفوراً يكاد يكون غريزياً . وأعتقد أن السبب في ذلك يعود لندرة وجود مجاري المياه الغزيرة في قلب البلاد العربية . ولم يسرف شاعرهم في الاحساس بالخوف من البحر عند ما قال :

طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

ومما يروى بهذا الصدد أن معاوية لما فكر في بناء أسطول يناجز به أسطول الروم في

البحر المتوسط ، عهد بذلك الى سوريين من عكا وصور وطرابلس . ولست بحاجة الى القول أن هذا الاسطول كان سوريًّا بأخشابه وفنه وملاحيه وبحارته .

وطبيعة العربي لا تلائم الملاحة بل تناقضها ، لا لما يتوهمه في البحر من خطر محدق واتساع لا نهاية له ، وعمق ليس له قرار ، بل إن لطبيعة البلاد التي ولد وعاش عليها يداً في ذلك . فمن المعلوم ان البلاد العربية اقليمها صحراوي ، جاف لشدة الحرارة الناشئة عن قلة المياه والأشجار التي تعمل على تلطيف الجو . أما الاقليم البحري فهو شديد الرطوبة لا يوافق مزاجه مطلقاً . ويذكر المؤرخون ان مناخ سوريا ، ولا سيا دمشق ، بما فيه من رطوبة ناشئة عن المياه الغزيرة ، كان يؤثر في أجسام العرب المعوَّدة على الجفاف ، عند ما كانوا يؤمون سوريا في العهد الأموي ، فيحدث فيها بثوراً ودماميل حتى أصبح عندهم من الأمثال التي تتناقلها الألسن « دماميل الشام وطواعين الجزيرة » . وكان الجنود ، حتى أواسط العهد الأموي ، وقد مضى عليهم زمن ليس بيسير في الثكنات القائمة في المدن ، اذا ما أراد القائد مكافأتهم على عمل مستحسن ، سألوه الاذن بالرجوع الى باديتهم . وان امرأة معاوية لم تكتم حنينها الى البادية على الرغم من حياتها الغارقة في الرخاء والهناء في بلاط العاهل الأموي في دمشق فأنشدت تلك الأبيات المشهورة : « وبيت تخفق الأرياح فيه ... » الى آخر القصيدة

فاذا كانت أجسام العرب لم تقوَ على تحمل مناخ سوريا ، وهو جاف نسبيًّا ، فكيف تستطيع أن تتحمل رطوبة البحار والريح الباردة التي تهب من ناحية القطب الشمالي ؟ ! وهل يطيق هؤلاء أن يقضوا أياماً وشهوراً لا يرون خلالها إلاَّ الماء والسماء ؟ وهل يعقل أن تظل سفن شراعية في حالة بدائية الصنعة ، تذهب بها الريح كل مذهب ، أن تظل سائرة في منطقة جولف ستريم الدافئة مسافة ثلاثة آلاف ميل أو تزيد ؟ ومن المشهور في دوائر العلم ان هذا التيار الدافئ ظلَّ مجهولاً لدى البحارة حتى عام ١٥١٣ حيث استرعى انتباه بحار اسباني .

وهناك مشكلة أخرى تواجهنا ولا نستطيع أن نميل عنها : في أي الموانئ كانت ترسو تلك السفن العربية ، وفي أي البحار تسير ؟ هل تقع هذه الثغور على شاطئ بحر الروم أو البحر الأحمر أو الخليج الفارسي ؟ . ومن الثابت تاريخيًّا ان شواطئ بحر الروم ، بما في ذلك مصر وسوريا ، كانت قبل الفتح العربي مأهولة بأقوام ليسوا عرباً ولا مستعربين . وأين نقاط الارتكاز التي أنشأها العرب ليلجئوا اليها كلما هبت عليهم العواصف أو ليفرغوا ما ينقلون من بضاعة ويأخذوا ما تراكم في عنابرهم من خيرات تلك البلاد على نحو ما كان يفعل السوريون القدماء ، أي الفينيقيون .

وفي الحقيقة اننا نظلم العرب وكل الشعوب القديمة اذا ما أردنا مقارنة عبقريتها البحرية

بعبقرية الفينيقيين . فهؤلاء أسسوا أول أمبراطورية بحرية في العالم القديم، واتخذوا الأهبة التامة والعدة الكاملة لهذا العمل الجبار. فبنوا مدنهم على شواطىء البحار وأنشأوا سلسلة من المراكز على شاطىء المتوسط وجزره . فكانوا لا يكادون يودعون نقطة ارتكاز حتى تطل عليهم أخرى . ما أشبه هذه المراكز بوكالات لشركة عظيمة تتولى بيع ما تحمله السفن الفينيقية وجمع الخيرات التي تنتجها البلاد . وبالرغم من نشاطهم ومهارتهم وتفوقهم في فن الملاحة واستخفافهم بالمتاعب واستهتارهم بالخطر والموت ، لم يفكروا في أحد الأيام أن يجعلوا مركز نشاطهم خارج حوض المتوسط . ولم يذكر المؤرخون إلاّ محاولة حاولها «حنّون» القرطاجني حول الشاطىء الافريقي ، ويرجحون أنهم بلغوا بحر البلطيق.

ومن الغريب ان كتب السير العربية لا تتحدث مطلقاً عن الرحلات البحرية التي قام بها جماعة من العرب القدامى ولا تذكر شيئاً عن تلك الأساطيل . حقّاً ، ان العرب كانوا يملكون أسطولاً عظيماً ، وحداته الإبل ، ويقومون برحلات جبارة لكنها على سطح اليابسة عبر الصحاري . وليس في ذلك غضاضة على العرب . فاذا كان قدّر لغيرهم أن يذللوا الأطلسي وغيره من البحار ، فانهم قد ذللوا الصحاري الشاسعة القاحلة ، وكانت قوافلهم لا تنفك تجوب البلاد من قلب الصين والهند شرقاً حتى بلاد الروم غرباً . وان الأفاويه والمجوهرات والحرائر التي بلغت أوروبا وحفزت كولنبس للذهاب الى الهند، قد نقلتها قوافل عربية . بهذا فليماجد العرب . أما ان نباهي باكتشاف لم ينهض أي دليل على صحته، ولم يحدث أثراً ما في حياة البشر وننتقص من رائد جبار أوجد عالماً جديداً، فهذا ما لا يقره وجدان، ولا يجيزه عقل يحسن التقدير والتمحيص .

ومن المعلوم أن كولنبس لما بدأ يتأهب لرحلته تلك ، لم يكن يقصد بلاداً نائية كائنة وراء المحيط ، لا اسم لها ، بلغها في القرون الخالية نفر من العرب أو النرويجيين أو غيرهم من الشعوب ، بل كان يقصد بلاداً حقيقية معينة ، تذوّق خيراتها وعرف الشيء الكثير عنها، وتواترت الروايات عن غرائبها وكنوزها . أما العرب الذين غادروا شواطىء أوروبا الغربية ، مغذين السير عبر الأطلسي ، فماذا كانوا ينشدون من وراء هذه المغامرة وأي البلاد كانوا يقصدون ؟ هل كانوا يسيرون على هدًى ؟ هل حملوا معهم زاداً يكفيهم مؤونة طريق يعرفون أين تبدأ لكنهم يجهلون أين تنتهي ومتى تنتهي ؟ واننا لا نسأل الأب عن السنة التي عرف العرب فيها أمركة، بل نسأله عن القرن الذي بلغوا به شواطىء ذلك العالم المجهول، وهل كان ذلك قبل الميلاد أم بعده ؟ ! .

واننا الآن نودع الحقبة التي تقدمت ظهور الاسلام حيث لم يكن للعرب نفوذ سياسي

مرموق يتجاوز تخوم الجزيرة العربية ولا دولة مرهوبة الجانب ، وننقفز الى ما بعد الاسلام ونتكلم عن التجارة في زمن الدولة الاسلامية التي كانت تمتد من تخوم الصين حتى الأطلسي . وهذه الفترة من الزمن هي الفترة المثلى الملائمة للعربي أن يعمل ويتجر ويكتشف . ولا يجوز أن نقارن بين قوة الدولة الاسلامية وقوة القبائل العربية قبل أن يجمعها الاسلام .

للدكتور قسطنطين زريق ، أحد أساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأمركية ، بحث قيم عن التجارة الاسلامية أقتطف منه ما يتعلق بخطوط المواصلات البحرية والبرية . إن أهم الموانىء في زمن الدولة الاسلامية على الخليج الفارسي هي : البصرة ، الأبلة ، سيراف ، مسقط . منها تخرج السفن الصينية والمراكب العربية، وتمر بمضيق هرمز، فالقسم الغربي من الهند، فالساحل الجنوبي المعروف ببلاد الملبار،فضيق سرنديب،فجزر الهند الشرقية، فالنغو على شواطىء الصين . ويرجح انهم بلغوا اليابان أو شبه جزيرة كوريا . وهناك طريق فرعية كانت تدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء ظفار فعدن فجدة فعيذاب على الشاطىء المصري . وأحياناً كانت تقلع بعض القوافل من عدن فزيلع على شاطىء الحبشة ، فمدغسكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق . ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن هذه السفن في سيرها كانت تسير محاذية للشاطىء ، تحاذر أن تبتعد عن البر خوفاً من الضلال الذي ينتهي بالموت غالباً . هذه هي الطرق الرئيسية للتجارة الاسلامية ، فهل لا يزال الأب مصراً على قوله ان العرب بلغوا أمريكا عن طريق اوربا ، بعد ما عرفنا المدى الذي بلغته هذه السفن في أعظم رحلاتها ، وذكرنا الشواهد والأدلة التي تدحض هذا الزعم ؟

ولا بدّ من المامة وجيزة ، اتماماً للفائدة ، بالتجارة البرية عند العرب قبل الاسلام وبعده ان التجارة أشرف حرفة في نظر العربي . فيقول استرابون الجغرافي اليوناني: « العرب جميعهم أهل تجارة » ويتداول أهل مكة قبل الاسلام هذا القول المأثور « من لم يكن تاجراً فليس بشيء » . وكانت التجارة العربية تجري بين المدن الآتية : مكة ، تدمر ، البراء ، سبأ . وكان لقريش رحلتان احداهما لليمن والأخرى للشام . أما في زمن الدولة الاسلامية فقد طالت هذه الخطوط التجارية وتفرعت حتى عمت سائر الأقطار التي دانت لحكم العرب . فأصبح بمكنة القوافل أن تتنقل آمنة من حدود الصين حتى بلاد الروم. وذكر الدكتور زريق في بحثه حديثاً ورد في كتاب «حديقة الورد » للشاعر الفارسي سعدي: «كنت أعرف تاجراً له قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، أضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش ، وظل طول الليل يتكلم عن تجارته وأعماله الى أن قال : يا سعدي انني أرغب في القيام بسفرة تجارية أخيرة أتمها واعتزل التجارة . قلت : وما هي هذه السفرة ؟ قال : أحمل كبريت

فارس الى الصين وأجلب نخار الصين الى بلاد الروم ، فأستبدل به هناك أقمشة حريرية وأنقلها من بلاد الروم الى الهند ، وأعود بفولاذ الهند الى حلب ، فأحمل زجاج حلب الى اليمن ، وأرجع أخيراً بثيـاب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجـارة الأجنبية والأسفار البعيدة » اه . وهناك طرق برية أخرى تسير وتتفرَّع عبر افريقيا وهي : (١) الطريق الشمالية ، تسير من مصر ، فالمغرب ، فالأندلس . (٢) الطريق الشرقية ، من مصر ، الى النوبة ، فبلاد البجة . (٣) الطريق الغربية من الغرب عبر الصحراء الـكبرى فبلاد النيجر .

نستنتج مما سلف ان التجارة الاسلاميـة ابان ازدهارها اتخذت سوقاً لهـا قارتي آسيا وأفريقيا والقسم الشرقي من أوروبا الذي يتاخم البـلاد الاسلامية ، وأن التجارة البحرية بلغت ذروة نشـاطها على شواطىء الهند وجزء من الصين والشاطىء الافريقي .

أما الاستدلال اللغوي من لفظتين أو أكثر تشبهان ألفاظاً عربيـة فحجة ضعيفة غاية الضعف . من المؤكد ان العرب لا يعرفون التمساح معرفة حقيقية لأن الأنهـار معدومة في شبه الجزيرة العربية . ولماذا أطلق العرب على هذا الحيوان اسم التمساح ولم يطلقوا عليـه إحدى هاتين اللفظتين القاطور أو قرمان ؟ فهل خصوها بالأجانب وخصوا لغتنـا بلفظة التمساح ؟[1] . ومن المعلوم ان الدخيل على بلاد جديدة لا يطلق على ما يرى مما ليس له به عهد أسماء من عنده ، بل يدعوها بالأسماء التي يسمعها من أفواه سكان تلك البـلاد . فالأجانب الذين يفدون الى بلادنا ويشاهدون أشياء لا مثيل لهـا في بلادهم من مأكل أو مشرب أو ملبس أو أثاث ، لا يخطر لهم أن يرتجلوا أسماء جديدة بل يلفظونهـا كما اعتاد السوري أن يلفظها بلسانه العربي . فالعباءة والبرنس والطربوش والديوان والقهوة والبرغل والـكبة ، تسرَّبت الى آدابهم بلفظها العربي . فكيف تسنى للعرب أن يقفوا موقف الأستاذ بين هنود أميركة ويقولوا لهم : « انكم لا تعرفون شيئاً ، ان هـذا الحيوان لا يسمى كذا ، بل انه يدعى بالقاطور أو القرمان ! ! »

أما ان كل كلمة قد اعتمرت بالألف واللام أصبحت عربية الأصل ، فهذا ليس بصحيـح . لأن في الفرنسية مثلاً كلمات كثيرة تبدأ بأل ويستحيل أن تكون عربية الأصل . وأن هناك كلمات عربية لا تحصى تسرَّبت الى اللغات الأجنبية لما استبحرت الدولة العربية ، ولا تزال تستعمل كتابةً ولفظاً دون أن تدخلها أل . وعلى سبيل المثال نذكر هذه الكلمات : amiral (أمير البحر) ، azur (أزرق) ، chime (كيمياء) ، magasin (مخزن) ، cable (حبل) ، (بارجة) barge وما دام هـذا الاتصال قد تمَّ بين البحـارة العرب وسكان أميركة الأصليين فماذا

(١) تمساح العربية أصلها من المصرية القديمة « امساح » : المقتطف .

استطاع العرب أن يقتبسوا عنهم من لغة أو صناعة أو غير ذلك من مظاهر الحياة ؟ لأن الشعوب لدى احتكاكها ببعضها ، سواء عن طريق التجارة أو الحرب أو الجوار ، لا بدَّ من حصول اقتباس متبادل من جانب الطرفين في شئون شتى لا يقتصر على بعض الكلمات ، بل كثيراً ما يؤدي الى اقتباس من صناعات وفنون وأنظمة حكم وطرق معيشته، كما حصل أثناء الحروب الصليبية بين الافرنج والسوريين، وكما يحصل كلما جرى اختلاط . فقد تعلَّم كثيرون منهم اللغة العربية وذلك لكي يتمكنوا من التعامل مع السوريين في المتاجرة، والتفاهم معهم في كثير من المناسبات . كما أن بعض السوريين اقتبسوا لغات أجنبية . وقد أتاحت هذه الحرب للافرنج أن يحذقوا بعض الصناعات السورية كصناعة السكر والورق وتربية دود القز والأقمشة والأصباغ ...

وان اتساع التجارة وازدهارها عند العرب قبل الاسلام ، أتاح لهم أن يقتبسوا مفردات كثيرة من الشعوب التي اختلطوا بها كالنبط والأحباش والفرس والسريان والروم ، وعربوا هذه الألفاظ ونطقوا بها نطقاً خلع عنها عجمتها وأكسبها لهجة عربية صرفة . ولا بدَّ من أن تكون هذه الشعوب التي ذكرناها قد أخذت الكثير من الألفاظ العربية . وأرى أن وجود ألفاظ من أصل أجنبي في صلب اللغة العربية ، دليل على حيوية الشعب العربي ونشاطه . انه دليل على ان ذلك الشعب لم يعش منكمشاً في بقعة منعزلة عن المعمور بل كسر النطاق التي ضربته حوله الحواجز الطبيعية وخرج من عزلته وانه لم يعش منفرداً لا يعرف العالم ولا العالم يعرفه. واذا كان قدّر للعرب أن يبلغوا أمريكا، فلماذا لم نرَ في لغتنا كلمة واحدة تعود في أصلها الى أصل أمريكي ؟ ولماذا لم يجد الروّاد الأولون الذين ارتادوا تلك الأصقاع شيئاً ينسب الى العرب ؟ بينما نرى الملاّحة الفينيقيين تركوا لسكان حوض البحر المتوسط ثروة لا تقيَّم ولا تندثر : هي الأبجدية . هذا عدا التماثيل الكثيرة المصنوعة من الشبة والعاج أو الحجر والآنية الفخارية أو المعدنية . فكانوا بمثابة قنطرة تصل الشرق بالغرب .

وأثبتت المباحث أن ما من أحد من شعوب العالم العربي قدر له أن يدخل أمريكا قبل منتصف القرن التاسع عشر . فيذكر الدكتور فيليب حتّي انه عثر على كتاب يصف رحلة شاب سوري اسمه انطونيوس البشعلاني دخل الولايات المتحدة عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٨٥٦ وقد أقام له أصدقاؤه الأمريكيون نصباً من الرخام كتبوا عليه تحت اسمه «ولد في جوار بيروت (سوريا) في ٢٢ اغسطس ١٨٢٧ وتوفي في نيويورك ٢٢ اغسطس ١٨٥٦» . فيكون هذا الشاب أول مهاجر سوري الى أمريكا الشمالية . ولا يبعد أن يكون أول مهاجر من بلاد عربية وطيء أرض القارة الأمريكية .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

النقابة والنقابية

Syndicate and Syndicalism.

النقابة (١) جماعة من أصحاب رءوس الأموال أو رجال المالية، يؤلفون وحدة غرضها القيام بمشروع يحتاج الى مال كثير أو موارد عظيمة ، حتى يخرج الى حيز الفعل ، وبخاصة مشروع يرمي الى السيطرة على سوق حاجة من الحاجيات . (٢) بمعنى أوسع : هي طائفة من الناس تتألف للقيام بعمل ما والتوسع فيه ، وبخاصة جماعة غرضها السيطرة على سوق بعض البضائع بأن يستولوا عليها ثم يقومون بالاعلان عنها اعلاناً واسع النطاق ، أو السيطرة على مجموعة من الصحف.

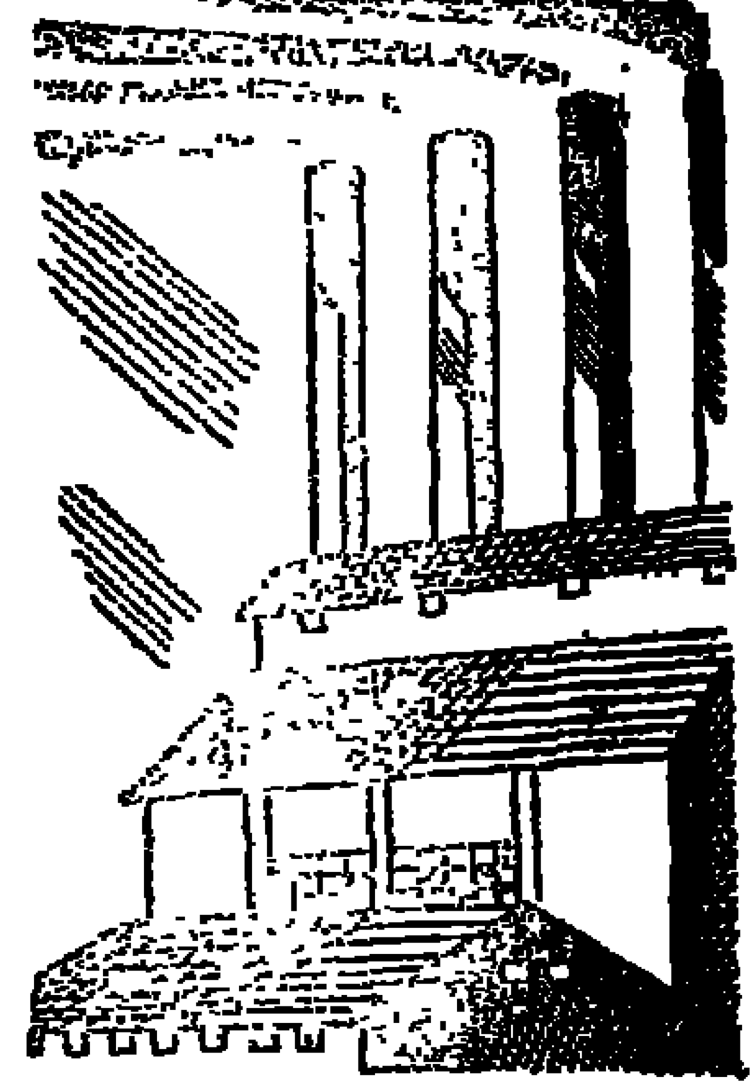
(من نقائص هـذا النظام ومخاطره الـكبرى في المجتمع قوته على الاحتكار وأثره في الترويج . فان نقابة من نقابات الصحف تستطيع أن تخلق من أي كاتب أو مؤلف شخصية عالمية في يوم وليلة ، من غير تقدير حقيقي للقيم والمقاييس العلمية أو الأدبية) ، وننقل هنا شاهداً نشرته صحيفة « الرأي العام الأميركية (١٦ من فبراير : ١٨٨٩) .

What are called newspaper Syndicates are rapidly extending their field of action. By establishment of offices not only in America, but at Paris, Berlin, Vienna .... they are able at one stroke to confer world-wide fame on any auther whose work is at their disposal.

النقابية : (١) حركة قام بهـا عمال الصناعات ، والغرض منها أن ينقلوا ملـكية عُـدَد الانتاج والتوزيع ووسائلهما من أيدي أصحابها الى اتحادات العمال ، حتى يعود النفع المادي برمته على العمال وحدهم ، متوسلين الى ذلك بالاضراب العام . وقد أصبحت قوة النقابة من عوامل القلق في النظام الاجتماعي القائم على الرأسمالية . ونستند الى شاهد ننقله عن البحاثة الانجليزي J. R. Hartley نشره سـنة ١٩١٢ ، أفضى فيه بأن النقابية قد تتقنع تحت اسم « الاتحادية الصناعية » فاللفظان عنده بمدلول واحد :

Syndicalism, open or baptized under the name of industrial unionism, is of the unsettling influences in the world of works.

(٢) مذهب اشتراكي وضعه رجال النقابات الفرنسية او اتحـادات التجارة ، والاسم الفرنسي Syndicalisme لم يدل أول الأمر على غير معنى الاتحاد التجاري ، ولا يزال هـذا المعنى المحدود من دلالات هذا اللفظ الى اليوم . وكانت الفـكرة النقابية قبل الحرب العظمى الأولى ، ذات أثر بالغ في نظام الاجتماع ، ولـكنها اندمجت بعد في مذهب الحزب الشيوعي وما يماثله من المذاهب والجمعيات. والاصطلاح إما أن يدل على مذهب أو نظرية ذات غرض تنظيمي ، وإما على الأسلوب الذي يلجأ اليه النقابيون تحقيقاً لمثاليـاتهم . والمذهب النقابي دون كل المذاهب الأخرى المماثلة له يمت بصلة الى طبقة العامة Proletaria ، فهو كما وصفه بعض الـكتّـاب « اشتراكية طبقة العمال » Le Socialisme Ouvrier على العكس من ضروب الاشتراكية الأخرى التي بشّـر بهـا أصحاب الطبقة الوسطى أي المفكرون : Intellectuals. والنقابي Syndicalist ، هو من يقول بالنقابية .



الزجاج

في الصناعة الحديثة

أصبح للزجاج منافع جديدة استمدتها الصناعة من عدم قابليته للالتهاب أو التلف وقدرته على عزل الحرارة والكهربا والوقاية من الحشرات الضارة . فهناك الآجر الزجاجي الذي يستعمل في البناء والصوف الزجاجي الذي يخفض من الصوت والشريط الزجاجي العازل والاجهزة المصنوعة من مواد زجاجية .

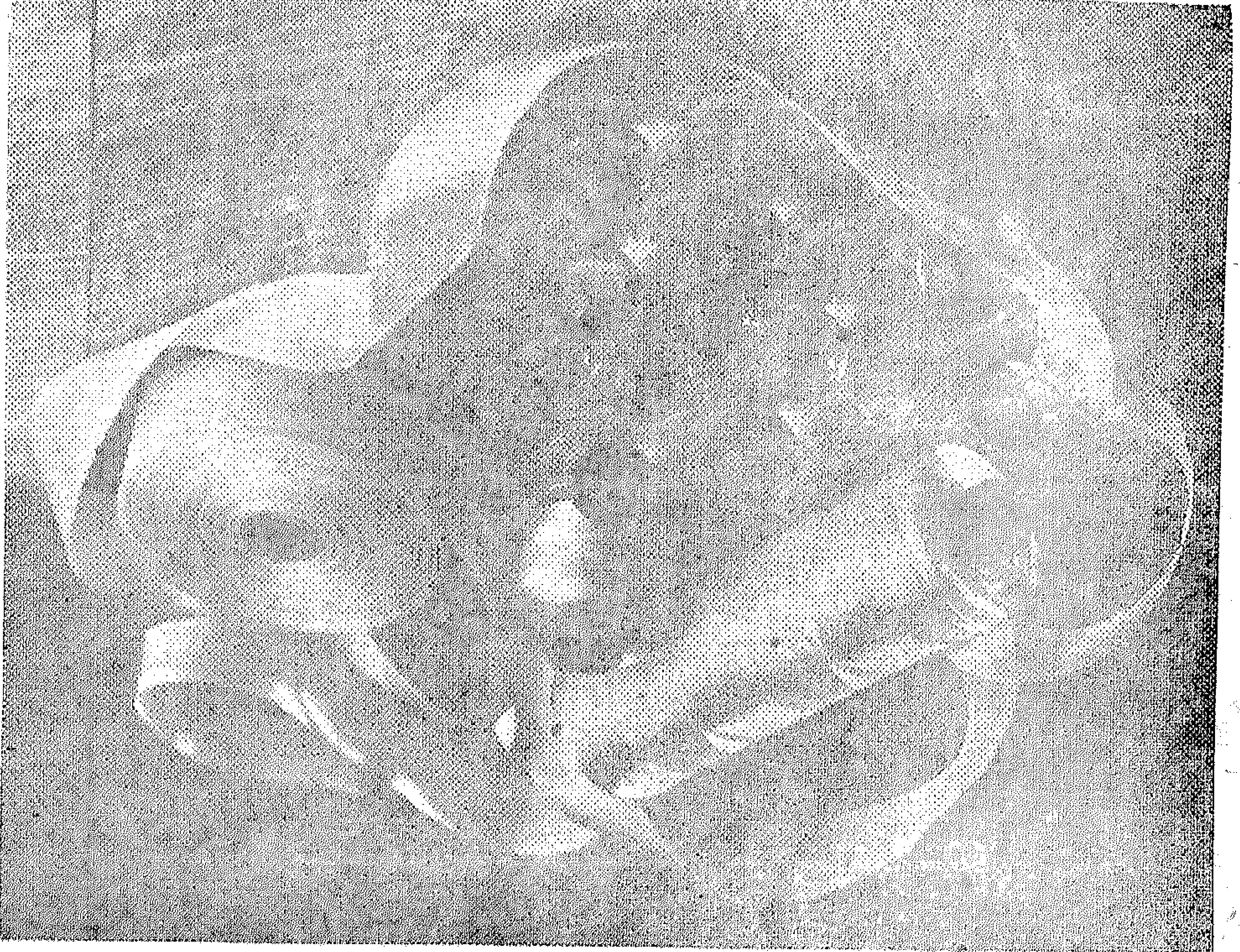
الزجاج مادة ذات ماضٍ طويل ومستقبل مملوء بالمنافع والتجارب . فانك تستطيع الآن أن تنشر الزجاج كما ينشر الخشب ، وان تطويه كما يطوى الصوف ، وان تنسجه كما ينسج الحرير ، وهو يستعمل في خياطة الجروح ورؤية السمك في قاع البحر . والزجاج الآن من القوة بحيث يوضع على الجليد ، ثم يختم بالرصاص المصهور ، دون أن ينشق ، وذلك نتيجة البحوث التي يقوم بها العلماء ، وخاصة في بريطانيا حيث لأبحاث الزجاج مقام خاص . وتصنع منه الألواح الصلبة المسطحة والافران والنظارات الشمسية غير القابلة للكسر ، والتي تفوق ما كان مستعملاً منذ سنوات قليلة .

منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام امتزج حامض باحدى المواد المضادة للحوامض ، فنتج الزجاج الذي بفضله استطاع الناس أن يروا ما هو خارج منازلهم ، وان ينظروا الى الجبال الموجودة في القمر ، وأن يشاهدوا الحياة المكتظة بجراثيم البكتريا . ومنذ ذلك الوقت استمر البحاث في التجربة على هذه المادة التي تعتبر أقدم المواد الصناعية في العالم ، حتى استطاعوا أن يبنوا المنازل من الزجاج وان يلبسوا الملابس المصنوعة من مواد زجاجية .

وفي بريطانيا تنسج هذه المواد الزجاجية من خيوط الزجاج الرفيعة . وأوقية واحدة من الزجاج تخرج ٤٨٣ كيلو متراً من الخيط وهو في خمس سمك شعرة من شعر الانسان . ولكنه بالرغم من ذلك أقوى من الصلب وغير قابل للالتهاب أو التلف أو التأثر بالحشرات الضارة ، فضلاً عن أنه أحسن عازل للحرارة والكهربا .

وهناك مادة زجاجية تشبه الحرير تستعمل في عمل الستائر والأثاث فهي لا تحترق

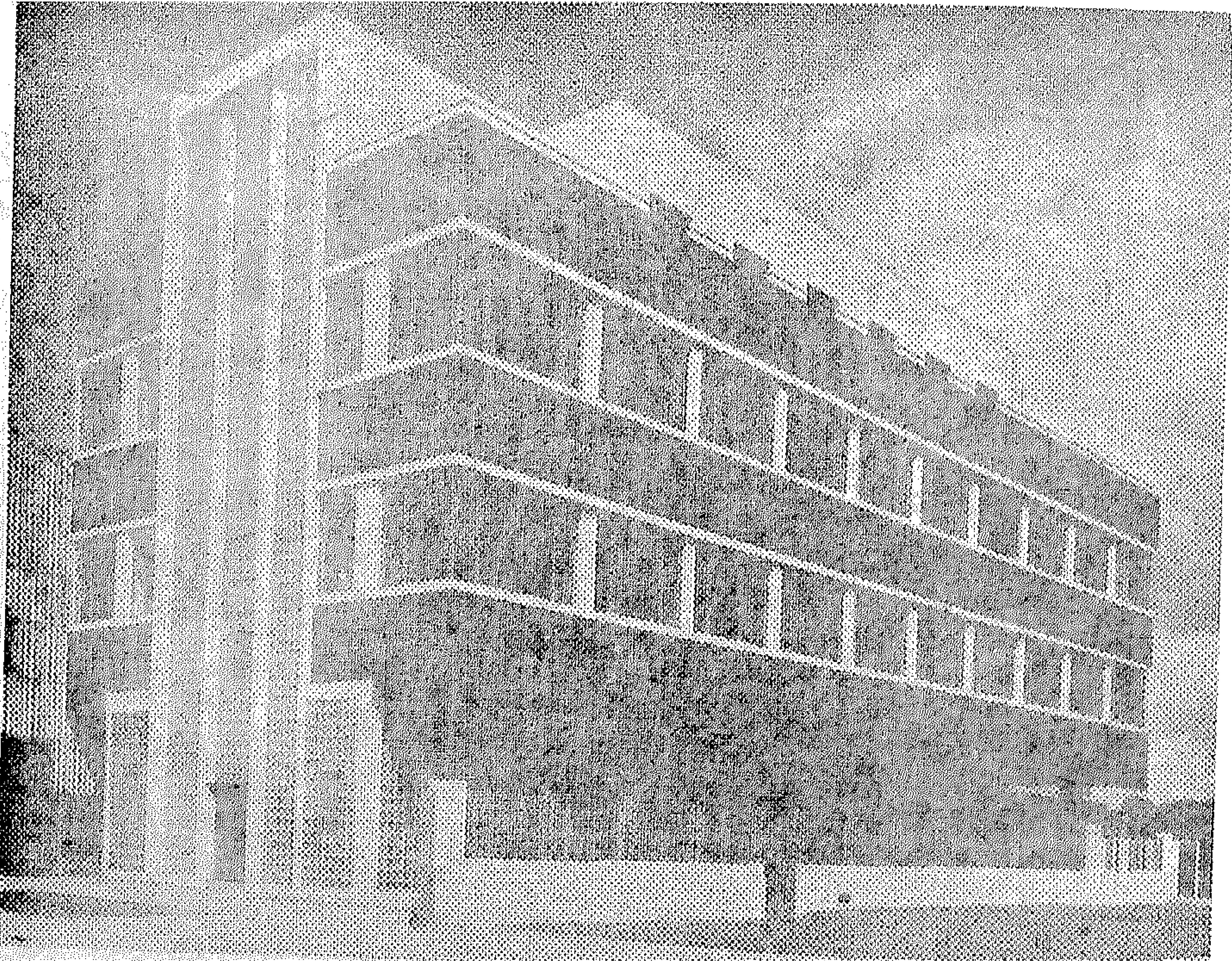
وقد استعملت فعلاً في عمل أربطة الرقبة ولوازم العرس بما فيها من قبعات وأحذية، وكذلك ملافع الاطفال نظراً لنعومتها، ولطافة ملمسها. واذا مزج الزجاج بالعجين استطعنا أن نعمل منه ملابس الرقص، التي تعكس النور في المراقص وتتلألأ كالفضة فوق أرضية ناصعة البياض. وحديثاً توصل البحّاث في انجلترا الى حل مشكلة صبغ الأقمشة الزجاجية.



تبين هذه الصورة شريطاً عازلا وخيوطاً وعروقاً مصنوعة من الزجاج، يستخرج من كل منها ما يبلغ طوله ١٦١ كيلو متراً من الخيط. ويوضع كل عرق زجاجي في فرن حار من تحته شريط مثقوب من البلاتين، ومن داخله تشد خويطات جيلة من الزجاج المذاب. ثم تعالج الخيوط الزجاجية بعد ذلك معالجة خيوط القطن أو الصوف فتنسج أقمشة نافعة

ويجب ان يكون الزجاج الذي يستعمل في عمل الخيوط من نوع جيد جداً. فتذاب المواد الخام الأساسية اللازمة لعمل عروق الزجاج الرخامية، ثم تعاد اذابتها بعد ان تبرد، ثم تصنع خيوطاً. وينتج كل عرق منها ١٦١ كيلو متراً من الخيط.

ولهذه العروق الزجاجية فوائد أخرى كثيرة . منها أن صوف الزجاج يصنع من خيوط زجاجية مضغوطة في غربال منتظم الثقوب ، ثم تدلى في الهواء مكوّنة طبقة زبدية من الزجاج الحريري تشبه الصوف او القطن شبهاً كبيراً . ويمكن وضع الصوف الزجاجي بين الحوائط والشقوق بحيث يكون عازلاً يحفظ رطوبة المنازل صيفاً ودفئها شتاء . فانه لا يوصل الحرارة بسهولة .

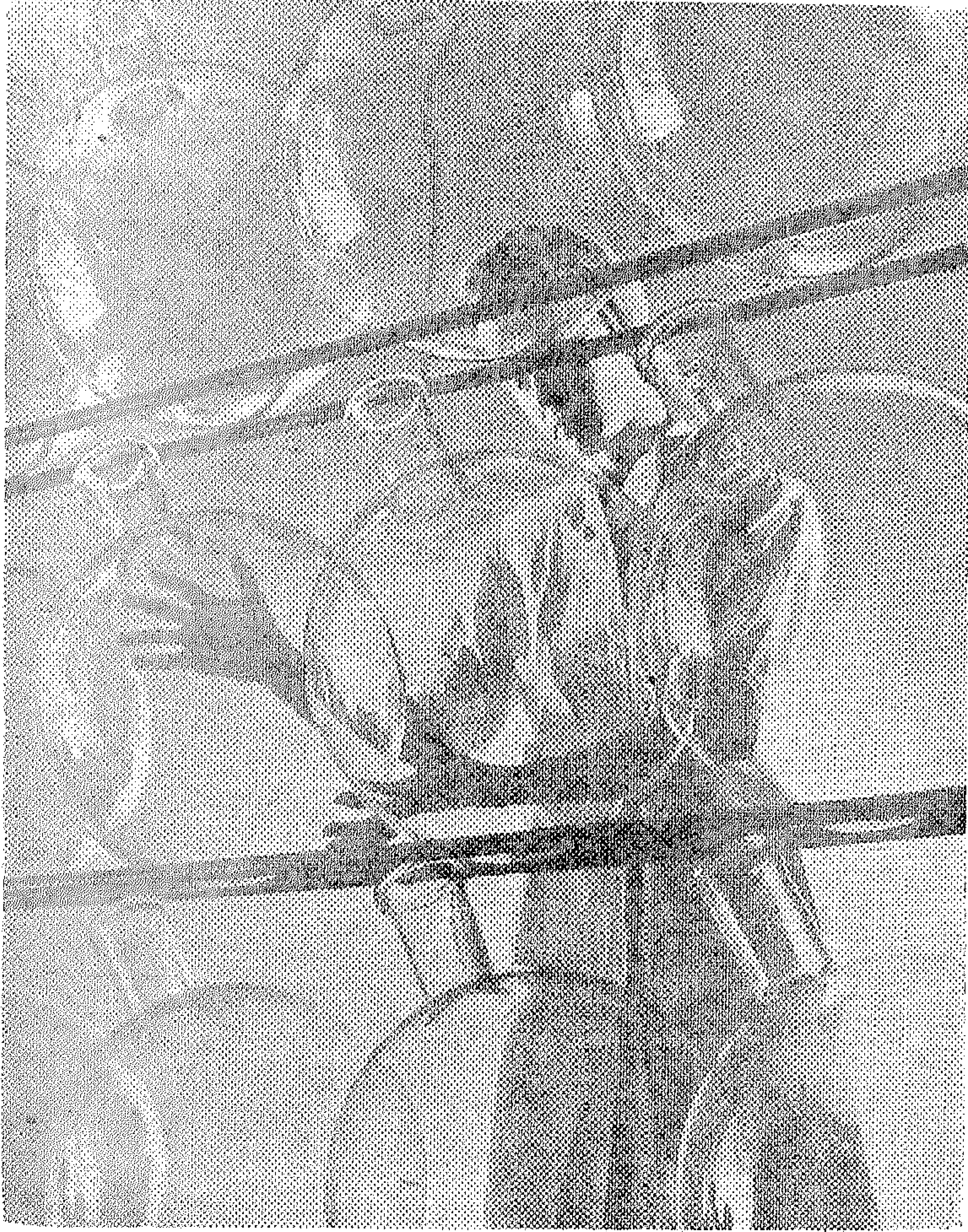


منظر خارجي لبناء جديد اتخذته شركة اخوان «وجن» مكتباً لها في «تورنلي بانك» بمقربة من غلاسكو ، وهو من تصميم المهندس الانجليزي «سلون بيكيت» من برمنجهام .

وترى في مدخل البناء قوالب الزجاج الموصلة للضوء الى مرقى السلم . وقد استخدم الزجاج ايضاً في تركيب جدران الدور الارضي . أما جدران الطبقات التي تلي هذا الطابق ، فقد غشيت بزجاج أسود صقيل يسمى في الصناعة « فيترولايت » : Vitrolite .

ويستعمل أيضاً هذا الصوف لالتقاط الصوت . فالمنازل الجديدة في بريطانيا لها سقوف مزودة بهذا الصوف ، فاذا طرقت سقف حجرة بمطرقة ، فلا ينفذ اليها الصوت . وكذلك تستعمل تلك الألياف الزجاجية في تصفية الهواء . فاذا عبئت في اطارات صغيرة ذات

شبكات سلكية من الجانبين وتوصل الى فتحة في حائط خارجي ، فان الصوف يصبح كالأسفنج ويرشح جميع الأقذار العالقة في الهواء المندفع نحو الغرفة .



تبين هذه الصورة نماذج من الزجاج الذي يستخدم في المصانع لمقاومة الحرارة ، واسمه الصناعي «هيزل : Hysil . ويقوم بصناعته في بريطانيا بيت « تشانس » Chance المعروف ، وقد نجح هذا البيت في كثير من التجارب التي تتعلق بانتاج الزجاج . ويصنع من صنف من الزجاج الذي يقاوم الحرارة صحاف لا تحترق وأفران زجاجية وأدوات للطبخ

والزجاج الصلب يستعمل الآن في عمل الآجر لبناء المنازل . وانك تستطيع ان تتصوَّر منزلاً ذا حوائط تشف عن لون ساحر وضوء خفيف آتٍ الى الحجرات من جميع النواحي .

وهذا الطوب الزجاجي لا يحتاج الى زخرفة فضلاً عن انه متين ورخيص الثمن جداً. وهو خفيف الوزن ويمكن غسله بسهولة بالأسفنج. أما الجدران المصنوعة من الطوب المتشابك فيمكن أن تنفذ من خلالها الأشعة فوق البنفسجية. وبهذا يصبح داخل البيوت مشبعاً بأشعة الشمس التي لا يستطاع الحصول عليها الاّ على شواطىء البحار.

ويكفي هذا بياناً لمنافع الزجاج في بناء المنازل. أما في داخل المنازل فللزجاج فوائد أخرى مستحدثة. فقد كانت أدوات المائدة مثلاً تصنع من زجاج رديء النوع أو هش أو غالي الثمن. أما الآن فبفضل الرمال التي تحتوي على الحديد، والتي استكشفت في اسكتلندا، يمكن عمل أدوات زجاجية للمائدة جميلة المنظر لامعة وضاءة. وقد استمر قادة الصناع والعلماء في انجلترا عاكفون على التجارب حتى توصلوا الى انتاج أنواع جديدة من الزجاج أمتن وأجمل من سالفتها، وهي في الوقت نفسه بخسة الثمن.

ثم الزجاج الذي يقاوم الحرارة. فان أصحاب البيوت المصنوعة من الزجاج سوف يطهون طعامهم في أفران زجاجية ويقلون البيض في مقال زجاجية ويدفئون حجراتهم باستعمال المدفئات الزجاجية ويسنون أمواسهم على مسنات زجاجية. ويعزفون على بيانات زجاجية.

***

واذا رجعنا للكلام عن منافع الزجاج العاجلة نرى أن تجارب الحرب في عمل النظارات التي تلتحم بغاز الاسيتيلين قد أدت الى صنع نظارات شمسية تحجب الأشعة الضارة بالنظر دون أن يشعر لابسها انه في جوٍ مظلم. فان الأشعة تحت الحمراء هي التي تؤذي العين وليس الضوء. وفي بريطانيا تباع أحسن عدسات النظارات في العالم جملة تلقاء قروش قليلة.

ثم ماذا؟ بعد أن رأينا ان الزجاج يلبس ثياباً وتتخذ منه بيوتاً. ان حشوة من الزجاج تحيل العربة الرخيصة سيارة مقفلة فاخرة. أما سائل الزجاج فيزيل التآكل من داخل الأنابيب الساخنة، وتحل خيوط الزجاج محل الأوتار المستعملة في حياكة الجروح. وأما فتائل الزجاج التي تستعمل في مصابيح النفط وفي القداحات فلا يتكاثف عليها الكربون ولا يصيبها التلف بحال

لم نبلغ بعد مبلغ القول بأن هذا العصر هو عصر الزجاج. الاّ انه يمكن ان يقال بحق انه عصر الرجال الذين تعلموا منافع الزجاج وأدركوا قيمته.

العقيدة والعقيدي والمذهب العقيدي

Dogma, Dogmatist, and Dogmatism

Dogma : العقيدة

From Greak(١) = That which seem good, an opinion, view, a public decree, edict, or ordinance; from Gr. dokein = think, seem, appear, seem good (that is to be ones opinion, pleasure, or will, be decreed.)

المعنى العام : (١) فكرة مقررة : (٢) مبدأ أو ميل أو نزعة أو متجه فكري أو قاعدة ، يعتقد بأنها يقينية ثابتة : (٣) مذهب أو مبدأ يفرض تقبّله أو الاعتقاد به ، خضوعاً لسلطة مّا ، على العكس مما يتقبله العقل بناءً على حكم التجربة أو الاختبار ، وبالاجمال حكم ديني مفروض بحكم السلطة (٤) التعاليم أو الأحكام المفروضة بسلطان مّا : (٥) نظرية تقوم على مبادىء أو ميول دينية : (٦) مجموعة القواعد النصرانية ، كما تقرها الكنيسة العليا أو فرع من فروعها .

في فلسفة كنت : Kant : فرض تركيبي قائم على تصوّرات الادراك ، وهذا يضادّ : أولاً — الحكم التحليلي : ثانياً — حقائق التجربة : ثالثاً — الفرض الرياضي ، وغير ذلك .

Quot., 1893. J. Orr. God and World, I. 26-note : Dogma I take to be a formulation of doctrine stamped with ecclesiastical authority

1856 Emerson. Eng. Traits, Lit. (Bohn) II. iii : if, going out of the region of dogma, we pass into that of general culture

***

Dogmatist(s) العقيدي : العقيديون

(LL. Dogmatistes) — Gr. dogmatistes : one who maintains dogmas.

المعنى العام : (١) من يقول بالاعتقاد ، أو يروّج لعقائد خاصة ويدعو اليها ، وبخاصة من يحاول أن يفرض على الغير آراءه وعقائده ، على أنها يقين : (٢) من يبشر بآراء جديدة أو نظريات وأحكام مبتكرة : (٣) من يقول بصحة مبادىء أو عقائد أو فكرات غير قائمة على البرهان أو التجربة : (٤) من يفرض تعاليمه بمحض سلطانه .

في الفلسفة : من ينتمي الى المذهب العقيدي في الفلسفة .

Quot. 1854. Kingsly iv-137 : Dogmatists : men \ ho asserts so fiercely as to forget that a truth is meant to be used, and not to be asserted.

1858. Mansel Bampton Lect. i (ed. 4) — In the latter language of philosophy : the term Dogmatists was used to denote philosophers who endeavoured to explain the phenomena of experience by means of national conceptions and demonstrations.

في الفلسفة القديمة : فئة من فلاسفة الطبيعة القدماء أنشأها أبقراط ، متخذاً اسمها من لفظ يظهرها منابذة للاختباريين : Empiricists والأسلوبيين : Methodists وكانوا يقيمون اعتقادهم على استنتاجات أو فكرات يستمدونها من فروض نظرية ، يقولون إن من المستطاع تأييدها ، أو اقامة الدليل عليها منطقيًّا .

***

المذهب العقيدي : Dogmatism

Mod.Lat., dogmatismus (Gr. as if dogmatismos, dogamatizein = dogmatize).

المعنى العام : (١) القول بأن مذهباً أو رأياً مّا يقيني : (٢) صفة أن تكون ذا معتقدَ أو ذا اعتقاد في شيء : (٣) ذو سلطان أو مزوّدٌ بالسلطة في مسائل المعتقد والفكر : (٤) يقينيّ : لا يقبل الجدل : (٥) التشدد في الدفاع عن صحة المعتقد أو الفكرات أو الدعوة اليها .

في الفلسفة : (١) أية نظرية تقوم على أصول يمليها العقل وحده ، من غير أن تستند الى تجربة ، على الضد من نظرية الشك : Scepticism ، وعلى الاجمال أسلوب في التفكير الفلسفي يقوم على مبادىء لم يسبرها التأمل : (٢) مذهب فئة من الفلاسفة يعرفون بالعقيديين.

Quot., 1853 : mansel Brampton Lect. i-(ed. 4.)-the theological Dogmatism is ...an application of reason to the support and defence of pre-existing statement of Scripture.

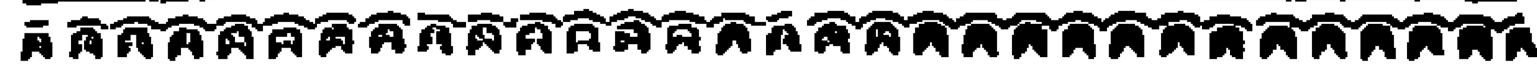
1877. E. Caird. Philos. Kant i - 2 : what Kant meant we may best understand if we consider how the opposes Criticism to tow forms of philosophy, Dogmatism and Scepticism.

في فلسفة كنت : Kant : (١) أسلوب اعتقادي في البعديطبيعيات : Metaphysics (الغيبيات) : (٢) يقين لم يخلّه النقد بما يمليه العقل عفواً بمجرد الظن أو التصوّر .





من حديقة أبيقور (١)



فرغت الآن من مطالعة كتاب ، يعرض فيه أحـد الشعراء الفلاسفة ناساً لا يفرحون ولا يألمون ، ولايتشوّفون الى جديد العرفان . وما كدت أخرج من أرض هذه «الأتوبيا» الجديدة ، وأعود الى أرض دنياي هذه ، فأرى الناس من حولي يناضلون ويحبون ويألمون ، حتى داخلني الشعور بمحبتهم ، وأحسست بالرضى عن مشاركتهم فيما يحزنون ! لشـد ما نرى في هذا وحده الفرحة والحق! إنها الفرحة في الوَصب والعذاب . كالبلسم في جراح الشجرة الـكريمة . لقد أمات أولئك الناس أهواءهم ومنازعهم ، فأماتوا فيهم كل شيء : أماتوا اللذة والألم ، وأماتوا الوصب والشوق ، وأماتوا الخير والشر والجمال : أماتوا كل شيء ، وأماتوا الفضـيلة على الخصوص . فهم عقلاء حكماء بلا ريب ، ولـكنهم مع ذلك لا يسوون شروى نقير ، لأن قيمة المرء فيما يبذل من جهد ونشاط . وأي شأن لحياتهم مهاطالت وامتدت ، إذا هم لم يملؤوها بالعمل أو يحيوها ويعيشوا فيها ؟

يفيدني هذا الـكتاب الفائدة الجلّـى من حيث يُعز في خاطري هذه الحال القاسية التي تتحيّـف الانسان ، ومن حيث يصل بيني وبين هذه الحياة المؤلمة ، ومن حيث يهدف بي الى تقدير الناس أمثالي ، والى العطف الـكبير على الانسانية . وفضل هـذا الـكتاب في انه يحبّب اليك الحقيقة الواقعة،ويحذّرك من العقلية الخرافية والعقلية الواهمة . وهو إذ يعرض أحياء لا يألمون، إنما يعلّـمنا أن هؤلاء المحزونين المنعمين ليسوا لنا أكفاء ولا أقرانا، وأن من أكبر الجنون أن نجوز حياتنا الى حياتهم ، إن كان التجاوز ممكن الوقوع .

يا للسعادة البائسة ! أيكون عند هؤلاء فن ، وقد فقدوا المنازع والأهواء ؟ وكيف يكون فيهم شعراء ؟ يا ويحهم اجهلوا ذوق القريحة الملحمية التي تستلهم شواظ الحقد والغرام ، والقريحة الهزليـة التي تهزأ على إيقاع من نقائص البشر ومباذلهم . لقـد عجزوا عن أن يتصوّروا في خيالهم بائسين كـ « ديدون » و « فيدر » وما رأوا قط هذه الأشباح العلوية القدسية التي تتخطّـر مرتعشة تحت أشجار الآس الخالدة .

عمي صمّ إزاء أعاجيب هذا الشعر الذي يؤلّـه أرض البشر . لا يعرفون شاعراً كفرجيليوس

(١) من كتاب حديقة أبيقور تحت الطبع لصاحب التوقيع

فاذا قيل انهم سعداء فلأنهم يملكون مصاعد يصعدون بها الى العلاء . على ان بيتاً واحداً من الشعر الجميل قد أحسن الى الناس أكثر مما أحسنت اليهم « روائع » الصناعة المعدنية على الاطلاق . .

يا للتطور الذي لا يرق ولا يلين ! إن هـذه المجموعة من المهندسين لا تعرف الأهواء ولا الشعر ولا الغرام . واحسرتاه لهم ! كيف يحبون وهم سعداء ؟ إنما الحب لا يعمر ولا يزهر إلاّ بالألم . أليست اعترافات العشّاق هتـافات الشدة والضيق والبرم ؟ لقد هتف الشاعر الانجليزي في إحدى نزوات حبه : « آه لو أن الله كان بائساً شقيّـاً في مثل بؤسي وشقائي ، إذن ما استطاع من أجلك أنت يا محبوبتي أن يألم وأن يموت ! »

لنغفر للألم وقعه في أنفسنا ، ولنعلم حق العلم أنه من المستحيل أن نتصوّر سعادة أعظم من السعادة التي نشعر بها في هـذه الحياة الشديدة الحلاوة والمرارة ، الكثيرة السوء والصلاح ، المثالية الواقعية معاً ، التي تضم كل شيء وتصل بين النقيض والنقيض . فهـذي الحياة حديقتنا التي ينبغي أن نحرث أرضها بعزيمة ونشاط ! .

دمشق — محمد روحي فيصل

بحث معجمي : فى الفلسفة وعلم النفس

المذهب العملي Bragmatism

(Pragmat (ic) & ism). Gr. bragmatikos = active, versed, in affairs: pragma = a thing done, a fact, pl. pragmata = affairs, state affairs, public buisiness, etc. Also Practicalism.

(١) مذهب أن المعنى الكلي الذي يتضمنه تصور من التصورات. إنما يتجلى في النتائج العملية ، ملابساً صورة من السلوك او الاخلاق يحسن احتذاؤها ، مقروناً بتجارب ينتظر ظهور نتائجها العملية، اذا كان ذلك التصور صحيحاً : (٢) الاسلوب الذي يمتحن به قيمة قضية يدعى بأنها صحيحة ، بما يبرز من نتائجها ، أي بما يكون لها من الآثار العملية في توجيه مصالح الانسان وأغراضه

Quot., 1900, W. Caldwell in "Mind" Oct-436- in this so called Pragmatism or Practicalism of Prof. James.



سيدة القصور (١)

وهذه قصة ثانية جميلة يقدمها لقراء العربية الأستاذ الشاعر الكبير علي الجارم بك، و « سيدة القصور » وسابقتها « شاعر ملك » تكشفان لنا عن ملكة جديدة للجارم بك لم نكن نعرفها فيه من قبل، فقد كان الشعر أساس مجده الأدبي حتى اليوم، ولكن هاتين القصتين أظهرتا أنه قاص مجيد، فحبذا لو توفر على هذا النوع من الانتاج الأدبي فأخرج للقراء القصص الكثيرة، وبخاصة أنه يستوحي في قصصه صحفاً من تاريخنا المجيد فيعيد هذه الصحف حية قوية.

وقد أجاد الكاتب في عرض حوادث القصة، وفي صياغة الحوار، وأسلوبه جميل قوي، ولا غرو فهو أسلوب شاعر عظيم، استمع الى هذه القطعة الصغيرة من القصة، وهي جزء من حديث الشاعر عمارة الى سيدة القصور.

— « يا مولاتي ... إننا معاشر الشعراء نرى الصور بعيون من الفن لا يبصر بها سوانا. نرى الجمال فنذهب بخيالنا في روضاته فيتكشف لنا عن بدائع لا تراها العيون ... نحن نعيش في دنيا غير دنيا الناس، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس. إن الحسن أحياناً يتحرى الشعر، وقد يعجز الخيال، وقد يبهر العين كما بهرني، ولكنا لا نلقي أمامه السلاح أول مرة، ولا نستسلم خاضعين، بل نأخذ في إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين، مبيناً أو غير مبين، ثم نصيح كما يصيح المحموم، حتى نخفف من ثورة قلوبنا، وإلاّ قتلنا الحب، ورحنا شهداء النظرات الفاتكة، والبسمات الفاتنة .. الخ .. الخ.

وبطلة القصة « سيدة القصور » عمة الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد، وهي شخصية قوية، وعقلية جبارة، كانت لها السيطرة على البلاط الفاطمي في آخر أيامه، وبطل القصة الشاعر المعروف عمارة اليمني، وموضوعها عرض تاريخي للحوادث التي انتهت بزوال الدولة

(١) نقد كتاب من تأليف الاستاذ علي الجارم بك، دار المعارف القاهرة

الفاطمية . غير أنني لاحظت أن الأستاذ المؤلف تحرَّر كثيراً من قيود الدقة العلمية عند عرض الحوادث ، ولم يرجع للأصول التاريخية المعاصرة لتحقيق الأحداث التاريخية التي اتخذها أساساً لقصته :

١ — فهو قد عرض في قصته لشخصية الواعظ زين الدين بن نجا ، وجعل هذا الواعظ رجلا يمنيًّا اسمه « الحراني » من أسرة يمنية وضيعة ، وصوَّره عدوًّا لمواطن عمارة لثارات كانت بين الأسرتين ، ثم نقل الرجلين الى القاهرة ، وذكر أن الحراني عاش في مصر متنكراً يسمى نفسه « زين الدين بن نجا » ويشتغل بالوعظ ، ويكيد في الخفاء لعمارة ، ثم ارتحل به الى الشام ، وعاد به في مؤخرة جيش أسد الدين شيركوه .

والمتفق عليه حقًّا بين كتَّاب القصة التاريخية أنهم يستطيعون التصرف ، بعض الشيء في الحوادث التاريخيـة ، وخلق شخصيات تكمل الصورة الفنيـة التي يسعون لإحيائها ، ولكنهم مطالبون دائماً بمراعاة الدقة عند عرض الحوادث التاريخية الهامة ، وتصوير أبطال القصة ، ووصف خَلقهم وخُلقهم وملابسهم وقصورهم وعاداتهم.. الخ ، لذلك يبذل كتَّاب القصة التاريخية الجهد كل الجهد في مراجعة الكتب المعاصرة لتخرج قصصهم كاملة من هذه الناحية،أي تصوير العصر الذي يكتبون عنه خير تصوير وأصدقه ، فهل فعل الجارم بك هـذا عند كتابة « سيدة القصور » ؟ لقد نقلنا للقارىء الكريم ما ذكره عن زين الدين بن نجا ولكن المراجع المعاصرة تذكر أن ابن نجا لم يكن اسمه « الحراني » بل اسمه الكامل : « ابو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الانصاري الملقب زين الدين الحنبلي المعروف بابن نجية الواعظ » ،ولم تذكر هذه المراجع انه كان يمنيًّا ، بل تذكر انه شامي ولد في دمشق سنة ٥٠٨ هـ ونشأ بها ، وارتحل الى بغداد مراراً ثم انتقل الى مصر وحدَّث بها ، وتوفى في مصر في ثامن رمضان سنة ٥٩٩ هـ (انظر ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ وابو شامة ،الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٩ و ج ٢ ص ٢١ ، ٥٧ — ٥٨) .

٢ — الصورة التي رسمها الجارم بك لزين الدين بن نجا صورة كريهة فقد جعله نماماً متآمراً حقوداً دساساً . . الخ ، وهـذا كله مصدره الخطأ السابق ، في حين أن المراجع المعاصرة كلها تكيل لزين الدين المدح وتنعته النعوت الطيبة .

٣ — ذكر الأستاذ المؤلف أن عمارة وفد على مصر سفيراً من لدن أمير مكة فذهب الى القصر الخليفي ، وألقى بين يدي الخليفة الفائز قصيدته العصماء :

الحمد للعيس بعد العز والهمم حمداً يقوم بما أولين من نعم

ثم استقرَّ في مصر بعد ذلك ، واتصل بالبلاط الفاطمي ، والوزراء الفاطميين ، وقال في الجميع المدائح الكثيرة ، ثم لعب دوره المشهور في الحوادث السياسية التي انتهت بزوال الدولة الفاطمية . والذي تذكره المراجع أن عمارة وفد على مصر رسولاً من قبل أمير مكة مرتين : الأولى وهي التي أنشد فيها القصيدة سنة ٥٥٠ هـ ، والثانية في سنة ٥٥١ هـ ، يقول عمارة نفسه في كتاب « النكت العصرية » ص ٣١ — ٣٢ :

« خرجت حاجًّا بل هاجًّا الى مكة سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فليتة وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم فألزمني السفارة عنه ، والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمس مائة والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما أحضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب ... أنشدتهما قصيدة » . . (ثم يذكر القصيدة السابقة)

ويذكر عمارة بعد ذلك خبر عودته الى وطنه اليمن ، وانه حجَّ الى مكة ثانية في سنة ٥٥١ هـ الى أن يقول في ص ٤١ — ٤٢ : « وهممت بالرجوع الى اليمن فألزمني أمير الحرمين بالترسل عنه الى الملك الصالح بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام ... فخرج الأمر من عند الصالح الى الوالي بقوص أن يعوقني بقوص ولا يأذن لي في الرجوع ولا في القدوم الى باب السلطان حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار ، وقيل ذلك ما نقل الى الصالح عني أني طعنت في مذهب الامامية ... ثم أذن لي الصالح في القدوم الى الباب ... »

وبعد هذه السفارة الثانية استقرَّ عمارة في مصر وكان من أمره ما كان...

٤ — قال الأستاذ الجارم بك في قصته ص ١٣٩ : « وبعد يوم استدعى الخليفة العاضد أسد الدين الى القصر وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالمنصور فغضب شاور لعزله من الوزارة ... الخ » فكأنه بهذا يثبت أن أسد الدين ولي الوزارة للعاضد وشاور حي ، بينما المراجع المعاصرة كلها تذكر انه لم يلِ الوزارة إلاّ بعد قتل شاور ، يقول أبو شامة مثلاً في الروضتين جـ ١ ص ٥١٨ :

« فصل في وزارة أسد الدين ، وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه الى القصر ، أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها ، وسار ودخل القصر ، وترتب وزيراً ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة منزلها . . الخ »

٥ — يقول الأستاذ المؤلف ص ١٢٠ : « وما هي إلاَّ أيام حتى دخل شاور القاهرة ، وفرَّ رزيك إلى اطفيح ، وتمكن منه شاور وقتله . . . الخ » ، وصاحب الروضتين

ينقـل في ج ١ ص ١٦٥ عن يحيى بن أبي طي — وهو مؤرخ فاطمي — ما يلي : « وجمع — أي شاور — العربان وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة ... فخرج رزيك نصف الليل فضلّ الطريق وتاه عند اطفيح ، ونمّ بيوت عرب فقبضوا عليه ، وحُمل إلى شاور . ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به ، ونادى عليـه : « هذا جزاء من لا يرعى الجميل » . . وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك ، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة ، واتصل ذلك بطيّ بن شاور فدخل على أبيـه وقال له : أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك ، وقد شرعا في أمر رزيك ، واستحلفا له جماعة من الأمراء ، ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيك » فقال له شاور : « إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هـذا المحل » فتركه ولده طيّ ، ودخل على رزيك فقتله في سجنه ، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته .. الخ »

٦ — قال الأستاذ الجـارم بك ص ١٢٤ عن المقابلة الأولى بين شاور ونور الدين في الشام : « ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصـاء في صدر الخيمة ، وفي يده سبحة تتحرك حباتها بحركات لسانه ، وقد جلس إلى يمينه العلمـاء والفقهاء والمحدثون ... الخ » والذي يذكره صاحب الروضتين ج ١ ص ١٦٥ أن المقابلة تمت في الميدان الأخضر بدمشق، قال : « وركب نور الدين في الغر من وجوه دولته ... فلمـا دخل الميدان ركب شاور من الجوسق ، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط ، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره .. الخ »

***

وبعد فهذه بعض صور من القصة رأينا الأستاذ المؤلف يبعد فيها عن الحقائق التاريخية بعداً يسيء إلى هذه الحقائق التاريخية نفسها .. دون مبرّر يقتضيه العرض الروائي أو الحبكة القصصية ،. ، تُرى هل يقرني أعلام القصة التاريخية في مصر على هذا النقد .. ؟ إنني أكون جد مسرور لو تكرّم بعض هؤلاء الأعلام وخاصة زعيمهم أستاذي الجليل محمد فريد أبو حديد بمناقشة هذا المبدأ .

جمال الدين الشيال

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة فاروق الاول

الحَلّ — Absolution

L. Absolution (n) - ; absolvere = loosen from.

---

(١) التحرير من الخطيئة بسلطة الكنيسة (٢) العبارات التي يعلن بها التحرير من الخطيئة

في اللاهوت الروماني : أن يعلن صاحب السلطة الكنسية ، على اعتبار انه يستمد السلطة من السيد المسيح، تحرير المخطىء من الخطيئة في أثناء تلقي الاسرار المقدسة بقبول التوبة منه، ولا يعتبر هذا العمل ترديداً لما ورد في الانجيل أو اعلاناً بأن الله لابد من أن يعفو عمن يتوبون اليه لا غير، بل أنه ، بحسب التعريف الذي أقره مجمع « ترنت » Trent . عمل شرعي يصدر فيه القسيس ، باعتباره قاضياً، حكماً على التائب .

في اللاهوت البروتستانتي : اعلان مقدس يحقق للتائب العفو الالهي تلقاء ندامته وايمانه .

***

يعلن القسيس في الكنيسة الرومانية الحل باسمه قائلا : « إني أحلك » :
"I absolve thee".

أما عند الطوائف البروتستانتية التي تتخذ صيغة خاصة للحل ، وكذلك في الكنيسة اليونانية ، فان الحل يعلن باسم الله وفي صورة صلاة : « ان الله أو المسيح يحلك »

"God (or Christ) absolve thee".

***

Quot., By absolution (in the Augsburg confession) is meant the official declaration of the clergyman to the penitent that his sins are forgiven him upon finding or believing that he is exercising a godly sorrow, and is trusting in the blood of Christ.

Shedd, Hist. of Christ.



الحياة سر الوجود

او كيف تتخطى الوحدة العربية العقبات



ثلاثة يتسقّطون الحقيقة ، أو سرّ الوجود ، وهم الشاعر والفيلسوف والنبي . وأولهم أقرب الى ثالثهم منه الى ثانيهم وثانيهم أكثر اعتصاماً بالعقل ، ولذا فهو كالعقل أضيق مجالاً من أخويه . وكلٌّ من هؤلاء الثلاثة ينشد الحقيقة من باب . فالشاعر ينشدها من باب الخيال ، والفيلسوف من باب العقل ، والنبي من باب الالهام ، وكاتب هذي السطور يتشرف بالاعتراف انه ليس واحداً منهم ، مع اني مطّلع على شأن كلٍّ منهم ، ومعرفتي كيف بلغ كلٌّ منهم الموقف الذي يشرّفه ، وأعرف ما نشأ عن كلٍّ منهم ، أو عمّا عزي اليه ، في تاريخ الأسرة البشرية . وقد يكون ذلك موضوع مقالة على حدة .

كان النبي يُدعى ، في فجر التاريخ الاسرائيلي ، « رائياً » . فيقول قاصدهُ « اني ذاهب الى الرائي » . وكلمة « راءٍ » بهذا الاعتبار صفة مبالغة لا اسم فاعل . لانه يعتبر في نسبة الحدث فيها معنى الثبوت . فالرائي بهذا المعنى هو من يرى ما لا يراه غيره من سائر الناس . فالفرق كبير بين راءٍ وراءٍ . فالعامة لهم عيون ولا يبصرون . أما الرائي فله مع العيون بصيرة ترى ما دقّ عن الأبصار .

والشاعر كذلك من صيغ المبالغة كفاضل . والمراد به من يشعر بما لا يشعر به غيره من محاسن هذا الوجود . والفرق كبير بين شاعر وشاعر ، كما بين راءٍ وراءٍ .

والشاعرية أقرب نسباً الى النبوّة منها الى الفلسفة . والفلسفة أكثر استناداً منها الى العلم لأنها من أعمال العقل ، مبتكر العلم . وهي ترمي الى سرّ الوجود كحقيقة . والشاعرية ترمي اليه كجمال . والنبوّة ترمي اليه كجمال وحقيقة ، أو كخير . لأن الخير في ما أرى ، هو مجموع الحقيقة والجمال .

والفلسفة كالعلم متصلة بغير المحدود ، ولكنه ليس في متناولها . أما الشاعرية والنبوّة فغير مقيدتين بالعقل فهما أكثر حرية من الفلسفة . ومن رام التوسع في ذلك فعليه بكتاب « إمرسن » وكتاب « النشوء الخالق » لبرغسن وكتاب « الآلهة » لولتر صكت .

وأريد بالشاعرية هنا شيئاً هو غير نظم القريض . وأكثر الناظمين ليسوا بشعراء . وقد يكون الشاعر غير ناظم . فاذا اجتمع الاثنين قلنا ملتن ودانتي وهوميروس والمعري.ولا أعرف في عصرنا شاعراً غير رابندرانات تاغور الهندي . أما في أوروبا وأمريكا فلا أعرف شاعراً من هذا الصف . أما في أنبياء اسرائيل فأعرف ثلاثة شعراء ، وهم داود ودانيال وحزقيال . واليك قطعة من فن ثالثهم . وقد ورد ذلك في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر نبوَّة حزقيال في التوراة ، قال : —

« كانت عليَّ يد الرب ، فأخرجني . . . الى البقعة ، وهي ملآنة عظاماً . وامرَّني عليها من حولها ، واذا هي كثيرة جدًّا ، واذا هي يابسة . فقال لي (الرب) يا ابن آدم أتحيا هذي العظام ؟ . فقلت يا سيد الرب ، أنت تعلم . فقال لي تنبَّأ على هذي العظام . وقل لها ، أيتها العظام اليابسة ، اسمعي كلمة الرب . هكذا قال الرب لهذه العظام اليابسة ، هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون . وأضع عليكم عصباً . وأكسوكم لحماً . وأبسط عليكم جلداً . فتعلمون اني أنا الرب . . .

(يقول النبي) فتنبَّأت كما أمرت ، وبينما أنا أتنبَّأ كان صوت ، واذا رعش . فتقاربت العظام كل عظم الى عظمه (فصارت هيا كل عظام) . ونظرتُ ، واذا بالعصب كساها . وبسط الجلد عليها . وليس فيها روح . فقال لي الرب : تنبَّأ يا ابن آدم ، وقل للروح : هلمَّ يا روح من الرياح الأربع . وهبَّ على هؤلاء القتلى فيحيون . فتنبَّأت كما أمرني . فدخل فيهم الروح . فحيوا . وقاموا على أقدامهم ، جيش عظيم جدًّا جدًّا .

هذا هو الخيال الشعري الذي أبدعته النبوة . فلنسمع مساقه بقلم النبي . قال : —

ثمَّ قال لي الرب : يا ابن آدم ، هذي العظام هي كل بيت اسرائيل ، ها هم يقولون : يبست عظامنا ، وهلك رجاؤنا . قد انقطعنا . لذلك تنبَّأ وقل لهم : هكذا قال السيد الرب . هأنذا أفتح قبوركم ، وأصعدكم من قبوركم يا شعبي ، وآتي بكم الى أرض اسرائيل . فتعلمون اني أنا الرب» انتهت القطعة النبوية . وفيها أتبيَّن مجلى شاعرية ، وشعار قومية . لا ريبة فيها ولم يحلم حزقيال ذلك الحلم إلاَّ وهو مشبع بالقومية . ولم يبدع في تصوره بهذا الخيال إلاَّ وهو فياض بالشاعريَّة . وهذي القطعة أحد أسس الصهيونية التي قضى علينا سوء الحظ ان نجابهها ، وقد نالنا من جرائها ما نالنا .

أقول : وأرلني في موقف حزقيال ، وليس لي نبوَّة حزقيال ولا شاعريته ، فأقتبس معنى هذي القطعة ، وهي آية فن حزقيال ، لالقاء نور على « مبعث الأمة العربية » ، بعد هجوعها الطويل منذ أواخر العباسيين إلى مستهلّ القرن العشرين ، وغرضي بهذي المقالة تبيان الصورة

التي بها تتغلب الأمم العربية على العقبات الكأداء التي تحول دون وحدتها ، وهذي المقالة تتمة المقالة المنشورة في عدد يناير من المقتطف الأغر

يصوّر لنا خيال النبي الشعري فعلين عظيمين هما لحمة القوميـة وسداها . والفعلان هما تقارب العظام والروح . فبالفعل الأول حدث الاتصال والتماسك . السلاميات بالرسغ والزند بالساعد بالترقوة بالقص والاضلاع والسلسلة الفقارية والطرفين السفليين . وعلى أعلى السلسلة الجمجمة . تلا ذلك اللحم والعصب والجلد . هذا هو الفعل الأول . وبالثاني وهو تتمة العمل نشوء الحياة في تلك الجثث . ويعبّر عنه النبي هنا بدخول الروح فيها ، جرياً على المتعارف عندهم في تلك العصور .

يتمّ هذان الفعلان في كل أمة هاجعة ، اذا شاء ربّك ان تحيا . ذلك ما حصل في اليونان منذ سنة ١٧٥٠ وفي ايطاليـا منذ سنة ١٨٥٩ . وذلك ما نتوقع اتمامه في الأمة العربيـة ، وهي عندي أعصى على المبعث القومي في تينك الأمتين ، الجارتين ، وذلك لاسباب ذكرت بعضها في المقالة الماضية . ولـكن إذا كان قد قضى لهذي الأمة العزيزة ان تبعث بعد ان قضت « فالحياة » هي السرّ في تغلّبها على العقبات الـكأداء .

لنا في الطبيعة روابط راهنة ، أولها رابط الوحدات الـكهربائية ، الذي يجمع الذريرات أو يقرنها فنتصور في شكل ندعوه « ذرة » أو « جوهر فرد » « Atom » . ثمّ هنـالك رابط آخر يجمع تلك الذرّات ، أو الجواهر الفردة ، في ما ندعوه « دقيقـة » Particle . فالذرة مؤلفة من الـكترون وبروتون ونوترون وبوزترون . والدقيقة مؤلفة من ذرّات . فتنقسم الخلايا العضوية إلى دقائق ميكانيكيـًا . اما الذرّة فلا تنقسم إلى جواهر فردة بالطريقة الميكانيكية، بل بالتحليل الـكيماوي . اما الذرة فلا تنقسم ميكانيكيّـا ، ولا تتحلّـل كيماويـا ولـكنها تنفلق كهربائيّـا وهنالك رابط آخر عام اكتشفه العلامة اسحق نيوتن ، وصحّحه أو فسّره البرت اينشطاين ، وهو ما ندعوه الجاذبية العـامة ، الذي به تتناسب وتنتظم الأجرام السماوية وهي ما ندعوه « كوناً » أو Universe

أقول : ان درس الـكون بما فيه من الروابط الأربعة، الـكهربائي والملاصقة والالتصاق والجاذبية العامة ، هذا الدرس يبقى ناقصاً ، اذا نحن صرفنا النظر عن رابط آخر عظيم ، يجمع دقائق منوّعة ، في شكل عضوي ، وندعو ذلك الرابط « الحياة » فالنبات والحيوان أجسام عضوية ترابطت خلاياها برابط الحياة ، وهي سرّ لا ندركه ، لـكننا نشاهد آثاره في الهضم أو التمثيل والدوران والنمو والتطور الخ

وأرى ذلك الناموس السامي فاعلاً في الأمم فعله في العضويات لأن الأمم مجموعات مؤلفة

من عضويات كما أوضح ذلك هربرت سبنسر في فلسفته التركيبية . فأبان أن الناموس الفاعل في الأحياء هو الناموس الفاعل في الاجتماع أو الهيئة الاجتماعية .

ما هي الحياة ؟ . لا أدري

ما هي الكهربائية ؟ . لا أدري

ما هي الجاذبية ؟ . لا أدري

فلم يُتَح لنا ادراك الماهيات . لكني أعلم ان الحياة والكهربائية والجاذبية ، تجمع. والأمم مجموعات كوائن حية ، كالاجسام المعدنية والفلكية والعضوية .

أجل انك تقول لي ان الأمم العربية شذرات متفرقة هنا وهناك . متقاطعة متباعدة متخاذلة ، ولكن هل هي أكثر تباعداً من « العظام في البقعة » التي مرّ بك وصفها في آية فن حزقيال ؟ وقد رأيت كيف تلاءمت تلك العظام اليابسة وترابطت وعادت الى الحياة . وهل الأمم العربية أكثر تباعداً من استراليا وكندا وجنوبي افريقية وبريطانيا ؟ لا لعمري. مع ذلك انظر كيف ترابطت تلك الاقسام فتألف منها الأمبراطورية الانكليزية ؟ فاذا دبت الحياة في أقسام العالم العربي ، فلا تحول الأبعاد دون تماسكه . أقول ، وأعلم أني عن عقل أقول ، اذا توافرت عوامل بعث الأمة العربية بقوة العظيم الجبار ، زالت العقبة الأولى التي هي عقبة جغرافية .

كذلك العقبة الثانية وهي « الفقر » أعرف واعترف انا أفقر امم الدنيا . أفقر من بريطانيا ، ومن فرنسا ، ومن ايطاليا ، ومن روسيا ، بل نحن أفقر أمة على وجه الغبراء . ولكن هل نحن أفقر من الوليد ، الذي تضعه الوالدة بدون كسوة ولا حول . ولكن ، والحكيم يرمق و « لكن » بعين الشاعر . أقول ولكن كل مثر في الدنيا هو ذلك الوليد الذي كان بلا حول ولا طول ولا شأو . ولكن الحياة ضامن بقائه وثرائه ونمائه وهنائه .

نعم نعم . ان الأمم العربية اليوم بدون أساطيل ، ولا طائرات ، ولا ذخائر ، ولا ثراء ، ولا مستعمرات ، لكنها ليست أفقر من الوليد . فالحياة التي ضمنت ثراء الوليد تضمن ثراء الامم العربية وقوتها . لا أقدر ان أصف شكلها السياسي ، هل تكون امبراطورية ، أو دولاً مترابطة أو ولايات متحدة . وانما أعلم أن كل من سار على الدرب وصل . والامم العربية الآن على الدرب ، فستصل .

ها ألوف من أبنائها وبناتها في دور التخصص ، في اوربا وأمريكا . وها عشرات الألوف يعملون في التشريع والاجراء وبناء الجسوم الاجتماعية التي ندعوها « الدولة » أو « الدول » وملايين يتطلعون الى تحقيق أحلام الرائين أقدمين ومحدثين في عودة الامم العربية الى

الحياة والاستقلال ، سياسيًّا واقتصاديًّا . ومطالع ذلك العصر السعيد تلوح في آفاق الشرق كأنوار الغزالة وهي لا تزال تحت الأفق . يتزايد نورها شيئاً فشيئاً الى أن يتكامل اشراقها وارتفاعها الى سمت الرأس .

ان أمم أوربا تسيطر علينا سيطرة الوالدين على الوليد . ولكن ذلك الوليد الحقير بعد نصف قرن يرث ما كان لوالديه من حول وطول . وما أدراك إنا سنرث أمم الغرب بعد مرور عقود السنين ؟ . لقد كانت تلك الامم في عهد الطفولة . وكنا في طور الرشاد الاجتماعي ، فكنا لها آباء ومرشدين . فتقدمت وتقهقرنا ، وسبقتنا بعد ما أخذت عنا أسس مفاخرها ، ولكن التاريخ يعيد نفسه . من كان يظن أن دول بابل وأشور والفرس تدول . وان لندن وباريس وشنطن وموسكو ستسود الدنيا ؟ ولكن الأمر يظل عجيباً حتى يحدث . فتى ألفته الانظار فصار عادياً ، لا يستغرب كالراديو والطائرات .

ان هذا القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديما

ذكرت عقبة كأداء في سبيل الوحدة العربية ، وهي « اختلاف المقاييس » . ولكن توحيد الثقافة يتغلب عليها . العلم يجمع الأفكار ويوحد العقيدة . فالناس على اختلاف صفاتهم يتوحدون فكراً في العلم . فلا خلاف بينهم في أن اثنين واثنين أربعة . وان زوايا المثلث في سطح مستقيم تعدل قائمتين ، وان النور والحرارة تقل كمربع البعد . وان الاجسام العضوية هي خلايا مترابطة متبادلة التعاون والنفع ، والعلماء في كل أمة متفاهمون متوافقون . وكذلك الأدباء في كل عصر وفي كل مصر . فوحدة الثقافة مجلى من مجالي الحياة . وبها تتوحد المقاييس .

أقول ان الانسانية في أعماقها وذراها واحدة . والفروقات والتقسيمات بينها انما هي بين هذين الطرفين . فاذا تعمقنا في أغوار الانسانية وجدنا أن أحوالها وحاجاتها واحدة . وكذلك اذا ارتقت الافكار علماً وثقافة كانت واحدة . فالجهل — وهو الموت عقليًّا — يمزقها شر ممزق : ولكن العلم والعرفان يوحد فكرها . وباستمرار أبناء العربية في طلاب العلم والثقافة يتقاربون ويتفاهمون فتتوحد المقاييس . ويصير كل فريق منهم يرى الأحمر أحمر والأزرق أزرق والأصفر أصفر . للعامة عيون وللعلماء عين واحدة . وللعامة مذاهب وللعلماء مذهب واحد . وللموتى تمام الانفصال وعدم التفاهم . أما الأحياء فيتفاهمون ويتحدون

واذا كانت الحياة سر الوجود . فالايمان سر الحياة ، لا أريد بالايمان هنا الايمان المذهبي ، بل الايمان الكوني . الايمان الكوني هو الاستمساك بالنواميس الطبيعية وبسيادة العقل على المادة ، أو تصرف الحياة بالمادة .

قال حزقيال : — وبينما أنا أتنبأ كان صوت واذا رعش ، وتقاربت العظام : ذلك ما أرى وما أسمع . لست شاعراً ولكني أسمع بأذن الشاعر . ولست نبياً ولكني أرى بعين النبي . ولا أنا فيلسوف ، ولكني أفهم بعقل الفيلسوف ، أسمع الأصوات تتجاوب أصداؤها في أصقاع العربية ، وأرى حركات تقارب بين تلك العظام اليابسة ، التي كانت تدوسها أقدام غير مغسولة . وها هي ذي أخبارها . تحملها صحف الأنباء فيما أنا أكتب.واليك ما يأتي :

ابتهاج سورية بالحلف العربي

ردّ الملك ابن السعود والملك يحيى على تهاني البرلمان السوري

بيروت في ٢٧ دسمبر سنة ١٩٣٧

تلقى رئيس مجلس النواب السوري من سكرتير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود برقية هذا نصها : — لقد رفعت لجلالة مولاي الملك برقية معاليكم المعربة عن تهنئة المجلس النيابي السوري وابتهاجه بابرام معاهدة الحلف بين اليمن والعراق والمملكة السعودية . وقد أمرني جلالته أن أقدم لمعاليكم شكر جلالته للعاطفة العربية السامية التي أعرب عنها مجلس سورية العربي النيابي » .

« ان هذا المظهر العربي الكريم في سورية ليس بالشيء العجيب ، ولا بالجديد ، بل هو معروف انه في قرارة كل نفس في سورية العربية . وإن جلالته ليرجو منكم ، ثم يرجو من المجلس ، دوام هذا التآخي العربي ، وتوثيقه ، وشموله سائر الاقطار العربية لاعادة مجدها وحفظ كيانها » .

واللبيب في غنى عما قد يتبرَّع به المؤرخ من الشروح الضافية لهذا الحادث ، وما يراه ثاقب النظر بين سطور هذي البرقية ، أخص بها العبارة التالية « دوام هذا التآخي وتوثيقه ، وشموله سائر الأقطار العربية » . فهذه البرقية ترجمة ما يختلج في صدر كل عربي دبَّت فيه الحياة القومية . واليك البرقية التالية :

وتلقى رئيس المجلس برقية أخرى من جلالة الامام يحيى امام اليمن هذا نصها : —

« لي فخر عظيم بأن أبلغكم بأنه لدى تقديم تلغرافكم الى حضرة أمير المؤمنين جلالة ملكي العظيم أظهر احساساته الشكرانية ودعواته الخيرية لسلامة وتعالي الشعوب العربية في ظل الاتحاد ، وتوحيد الكلمة . ويتمنى جلالته تبليغ شكرانه الى جميع رفاقكم المحترمين»

لأبناء عدنان وقحطان سطر لامع في تاريخ هذا السيار. وأرى في عقد المعاهدات بين العراق واليمن ونجد بارقة أمل في استعادة عصر أمجادها . وأرجو القارىء الكريم ألاَّ

يغفل ما بين تلك الأقطار من الفوارق المذهبيـة . فالعراق فيه أقليـة مسيحية ، وأكثرية اسلامية منقسمة سنية وشيعة . وتغلب في مملكة ابن السعود الوهابية ، وفي اليمن الزيدية . فاتحاد كل هـذه الأمم في الحلف العربي ، مع ما بينها من الفوارق ليس عمـلا صبيانيًـا . وبالحري ليس هو من فعال الموتى . واذا لم يكن نتيجة حياة فهو مقدمة حياة . وفي الحياة القومية حل مشاكل الوجود .

وهنالك ظاهرة حياة ثانيـة . وهي ما تجلى من شـعور العراق ومصر وسورية نحو فلسطين : فقد وقف كلٌّ من نائبي الأوليين في جمعية الأمم في جنيف موقف الدفاع عن حقوق العرب في فلسـطين . وأرسلت سورية مندوبًا خاصًا إلى أوربا للدفاع عن تلك الحقوق ، والسعي لدى أمم أوربا في إنالة العرب حقوقهم تلقاء الاستعمار الصهيوني . فهـذا الموقف يفصح عن وحـدة الروح بين أمم العين والضاد ، رغم ما بينهـا من الفوارق والتباين واختلاف المقاييس . واذا ذكرت في مصر أمرين كبيرين تبينت معنى ذلك الموقف . الأول : ان مصر حليفة انكلترا التي عليها ينصب اللوم في مسألة فلسطين . والثاني : ان نائب مصر في جمعيـة الأمم مسيحي . وقد تكلم من اقتناع روحه وميل قلبه ، مع إعرابه عن سياسة مصر العربية، وهو وزير خارجيتها . فالأمر واضح ان الوحدة العربية وان لم تتم بعد فهي في طريق التـكامل . ووحدة الميول قبل الشكل السياسي . واذ نـكتب في الموضوع فلسنا نضارب الهواء ، أو اننا نهرف بما لا نعرف ، انما نثبت في صفحات حقائق واهنة ، وهي تراثنا لأحفادنا الذين نودعهم أمر الوحدة العربية .

لست أجهل ما يحول دون الوحدة العربية من العقبات . وما في مجموعاتها من المشاغبات ولـكن هل هي ميتة ؟ . لا ورب الـكعبة ، ولا هاجعة . بل هي حية مستيقظة ساعية إلى تمام وحدتها . وما نراهُ في مجموعاتهـا من التقسيم والمشاغبات ، إن هو الاَّ من ظاهرات الطفولة . ولـكن الطفل لا يظل طفلاً إلى الأبد . بل إذا صان الله حياته ، ينمو ويبلغ رشادهُ . ذلك ما نرجوهُ للامم العربية . فالأزمات السياسية والمشاكل الحزبية لا تنفي حياة الأمة ، بل هي دليل حياتها . والاَّ فهل سمعت شغبًا وضوضاء بين ساكني القبور ؟ . لا وأبيك . فالمنازعات والصيحات ان دلّـت على شيء مضافٍ إلى الحياة، فهي دليل الطفولة أو الصبوة الاجتماعية.

بقي ان هنالك ظاهرة حياة في الحركة الصناعية في الأقطار العربية . والعمل ثمرة الحياة ودليل على وجودها . وقد يكون شرح النهضة الصناعية في البلدان العربية موضوع مقالة على حدة . فاكتفي بالاشارة اليه الآن .

ودليل آخر قاطع ، على يقظة الأمم العربية موقف أبنائها في أقسام المهجر وفي كل أقسام

الدنيا ، ولاسيا في قارتي أمريكا . فشعور أولئك المهاجرين مع وطنهم الأصلي ، وأمتهم العربية وما لهم في خدمتها من الهمة القعساء ، واليد البيضاء ، دليل على وجود حياة قومية متقدّمة . يزداد هـذا الدليل قوة اذا ذكرت ان أكثرية أولئك المهاجرين مسيحيون . وأكثرهم ليس لهم أي مطمع في منصب أو رفعة في ما لو نالت الأمم العربيـة مطالبها السامي . اذا اعتبرت ذلك . . ولا أراك إلاَّ معتبراً ، وضح لك وضوح الصبح لذي عينين أن الحيـاة الجديدة في بني قحطان ليست حديث خرافة، إنما هي أمر واقع لامراء فيه .

والأمم العربية اليوم في موقف انتظـار الزعيم الأكبر ، أو الزعماء لقيادتها الى غايتها المقصودة وضالتها المنشودة . فتتوحد صفوفها وتنتظم شؤونها . لا أنكر انه قد نشأ فينا زعماء يستحقون الاحترام أذكر منهم ثلاثة، وهم سعد زغلول، والملك فيصل، والملك عبد العزيز آل السعود . على أن زعامة كل منهم لم تتجاوز قطر خاص من الاقطار العربية. الاَّ ان المرحوم الملك فيصل كان أكثر رغبة في خدمة مجموع الامم العربية لاقطر خاص من أقطارها. يعزّز يقظة الامم العربية تدرج ابنائها في معارج التخصص العلمي . في معاهد اوربا وأمريكا .

وأيضاً حرية المرأة الذي بزغت شمسه في مصر وسورية والعراق ونزولها الى ميدان الجهاد جنباً الى جنب مع الرجل .

ومن مؤيدات اليقظة العربية تقهقر التعصب وتضاؤله . وبقياس ذلك التضاؤل يكون تقدُّم الحياة الاجتماعية . والخلاصة ان العقبـات الكأداء في سبيل الوحدة العربيـة ليست دليل موتها، انما هي باعث على مضاعفة الجهود وزيادة الهمة في السعي لادراك المنى وستتغلب الحياة على العقبات باذن الله . والزمان كفيل بتحقيق الآمال

دنا ضبار

من أدب الغرب

هداية الطفل

CHILD GUIDANCE. By W. Mary Burbury, Edna M. Bliant, Birdget J. Yapp. Macmillan. 7s. 6 d.

كتاب مفهوم العبارة مستقيم الطريقة يتناول بالبحث أسلوباً حديثاً في معالجة الشواذ من الاطفال وقد تناول بالشرح المستفيض نظام العيادات الطبية الحديثه التي أسست لفحص الشواذ من الاطفال وكيف نشأت ، كما أفاض مؤلفاته في الاسباب خاصة وعامة ، التي تسبب الشذوذ ، وشرحن معالم الطرق التي تتخذ في علاج الطفل ليعود الى حالته السوية ، وتناولن في فصل ممتع المؤثرات الاجتماعية والمسالك المحتملة التي قد يكون لها أثر حاسم في علاج الشذوذ .

والكتاب في مجموعه وبما حوى من بحوث ، وما تأنس فيه من نزعة انسانية سامية ، جدير بأن يكون في يد كل من يهتم بمسائل التربية وتنشئة الطفل ، وأن يكون موضع درسه العميق.



الفاروق عمر

للدكتور محمد باشا هيكل [1]



نقدنا في عدد أغسطس الماضي كتاب « الصديق أبو بكر » وأخذنا على سعادة مؤلفه صنيعه في قصة « مقتل مالك بن نويرة » . ثم رأينا أن ننقد كتابه الجديد « الفاروق عمر » وتتعقب بعض ما فيه من مآخذ ، فكتبنا هذا البحث ، ونشرنا بعضه في مجلة « الكتاب » الغراء . في عددها الأول الذي صدر في أول نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، ورأينا أن ننشر بقيته في مجلة « المقتطف » الغراء ، استيفاء للبحث ، وأداء لواجب الامانة ، وإخلاصاً في النصيحة للعلم وللقراء .

مآخذ واستدراكات

١ — زعم المؤلف في مقدمة كتابه « ج ١ ص ٨) أن عمر « رأى إعفاء من أسلم من أهل البلاد المفتوحة من الجزية ومساواتهم بالمسلمين الفاتحين ، فكان ذلك مغرياً لكثير منهم بالدخول في الاسلام ... وقد أعفاهم عمر وساواهم بالفاتحين وهو يعلم ما سيترتب على ذلك من نقص في موارد المدينة ، ومن ردّ الحكم في هذه البلاد الى أهلها . مع ذلك لم يتردد في الأمر ولم تثنه هذه الاعتبارات عنه » الى آخر ما قال .

وهذا الذي حكاه عن عمر هو حكم الاسلام في القرآن والحديث نصًّا ، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة ، ورسول الله يقول : « ليس على مسلمٍ جزية » رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث ابن عباس . انظر تفسير القرطبي (ج ٨ ص ١١٤) ونيل الأوطار للشوكاني (ج ٨ ص ٢١٩) والذي ننكره على المؤلف أن يجعل هذا من عمل عمر ورأيه وسياسته ، كأنه حكم عن اجتهادٍ منه . وهو حكم بديهي منصوص ، وكان عمر فيه متبعاً لا مجتهداً .

---

(١) جزءان ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة مصر سنة ١٩٤٥

٢ — وقد أنكر المؤلف على المؤرخين المتقدمين أنه بلغ من إكبارهم لسيرة عمر « أن أضافوا اليه أموراً أدنى الى المعجزات التي خصَّ بها الأنبياء ، وأن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ الناقد إثباته . وعمر في غير حاجة الى شيء من ذلك يضاف الى سيرته . فما قام هو به وما تمَّ في عهده ، مما يقره النقد التاريخيّ ، يقيم له في صحف التاريخ صرحاً عالياً باقياً الى الأبد . ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق الى سيرة عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها ، ولجنّبوهم الاختلاف على مبلغ صحتها ، ولما طفّف ذلك من قدر عمر ، ولا نقص من جلال صنعه . وقد رأيت من الخير أن أغفل من هذه الحوادث ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد . ثم رأيتني بعد ذلك مضطرًّا الى أن أثبت حوادثَ يتصوَّر العقل في شيء من العسر وقوعها ، ومع هذا تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواترٍ يدعو الى النزول على حكمهم فيها » ، (ج ١ ص ٩) .

هكذا يقول سعادة المؤلف . ونحن نعلم أنه ينكر كل المعجزات الكونية التي رواها المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إلحاح وإصرار ، لأنه « يجري في البحث على الطريقة العلمية الحديثة ، ويكتبه بأسلوب هذا العصر » كما قال في كتابه « حياة محمد » ص ٤٧ وإن كان لم يستطع إنكار معجزات الأنبياء السابقين ، لأنها مذكورة في القرآن ، كما قال في ذلك الكتاب ص ٥٤ فهو أجدر إذن أن ينكر الكرامات والخوارق التي تنسب إلى عمر وإلى غير عمر ، لأنها مما « لا يقره العقل ولا يثبت للنقد » ! ولسنا نجادله في هذا ، فما في الجدال فائدةٌ ، وما أيسرَ الانكارَ وادّعاءَ الكذب والوضع على رواة السنة والأخبار ، أيًّا كان مبلغهم من الثقة والأمانة والصدق والضبط والتحري . وما أحكم الكلمة التي قالها له سماحة شيخ الاسلام مصطفى أفندي صبري في كتابه الجليل « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » قال في ص ٤٣ : « الطريقة العلمية التي يتبجح بها معالي المؤلف ويباهي باتباعها في تحرير كتابه ، والتي يدعي أنه بنى عليها إنكار المعجزات ، هي الطريقة نفسها التي يدَّعي ملاحدة الغرب أنهم بنوا عليها إنكارهم لوجود الله » .

ولكنا نجد المؤلف أثبت حادثة « يا سارية الجبل » وسنذكرها في موضعها من هذا المقال (رقم ١٨) وما كانت رواية هذا الحادث بأصحَّ ولا بأوثق من غيره مما أنكر ، ولا بأصح ولا أوثق مما تواتر تواتراً علميًّا صحيحاً من معجزات رسول الله . ومن عجب أن يدعيَ المؤلف أن حادثة سارية من الحوادث التي « تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر » ! وأظن أن سعادته لم يطلع على شيء مما قاله المحدّثون والأصوليون في معنى التواتر

ودلالته العلمية ، والفرق بينه وبين غيره من طرق النقل عند العلماء ! ولو اطلع على ذلك لقال شيئاً غير هذا .

٣ — وذكر المؤلف (ج ١ ص ٣٥) أن عمر « لما استخلف كان أول دعائه قوله : اللهمّ إني غليظ فليّنّي ، اللهمّ إني ضعيف فقوّني ، اللهمّ إني بخيل فسخّني » . ثم قال : « أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنيـا ، وأن أباه لم يكن غنيّـا » . الى آخر كلامه . وماكانت به حاجة الى هذا التكلف ؛ فان هـذا الدعاء لا يدل على أن عمر كان بخيلا ، وما زعم ذلك له أحد قط ، وما كان الفقر سبباً للبخل أبداً ، وإنما البخل داء نفسيّ قد يزيده الغنى تمكناً . والمؤلف يستنبط أن عمر كان « متوسط الحـال في الغنى طول حياته » ، وأكثر ما يكون الـكرم في المتوسطين والفقراء . ويعيذ الله عمر من داء البخل ، ورسول الله يقول : « أيّ داءٍ أدوى من البخل » ، وإنما كان مثل هذا الدعاء أن يظن الرجل الصالح بنفسه التقصير عن درجة الـكمال ، حتى ليسمي عمله باسم درجة النقص ، رغبةً الى ربه وتواضعاً ، فيسأله أن يتمم من خلقه ما يظنه نقصاً . ولذلك لم يزعم أحد قط ، ولم يستطع المؤلف أن يزعم ، أن عمر كان ضـعيفاً إذ يقول « اللهم إني ضعيف فقوّني » بل قال : (١ : ٣٣) « ولما تدرّج عمر من الصبا الى الشباب بدا في مظهر من القوة يبذ به أقرانه » . ثم النقلُ الصحيح ثابت بأنه كان جواداً ، فقد روى ابن سعد في الطبقات (ج ٣ ق ١ ص ٢١٠) عن عبد الله بن عمر قال : « ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم من حين قـبض كان أجدَّ ولا أجودَ حتى انتهى من عمر » . فهذا وغيره من أخباره وحوادثه لا يدع شكـّا في أنه كان من أكرم الـكرماء .

٤ — في (ج ١ ص ٣٦) : « ثم إن المبشرين بالمسيحية في ذلك العصر كانوا ذوي نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشـاطهم اليوم » . وهـذه دعوى عريضة ، لا تـكاد تجد دليلاً عليها . فما رأينا — على كثرة ما رأينا — في النصوص التاريخية الصحيحة أنْ قد كان المبشرين نشاط في مكة وما حولهـا حيث نشأ عمر ، كمثل نشاطهم اليوم ولا ما يقاربه ، إلاَّ أن يكون من أمثـال آراء الأب لويس شيخو في كتـاب « النصرانية وآدابها » : ومقاصدُ هذا الـكتاب معروفة ، وما من أحد من أهل العلم والتوثق يرضى عن آرائه وتحقيقاته !

٥ — (ج ١ ص ٣٩ س ١٥) « طلحة بن عبد الله » خطأ مطبعي ، صوابه « طلحة بن عُبيد الله » .

٦ — (ج ١ ص ٨٠ — ٨٣) تراءت المؤلف في كلامه فيما كان بين عمر وخالد بن الوليد

وفي شأن مقتل مالك بن نويرة في حروب الردّة ، بمثل ما صنع في كتابه « الصديق أبو بكر » . وقد حققنا القول في ذلك في بحث مستوفى نشر في عدد شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف ، ورجحنا فيه بالأدلة التاريخية الصحيحة أن خالداً أمر بقتل مالك بن نويرة لإصراره على الردّة بمنع الزكاة ، وأخذ امرأته وابنها سبياً ، وأن ليس في شيء من ذلك ما يُلام عليه خالد ، لموافقته أحكام الشريعة ، وأن عمر إنما سخط على خالد أن لم يتبين وجه حجته ، وأن أبا بكر تبين معذرة خالد فبرأه ، وكان إذ ذاك ولي الأمر الذي يملك فصلَ القضاء فيه ، وقد قضى بالبراءة ، فلا يملك أحد بعده أن يشكك في قضائه أو يعيد النظر فيه ، لا أحدَ ولا عمرُ نفسُه . حتى إن متمم بن نويرة جاءه في خلافته يستعديه على خالد ، لما كان يعرف من رأيه في هذه المسألة نفسها . فقال له : « لا أردّ شيئاً صنعه أبو بكر » فقال متمم : « قد كنت تزعم أنْ لو كنتَ مكان أبي بكر أقدته به » ؟ فأجابه عمر الجواب الحازم الحاسم : لو كنتُ ذلك اليوم بمكاني لفعلتُ ، ولكني لا أردّ شيئاً أمضاه أبو بكر » .

وقد قلنا في ذلك المقال : « وما نظن عمر يفعل ما كان يريد لو كان خليفة ذلك اليوم . إنما هو يبين عن رأيه في أمر قد نظر اليه من جانب واحد ، هو جانب الاتهام . ولعله لو قد سمع الطرف الآخر ، طرفَ الدفاع ، ونظر إلى الأمر من الجانبين كما نظر إليه أبو بكر . لانتهى إلى ما انتهى إليه حكم أبي بكر . وفي مثل هذا تختلف أنظار القضاة وتختلف اجتهاد المجتهدين ، في وزن الأدلة ، وتقدير البراهين ، فإن تكون كلمة عمر وحدها حجةً على خالد ، تُثبت عليه إجراماً لم يثبت عند الحاكم ، وقد برّأه الحاكم مما نسب إليه ، وإن تكون كلمة عمر وحدها حجة على أبي بكر ، حتى يُتهم بالتهاون في شأن جرم يوجب الحدّ أو القصاص ، وبأنه كان يتزمت في تطبيق التشريع على العامة والدهماء ، ولا يتزمت في تطبيقه على النوابغ والعظماء ! ! كفعل ساسة هذا العصر ! » .

فلم يكن فعل خالد أنه تزوّج امرأة مالك بن نويرة بعد قتله زوجها وأنه بنى بها في عدّتها ، كما يصوّره المؤلف هنا وهناك ، تمسكاً بظواهر ألفاظ في بعض الروايات من غير رجوع إلى باقيها ، وما كان خالد ليأتي هذا المنكر الذي لا شك في حرمته ، والذي استحلاله خروجٌ من الاسلام ، وما كان لأحد من عامة المسلمين أن يقره عليه ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، فضلاً عن أبي بكر .

وقد حكى المؤلف هنا (ص ٨٢) رواية عن بعض المؤرخين « أن عمر كان سيّيء الرأي في خالد من قبل إسلامه ، وكان سيء الرأي فيه حياته » ثم علل ذلك تعليلاً عجيباً ! قال : « ولعلّ عمر لم ينس لخالد غزوة أحد وموقفه منها ، وانتصار المشركين على المسلمين بمهارته

فيها ، ثم مهاجمته رسول الله لولا أن وقف عمر في وجهه وصدّه عن غرضه » !! وما ظننت قط أن أحداً يقول مثل هذا القول، فان البديهي من قواعد الاسلام أن الاسلام يجب ما قبله ، وكل أصحاب رسول الله كانوا مشركين قبل أن يسلموا ، إلاّ القليل الذين كانوا صغاراً ونشؤوا على الاسلام ، وكثير من الكبار حاربوا رسول الله قبل أن يسلموا ، وكثير منهم كانوا أعداءه ، ثم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم ، لم يحقد مَن آمن منهم من قبل على مَن آمن منهم من بعد ، وكانوا إخواناً متناصرين ، لا أعداء متحاقدين . ولو كان لأحد أن يحقد على خالد ما زعمه المؤلف ، لكان أولى الناس أن يحقد عليه ذلك رسول الله ثم أبو بكر ، وينزّه الله رسوله وأبا بكر وعمر من ذلك . وهذه مداخل وددنا لو يحسن المؤلف الخروج منها أو يحجم عن ولوجها .

٧ — (ج ١ ص ٨٧) يروي المؤلف أن عمر « كان يذهب في تجارته الى العراق والى الشام واليمن فكان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكماء من أهل هذه البلاد ليزداد بالتحدث اليهم علماً منه على أن تزداد تجارته ربحاً فيصبح من الأغنياء » . وما أدري أين وجد المؤلف أن عمر « كان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكماء منهم ليزداد بالتحدث اليهم علماً » ؟ ! إني لأخشى أن يكون هذا خيالاً يصوّر به مصدر علم عمر وحكمته ، زعماً بأن العرب لم يكن فيهم حكمة إلاّ ما أخذوا عن غيرهم ! وعمر كان قويّ الفطرة العربية ثم أوتي العلم في الاسلام من الكتاب والسنة وتأسّيه برسول الله ثم بأبي بكر .

٨ — (ج ١ ص ٩١ — ٩٣) صوّر المؤلف موقف عمر أول وقت من خلافته بعد أن دُفن أبو بكر وانطلق الى داره بعد ما انتصف الليل : « ودخل مضجعه وجعل يفكر فيما يتنفس عنه الغد ، فسيبايعه المسلمون من بكرة النهار ليتولى أمورهم ، فيواجه منهم من رضي استخلافه كارهاً ، ثم يواجه الموقف الحربي الجليل الدقيق في العراق وفي الشام ، فماذا عسى أن يفعل ليتغلب على هذين الأمرين ، وهما بأعظم مكان من جلال الخطر في حياة الدولة الناشئة » ثم كتب صفحة ونصف صفحة عما كان يجول في خاطر عمر تلك الليلة !! وما أظن — وأنا رجل من المتحفظين في الرواية والنقل — أن مثل هذا العمل مما يجوز للمؤرخ ، وما يبعد أن يأتي من بعده من ينقله عنه ، ظنّاً أن هذا قد كان ، رواه الدكتور محمد باشا هيكل ! ! بل إني أومن أن هذا لا يجوز . ولقد كتبت بهامش نسختي من كتابه في هذا الموضع : « للمؤلف خيال قوي على الطريقة الاوربية ، فالمظنون الراجح في مثل هذا الموقف أن يفكر عمر فيما هو مقدم عليه . ولكن سياق الكلام الموهم أن هذا

حصل فعلاً يستدعي أن يكون هناك نقل صحيح بذلك ، أو يكون تزيداً وافتعالاً » .
وسأدع للقارىء بعد أن يحكم فيه بما يرى .

٩ — (ج ١ ص ٩١ في الحاشية) نقل المؤلف رواية عن ابن سعد أن عمر خطب في الناس خطبة بعد دفن أبي بكر . ثم ردّ هذه الرواية بأن أبا بكر دفن بعد ما جنّ الليل ، وأنه ليس طبيعياً أن يخطب عمر في القوم الذين تولوا الدفن « ثم إن أكثر الناس كانوا قد أووا الى منازلهم ، فلم يكن منهم بالمسجد في هذه الساعة الا قليلون هم أهل الصفة ، لأن المسجد لم يكن يضاء في ذلك العهد » . وهذا لون من التحقيق العلمي ! ! لا عهد لنا به . فان الجزم بأنه لم يكن في المسجد في تلك الساعة إلاّ أهل الصفة لا يكون إلاّ عن نقل صحيح ، لأنه شيء مادي لا يدرك بالعقل وحده ، ويستحيل عادةً أن يدرك بالتعليل بأن المسجد لم يكن يضاء في ذلك العهد ! والثابت في السنة والتاريخ أنهم كانوا يسهرون ويسمرون في المسجد ، وكانوا يصلون الفجر بغلس ، يعني في الظلام . والظن في مثل هذه الحال ، حال موت أبي بكر ودفنه ، أن يحضرها كثير من الصحابة ، إن لم يكونوا داخل بيت عائشة ، ففي المسجد خارج البيت . والخطبة التي روى ابن سعد (ج ٣ ق ١ ص ١٩٧) والتي يشير اليها المؤلف ، كلمة قصيرة لا تزيد على أربعة أسطر ، فليست مما يستبعد قوله في مثل هذا المقام ، وما من دليل ينفيها ، إلاّ أن في إسنادها جهالة ، اذ قول راويها حميد بن هلال: «حدّثنا من شهد وفاة أبي بكر » وهذا إسناد منقطع يراه المحدثون ضعيفاً . وما عمدنا بنقدنا الى الجزم بصحة تلك الخطبة ، وإنما أردنا أن نضع بين يدي القارىء مثالاً من أمثلة تحقيق المؤلف ورده من الروايات « ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد » !

١٠ — (ج ١ ص ٩١ في الحاشية أيضاً) عبر المؤلف عن « بيت عائشة » بكلمة « دار عائشة » وهو خطأ ، فان الدار أكبر من ذلك ، هو اسم جامع للعرصة والبناء والمحلة ، ولم تكن بيوت أزواج رسول الله تُسمى دوراً ، وانما كانوا يسمونها بيوتاً .

١١ — (ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٣) تحدّث المؤلف عما دار من جدال وحديث بين الوفد الذين أرسلهم سعد بن أبي وقاص وبين يزدجرد ، ثم نقل لنا عن بعض المستشرقين أنهم ذهبوا الى « أن هذه الروايات وضعت من بعد ، إن لم يكن في جوهرها ، فعلى الأقل في تفاصيلها» وأن المستشرقين يؤيدون نقدهم بأن المؤرخين المسلمين لا يتورّعون عن رواية أمور هي أدنى الى الخرافة ، وذكروا رواية عن رستم فيها تطير واعتقاد بالتنجيم . ثم ذهب المؤلف يرد على المستشرقين ردّاً فاتراً ضعيفاً ، حتى إذا أتى لحديث النجوم قال ما نصه : «أما القول بأن حديث النجوم أدنى الى الخرافة فذلك ما لا أتعرض للخوض فيه ، فلست

عالماً بالنجوم ، ولست أعرف لذلك مبلغ ما تهدينا اليه من علم بشؤون هذه الأرض التي نعيش عليها وما يقع من الأحداث فيها . على أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها ويحسبون أن علمها يهديهم الى ما يغيب عن غيرهم » ! وما من شك في أن التنجيم والطيرة حديث خرافة ، وأنه شيء لا يقبله العقل ، وأن الاسلام نهى عنه نهياً شديداً ، وتوعد من صدق بمثل هذه الخرافات وعيداً كبيراً . ولكن العجب الذي لا ينقضي ، أن المؤلف يأخذه الرعب من حديث النجوم فيخشى أن يتعرض للحديث فيه ، زعماً منه أنه ليس عالماً بها وبمبلغ ما تهدي اليه من علم بالأرض وأحداثها !! ثم هو ينكر كل المعجزات الكونية لرسول الله ، وكل الخوارق المنسوبة الى عمر أو أكثرها ، لا يجد في صدره من ذلك حرجاً ، ولا يتواضع فيظن بنفسه أن قد فاته علم كثير من علوم الأسانيد الاسلامية ، التي أتقنها المتقدمون وأثبتوا بها الصحيح من الأخبار ، ونفوا بها عنها ما وضع الوضاعون وما روى الضعفاء ، حتى جاءوا بالسنة بيضاء نقية . ثم هو قد وجد لنفسه عذراً فيما أحجم عنه من الكلام في النجوم أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها وأظنه يريد بذلك علماء الافرنج !! ولم يجد مثل ذلك العذر فيما أثبته علماء الاسلام من الأخبار المتواترة والأخبار الصحيحة ، وهو يعلم أنهم كلهم الا من شذ منهم ، لا يزالون يؤمنون بها ، ويعتقدون أن طرق الاثبات التي وصلت بها اليهم هي أدق طرق علمية لاثبات الأخبار والروايات ، وأن علمها يهديهم الى مايغيب عن المستشرقين وأتباعهم .

١٢ — (ج ١ ص ١٧٥) قال المؤلف في أعقاب يوم أغوات : « وكانت نساء المسلمين يعنين بالجرحى ويمرضنهم ، ويبذلن من صنوف العناية ما يرفه عنهم وما ينسيهم ألمهم » . ولسنا ننكر عليه في هذا إلا تعبيره بكلمة « الترفيه » في هذا المقام في هذا الوقت ، فان الحرب الأخيرة بين الدول أرتنا في بلادنا ، وأسمعتنا عن غير ما رأينا ، معاني منكرة لما يسمى « الترفيه » عن الجرحى والمرضى والأصحاء من الجيوش ، مما يقشعر له بدن كل ذي خلق وكل ذي دين ، وأشاعت بذلك فساداً لايدري الناس ما عواقبه . وقد جعلت هذه المنكرات لكلمة « الترفيه » معنى يبادر الى ذهن كل من سمعها ، خصوصاً من الشبان . وكنا نظن بالمؤلف ، على ما نعرف من دقته في التعبير ، أن يتجاوز عن هذه الكلمة الآن ، ويترفع عن وصف نساء الصحابة والتابعين بها ، وقد آلت في أذهان الناس الى ما آلت اليه ، على ثقتنا بأنه لم يرم الى هذا المعنى ، وهو في ذلك فوق الشبهة عندنا ، ولكنا لا نريد إلا الحذر والاحتياط .

١٣ — (ج ١ ص ١٩١) وصف المؤلف المدائن عاصمة مملكة الفرس في ذلك العهد وصفاً خيالياً ، مما قال فيه : « فقد جمعت من معاني الترف الشرقي أبهى صوره وأكثرها

وحياً لآلهة الفن وشياطين الشعر » . فما « آلهة الفن » هذه ؟ ! إني أرى كثيراً من الكاتبين في هذا العصر يصطنعون كلمات يأخذونها عن الأمم الأخرى ، يتزيدون بها ويتجملون ، يظنون أن لا بأس بها، وفيها كل البأس وكل الشر . إن تسمية « آلهة » أخرى من دون الله كلمات وثنية ، جاء الاسلام بحربها والقضاء عليها . وما تنفع المعذرة بأن مثل هذه الكلمات إنما هي ألفاظ لا تعتقد معانيها ودلالاتها ، فانما وضعت الألفاظ للدلالة ، ولا يطلع على خفايا القلوب إلا الله . ولا يجوز لأحد أن ينطق بمثل هذه الكلمات ، لا هزلاً ولا جداً ، وما أذن الله لأحد أن يقول شيئاً من ذلك (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) وما أظن أحداً يكره هؤلاء الكتاب على اتخاذ هذه الألفاظ الوثنية ، أياً كان مقصدهم منها ، أو تأولهم لدلالتها (أئفكاً آلهة دون الله تريدون) . وليعلم هؤلاء وغيرهم أن الله نعى على المشركين تسميتهم آلهة من دونه ، وما كانوا يزعمون أنهم الخالقون الرازقون ، بل كانوا يؤمنون بالله، ويشركون بآلهتهم، أنهم يدعونها ويعبدونها لتقربهم الى الله زلفى، كما حكى الله عنهم في القرآن . فمهما يتأول المتأولون في تسمية آلهة من دون الله ، فلن يبعد بهم تأولهم عن شيء لا يجوز أن يقوله من يدين بدين سماوي شرعه الله .

والمؤلف يؤلف كتابه في سيرة عمر، ويتمدح بأعمال عمر ، ويرفع من شأن عمر ، وأنا أوقن أن لو قد سمع هذه الكلمة عمر ، لكان له معه شأن أي شأن ، نسأل الله العصمة والتوفيق .

١٤ — (ج ١ ص ٢٠٥) يقول المؤلف :« وكان الناس يجتمعون بسعد في قصر كسرى، فيتحدث سعد الى ذوي العلم منهم بماضي هذه البلاد ، ويذكرون أياماً سلفت كانت فيها مقر حضارة العالم» . وهذا نقل لم أجده فيما بين يدي من المراجع . وأخشى، بل أرجح، أن يكون خيالاً لا حقيقة له ، لا يكون من عالم يتحرى الحقائق في نقله .

١٥ — (ج ١ ص ٢٥٨ — ٢٥٩) قال المؤلف : « يذهب بعض المستشرقين الى أن عمر إنما اعتذر عن الصلاة بكنيسة القيامة لما كان بها من صور وتماثيل » وقد ذهب يناقش هذا القول ، ويزعم أنه غير صحيح ، بل ذهب يجرؤ على الفتيا ، ويدعي أن الصلاة إلى الصور والتماثيل لا بأس بها ، بل ذهب يتقول على رسول الله وعلى الذين اتبعوه ، ثم على الاسلام ، بل أربى على ذلك أن كاد يبيح الوثنية صريحاً ، ينتحل قولا يشبه وحدة الوجود ، وما هو إلا مذهب ينتهي بقائليه إلى إنكار وجود الله ! ! قال ما نصه : « وما كان لمحمد والذين اتبعوه ألا يصلوا بمكان فيه صور أو تماثيل والاسلام إيمان بالله ، والأعمال فيه بالنيات، فمن صدق إيمانه وخلص لله وجهه فأينما ولى فثم

وجه الله . وإنما حطم محمد الأوثان والأصنام حول الكعبة وفي جوفها يوم فتح مكة حتى يكون بيت الله حراماً على كل دين إلاّ على الدين الذي أوحاه الله إلى نبيه بينات من الهدى والفرقان ، كي لا تذكر هذه الأصنامُ والأوثانُ أحداً بجاهليته فيثور في نفسه إليها حنين. أما الذين صفت قلوبهم لله وتطهرت نفوسهم من كل عبادة إلاّ عبادته جلّ شأنه فأولئك لا خوف عليهم أينما صلّوا ، وأولئك يرون وجه الله في كل خلقه ، جلّ ثناؤهُ وتباركت أسماؤه ! » هكذا قال ، حتى علامة التعجب وضعت في أصل الكتاب . ونعوذ بالله من حكاية هذا القول ، لولا الضرورة إلى التحذير منه ما حكيناه . وكل مسلم يعلم أنه لا تجوز الصلاة إلى التماثيل وإلى ما يوهم عبادة غير الله . والذيَ أراد أن ينفيه عن عمر قد صحّ عنه وعن غيره ، ففي صحيح البخاري (ج ١ ص ٤٤٣—٤٤٤ من فتح الباري طابعة بولاق) « قال عمر : إنا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور . وكان ابن عباس يصلي في البيعة إلاّ بيعة فيها تماثيل » . فلا موضع لما افتعله المؤلف من رد الرواية عن عمر برأيه وهواه .

ويخيّل إليّ أن للمؤلف في الوثنية رأياً خاصّاً، لا يقره عليه أحد، يرجع بها الى عهد الجاهلية وآراء الجاهلية ، وقد جاء القرآن بحربها وهدمها . فان المؤلف عاد الى مثل هذا المعنى عند الكلام على فتح مصر (ج ٢ ص ٧٩) قال : « فالتوجّه الديني أصيل في الشعب المصري بحكم طبيعته . كذلك كان شأنه في عهود الفراعنة ، وكذلك ظلّ شأنه على القرون . ولعلّ بساطة عقيدته ، مع تغير الأديان التي دان بها ، كانت ذات أثر في تمسكه بمذهبه ، فهو موحّد من أقدم العصور ، وهو على توحيده يشعر بأن الإله الخالق المنعم جلّ شأنه أعظم من أن يسمو سواد الناس الى الاتصال بذاته وإن تطهرت قلوبهم ، فلا بدّ من زلفى تقرّبهم اليه ، وتحلّهم منه محل الرضا » !! فان لم يكن هذا تمجيداً للوثنية ودعوة اليها ، نخير للناس أن يلغوا عقولهم !! وأين ما جاء به موسى من التوحيد في عصر الفراعنة ، والكفر بألوهيتهم وبما كانوا يعبدون من دون الله ؟ ! وإن الله يقول : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار) الآية ٣ من سورة الزمر، ويقول تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .

وليت المؤلف لم يتقحم مثل هذه المآزق ، أو سأل عنها من يرشده الى وجه الحق فيها ، أو اجتهد في البحث عنها في مصادرها واصطنع الأناة والحكمة في اجتهاده !! ليته ليته .

١٦ — (ج ١ ص ٢٩١ س ٩) «أمراء الأنصار» خطأ مطبعي، صوابه «أمراء الأمصار» كما هو واضح.

١٧ — يقول المؤلف (ج ١ ص ٣٠٠): «فأول ما يقضي به الايمان الصحيح ألاَّ يهاب الجندي الموت، وأن يقدم عليه مغتبطاً به، فان استشهد ففي سبيل الله وفي سبيل الوطن وفي سبيل القضية التي ينصرها». وقال أيضاً (ج ٢ ص ٢٢٠): «وما ضر أحدهم أن يقتل في سبيل الله وفي سبيل الامبراطورية الاسلامية». وهذا تعبير موهم، وفي نسبته الى «الايمان الصحيح» مغالطة، فان الاسلام لايعرف الاستشهاد إلاَّ أن يكون في سبيل الله فقط، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وأصحاب الكتب الستة عن أبي موسى الأشعري قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

١٨ — (ج ٢ ص ٤٩ — ٥١) نقل المؤلف عن الطبري قصة فتح فَساودرابجرد والطبري ذكر القصة بروايتين (ج ٥ ص ٥ — ٦) فأخذ المؤلف إحدى الروايتين وبقية الأخرى، وأعرض عن صدرها، ليتم له تأويله الذي يبغي. ففي الرواية الأولى أن عمر أُريَ في المنام خطر موقف المسلمين وأنهم إن استندوا الى الجبل انتصروا، فنادى في الناس «الصلاة جامعة» فجمعهم في الوقت الذي رآه في نومه وقتاً للوقعة وأخبرَ الناس بما أُريَ، ثم قال: «يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ» ثم أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً ولعلَّ بعضها أن يبلغهم» هذا ملخص الرواية الأولى، ساقها المؤلف مفصلة في قليل من التحرير. والرواية الأخرى: «كان عمر قد بعث ساريةَ بن زُنيم الدئِلي إلى فساودرابَجِردْ فحاصرهم، ثم إنهم تداعوا فأصحروا له وكثروه فأتوه من كل جانب، فقال عمر وهو يخطب في يوم جمعة: يا سارية بن زنيم الجبلَ الجبلَ، ولما كان ذلك اليوم وإلى جنب المسلمين جبل إن لجؤوا اليه لم يؤتوا إلاَّ من وجه واحد، فلجؤوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم فهزموهم» ثم ذكرت الرواية ما أصابوا من المغانم ومسير رسول سارية الى عمر وعوده الى البصرة، وأن أهل المدينة قد كانوا سألوه: «عن سارية وعن الفتح، وهل سمعوا شيئاً يوم الوقعة؟ فقال: نعم سمعنا «يا سارية الجبل» وقد كدنا نهلك، فلجأنا اليه ففتح الله علينا». وقد أعرض المؤلف عن هذه الرواية واقتبس منها حديث الغنيمة وما أرسل منها الى عمر وغداء رسول سارية معه، فضمه الى الرواية الأولى بنصه. ثم ذكر سؤال أهل المدينة عن سارية وعن الفتح وجوابه كأنه رواية أخرى. فهذه هي القصة التي رأى المؤلف، فيما نقلناه عنه آنفاً (رقم ٢)، أن يثبتها

من روايات الخوارق ، لأنه « تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر يدعو الى النزول على حكمهم فيها » !! وهي رواية من روايات التاريخ، إسنادها لا يكاد يصل الى الصحة ، لانقطاع في إسناديها اللذين رواها بهما الطبري ، فضلاً عن أن يتضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر ! ! ولا يبعد أن تصح فما ينكر الخوارقَ إذا صحّت إلاّ من ينكر ما وراء المادة ، ومن ينكر كل غيب لا يصل اليه حِسُّه، أو لا يأتيه خبره إلاّ عن يثق بهم من الأجانب .

١٩ — (ج ٢ ص ٥٩) ذكر المؤلف «دائرة المعارف البريطانية» باسمها الافرنجي مرسوماً بحروف عربية « الانسيكلوبيديا بريتانيكا» وماكانت به حاجة الى هذا التكلف والإغراب، فان أسماء الكتب تترجم الى ما يقابل معانيها في اللغات الأخرى غالباً. وقد ترجم هذا الاسم وعرف بين قراء العربية وهو أقرب إلى إفهامهم أن يذكر اسمها المترجم الذي عرفت به .

٢٠ — (ج ٢ ص ٨٤) تحدَّث المؤلف عن إسلام عمرو بن العاص ، فلم يجد له إماماً يقلده غير العقّـاد ، في كتابه الذي ألفه عن عمرو بن العاص في سلسلة « أعلام الإسلام » فانه زعم أن عمراً كانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية وأن مناط الرجحان في تلك النظرة الأخذ بالأحوط والأنفع ، « حتى ليكاد الأحوط والأنفع أن يكون عنده مقياساً للحق أو لصحة الأشياء » ثم ذهب يضرب على هذه النغمة ويحكي بعض الروايات يتأوَّلها عليها (ص ٢٧ — ٢٨ و ٥٧ — ٦٣) فنقل عنه سعادة المؤلف هنا مناقشة بين عمرو وبين فتى من قريش ثم قال : « ولئن صحت تلك الرواية لتكوننَّ بالغة في الدلالة على اتجاه عمرو في تفكيره ، وعلى أنه كان يؤمن بنظرية المنفعة إيماناً قويًّا » . ومعاذ الله أن نظن ذلك بأصحاب رسول الله ، وخاصة بمثل عمرو بن العاص . وقد نقض المؤلف على نفسه ما قلّد فيه العقّاد ، فصرَّح بعد بأن عمراً « بادر إلى الاسلام عن بيّنة وإيمان ، لا عن خوف ولا عن إذعان » . فما ندري لِمَ قال من قبل ما قال ، ولِمَ هذا الاضطراب ؟ !

٢١ — (ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤) نسب المؤلف لعمر أن تأسّيه بالرسول لم يُنسه أن يفرق بين الثابت على الزمان من سنته صلى الله عليه وسلم ، وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فمن المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه ، من غير أن يكون ذلك إنكاراً له ، اقتناعاً بأن رسول الله لو امتدّ به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه » . وهذه نظرية خطيرة ، لم ينسبها أحد قط لعمر ، ويبرىء الله عمر من التهمة بها، فانها ليست إلاّ مخالفةَ السنة بالرأي والهوى، وما هي إلاّ نسخُ شيء من السنة بعد وفاة رسول الله، وما قال هذا أحد قط، ولعل المؤلف رأياً يحوم حوله ، لا يكاد يصرح به . فاني أراه قال في أواخر الكتاب (ص ٣٢٢) : «حق لعمر أن يُدفن مع صاحبيه ، ليَنعم بجوارهما ، وتطمئن روحه إلى أنه سار على

سنتهما ، وأنه أتمَّ على الأرض ما قضى الله أن يَتم حين أُوحي إلى نبيه رسالة السماء . وقد أتمّ عمر هذه الرسالة » ! ! ولست أدري ، أهو يعتقد حقّاً أن عمر أتمَّ على الأرض هذه الرسالة ، أم هو يرى أن شؤون النبوّة والرسالة كبعض ما يعرف من شؤون الدولة والسلطان ، أم هو يلقي الكلام على عواهنه ، لا يلقي له بالا ؟ ! اللهمَّ غفراً .

واسمعْ — ياسيدي — بعضَ ما قال إمام الأئمة محمد بن إدريس الشافعي في وجوب اتباع سنة رسول الله على كل أحد ، وهو قولُ كافة أهل العلم : « وكلُّ ما سَنَّ فقد ألزمنا الله اتّباعَه، وجعل في اتباعه طاعتَه، وفي العُنود عن اتباعها معصيته التي لم يعذِرْ بها خلقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً » . (الفقرة ٢٩٤ من كتاب الرسالة للشافعي بتحقيقنا) . وقال أيضاً في الفقرة ٣٢٦ : « فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله انما قبلت عن الله ، فمن اتبعها فبكتاب الله تبعها . ولا نجد خبراً ألزمه الله خلقه نصّاً بيناً الا كتابه ثم سنّة نبيه . فاذا كانت السنةُ كما وصفت ، لا شبه لها من قول خلق الله ، لم يجز أن ينسخها الاَّ مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله ، لأن الله لم يجعل لآدمي بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتّباعه ، فألزمهم أمره . فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتابع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه . ومن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يقم مقام أن ينسخ شيئاً منها » . أي لا عمر ولا غير عمر ، لا أصغر من ذلك ولا أكبر . وقال أيضاً في الفقرة ٥٩٩ فيما يقع من أقوال بعض العلماء مخالفاً للسنة : « وليس ذلك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنّة فيكون له قول يخالفها ، لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل المرء ويخطىء في التأويل » . وقال أيضاً في الفقرة ٩٠٥ : « واذا ثبتَ عن رسول الله الشيء فهو اللازم لجميع من عرفه ، لا يقويه ولا يوهنه شيء غيره . بل الفرض الذي على الناس اتباعه ، ولم يجعل الله لأحد معه أمراً يخالف أمره » . وكان عمر يقضي في دية أصابع اليد بالتفريق بينها ، فجعل للابهام ١٥ من الإبل ، والتي تليها ١٠ وللوسطى ١٠ والتي تلي الخنصر ٩ وللخنصر ٦ ثم ثبت عند أهل العلم أن رسول الله قال : « وفي كل إصبع مما هنالك عشر من الإبل » فأخذوا به كلهم وتركوا قول عمر ، فقال الشافعي في ذلك في الفقرتين ١١٦٧، ١١٦٨ : « ولم يقل المسلمون قد عمل فينا عمر بخلاف هذا بين المهاجرين والأنصار ، ولم تذكروا أنتم أن عندكم خلافهُ ولا غيركم ، بل صاروا الى ما وجب عليهم ، من قبول الخبر عن رسول الله ، وترك كل عمل خالفه . ولو بلغ عمر هذا صار اليه ، إن شاء الله ، بتقواه لله ، وتأديته الواجب عليه في اتباع امر رسول الله ، وعلمه ، وبأنْ ليس لأحدٍ مع رسول الله أمرٌ ، وأن

طاعة الله في اتباع أمر رسول الله » . وسيرة عمر في السنة معروفة ، كان يجتهد فيما يعرض له ، مما ليس فيه نص كتاب ولا يعلم فيه سنة ، فاذا بلغته سنة رسول الله عدل عن رأيه ، واتّبع السنة ، بل هو كان أشدّ اتباعاً للسنة وتمسكاً بها ، في كل شأنه . وأقوى حجة في ذلك موقفه حين مقتله ، إذ يستدبر الدنيا ويستقبل الآخرة ، قال له ابنه عبد الله بن عمر : « إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لكم ، زعموا أنك غير مستخلف ، فوضع رأسه ساعة ثم رفعه فقال : إن الله عزّ وجل يحفظ دينه ، وإني إنْ لا أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وإنْ أستخلف فان أبا بكر قد استخلف . قال : فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر فعلمتُ أنه لم يكن يَعدلُ برسول الله أحداً ، وأنه غيرُ مستخلف » . وهذا حديث صحيح جداً ، رواه الامام أحمد في مسنده (ج ١ ص ٤٧) ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (ج ٢ ص ٨٠ — ٨١) وأبو داود في السنن (ج ٣ ص ٩٣ — ٩٤ من شرح عون المعبود) ورواه أيضاً البخاري مختصراً (ج ٩ ص ٨١ من الطبعة السلطانية) . فهذا عمله كما ترى في شيء سلبيّ سكوتيّ ، لم يستخلف رسول الله ، ولكنه لم يَنْهَ عن الاستخلاف ، واستخلف أبو بكر ، وهو الصاحب الأول ، والوزير الأول ، والخليفة الأول ، وهو كان أعلم برسول الله من عمر ومن غير عمر من الصحابة ، وأقرّه عمر وأقرّه المسلمون جميعاً فكان اتفاقاً منهم على أن الاستخلاف جائز غير ممنوع ، ومع ذلك فان عمر أبى إلاّ أن يتبع فعل رسول الله في ترك الاستخلاف ، وعرف ذلك منه ابنه عبد الله ، وهو أعرف الناس به ، « فوالله ما هو إلاّ أن ذكر رسول الله وأبا بكر فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله أحداً » فهذا هو عمر على حقيقته « بتقواه لله ، وتأديته الواجبَ عليه في اتباع أمر رسول الله ، وعلمه » كما وصفه الشافعيّ حقّاً ، لا على الصفة المنكرة التي اخترعها المؤلف : أنه يلعبُ بالسنة برأيه ، فيفرقُ بين الثابت على الزمن وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فيراجعه ويعيد النظر فيه ، توهّماً من المؤلف — لا اقتناعاً من عمر — « أن رسول الله لو امتدّ به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه » ! ! وهذا هو عمر التابع المطيع والخادم الأمين ، ليس كما يصوّره المؤلف ، مخالفاً كلّ نصّ وكل معقول ، أنه أتمّ على الأرض هذه الرسالة ! ! وعمر يعلم أن الله أنزل على رسوله في يوم عيد ، يوم عرفة يوم الجمعة في عرفة (اليوم أكملتُ لكم دينكم).

٢٢ — (ج ٢ ص ٢٢٢) يتحدّث المؤلف عن عمر يقول : « ولقد كان يرى نفسه مسؤولاً أمام ضميره وأمام الله » . وهذا تعبير إفرنجيّ مستحدث ، ومعنى باطل لا يعرفه

عمر ولا يعرفه الاسلام ، ، فانما الذي يدين الناس ويسألهم عن أعمالهم ، والذي يجب عليهم أن يتقوه ويخشَوْه هو الله وحده .

٢٣ — (ج ٢ ص ٢٣٦) يقول المؤلف في شأن تدوين الدواوين : « فقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتبون له الكتب والرسائل . وكانت هذه الكتب تحفظ صورها وتحفظ الردود عليها في داره بالمدينة » . وهذا نقل طريف ، لا أذكر أني رأيته أو سمعت به قط ، فعسى أن نفيد من علم المؤلف وسعة اطلاعه ، فيرشدنا إلى المصدر الذي نقله منه .

٢٤ — (ج ٢ ص ٢٤٠) في إشارته الى عبد المطلب بن هاشم قال : « وتذكر كيف أدى نذره » . وما نظن هذا التعبير دقيقاً ، فان المعروف في كلام العرب أن يقال « وفى بنذره » أو « أوفى بنذره » أو نحو ذلك .

٢٥ — تحدَّث المؤلف عن صور النكاح في الجاهليـة ، فذكر منها أن يتزوَّج الرجل امرأةً فيذرها في قومها ، ينزل عندها في رحلاته . وقد تعقبناه في ذلك في المقال الذي نشر في مجلة «الكتاب». ثم عقب المؤلف كلامه السابق بقوله:« ويذهب بعض المؤرخين الى أن هذا الزواج أصل زواج المتعة الذي أبيح في صدر الاسلام الى أن حرَّمه عمر » . ولم يكن شيء من هذا، ولم يقل أحد من المؤرخين ما قال . بل نكاح المتعة كان أحد صور النكاح في الجاهلية ، وقد أبيح في صدر الاسلام ثم نسخ وثبت الأمر على تحريمه .وليس يصح ادّعاء المؤلف أنه بقي مباحاً إلى أن حرَّمه عمر ، إلا على نظريته التي أنكرناها عليه : أن عمر كان يعيد النظر في سنة رسول الله ، وأنه أتمَّ الرسالة ! ! وأما الثابت عند أهل العلم : « أن عمر لم ينه عنه اجتهاداً ، وإنما نهى عنه مستنداً إلى نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم » كما قال الحافظ ابن حجر . وانظر فتح الباري (ج ٩ ص ١٤٣ — ١٥١) . ولم يكن عمر ولا غيره يملك أن يحرّم الحلال ، ولم يجعل الله ذلك لأحد من خلقه بعد رسول الله .

٢٦ — (ج ٢ ص ٢٥٨) استعمل المؤلف فعل « تعمق » متعدياً بنفسه وهو فعل لازم ، لا شك في ذلك ولا خلاف . وفي اللسان : عمَّق النظر في الأمور تعميقاً ، وتعمق في كلامه أي تنطَّع ، وتعمق في الأمر : تنوَّق فيه فهو متعمق » . والذي ابتدع هذا الخطأ ولهج به وأشاعه ، هو الدكتور طه حسين بك ، فقلده المؤلف وغيره من الكتَّاب ، عن غير تدبر ولا بحث .

احمد محمد شاكر

رعاية الامومة والطفولة (١)

الجهود التي تبذلها وزارة الصحة في هذه السبيل

اختص قسم رعاية الأمومة والطفولة بالاشراف على أمهات وأطفال المحافظات وعواصم المديريات ومراكزها . أما القرى فمن اختصاص مصلحة الصحة القروية .

ان الجهل والفقر وسوء المسكن وكثرة الأطفال عند الفقراء وقلة المولدات وزيادة المتعطلين والضعف الخلقي والأمراض المعدية وسوء استخدام الرضاعة وتفشي الدجل والخرافات ، أوجد جبهة مستعصية على العلاج إلا بالجهود الجبار الذي يتناسب مع خطورتها.

وهذا ما حدا بنا لشرح الجهود التي تبذلها الوزارة في سبيل رعاية الأمومة والطفولة . وتتلخص هذه الجهود في الآتي :

أولاً — منع زيادة وفيات الأطفال — هذا الموضوع متشعب كثير المشاكل من الناحيتين الصحية والثقافية متداخل بعضه في بعض عسير تفرقتها أو تجزئتها، ولا يمكن أن تنهض الناحية الصحية منفردة بهذا العبء كله دون أن تشد أزرها الناحيتان الاقتصادية والثقافية .

ويبلغ متوسط مواليد القطر في العام ٦٥٠ ألف ، ووفياته ٤٣٠ ألف منهم ٢٤٠ ألف طفل . والأطفال الذين تقل سنهم عن الخمس سنوات هم أكثر من نصف وفيات القطر عامة بحيث يمكن اعتبار مشكلتهم وحدها بمثابة نصف المشاكل الصحية والاجتماعية التي يجب العناية بها في هذه البلاد .

وهذه الوفيات على كثرتها لا تدل على سلامة الباقين بل تشير الى تفشي الأمراض بينهم لأن الأطفال المرضى لا يمكن أن ينتج عنهم غير شعب سقيم .

وعلاج هذه المشكلة القومية يتلخص في : —

١ — تعميم مراكز رعاية الأمومة والطفولة بمعدل مركز لكل ١٥ الف من السكان

٢ — زيادة المراقبة على أعمال الدايات ورفع مستواهن الثقافي

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور حسن كمال بك مدير رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة صباح ١٧ - ١١ - ١٩٤٥ بدار الحكمة في المؤتمر الطبي هذا العام

٣ — تخريج أكبر عدد ممكن من مساعدات المولدات الزائرات الصحيات
٤ — العناية باللقطاء
٥ — سن تشريع لحماية الأطفال من الاهمال أو تشغيلهم في سن مبكر أو سوء تغذيتهم
٦ — انشاء دور كفالة للعناية بالأطفال أبناء العاملات او البائعات أو الخادمات أو غيرهنَّ ممن يتحتم عليهنَّ بحكم مهنتهنَّ ترك أطفالهنَّ.

ثانياً — رفع المستوى الصحي والاجتماعي لاخراج جيل سليم قوي

ان بعض الأمراض الاجتماعية تنتقل بالوراثة كالزهري وبعضها عن طريق البيئة كالدرن الرئوي وهـذه الأمراض خطرة فتاكة تذبل أبناء الأمة وتضعف أجسامهم وعقولهم وتقتل الأجنة وتقصر الأجل وتحدث التشوّهات والشلل والجنون — وقد هبطت نسبة الاصابات بالزهري ببعض مراكز رعاية الأمومة والطفولة من ١٦ في المائة إلى ٣ في المائة نتيجـة علاجهنَّ بها .

ومما لاريب فيه أن للزهري دخلاً كبيراً في ارتفاع نسبة الوفيات في المملـكة المصرية . وقد بلغت نسبة حوادث الاجهاض بين الحوامل بالزهري في إحدى عيادات الأمراض الجلدية بالقاهرة حديثاً ٤١ في المائة . ونسبة الأطفال المولودين موتى ٢٦ في المائة . ونسبة الأطفال الذين يعالجون من زهري وراثي ٢٤ في المائة . اما السيلان فخطره يظهر جليًّا في أنه كثيراً ما يسبب العقم لدى البالغين والعمى عند الأطفال حديثي الولادة — أما السل فرض عائلي غالباً وقدّر عدد المسلولين بالمملـكة المصرية بربع مليون مصاب يموت عشرهم سنويًّا. والأمراض العقلية تنتقل بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد .

كل هذه الأمراض تنتقل كما ذكرنا بالوراثة أو بالبيئة أي أنها أمراض عائلية يمكن ايقافها بل ومنعها بمعرفة مراكز رعاية الأمومة والطفولة إذا اكتملت عدة وعدداً . وقد تكون تلك المراكز السلاح الأسـاسي لذلك فيليها أهمية مكاتب الـكشف على الراغبين في الزواج ومراكز علاج الامراض السرية .

فقد بلغ تعداد حالات الزهري الوراثي التي عالجها قسم رعاية الأمومة والطفولة بمراكزه عام ١٩٤٤ ، ٩٣٤٧ ، وحالات الأمراض الجلدية ٨٨٦٧٥ ، وعينـات الدم للفحص بطريقـة وازرمان ٤٥٦٢٢ ، وعدد من تمّ علاجهم ضد الزهري من الأطفال ١٤١٨ وهو مجهود عظيم، ضئيل بالنسبة لحالة البلد الصحية .

ويتطلب الحمل عند الأمهات عناية كبيرة حتى يقلل من مضاعفات الولادة لدرجة محسوسة. وهـذه العناية من أعظم الأعمـال التي تقوم بها مراكز رعاية الأمومة والطفولة بالقطر .

ويكفي أن نذكر هنا أن تعداد الحوامل القديمة اللاتي ترددن على مراكز رعاية الطفل سنة ١٩٤٤ بلغ ٣٦٩٥١٩ كما بلغ تعداد الحوامل الجديدة ٩٥٩٦٢ .

وتشمل العناية بالوالدات أثناء الوضع مكاناً كبيراً من اهتمام القسم فقد بلغ تعداد الولادات التي قامت بها مراكز رعاية الطفل سنة ١٩٤٤ — ٨٣٢١٥ كما بلغت تعداد الولادات التي أحيلت على المستشفيات بمعرفة تلك المراكز ١٥٢٧ ولادة .

وهذه الأعداد على ضخامتها لا تزال ضئيلة بالنسبة لما يجب أن تكون عليه إذا ما عممت مراكز رعاية الطفل بأنحاء المملكة على أساس مركز لكل ١٥ الف نسمة على الأقل ، ذلك لأن تعداد الاهالي المطلوب من قسم رعاية الطفل الاشراف عليهم هو ٢٠٠ر٨٥٢ر٤ نسمة ، متوسط الولادات سنوياً بينهم هو ٩٤٠ر١٨٩ .

وبمناسبة النجاح الذي أسفرت عنه التجربة التي عملت بمراكز رعاية الطفل الحالية من ايجاد بعض أسرّة بها مستعدة لاستقبال من يأتيهنّ المخاض أثناء زيارتهنّ للمراكز أو الحاملات الفقيرات ، أو من ليس لهنّ عائل يرعى شئونهنّ أو من يحضرنَ من جهات نائية وتتطلب حالتهنّ الملاحظة أثناء الولادة والنفاس ، أو من كانت منازلهنّ لاتليق صحيًّا للولادة بها . بدأت الوزارة تعمم الأقسام الداخلية بالمراكز وذلك بايجاد ستة أسرّة للولادة على الأقل ولو بالمراكز الرئيسية لتستطيع اداء هذه الرسالة ولتكون نماذج عملية للحوامل والأمهات .

أما رعاية الطفل بعد الولادة فقائمة على القواعد الصحية العلمية وأصبحت نتائجها ملموسة فقلت نسبة وفيات الأطفال في البلاد التي تقوم بالخدمة فيها مراكز رعاية الطفل والمنتظر تعميم تلك المراكز بالقطر فتقل هذه النسبة تدريجيًّا كما يزداد تعداد السكان بنفس النسبة العكسية .

وقد أدخلت على المراكز المذكورة أعمال ساعدت على تحقيق هذه الأمنية الى حدٍّ كبير . إذ لا يخفى أن اللبن المجفف ومنع توالد الذباب وتحسين المسكن وتوفير الكساء كلها عوامل أساسية في الاقلال من الوفيات — فعن اللبن المجفف تقوم مراكز رعاية الطفل بتوزيعه على الأخص في أشهر الصيف منعاً من تلوث أغذية الطفل وقتئذ .

وفوق ذلك فان الوزارة توزع ٧ كيلو لبناً حليباً مغليًّا يوميًّا في كل مركز على الأمهات والأطفال الضعفاء من سوء التغذية فقلت مقاومتهم للأمراض . وقد أتت هذه العملية بتحسن واضح من حيث الوزن والصحة العامة إلاَّ أن الكمية المنصرفة يجب مضاعفتها تمشياً مع حالة الفقر المتفشية وهو ما وعدت الوزارة به .

ولما كان الملبس المناسب ضروري للأطفال لأنه يقيهم شر البرد ويمنع عنهم الالتهابات

الرئوية فان الوزارة توزع في بعض المناسبات السعيدة كأعياد حضرة صاحب الجلالة الملك وسمو الأميرة فريال بعضاً من هذا الكساء لمن يستحقونه . وهذا القدر يجب أن يزاد كثيراً حتى تتمكن المراكز من سد هـذا النقص لطبقة الأطفال الفقيرة جداً ، عراة الأجسام خماص البطون .

وأما الكساح المنتشر بين الأطفال فيعالج بشتى الوسائل كالأشعة فوق البنفسجية . وقد أنشأت الوزارة بضع أجهزة لهذا الغرض على ان تعمم مستقبلا في جميع المراكز .

وتساهم مراكز رعاية الطفل في موضوع تحسين المسكن بالارشاد والنصيحة . والثابت ان عدم وجود المنافذ الكافية وازدحام المساكن المتلاصقة وضيق قاعاتها القذرة التي لا تتخللها أشعة الشمس بل وضوء النهار فضلاً عما يحيطها من سماد وبرك ، كل هـذه أسباب تعرض الطفل الى شتى الأمراض المعدية المعروفة .

أما ناحية التحصن ضـد الأمراض فان رعاية الأمومة والطفولة سائرة سيراً حسناً من حيث التطعيم ضد الجدري والتحصين ضد الدفتريا وغيرها من الأمراض المعدية الأخرى كلما دعت الظروف .

وقد بلغ عدد من تطعم ضد الجدري في عام ١٩٤٤ — ٢٤٨٧٠ طفلاً .ومن تطعم ضد الدفتريا ٢٠٦٢٤ طفلاً . والمجهود لا بأس به وهو يساعد على منع انتشار الأوبئة.

وهناك مشاريع صحية اجتماعية تساعد على إخراج جيل سليم قوي هي محل عناية وزارة الصحة تتلخص فيما يلي : —

أولاً — ناحية الأم

١ — الاكثار من تعميم مراكز رعاية الأمومة والطفولة حتى تتمكن كل حامل من الحصول على داية مثقفة أو مساعدة مولدة لتوليدها .

٢ — العمل على امكان الحصول على مساعدة طبيب اخصائي للفحص وقت الحمل وتوجيه الحالة التي تتطلبها في الوضع والنفاس .

٣ — توفير أسرّة للولادة بمراكز رعاية الطفل .

٤ — الاستعانة بمستشفى ولادة مجاور .

٥ — الاستعانة بالمعامل وأجهزة الأشعة وغير ذلك كلما اقتضت ظروف الحمل .

٦ — اعطاء أغذية مناسبة للحوامل بالمصانع ومنحهن الاجازة الكافية قبل الولادة وبعدها

فالمطلوب الآن جيل لا يملأ مستشفيات ولا تفترسه أمراض ، بل جيل يقاوم المرض . جيل نشيط . جيل كامل من كل وجهة .

ثانياً — وهناك فوق ما ذكر وجهات أخرى اصلاحية لرعاية الطفل تتلخص فيما يلي : —

١ — مكاتب الكشف على الراغبين في الزواج . ٢ — مشاريع لتحسين صحة الأطفال الفقراء كالمصحات الوقائية . ٣ — انشاء مدارس للشواذ . ٤ — السعي في الاكثار من متنزهات الأطفال . ٥ — استصدار قوانين لحماية الأطفال كقانون سلب الولاية . ٦ — الاكثار من دور الحضانة بجوار المصانع . ٧ — انشاء المصايف المجانية على سواحل البحر في فصل الصيف ترحل اليها على دفعات الأطفال والأمهات من مترددات مراكز رعاية الطفل ممن هم أكثر حاجة اليها بطريق المجان وعلى نفقة الحكومة في الانتقال والاقامة .

ثالثاً — مشتملات مركز رعاية طفل جديث : يفضل القسم أن تقوم وزارة الصحة ببناء مراكز رعاية الطفل على نفقتها حتى تصبح كلها حكومية ومنشأة على النمط الصحي السليم

وفيما يلي بيان بوظائف مركز رعاية طفل حديث :

١ — طبيب أول درجة خامسة	٦ مساعدات مولدات زائرات
١ — طبيب ثان درجة سادسة	ساعي
١ — صيدلي درجة سادسة فرعية	بواب
١ — كاتبة درجة ثامنة فرعية	غسالة
٢ — مولدة درجة سابعة فرعية	٦ ممرضات

ويشترط ان يكون بكل مركز جهاز للاشعة فوق بنفسجية ومعارض للاطفال (أغذية ملابس حمامات — ... الخ) وغرفة محاضرات تحوي جهازاً سينمائياً لعرض الأفلام الثقافية وحديقة صغيرة للاطفال ويلحق بكل مركز حمامات ومغاسل المترددات وأطفالهن .

رابعاً — رفع المستوى الثقافي بين المساعدات والدايات : تعني الوزارة الآن بهذه الناحية وهي تبحث موضوع تتبع مدارس التوليد والتمريض المختلفة بالوزارة الى معهد واحد على غرار المعهد الصحي لتخريج موظفات لشغل وظائف التوليد والتمريض المختلفة بأقسام الوزارة التي تعمل بها هذه الفئات وهي (الصحة القروية — الأمراض العقلية — المستشفات رعاية الطفل — مستشفيات الحميات — صحة مصر — الأمراض الصدرية — الأمراض التناسلية — الرمد)

ووضع برنامج موحد شامل ولائحة لتنظيم الدراسة بالمعهد المقترح انشاؤه

٧ — ارسال مساعدات لخدمة النوافس في منازلهن بضع ساعات يومياً في الغسيل والطهي بدون أجر على حساب المركز (هو مقيد للمساعدات المنزلية)

٨ — الاحتفاظ بقائمة من الأمهات المترددات اللواتي فقدن أطفالهن ويرغبن في

الإرضاع بأجر ليتمكن الجمهور من الاستعانة بهن كمرضعات عند الحاجة

ثانياً: الطفل — لا تتوفر رعاية الطفل في أمة الا بتوفر الشروط الآتية أو قل الوصايا الاثني عشرة أو قانون رعاية مطفل

١ — يجب أن يولد الطفل ولادة طبيعية خالياً من مرض وراثي

٢ — يجب أن يتوفر للطفل بيئة صالحة ووسط مرح وسرور

٣ — يجب أن يخصص للطفل جزء من ايراد والده ووالدته

٤ — يجب أن يعنى بالأم قبل الوضع وبعده من الوجهتين الطبية والاجتماعية

٥ — يجب أن تساعد الأم وتفضل على غيرها في العلاج في المستشفيات

٦ — يجب أن تكرّس الأم عنايتها لطفلها لمدة ثلاث سنوات على الأقل

٧ — يشترط في غذاء الطفل أن يكون كافياً

٨ — يجب أن يوضع الطفل تحت ملاحظة طبية دورية

٩ — يجب أن تتوفر للاطفال دور كفالة لمن تضطر أمهاتهم أن تتركهم وحدهم حصّة من اليوم، ذلك للاطفال الذين يقل عمرهم عن الثلاث سنوات

١٠ — يجب أن تتوفر ملاجيء لايواء الأطفال الذين يزيد سنهم عن الثلاث سنوات مدة مرض أمهاتهم أو فقد من يعولهم

١١ — يجب انشاء مدارس لتعليم الأمهات العناية بالأطفال، أو على الأقل يجب تدريس ذلك بالمدارس الحالية

١٢ — يجب العناية بالمراضع والتأكد من خلوهن من أمراض معدية أو أمراض أخرى تؤثر على الطفل أو على تربيته وان يكون لبنها موافقاً للطفل الرضيع وغير ذلك حتى يكفل للطفل الغذاء والصحة والراحة. وان لا يسمح لمرضعة أن ترضع طفلاً إلاّ بعد أخذ تصريح بذلك

ومن هذا يتضح أن أهم العوامل في انشاء جيل جديد سليم هو العناية بالعائلة والمنزل. فأساس سعادة الأمة هو سعادة العائلة، واستتباب وسائل الراحة بالمنزل. وهذه الوصايا الاثني عشرة ليست كلها طبية بل بعضها اجتماعية. ومن هنا يستنتج أن أهم ما تعني به الأمم الراقية هو الناحية الاجتماعية. أما الناحية العلاجية كانشاء المستشفيات والعيادات الخارجية فطريقة ترقيع واسعاف لأطالة عمر يقصّره المرض أو الضعف. ونحن الآن لا نريد ترقيعاً بل نريد انتاجاً سليماً من الأساس. نريد صحة تامة ولا نريد أمراضاً تهدر كياننا وآلاماً تحرمنا لذة العمل والكد والحياة ونستعين على تحملها بالعقاقير والمستشفيات

ولا يخفى على حضراتكم ان رعاية الأمومة والطفولة تجارة رابحة فهي أنجع وسيلة لاخراج جيل سليم، ومتى صلح الأصل سهلت مقاومته للامراض، وقلت اصابته. فتتوافر الأيدي العاملة، ويكثر بالتالي الانتاج المثمر في شفاء المرضى وخصوصاً المصابين بأمراض مزمنة. وقد أثبتت المباحث الحديثة أن مسماع الطبيب ومشرط الجراح هما آخر وسيلة للعلاج، وأن هناك وسائل كثيرة ومشروعات صحية أخرى أهمها رعاية الأمومة والطفولة إذا أعطيت شيئاً من العناية منعت كثيراً من المرض والبؤس وجلبت للوطن خيراً هو في أشد الحاجة إليه منذ آلاف السنين

الدكتور حسن كمال

مدير قسم رعاية الامومة والطفولة

الاشتراكية

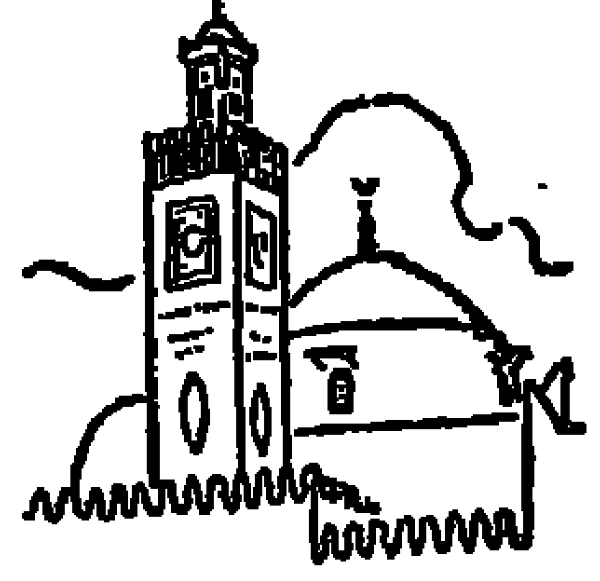
لا أعلم لماذا ينفر الكتاب والخطباء من كلمة «الاشتراكية» ويعدلون عنها الى عبارة «العدالة الاجتماعية»، مع أن الاشتراكية فيها المعنى الحرفي لقوله تعالى «والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» وعبارة العدالة الاجتماعية فضلا عن خطئها لغوياً، اذ ليس في اللغة «عدالة» وانما فيها «عدل»، فانها فوق ذلك تحمل من المعاني أوسع أنواع الاشتراك وأبعد المبادىء تطرفاً في المساواة.

والعدل الاجتماعي

معنى العدل في القانون معنى مطلق، ولا يفرق بين درجاته على ما يفهمها التقدير العقلي الا كفاية الناس على ادراك ما تقتضيه اقامة العدل من الاعتبارات في مختلف الظروف. فالعدل في معناه الحقيقي مطلق، وفي تطبيقه نسبي. وما نأنس في تطبيق القوانين من معنى العدل، لايتجاوز في الحقيقة المدى المدرك من «الانصاف»، ذلك بأن الانصاف خاص، يفرق بين قيم الحقوق في كل حادث بعينه. أما «العدل» فعام مطلق، بل ان فيه طعماً تجريدياً يدخله في دنيا البعديطبعيات.

من حقنا أن نأخذ في مثل هذه الاحوال بما كان يقول كونفوشيوس حكيم الصين، اذ انه درب تلاميذه ومريديه على ضبط المعنى اللفظي قبل المناقشة، فكان يقول لهم «حددوا المصطلحات». وان ما نرى من خلاف بين الناس وتنازع بين الاحزاب وتجالد بين الطبقات، اكثره راجع الى التعميم الواسع في معنى المصطلحات، وعدم تحديد معانيها

المحرر



المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق – ٢

الخطآن الرابع والخامس

تحقيق أمر « مسجد الخاتونية » الذي عناه ابن كنان ومسجد تربة الخاتون بالجبل » الذي ذكره ابن شداد

بعد أن فرغنا من اثبات أن مسجد الخاتونية البرانيـة لا موضع له بين زاوية الفرنثي والمدرسة المرشدية . وأنه ليس المدرسة الأتابكية . وحققنا أمر المدرسة الخاتونية البرانية التي أشار العلوي إلى أن سيباي كافل دمشق نقل رخامها إلى مدرسته بباب الجابيـة ، وقلنا انها كانت تقع بالشرف القبلي جنوبي بردي ولا علاقة لها بجبل الصالحية ، نتقدم الآن للتعريف بمسجد الخاتونيـة الذي نقل الأستاذ أسعد عن ابن كنان « إنه كان فيـه درس حديث في الأشهر الثلاثة وأن آخر من درس فيـه . القاضي حسن بن العدوى الصالحي » لأن هـذا المسجد كما سيتضح هو أيضاً غير هذه المعاهد جميعاً ولا علاقة له بها .

وكذلك سنحقق أمر مسجد تربة الخاتون بالجبل الذي ذكره ابن شداد وابن عبدالهادي وسنثبت أنه ليس المدرسة الأتابكية ولا المدرسة التي أشار إليها العلوي وإنما هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين الأيوبي .

* * *

نجد واجباً علينا ونحن ندرس مؤسسة أنشأتها خاتون أي سيدة في مدينة كدمشق بها كثير من المعاهد التي بنتها الخواتين أي السيدات والتي يسمى كل منها باسم الخاتونيـة أن نحدد ما يريد ابن كنان عند ذكره « مسجد الخاتونية » .

والطريقة المثلى لذلك هي أن نتعقب ابن كنـان في جميع تضاعيف كتـابه « المروج السندسية » وأن نتأكد تماماً وبدون أدنى شك موقع وتاريخ « مسجد الخاتونيـة » الذي ذكره : — .

---

(١) ظهر الجزء الاول من هذا البحث في مقتطف نوفبر الماضي

أولاً — يقول ابن كنان في ص ٢٨ من كتابه « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » مخطوط دار الكتب الملكية بالقاهرة (ومنه نسخة مصورة بالمجمع العلمي العربي بدمشق هي التي اعتمدنا عليها) جامع الخاتونية : « وفيه درس حديث في الأشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوى الصالحي »

ثانياً — ويقول في ص ٢٩ عند تعداده مساجد الصالحية. « مسجد في سوق شعيب ... ومسجد في زقاق الأسد في سوق شعيب ومسجد الشركسية . . . ومسجد عند مطهرة الخاتونية وآخر قبليه وآخر في حارة المقدم على الطريق السلطاني مقابل قناة العين .. الخ

ثالثاً — ويقول في ص ٣٠ عند ذكره مآذن الصالحية .

« قال ابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية . . ومن مآذنها (أي الصالحية) . . (بالمدرسة) المرشدية واحدة و (بالمدرسة) الأتابكية واحدة . . . و (بالمدرسة) الماردانية واحدة . . وعند الخاتونية واحدة . . . انتهى كلامه أقول (أي ابن كنان يقول) والسليمية (أي جامع محي الدين) واحدة والموجود منها بعد الألف . . . الخاتونية والماردانية ... والأتابكية والمرشدية ....أدركتها . . الخ

رابعاً : ويقول بصحيفة ٧٥ من المخطوط « ... وأما العمائر الآن في الصالحية فمن حد السكة الى الصالحية بها خمس خطب : المظفر ، والسليمية ، والحاجبية ، والخاتون ، والماردانية .. »

خامساً : ويقول في ص ٩٤ — ٩٥ عند افتخاره بالصالحية وبراعة أهلها في الصناعات والفنون بحيث لا يلحقهم فيها أحد :

« ... وقول الناس في المثل سابق الصالحية لا يلحق . لأن المجرب فيها كذلك ... فأما العلماء فالأجلاء كانت بها والحفاظ والصلحاء والعباد والرؤساء واصحاب الشرف . وفي الصناعة ان بجامع الخاتونية سدة مدهونة عمل رجل دهان من الصالحية فعجز أرباب هذه الحرفة عن أن يماثلوها ... وكذلك بقية الصناعات حتى المصارعين والبهلوانية والحلوانية والخطاطين وأصحاب الأصوات الجميلة حتى لقد سافر أحدهم الى مصر فسمعت صوته جارية فرمت بنفسها من الربع ... ومن قول الناس في المثل : سابق الصالحية لا يلحق لأن المجرب فيها كذلك . اه . ويستنتج من ذلك الحقائق التالية :

١ — ان مسجد الخاتونية كان به درس حديث في ثلاثة أشهر من السنة

٢ — انه يقع بالقرب من المدرسة الجهاركسية (المعروفة بالشركسية) ومن حارة المقدم

٣ — انه كانت به مأذنة في عهد ابن عبد الهادي واستمرت الى ما بعد سنة الف هجرية

٤ — انه كان أحد المساجد الجامعة الكبيرة بالصالحية وكانت به خطبة.

٥ — انه كانت به سدة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هـذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها .

ولنبدأ الآن في دراسة هذه الحقائق لنصل الى التعريف الدقيق بمسجد الخاتونية الذي عناه ابن كنان فنقول :

أولاً : اثبات ان مسجد الخاتونية هذا هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون المعروف بالمسجد الجديد .

١ — يقول النعيمي في باب الترب بالجزء الثاني من كتابه الدارس ص ٤٥٠ — ٤٥١ ما نصه في الفصل الخاص بالتربة الخاتونية :

« هي على نهر يزيد بصالحية دمشق قبلي المدرسة الجهاركسية وهي تربة عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين تزوجت نور الدين ثم صلاح الدين (الأيوبي) وأوقفت المدرسة التي بدمشق للحنفية وقد مرت ترجمتها فيها والخانقاه التي عند جامع تنكز انشأتها سنة سبع وسبعين وخمسماية (٥٧٧ هـ) كما هو مكتوب على الشباك المطل على الطريق .

وقد وسع هـذه التربة وجعلها جامعاً يعرف الآن بالجامع الجديد وأقيمت فيه الجمعة الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسين العقيري التاجر وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي بن التدمري وذلك في شهور سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩) غفر الله تعالى له ولهم آمين .

ثم أنشأ الخواجا أبو بكر بن العيني تربة له شمالي هذه (التربة) يسلك اليها من بابين أحدهما من الجامع المذكور وتجاههما ايوان بمحراب وأضافه الى الجامع المذكور، ثم أوقف عليها ولده شيخ الاسلام زين الدين عبد الرحمن بن العيني أوقافاً ورتب في الايوان المذكور مدرساً وعشرة من الفقهاء ووقتا في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا حنفية وأوقف كتبه عليها » اه كلام النعيمي .

ويقول العلموي في كتابه مختصر الدارس مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في فصل التربة الخاتونية صحيفة ١٢٨ بعد أن يلخص ما ذكره النعيمي :

« ... ثم في سنة خمس وسبعين وتسعمائة (٩٧٥ هـ) ألهم الله تعالى عبده الصالح محمد ابن محمد المترح أن يوسع هذا الجامع فاجتهد في توسيعه من جهة الغرب ووسعه بقدر مرتين بعد أن كان ضيقاً فصار جامعاً واسعاً تصلى فيه الصلوات والعبادات والتلاوات آناء الليل وأطراف النهار وأزال الحائط الغربي وجعل في هذا الذي جدده محراباً ثانياً ورتب اماماً ووقف عليه وقفاً وأنفق عليه من ماله وساعده بعض أهل الخير تقبل الله منه ومن كل من يفعل الخير » اه .

٢ — يقول النعيمي أيضاً بباب المساجد بصحيفة ٥٦٠ ج ٢ .. عن ابن شداد و« مسجد تربة خاتون على نهر يزيد ».

فهنا يصرح ابن شداد بأن مسجد تربة الخاتون الذي نقله عنه ابن عبد الهادي بص ١٣٠ هو الواقع على نهر يزيد وهو قطعاً مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين المتوفاة سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر لنا بصفة مؤكدة انه كان يعرف باسم «مسجد تربة الخاتون» حتى عهد ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ. ثم وسع وجعل جامعاً كبيراً بخطبة وتقام فيه الجمعة في سنة ٧٠٩ هـ . والسبب في هذه العمارة كما نرى ما حدث فيه من التشعيث والتخريب بسبب ما أوقعه التتار وصاحب سيس من النهب في الصالحية في ٦٩٩هـ.

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٩ هـ مجلد ١٤ ص ٨ من كتابه البداية والنهاية. «وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام وذهب اليه الأعيان فهنئوه بذلك . . . وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية بها (أي بالصالحية لوجود دار حديث أخرى أشرفية بدمشق شرقي القلعة بالعصرونية) واحترق جامع التوبة بالعقيبة الخ». اهـ .

فبعد هذه العمارة التي جدد فيها المسجد ووسع وجعل جامعاً كبيراً بخطبة تقوم فيه الجمعة بدأ الناس يسمونه « الجامع الجديد » بجانب تسميته القديمة «مسجد الخاتون» . لذلك نجد ابن عبد الهادي يسميه الجامع الجديد ويذكره في كتابه بهذا الاسم فيقول في ص ١٥٩ : « فصل في ذكر المساجد المختصة : غالب مساجد الصالحية للحنابلة الا جامع الشبلية والجامع الجديد» الخ . و ص ١٥٥ : « المحلة الثانية والعشرون من محلات الصالحيـة :

حارة الدلامية وحمام المقدم : ..... المسجد السادس بالجامع الجديد» . ولكنه حين ينقل اسمه عن ابن شداد يسميه «مسجد تربة الخاتون» (ص ١٣٠) وقد علمنا فيما سبق أنه بعد هذه العمارة أنشئت تربة العيني وأضيفت إليه وجعل فيها الدرس والمكتبة ثم وسع الجامع بعد ذلك بقدر مرتين في سنة ٩٧٥ هـ . ولما كان ابن عبد الهادي قد ألف كتابه هذا في اواخر القرن التاسع الهجري وتوفى سنة ٩٠٩ أي قبل توسيع الجامع بحجمه الكبير بنحو ٦٦ سنة فقد ثبت لدينا أن هـذه التسمية كانت معروفة وذائعة قبـل عصر ابن عبد الهادي . فاذا أضفنا إلى ذلك أن النعيمي مؤرخ لاحق لابن عبد الهادى توفى سنة ٩٢٧ هـ وعرفنا أنه كان يعلم التسميتين للمسجد وأنه أشار إليه في باب المساجد ثم ترجم له في باب الترب في فصل

تربة عصمة الدين خاتون . وان اللوحة التذكارية المنقوش عليها اسم البانية وتاريخ انشاء التربة سنة ٥٧٧ هـ لا تزال موجودة في موضعها بالواجهة الشرقية للجامع كما شاهدها النعيمي . فلا يكون هناك إذن أي شك في أن مسجد الخاتونية الذي ذكره ابن كنان وكان به درس الحديث في الأشهر الثلاثة هو المسجد الجديد هذا وهو نفسه الذي يسميه ابن شداد « مسجد تربة الخاتون في كتاب المساجد بص ١٣٠ وموقعه جنوب الجهاركسية (المعروفة محلياً باسم الشركسية أو الجركسية) بحارة المقدم والدلامية قرب الطرف الشمالي للزقاق الآخذ من الجسر الأبيض إلى الجهاركسية .

ثانياً : يشير ابن كنان في ص ٢٩ عند ذكره مساجد الصالحية إلى مسجد الخاتونية في المنطقة الواقعة بين الجهاركسية وحارة المقدم .

وقد ثبت لدينا مما ذكرناه آنفاً أن مسجد الخاتونية هذا هو الجامع الجديد ولا يوجد في هذه المنطقة (بين الجهاركسية وحارة المقدم) مسجد آخر يمكن أن تنطبق عليه هذه التسمية سواه علاوة على أن اللوحتين التذكاريتين اللتين تثبت احداهما بناء تربة عصمة الدين خاتون سنة ٥٧٧ هـ وعمارة المسجد سنة ٧٠٩ هـ لا تزالان موجودتين احداهما بالواجهة الشرقية للحرم والثانية على عتب المدخل . ولا ندري لماذا حرص ابن كنان على عدم ذكر اسم الجامع الجديد مع ان المؤرخين الذين سبقوه من أمثال ابن عبد الهادي والنعيمي والعلاوي قد عنوا بالاشارة إليه . والظاهر لنا أن هاتين التسميتين قد عاشت كل منهما مع الأخرى ولم يكتب لاحداهما الغلب فظلتا مشهورتين ومعروفتين حتى الوقت الحاضر . ودليلنا على ذلك ان أهل الصالحية يسمون هذا المسجد تارة مسجد الخاتون وأخرى بالمسجد الجديد .

واننا اطلعنا على كشف بيان الأماكن الأثرية في مدينة دمشق المصنفة وفقاً للقرار رقم ١٦٦ ل ر المؤرخ في ٧ تشرين الثاني (أي نوفبر) سنة ١٩٣٣ فوجدنا به ما يلي :—

«الجوامع ... وجامع الخاتونية (بحي) الشركسية» أي ان دائرة أوقاف دمشق تأخذ حتى عصرنا هذا بالاسم القديم لهذا المسجد مع تسميته الشائعة المتداولة وهي « المسجد الجديد »

ثالثاً : ينقل ابن كنان عن ابن عبد الهادي ان مسجد الخاتونية هذا كانت له مأذنة ويقول ابن كنان ان هذه المأذنة استمرت الى ما بعد سنة الف هجرية .

ويستنتج من ذلك ان المأذنة التي يشير اليها كانت موجودة في أواخر القرن التاسع الهجري أي أنها ترجع قطعاً الى عمارة سنة ٧٠٩ هـ لأن ابن عبد الهادي الذي روى هذا توفي سنة ٩٠٩ هـ أي قبل العمارة الكبرى الثانية التي حدثت سنة ٩٧٥ هـ لأن هذا المسجد كما ذكرنا مرّ في ثلاثة أدوار معمارية هامة :

الدور الأول : انشاؤه سنة ٥٧٧ هـ

الدور الثاني : اصلاحه وتوسيعه في سنة ٧٠٩ هـ

الدور الثالث : توسيعه في سنة ٩٧٥ هـ

وقد قلنا ان مسجد الخاتونية هو الجامع الجديد . ولو كان ابن كنان يقصد مسجداً آخر لما ذكر مساجد الخواتين الأخريات التي فيها مآذن بأسمائها المشهورة . وقد ذكر منها صراحة مسجد الماردانية وهو الى الجنوب عند الجسر الأبيض والأتابكية والمرشدية بجادة بين المدارس إلى الغرب وليس في هذه المنطقة مساجد خواتين أخريات ذوات مآذن يمكن أن تضاف إلى هذه المساجد سوى مسجد تربة الخاتون العصمية (عصمة الدين خاتون) بالجامع الجديد .

رابعاً : إن هذا المسجد كان في عهد ابن كنان من المساجد الخمسة العظيمة الموجودة في المنطقة المحصورة «من حد السكة إلى الصالحيـة » والتي بكل منها خطبة . وهذه المساجد الخمس هي

جامع المظفر — أي جامع الحنابلة المعروف بجامع الجبل .

جامع السليمية — المعروف بجامع محي الدين ابن عربي .

جامع الحاجبية — وقد زالت عينه من الصالحية ولا أثر له الآن .

جامع الخاتون — وهو الجامع الجديد .

جامع الماردانية — وهو جامع المدرسة الماردانية المسمى بجامع الجسر الأبيض ولا تزال حتى الوقت الحاضر هذه الجوامع موجودة عدا جامع الحاجبية فقد قلنا إنه زالت عينه وكان موضعه مقابل حمام الحاجب جنوب غربي المدرسة العمرية . ولا يوجد في المنطقة المحصورة بين جامع الحنابلة من الشرق وشارع سكة المدارس من الغرب والجسر الأبيض من الجنوب جوامع أكبر من هـذه من حيث العظمة والاتساع وإن كانت المدرسة الماردانية مبنيـة على طراز المدارس لا على طراز المساجد الجامعة الكبيرة .

خامساً : ذكر ابن كنان في معرض تفاخره بالصالحية وعلمائها ورجالها وصناعاتها وفنونها أن مسجد الخاتونية هـذا كانت به سدّة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هـذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها أو يحاكوها .

ونقول نحن أن هذه السدة لا تزال موجودة بالجامع الجديد في مواجهة المحراب وهي مدهونة بالدهانات العجمية (على حد تسمية هذه الصناعة بدمشق) وهي وان كانت قد امحت أجزاء منها وبهتت ألوانها وحالت بهجتها فلا يزال بها أثر يبين عن دقة صناعة هـذا الفنان الصالحي (نسبة الى الصالحية) وتفوقه وعبقريته وليس في مساجد الخواتين جميعاً بالصالحية كلها مثل هذه السدة بدهاناتها وصناعتها . (له بقية)

السيد محمد رجب

اللاأدريـة : Agnosticism

المصطلح الأعجمي من الأصل اللاطيني gnoscere أي يعرف to know

أطلق هـذا الاصطلاح أول الأمر ليكون وصـفاً لأية نظرية تنكر انه في مستطاع الانسان أن يحصل على المعرفة بالله . وبالرغم من أن اللاهوتيين مجمعون على منابذةاللاأدرية ، فانهم لم يتحرروا من الميول المشابهة لما ترمي اليه النظرية . فالبحث في « كيف والى أي مدى يستطيع كائن محدود أن يعرف واجب الوجود » — معضلة من شأنها أن تثير صعاباً تنتهي الى نتائج فيها إثارة من طبيعةاللاأدرية . أما هذه الصعاب فلا يمكن أن تنفكّ عن الطريقة التي يعرض بها اللاهوت هذه المعضلة .

(١) أما باعتبارها نظرية تنابذ المذهب التقليدي : Traditionalism القائل بأن الانسان في حاجة الى وحي علوي ليصل الى المعرفة بوجود الله ، فان الـكنيسة الرومانية الـكاثوليكية تقضي بأنه يمكن الوصول الى تحقيق وجود الله ، من طريق النور الطبيعي المستمد من العقل الانساني . أما من حيث منابذتها لمذهب « الوجودية » Ontologism — القائل بأن الانسان فيه آبليـّـة خاصة تمكنه من معرفة الله مباشرة — فانهـا تجنح الى التـكيف بعض الشيء . أما في نكرانها الميول التي تلازم مذهب الوحدية Pantheism ، فانها تقول بأنه من المستحيل على الانسان مستعيناً بالطبيعة وحدها أن ينفذ بفكره الى حقيقة وجود الله ، وان الادراك المباشر لطبيعة الله إنما يكون من نصيب المُـنْـعم عليهم في حياة أخرى ، وان الانسان مهما بلغ من معرفته بالله من طريق جهده العقلي ، فانه لن يصل الى معرفة الله في حقيقته .

(٢) إن الألوهية Theism النصرانية فيها إثارة من اللاأدريّـة . فانها تقول ان الانسان له معرفة بالله ، ولـكنها تنكر ان الله والعالم شيء واحد . وهي لهذا تذهب إلى أن الله مستقل عن الـكون ، وان معرفة البشر به على دوام تقدمها ، لن تصل الى الـكمال .

(٣) يعبّـر « مَـنْـسل » Mancel عن اللاأدرية اللاهوتيـة في العصور القـديمة بأن الانسان بينا هو ملزم بالاعتقاد في لانهائية الله . فانه غير قادر على إدراكها . ومن هنا تنفصل العقيدة عن المعرفة ضرورة .

(٤) ان أحدث صور اللاأدرية في اللاهوت هي الصورة التي بشّـر بها «رتشل» : Ritchel

وبعض أتباعه ، وتقوم على نظرية في المعرفة بنيت على بعض تفسيرات قال بها « كنت» : Kant وعلى بعض أقوال قال بها « لوتزه » : Lotze وتقضي تلك النظرية بأن الانسان لا يعرف إلاّ الظاهرات . وبما أن الله ليس بظاهرة ، فالانسان لا يدركه . ولذا كان من طبيعة اللاهوت ألاّ يتعلق في بحوثه بالأسباب الفعّالة Causa efficiens ، بل يتعلق بالسبب الغائي : Causa finalis ، أي ان اللاهوت لا يعالج المعرفة بالله ، لا باعتباره موجوداً ، بل باعتباره « مثلاً خلاّباً : Attractive Idéal ، يلزم الانسان ، من طريق ذاتي صرف ، الى الاعتراف به . فالله في ذاته من الأشياء المجهولة أي التي يستعصى على الانسان معرفتها حتى من طريق الوحي القدسي ، وان معرفة الانسان به إنما تقوم على تقدير ما يدركه من قيمة صفاته ليستعين بمعرفتها على التسامي أدبيًّا ودينيًّا .

* * * * * * * * * * *

بحث معجمي : في تاريخ الفلسفة واللاهوت

Toleration — التَّسمُّح

Formerly also "Tolleration" — L. toleratio (N-) tolerare, pp. toleratus = endure, tolerate.

(١) الاعتراف بحق الحكم الذاتي ، والاقتناع الشخصي في العقائد والعبادات وما يتعلق بها (٢) ما تمنح السلطات الحاكمة في دولة من الحرية الفردية ، بحيث يتسنى للفرد أن يعلن عن معتقده وآرائه الدينية ويدافع عنها وينشر تعاليمها . ويعبد ما يشاء بالطريقة التي يختارها ، وفي المكان الذي يرضيه ، ما لم يكن في عمله اعتداء أو اجحاف بحقوق الغير ، أو نقض للقوانين التي تحمي الاخلاق والآداب والنظام العام ، أو أمان السلطات الحاكمة : (٣) اعتراف الدولة بالحق الذي يباشره الفرد في التمتع بما تجيزه الشرائع والقوانين والامتيازات الاجتماعية ، من غير اعتبار للفوارق الدينية .

Quot., 1790-Burke-Corr. (1844) II. 369 : I have been a steady friend, since I came to the use of reason, to the cause of religious toleration.

1849-Macaulay : Hist. Eng. VI ii 9 : Locke contended that the church which taught men not to keep faith with heretics, had no claim to toleration.

* * * * * * * * * * *

الجرابيات

ونشوء الغدد الثدية

MARSUPIALIA.

and the Development of the Mammary Glands.

Etym., (L. marsupium = a pouch.) and in Gr. marsipion, also written marsippion, marsupion, dim. of marsipos, marsippos, marsupos = a pouch, bag.) -

والاصطلاح الأعجمي في اللاّطينية : marsupium أي كيس أو جراب ، وأصله رومي (يوناني) . وعن معجم الحيوان للمعلوف ص ١٥٨ :

« ذات الجراب أو الكيس ، وهي أدنى من رتب الحيوانات اللّبونة » اهـ . وفي هذه العبارة اضطراب ، سببه في الظاهر تقديم لفظ على لفظ . وتقديم هذا اللفظ يجعل اضطراب العبارة يتناول المعنى العلمي ، فالجرابيات من الحيوانات الثديية (اللبونة على حد قوله) فقوله « أدنى من رتب الحيوانات اللّبونة ، يخرجها من الثدييات ، ولعلّ العبارة هي : « وهي من أدنى رتب الحيوانات اللبونة » . وبهذا تستقيم العبارة . وعن معجم شرف ص ٤٧٤ :

marsupial : (١) مكيّس ، كيسيّ (٢) حيوان ثديي ذو كيس أو جيب من رتبة « المرْسوپْياليا » ، marsupiate : كيسيّ ، ذو جيب في أسفل بدنه يحمل فيه صغاره » . اهـ .

وأردت أن أرجح بين « كيس وجيب وجراب » ، فوضح لي أن لفظ « جراب » أنسب هذه الألفاظ . فقد جاء في القاموس المحيط (٢٤٨ : ٢) : والكيس (بالكسر) للدراهم لأنه يجمعها (ج) أكياس وكِيَسَة . اهـ . وهذه العبارة تدل على ان الكيس خصّص للدراهم ، ولا علاقة له بصفة عضوية تكون في الأحياء . ولا مانع لغويًّا من نقل معناه الحقيقي الى معنى عضوي ، ولكن يحسن أن لا يكون ذلك إلاّ لضرورة ولاضرورة هنا . لأن الجراب فيه هذا المعنى .

جاء في القاموس (ص ٤٥ : ١) : والجراب ولا يفتح ، أو لغيّة فيما حكاه عياض ، المزْوَد أو الوعاء (ج) جرُب وأجْرِبة وجرْبٌ ، ووعاء الخصيَتَين » . اهـ . فالجراب

أنسب اللفظين ، ليؤخذ منه اسم يدل على هذه القبيلة [١]

وقد أطلق المواليديون أسماء أخرى تشمل هذه القبيلة : اللامشيميات[٢] ، وذوات الرحمين[٣] ، والأوسطيات[٤] .

***

الجرابيات قبيلة من الثدييات[٥] يشملها شعيب[٦] سمي ذوات الرحمين ، ويشير الى الثدييات اللامشيمية التي يكون لها جراب أو جلبان تربى فيه الصغار أول عهدها بالحياة وليس لها مشيمة تنمو وتسقط مع الجنين ، ومدة الحمل قصيرة ، فتولد الأجنة صغيرة الحجم جداً ، ناقصة التكوين ، فاقدة الحيلة ، فتنقل بمجرد وضعها إلى الجلبان أو الجراب عند بطن الأم حيث تكون الحلمات ؛ فتلصق أفواهها بها لصقاً شديداً ، وتظل كذلك حتى يكتمل نماؤها بالرضاعة . فاذا بلغت الأجنة من النمو مبلغاً ما ، أمكنها في تلك الحال أن تترك الحلمات من أفواهها ، ثم تعود اليها وامتصاصها ، وكثيراً ما تعود الصغار الى الجلبان بعد أن تكون قد تركته ودرجت إلى الأرض ، أو تتشبث بأجزاء من أمهاتها لتحملها معها حيث تذهب .

ويحسن بنا هنا أن ننقل رأي العلامة « درون » في نشوء الغدد الثديية ، فإن هذا موضع إثباته ، فقد جاء في الفصل السابع من كتاب « أصل الأنواع » [٧] ما يلي :

« إن الغدد الثديية صفة عامة في الثدييات . وهي فوق ذلك صفة ضرورية لبقائها . ولهذا لا نشك في أنها ضربت في التطور والنشوء منذ أزمان موغلة في القدم ، ولا نستطيع أن نكتنه الآن بطريقة عملية تلك السبل التي درجت فيها الغدد الثديية ، واتخذتها للنشوء سبيلا » .

« يتساءل مستر ميوارت » : [٨] — هل في مستطاعنا أن نلحظ في نواحي الطبيعة حالة نثبت بها أن مولوداً من نتاج أي نوع من الأنواع ، قد نجا من الهلاك بأن ارتضع بالمصادفة بعض قطرات من سائل مغذ ، أفرزته غدة تضخمت تحت ظاهر بشرة الأم اتفاقاً ؟ وإذا

....

(١) Order (٢) Implacentalia (٣) Didelphia (٤) Metatheria

(٥) Mammalia (٦) Sub-class

(٧) The Origin of Species : by means of Natural Selection or The Reservation o, Favoured Reces in the Struggle for Life. London, ed. 1911.

(٨) Ms. Mivart احد الذين انتقدوا مذهب درون في الانتخاب الطبيعي

فرضنا حدوث ذلك ، فأية فرصة أو سبب وجد حينذاك ، فساعد على الاحتفاظ بمثل هـذا التغاير الجديد » ؟

« إنّ هذا السؤال لم يوضح بطريقة قوية . فإن الاعتقاد السائد عند زعماء النشوئيين : Evolutionists أن الأثداء قد تأصلت عند أول نشوئها عن جراب عضوي Marsupium ، وإذا صحّ ذلك تحقق عندنا أن الغدد الثديية قد تكونت بداءة في داخل ذلك الجراب . فالسمكة المسماة « جواد البحـر » Hippocapmus : ينقف بيضها عن صغـار يتولاها الكبار بالرباوة داخل جراب من هـذا الصنف . ويعتقد مستر « لوكوود » Lockwood ، وهو من أشهر مواليديي أمريكا ، اعتماداً على ما شاهده من نماء صغار هـذا السمك ، أنها تغتذي بإفرازات غدد تكون تحت ظاهر البشرة في ذلك الجراب . فاذا رجعنا النظر كرة إلى اسلاف الثدييات وبخاصة في تلك العصور التي لم تكن قد بلغت فيهـا من التغاير مبلغاً حقيقاً بأن يحملنا على أن نصرف عليهـا اسم « الثدييات » فان لنـا أن نرجح على الأقل ، أن تكون صغارها قد غذيت بطريقة مشابهة لهذه . وفي تلك الحال تعقب الأفراد التي تفرز من السائل ما هو أوفر غذاء ، بحيث يكون مقارباً لتركيب اللبن الحقيقي إلى حدٍّ ما، وعلى مرّ الأزمان. عدداً من الأعقاب توافر غذاؤها ، أزيد مما تعقب الأفراد التي تفرز من السائل ما قلّت فيه مادة الغذاء . ومن هنا نساق إلى القول بأن تلك الغدد الجلدية ، تتجانس والغدد الثديية تمام التجانس . ولا بد من أن تكون قد تطورت أوصافها ، أو زادت منفعتها ، وعظم أثرها . وتلك حال تتفق وما ذكرنا من ناموس التخصيص Specialisation بأن تكون بعض الغـدد الموجودة في جزء خاص من ذلك الجراب ، قد أصبحت أكثر نماء وتطوراً وتهذيباً عن بقيتها ، ومن ثم تكونت ثديـًا صدريّة ، كانت في مبدإ الأمر بغير حلمـات ، كما نشاهد ذلك في « النّفـطير » (١) Ornithorhynchus وهو أحط طبقات الثدييات الحيـة في عصرنا هذا . »

« أما الحكم في أي البواعث أو الأسباب كان من أثره أن يخصص بعض الغدد للقيام بوظيفة في جزء مّـا من البدن دون الآخر ، فذلك ما لا أحاول أن أقضي فيه بحكم ، ألتأثير التّعاوُض في النماء أعزوه ، أم لمؤثرات الاستعمال ، أم لفعل الانتخاب الطبيعي ؟ »

« ولا مشاحة في أن تأصل الغدد الثديية قد يصبح معدوم النفع عاطل الفائدة ، وما كان

---

(١) حيوان ثديي يبوض له منقار البط ، وأقدامه مفشاة كأقدام طير الماء . وهو الحيوان الثديي الوحيد الذي يلقي بيضاً كالطير والزواحف ويرضع صغاره .

للانتخاب الطبيعي أن يبلغ منه بأثر ، اذا لم يكن في صغار الحيوانات من الاستعداد الفطري ما يسوقها الى الانتفاع بما تفرز الغدد من السائل المغـذي . ولست أجد صعوبات في بحث الدوافع التي ألجأت ولائد الثدييات الى ارتضاع ثدي أمهاتها، تفوق الصعاب التي تعترضها إذا ما أمعنـا في بحث ذلك المؤثر الخفي الذي يدفع الفرخ الى كسر قيض(1) البيضة بأن يمسها مسًّا لطيفاً بطرف منقاره المهيأ كل التهيئة للقيام بهذه الوظيفة ، أو كيف ان الفرخ بعد أن تنقف عنه البيضة ببضع ساعات ، تراه قد ذقه طريقة الالتقاط بمنقاره ؟ وأرى أن أقرب فكرة توصـلنا الى حل هذه المعضلة تنحصر في القول بأن هـذه العادة قد اكتسبت بالتجربة بداءة ذي بدء منذ عصور موغلة في القدم ، ومن ثمت انتقلت العادة من الأسلاف الى الأخلاف منذ أزمان متطاولة » .

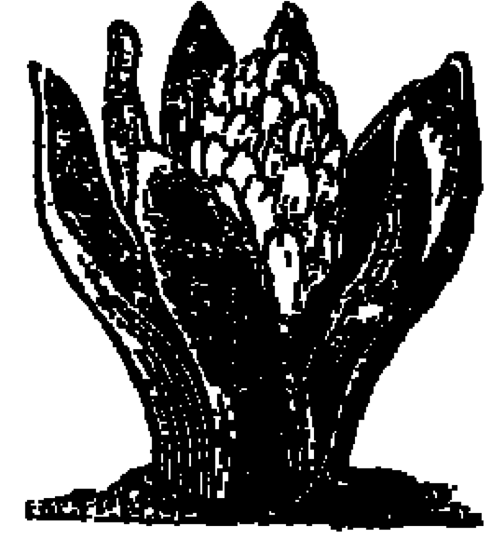
« ويقال إن صـغار الجرابيات مثل « الـكنغر » Cangaro : لا ترضع ثديَّ أمهاتـهـا امتصاصاً ، بل تـكتفي بأن تثبت أفواهها في حلمة الثدي ، في حين تـكون الأم قادرة على أن تصبَّ فرز ثديها صبًّا في فم رضيعها ، لأنه يكون في ذلك الطور ناقص التكوين ، فاقد الحيلة »

ويلاحظ مستر «ميوارت» : أنه إذا عدمت الولائد وسيلة تزدرد بها طعامها . فانها لا محالة تستنكر اذ ذاك أن يجري شيء من اللبن في الرُّغـامَى (قصبة الهواء) التي تتنفس منها . غير أننا نعثر مع البحث على وسيلة عامة تحل محل الوسيلة الخاصة ، وتقوم مقامهـا . فان الحلقوم Larynx يكون في مثل تلك الحال ذا استطالة ، حتى أنه ليستقيم في امتداده الى منتهى الحد الظاهر من قناة الأنف ، وبذلك لا يعوق الهواء عن الوصول الى الرئة عند الرضاعة. ذلك في حين أن اللبن يندفق من غير أن يحدث أي ضرر بالرضيع، مارًّا بجانبي الحلقوم على استطالته ، ومن ثمت يبلغ الى فُـوَّهة المرىء Gullet أي مجرى الغذاء والماء .

« ويتساءل بعد ذلك مستر «ميوارت» : كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يزيل من الـكنغر البالغ ، بل ومن الثدييات كافة ، على اعتبارها متسلسلة عن حلقة قديمة من الجرابيات ذلك التركيب الساذج على بعده عن أن يحدث ضرراً مـَّا » .

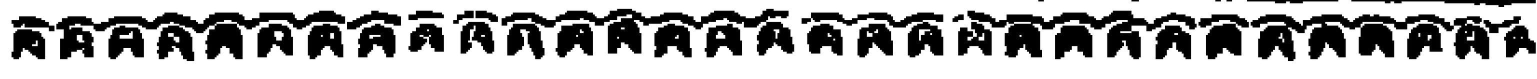
« وندفع هذا الإعتراض بأن الصوت ، وهو أداة ذات شأن كبير في حيـاة الثدييات ، قد يصعب استخدامه بحرية تامة ، ما دام الحلقوم ممتدًّا إلى مستوى قناة الأنف . ولقد ذكر الأستاذ « فـلاوَر » أن هـذا التركيب ، لا بد من أن ينتابه بعض المؤثرات ، وبخاصـة في الحيوانات التي تغتذي بمواد فيها تماسك وصلابة





الفيتامين والهرمون

او صفحة من الاشتراكية التعاونية في الأبدان الحية



بحث الهرمونات والفيتامينات فتح جديد من فتوحات الطب لا تزال معارفنا فيه مهوَّشة ناقصة والكشوف فيه مستمرَّة والآمال عليه معقودة .

هو بحث يتصل بسر الحياة الخلوية وتطور الأحياء النباتية والحيوانية واتزان وانسجام أعمالها ، فهو إذاً بحث يجمع الفلسفة الى الطب العملي السريري . يقول براسلس إن في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً عن العيون يصنع الأدوية ويصفها ويستعملها بحسب ما تقتضي الحال. ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية وهذا الطبيب، لما أجدت مساعي جميع الأطباء معاً ولعجز أي مخلوق على البسيطة عن الحياة . فهذه الصيدلية العجيبة هي الموضوع المتشعب المتصل بالحياة وبمستقبل الطب الذي سأحاول أن استعرض أهمية دراسته واستقصائه .

الهرمونات والفيتامينات أجسام لها في البدن أعظمُ الأثر رغم وجودها بكميات ضئيلة فيه . وقد كان تفريق هذين الصنفين وليد الظروف التي كشف بها عن كل منها ، فقد فتش الاحيائيون عن المواد الضرورية لدوام الحياة فتوصلوا لكشف الفيتامينات. ومن جهة أخرى فكر الغرائزيون « الفيزيولوجيون » في دراسة وظائف الغدد الصُّم ، فوصلوا الى الهرمونات التي تنظم المبادلات الحيوية في البدن . وقد قال بفكرة القرابة بين هذين الصنفين هُبْكِنز . فذكر ان هناك هرمونات خارجية الفيتامينات وأخرى داخليتها .

فما هو الهرمون وما هو الفيتامين ؟ الفيتامينات مواد ضرورية للبدن لضمان نموه ولاحتفاظ النسج والأعضاء بنشاطها الطبيعي والبدن عاجز عن صنع هذه المواد بنفسه، فلابدَّ له من استيرادها من المحيط الخارجي، وبخاصة من المملكة النباتية الغنية بها.

أما الهرمونات فهي مواد ضرورية أيضاً لتضمن قيام كل من الأعضاء بوظائفها وليقوم توازن وانسجام بين هذه الوظائف ، يصنعها البدن ويقوم بذلك غالباً الغدد الصم . فالصفة الجامعة بين هذين الصنفين انها تؤثر بمقادير ضئيلة جداً، وانها ضرورية لايستغنى البدن عنها وفقدانها يعرضه لأمراض الحرمان من الفيتامينات أو أعراض نقص الوظيفة في الهرمونات، وتشفي جميع هذه العوارض بادخال هذه المواد في البدن المحروم منها . يقال للتفريق بين الفيتامينات والهرمونات أن مصدر الأولى أبدان الحيوانات ، بينما يعتمد الحيوان على ماتصنعه

النباتات من الثانية ليضمن حاجته منها . ان هذا الفارق غير موجود . فبعض الهرمونات توجد في المملكة النباتية كالجرابين ، الهرمون النسائي الثابت وجوده في أنواع من الفحم الحجري « Hanille, lignite, Tourbe » كما أمكن تحضير اللوتئين وهو هرمون من سترول نباتي Stigmasterol وبالمقابل فان لبعض الفيتامينات مصادر حيوانية كالحليب والزبدة والشحوم الحيوانية وكبد السمك . على اننا يجب أن نذكر بأن هذه الحيوانات اختزنت كميات كبيرة من هذه الفيتامينات من النباتات التي تتغذى بها . ثم ان بعض الفيتامينات هي هرمونات بالنسبة لبعض الحيوانات وفيتامينات بالنسبة للآخرين . فالفأر والحمام تصنع في أبدانها الفيتامين فهو بالنسبة لها هورمون بينما هو فيتامين بالنسبة للآخرين .

أما الفوارق الأخرى التي يقال بوجودها بين الفيتامينات والهرمونات فلا أساس لها أيضاً . فقد قيل بأن الهرمونات تحدث تسمماً وعوارض خطرة في البدن إذا دخلت اليه بمقادير زائدة، ولا يحدث شيء من ذلك، ولو دخل الفيتامين بمقادير كبيرة . وعلة هذا الفارق طريقة دخول أو تحضير هذه المواد الضرورية التي لا غنى للبدن عنها . فليس للفيتامينات مقادير معينة لأن الجسم الحيواني يعتمد على الوارد اليه مع الغذاء فيضطر اذا دخلت الى أنبوب الهضم كمية كبيرة من الفيتامين أن يدخرها البدن ليستعملها أيام الحرمان بينما لا يصنع البدن من الهرمونات إلا بقدر الحاجة اليها . وما سبب التسمم المعروف عند أعطاء كميات زائدة من فيتامين D إلا أن هذا الفيتامين هو هرمون أيضاً . فان البدن الانساني قادر على تركيبه في سترول الجلد بمواجهة أشعة الشمس أو يكون سبب التسمم فيه أحياناً المحضرات المركبة لهذا الفيتامين .

ثم ان الهرمونات تفسد بتأثير العصارات الهاضمة بينما الطريق الطبيعي لأخذ الفيتامين هو أنبوب الهضم . فالفيتامينات والهرمونات إذاً أجسام تؤثر بكمياتها الضئيلة تأثيراً واحداً غايته حفظ توازن الوظائف العضوية المختلفة .

إن عمل الفيتامينات والهرمونات في داخل البدن وآثارها فيه . لوحة بديعة تمثل الحياة في مدها وجزرها، في ليلها ونهارها، في حياتها وموتها . فهذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الاثر تتضاد وتتساند بعضها مع بعض في سبيل غاية واحدة هي إطراد النمو وإبقاء الجنس وحفظ الشخص ولها الأثر الكبير في نقل الصفات الخلقية والنفسانية والسيطرة على الأمزجة .

والواقع أن الجزء الفرد من الجسم الحيواني وهو كل خلية من خلاياه يعيش على حساب طوائف من المجهودات يقوم بها آلاف بل ملايين من الخلايا الأخرى . فالجسم الحيواني جيش لجب من الخلايا في كل منها حركة دائمة لا تقف ولا تكل . والحياة هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا . ولا تقف هذه الحركة المستمرة إلا بوقوف الحياة

والطفاء شعلتها . والخلايا تعجز عن القيام بأعباء هذه الأعمال الجسام بغير معونة هذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر في تسهيل التغذية والتنفس الخلويين . فقوام حياة الخلية إذاً وبالأحرى بقاء الحياة الحيوانية مدين إلى وجود القدر الكافي من هذه المواد الواردة مع الغذاء أو التي تصنعها خلايا أخرى في البدن . فالحياة في البدن اشتراكية تعاونية منظمة يتأثر كل فرد منها . أي كل خلية من اضطراب عمل أو حياة الآخرين .

تقسم حياة الانسان أقساماً ثلاثة : عضوية وحيوانية وفكرية . والفكر البشري المبدع عاجز عن إقامة حدود صريحة بين أشكال الحياة الثلاث ، فالاستقلال لا حقيقة له في الحياة، بل ان الصلات بين الأعضاء والوظائف المختلفة المظاهر صميمي وثيق .

وهذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر وهي التي تكفل تنظيم حيوية البدن ونشاط وظائفه العديدة، تتأثر وتؤثر في الجملة النباتية وأعصابها المتشعبة في جميع انحاء الجسم المسماة بأعصاب الحياة لخطورة العمل الموكول إليها . تتأثر وتؤثر هذه الجملة النباتية التي لم يعرف العلم والعلماء حتى الآن إلاَّ طرفاً يسيراً عن اعمالها المعقدة المتشابكة المتضاربة المظاهر ، تتسلط هذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر على أعمال هذه الجملة وتتأثر منها أيضاً . ويتحكم هذا المجموع غدد صم هرمونات وفيتامينات جملة نباتية في بناء الجسم البشري وإطراد نموه وحسن تغذيته ودفائه ودوام حياته وعلاقاته الجنسية وبقاء نوعه وتراثه إلى أولاده وأحفاده فهو يحفظ الفرد ، ويعمل على حفظ الجنس أيضاً .

قد يتبادر للفكر أن هذه الوظائف المختلفة المتشعبة لا يمكن أن تنتظم إلاَّ بتخصص الأعضاء أو الخلايا وتفرغها للعمل في سبيل ذلك . لقد عمد الانسان في سبيل زيادة الانتاج وتحسينه إلى التخصص والتفرغ لأعمال محدودة ليتمكن من انتاج أكبر قدر ممكن بأقل جهد مستطاع ، وقد توفق إلى ذلك بمعونة الآلة التي خلقها فعبدها وهذا هو مبعث فخار مدنيتنا ، أما الطبيعة ، والحياة صفحة من صفحاتها، فانها تسخر من ذلك . فليس للقوانين الرياضية ولا لقواعد الهندسة وجود فيها . فالخط المستقيم والخطوط المتوازية والتناظر وما الى ذلك، كلها من خلق الانسان الذي يريد أن يقيم مقاييسه هذه طريقة لفهم أسرار الحياة . وقد اعتاد الفكر الانساني الدقة والضبط في الرياضيات وأعجبه ذلك ، فعجز عن استقصاء الحياة وفهم أسرارها إذ حاول أن يطبق عليها قواعد علومه التي ابتدعها ومقاييسه التي ظن أنها صالحة لكل شيء .

يقوم على تنظيم الحياة في الأبدان الحيوانية عوامل تتضارب أو تتساند ، ولكنها تصل في النهاية إلى بغيتها الأساسية فتضادها فيه تعاضد ، وعداؤها فيه صداقة وهدفها واحد هو الابقاء على الفرد والدفاع والحفاظ على الجنس .

فتنظيم سكر الدم وثباته يعتمد على الوارد الغذائي . ومولد السكر الكبدي Glycogène

والعضلي ثم استهلاك السكر بتأثير الأنسولين البانكرآس الذي يعاكسه الادرينالين الـكظري surrénale وينشط المفرز البانكرآسي النخامة Hypoplyse التي تنشط أيضاً الـكظر ويساند الـكظر الدرق thyroide ويثبط الجميع النخامة أيضاً. فهكذا نرى في البدن أخذ وعطاء زيادة ونقصان وتضارب وتساند وتثبيط وتنشيط والغاية من جميع ذلك جعل السكر الدموي ثابتاً وهو ثابت عند الشخص الصحيح رغم اختلاف الوارد واختلاف الاستهلاك .

كذلك يعمل التيروكسين ضد الفيتامين A والفيتامين C بينما يتساند الأنسولين مع الفيتامين B و C على استقلاب ماءات الفحم ، يساعد الفيتامين B_2 والفيتامين A مفرز النخامة ليتم نمو الجسم الانساني بينما يعمل الفيتامين A كمثبط لافراز الهورمون النخامي المنشط للدرق ، وينشط الفيتامين C افراز الهرمون القشري للكظر وهذا يؤثر بدوره مثبطاً للدرق أيضاً .

تقع الأعضاء التي تشرف على هذا التنظيم البديع المعقد في مواضع بعيد بعضها عن بعض وبعيدة في مواقعها التشريحية عن الأعضاء والوظائف التي تؤثر بها. فالنخامة في قاع القحف تتسلط على نمو الهيكل العظمي ، ونقص العظام moelle osseuse يتسلط على كريات الدم الحمر ونظائر الدرق para-thyroide خلف الرغامي على تكلس العظام والفيتامين B في قشور الحبوب التي نهملها والفيتامين A في الاقسام الملونة من النباتات التي نقتطعها، جميعها لها الأثر الـكبير في نمو الجسم الانساني .

فلا تصنيف ولا مراتب في المواضع ولا تناسب بين أهمية العضو أو حجمه والعمل الموكول اليه ، ولا طبقات ولا امتيازات بين الأعضاء ولا الخلايا . فان القشر والنفاية والخلية الصغيرة من الجسم الحي والخميرة الحقيرة في التراب أو الهواء ، كلها ضرورية وكلها سواسية أمام العمل الذي تسعى جميعها الى أدائه فلا سيد ولا مسود . ولـكنها الحياة تتطلب أن يعمل كل في سبيل نفسه وفي سبيل المجموع لبقاء الحياة على وجه البسيطة .

ومن المؤكد أنه لو عهد الى الانسان صنع الجسم البشري وبنائه ، فان فكرته الهندسية تقضي بأن يجمع الوظائف المتشابهة فيصنفها في جهات مختصة علوية وسفلية. أما الحياة فانها تبعثر أعمالها وتجعلها متضاربة التأثير . فمفرز يحرض، وآخر راض لئلا يستأثر البعض بالـكل . فاذا تجاوز مفرز الحدود المرسومة ، قام غيره يعدل أثره . وان قصر قام من ينوب عنه أو يسانده وهي تعمل جميعاً عملا تعاونياً اشتراكياً في سبيل الخير العام . تلك هي الديمقراطية المثالية. وتلك هي روح التعاون الوثيق الـكامل في سبيل الأبقاء على الحياة .

واذا تتبعنا سيرة المدنية التي نفاخر بها أمماً بشرية دارسة أو أمماً حيوانية عجماً لاحظنا جلياً خطل الرأي البشري في السعي للتحرر من الطبيعة. إذ ينسى الانسان أبداً أنه خلق من

خلائقها تتمثل به صفحة من صفحات الحياة التي يعج بها هذا الكون. فقد فكر الغرائزيون بأن قيمة الغذاء تنحصر في ما يولده من قدرة وزعموا أن نظريات الاحتراق في آلات البشر الميكانيكية يمكن تطبيقها على أعمال الجسم الحي فشبهوا ما يحدث في أنبوب الهضم من أعمال كيماوية بما يشاهد في أنابيب التجربة في المخابر. ثم انتشر في حينه الذعر من الجراثيم بعد أن كشف باستور عنها . فقال تلاميذه بأن الغذاء الصحيح هو الغذاء العقيم النقي كيماويًّا فانتشرت صناعة الأطعمة المحفوظة وانتشر استعمال الخبز الأبيض والحبوب المقشورة والسكر الأبيض النقي والأثمار المطبوخة، وأهملت الخضر والفواكه لأنها لا تولد في أنابيب التجربة كميات كبيرة من الحرور . فكان من نتيجة هذا التكلف والتفنن في الغذاء أن ظهرت أمراض الحرمان من الفيتامينات التي لم تكن معروفة قبل ذلك داء الحفر scorbut ، البلاغرا ، البريبري . . اه . وكثرت معها حوادث الداء السكري وعسرات الهضم المختلفة بسبب الاقبال الشديد على استهلاك ماءات الفحم وقود الآلة الانسية، وانتشر الرخيطس وعوارض توقف النمو والدنف كل ذلك بسبب اضطراب التوازن الغذائي، فان الذي أودع الروح في الجسد جعل النشاء في لب الحبوب والفيتامينات الضرورية في قشورها وليست الحياة الا تبادل بين المملكتين الحيوانية والنباتية. فالانسان عاجز عن أن يتحرر من عوزه الى أصغر الأحياء وأحقرها الجراثيم والخمائر. وهو عاجز عن التحرر من حاجة النبات. وقد قيل أن لا حياة في مكان لا ينبت فيه العشب.

فلولا طحالب البحار لما قدرت أسماك الحيتان أن تختزن في أكبادها فيتامينات A و B ولولا هذه الفيتامينات المختزنة في أكباد الحوت، لما تيسرت الحياة طويلا لسكان المناطق الباردة الشمالية المحرومة من نور الشمس، ينبوع القدرة والحياة في عالمنا الأرضي .

ولم يعرف سكان المناطق القطبية الرخيطس إلا بعد أن استبدلوا لحوم الأسماك وزيوتها غذاءهم الطبيعي الذي كانوا يعتمدون عليه عند ما كانوا بعيدين عن العمران ، بالمقددات والأطعمة المحفوظة التي حملتها اليهم المدنية مع شرورها ومفاسدها ومباهجها أيضاً .

وقد اضطرت آلة المدنيـة الانسان للسعي في الليل والنهـار بكثير من العمل والسموم المخدرة الكحول والتبغ ويقل من الغـذاء الصحي الذي يتطلب وقتاً لتحضيره ومضغه وهضمه مندفعاً في هذا التيار الجارف تيار المزاحمة والحسد والتنافس، فعرف القرن العشرون أمراضاً لم تعهد من قبل . فان انسان اليوم في حالة تعبئة دائمة وسلم مسلح ، أعصابه متوترة مستعدة دائماً لكل مفاجأة ، فكان من ذلك فرط التوتر الشرياني بسبب افراز الادرينالين المستمر . فقد كان الانسان القديم اذا تعرّض لخطر فأفرز كظره هـذا الهرمون الضروري لتعبئة قوى البدن على وجه السرعة ، تنقبض عروق الجلد لتمنع نزف الدم اذا جرح، ويرتفع سكر الدم لتجد العضـلات كفايتها منه عند الحركة ، وينشط القلب ليحتمل عبء العمل

المقبل عليه ، فتتعدل السموم العضلية الحادثة بعد التعب ويزول هذا التوتر العصبي المؤقت ، بعد أن يهاجم الانسان خصمه فيصرعه أو يتفاداه . أما رجل المدنية الحاضرة فحياته كلها مفاجآت وكفاح وتعبئة مستمرة لا سبيل الى تخفيف حدتها كالمرجل يغلي ولا سدادة للأمان. فان قيام الرجل الابتدائي بالعمل بعد الاستعداد له يفرج الأزمة ويزيل التوتر ، وتقضي حياتنا المدنية أن يكظم الانسان غيظه وفي ذلك ارهاق للأعصاب يتعرض المرء بسببه الى فرط التوتر المستمر أو الاشتدادي وعواقبه الخطرة . أو الى عسرات الهضم باضطراب المفرز المعدي لاهمال الراحة والتلذذ بالطعام وللاصابة بقرحات المعدة الناشئة عنها. كما وقد انتشر السل والسرطان والآفات العصبية النفسانية أو بالحمات الراشحة Virus filtrsutes انتشاراً يهدد المدنية الحاضرة التي تفخر وتفاخر بها ، بالانتحار والانذثار .

ان للخمسين طناً من الطعام التي يتناولها الانسان مدى حياته المتوسطة ، أثر كبير في صحته وطباعه وخُلقه. وقد أثبت العلم ان في استطاعة الباحث أن يطيل عمر الجرذان ويجعلها أكبر وأقوى إذا أشرف على تغذيتها على نحو معين . وان لمفرزات الغدد الصم أثر في طول المرء وقصره ، وفي أخلاقه وسلوكه ، في شبابه وشيخوخته، في أنوثته ورجولته، حتى الجبن والشجاعة أثر من آثارها . يقول أحد الحكماء ان الموت يدخل من الفم فلندخل الى أبداننا الصحة والسعادة بتنظيم الغذاء وتنويعه . فان الجوع أو الحرمان من بعض الأغذية الضرورية لا يزال يقضي على أكبر عدد من سكان هذا الكوكب السيار . ولا يدرس الانسان بتحليل أعضائه ودراسة أجزائه. فان التشريح والنسج والغرائز أضاءت على الطبيب صورة البشر الكامل. فليس الجسم الانساني آلة تتألف أجزاؤها من الأعضاء التي تصفها لنا هذه العلوم أحسن وصف وأدقه ، فيجب الرجوع الى دراسة الجنس البشري كمجموعة لا انفصام لها ، فليست الأمراض جميعاً جرثومية، وليس الجرثوم كل شيء في المرض . فان دفاع البدن وتفاعلاته المختلفة باختلاف الأشخاص واختلاف أمزجتهم وعواملهم النفسانية أي تربة المريض وبناء جسمه وغذائه كلها عوامل ذات أثر فعال في تكييف المرض واختلاف ظواهره . فالناس لا يتشابهون في وجوههم ولا قاماتهم ولا أخلاقهم ولا في أمراضهم أيضاً .

وصحة الغدد الصم أساس لصحة الجسم والغذاء المنوع الطبيعي ضروري لاطراد نمو البدن واتزان تفاعلاته . فالمارد والقزم والمرأة الجسامة والرجل الغليظ والبنت السمينة والجاحظ العينين والمنتفخ الأوداج والأبله والعصبي والنحيل والمقعد والعبقري أيضاً ، كل هؤلاء نتيجة تركيب غير سوي في غددهم الصم أو اضطراب عميق في تغذيتهم وطراز حياتهم. فالحياة فن لا يتقنه إلا القليلون .

دكتور بشير العظمة

رئيس السريريات الطبية في معهد الطب بدمشق

من أنواع النبات الطبي

١ — ﴿البَنْدوج (سنهالي معرب)﴾ شجرة من اليتوعيات تنبت في جنوب آسيا اسمها النباتي Tylophra asthmatica وبالانكليزية Bourbon scammony وبالفرنسية asclépiade asthmatique جذورها فيها خواص مقيئة ومعرّقة ومنفثة وتعوض عرق الذهب (الابيكا كوانا) ينفع في الدوسنطاريا ويدخن بأوراقها لتسكين الربو . ويستخلص منها شبه قلوي يسمى « تيلوفورين » يستعمل في الطب مقيئاً .

٢ — ﴿البوتبهلة (سنسكريتي معرّب)﴾ اسم نبات من القطانيات (القرنيات) سنوي ينبت في الهند بالمناطق الجافة ويتردد ارتفاعه بين قدم وثلاث أقدام . اسمه النباتي Psoralea corylifolia وبالانكليزية bawchee seed plant وبالفرنسية dartier de Pondicheri يستعمل الزيت الراتينجي للبذور ضد الجذام وداء الفيل وأمراض الجلد المختلفة وبالأخص الطفحات الزهرية .

٣ — ﴿البُنْقَة (طاملي معرب)﴾ شجرة كبيرة ظريفة من القطانيات (القرنيات) تنبت في الهند والصين واسترالية . أوراقها ريشية لامعات وحملها عناقيد من أزهار بيض تضرب الى لون القشدة طيبة الرائحة . اسمها النباتي Pongamia glabra وبالانكليزية Indian Beech، وبالفرنسية arbre de pongolate تستعمل عصارة جذورها علاجاً للقروح ولتنظيف الأسنان وتقوية اللثة وزيتها يستعمل ضد الجرب والهربس والأمراض الجلدية الأخرى والروماتزم .

٤ — ﴿النَّوْطم (برازيلي معرب)﴾ شجرة من الستروكوليات تنبت في الأنتيل والبرازيل . اسمها النباتي Guazuma ulmifolia وبالانكليزية bastard cedar وبالفرنسية cèdre de la Jamaïque; orme d'Amérique والمستعمل قشرها وهو قابض غروي بحالة شراب يستعمل في الحميات الحارة وهو منق في الأمراض الجلدية.وفي بلاد البرازيل يستعمل مقوياً للجروح والقروح .

٥ — الحشيش الالهي : نبات من الفصيلة المركبة ينبت في المناطق الحارة بالشرق اسمه النباتي Siegesbeckia orientalis وبالفرنسية herbe divine وهو منوع منق في أعلى درجة كثير النجاح في معالجة القوب والقروح ويستعمل من الباطن مضاداً للداء الزهري وأمراض الجهاز التناسلي البولي . ومن الظاهر ضد الهربس والسعفة وهو معرّق أيضاً .

محمود مصطفى الدمياطي



مكتبة المقتطف

الاداة الحكومية

تأليف ابراهيم مدكور ومريت غالي ٣٤٠ صفحة من القطع الكبير
نشرته دار الفصول للنشر بالقاهرة : ١٩٤٥

أول كتاب من نوعه في معالجة الأمراض التي نشكو منها في الأداة الحكومية . وقد نزع مؤلفاه الفاضلان نزعة وطنية صرفة ، وأضفيا على الكتاب روحاً مستقلة كل الاستقلال فبدت في صفحات الكتاب جليَّة واضحة قوية ، وأخرجاه صورة واضحة للتفكير السياسيّ الناضج . وهذا الكتاب على أن له قيمة كبيرة من هذه الناحية ففيه ناحية أخرى لا تقل عن هذه قدراً وقيمة ، تلك ناحية الأسلوب . فصفحات الكتاب مجلوة في أسلوب سهل مفهوم بعيد عن النظريات السياسية ، التي تتناول تلك التعميمات الواسعة في علم الاجتماع . فتراه مصريًّا عظماً ولحماً ودماً . تناول الكتاب أخص مشكلاتنا السياسية فجلاها وشرحها وعطف على المشكلات الدستورية فأبان عن سوآتها الجُلَّى وتناول الأحزاب والادارة والنظام الوزاري . كل هذا في سوق تقدي هادىء أساسه المنطق المقتطع من الأحداث التي مرَّت بنا منذ إعلان الدستور وقيام النظام الديمقراطي في بلادنا . ولم يقتصر الكتاب على هذا . بل لقد تناول المؤلفان وصف الدواء ولم يقتصرا على وصف الداء ، ووضعا القواعد العامة التي يمكن أن يقوم عليها أساس دستوري يضمن لنا شيئاً من الاستقرار ، وشيئاً كثيراً من فرص التقدم نحو مثاليات عليا .

من الأمثال التي نضربها على ما نقول ما ذكر المؤلفان في ص ١٠٨ من الكتاب في ضرورة تأليف مجلس الدولة ليتم لنا به القدرة على السير بتشريعاتنا سيراً حثيثاً نعالج به مختلف الشئون الحيوية للبلاد ، قالا : « إن الآلة البرلمانية في بلادنا تنقصها قطعة — وقطعة

هامة — يتوقف عليها سير العمل وكمال انتاجه . وليست هذه القطعة شيئاً آخر سوى مجلس الدولة الذي سنتحدث عنه في تفاصيله بعد قليل . ويكفينا أن نشير الآن الى أن هـذا المجلس هو الكفيل وحده بأن يغذي البرلمان بالمادة التشريعية الضرورية غذاءً صالحاً ومستمرًّا ، فيخرج تشريعنا من بطئه وجموده ، ويستكمل بحثه وتمحيصه ، ويحكم صياغتـه ويوفر له ما هو في حاجة اليه من تناسق وانسجام » .

وتناولا الحزبية فقالا : « ويقيننا أن أحزابنا يوم أن تعتمد على برامج ثابتة وخطط واضحة ، ستقضي على كثير من الفوارق الشخصية التي تفصل بينها اليوم . وعلى كل حال يحتاج النظام النيابي لـكي يسير سيراً مجدياً الى حزبين رئيسيين ، يتبادلان الحكم فيما بينهما ، ويشرف كل واحد منهما على الآخر ويراقبه مراقبة نزيهة فعالة » .

وعلى هـذه الوتيرة سار المؤلفان في الوزارة والعمـل والتوجيه والنظام الاداري والموظفين والقضاء . والـكتاب في جملته قطعة فنية فقهية رائعة ينبغي أن يقف على روحها كل مصري في هذا العصر .

مشكلة البطالة

تأليف حسين حمدي عضو مكتب البحوث الفنية في وزارة الشئون الاجتماعية ، نشرته مكتبة النهضة المصرية ٤٣٢ صفحة من القطع الاوسط — ١٩٤٤

لا ريبة مطلقاً في أن مشكلة التعطل هي أعظم مشكلات العالم كله ، ويهمنا من العالم أول ما يهمنا مصر بالذات . كانت هـذه المشكلة شغل المصلحين والسواس قبل الحرب ، وستصبح شغلهم بعد الحرب . وقد عالج المؤلف في هذا الـكتاب المشكلة من وجهة النظر المصرية فعمد الى شرح التعطل وتاريخه والأسباب التي تؤدي اليه والوسائل العامة في علاجه . كل هذا ليمهد لموضوعه فأجاد المدخل ، فأهله ذلك الى الاجادة في الموضوع . وقد شرح الجهود التي بذلتها الأمم الأخرى في مكافحة هذا المرض الاجتماعي الوبيل وتناول ما بذلته أمريكا وانجلترا والمانيا والسويد وروسيا ، ثم عطف الى مصر وحلّـل أسباب البطالة فيها ووصف الطرق التي تستطيع بها مصر أن تـكافح هذا الداء ، والنظم التي ينبغي أن تساير وجوه الاصلاح ليكفل لـكل مصري العمل اللائق بمركزه الاجتماعي ، ويضمن له ولأسرته حياة مستقرَّة هي في الواقع أساس الانتاج وأساس الحضارة .

ابن باجة

تأليف عمر فروخ : دراسات قصيرة في الادب والتاريخ والفلسفة

طبع بيروت ٥٨ صفحة من القطع الاوسط : ١٩٤٥

ابن باجة من الفلاسفة الذين لم يدرسوا الدرس الكافي بعد . شأنه في ذلك شأن رفيقه ابن طفيل . وقد عدد المؤلف المصادر التي رجع اليها في تأليف رسالته فدلَّ بذلك على الطريق التي يمكن لمن يريد أن يتوسع في الدراسة سلوكه اذا أراد . ومن أهم هذه المصادر مجموعة رسائل لابن باجة مخطوطة في مكتبة برلين العامة رقم ٥٠٦٠ ، ولا نعرف الآن ماذا فعلت هذه الحرب بها . وقد تكلم المؤلف في المغرب ومعالم تاريخه ثم في انتقال الفلسفة اليه ، وعقب على ذلك بترجمة لابن باجة وتكلم في فنه وخصائصه العامة ووصف كتبه وبسط فلسفته بسطاً سهلا مقبولا ثم نقل نماذج من فلسفته . فهذه الرسالة على صغرها كبيرة القيمة لمن يعنون بدرس آثار العرب وفنونهم وبخاصة ناحيتهم الفلسفية ، وهي من أحق النواحي بالدراسات المستفيضة .

رفاعة الطهطاوي

من سلسلة أعلام الاسلام تأليف جمال الدين الشيال نشرته لجنة دائرة المعارف الاسلامية

١٣٦ صفحة من القطع الصغير : القاهرة ١٩٤٥

هذا الكتاب بالرغم مما بذل فيه من مجهود كبير ظاهر في صفحاته ، يدل دلالة واضحة على ان تاريخنا القريب ، ونقصد به تاريخ النهضة العلوية يكاد يكون مفقوداً ، فلا تعثر فيه على غير مزق ورقع ، قلما تخرج منها صورة كاملة لرجل من رجال ذلك العصر . ويكفي أن نعرف أن أرمنياً كان يوماً ما وزيراً لمعارف مصر في عهد الاحتلال الانجليزي فأمر ببيع مخازن الكتب المترجمة والمؤلفة في عصر محمد علي فبيعت بالجملة لبعض الورّاقين الجهلاء فأرسلوها أباديد .

ولقد تتبع المؤلف حياة رفاعة الطهطاوي منذ أن نشأ الى أن أرسل مع البعث الأول الذي أوفده محمد علي للتعلم في فرنسا إماماً يفقه الطلاب في أمر دينهم ويذكرهم بالاسلام في بلاد الأعجام ، الى أن نبغ وبرز في العلوم والترجمة ، فأسدى بذلك للتاريخ المصري والأدب الحديث يداً لا تنسى وأحيا من ذكر رجل وقف حياته كلها على العلم وعلى مدّ آفاق العربية سنين طوالاً .

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الاسلام

تأليف عبد الحليم الجندي المحامي بأقسام قضايا الحكومة ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير
نشرته دار سعد مصر بالقاهرة : ١٩٤٥

لا أستطيع أن أحكم إذا كان كتّاب المقالة القصيرة في انجلترا هم الذين نهضوا بالأدب الانجليزي الحديث أم كتّاب التراجم . على أني لا أكاد أتصوّر الحالة التي يكون عليها أدب هذا الشعب العظيم إذا أخرجنا منه تراجم عظمائه التي خطتها براعة النابغين من كتّابه .

كلما فكرت في هذا ساورتني فكرة في ما سوف يكون عليه أدبنا العربي إذا تمت الترجمة لرجال العرب على الصورة التي ترجم بها لرجال الانجليز . وفي رجال العرب عشرات هم الى جانب العظمة أدنى من كثير من رجال الانجليز الذين ترجم لهم باسهاب، وترك رجالنا نسياً منسيًّا وسيرهم أشتات في بطون الكتب لا تكاد تقع طرفه من سيرة أحدهم حتى ينتقل بك مؤلفه الى شيء آخر لا يمت إليه بشيء إلاّ كما يمت سهيل للثريا . والترجمة لأبي حنيفة إمام الاسلام وصاحب القياس وبطل الحرية الفكرية إحدى الحلقات التي تنقص أدبنا العربي الصميم

ولقد مضى المؤلف الفاضل في ترجمته لرجل الاسلام العظيم مُضيّ الكاتب المرن الحاذق فعالج موضوعه معالجة العارف بدقائقه وتفاصيله ، وبأسلوب سهل رقيق ، أعانه على التصوير فهو قوي متدفق حيث يقتضي الموقف القوة والتدفق ، لين مرن حيث يقتضي الموقف اللين والمرونة . هذا ما جعل الكتاب قطعة فنية من أدبنا الحديث .

إيليا أبو ماضي

والحركة الأدبية في المهجر

تأليف نجدة فتحي صفوت : أول كتاب من سلسلة الشعراء المعاصرين
٩٦ صفحة من القطع الأصغر : طبع بغداد : ١٩٤٥

الشاعر إيليا أبو ماضي من شعراء التجديد المحدثين له روح في الشعر خاصّة به وأسلوب إن اشترك فيه كثير من شعراء هذا العصر الاّ أن روح هذا الشاعر تغلب أسلوبه دائماً . فهي تشيع في شعره وتدفع أسلوبه بطابعها ، فأسلوبه إذن مستمد من روحه . وهذا قليل في الشعراء . فان الكثير منهم من يغلب أسلوبه روحه ، فتذيع في شعره صفة الصناعة ، صناعة النظم ، لا روح الشعر .

ولقد قدّم للكتاب صديقنا الأديب الأستاذ روفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ببغداد فكانت هذه المقدمة خير تعريف بالشاعر الكبير . وتناول المؤلف بعد ذلك أدب أبناء العروبة في مهجرهم فحلّله أحسن تحليل وأبان عن مزاياه وعن نواحي التجديد فيه ، وعطف

الى جماعة الرابطة القلمية ومضى في تحليل شعر أبي ماضي من دواوينه الكثيرة وختم الكتاب بنص كامل « للقصيدة » العظيمة التي عنوانها « الحكاية الأزلية » وهي أشبه ما يكون بقصيدة شاعرنا المصري علي محمود طه التي عنوانها « الله والشاعر » لا من حيث الموضوع ولا من حيث الفكرة ولكن من حيث ان القصيدتان تحملان في ثناياها تأملاً عميقاً وفكرة تدور من حولها تمت الى الناحية الاستشرافية من الطبع الانساني .

ولا يسعنا إلاَّ أن ننقل للقراء مطلع هذه القصيدة الباقية ففيه تجمل الاتجاه الذي اتجهه الشاعر ابو ماضي فيها ، وان كانت القصيدة من أولها الى آخرها متعة شعرية رائعة :

كان زمان ، لم يزل كائنا   وحالة : ما برحت باقيه
ملَّ بنو الانسان أطوارهم   وبرموا بالسقم والعافيه
فاستصرخوا خالقهم واشتهوا   لو أنه كوَّنهم ثانيه
وبلغت أصواتهم عرشه   في ليلة مقمرة صافيه
فقال : اني فاعل ما اشتهوا   لعلَّ فيه حكمة خافيه
وشاهدوه هابطاً من علٍ   فاحتشدوا في السهل والرابيه
من القرى الكئيبة العارية   والمدن الضاحكة الزاهيه
تألبوا من كل صوب كما   تجتمع الأمطار في الساقيه
ويدفع الشيخ القوي عوده   وصار مثل الرمة الباليه
فتى مضى الفجر ولما تزل   روعته في وجهه باقيه
وتزحم الحسناء ممكورة   خلابة كالروضة الحاليه
دميمة تشبه في قبحها   مدينة مهجورة عافيه
فقال رب العرش ماخطبكم ؟   ما بالكم صرخاتكم عاليه ؟
هل أصبحت أرضكم عاقراً   أم غارت الأنجم في هاويه ؟
أم أقلع الماء فلا جدول   وماتت الطير فلا شاديه ؟
أم فقدت أعينكم نورها   أم غشيت أرواحكم غاشيه
أين الهوى ان لم يكن قد قضى   فكل جرح واحد آسيه

وهكذا يمضي الشاعر يعدد مطلوبات الورى حتى يقول رب العرش للورى « كونوا لما تشتهوه » فأخذهم الأسف لأنهم لم يجدوا جديداً بل وجدوا الأمر كما كان ، فالقبح كان الجمال ، والخير كان الطلاح ، وليس من نقص ولا كمال .

والفكرة يرمتها مأخوذة عن قطعة نثرية لكاتب إنجليزي لا أذكره الآن . ولكن الشاعر تصرَّف فيها ، فجلاها في حلة جديدة فيها كل الروعة وكل الجمال .

فهرس

الجزء الخامس من المجلد السابع بعد المائة